

الأعمال الكاملة

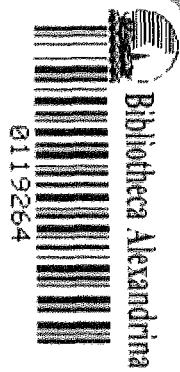
التحليبات

الأسفار الثلاثة

المجلد السابع



الهيئة المصرية العامة للكتاب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب التجلية

الأسفار الثلاثة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عفوك ، ورضاك ، يا غفور يا كريم يارب

.. فلما رجعت بعد أن لم أستطع صبراً ، وكيف أصبر على ما لم أحط به
علما ، لما اكتمل إيابي ، فرغت إلى نفسي استعيد واسترجع بيننا زمن المحن
يلوح ويبدو ، صرت في بوار ، لا تطمئن في دار ، ولا يستقر لقرارى قرار ،
صرت متحركاً وساكتاً ، بعد ان كنت أشبه بطير ، أطيّر من غصن إلى
غصن ، والغصن الذى انطلقت منه هو الذى يطير عنى ، عدت محدودا بعد
ان كنت طليقا ، وكل محدود محصور ، وكل محصور عاجز ، رجعت بعد ان
كنت الطالب والمطلوب ، العاشق والمعشوق فلم يكن رحيلي إلا بحثا عنى ولم تكن
هجرتي إلا منى وفى وإلى ، كدت أصل إلى أصلى ، كدت أنفذ إلى أسرار
النار والنور والليل والنهار والشمس والقمر والبرق ونسيم الصبا وخلق الندى
والرجع والصدى والغايات وسلمى وليل واختفاء الشفق وتعاقب الفصول ،
كنت قاب قوسين أو أدنى ، لكن غشى عيني ما يغشى ، لم أستطع صبرا ،
وكيف أقدر على ما لم أحط به خبرا . عدت بعد أن نعمت بأجمل صحبة
وأنعم علىّ مولاي بالرفقة ، بعد أن علمنى بعضاً مما لا أعلم . رجعت بعد
فراقى للأهل والوطن ، بعد أن قطعت الياب واخترقت الحجب وتساقطت
أمامى كل الحواجز التى لا تقدر على اجتيازها الطبيعة الإنسانية ، وأنا مفطور
على الرحيل الأبدى ، فلا استيطان لى اصلاً وأبدأ ، رجعت فهان علىّ أن

يتلاشى كل ما رأيت ، فعكفت ، ودونت ، لعل آتى مما رأيت بقبس ،
أحياناً وضحت ، وأحياناً فصلت ، وأحياناً رمزت ولوحت ، سترت وما
أفصحت ، لكننى بعد أن امتلكت بيانى . وكادت انتهى من الكتابة ، خطر
لى خاطر ، أن أفرغ يدى من هذا الأمر الجلل خوفاً من قلة التحقيق وعدم
قدرتى على التدقيق ، فعزمت ، ومزقت كل ما دونت ، شتته ، وذريته ،
وصار كأنه لم يكن ، صار نسياً منسياً ، صار أثراً مندثراً بعد. أن كان
مسطوراً ، وتساءلت ، هل آتى علىّ وعلى تجلياتى حين من الدهر لم تكن
شيئاً؟ وعلى أثر ذلك غربت نجوم عزائى وفقرت همتى ، ولفتنى ذكريات
دوامس ، وأصبح اللعاب مرا فى فى .. وفجأة ، عند ساعة يتقرر فيها
الفجر ، صاح بى الهاتف الخفى ...

يا جهال ..

انتهت ، فإذا بنور ساطع يشرق فى ليل نفسى ، نور ليس مثله مثل حتى
ظننت أنى عدت إلى مركز الديوان الهبى ، ثم رأيت فى بؤرته ثلاثة وعلى
مسافة خلقهم ثلاثة ، وفى منتصف المسافة بينهم واحد ، أما الثلاثة الأول
فيتوسطهم حبيبى وقررة عيني ورفيق تجلياتى وملاذ همومى ومقيل عثرانى ،
إمامى الحسين سيد الشهداء ، إلى يمينه أبى وإلى يساره عبد الناصر ، أما
الثلاثة الواقفون إلى الخلف ففلاجمهم متغيرة ، تارة أرى إبراهيم ومازناً
وخالدًا ، وتارة أرى أمى وإخوتى وعيالى ، أو جدتى وخالى وبعض أصحابى
وقلة ممن أحببت أو عادونى أو أشخاصاً عرفتهم لمدة طويلة أو لفترة وجيزة أو
وقعت عيناى عليهم فى لحظة مجهولة عند مرورى بمقهى أو تطلعى إلى شرفة .
أما الواحد الواقف فى المنتصف فعرفت فيه مولاي الشيخ الأكبر محيى الدين بن

عربي .. حدق إلى الحسين بنظر ثابت جميل فتعذر النطق عليّ وان تلوت في
خاطري :

ومن عجب إني أحسن إليهم
وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها
ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

أذن سيد الشهداء فتقدم مني الشيخ الأكبر محيي الدين ، خطأ نحوي وهو
في موضعه ، لم يفارقه ، كذلك لم أفارق مكاني وان صرنا في مواجهة ، نظر
كل منا إلى الآخر وقتاً طويلاً في صمت ، ثم غضضت البصر فانفصلنا دون
النطق بكلمة ، ولكن بعد أن فهمت الأمر وأدركت البشارة ، انخسر النور ،
ذهبوا عني ، غير أنني امتثلت ، فعكفت على إعادة تدوين ما كتبت ، فكان
هذا الكتاب الذي يحوى تجلياتي وما تخللها من أسفار ومواقف وأحوال
ومقامات ورؤى ، وهذا كتاب لا يفهمه إلا ذوو الأبواب ، وأرياب
المجاهدات ، أما إذا أظهر البعض استغلاق الفهم أو الملامة فإنني أتلو :
﴿ قال فما خطبك يا سامري ، قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ صدق الله
العظيم ...

التجليات الأولى
وهي
تجليات الفراق

تجلى ساطع

لو أعرف للفراق موطننا ، لسعيت إليه ، وفرقتة ..

تجلى التمام

.. بعد أربعين دورة من دورات الأفلاك ، تجلى لى أبى فى اللامكان ،
والزمان العجيب ، أفق مضموم غير منبسط ، وأبعاد مدركة بالحس فلا
ترى . وجدران مشيدة من مواد لا نعرفها ، ليست خشباً ، أو طوباً ، أما
السقف فمن شعاع أحمر ، درجة منه منعزلة متفردة ، يجلس أبى ، يواجهنى
بوضع جانبي ، تلك جلسة لم أعتدها منه . خطوات تجاهه بقلب خافق ،
واقبال دافع ، لكن عند حد معين ، توقفت ، عرفت اننى لا يمكننى الخطو ،
لم أحاول فوقفت ، يتجلى أبى فى ثياب دنيوية . قيص أسود من الصوف ،
بنظلون أسود ، شعره ناعم ، مسترسل ، طويل ، ملامحه شابة ، مستريحة ،
راضية ، وقدرت اننى أرى وجهه عندما كان فى العشرينيات ، خلواً من
التجاعيد . من سحابات الهموم ، تطلع: إلى وتطلعت إليه . شبع منى ، ولم
أرتو منه ، لكن دنا الأبدى ، فطلبت الكلام ، وإذا به ينطق ، يصل صوته
إلى مسامعى ، صوت ذو وتيرة واحدة ، خلو من التنعيم ، حدثنى بلهجة من

يدلى ببيان من المدياع إلى مستمعين لا يراهم ، وآخرين عنه لا يعرفهم ، قال فاستوعبت ، نطق المحبوب فدونت ..

« .. لا تقلق علىّ يا جمال ، لا تحزن ، كان موتي مرحاً فلم أعان ، انتهى الزمن القديم والحديث في سبع دقائق ، ما قالته أمك ، وما حدثك به أخوتي صحيح .. فلا يضيق صدرك ، المهم .. اخبرني ، ماذا انتم فاعلون ؟ »
وذهب أبي ..

شرح ذلك التجلي

.. من شرفة البيت أطل ، لوحث بيدي فرد وردوا ، مضيت وعند ناصية الشارع استدرت فرأيت ملامحه ترنو . وضعه السكوني ، كان يرقبني ، ولم يخطر ببالي الكليل خاطر ، ولم ينفذ نظري المحدود عبر الغيب ، فشييت ، وفي اليوم التالي سافرت ، وتنقلت ، ورأيت ، وقابلت ، ابهجت ، وعملت ، واستمتعت ، ومن حين إلى حين فكرت فيه وتذكرت ، وأخيراً عدت ، في المطار استقبلتني زوجتي ضاحكة مبتهجة ، استفسرت ، فقالت إن الجميع بخير ، كلهم بخير ، بعد وصولي البيت ، بعد أن قبلت طفلي النائم . وفردت الهدايا ، لاحظت تبعثر نظراتها فسألت . ترددت فوجفت ، ألححت فارتبكت ، ضاق صدري بصدري ، ألححت ، ألححت ، فتطلعت إلى بعينها الواسعتين ..
والدك .. تعيش أنت ..

تجلُّ خاطف

ولما بدا الكون الغريب لناظري ، حننت إلى الأوطان حين الركائب .

تجلى المستحيل

.. رأيت جمال عبد الناصر ، المكان محدد ، والزمان معين ، رأيت في ميدان الدقي . أول الثمانينيات ، التي كانت بعيدة ، وتولى الآن كأطياف ، من قبل لم أراه إلا مرة واحدة ، يعبر شارع رمسيس . أقف فوق الرصيف . مر أمامي . بدا قريبا جداً مني . خيل إليّ أنه رمقني من خلف زجاج سيارته . ومن قبل رأيت في يومي العيدين ، الكبير والصغير . لم يكن العيدان يكتملان إلا عندما نشب على أطراف أصابعنا ، ونرغب ظهور الدراجات البخارية . وسيارات الحرس ، ثم عربة المصورين ، ثم يهل على المحتشدين ، بفوديه مشيب ، تحيطه لمعة ، فلا ترى إلا هو . في تلك السنوات كان أبي يحمل أختي الأصغر ، ثم يطاول بعنقه الواقفين ، في هذا التجلي رأيت بلا خرس . بلا مصورين ، بلا ضجيج لكنه بدا شاهقاً خارج الزمان الأرضي . يفوق وجوده المادى بوجود غير مرئى . الناس حوله ماضون . لا يتبته أحد . لا يلتفت أحد . اندفعت تجاهه ، رأى اقبالى ، تحول بعينه ناحيتي ، ولاحظت أنه منهك ، متعب ، قلت محملاً صوتي معاني الحنين الذى لا يمكن تفسيره ، والتفسيرات المطلوبة . والكلام المدفونة ..

ايه .. كيف حالك .. مالك ؟

هل تعرفنى ..

ومن لا يعرف من لا يُعرّف ؟ ..

هز رأسه ، وهنا لاحظت أن المشيب طق في رأسه كله .

- إذن .. أنا في مصر ..

دهشت .. صاح ..

- ولكنى أرى مالا يجب أن يُرى .

توقف لحظة ، ثم بدأ ينطق كلماته من خزائن الحيرة والتساؤلات ..

- هل اخترق الاسرائيليون الجبهة ؟.

قلت : لا .

- هل وصلت جيوشهم إلى القاهرة ؟.

قلت : لا .

قال ، ماذا أرى إذن ؟ فسر لي ، اشرح لي ، تأخرتمونا في الزمان ،
وتقدمناكم ، أجبني ، أليست هذه أعلامهم ؟ أليس هؤلاء سياحهم ؟
أليست هذه كتبهم وصحفهم ؟.

قلت : هذا حقيقى ، اننى ضد ذلك ، ولكننى لا أجاهر خوفا وتقية ..

قال متعجبا : ماذا جرى ؟ هل انقلبت الآيات ؟؟

بدا صوته غريبا ، بدأ غير حقيقى ، سألت نفسى يوما ، أحقا عشت زمانه ؟
هل رأيت عنه وله ؟ لكن هاهو أمامى ، لاحظت أن الناس يتجمعون ،
بعضهم يمدق ، وان منهم من أدرك فولى ، ومنهم من عرف فدنا ، قلت
والجمع يتزايد :

سأشرح لك .. ولكن فوق كل ذى علم علمى .

تجلى الأمانى

قال تعالى : ﴿ وغرتكم الأمانى ﴾ صدق الله العظيم .

أمانى النفس حديثها بما ليس عندها ، صاحبها خاسر ، يلذ له الزمان
بها ، فإذا رجع مع نفسه لم يرفى يده شيئا ، فحظه كما قال من لا عقل له ..

أمانى أن تحصل تكن أحسن المتى

والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

تجلى الانتصار

.. سریت فی النور الأخضر، فی زمن الزهور المرجو، فرأیت نفسی أخرج من مدينة رباط الجمیل عند شاطئ المحيط؛ أرحل، وأعبر الحدود بلا راد أو مانع، دخلت سیناء الأبدية، ورأیت آثار الحرب القديمة، وهياكل الدبابات. واستعدت لحظات اختراق الشظايا الجسد الإنسانی، وصرخة الألم. وتذكرت أيامی عندما عملت مراسلا حربيا. أنقل إلى من لا أعرفهم ما یجرى. ما یقوم به أبناء الوطن، كان من الممكن أن أموت فی تلك الأيام التي لا یذكرها إنسان الآن، كنت سأصبح نسیا منسیا فی زمن السوء، وزمن التجلیات، استمر سریانی فی الشعاع الأخضر، عبرت سیناء، سلكت طرقا ممهدة إلى الدهر الفلسطینی. رأیت اللافات عریبة، والمقاهی، والضحكات، والحياة الیومیة ومررت بمدن بدت لنا كحلم لطول ما انزلت عنا، ورأیت بقایا حروف عبریة على لافتات صفراء تركت كذكرى وعبرة. كل شیء عاد إلى أصله، و«إن عدتم عدنا»، قال دلیلی، لماذا تقرأون ثم تنسون؟ هل نسیتم أن عدة ممالك قامت هنا تحت علامة الصلیب، واستمرت ما یقرب من قرنین، جیوش، وخیول برید، ونظم، وأجهزة دعاية، وأمراء، وأتباع، وفرسان الداویة، ثم زال هذا كله، لم یقل أهل ذلك الزمان بالأمر الواقع. تنهت إلى الغضب فی صوت دلیلی، تنهت إلى شحوب اللون الأخضر، إلى أن أوان التجلی ینذر بانتهاء، رأیت أبی، هو دلیلی ومرشدی، بدا متعبا، كما رأیته دائما فی الأعوام الأخيرة. السنوات التي لم أدرك فی حینها أنها أخیرة، انتهت إلى بناء قديم، مدخله غریب كأنه لا یؤدی إلى شیء، جذرانه من الدبش، خلو من النواقد، قال «أندرتكم ولم تتبهوا، أبديت الإشارة تلو الإشارة فلم تعقلوا، نهتكم فتجاهلتم،

حاولت فتعالميم ، لماذا الحزن ؟» .

ولى بوجهة الأسيان ، نأى صوته عنى ، تخفى نبراته وتضج . « على أى حال ، سيأخذ الحزن وقته ، ثم يولى كل شىء .. » هممت بالرد ، فبقل لسانى ..

تجلُّ يقينى

.. ما من شىء يثبت على حاله ، لوحدث ذلك لصار العدم ، كل شىء فى فراق دائم ، المولود يفارق الرحم ، الإنسان يفارق من دنيا إلى آخرة مجهولة بلا آخر، البصر يفارق العين إلى المرئى ، ثم يفارق المرئى إلى البصر ، الليل يفارق النهار ، والنهار يفارق الليل ، والساعة تفارق الساعة ، والدهر يفارق الدهر ، الذرة فى فراق دائم عن الذرة ، الجسد يعانق الجسد ثم يفارق ، يولج القضيب فى الفرج ، ثم يفارقه ، تثبت الأوراق غضة ، خضراء ، ثم تفارق الأعصاب ، الفكرة لا تلتحق بالفكرة ، والصورة لاتمكث فى الذهن ، يحىء شتاء ، ويحىء صيف ، ثم ربيع ، ثم خريف ، كل يفارق إلى حين ، كل فى فراق دائم ، الذات تفارق الذات ، حتى الأشياء التى ظننا أنها باقية أبدا ، حتى الأيام التى اعتقدنا أنها لن تتبدل قط ، ولن تتغير ، ولن تزول ، كل شىء ، كل شىء فى فراق ، كل شىء يتغير ، كل شىء يتغير .. فلنفهم !

تجلى المحاولة

.. تجلى لى عبد الناصر ثانية ، بدا غاضبا ، لكنه يفعل ، أمر بتكيس أعلام الأعداء ، وإزالته من فضاء القاهرة ، أمر بإلقاء القبض على جميع

أفراد العدو المتواجدين في الديار ، من سفير وأعضاء سفارة ، و مندوبين ،
وممثل هيئات ، وجواسيس ، ورسم باعتبارهم أسرى حرب ، أمر ، وأمر ، لم
يملك قلمًا وشعارًا يوقع به ، إنما طاف بالميادين يزعم ، يصيح ، فالوسائل
معدومة ، والحيلة واهية ، والقدرة قصية ، والوجه غريبة ، والسحن غير
معهودة ، والأيام غير الأيام ، والزمن خلاف الزمن ، كان باستطاعته أن
يبصر ما لا يبصره الآخرون ، أخذه الهول ، وتملكه جزع ، ما يراه لم يتخيله
يوما في صحو أو منام ، ما يدور قاس ، عبر النهر ، ولمح أطراف الأهرامات
وتجلى في الميدان الكبير ، رآه غيرى ، لم يصدقوا عيونهم ، ولى بعضهم
فراراً ، وامتأوا منه رعبا ، وتعلق به آخرون ، اعتقدوا فيه ، مشوا خلفه ،
بشوه ، شكوا إليه ، وعاتبته عجوز عمياء ادركت صوته ، فشا الخبر في
الخلق ، هروا مراسلو الصحف الأجنبية ، استقصوا ، واستفسروا وتحلقوا ،
ودنوا ، ظهرت الأخبار في موجزات الأنباء ، وقع الاضطراب في أسواق
النقد العالمية ، اهتز الدولار ، واضطرب الاسترليني ، وازدهر الين ، استنفر
الناتو والساتو ، وأعلن زعماء حيروت والمبابام وما شابههما ، إنها الحرب ! ،
من الحوارى خرجت النسوة حاسرات ، مصفقات ، ضارعات ، شاكيات ،
خرج جمع من هنا وجمع من هناك ، وأحجم قادة مراكز الشرطة عن اتخاذ
قرار انتظارا لما ستسفر عنه الأحوال ، ارتجفت صدور ، واينت قلوب ،
واختلف آخرون ، وفجأة خرج جند كثيف ، أعمارهم تدور حول العشرين ،
يقودهم ضابط يرتدى رداء أسود غطيس ، حلة غريبة ، مليئة بالجيوب ،
والطلقات ، يمر بمرحلة الزهو بنجمتى الرتبة التالية للتخرج ، والمخيلة بالزى
الغريب المستحدث ، أشهر خنجراً ، دفع عبد الناصر في صدره ، وأوماً ،
فتدافع الجند ، اقتادوه فتفرق الخلق ، نزل صمت بغيص ، ثقيل ، فأينت

الهموم ، وتدفتت مياه جديدة في أنهار البلوى ..

ترتيل

﴿ وشروه بثمان بنحس ، دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .
﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .
صدق الله العظيم

تجلى الكلد

رأيت محمد أحمد بن إياس الحنفي المصرى ، بدا مهيبا ، تفوح منه رائحة
الريحان الذى ينمو فوق المقابر ، بالضبط كما تخيلته وأنا أقرأ بدائع الزهور فى
وقائع الدهور ..

جتتلك من قبل ..

قلت :

أذكر عودتك فى عام الهزيمة .. لكنك تركتني .

قال :

ينأى الحكيم عن حميمه إذا أوحشت الدار ..

قلت :

القلب سليم ، والود بين جوانحي مقيم ..

سألنى ..

لكننى أراك مكدودا .

قلت :

مات أبى وأنا فى غربة ، لم أر اغماضة عينيه ، ولم أحمل جثمانه ، ولم

أشهد لحظة مواراته ، ولم أدر ، ولم أعرف ، ولن أدرك ماذا رأى في
اللحظات الختامية ، أو أى الصور أو الأطياف التى تجلت وتبدت له ..
قال :

هل لك علامة؟

قلت :

ثقل قلبى حتى موتى ..

قال :

يا حبيبي ، لا تحجبك الحيرة عن الحيرة ، أنى للمقيد بمعرفة المطلق .

قلت :

زدنى يا خلى ..

قال :

تجلّ وتجلّ ، ان النائم يرى ملايراه اليقظان !!

ثم ذهب ..

تجلّ مغربى

.. تجليت لنفسى وأنا على سفر ، أقف فوق رصيف قطار ، أدخل إلى
القطار ، أرى أبى فوق الرصيف ، إنه أكبر سنا من أى مرة تجلى لى فيها ،
غائر العينين ، تلك النقطة من العمر عندما يمتزج سواد العين ببياضها ،
انحنى ، امسك طرف جلبابه بأسنانه ، يحمل عدة حقائب ، كلها مليئة
بالكتب ، صحت ..

أبى .. هل سأحتاج هذه الكتب كلها ..

أوماً ، قرأت شفقتيه .

أنت على سفر طويل .

ثم تلفت حوله ، بدأ حملة ثقيلًا ، والحمل يخفى ، فتعجبت ، ثم تحرك القطار ، بعدت ، ولم أعد قريبًا منه ، ازداد النأي ، وبدأ زمن الفراق والفقْد من قبل أن أعد له العدة ، حلت ظلمات ، ثم تجلى أبي داخل قصر قديم منمنم الجدران ، فيه نخل وصبار وريحان وزهور صفراء لم نعهدها ، قصر لأحد أقاربه ، أحد أعمامى ، من أين عرفت ؟. لا أدرى .

حال بينى وبينه الحاجز اللامرئى ، حوله بساط من سندس أخضر ، وفي السماء ألوان لا أسماء لها في لغات دنيانا ، أخبرنى أن المكاشفة لم تتم بيننا في دنياه ، رحل وأمور عديدة لا نعرفها عنه ، قلت ، اضرب لى مثلا ، فقال : كان لى أخوان ، مات أكبرهما في طفولته ، لسبب لا نعرفه ، ومات الآخر في بداية فتوته عندما كان يسحب بقرة ، جرجرته فجأة ، سحلته ، قلت ، أنت لم تقص علينا ذلك . قال ، وانتم لم تهتموا ، ولم تسألونى ، ثم قال ، دقق النظر هناك تستطيع أن تراهما ، ولكننى عبثا حاولت أن أرى ، عبثا حاولت أن أسمع ، انتهت إلى تزايد المسافة بيننا ، واحتويت القصر الذى يحتوينى ، كان القصر مغربيا ، والمنمنمات اندلسية ، ولى بوجهه عنى ، قال كمن يحدث آخرين ، كنت أباكم ، وأنتم أبنائى ، شبيتم ، وأصبحتم رجالاً ، وفتحتم بيوتاً ، ولم تعرفوا شيئاً عنى .

شرح

فما للإنسان يتجاهل ويعمى ، ويمشى في دجنة ظلما ، حيث لا ظل ولا ماء ؟.

تجلى الأرض والزمان المتغير

.. تلك رقعة محدودة ، عند المفارق ، وآه من المفارق ، فى طريقى اليومى الذى اعتدت أن أسلكه ، وطنتها أقدام لم أرها ، وستخطو فوقها أقدام لاتزال فى رحم الغيب ، كانت رمالا وصخرا ومن قبل لها ، والآن مرصوفة بالأسفلت ، وبعد بناء مدينتى أصبحت مروية ، نضرة بالخضرة ، ملاعب للخيل ، ثم صارت متزها حتى أوائل القرن الماضى ، نما العمران ، وتكاثرت المباني ، وجاء الترام ، لكن طال الوقت أو قصر ، لن تنصب المباني إلى أبد ، ولن تبقى المفارق ، ستعلو مبان وقد لا تشيد أخرى وربما انطلق منها الإنسان يوما إلى الفضاء الخارجى ، يلاحق الأفلاك فى مساراتها ، ربما داسها أبى مرارا فى سعيه اليومى ، وقد يدوسها أحد أبناءى ، أو واحد من أحفاد أحفادى ، إنسان منحدر من صلبى لن يسمع عنى ، ولن يدرك أبدا ما عانيت فى زمن السوء ، لأن اسمى سيتساقط كورقة جافة من شجرة الأصل والسلالة ، كما تساقط الذين سبقونى من أجداد جدودى ، آه لو تجلى لى أحدهم ، عاش منذ آلاف الأعوام ، من هو؟ كيف عاش؟ بمن ارتبط؟ اصغى إلى من يقول ، وان عدتم عدنا ، أدرك ان العودة محال ، لأن الدنيا فى فراق دائم عن الدنيا ، أبصر رقعة الأرض فى سفرها عبر الزمن الذى لن أعيشه ، أرى تدفق الحركة فوقها بعد فراقى النهائى ، وأتمنى لو أثبت رسالة أو علامة فوقها لمن سيطؤها ، لمن سيعبرها ، لعل وعسى ..

تسجيل غامض

رأيت عبد الناصر ، مكشوبا ، حاسرا ، مهذلا ، أقبلت عليه وعندما تكلم ، تكلم بصوت أبى .

قال لى : نعم ..
قلت له : نعم ..
فبش وهش لفهمى عنه ، وعندما أدركت سر فرحه ، قلت له : لا ..
فارتجف ، وتغير لونه ، وشك فيما عنده .
قال لى : كيف وجدتم الأمر؟ .
قلت له : سوء ما بعده سوء .
ضُرب بينى وبينه حجاب رقيق .
قلتُ له : لماذا ؟ .
غمغم ، وتمتم ولم يجر جوابا .
قلت له : لماذا ؟ لماذا ؟ .
شغل بنفسه عنى ، فقلت عاتباً : لماذا ، لماذا ، لماذا ؟ .

تجلى الحزن

« .. هذا فراق بينى وبينك » :

تجلى الشهيد

رأيت نفسى فى مركب بلا شراع ، تطلعت إلى موج البحر ، فجأة رأيت
شخصاً على بعد ، مشى على وجه الماء ، لمحت طريقة خطو أبى ، تكلم
فأصغيت إلى صوت صاحبي الذى استشهد يوم الجمعة ، التاسع عشر من
أكتوبر ، فى الحرب التى قيل إنها آخر الحروب ، عجبت واضطربت فارتج
على ، الجسد لأبى ، انحناءة كتفيه لا أخطئها أبداً ، أما الصوت فلصاحبي
الذى عرفته ، واحتميت معه بظلام الليل خلف الكئبان ، عندما عبرنا الخليج

والقناة إلى خطوط الأعماء ، قال ، أنا غاضب ، قلت له ، لماذا يا مقتول
بشظايا العدو الذى أصبح صديقا ؟ قال ، لأنك لا تنظر على امرأتى وعبلى ،
ثم اختفى ، رأيت نفسى ماضيا لزيارة أسرة صديقى الشهيد ، دخلت البيت
بعد غيبة سبع سنوات ، شممت رائحة استقرار ، طبيخ متقن وأثاث فى الظل
ومبيدات حشرية وعطر ، تقدمتني زوجته ، بدت وجهها متوردا ، رأيت حول
الجفنين ظلال المساحيق بدلا من العتامة التى أحاطتها عقب رحيله الأبدى ،
لاحظت خلو الجدار المواجه من الشهادات وبراءات الأوسمة والنياشين ،
جاءت الابنة ، أصبحت عروسا شهية ، ترتدى الجيتز ، وزهرة صناعية
تتوسط شعرها الناعم . اتصل الحديث ، فدار حول نظام المواعيد الجديدة ،
وازدهام النوادى بالأعضاء ، واختفاء مساحيق الغسيل المحلية ، وظهور
المساحيق الأجنبية ، وخلو الصحف من الأخبار المثيرة ، وظهور مكاتب
المستثمرين الأجانب فى الضاحية لاكتظاظ وسط المدينة ، وارتفاع أسعار
الإيجارات ، وتعطل التيار الكهربائى أحيانا . قتت وسلمت وانصرفت ،
مشيت بين الناس غير مصغ ، كأننى أدرك فراق صديقى الأبدى أول مرة . لم
يأتيا على ذكر الكتاب الذى أصدرته عنه ، وأرسلته إليهما ، رأيت خلو الدنيا
منه ، خلال السنوات السبع التى خلت تجلى لى مرات ، أحييت ذكراه بينى
وبين نفسى ، وعندما أصبح العدو صديقا ، وتبدلت الأحوال ورُفرت
الأعلام التى طالما نكسناها ، تخيلت ردود أفعاله ، وصار عزائى أن انفعالاتى
ترديد لانفعالاته ، مشيت ، مشيت ، وتجلت لى الماضى القريب ، تجلى صاحبى
فى ثيابه القتالية ، اختراقه خطوط العدو الليلية ، مخاطرته ، مفاجآته ، رأيت
مقتحا ، ورأيتة منسحبا ، لكن غيرى لم يروه ، ولم يلمحوه ، ولم يذكره ،
وأصغيت بقلب تكأكات عليه الكروب ، وتعاضمت به النوب ، قلب أصبح

مدحوض الحجة ، وخفت أن يتجلى لى ثانية فأنبئه بما لايسره ، فتمنيت
الفراق .

شرح

﴿ .. وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم ، فهم
لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون .. ﴾ .

وَمِنْهَا
التجليات الديوانية

بحر البداية

.. لما فهمت ما فهمت ، وعرفت ما عرفت ، وصرت إلى ما صرت إليه ، لما أدركت أن العين تبصر ، والتناول شاسع ، لما أيقنت أن أنفاس الإنسان عزيزة وان النفس الذي يخرج لا يعود ، وانه لا ينبغي أن يصرف إلا في الأنفس والأعز ، لما ايقنت أن ما فات لن يرجع ، وإن كل شيء يتغير ، وفرق عظيم أن يقرأ الإنسان ذلك . وان يعيشه ويكتوى به ، لما أطلت التأمل والنظر في الحول ، والعصر ، والدهر ، والثواني ، والدقائق ، والساعات ، والأيام والأسابيع والشهور والفصول والسنين ، لما تغيرت الأحوال المحدقة بي ، رحل أبي ، وأولج قاتلي قلميه في موطني ، ووطئ الأرض التي أول ما لامسها رأسي . ومد ظلاله داخل بيتي ، وهدد بالدنس عشي ، لما ساءت الأحوال ، واكفهر العمر ، لما انحسر ظل أبي ، لما ولما ولما .. لم أنكص على عقبي ، قاومت وهني ، وغالبت عظيم همي بعد نأي لذاتي ، تأججت ويا للعجب رغباتي ، فعدلت العزم على أن أرى ما لم يره بشر ، وأن أعيش ما لم ينظر على قلب إنسان ، أن انجلى ، وأنجلي ، ثم أنجلي ، وضعت نصيحة شيخى ابن إياس كحلقة في أذني ، عندما قال لي : تجلّ وتجلّ ، ان النائم يرى ما لا يراه اليقظان ، وهكذا سمعت وسعيت حتى جئت إلى بحر البداية . وقفت عند شاطئ ، اصغيت لعل أسمع ، خدقت لعل أرى ، أرهفت

. لعلى أشعر ، طال انتظاري ، طال وقوفي ، حتى كدت أنثني ، كدت أرجع ،
وفجأة أتانى الهاتف ، صاح باسمي .
ياجمال ..

.. عند اللحظة التي يتقرر فيها الفجر وليال عشر ، خفق قلبي في صدري
خفقة كاد ينخلع منها ، هلعت ، ولم ألم نفسي ، إن الإنسان كان هلوعا ،
خاصة إذا جاءه الهاتف الذي لا يأتي إلا في اللحظات الجسام لينبئ بالجلل
من الأمور ، أو لينذر بأمر عظيم ، لكنه لا يبوح ، لا يفصح ، بعد أن
تماسكت ، وللمت نفسي ، وهدأت روحى ، جاءنى صوت عجيب ،
غريب ، مجهول المصدر ، فكأنه صادر من الجهات الأربع الأصلية .
ماذا تبغى ؟ .

لم يتلجلج لسانى برغم اضطرابى ، قلت ..
ياحسرة على ما فات ، يعذبني ما انقضى ، وما ينقضى .. أما من
وسيلة ؟ .

ولماذا الآن ؟ .

قلت :

ماجرى هزنى ، اطلب الفرصة .. أريد أن أرى الماضى .. أن أرحل إلى
المستقبل ..

قيل لى بجنو :

ولماذا الآن ؟

تسميم أول

قلت ، صباح اليوم التالى لعودتى من سفرى سميت إلى زيارة أبى الزيارة الأولى ، أبى الذى كان ، كان يمشى ، ويسعى ، ويحن ، ويروى ، ويتألم ويستفسر عما نريد ، ثم يحاول أن يلبي ، لم أكن أعرف مثواه ، لأننا فى المدينة لم نبن مأوانا الأبدى ، ليس عن تقصير ، أو غفلة ، إنما عن قلة حيلة ، وصعوبة أحوال ، صحنى شقيقى ، وجارنا ، هما من رأيا لحظة المواراة الأخيرة ، شهدا المعول يزيح الكومة أثر الكومة ، سلكتنا الطريق الذى يحزم المدينة ، يمتد خارجها ويؤدى إلى مداخلها ، وعند نقطة محددة رأيت منعطفا على ناصيته حوانيت قديمة ، نجار ، والثانى لإصلاح إطارات العربات المعطوية ، والثالث لبقال فقير ، والرابع لأدوات البياض والطلاء على مسافة قريبة توجد قاتن حرق الجير ، والخامس لبائع خبز ، والسادس مغلق ، والسابع بلا ملامح ، لم أدر محتواه ، ولجنا ممرا يغفل عن رؤيته العابرون ، ضيقاً مترباً ، مهجوراً . به يبدأ طريق تأبى المركبات دخوله ، حده الأيمن جدران صفراء ، صامته ، تتخللها أبواب صدئة ، مغلقة ، فى كل لحظة ، بعد كل خطوة ، توقعت أن يتوقفا ، أن يشرآ إلى مدخل بعينه ، لكنها استمرا ، وتبعتهما ، بعد مسيرة عشر دقائق حان الحين ، عرجنا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار ، وقفنا عند مدخل فناء مفتوح ، أشار أخى إلى مساحة من الأرض ، مكشوفة بلا سور ، رمال غامقة ولا نبات ، لا صبار أو ريحان ، قال إن أقاربنا أصحاب المدفن شيدا عينين جديدتين ، لم يحددا مساحتهما بسور ، أبى أول الداخلىن ، الراقدين ، دنوت ، تلوت ، بكيت ، ابتعدت ، رحلت وعدت . أحاطا بى ، قلت لنفسى ولم أقل لمخلوق .. أليس فى هذا

جور؟ أليس في ذلك قسوة؟ هذا العمر ، تلك المعاناة الطويلة ، تلك الأيام والليالي ، هل تنتهى هنا وتصبح نسياً منسياً؟ هل يبهت أثره ويضيع خبره هنا؟ ، هل سيكون كأن لم يكن؟ أمعنت توغلت ، فطلبت المسعى ..

طرح

ولماذا . لماذا الآن؟ .

تتميم ثان ..

قلت غير هيباب أو وجل ، إننى عشت زمن الحرب ، واجهت الموت ، رأيت استقرار الشظايا بعد مروق . رأيت تفجر المباني ، والآليات ، رأيت آلام الجراح لحظة الميلاد على الوجوه ، افزعنى مرور المقاتلات الاعتراضية والقاصفات الأرضية على ارتفاع منخفض حتى إننى لمحت ألوان خوذات الطيارين ، رأيت امرأة ، مازلت أذكر ملامحها ، وطول قامتها ، وسواد ثيابها ، وخضرة الوشم على ذقنها ، تعيش قرب الماء ، فى تلك الأيام كان للماء معنى ، الخط الفاصل بيننا وبينهم كان عند الضفتين ، كان للماء معنى ومغزى ، إذا ارتفع رأس أكثر مما قدر له نالته رصاصات القناصة ، كان الوصول إلى الماء مغامرة ، وبطولة ، وعملاً مرموقاً ، أما تزويد الجند المرابطين هناك بالمؤن فلا يقدر عليه إلا كل ذى قلب جسور ، فى المنطقة الزراعية عاشت أم ضيف الله مع أولادها الخمسة ، حفرت خندقاً بيديها ، محاوراً للبيت المبنى من طين وعيدان بوص ، أسدلت على مدخله ستارة من قماش

أصفر ، لماذا ؟ حتى لا يجرحهم إنسان أثناء الحركة أو شن الغارات ، وتبادل القصف المدفعي ، هكذا قالت لي .
ولّى هذا كله ، محي ، غابت الصور ، كأن شيئاً لم يكن ، فهل يحو الزمن الزمن ؟ ..

فصل

قيل لي ، إن المطلب وعمر ، والمبغى عسير ، لكن طريقك ليس بمسدود ، عليك بالديوان ، قلت .. أى ديوان ؟ قيل لي ، لا تكن عجولاً ، أمور كثيرة لا تعرفها ولو تكشفت لك الثمرات والنتائج ، بدون اعدادك للعدة لحل بك كرب عظيم ، اصبر يا جمال الصبر الجميلاً ، من صبر وعمل نبت وأعطى ، تجلياتك وعرة طرقها لم يسلكها أحد ، اسع إلى الديوان الموكل بتدبير عالمنا المحدود ، اسع إلى رئيسة الديوان ، فإن فهمت فقد أدركت ، وأن أدركت فقد وفقت .. ثم لفتي صمت ..

من مدائن التجليات

بعد طول انتظاري لعل وعسى ، بعد هبات ، قررت الخوض في بحر البداية ، لم أخش الغرق ، ولم أرهب الليل ، أبحرت وطال البحارى ، لقطع المسافات في البحر زمن يخالف زمن البر ، فكيف الحال في التجليات ، حيث تتجاور وتتصفر البدايات والنهايات ، لم أدركم انقضى عندما تجلت لي مدينة يغمرها الضوء الهادئ ، يلفها البحر كما يلف البياض صفار البيضة ، أما

الضوء فليس بنهارى ، وليس بقمرى ، وليس وليس .. عرفت وأنا أدنو من أبوابها أن الليل لا يلج النهار هنا ، وأن الأوقات لا تتغير كما عهدت ، إنما تتجاور متوالية ثم تكرر كرتها ، تجلى لى بناء شاق ينبثق من منتصفها لكننى لم أميز التفاصيل ، طفت بأسوارها الشاهقة والتي يعجز البصر الكليل عن رؤية نهاياتها ، بدا لى باب صغير تسبقه قنطرة صلبة من فيروز ، ولجته ، ذهل لى ، وارتبك نبضى عندما رأيت مبانيها من أطراف ملونة حتى ليخطر للعقل المحدود أن يواصل المشى فيمكنه اختراقها ، لكنه يفاجأ بصد لطيف ، هين ، حازم ، لم أستطع إلا المشى فوق الأرصفة البلورية ، عند المفارق تتقابل اصداء الأضواء وظلال الألوان ، أما المناخ فستمرى ، لا يتبدل ، لا يتغير ، امتد الشهر الذى يبدأ فيه الخريف ، أصبح أزلاً ممدوداً ، بدايات الخريف ، حيث لا تتطوى النفوس كما يحدث فى الشتاء ، إنما تتأهب لذلك ، بداية انحناء ، فلا بسط ولا انطواء ، لا حر ولا برد ، لا وضوح ساطع ولا قتامة مقبضة ، رأيت أسواراً قصيرة مبنية ، لبناتها من شعاع ، لبنة من ضوء ، ولبنة من ظلال ، ولبنة من شفق ، ولبنة من ألق ، أو هكذا خيل إلى ، فداركى مقيدة بما عرفته وخبرته ، وما يلقي فى صدرى وقلبي من معارف جديدة إنما يلقي بحسبان ، بعد الخطو خطوات عرفت أن المسافات تضيق ، لم أدركم مر على ، كم انقضى ، لكننى لم أتردد ، لم أفكر فى النكوص ، قلت لنفسى إن الممكنات لا تنتهى ، فما بالى باللاممكنات ؟ بعد حين رأيت برجاً مستديراً من ضوء أخضر ، يتخلله باب مستطيل فتمه دائرية ، موارد ، بعد اختلاس النظر لاح لى طريق من ظلال . لكننى لم أدن . توقفت . انتظرت . لم يطل وقوفى إذ نوديت ..

الفصاح ..

.. نوديت من مكان خفي ، فتأدبت في وقتي ، وأطرقت . ماذا تريد ؟ .
قلت : اسمي إلى رئيسة الديوان ..
ماذا تريد ؟ .

قلت : همى كبير ، لكنني سأؤجز ما أرجوه ، ان استعيد ما لا يمكن استعادته . قيل لي ، مطلبك عسير .. لكنك ما وصلت إلى هنا إلا بالمحاولة .
اختفى الصوت ، خطوات عبر البرج ، كلّ بصرى عن احتمال البريق وتردد الأضواء والألوان التي لا اسم لها في عالم الممكنات ، مشيت ، وبعد خطوات أدركت أن الموجودات كلها تتخاطب ..

فائدة

.. في صحيح الأخبار ، ما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة شفقا من الساعة ، وكان عليه السلام راكبا على بغلة فنفرت عند قبر لما سمعت عذاب صاحبه حتى كادت أن تلقيه ، وقال في جبل أحد ، هذا جبل نجبه ومحبنا ، وسبح الحصى في كفه ، وهذا حجر سلم عليه ، ولا تقوم الساعة حتى يحدث الرجل فخذة بما فعل أهله ، وقالت الجلود ، انطقنا الله الذى أنطق كل شىء ، وقد أخبر تعالى ان الظلال ومن فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس فما ترك شيئا من العالم إلى درجة الإنسان إلا وقد أخبر عنه إنه يسجد لله ، قال : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

تتميم

نوديت ..

يا جمال ..

فتوقفت . قيل لى ..

هل جاهدت ؟ .

قلت : حاولت ..

عبرت الميدان مثمدا ، تخللت أشجاراً من دكريات متداخلة ، وصوراً متدلّية ورغبات منسية ، وامنيات لم تتحقق ، أدركت اننى أوغلت وإن الرجوع محال ، لم يتبق لى إلا المضى ، أدركت - والإدراك يبرق فى قوادى كما تباغتنا روائح الأيام الحلوة المولية - إننى قاب قوسين فتحملت غربتى ونأبى وتصبرت ، وهنا تجلى لى طريق ضيق أرضفته من مسك أبيض ، وجوانبه من عنبر مقررور أو هكلدا شبه لى ، عند نهايته نوديت : هل طلبت العلم ؟ .

قلت : حاولت ..

نزل برد وسلام وسكون . فتجلى لى ما تحويه المباني فى جملمته وليس فى تفصيله ، ما من حركة فى الدنيا إلا ولها مقابل هنا ، ما من جراد أو نبات ، ما من ثابت أو متحرك إلا وله صورة ومثال ، ما من صوت إلا رجعه هنا ، حتى لحظة تماس الموجة بالموجة أدركت لكننى لم أر ، لكننى عرفت أن منازل المدينة مسكونة ، كل منزل اختص بشىء ، فمترل للصدى ، ومترل للصوت ، ومترل للقلوب ، ومترل للحجب ، مترل للزيادة ، ومترل للنقص ، مترل للفقْد ومترل للجمع ، مترل للوجدان ، ومترل لرفع الشكوك ، ومترل للوجود المخزون ، ومترل للقهر والحسف والعسف ، ومترل

للآيات الغريبة ، ومنزل للاستعداد والتأهب ، ومنزل للمباغثة ، ومنزل
للسماح والمنع ، ومنزل للفضل ، ومنزل للإلهام ، ومنزل للحظات الوداع ،
ومنزل للحظات الأخيرة لرؤية الأحبة ، ومنزل لعبور الجسور ، ومنزل
للحنان ، ومنزل للرأفة ، ومنزل للشكر ، ومنزل لتعانق نظرات العشق ،
ومنزل لتلامس الأيدي برقة ، ومنزل لتلاحم الأيدي بقوة ، منزل للشكر ،
ومنزل للضر ، منزل لليأس ، منزل للنصر ، ومنزل للهزيمة ، منزل للريح
ومنزل للخسارة ، منزل لمصادر الضوء ، ومنزل لتألق العيون ، ومنزل
لارتجاج الجفون ، ومنزل لانفراج الشفاء ، ومنزل لمفارق الطرق ، ومنزل
لمحطات المسافرين ، ومنزل للمودة ، ومنزل للستر ، ومنزل لرفع الضرر ، منزل
للسعداء ، ومنزل للأشقياء ، منزل للغرباء ، ومنزل للتائهين ، منزل للحجر ،
ومنزل للعذاب المحسوس ، منزل للنسب ، منزل للأعراض والتائم ، منزل
للأوضاع ، منزل للكميات ، منزل للهواجس ، والأبصار ، ومنزل لخفقات
القلوب ، منزل للميلاد ، ومنزل للموت ، منزل للعجز ، ومنزل للكل ،
منزل لما كان ، ومنزل لما يكون ، ومنزل لما سيكون ، ومنزل لما لن يكون ،
منزل يضم صور القارات ، ومنزل للمحيطات ، ومنزل للأشجار ، ومنزل
للخلجان ، ومنزل للشعاب ، ومنزل للشم الرواسي ، ومنزل للوديان ، ومنزل
للكهوف ، منزل للمدن التي كانت ، ومنزل للمدن التي ستكون ، منزل
للقرى القابعة ، ومنزل للقري المنبسطة ، منزل للنواصي المنشرة ، منزل
للمداخل المؤدية ، منزل للضواحي ، والميادين التي قامت يوما وستقوم ،
منزل للمنعطفات الضيقة ، والحارات ، والأبواب ، ودرجات السلام ،
ومنزل للأبواب التي يسكن خلفها الأحبة ، منزل للأقبية ، ومنزل للقباب ،
ومنزل للأبراج ومنزل للقلاع ، ومنزل للمخابئ الحصينة ، ومنزل للمعابد ،

ومنزلة للأركان الظليلة ، ومنزلة للحدائق ، ومنزلة للأمسيات ، منزل للأيدى
المسكة بالزهور ، منزل للقاعات الصدفية ، ومنزلة لما لن يتكرر ، منازل لا
ثبات لها ، ولا ثبات لأحد فيها ، أدركت المنازل كلها فى جملتها وليس فيها
تحويله ، ولم أتوقف ، لم أسمع ، غير إنى فرحت واستبشرت ، نوديت .

ياجمال ..

قلت : نعم ..

قيل لى : هل أدركت ؟ .

فقلت : ياويلتنا على ما فرطت !!

وصل ..

.. حل رضا ، غمرنى فسكت ، عشت لحظات ما بعد سقوط المطر
الرداذى على الضواحي النائية المورقة بالخضرة ، ايقنت بقرب وصولى إلى
بعض مما أسعى إليه ، عالمنا الأرضى ملخص ، موجز هنا ، البداية والنهاية ،
لا ماضى بعيد ولا مستقبل نالى ، ما كان وسيكون فى تجاور ، ما لا كان
وسيكون ، ما كان ولن يكون ، كل شىء فصل تفصيلا ، فجأة انجلى
بصرى ، فرأيت الديوان ، لاح لى بعيدا لحظة اقترابى ، بدا شاهقا ليس
كمثله شىء فى دنيانا ، ولما رأيت ، رأيت من الجهات الأربع الأصلية ، فكأنى
انظر إليه بئانية عيون ، ألمت بالتفاصيل فكأنى أراه من أعلى ومن أسفل ، لم
ألق ما يسعنى من حروف الكلام ، أقصد كلامى ، حاول ذهنى أن يشبه بما
يعرف فاستدعى مبانى النصب التذكارية ، لمن ماتوا فى الحروب ولم تعرف
أسمائهم أو عناوينهم ، واجهات المعابد الأسبوية المعقدة التراكيب ، مداخل
الممرات الجبلية ، أدركت أن المركز هنا ، والمحور هنا ، لم يتادنى صوت ، لم

يروغنى هاتف مفاجئ ، لم يرعبنى لمس ، إنما خيل إلى أنني محمول ، وأنتى أطفو فى فضاء غروبى بلا غمامات ، وتحى قباب وأهله وصلبان وأسنة ، قيل لى إن كل شيء هنا ، أيامك وأيام غيرك ، لكن شيئاً واحداً - إن جاز تسميته بشيء - لا يمكنك رؤيته مهما حاولت ، لن تدركه مهما جاهدت . لن تصل إلى كنهه مهما عانيت ، هجم على ولفنى أسى إنسانى كثيف ، وقبل أى بادرة استفسار منى نوديت -

يا من كان ، يا من تكون ، ولن تكون ..
اطرقت ، إذن .. سأقف بين يدى الطاهرة ، حامية النقاء ، ورئيسة الديوان ، والعضوين النورانيين .

شرح

الديوان مركز الهيمنة على عالمنا الأرضى ، منه تتقرر الخطوط العامة للمصائر ، وتتحدد الاتجاهات الرئيسية ، وما ينقضى يصير إليه ، بدءاً من الحوادث الجسام حتى همسات طفل لم يخبر الدنيا بعد ، ينعقد مجلسه مساء كل سبت دنيوى ، مدته تبدأ بعد غروب شمسنا حتى شروق الفجر ، خلالها يتقرر ما سيكون فى سبعة أيام دنيوية مقبلة وتنظر المظالم ، وتتقرر العقوبات ، وينصف الحجر من فائقه ، لهذا يفزع المكومون ، متوسلين برئيسه الطاهرة ، يهتفون : يا رئيسة الديوان ، ولا يضل نداء طريقه إليها مهما كان مصدره ومكانه ، وزمانه ، تصغى رئيسة الديوان ، السيدة زينب إلى أنين المخلوقات جميعها ، حتى أنين الشجر من لسع الرياح ، يساعدها عضوان ، عضواً إلى يسارها ، سيد شباب أهل الجنة الحسين عليه السلام ، وإلى يمينها شقيقه الأكبر ، من مات مسموماً ، طيب القلب والسيرة ، الحسن عليه السلام

الديوان

.. ولجت كئيبا من العنبر الأبيض ، بهرنى ضوء ، سرى فى بصرى
ظاهرا ، وسرى فى أعصابى باطنا ، سرى فى أجزاء بدنى ، وفى لطائف نفسى
أصبحت عينا ، أصبحت سمعا ، فرأيت بكلى ، لم تقيلىنى الجهات . فى
الوسط تجلّت لى رئيسة الديوان ملتحفة بوشاح من الندى الذى ينمو على
حواف أوراق الزهر ، إلى يسارها الحسين ، إلى يمينها الحسن ، بين أيديهم ما
يشبه اللطائف الكبار ، أخذنى البهت ، ثم الاشراق عندما رنت إلى رئيسة
الديوان ..

ما وراءك يا جمال ؟ .

قلت :

وجود محدود ، ورغبة فى وجود غير محدود ..

قالت :

ما الذى دعاك إلى الخروج ؟ .

قلت :

حيرتى ، وألمى ، ورغبتى فى الولوج ..

وهنا التفت إلى سيد الشهداء ، صريع كربلاء ، فانشرح صدرى ، وتيسر

مرى ، وتهلل قلبى ، وحشت نفسى عن الاندفاع إليه حشمة وتأدبا ورهبة .

قال لى : ماذا يؤرقك ؟ .

قلت : ما كان وما سيكون .

لم أتمالك نفسى ، فقلت مندفعا وما من حجاب بيننا ..

كان أبى يحبك ..

لم يكسفنى لاندفاعى .. أوماً ..

أعرف ذلك ..

قلت : أنت عقب حياتى الأول ، عشت بجوار مرقد رأسك آمن أيامى ..

أوماً : أعرف ذلك ..

قلت : كنا نصلى فى مسجدك العيدين ، وهناك رأينا عبد الناصر ومواكبه

فى بدايات النهار ..

هز رأسه : أعرف ذلك ..

تشجعت فقلت : كان أبى ملازماً لضريحك ، دائم الطواف حوله ، لم يتقطع عن صلاة به إلا لمرض أو سفر أو غم عظيم ، كان يستجير بك فى أيام الشدة ، وكان يقول لمن يرضى عنه إنه سيقراً الفاتحة عند مقامك ..

قال : أعرف ذلك ..

قلت ولا مانع يردنى ، ظلالك تلف طفولتى وشبابى ، كان أبى يمسكنى بيد ، ويمسك أحدى ييد ، ثم نمضى لزيارتك ، نخلع نعالتنا ، ونلج ضريحك ، نقبل أعتابك ونخرج لتطوف بالشوارع القريبة ، باعة البخور ، السبج ، المناديل الملونة ، المصاحف ، كتب السير والملاحم ، واللبان ، والبخور ، الطواقى ، العنبر فى علب صغيرة من الصفيح حجمها يماثل عقلة الأصبغ ، والعطوركنا نشرب الخروب ثم نتجه إلى المقهى القريب الملحق بفندق قديم يتزل به بعض أبناء بلدتنا ، كان أبى يزورهم ، يحكى لهم ويسمع منهم ..

قال سيد الشهداء برقة .

أعرف ذلك ..

قلت بحسرة .

تلك أيام ولت بلا رجعة ..

قال : كل شيء وله أوان ..

التفت إلى أخيه الأكبر ، قلت : من أهلة طفولتي تبدو لي لوحة مطبوعة ملونة ، بها الأخضر ، والأصفر ، والأحمر ، يتوسطها والدكما عليه السلام ، يلتحف بعباءة خضراء ، بين يديه سيف في غمد ، فوقه كتب بلسان عربي « أسد الله الغالب ، علي بن أبي طالب » ، إلى يساره يقف الحسين ، وإلى يمينه .. تقف أنت ..

هز الحسن رأسه ، بدا كأنه مغمض العينين ، انس قلبي ، رأيت الابتسامة ألطف من طلة الحبيب ، وأرق من الشعور بالأمن عند طفل ، ذهبت عنى الرجفة ، هدأت ، وفكرت فيما سأصير إليه ، تطلعت إلى رئيسة الديوان فتجلت لي محفوفة بظلال الندى الفجرى ، بهية سمحة ، شرحة ، مستفيضة ، دالة ، منجبة ، نجبية .. قالت ..

ماذا يجيرك ؟ ..

قلت : تبدل الأحوال ..

قالت : وماذا ؟ ..

قلت : ما يبلى .. ما يزول ..

قالت : وماذا ؟ ..

قلت : ما من يقين باق ..

قال : ثم ماذا ؟ ..

قلت : عكوفى على الأمانى ، وانقضاء الأوقات قبل تحققها ..

قالت : ثم ماذا . ثم ماذا ؟ ..

قلت : التحول ، والتغير ، والتبدل ، تحيرنى الأشياء فى تفرقتها ،

وتجمعها ، فى اختلافها ، واتفاقها ، الطاعة والعصيان ، الريح والحسران ،

العبد والحر ، الحياة والموت ، الوصول والقوت ، النهار والليل ، الاعتدال
والميل ، البر والبحر ، الشفع ، الوتر ، الصحة ، المرض ، البداية ، النهاية ،
الفرح ، الحزن ، الروح والشبح ، الأرض والسماء ، التركيب والتحليل ،
الكثير والقليل ، الغداء ، الأصيل ، البياض والسواد ، الرقاد والسهاد ،
الظاهر والباطن ، المتحرك والساكن ، اليباس واللبن ..

توقفت ، كفت ، بعد صمت قالت رئيسة الديوان ..

لأنك حاولت ، لأنك جاهدت ، فستجلى لك بعض من بعض ،
وليس كل في كل ، لأنك محدود بوجود مقدر ، ولن يتسع ، ستجلى لك
لمع ، وأشارات ، سيصحبك من حين إلى حين سيد شباب أهل الجنة ، اصبر
الصبر الجميل ، فلو مددت الكلام وحاولت السعي وراء الحقائق لكنت
يمينك ولحنى القلم ، وضافت القراطيس والألواح ..

مدت يدها ذات الندى والطل ، مستنى فأصبح البصر حديدا والتناول
شاسعا ، قالت ..

ثمة أمر واحد - إن جاز تسميته بأمر - لن يتجلى لك أبدا ، لا تسأل عنه
لأنك لن تحاط به علما مهما أوتيت ، ولن تنفذ إليه ، ولا تتعجل ، إن الإنسان
كان عجولاً . قلت ..

قلبي مترع بالدهشة ، والحيرة ، والأمل ، فما من موضع لمزيد .

وَمِنْهَا
تجليات الأسفار

السفر الأول
سفر الميلا

حقيقة ..

كل شيء في سفر دائم .

بيان ..

طريق أبي في الحياة غريب ، وطريقي في طريق أبي غريب ..

اشارة ..

الدنيا منزل من منازل المسافرين ، وانها لثنطرة على نهر عظيم جرار .. تعبر ..

التأهب

.. احتواني صريع كربلاء ، سيد شباب أهل الجنة بعينين سمحتين وجبين
وضاء ، ونظرات محب شفوق ، حتى إني نجلت من التطلع إليه ، تلك رقة
لم أعهد لها ، وهذا حنان لم يسبق عليّ مثله ، سررت ، وتبسمت ، وتبشبت
ونزل في قلبي أمن وشوق ، أنست بعد وحشة ، وأصبحت كأني في جماعة

وحشد عظيم اقتربت فشمت له رائحة طيبة ، ونفسا عطريا ، سألني أنا ..

إلى أين السفر؟.

قلت :

أطول المسافات ؟.

قال :

الإنسان لا تسهل عليه صعوبات البداية ، إلا إذا عرف شرف الغاية ..

أمسكت بيده ذات الندى والظل .. قلت ..

انى مسلم إليك ذاتى ، لكننى تواق إلى لحظات الميلاد ..

فصل

كل شىء يدور ، تدور الأيام فى الأسابيع ، والأسابيع فى الشهور ، والشهور فى السنين ، والسنين فى الدهور ، "نهار يكر على ليل ، وليل على نهار ، فلك يدور ، وخلق يدور ، حروف تدور ، ونعيم يدور ، صيف يدور ، وشتاء يدور ، وخريف ، وربيع يدور ، شقاء يعقب راحة ، وحزن بعد فرح ، وميلاد بعد موت ..

رحماتة من سفرنا الأول

تجلت لى قريتنا فى أقصى الصعيد ، تجلت فى الألوان ، الأصلية ، أما مصدر الضوء فحقيق ، ضوء فجرى ولا فجر ، حمرة شفقية ، ولا شفق ، لا حرارة ولا برودة ، إنما هى اللحظة المواتية ، مع أن اسم اليوم مفقود ، وموقع الشهر مجهول ، والسنة غير معروفة . يوم بعيد ، قصى ، مضموم على نفسه ،

غير متصل بغيره ، وصلت إليه بعد اقلاع ونأى ، تجلت لى البيوت
مضمومة ، متساندة فوق مرتفع حتى تتبعد عن مياه النهر زمن الفيضان ،
محاطة بنخيل كثيف ، وحقول ، وطرق مترية ، وسواق لم تدر بعد . وأشجار
دوم ، وجميز ، وسنط ، وكافور عتيق ، وتين له رائحة عسلية تطفئ عند
المنحنيات . أملت بالبيوت ، والبئر البحرية ، والجبانة القبلية . سريت فى
القرية ، بصرى حديد ، وغطائى مرفوع ، وصدرى رجب ، سمعى ثاقب ،
وقلبى نافذ ، وحواسى مرهفة ، عرفت أنه ما من أحد يمكنه رؤيتى أو
الاصغاء إلى . وان الحوار ملغى بينى وبين من أرى ، شب فى جنبي فضول ،
وعرفت أن اللحظة تدنو ، دخلت البيت ، رأيت ثلاث نساء يقفن ، يرتدين
الملابس السوداء الداكنة ، إحداهن قصيرة ، نحيلة ، شعرها جعد ، على
ذقها وشم دائرى أخضر . تجلت لى جلدى ، ترقد بينهن ، وعلى وجهها ألم
عظيم ، تبدو لى دماء ، أولى بنظرى بعيدا ، لكننى أعاود التحديق ، تقول
المرأة القصيرة على فترات متقاربة إن الفرج وشيك ، وان الطلق تزايد ، وانه
مبارك ياذن الله ، رأيت امرأة أخرى نحيلة ، طويلة ، تخرج من المنذرة ،
وتطلب من رجل يرتدى عمامة من اللباد يلف حولها شال من صوف بنى
اللون ، أن يذكر الله حتى يحمى الفرج ، عرفت أنه والد أبى ، جدى .
جدى الذى لن يذكر ملامحه أبى ، لأنه مات بعد عامين اثنين من ولادته ،
شغلت جينا بلامحه ، وإلى أى حد تتسب إلى ، أو انتسب إليها ؟ فوق
مضطبة مجاورة للفرن يتمدد فتى فى السادسة وإلى جواره شقيقه الأصغر ،
أعمامى الذين لم أعرفهم لأنى لم أرهم ، وحدثنى أبى عنهم لأول مرة بعد
رحيله الأبدى وظهوره فى تجليات الفراق ، حاولت أن ألم بلامحهم ولكن
عبثا حاولت ، مع اننى كنت أرى ما لا يمكن لبشر أن يروه ، عجيب أن

أطيافا صغيرة ، وتفاصيل ضئيلة ، تغيب عني ، انتقلت ببصرى إلى داخل المنذرة ، ورأيت المرأة القصيرة ، لم أعرف اسمها ، تمسك أبي المولود لتوه ، تضربه ضربا هينا ، لينا ، على ردفه وظهره ، جاءت الصرخة الأولى نجيلة موجزة ، تملكنى روع ، اقتربت أكثر ، تعجبت عندما مررت من خلال المرأة الثالثة المدينة الصامته طوال الوقت ، لم أعرف اسمها أيضاً ، التفت إلى جانب قلبي الأمين ، رأيت صريع كربلاء ، دليلى ، مولاي وصفيني ومرشدى . يغيب عني إذا غبت عنه بفكرى ، ويبدولى إذا ما فكرت فيه ، وإذا ورد على بالى ، وضمد خاطرى ، إذا لفتنى حيرة ، أو لفتنى خوف ، هو قاب قوسين أو أدنى منى ، لا يتأى ولا يهجرنى ، يرفق بى ، ليس علىّ بضنين ، كنت وجلا ، مروعا ، مأخوذا حتى لا أقدر على البوح أو النطق . كنت كأنى أنا ، كأنى الفرع الذى خرج منه أصله ، كأنى الصدى الذى أحدث صوته ، كأنى الولد الذى أبوه ابنه ، كأنى القوس الذى اتصل بنصله ، كأنى الظل الذى أوجد مصدره ، ذهلت فانشيت أجوس داخل روحى ، نهى حيبى ، أوما برأسه الطاهر الذى حُرّ من القفا يوما وتمم بشفتيه النورائيتين اللتين لثمها أشرف الخلق ، وعبث بهما يزيد بن معاوية ، أوما بالتجاه أبى المولود ، حضنى على اطالة النظر إلى الحبيب المفقود فأمعنت . أبى عمره دقائق ، مغمض العينين ، منبعج الرأس ، تسرع المرأة القصيرة به إلى خارج المنذرة ، ملفوف فى جلباب رجالى قديم ، تجيء به إلى والد والدى ، يرفع رأسه ، بوجه خلو من التعابير ، تجرى لحظة المواجهة الأولى ، يبدو جدى حريصا على ألا يظهر سرورا أو غما أو انشراحاً كأنه لو أظهر شيئا من ذلك سيبدى ضعفا لا يليق بأشداء الرجال ، تشاغلته بالنظر إلى أبى ، رأيت شيئا كبيرا بين وجهه وملامح أبيه ، كان مغلق العينين صامتا ، تقرص المرأة انفه

الدقيق برقة ، يصرخ أبى المولود ، وتلك صرخته الثانية ، يفتح عينيه مواجهها الضوء للمرة الأولى ، يتسم جدى ، يقول : « آه يا بن الفرطوس » .. وهنا ذهب أبى ، ولم أعرف اليوم ، والتاريخ ، والسنة ، مع أنى رأيت مارأيت ، وهذا عجيب !! .

اطلالة

.. التفت إلى الرحيم بى ، فأوما برأسه الجميل وكأنه أدرك ما فكرت فيه أشار إلى بقعة الأرض التى لامسها رأس أبى لحظة خروجه إلى الدنيا ، ذكرنى محبى وحببى بأن الموجودات كلها تتكلم فى أسفارى وتجلياتى ، الأصول تتحدث وتخبينى ، وهنا سمعت ما لاعهد لى به ، مالا أقدر على وصفه لبشر ، ما تضيق به حروف الكلام من كل منطوق ولسان ، أقول وشجنى رفرق معتق ان تلك البقعة كلمتى ، وكان الكلام هامسا ، قالت إن أبى لامسها مرة واحدة ولم تتكرر ، لحظة ولادته ، العجيب انه قضى عدة سنوات فى هذا البيت ، لكنه لم يجب ولم يتمدد ، ولم يمش ، ولم ينخط ، ولم يلعب ، لم يلامسها ، ولم يطأها ، وفى آخر زيارة إلى البلدة قبل رحيله الأبدى بشهر واحد ، جاء ، دخل كل البيوت ، سلم ، وتأمل ، واستعاد ، وتذكر ، صافح حتى النساء ، قضى ليلة فى البيت الذى ولد فيه ، بيت أبيه والذى آل إلى أحد أعمامه ظلما ، - هذا يطول شرحه ، وسيأتى تفصيله فى موضعه . - قضى ليلته فى الساحة الخارجية .

لم يطأنى ، ولم يجلس قرى ، ليس لأن البيت اتسع ، وأن مواضع الحجرات تبدلت ، وأن موضعى الآن صومعة قح ، أبدا ، لم ينظر إلى حتى ، فارقتى ولم يعاودنى لحظة ميلاده .

سكتت بقعة الأرض ، أطلت النظر والتحديق ، كان السؤال يلقي في ذهني ، وقبل أن أفضله أتى الجواب ، هكذا أجابتنى ، قالت إن والد والذى لم يطأها ، وان مر فوقها مرات لا تحصى ، لكن أما أن يسبق بقدميه أو يتأخر ، كذلك جدوده . لكن ثمة جد بعيد ، عاش في الزمن القديم ، اتخذ منى مجلسا ، لم يفارقنى لمدة تسعين عاما ، لم يفارقنى إلا ليقضى حاجته في موضع معين بين نخيل كثيف اندثرت شجيراته منذ زمن ، عندما جاءنى لأول مرة كان عمره يتجاوز المائة عام .

نظرت إلى جانبي الأيمن حيث دليلى ومرشدى الحسين ، لم يبد مانعا ، لم يظهر اعتراضا ، وأما فوق تبلى الفؤاد ، واستعدت الزمن المفقود ، فرأيت جدى ، بدا متين البنية فتيا ، لكنه إذا وقف ينحنى حتى ليلامس رأسه منتصف صدره ، يتمايل إذا خطا ، يقطب إذا نظر ، يرتجف إذا أشار ، يهمس إذا تكلم ، يرتدى الخرق السود . عرفت أنه سليم الحواس . حادها ، مرهفها ، وانه يرى في الظلام ، ويسمع عن بعد في ضجيج العاصفة ، سليم الأسنان ، حدثتنى بقعة الأرض فقالت إنها الأسنان التى تنبت بعد سن المائة . وان ظهورها بدأ بعد عودته من طوافه ، تساءلت .. أى طواف هذا ؟. قالت بقعة الأرض إنها لا تقدر على اخبارى إلا بما جرى فوقها ، أو فى باطنها ، وإذا شئت فلاستقصى من مواطنى اقدمه ، لكننى لم أشأ مفارقة الموضع الذى لامسه أبى عند قدومه إلى الدنيا ، فطلبت الافضاء إلى بما تيسر ، حدثتنى بقعة الأرض فأوجزت وألحت ، قالت إن جدى البعيد كانت له كرامات واشارات منذ ولادته ، هكذا تحدث بعض الذين جلسوا على مقربة ، قالوا إنه كان يحملق بعينه ، دائما فى السماء البعيدة ، وفى رمضان لم يكن يرضع إلا ليلا وفى لحظة مرض ألت به رفعت أمه يديها إلى السماء ، طلبت له الشفاء فأجابها صوت خفى ، آمين ، وعندما شب لم

يرتكب معصية ، أو زلة ، وفي يوم شتوى غائم ، طرح أحدهم سؤالاً عليه ، قال له .. النعامة .. أهي حيوان أم طير؟ .. لم يجب . إنما أمعن الفكر ، ثم دار على الناحية كلها ، سأل ، استفسر ، لم يشف غليله ما سمعه ، قرر أن يرحل بحثاً عن الاجابة ، اختفى من البلدة ، من الناحية ، لم يظهر له أثر ، ولم يسمع عنه خبر ، حتى عد مفقوداً ، ونسيه ناسه ، ساح في العالم لمدة مائة وعشرين سنة قبل رجوعه إلى الناحية ، ويلزم نفس البقعة التي لامسها رأس أبي ، قضى مائة وعشرين سنة في نفس الموضع يغزل الصوف ، يمر به الناس فيتعلمون ، أو يومتون ، أما الصبية فيتصايحون ويتساءلون عن هويته عن اسمه ، ومنهم احفاد احفاده . لا يعرفهم ولا يعرفونه ، بعضهم يرميه بالحصى ، ونوى البلح فلا يبذل جهدا لدفع الأذى عن نفسه ، في آخر أيامه قبل أن يموت نهائياً جاءه رجل مديد القامة ، أبيض الشارب واللحية ، أزهر الثياب ، أنور الجبين ، سأل جدى ، هل عثر على إجابة لسؤاله ؟ هز رأسه من اليمين إلى الشمال ، واختفى لحظة نزول الغسق . وهنا صممت بقعة الأرض ، وتلاشى التجلى ، سألت ملهوفاً ، ما اسم جدى ؟ فلم أتلق إجابة ، ولم يسعفنى حبيبي ، رأيت تغير ذرات التراب ، وتوالى الأيام ، وتعاقب الليالي ، ونزول المطر الشحيح ، ولسع الرياح ، وانطواء الحر ، والبرد ، تقول بقعة الأرض لم يمسنى بشر ، ولم أكن موطناً لإنسان إلا لجلدك القصي ورأس أيبك عند مولده ، مع ان موضعي معمور .. قلت وعندى أمل في وصل الحوار ، والتلقى ، ما اسم جدى البعيد ... ما اسم اليوم الذى ولد فيه أبى ؟ رأيت أبى المولود يرضع الرضعة الأولى ، وأمه تسند رأسه الصغير ، وفمه يحاول الالتصاق بالثدى المنتفخ باللبن . رأيته نائماً . رأيته يحرك ذراعيه ، وقدميه ، رأيته يحملنى تجاهى ، ينظر إلى مكان وقوفى ، وكنت أتراجع على مهل ، وصوتى داخلى

ملموم . مضموم ، فلا همس ، ولا يوح ...

زمزمة

إذا ما تجلى لى فكلى نواظر
وان هو ناجانى فكلى مسامع

وصل

تجلت برققة حبيبي إلى يوم الأربعاء ، التاسع من مايو ، سنة خمس وأربعين ، وتسعمائة ، وألف ، تجلت لى أمى متعبة ، مستسلمة ، ورأيت نفسى مولودا فى نفس اللحظة التى ولد فيها أبى ، لم أدر ما بداخلى ولم أحط بكنهه معارفى ، وما يدركه حسى . سمعت جدتى تقول لأمى « مبروك ... جاءك ولد » تفتح أمى عينها ، تتطلع إلىّ ، يحملونى إليها لترانى ، اقتربت لأرى نفسى ، رأسى منبجج ، جسدى مزرق ، يشبه وجهى ملامح أبى لحظة ولادته ، لكن ما من شبه يجمعنى بجدى البعيد ، تقول جدتى ، ماذا تسميه ؟ تقول أمى بإعياء الوالدة التى جاءت إلى الدنيا بمخلوق جديد ، « لن نسميه قبل أن ترسلوا إلى أبيه فى مصر ... » ، الوقت فجرى ، والليل يتشقق ، وريح عاصفة تهز الباب الذى يسنده خالى بظهره ، وعيدان البوص الحفاة توشك أن تتطاير ، طقس عنيف فى غير أوانه ، تنظر جدتى إلى امرأة اسمها « الدودة » ، رأيتها مرارا فى سنينى الأولى ، زوجها خفير نظامى ، كنت أجلس إليها أمام الفرن وهى تدفع بأقراص العجين عبر فوهته ، وتلقى بالبوص ، والجللة ، والوقيد ، وتحكى لى الحواديت ، امرأة طيبة وكنت أحبها ، ماتت منذ سنوات لم أدر مقدارها مع انقطاعى عن البلدة ، وقلة زياراتى ، وابتعادى ، نسيت ملامحها ، تاهت فى مجاهل طفولتى ، لم أرها إلا فى هذا التجلى بصحبة سيد شباب أهل الجنة ،

تبدولى أكثر شباباً ، وامتلاء ، هى أول من أمسكنى ، وأول من نظر إلىّ قبل
أُمى ، وقبل أبى ، وقبل جدتى ، أول من ضربنى لتنبعث منى الصرخة الأولى ،
رأيت دماء تغطى كومة حشائش خضراء فرشوها تحت أُمى ، أول ما لامست ،
تقول جدتى ، ادهبي يا دودة إلى ولد حميد ، وخليه يكتب خطاباً إلى أحمد فى
مصر ، أطيل النظر إلى جسدَى المولود ، الدقيق الأطراف ، الهدود ، رأيتنى
مغمض العينين ، ولا أقوى على مواجهة الضوء ، تعجبت ، وقلت : أهذا أنا ؟
يهز حبيبي الحسين رأسه ، يومئ ، يقول : أنت فى دهشة ، لكنها ليست
صورتك الأولى . لسبب خفى ، غمض علىّ ، انتابنى حزن دنيوى خفيف ، فيه
لطف ، وشفقة ، وكأن صفى ومولاي ادرك ما حل بى ، فانثنى بمسح يديه
شعرى ، هدأت روحى ، وراق بالى ، وعدت أسافر عبر التجلى ، رأيت ولد
حميد يكتب خطاباً إلى أبى ، ورأيت الخطاب يصل ، وموظفاً لا أدرى اسمه
يقراً لأبى ، رأيت ارتباك أبى وسروره واختلاجات روحه وارتعاشات ملامحه ،
لم أطل النظر ، إذ ألقى سيد الشهداء بطمأنينة محورها اننى سأراه كثيراً فيما بعد ،
وسأتملى منه ، رأيت حيرة أبى عندما لا يهتدى إلى الطريق الأمثل للتعبير عن
انفعالاته ، وعز علىّ أن أراه مرتبكا فناديته - خطوات تجاهه ، لكن سيد
الشهداء حاشنى برقة ، وحزم ، ما من فائدة ترجى ، الاتصال مقطوع ، الولوج
محال ، قلت يا أسنى ، ورأيت أبى يملئ خطاباً على شخص لا أعرفه ، ويطلب
من أُمى ، ومن خالى ، ومن جدتى ، أن يسمونى بعبد الرؤف . رأيت أُمى
تحتضننى ، ورأيت جدتى تتلو التعاويذ ، تمسك بعروس ورقية تثقب مكان
العينين بإبرة ، تقوبا متتالية ، كل وخزة فى عيني إحدى النسوة الحاسدات ،
رأيت نفسى أتقياً ، وكنت ضامرا ، نحيلاً ، ارتجف ، وتلفنى رعشة ، اخذنى
قلق واشفققت ان يجل بى مكروه ، انتهيت إلى ابتسامة شفيعى ، فأدرت اننى
أعيش ، وتعجبت ، كيف أخاف على هذا المولود الذى هو أنا وأنا هو أن

يم ، رأيت أمي تبكي ، وأدركت أنها تذكر ولديها اللذين رحلا قبل مجيئي ،
 رأيتها تحشى القفد والكل ، هممت أن اطمنها ، أن أقول لها اني سأعيش ،
 كدت أنطق ، ثم تذكرت فصمت ، تذكرت قول حبيبي في الديوان ، لكل
 شيء زمان ، تقول أمي : « اكتبوا إلى أحمد ليختار اسما غير اسم عبد الرؤوف ،
 لو استمر يحمل هذا الاسم فلن يعيش .. » ، تطمئننا جدتي ، لكنها تصر ،
 هكذا أنبأتها الرؤيا ، لم تشأ الافصاح ، لكن الولد سيضيع منها ، « اكتبوا إلى
 أبيه » ، رأيت أبي يتسلم الخطاب الثاني ، ثم يصغى إلى سطره ، ورأيته يملئ
 الرد ، ويطلب منهم أن يسموني جمال ، لم يفكر طويلا ، إنما ورد الاسم على
 خاطره ، ورأيت الشخص الذي أراد أبي أن يطلق اسمه عليّ ، شاب من أقاربه
 الأقربين ، طويل ، ممتلئ ، يسكن بيتا قريبا من النيل ، ويدرس في كلية
 الحقوق ، مات بعد ولادتي بسبعة شهور ، رأيت أبي يبكيه ، ويدكرني لحظة
 مواراته التراب ، ويعود من القرافة إلى الحسين ، ويشترى لي جلبابا ، وطاقيّة ،
 ورطلاً من الحلوى ، ويرسلها إلى البلدة مع مسافر ضرير ، رأيت أمي راضية
 هادئة البال ، تهدهني ، تغني لي : « نام نام وأنا أذبح لك جوزين حمام » ،
 كنت ملفوفا في خرق سود ، لم أستطع أن أرى وجهي ، أو ملاهي ولم أعرف ما
 بي ، وان خممت اني اعاني ضيقا ما ، ولم أعرف ابن كم شهر أنا ، ثم شغلت
 عن رؤيتي لنفسي بالاستفسار عن النساء الثلاث اللواتي حضرن ميلاد أبي ،
 وعرفت انهن رحلن منذ زمن بعيد ، وان أمي لاتذكرهن ، لا تعرفهن ،
 وشغلت بالمسافة الفاصلة بين بقعة الأرض التي لامسها رأس أبي ، والبقعة التي
 لامسها رأسي ، وكانت مفروشة بالنبات الأخضر ، فكانت سبعين ذراعا
 قدما ، تصمت أمي ، أدرك اني نمت ، تميل عليّ ، تقبلني ، فيعاودني حزن
 في وقتي ، لكنه حزن غثيت ، يكاد يعصف بي ، تطرق رأسي ، أخطو تجاه
 سيد الشهداء مبتعدا عن أمي التي تحملني نائما وعلى ملاحظها استسلام أمره

عجب ، يرت حبيبي رأسي ، فيزداد شجني ، ويمتد لي التأسى ...

حقيقة ..

« .. لم يراى لحظة ميلادى ، ولم أر لحظة غيابه الأبدى ، وما بين القوسين سر غربتنا .. »

تجلى السفر ..

.. لا نزال فى سفر دائم منذ نشأة أصولنا ، إلى ما لانهاية له ، إذا لاح لك منزل تقول فيه ، هذا هو الهدف والغاية ، ثم تفتح عليك منه دروب وطرائق أخرى ، ما من منزل تشرف عليه إلا وتقول ، هو نهاية المقصد ، وإذا دخلته لا تلبث أن تخرج منه راحلاً ، كم سافرت فى أطوار المخلوقات إلى أن تكونت دما فى أريك وأمك ثم اجتمعنا من أجلك عن قصد لظهورك أو غير قصد ، فانتقلت منيا ، ثم انتقلت من تلك الصورة علقه ، إلى مضغة ، إلى عظم ، ثم كسى العظم لحما ، ثم أنشئت نشأة أخرى ، ثم أخرجت إلى الدنيا فانتقلت إلى الطفولة ، ومن الطفولة إلى الصبا ، ومن الصبا إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الفتوة ، ومن الفتوة إلى الكهولة ، ومن الكهولة إلى الشيخوخة ، ومن الشيخوخة إلى الهرم ، ومن الهرم إلى البرزخ ، فائمة سكون اصلا ، بل الحركة دائمة فى الدنيا ليلا ونهارا ...

وصل السفر ..

.. كان استاذى ، وشاهد أيامى ، أدرك ما بى ، وما جال بخاطرى ، وما راودنى ، فتوقفنا فى الصالة العلوية لمستشفى دار الشفا بالعباسية ، أعرف اليوم

واللحظة ، ليست عنى بقصبة ، الطابق رابع ومخصص بأكمله للولادة ، رأيت نفسى ارتدى حلة رمادية ولى من العمر واحد وثلاثون عاما وستة شهور وتسعة أيام وأربع ساعات ونصف ، اقف فى المر المبلط ، لا يصلنا أى صوت من داخل الغرفة المعزولة ، يقف والد زوجتى صامتا ، كذا شقيقها ، ولم يكن أبى حاضرا ، كأن الزمن تقدم به ، ومنذ حول مضى فى الدنيا غريبا ، أو مضينا نحن عنه فى الدنيا غزباء ، ومع أن هذا لا يصح ، ولا يجوز ، لكنه أمر وقع ، ولا حيلة لى الآن إلا أن أهيم ، أتالم وأسمى ، أتجلى وأسافر وأعرف الغربة وأعانى ليالها الدوامس ، وأغرق فى مجورها الطوامس أعانى ثقل الشوق الذى لا فائدة ترجى منه ، ويأسرنى الفقد الذى لا راد له ، وأذوق مر الفراق الذى لا لقاء بعده ، والنأى الذى لا وصول يليه أو ينهيه ، واتحسر على ما انقضى وما فانتى بلا فائدة ترجى ، لو عرفت ما عرفت لسمعت وما تكاسلت وما توانيت ، ولما ارتكبت ما ارتكبت ، لكن أنى لى بمعرفة المصير ، كنت جهولا ، عجبولا ، خلق الإنسان من عجل ، لم يتبق لى فى الأزمان المغبرة إلا أن أتجلى ، وأسمى ، وألوذ بشفاة حبيبي ، لعله يرضى ، لعله يخفف ، لعله ينجينى ، رأيت الباب يفتح والطبيب يخرج ، يبدو هادئا ، يتحنى بى ركنا ، يقول إن الولادة طبيعية ، وأنه اضطر إلى اجراء جراحة بسيطة لن تترك أى أثر بالمرّة . يقول متداركا ، مبروك جاءك ولد ، ثم يقول الأتعاب ثمانون جنيا ، وعشرون أجرة تخدير ، رأيت يدى تمتد بالمظروف الذى يحوى النقود ، يقول شكرا ، ثم يمضى ، تمر دقائق قبل خروج المرضة البيضاء تحتضن إلى صدرها لفافة ، تتوقف أمامى ، تطلب من شقيق زوجتى أن يخلق النافذة ، الهواء بارد ، تزيح طرف اللفافة ، أرى عيني تمدقان إلى ابنى المولود ، مستطيل الرأس ، مغمض العينين ، رأيت لحظة

المواجهة بيني وبين ابني ، راعني أنه يشبه أبي شها شديدا حتى لكأنه نموذج
 مصغر لوجهه ، كان مغمض العينين ، تمسك الممرضة انفه ، يصرخ مرتين
 متعاقبتين ، تغطي وجهه ، تقف منتظرة ، رأيت يدي تمتد بالحلاوة ، خمسة
 جنهيات ، تمضي إلى غرفة المواليد الجدد ، اليوم خميس ، التاسع من ديسمبر
 عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف ، ما بين مجيء ابني إلى الدنيا وبين ميلاد شفيعي
 ودليلي الحسين ، اثنان وتسعون وثلاثمائة وألف سنة هجرية ، وما بين مجيئه
 وميلاد جمال عبد الناصر ثمانية وخمسون سنة ميلادية . وما بين مجيئه وميلاد
 أبي مقدار لا أعلمه من السنين والشهور والأيام ، نظرت إلى محي وإمامي ،
 ابتسم برقة وحنو ، يهز رأسه وكأنه لافائدة من محاولتي ، هل كان أبوك
 يعرف مقدار عمره ؟ قلت لا ، هل حاول أحدكم معرفة ذلك ؟ قلت لا .
 قال ، كيف ستعرف ذلك الآن ولماذا ؟ ولم أتكلم لأنني لاحظت لوماً أو ما
 يشبه ذلك في نبراته ، لهجة من يعرف ولا يريدني أن أعرف ، تجلت لي لحظة
 ميلاد أبي ، ولحظة ميلادي ، ولحظة رؤية ابني لأول مرة ، رأيت نفسي
 أوجد ثلاث مرات في ثلاثة أماكن ، اتلقى ببصر واحد ، وأفهم بعقل
 واحد ، لم أشأ أن أثقل على صفيبي ، فسألت نفسي بنفسي ، هل تشابه
 الملامح في لحظات البداية ، ثم تختلف عندما يبدأ السفر ، ونفترق في كل
 مرحلة ، فلا يتبقى إلا الشبه الخفي ، غير المرصود ، الذي لا يعيه عقل ، حتى
 تتلاشي تماما مع أفول العمر وحلول الهرم ، لماذا لم أهدأ ، ولم يسعفني
 مولاي ؟ وتردد داخلي : هذا من أسرار السفر ، أدركت أنه ما من موضع
 لإجابة ، رأيت نفسي لم أفارق الطابق الرابع ، الردهة خالية ، ولافتة صماء
 تطلب الصمت حرصا على راحة المرضى ، ورائحة مطهر طبي ، وسكون في
 ضوء غسقي فخشعت ، وانتبهت إلى صوت غريب يحدثنني بلغتي ، نبراته

غريبة ، وإيقاعاته عجيبة ، أدرت صدوره من أحد الأحجار المصفوفة في جدار الطابق الرابع ، يقول لي إنه قبل أن يؤخذ ، وتشذب حروفه ، قبل أن يضعوه في هذا الجدار كان ملقى في حقل قريب من المكان ، كانت المنطقة كلها حقولاً خضراء ، قيل أن تجتث وترصف بالأسفلت ، وتقوم المباني ، وهنا تحولت الموجودات فرأيت الحجر ملقى على مقربة من سكة حديدية ، وأعمدة تلغراف ، وسماء منبسطة ، والوقت ليس ليليل ، وليس بنهار ، ورأيت أبي قادما من أقصى المدينة يسمى . رأيت متعبا ، حوافر جلابه متهلة بتراب ، بدا فتياً ويا . عمره ، ولا في أى السنين هو ، وأن عرفت أنه بلا مأوى ، وأنه في أيامه الأولى بالعاصمة ، وانه لم يعرف بعد شوارعها ، وانحاءها ، وحراراتها ، ودروبها ، وانه لكي ينتقل من مكان إلى مكان فلا بد أن يسأل ، وأن يستقصى ، وأن يستوثق ، وأن يبرز العناوين المكتوبة ، أدرت أنه يقصد أحد ابناء البلدة في الضاحية القريبة ، وأن أمامه وقتاً طويلاً ، رأيت ينظر حوله ، رأيت حيرته ، حيرته الخاصة ، المنبعثة من ملاحظته ، ومن شقائه ، ومن غلّبه ، يتوقف فجأة أثناء سيره ويتلفت حوله كأنه يرجو العون من خفي لا يُرى ، يقول « آه يا بوى .. » . يتمدد ، يسند رأسه إلى الحجر ، بعد لحظة يضع ذراعه تحت رأسه .. ذات الحجر الذي حدثني من موضعه في جدار المستشفى الذي ولد فيه ابني ، تجليت داخل التجلي ، سافرت خلال السفر ، ورحلت إلى الرحيل ، بينا الحجر يكرر برتابة : توسدني أبوك ، توسدني . نظرت إلى مخلصي ، بدا صامتا ، حتى اخشعني صمته وأقعدني سكونه ، وخطر لي ، كيف رأيت ما رأيت ، ولم أر لحظة هو ..

تنبيه ..

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب
ودعوا الجميع وعرجوا نحوى فشهده بقلبي

السفر القصي ..

.. هذا سفر صعب ، وما فيه تلميح لا تصريح ، وإشارة لا إفصاح ،
اليوم هو الخامس من شعبان ، السنة الرابعة للهجرة ، امرأة تحدثني ، لا
أعرفها ، تقول إن فاطمة الزهراء أولدته بعد حول من مولد أخيه الحسين ،
فجاءها النبي ﷺ وقال : هاتى ابني ، قدفعته إليه وهو ملفوف بمنجقة
بيضاء ، فاستبشر به ، واذن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، ثم وضعه في
حجره ويكى ، فقلت ، فذاك أبى وأمى يا رسول الله مم بكأوك ؟
قال : أبكى لما يصيبه بعدى ...

أسفار الميلاد ..

.. لم أسأل ولم استفسر مع أن الخطوب كثيرة ، والمسائل عديدة بلا
حصر ، لكنني خفت ان اضايقه ، أو أخالف له أمرا بدون قصد ، تبعته
كظله عندما واصل السفر ، وبعد حين رأيت لحظة ميلاد زهرة من شقائق
النعمان ، ورأيت لحظة انشقاق بيضة في عش صقريقع فوق ذروة . ورأيت
لحظة موت حوت معمر ، ورأيت لحظة بداية الغمام في الأعلى ، ورأيت
انفلاق حبة قمح ، ولحظة انخصاب نحلة ، رأيت ميلاد جمال عبد الناصر في
حجرة رمادية ببلدة صغيرة نائية ، ورأيت لحظة إخصاب بويضة داخل رحم

امرأة في مدينة شهباء ، مبانها بيضاء ، في أقصى اقليم الشام ، رأيت النطفة
ثم العلقة ثم الجنين في أطوار ، ورأيت الأب يقول بعد الميلاد بدقائق ، سموها
« لور » ، التفت إلى وليي ومرشدي متعجبا ، أجنبي باختصار سيكون لك
شأن معها في التجليات المستقبلية ، كدت اتعجب ، كيف سألقاها ، وهي
من إقليم بعيد ، وما من فرصة بادية ، لكنني لم أسأل ، رأيت تكور واكتال
كوكب بعيد ، رأيت لحظة فناء نجم خارج المجرة ، رأيت النجم إذا هوى ،
لحظة ميلاد البرق ، وتفجر الشرارة ، ورأيت جنين سنبل ، ميلاد اللبن في
تلايف الضرع ، رأيت ميلاد الندى ، ظهور الموجة لحظة اكتساب اللون
لصفاته ، الأحمر للأحمر والأزرق للأزرق والأصفر للأصفر ، رأيت ميلاد
فكرة ، مجيء معنى ، رأيت ميلاد الفراق ، واللقاء ، وارتجافة فقد ،
تدفقت الرؤى ، اغمضت عيني عندما توهجت التجليات ، لا عهد لي
بذلك ، تمنيت الفرار من تلك الأسفار ، لكنه شد على يدي ، وانتظر
فانتظرت ، حتى خف عني ذلك الذي روغي ، وعندئذ مسكت على
أنفاسي ، وعدت هادئا ، قريرا ، كأني غريق بعد النجاة ، كأني مولود
لتوى ، ما طمأنني وقوفه إلى جوارى ، وشده لأزرى ، رأيته يملأ أفق المبين ،
ليس على بضنين . خطر لي التماس الصفح الجميل لو انني اخطأت بدون
قصد . لكنه هدأني ، فسلمت من الأذى ، استسلمت وتأديت ، وسرحت
في كل ما رأيت .. وإذا به يقول بجنو : تجلد فأمامك أسفار طويلة ..

لطيفة شعرية ..

فقلت اخلائي هي الشمس ضوءها
قريب ولكن في تناولها بعد

تجلیات الأسفار
ومنها
أسفار الغزبية

حقيقة

إني من الراحلين أبداً ، فليس لي استيطان أصلا ..

دمعة

يارب لم نيك من زمان
إلا بكينا علي زمان

سفر الابدال

تجلى لي أبي طفلاً يحبو ، ثم طفلاً يلهو ، في أى زمن ؟ ما موقع اليوم
بين الأيام والسنة بين السنين ؟ هذا ما لم أعرفه وما لم أقف عليه ، لم يطلعني
شفيعى ومولاي ، قدرت تقديرا لكننى لم أستطع أن أحدد ، ابن ثلاثة ؟
أربعة ؟ ربما يدنو من الخامسة

في هذه الأسفار أثناء مواجهة أبي وأحبابي وغير أحبابي سألقى أنواعا
وأنواعاً ، فواجهة من حيث اى أراه وأنجرى من حيث إنه يرانى ، ومقابلة
من حيث إني أراه ويرانى ، مرة أأتس به ، ومرة يأتس بي ، ومرة نأتس

معا ، ومرة يوحشني . رأيت مريضا ، أمه مهمومة ، تعلق إلى رقبته حجاباً
 مثلثاً ، ترجو شيخ المسجد أن يقرأ له ورداً وأدعية ، تطيل النظر إلى وجه أبي
 مخلط اللون ، شاحب الرواء ، تخشى أن يكون الجن قد أبدلوه في الليل
 عندما تركته وحيدا ، أبدلوه بطفل عليل من عندهم ، وأضفوا عليه ملامح
 أبي ، تجيئها الجدة نجمة التي تجاوزت المائة ، نبت لها الأسنان الخضراء ،
 تزوجت من جني مؤمن في صباها ، لذلك لم تقترن بالرجال قط ، تنصحها
 بحمل أبي إلى الساقية المهجورة ، تضعه بجوار بئرها الجافة ، وعجلتها الحشبية
 المكسورة وأن تقف ضارعة ، متوسلة بأصحاب الكرامات وأرباب الطريق ،
 ترجوهم مساعدتها على استعادة طفلها الصحيح وأن يأخذوا ولداهم المعتل
 السقيم ، وإذا استحال ذلك فالعوض على الله العلي القدير ، وليأخذوا
 البديل ، تمضي جدتي ، بقلب داعم تترك أبي وحيدا . لا يعي هجره ،
 يضمده الليل والسكون ، تتردد حوله أصوات الليل الخلوي الغامض ، خفت
 على أبي أن يأكله الذئب أو يختطفه بعض السيارة من الغجر الرحل الذين
 يعبرون القرى وعيونهم على الأطفال وما خف حمله ، وقفت إلى جوار جسمه
 الضامر ، رجوت مولاي أن يؤنسني ، فاستجاب لي ، قطعت الليل بطوله ،
 لكنني قرب الفجر والنجوم تتناقص في السماء وملامح النخيل تتحدد ،
 اختلط الزمن عليّ ، وتداخلت الرؤى ، واشتد التجلي فرحلت إلى عدة
 أماكن في وقت واحد ، نزلت مدنا متباعدة في آن معا ، رحلت إلى الأزمان
 المختلفة ، فكنت أرى شوارع المدينة الواحدة عند بداية انشائها ، وأسمع
 ضجيج حركتها بعد قرن من زمانها ، صرير باب ، تشقق جدار ، خرير
 ماء ، وصياح إنسان ، ويعار الشاة ، وخواار البقر ، ونهيق الحمار ، ضجيج
 المواكب ، زئير لجموع في أزمنة الاضطرابات ، رأيت الأوقات الحشنة ،

والفترات الآمنة ، تشعبت ، تفرقت . منى رحلت إلى جهات متعددة ، كأتى
قسمت إلى عدة أشخاص ، يحركهم عقل واحد ، ويرون الموجودات بعينين
اثنتين ، ويتكلمون بلسان واحد ، استمر ذلك ، ثم تملكت ، وتجمعت ،
عدت بعد أن شردت ، كنت أعى ذهابي في رجوعي ، وإيابي في ذهابي ،
أرى ما سافر مني يأوي إليّ ، وما رخل مني يستقر عندي ، حتى تم اكتمالي ،
فتحت عيني ، فإذا بالصبح ساطع ألق ، أبي ليس في مكانه ، فزعت ،
أخذتني الرجفة ، وتملكني الهدة ، تجيء أمه من بيتها تسعى . رأته مكانه
خاليا ، لطمت ، عاقت ، شقت ثيابها ، وعندما مالت لتهيل تراب الأرض
فوق رأسها ظهر أبي ، خرج من بين أعواد الذرة ، بدا ضاحكا ، صحيحا ،
موردا ، كأن لم يمسه أذى ، ليس به مرض ، ذهب عنه العلة ، ضاحت
أمه تسأله ، أين كان ؟ ارتمت عليه ، تحسسته ، حملته ، هدا قلبها ، وبردت
نارها ، لم تفض إلى إنسان باستجابة الجن لها ، وإعادتهم طفلها الصحيح ،
غير أنني لاحظت ما لم تلحظه هي ، رأيت تغير خطوه ، يمشي بميل إلى الأمام
بينما يلوح ظل خفيف لمرج ، وهذا لم يكن به ، ورثناه عنه ، انتقل إلى
ابني ، وابنتي ، وأحفادي من بعدى ، ثم تجلى لي أبي في فناء البيت ، تقعد
أمه مفتوحة العينين ، لكنها لا ترى ، عمياء ، متى جرى ذلك ؟ لم أتلق
جوابا ، يبدو أبي في السادسة أو السابعة ، عرفت أنه يتيم ، وأنه لا يذكر
ملامح أبيه الذي رحل فجأة تاركا أباه ابن ثلاثة أعوام وعدة شهور ، وهنا
سافرت برجمة إلى ليلة نائية ، جدى شاحب ، متعب ، عاد بعد أن قطع
مسافة طويلة مشيا ، لم أعرف الغرض من مشيه ، دخل والعممة هادئة ،
والنجوم بعيدة ، قام ثم قعد ، ابتعد ثم اقترب ، نظر إلى السماء القصية ، إلى
نجوم ثلاثة تقع على خط مستقيم ، عندما يتحرك موضعها إلى الشرق يصبح

الفجر واجبا ، لكن النجوم الثلاثة لا تتعد كثيراً عن مركز السماء ، يروح جدى ويحيى ، يأبى دخول الغرفة التحتية حيث تام جلتى وإلى جوارها أبى ، يقعد فى الرحبة المكشوفة ، يسعل مرة ، ثم مرة ، ثم مرات ، يهتر جسده حتى ان سعاله يوقظ جلتى ، تتساءل مخضوضه عما به ؟ يقول إنه متعب ، وإن صدره يؤله ، تخاطبه من داخل الغرفة . تطلب منه أن يدخل . الليل بارد ، يقول إنه يتظر حلول الفجر ، تسأل جلتى بينا سعاله يهين ثم يهين ، هل أغلى لك ورق الجوافة ؟ سعاله يتقطع ، كأن شيئاً يتعثر فى حلقة ، عرفت أن صوتها يبدو له بعيداً ، وان طيننا يبدأ ، وأن داخله يرق ويهوى فى بئر بلا قرار ، وأنه غير قادر على الرد ، وأنه يردد بلسان مثقل ... خلاص ... خلاص ، وان آخر ماورد على ذهنه من صور صورة ابنه الذى هو أبى ، تخرج جلتى ، تحيط جدى ، تصرخ ، تعول ، وليت نظرى شطر أبى ، مستغرق . نائم ، يجلم بوقيد القرن ، ورائحة جلود القرب التى يحملها السقاؤون على ظهورهم متفحطة بمياه البئر ، غير أنه ظامئ ظمأ شديداً يحمله أبوه ، يستعد لِسقيه ، غير أن رجلا غامضا يصرخ من بعيد ، فيغدو أطفال كثيرون .. يستيقظ مفزوعا ، نظرت إلى يمينى ، رأيت مولاي ، شفاقاً ، رهيفاً ، أبديت الرغبة بصامت نطق فأذن لى ، عندئذ بدأ معراجى إلى منزل الأحلام ..

سفر خاطف

.. رحلت إلى حلم بعيد لأبى فى ليلة لم أدر موقعها من طفولته ، لم أعرف موقع المكان الذى يتمدد فيه . كنت بمفردى لكننى متصل بشيفى ، تغيرت

الألوان والموجودات ، وأصبحت حى القلب ، فطنا بمواقع الحروف
والألفاظ ، ممسكا بجوهر المعاني ، رأيت نفسى ، وكنت أدرى أننى الواقف فى
مجال رؤيتى ، رأيت ما فوقى وما تحتى ، ما يحيطنى ، تبدل فجأة وجهى ،
أصبح وجه جدى ، لم أروع ولم أفزع ، لأننى كنت أعى أن الواقف هو أنا
وان تبدلت ملاهى ، أو تغير حجمى ، أو تلاشى وجودى المادى ، شغلت بما
تيسر لبصرى من المكان ، النبات أخضر ، وصحراء قريبة ، خط من بيوت
متضامة ، كل بيت من أربعة طوابق ، أبى فى شرفة الطابق الثالث ، ملاهه
تراوغنى ، فأراه طفلا ، ثم شابا ، ثم هرما ، ثم تتداخل مراحل العمر .
سألنى :

أنت من ؟ .

فقلت :

أنا جمال ..

فقال :

جمال من ؟ .

فأجبتة :

جمال .. الذى سينبت من صلبك وسيكون ابنك ..

بدا حائراً ، لا يفهم ، أدار ظهره لى بعد تحديق ، وإذا به يقف على
شاطئ بحر عريض بلا آخر ، بحر متوحد الزرقة كأنه مرآة ، يمسك جفنة
معدنية منقوشة ، يملؤها بماء البحر المالح ، يقذف به بعيدا ، يتحول الماء إلى
بخار يتصاعد إلى عمق الكون ، تستمر حركة يده ، أدرك أن سنين طويلة
مرت عليه ، يترح ماء البحر ، سأله ..

عم تبحث ؟ .

النفث إلىَّ ويده لا تتوقف ولا تكف ولا تهن .. قال عما ضاع منى
لم أدر كم انقضى ، غير انى سمعت الأسماك والحيتان والأصداف
والشعاب وسائر مخلوقات البحر تستجير منه وتستغيث : لو استمر سيحجف
البحر ، وتنكشف القيعان ، وتتفى الحيوانات ، تنهد البحر مضطرا ، التى بين
يدى أبى بما ضاع منه ، هرعت لأعرف ، لكن حيل بينى وبين ذلك ،
استدار بعد حين فإذا يحسده ضامر ، وعليه تعب وغبار أيام ثقيلة لا يمكن
نفضه ، قلت : عندما تغيب ستمضى فى نفس ساعة رحيل أهلك ، ستقول
نفس الكلمات ، لكن لن توجهها إلىَّ لأننى لن أكون إلى جوارك ، انتبهت إلى
اننى أحاوره بدون كلام ، بمجرد النظر نتحدث ، ليس بيننا كلام معتاد ،
والاصطلاح بالنظر أصلا ، كنت إذا نظرت إليه علمت جميع ما يريد
منى ، وإذا نظر إلىَّ علم جميع ما أريده منه ، فيكون نظرى سؤالاً ، ويكون
نظره جوابا ، وقد يكون نظرى جوابا ، ونظره سؤالاً ، منى إليه تنتقل
أحاسيس جمّة ، ومشاعر تضيق عنها ألفاظ الدنيا ولغاتها ولهجاتها ، قال لى ،
وردد ..

لكننى لا أعرفك ...

نظقت بالنظر الأسيان ..

أنت لم تنجبنى بعد .

صمت عنى ، آذن سفرى بانتهاء ، انسحبت ، تراجعت بدون خطوط ،
يعبرنى غمام سابح ، ندف فوقها ندف ، كنت فيما يبدو ثقيل الوطأة على رؤياه
فى منامه ، استيقظ مكروش النفس ، حزينا ، رأيت الإمام الحسين إلى
جوارى ، وكان أبى فى حدود الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، هكذا قدرت ،
يرقد فى بيت غريب عنه ، عرفت أنه ضيف ، وأنه سيمضى فى صباح الغد ،

إلى أين ؟ ، حجب ذلك عني ، عرفت أنها المرة الأولى التي اقترن فيها بأبي قبل أن ينجيني ، عرفت انني في هذه الفترة من عمر الدنيا كنت ذرات متفرقة ، متوزعة ، وعناصر شتى ، بعضها ولج داخله ، وبعضها في سبيله إليه ، وبعض لم يستدل إليه بعد ، عرفت أن آلاف المواضع احتوتني ، وأن شيئاً مني ما زال قصياً ، نائياً ، بعيداً عن التحقيق ، رأيت بعد استيقاظي يذلل محاولة لتذكر ملامحي ، رسمي أو اسمي ، لكن تفاصيل الحلم تبددت من ذهنه ، كذا اسمي الذي نطقته ، لكن الحلم ترك احساساً معها أقرب إلى الكدر ..

انتهى معراجي الخاطف ...

تلقين ..

.. لما كان العالم أكرى الشكل ، لهذا يمن الإنسان إلى البداية ، النهاية متصلة بالبداية ، لا بد من نهاية وإلا ما كان ثمة بداية ، أول النشأة الإنسانية رحم ضيق حيث لا هواء ولا حروف ولا كلم ، وآخرها قبر حيث لا ظل ولا رؤى ، أولها يتمدد على الظهر رضيعاً ، وقرب نهايتها يرقد على الظهر هرماً ، عاجزاً ، أول الخطى مرتجفة ، مترددة ، وآخر الخطى مرتعشة ، واجفة ، رقبة الوليد مثقلة بالرأس ، تهتر ، يسيل لعاب القم ، ترتجف الرقبة العجوز . وأيضاً .. يسيل لعاب ، في الطفولة تلقه الوحدة فيبكي ، في الهرم تشد عليه الوحدة فيأسو ولا يبكي ، أولها ظهر منحني كذا آخرها ، عند الخروج إلى الدنيا لا يدرى بشر ماذا يعقل المولود ؟ وعند الخروج من الدنيا لا يدرى إنسان ماذا جال بعقل الراحل وأي صور رأى ، أى فكرة طرأت ؟ هكذا

تلتحم النقطة بالنقطة ، تتصل الدائرة ، ويكتمل الشبه بالعالم الأكرى .
فتعلم !! .

سفر الموجودات

تدفق سفرى بصحبة مولاي عبر حجب وفراغات مجهولة لى ، تعجبت
إذ يشمل الديوان هذا كله ، عرفت اننى على صلة بسائر الموجودات ، سمعت
دعاءات الأغصان ، وحوارات الأحجار ، وهسهسات النجوم ، ولغيات
الندى ، ولهجات الرياح ، وصريخ النيازك ، واستغاثات الشهب ، وأنين
الذرة عند انشطارها ، واصدء تمدد الكون الثانى ، كنت أفهم مايلفظ وما
يقال ، تتقرب الموجودات بمن أنا برفقته ، تناجيه ، تدعوه ، تؤنسه ، تبدى
الاستعداد للبوح ، للنطق ، حدثنى جدران البيت الذى أقام فيه أبى مع أمه
العمياء ، كلمنى الجدار الشرقى عن تحذيرات أمه المتكررة ، ان يتبه إلى
عمه ، أن يأخذ حذره منه ، إنه يبغى به ضرراً ، حدثنى الجدار القبلى عن
لطفها عليه إذا خرج ليملاً أو ليقايض بانعاً متجولاً على شىء كأن يستبدل قدح
قح ، بحفنة ترمس ، حدثنى صومعة القمح والفرن ، والمصطبة الأمامية عن
وحدة جدتى ، عن خشيتها الليلية ، عن قيامها ، وتمسحها الطريق إلى ابنها
الذى هو أبى ، عن شمها لرائحته ، اصغائها إلى أنفاسه ، ثم تلمسها طريقها
إلى الباب ، اغلاقه بالضبة والمفتاح ، واطفاء اللمبة الساروخ حتى لا يستدل
غريب أو قريب على مكان نومها ، حدثنى وصداءه يولى : تتبدل الحال .
بالحال تم نزل صمت ، ظل بصرى مشدودا إلى جهته ، إلى الفراغ المؤدى
إليه ، حتى أدركت ضياح الأثر ، احتوى الموجودات صمت عجيب لا عهد
لى به ، تلجى قائم ، كأن أطراف الكون استجابت لشجنى الشفوى الذى

مبعثه خفي عني ، في غماره أطلت عليّ نخلة من الباسقات المورقات ، همت
إليّ بنغم طيب فيه أبدية ومحايدة وسر عجيب ، حدثني عن أبي ، بدأت أرى
ما تفضي به إليّ ، رأيت أبي طفلاً ، قدرت انه ابن عامين ، لم أسأل عن
عمره لأنني ايقنت من استحالة للرد عليّ لما واجهته من صمت عني بهذا
الصدد ، وان لم تن رغبتى ، اضمرت النية في التوجه بفضولي إلى شفيعى ،
إلى رئيسة الديوان عندما تحين لحظة قد تكون ملائمة ، لعل وعسى ، رأيت
مرحاً في الأرض ، يلعب أمام جدى ، وهنا طلبت الرحيل المباغت ، فرأيت
أبي مولوداً تهدهده أمه ، تلاعبه ، تناغيه ، تناديه بألفاظ المحبة ، رأيت لسانه
صغيراً ، رقيقاً ، عيناه منتفختان لم تتخلصا بعد من زنقة الولادة ، تزايد
أساى ، وهن غصنى ، وتضعض قلبي ، ما أوسع الفارق بين ما أرى ، وبين
وجه أبي الذى ودع به الدنيا ، الوجه المثقل بمواقع السنين والأيام ،
بالغضون ، بالحنين الذى لم يرتو ، القلب الذى لم يشبع ، والتعب البادى
حتى في لحظات سروره ، لمت نفسى ، وعنت عمري ، لأننى عايشته
طويلاً ، خبرت لحظات ضيقه ، واطلعت على منابع آلامه ، ولم يدر بخلقى
أنه كان طفلاً يوماً ، وأنه هدهد ، وأنه لوعب ، ودوعب ، التعمست العذر ،
ومن هو مثلى ليس له إلا التماس العذر بعد أن فات الأوان ، ثقلت اعذارى
فكتمت عني ما بي ، رشحت عيني الوسنى فأخفيت دمعى في أغوار حلقى ،
حنت النخلة عليّ ، مالت يجريدها العالى حتى لامسنى . قالت لى الشواشى :
لا تحزن ، ستعلم عدد السنين والحساب ، خفف هذا عني فأنست بعد
وحشة ، رأيتها فارعة لا تهتر إلا في الليالى العاصفة ، قرينتا مسورة بالنخيل ،
رحل بصرى إلى الموضع الذى احتر فيه رأس سيد الشهداء . رأيته مضمدا
بالنخيل ، حدثنى نخلة أبى : لك عودة إلى كربلاء ، حدثنى عن موت

جدي ، وقيم أبي ، وطمع عمه ، واستناده إلى الجزع المتين ، وتخطيطه التراب بعود قش ، وتفكيره في الأرض التي ورثها أبي ومقدارها فدان ونصف فدان ، وأربع وعشرون نخلة موزعة على البلدة ، أذن لي بالرحيل الحاطف ، فرأيت نفسي أمشي مع خالي عند منحني يتز راحة التين العسلية . وفضاء غروبي تتخلله دقات وابور الطحين ، مكتومة ، تتوحد بالفضاء الصامت الغريب المؤدى إلى المجهول ، يتوقف خالي ، يشير إلى نخلة بين النخيلة : هذه نخلة أبيك ، رأيت جزءاً من زمني المولى ، نصحب أبي ، أنا وأخي الأصغر ، نمشي بين بيوت البلدة ، يظهر عم أبي ، قصير القامة ، نحيفاً ، عمامته كبيرة ، تراجع ، تنواري خلف أبي ، لا نعد أيدينا ، إذ تزور البلدة لا نذهب إلى أهل أبي وناسه ، لانقطاعه عنهم منذ زمن ولساعتنا أنهم أرادوا به الأذى ، لكن أي أذى ؟ وكيف ؟ هذا ما لم نخط به علماً ولم نعرفه ، رأيت أبي راجعاً لتوه من قريتنا ، أطلت التحديق فرأيت عمري في حدود الثانية عشرة ، يحكي أبي أخبار سفرته ، ثم يصمت قبل أن يقول ، إنه باع النخلات ، تسأل أمي : ألم يكن ممكناً رهنها ؟ يقول : لم يقبل أحد والمدارس اقتربت والأولاد في حاجة إلى مصاريف ، وملابس جديدة ، هل يعقل أن يذهبوا بملابس السنة الماضية ؟.. عدت إلى النخلة الوحيدة الفارحة وكنت مقدِّد الأحران ، أقبلت عليها ، تلك تمت إلى أبي وإن لم تعد ملكاً له ، تلك عانى من أجل الاحتفاظ بها ما عانى ، ثم باعها لينفق من ثمنها علينا ، أطلت النظر إليها ، مدت البصر ، وهنا نظر إليَّ إمامي الحسين . فهمت عن صمته ، يطلب ألا أسرع ، أن أحذر العجلة ، إن الإنسان كان عجولاً ، عدت اصغى إلى النخلة ، حدثني فقالت إنها شهدت أبي من الأعلى يعيش مع أمه العمياء بعد رحيل أبيه أربع أو خمس سنين من عمر الدنيا ، كانت أمه تحشي أقاربه ، وتحاف

الأيام الدانية فتدخر المال القليل ، يقول لها أبي : هاتي لنا لحما نأكله ، تنظر إلى الجهة التي يجلس فيها ، تقول : أنا أعمل من أجلك حتى لا تصعب في كبرك ، يرتد أبي إلى صمته ، حدثت إليه بالبصر الموله ، قدرت أنه ينسل من طفولته في تلك السن المبكرة ، وأنه يعول المهم في عمر لا ينشغل فيه غيره إلا باللهو ، لم أره يلعب حيث يجب اللعب ، ولا يجرى حيث يجب أن يجرى ، رأيت يواجه الدنيا صامتا ، يقضى جل وقته في تقشير عيدان البوص وتكوين أشكال متداخلة ، يمر على مقربة من المسجد ، ويصغى إلى أصوات الأطفال ، يرددون وراء الفقيه الحروف ، والكلمات ، فيأسو ، ويتمنى ثم يبتعد ، عادت النخلة تميل على من عل ، غرب زمان أبي ، ورأيت شيخا مهيبا ، قادما من بعيد ، يمشى على هباء ، فانتظرت ما يكون ..

يا من تقضى ..

.. يكتسب ما حولي لونا لا مثيل له في عالم الحس ، درجة واحدة فلا ظلال ، ولا تموجات ، أزرق وليس بأزرق ، يتقدم الشيخ عبره ، يواجه سيد الشهداء ، لم أسمع حوارا لكنني فهمت أنه يأخذ الاذن ، يستدير حتى يواجهني ، عرفته ، تعانقت نظراتنا ، لم أكن قد واجهته منذ أن جاءني بصحبة أحبائي وأوليائي ، عندما تعانقت نظراتنا ، ثم ولى عني بدون لفظ ، وأشحت عنه بدون كلام ، لكنني نفذت وفعلت .. في هذه المرة تحدث إلي ، قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ..

.. اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ، الذي هو أول جسم انساني تكون ، وجعله أصلا لوجوه الأجساد الإنسانية ، وفضلت من خميرة طيبته فضلا خلق منها النخلة ، فهي أخت آدم ، وهي لنا عمه ..

قلت : تلك نخلة تمت إلى أبي . وكما مضى هو ستمضى هي . طال الأجل
أو قصر ، وكل ماضٍ عدم ، وكل مستقبل لا وجود له ، ستجتز يوماً ويصفر
سعتها ، ثم يحف ويذبل ، سيشق جذعها ، ربما امتد جزء منه في سقف بيت
لا نعرف أهله ، وربما نصب جزء آخر في جسم جسر خشبي يصل ضفتين
متقاربتين لا ندرى من سيطره .. قال الشيخ الأكبر ..
لا ينجو حذر من قدر ..
صمت ثم قال ..

في منزل البقاء بالديوان ستجد مثلتها ، مخضرة ، مشمرة دائماً ، ومن
عجائب مطعوماتها أنه أى شيء يؤكل منها أو يبلى أو يتساقط ينبت بديل له
في نفس زمان أكله أو قطعه ، إذا قطفت منها ثمرة فزمان قطفك إياها يتكون
مها مثلها ، فلا يظهر فيها نقص أصلاً ..
سمعت هاتفاً خفياً يصيح ..
يا من تقضى ، ولا يقضى عليك ..
واختفى الشيخ الأكبر ..

النبوءة ..

. رأيت علياً بن أبي طالب في إحدى سفراته يمر بكريلاء ، كان الحسين
ياها بعد ، آمناً عوائل الدهر وعواديه ، رأيت أباه يقف ولا يترجل ،
يصطرب قلبه اضطراباً عظيماً ، يطيل النظر إلى البلدة المحاطة بالخيل ، إلى
الفرات ومائه المتدفق ، إلى السماء المرفوعة بغير عمد إلى تراب الأرض ، ثم
يكى ، فيسأله من معه ، لماذا بكى ؟ لكنه لا يجيب

التمهيد ..

.. عادت النخلة الحبيبة تحذني فأصغيت ، قالت إن عم أبي راح يلف
البلدة ، يزور البيوت ويتحدث إلى الأقارب ، إلى الأعراب ، إلى المقيمين ،
إلى العابرين ، يكلمهم عن الأرملة العمياء التي مات زوجها وتعيش مع
طفلها الذي لا يدري من أمور الدنيا شيئاً ، انها تمشي على هواها ، تجلب
العار للمرحوم شقيقه ولابنه من بعده ، رأيته يجلس عند السواقي وقرب البئر
القبيلية ، في الرحبة المبللة بضوء القمر والنجوم النائية ، يتكلم بلسانه ويديه .
له تهته واطراقة . وإشارة من أصبعه الصغير ، يردد .. إذا كانت سيرة المرأة
بهذا الشكل فهل الولد - يقصد أبي - من صلب ابيه حقا ؟ .. تحدث طويلا
وعينه على الفدان ونصف الفدان من قبل ومن بعد ..

تجلى الوجوه المتتابعة

.. تمهلت نخلتى ، اخضر جذعها ، وايض سفعها وتباطأ عن الاهتزاز
حتى مسكن ، سرى داخلي ترتيل خفي ، تساوى عندي القرب والبعد واقترن
الشرق بالغرب ، شددت الرحال إلى الجهات الأربع الأصلية وأنا واقف لم
أبرح مكاني ، سفرى خاطف ، والبرق حولي بريق ، والأنغام خفية ، مرقت
عبر مدن هاجمة في ضوء غروبي واهن ، تمهلت خطاى في ضواحي آوى
سكانها داخل بيوتهم فما من إنسان يدل أو يرشد ، ترقرق مكنون قوادى ،
وتبسبت الأزمنة أمامي ، وترددت أصداء اللحظات المارقة ، والأوقات
المتباعدة عني ، المنقضية ، وصلت إلى انحاء شاسعة ، رأيت وجوها جمّة ،
رأيت أيدي تقبض على حفن من تراب كربلاء ، تحمله آينا اتجهت ، رأيت

اللحظات التي فار فيها تراب البقعة المشهودة مختلطا بلون الدم فأنياً بما سيصير
 وما سيجرى لمولاي ودليلي ، رأيت وجوها من جيشه قليل العدد ، رأيت
 وجوها من الجيش الذي عرفته وعرفني وشهدت حربه قبل اغرار الزمن ،
 رأيت وجوها متحلقة حولي ، كالفناديل الهائمة ، رأيت وجوها ظمأى ،
 وجوها تميل بعد عبور القناة لتقبل الرمال المحررة ، رأيت وجوها باهتة ،
 وأخرى ساكنة . وجوها ناطقة . وجوها زاعقة ، مصدر الصرخات لحظة
 الالتحام بالعدو ، رأيت وجوها غائبة ، وأخرى هويتها حاضرة ، وجوها
 حائرة ، وقلة آية ، رأيت وجوها مثقلة بالغبية ، بالوحدة ، بالعزلة ، ورأيت
 وجوها ونيسة ، ضاحكة . رأيت وجوها قادمة إلى الدنيا لتوها وأخرى ماضية
 إلى مجهول محض ، وجوه ساعية ، وأخرى قاعية ، رأيت وجوها في وجوه ،
 مبحرة عبر الشطايا ، تغوص ، تطفو ، تمسك بالحد المتين ، تلك ملامح
 مفترقة للأنس ، وهذه متألمة ، وتلك عابسة . وجوه أعرفها . وكثرة أجهلها ،
 تتوالى المرثيات ، أطياف ، وشفق ، تداخل ، انفراج ، تباعد واقتراب ، في
 الخضم لمحت وجها لم أراه إلا مرة واحدة في زمن الجراح النازقة ، أيام وقوع
 الهزيمة ، توصلت إلى شفيعى أن يوقفنى عنده فاستجاب لى . خاطبته بضمير
 صارخ وذاكرة جليلة ، قلت له : غبت عنى بعد أن رأيتك المرة الأولى
 والأخيرة ، لكنك باق فى قلبى ، والبقاء الحقيقى فى القلب ، كاللوت
 لا يكتمل إلا إذا استقر فى القلب . وتذكرت بألم ينهل مى ويستقى ، زيارتى
 لزوجة صديقى الشهيد ، لا مبالاتها ، وتبدد الذكرى ، وسريان النسيان .
 قلت له : أنت تسكن عندى فى مترلة الصاحب والمثل والقدوة ، قلت : لن
 أكذب ولن أدعى . قد تمر أيام لا استعيدك فيها ، لكنك حى دائماً إذ
 تتداعى المعانى حولك ، أنت رأيت أيام الضياع العظمى بداية فقد عصره

بأكمله ، مفتتح زمن البلوى ، كنت لا أطيق العودة إلى بيتي ، أخشى
المجوع ، وأخاف الانفراد ، من مقهى إلى مقهى تنقلت ، من شارع إلى
شارع ، ظهر الجند المتعبون المنسحبون من خط الدفاع الثاني ، أذكر أحدهم
مهبل الثياب ، منكوش الملامح ، ضجيت سينا بالظمأى ، والقنلى ،
وشبعت الضباع والذئب ، سمعت أصواتها المسترخية في ليالى يونيو الحارة عند
خروجها إلى الخلاء تطلب شم الهواء لتضم اللحم الآدمى ، وقالت إحدى
مجنذات العدو الذى صار صديقا ..

وصل فى فصل

أقول أنا :

عجبت لناسى وقومى ، يتصرون إذ يهزمون ، ويهزمون عندما يتصرون ..

وصل فى وصل

.. قالت المجنذة : غاصت مدرعاتنا فى الأجساد كما تغوص السكين فى
الزبد ، وفى حجرة رمادية الطلاء بمبنى احدى الصحف قابلته ، كان مبحوح
الصوت بعد طوافه يوما وليلة وجمع من الحلق وراءه يهيب بعبد الناصر ألا
يذهب ، ألا يمضى فى تنفيذ ما قاله عندما أطل بوجهه مكروبا من شاشة
التلفزيون ، قبل ظهوره بثوان كنت آمل فى مفاجأة يعلنها أو تطور فى أبناء
القتال يخفف بدايات جراحاتى ، لكننى عندما رأيت ملامحه الثكلى تضعضعت
أمانى ، تدكدت الأيام ، فى الحجرة المطلية باللون الرمادى قال صاحب
الوجه المتألم : لا فائدة ترجى من الكلام الآن ، ضاع الوطن الأول ، ويضيع
الآن جزء من الوطن الثانى ، ما من حل إلا القتال ، انصرفنا ، افترقنا ، أمام

المبني سألت صاحبي الذي يعرفه : من يكون ؟ قال إنه فلسطيني يدرس الزراعة في القاهرة ، وينظم الشعر أما اسمه فمازن أبو غزالة ، توالت الأيام النقال ، ذكرته والأوجاع متمكنة مني ، وسوء الليالي تلفني ، كم مر من الزمن حتى قرأت اسمه في الصفحة الأولى للجرائد؟ ، ربما شهر أو شهران ، ذات صباح من هذه الصباحات المؤدية إلى الشتاء ، أطل على اسمه من سطور الصفحة الأولى عندما كانت معارك الثأر تنشر في الصفحات الأولى ، كنا صور الشهداء ، كان ذلك قبل انقلاب الآيات ، وتبدل المعاني ، قبل أن يصبح الأخوة ألد الأعداء ، والاتصال بهم أو التعاطف معهم ، يجعل الواحد منا جاسوسا أو خائنا - اذن .. استشهد مازن أبو غزالة - أقول استشهد ولا أخشى - فوق مرتفعات طوباس ، ما زلت أذكر الموقع الذي سألت فيه دماؤه ، ورأى منه الصورة الأخيرة - ترى ماهي ؟ - ما زلت أذكر موضع الخبر من الصفحة ، وعبارات البيان ، ما زلت أذكر طوباس ، اذن .. أنا حي القلب ..

ملتقى خاطف ..

نعم .. الذكرى لمن كان له قلب ..

وصل في وصل في وصل

.. رأيت وجه مازن عند انهيار الجسد . جاءته الشظية من جانب الصدر الأيمن ، ولت ملامحه عني . رأيت قبسا ضئيلا من يوم كربلاء ، عبد الله بن مسلم بن عقيل يقترب من الإمام الحسين ، يقول : أتأذن لي بالقتال ؟ يقول له

الحسين ، يا بني كفاك وأهلك القتل ، يقول : يا عم بماذا ألقى جديك محمدا
وقد تركتك ، والله لا كان ذلك أبداً ، يتقدم ، يحمل على القوم يقاتل ،
يرميه رجل بسهم ، يخترق جانب صدره الأيمن ، يسقط صارخا ،
متحشرجا ..

وا أبتاه .. وانقطاع ظهراه ..

تلوح ملامح مازن في أفق قصي ، زعقت ..

مازن .. عرفت كيف تموت ، ولم نعرف كيف نحيا ..

رأيت وجه جندى عمره يماثل عمري ، نقف في خندق محاط بأكياس
الرمال وصفائح مضلعة من حديد ، يشير إلى الضفة الأخرى من قناة السويس
يقول : بعد قليل تتغير نوبة الحراسة عندهم ، رأيت وجهها هائماً ، حائماً
كقنديل مضيء معلق بجيوب لاتري ، لم أعرف صاحبه ، رأيت وجه أبي كما
كان يبدو في تلك الأيام التي لم أكن أدر أنها أخيرة ، رأيتُه متعباً ، ينظر إليّ
من داخل عينيه ، وكنا نقف عند محطة للأوتوبيس ، وثمة رجال ونساء
ينصرفون ، يتفرقون ، العودة الليلية ، رأيت وجه أبي ، يسعى في صباح
باكر ، يحمل إبطارنا ، طبق الفول ، ودورقا مليئاً باللبن ، رأيتُه كاملاً ،
يرتدى الجلباب ، ويمشي في طريق أعرفه ، واحفظ ملاحظه لكثرة ما عبرته في
صغرى وفي كبرى ، في مبتدئ وفي خبري ، طريق يصل بين حارة الدرب
الأصفر ، ومدخل حارة الميضئة ، وكان البقال في موضعه ، والمدرسة
الابتدائية ، وتاجر الخضار ، والمسجد الأثري القديم ، ومدخل الحمام الصغير
الضيق ، والمقاعد مرصوفة أمام المقهى ، رأيت هذا كله ، وكان يتكشف لي
جزءاً فجزءاً ، لكنني لم أر غير أبي ، الطريق خال تماماً ، لون الضوء
يرتقالي ، درجة من اللون كونية لا أرضية ، ثم رأيت نفسي فجأة ، ولم يبد

على أبي أنه لاحظني ، أو رآني ، استمر في مشيه وكنت أمشي إلى الخلف ، أواجهه بصدري وملاحني ، يتقدم وأتراجع ، لا أخشى التعثر أو الكبوة ، كنت أرى يظهرى ، كنت أواجهه في حركته ، قامتي تماثل قامته ، كل شعرة من رأسي بجذاء شعرة من رأسه ، عيناى تقابلان عينيه ، وأنى يقابل أنفه ، ونفس التعبير الذى أراه على وجهه ، منطبع على وجهي ، ناديته فلم أسمع صوتي ولم يسمعني ، لكن خيل إليّ أنه التفت إلى جهة ما ، فجأة تراءت وجوه ، تدفقت ملامح ، رأيت وجه الرياح ، وجه المطر ، ملامح الندى ، وجه الظل ، وجه الليل ، وجه النهار ، النهار المشمس والنهار الظليل ، وكان ذلك أشمل من عيني ، من حدقتي المحدودتين ، لم أحتمل ، لذت بحبيبي لكنه شغل عني بالنظر إلى جهة لا أقدر على تحديدها ، جهة ليست من الجهات الأصلية أو الفرعية تطلعت إلى ناحية خاطبتني منها النحلة الباسقة ، لكنني لم أرها ، بل أدركت أن أوانها آدن بانتهاء ، ربما تعاودني فيما بعد ، توارت عني ، صممت عني ، ولا قدرة لي على انطاقها ، كنت حزينا ولا أخشى الحزن ، فالحزن إذا فقد من القلب خرب ..

تنبيه

ما يجمعه وقت ، يفرقه وقت .

درس

اعلم أن العالم الدنيوى الذى نحن فيه الآن له انتهاء يؤول إليه لأنه محدث ، وحكم المحدث أن ينقضى ..

أمنية

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى ..

نشوء الحيرة

. أطلعني مولاي وقره عيني على بعض من أسرار رحلي ، عرفت أنه من بين رفاق سفرى الأصوات والروائح والأحاسيس ودقائق ما يقفى وما يستحدث ، عرفت أنني إذا أخلصت الاستجابة للتجليات رأيت ، وإذا رأيت سمعت ، وإذا سمعت شعرت . وإذا شعرت استقصيت ، وإذا استقصيت فهمت وإذا فهمت أدركت ، وهكذا اندفعت ، انجرفت إلى تلك اللحظة النائية من الليل المنطوي في غيايات الدهر . رأيت جدتي نائمة ، أخبرني الحر الشديد أن الخلق ضجوا منه لطول اقامته ، وثقله . وقال بعضهم إن مثله لم يقع منذ سنوات ، تحففوا من الثياب . واحتموا بعتمة الليل . ضاق صدر أبي ، فصعد إلى أعلى السقيفة . نام فوق أقراص الجلة الجافة . وعيدان البوص ، كان يرتدى جلباباً قديماً . ولى وجهه باتجاه السماء ، نظر إلى النجوم . إلى ضباب غامض يتخلل الفراغات ، وهنا أخبرني نجم قصي أنني مقبل على لحظات سيستعيدها أبي مراراً . في أمكنة متباعدة ، في أوقات مختلفة . في الصحو والنوم ، أخبرني الليل الجليل أن ملامحه أثناء النوم بدت متعبة ، أكبر من عمرها الحقيقي ، وأن نومه هادئ ، لا صوت يصدر عنه . صدره مستظم في نفسه . هنا ما أكده لي أيضاً الهدوء الجنوبي المشحون بالندر ، وجن قلبي ، تمتيت لو أزعق . لو أهزه محذراً ، لكنني لم أفعل لاستحالة تحقق ذلك ، هنا نطق الصمت . سمعت السكون يقول إنه كان

مستكنا ، لايلدده إلا نباح كلب ناءٍ ، أو أصلاء بعيدة غامضة المصدر ،
قادمة من أعماق الدنيا ، واهتراز أغصان أو أوراق لمرور حيوان ما عبرها ،
وعواء مملوط لذئب يقعى ، حدثنى الصمت المستكن فقال إن الذين قدموا
إلى البيت كانوا حفاة ، تسلقوا الجدار البحرى المبنى من اللبن ، هبطوا الفناء
الداخلى ، ثم ولجوا الغرفة ، بركوا على جلدق العمياء ، صرخة ناقبة ، فيها
فزع إنسانى ، ونهاية لا بداية بعدها ، ومباغته ، وعماء فى عماء ، حدثنى
الصرخة فقالت إنها آخر صوت نطقته قبل أن يكلمها ، قبل أن يغوص
النصل أربع عشرة مرة فى جسدها ، وهنا كلمنى الذعر الذى ألم بأبى ، قال
إن أبى لم يستيقظ بسبب ضجة ، أو صرخة ، كان مستغرقا ، خلوا من
الأحلام فى هذه اللحظات لكن ثمة شيئا غامضا ، سيبأ يستعصى على
التفسير ، جعله يقوم لاهث الأنفاس ، قلبه يلقى ، وعرقه يتزف ، أكد لى
الذعر الذى ألم بأبى أنه لم يوقظه ، لكنه حل بروحه وسكن جسده لحظة أن
فتح عينيه ، وأن أمورا غامضة رافقته عند تمكنه من أبى ، وأن هنا كله دفعه
إلى الجرى ، إلى القفز فوق أسطح البيوت المجاورة ، عاد الصمت ليحدثنى
عن نباح الكلاب الذى بدأ ، نباح ليلى مندر متلاحق ، فى هذه اللحظة
رأيت القتلة داخل البيت يتقدمهم عم أبى ، يبحثون داخل الصومعة ، فى
غرفة الخزين ، فوق الفرن ، ثم صعدوا السطح ، تكسرت عيدان البوص ،
وأقراص الجلة تحت أقدامهم ، رأيت النصل الذى قطع الأوردة ، وأنهى
حياة جلدتى ، خفت أن يعثروا على أبى ، أن يلحقوا به ، رأيت وجه أبى
مغموسا فى خوف ورعب وظلمة ، سمعته يردد . استريارب .. استريارب ..
أمى ، أمى ، لم يكن قد عرف بعد بما جرى لها ، علمت بمقتل جلدتى قبل أن
يعلم ، واطلعت عليها فى لحظاتها الأخيرة قبل أن يدرى أو يتخيل انى سأكون

ابنه ، كنت قريباً منه ، وكان دائماً منى ، حدثتني مسام جلده عن عرقه
الغزير ، رأيت ارتعاش اطرافه ، رأيت تهدجه ، رأيت لحظة ميلاد هذه
النظرة التي لازمتها حتى في أوقات مرحة وتخففه من كدوراته ، نظرة الشقاء
والضنى ، نظرة تعب وحيرة ، نظرة الرغبة في الهجوع ، في التماس الراحة ولو
لمقدار محدود من الوقت ، اصغيت إلى صوت نحيب ، اسيان ، لم أدر
مصدره ، أو كنهه ، يقول لى أنها ليست بنظرة ، لكنه ملمح أيضاً ، وصفة ،
ومعنى وعلامة ، ما رأيته ميلاد الحيرة والخوف من المجهول اللامرئ ، لكنت
لم ولن تعرف مقدار الحنين الذى أنكه أباك طوال عمره ، وحزنه الشاحب
الرهيف ، الحاد كنصل السكين عند استعادته هذه اللحظة ، قبوعه في الليل
الغميق مطاردا بالموت ، واليقين من أنه لن يرى أمه ثانياً أبداً . لحظات إذ
يستعيدها تعكسه وتدممه ، تضفى الرجفة على خطاه ، والقلق على توعده ،
والسكوت المفاجئ أثناء حديثه ، والغم لحظات سروره ، والشروء عند
اصغائه ، وتأتى بالكوايس إلى نومه ، تدفعه إلى التردد بصوت مرتفع .. آه
يابوى ياأنا .. ابتعد الصوت عنى ، غير اننى رأيت لحظات متوالية متتابعة ،
من أزمنة متباعدة ، يجلس فيها أبى صامتا بيننا ، يقول فجأة .. آه .. آه ..
يابوى ياأنا . يقعد في شرفة آخر بيت سكن فيه ، البيت الذى كان بسقفه
وجدرانه آخر ما رأى ، يسند رأسه إلى يديه ، يقول فجأة . آه يابوى ..
يأكل ، يجلس بين ضيوف جاءونا من البلدة ويتحدث ، يضحك ، ثم
يسكت فجأة ، آه يابوى .. يأكل ، يمضغ ، يبلع ، يصمت .. آه يابوى !
يسعل ، يعبر طريقا مزدحما ، يغص بالخلق في وسط المدينة ، يتوقف ، بينما
يعبره الزحام من جميع الجهات ، يقول .. آه يابويا ياأنا ! ..

واقعة .

ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثمانين ميلادية ليلة تفصل غروب يوم الإثنين عن شروق الثلاثاء ، عدت بعد سهري إلى بيت صديق الذى أفضى فيه أيامى بمدينة باريس الأوروبية ، فردت الأريكة بنية اللون المقشوش فماشها بورود زرقاء والتي تتحول إلى سرير ، غسلت وجهى وأسنانى ، وملأت كوبا أحرص على أن يظل قريبا منى أثناء نومى خوفا من ظمأ مفاجئ ، نمت ، لم أدر بماذا حلمت ؟ أو ماذا رأيت ؟ لكننى فزعت من نومى ، فمت مكروبا ، أنفاسى متلاحقة ودقات قلبى متسارعة وعرقى وفير ، وأطرافى مرتجفة ، لم أدر أى حلم رأيت ؟ أو الصوت الذى يقطنى إن كان هناك صوت ؟ لكن بؤرة ما هزنى كان أبى ، كنت ملهوبا ، خائفا عليه ، وعندى شفقة وحنو عظيمان ، قعدت فى الفراش مرددا بلا توقف ، بلا فواصل سكونية ، مالك يابوى . مالك ؟ ..

ثم تداركت نفسى ، نظرت حولى ، بدأت أعمى ، تلك حجرة ليست فى بيتى ، هذا بيت ليس فى مدينتى ، أنا فى مدينة نائية عن موطنى ، أنا فى سفر بعيد عن أبى ، أبى بعيد عنى ، خف كرى ، قلت بصوت مرتفع : هل سأصدق الهواجس ؟ نظرت الى ساعتى ، كانت الثالثة والثلاث من فجر يوم الثلاثاء بتوقيت باريس ، نفس توقيت قاهرتى ..

تفسير ..

.. تجلئ لى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ولما كنت لا أقدم على تصرف أو فعل إلا إذا نظرت إلى سيدى الحسين ثم استأذنه بالقول أو النظر ،

لهذا تطلعت إليه ، فأذن لي .. بادرني الشيخ الأكبر فقال إن ما جرى في باريس ليس بغريب على بعض الأفراد دون غيرهم وإنما يجب ألا أطيل التفكير في ذلك لأن أموراً عديدة لاتزال مستعصية على الإدراك لكنها ستعرف يوماً ..

لاحظت أنه يتحدث إليّ بدون أن يقترب مني ، وأن مسافة تفصلني عنه لم استطع تحميدها ، تبدو لي قريبة ، لكن صوته لا يتغير ، وحجمه في نظري لا يدركه نقص أو زيادة حدثني برفيق إشارة ودقيق عبارة :

رأيت مثل ذلك للوالدي - رحمه الله - وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرني بموته ، وأنه يموت يوم الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته - وكان مريضاً شديداً المرض - استوى قاعداً ، غير مستند ، وقال لي : يا ولدي اليوم الرحيل والبقاء ، فقلت له : « كتب الله سلامتك في سفرك هذا ، وبارك لك في لقائك ! » . ففرح بذلك وقال لي « جزاك الله يا ولدي عنى خيراً ، كل ما كنت اسمع منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده » ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء ، له نور يتلألأ ، فشر بها الوالد ، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه ، فقبلته وودعته وخرجت من عنده ، وقلت له « أنا أسير إلى المسجد الجامع أن يأتي نعيك » ، فقال لي : « رح ولا تترك أحداً يذخل عليّ » وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر ، جامع نعيه فجئت إليه ، فوجدته على حاله - يشك الناظر فيه - بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ..

قلت : « إذن سافر أبي في نفس اللحظة التي فزعت فيها ؟ »
قال الشيخ الأكبر :
« نعم » . ثم اختفى ..

ماذا لو؟

ماذا لو أنه نام بالغرفة إلى جوار أمه ؟ ماذا لو أنه لم يفرغ من نومه ؟
ماذا لو انه لم يول مبتعدا ؟ تساءلت فعدت أراه بجوار أمه ، الليل ثقيل
والصمت جاثم ، لم يحدثني الصمت ولم يشرح لي النجم القصي ، إنما رأيت
الظهور المفاجئ للقتلة ، النصال ترتفع وتهوى ، يتمكنون من أبي ، وهنا
أحاطني عماء ، وتبعثرت في الموجودات ، تفتت إلى ذرات غير مرئية ؛
وتلاشيت في منزل النسيان فلم أكن ، ولم أكن نطفة ، ولا علقمة ، ولم أكن
شيئا ، لم أنطق ، ولم أبصر ، ولم أصغ ، تبددت ، وذاب وعيي في لا
وعيي ، استغثت ، استنجدت ، امسكتني شفيعى منها ذلك التجلي الثقيل ،
كنت مرعوشا فطبطن عليّ ، واساني ، وحننا عليّ ، اسر إليّ بما جرى عندما
عاص النصل في ظهر أبيه علي بن أبي طالب ، قال إنه رأى قاتل أبيه بعينه
لكنه لم يد إليه يدا ، لم يعذبه كما ادعى بعض المؤرخين من عملاء معاوية
أوصى والده بذلك وأنفاسه تتناقص وتمضي إلى التلاتي ، قال له ولأخيه
الحسن : عزمت عليكما لما حبستما الرجل فإن مت فاقتلاه ولا تمثلا به . قال
مؤسى انه رأى قاتل أبيه بعينه ، هنا لمحت التأثر في صوته ، فأطرت صامتا
وأنا متحير ، لا أدري ماذا أقول ؟ وكيف أواسي أنا من يواسي الدنيا ؟ وكيف
أخفف عنم يخفف آلام الشهداء ، أتى لي بمخاطبة من هو بجراحات الدنيا
خبير ، علمي ؟ ، وكأنه أدرك ما بي ، فتركني أعود إلى أبي ، أو أعود أبي إليّ

سلام ..

.. السلام على الأيام الرواحل ، السلام على الأعمار المتقضية ، السلام على الهجة الزائلة ، والبسمة الحانية ، والأنة الشاكية ، واللحظة التي لا يمكن استعادتها أبداً ، السلام على أيام الجهاد ، والثرى الذى احتوى ، والظلال الوارفة ، السلام على ماهوآت ، السلام على الدهر المهلك ، المحيى ، القائم بالسنن ، السلام على الطل والندى .. السلام ، السلام على المن والسلوى ..

السفر إلى البدايات والنهايات ..

. سافرت برقعة إمامى إلى تلك الأيام من حياة أبى ، دنت منى الموجودات بعد طول نأى ، ودنوت منها بعد شتات عجيب ، حدثنى الليالى المتوالية عن بداية هجاج أبى ، وهيامه على وجهه ، حدثنى مواطئ قلميه عن خطوه المتعب ، عن كده وتعبه ، عن قعوده ، عن قيامه ، عن تمدده بقرب السواقى المهجورة ، والآبار التى جفت ، وعند حقول القصب ، عن هربه من عمه الذى سكن البيت ، وراح يبحث عنه ليقتله وتوول إليه قطعة الأرض والتخلات ، كلمتى السكونات المسائية ، وافصح لى الصمت الغروبى ، عن خوفه ، عن حذره ، عن افتقاده السقف ، والقراش اللين ، والباب المغلق ، ورائحة الطعام فى القدر الفخارى فوق الكانون ، ورائحة الأرعنة لحظة خروجها من الفرن ، عن قراءته الفاتحة كى يبعد الشياطين والأرواح الشريرة السارحة وأرواح المقتولين الهائمة ، الأرواح التى تظهر للناس فى صور مختلفة ، على هيئة بشر ثم تنقلب إلى صور الحيوانات والسعالى ، تطول وتقصر ، ترسل الشرر ، حدثنى قمر ضنين الضوء غير مكتمل عنه ، عندما ليد بين التخيل فى المنخفض الممتد تحت بيوت

البلدة ، ورؤيته لحيال غريب يمرق عبر السعف المتشابكة ، يقفز يتدلى ، يتقلب ، يقذف أماكن نائية بججارة مستديرة ، لم يدر أرى من أين يتناولها ومن أى جعبة يستخرجها ؟ ، تلاأبى الفاتحة ، وآية من قصار السور ، اختفى الحيال ، فيما بعد عرف أنه عفريت قاطع طريق ، وأنه يظهر في الليالي شبه المظلمة ، وانه يقذف مواضع بعيدة جداً بالحجارة ، حدثتني الليالي المتعاقبة عن ارتعاده ورجفته ، ودعائه ان يقضى الظلام ، ان يسرع النهار بالمجيء ، عن خوفه من الذئب ، من الضباع ، خاصة الضباع ، سمع أنها تعقب الإنسان بصبر ، بإصرار حتى ينال التعب منه ، عندئذ تثب عليه ، تضربه ضربة واحدة ، تطرحه أرضاً ، تبدأ لحس أجزاء معيته من جسده ، ما حول الأست ، باطن القدمين ، حتى تتفكك الأعصاب ، عندئذ تبدأ الالتام الشره ، كلمتى نخلة نصرة ، سخية الطرح ، قالت إنها مدينة بوجودها واهترازها اللطيف ، واخضرار سعتها إلى أبي ، لم يكن يمكننا ان توجد لولا دفته لنواة بعد أن أكل بلحة صفراء صغيرة مستطيلة ، عاش اياماً على البلح المساقط وثمار أخرى ، تلك البلحة الصفراء تأملها بعيني الأرقنتين ومسح التراب عنها بيديه ، بعد أن أكلها شرد ذهنه ، ساح بفكره ، وتذكر أمه ، ترحم عليها بصوت عال ، ثم بكى ، واثناء بكائه دفن النواة الصلبة في الطين ، فوق نفس الموضع تساقطت دمعات من مآقيه ، دموعه أول من روى البداية ، قالت لى النخلة إنها منذ بزوغها إلى الدنيا ، في نفس اللحظة الماثلة تذرف دموعين وان جاراها من دمع أبي القديم ، ولن يتزف كله إلا إذا ذبحت أو اجشت من جذرها المتين . تعجبت وتأثرت ، قلت :-

إذن أنت مسقية بدموع أبي ؟ تختزنيها في رحلك المكنون ؟ قالت النخلة المزهوة النصرة ، لولا أبوك لما كنت ولما تمايل سعي عند هبوب النسائم ، لما كان طرحي ، واخصابي . كدت اطلب لحظة بزوع الدمعتين غير ان مفرج كروبي

امسك يدي مسكا هينا لينا حازما ، قادنق فرأيت قبرا وحوله رمال صفراء ناعمة متوحدة اللون كأنها لا تفارق الأصيل أبدا ، منها تنبت شجيرات شاحبة الخضرة ، لم أعهد لها ولم أعرف اسمها ، أشار قائلاً : هذا منوى أبي أمير المؤمنين ، وتلك الشجيرات منا ونحن منها ، صحبني إلى روية أخرى ، رأيت قبر جمال عبد الناصر الرخامي ، رأيت مهجورا من الحراس ، من الناس ، أما الزمن فمتقدم عنى غريب على ، عرفت ان القبر خال منه ، فكذت أستفسر ، لكنه أشار إلى ورود حمراء صغيرة يتخلل كلاً منها دوائر زرقاء ، تتوسط كل دائرة نقطة بيضاء ، قال إن هذه الورد منه وهو منها ، اضمرت السؤال ولم أعين وقتا لنطقه ، صحبني إلى روية تالية ، إلى قبور غير مطروقة ، لا يعرف الطريق إليها إنسان ، لا تزار أيام الأعياد والمواسم ، ولا يقف عند اطرافها باعة الزهور الصفراء الغامقة ، زهور الموت ، ولا يقصدها الفقهاء ، قبور بلا علامات ، تحوى رفات جنود ماتوا في حروب متتالية ، رأيت سيناء وضفتي القناة وأماكن متباعدة من الوادي ، رأيت خنادق مطمورة لا تبدو معالمها ، وأساسات مذكوكة لقواعد خرسانية اقيمت يوما ، طلع على وجه نسيته ، لم أره في زمانى الدينوى إلا للحظة عابرة ، عامل أجهل اسمه من عمال البناء الصعايدة محمول على محفة ، ساقه اليمنى مبتورة أثر غارة من طيران العدو ، العدو بلغة زمنى القديم ، وجه خرج صاحبه من قرينه القصية يسعى طلبا للرزق ، جاء مع الترجيلة إلى الجهة ، تذكرت اين رأيت فى قسم بمستشفى عسكري غص بالجرحي ، لم يكن قد استقر بعد فوق سرير ، رأسه لا يلامس المحفة ، فى عينيه اسى وخوف من أيام صعبة سيواجهها بلا قدرة ، بلا ساق تعينه وتساعده ، هذا القلق ، تلك الملامح السمراء ، شكل مقدمة الرأس ، ليست غريبة عنى ، لوهلة خطر لى أن ملامح أبي تلقى بظلال ، أشفقت وجزعت أن تكون ساق أبي قد بترت يوماً مع أنها لم تمس بسوء ، وأبى نفسه سافر بلا عودة ،

لكن رحيله لا يعنى من الخوف أو الضيق لو فكرت في احتمال أن مكروها كان سيصيه يوماً ما ، رأيت أوراقاً مطموسة المحتوى ، وفوارغ ذخيرة ، وأسلاك تليفونات ميدانية مدت عبر الحذر والحشية ، وانفعالات شتى ، رأيت شظايا صدفة ، وسلسلة بها حلقة محفور عليها رقم جندي ، رأيت دروبا في التيه ، وأصداء نظرات حذرة ، وروائح سابحة في الأعلى ، أشار مولاي بأصبعه في حركة دائرية ، قال : هؤلاء من قومك .. هذا منهم ، وهم منه . ثم صحبني إلى رؤية تالية ، إلى قبر أبي ، وهلع قلبي ، لم أجده ، إنما رأيت مبنى شاهق الارتفاع ، أبيض ، أصم ، نوافذه مصمتة ، غريب لا أعرف ما بداخله ، رأيت فراشات صغيرة عاجية اللون لا ترى في ضوء الدنيا العادي ، قال : هذه من أبيك ، وأبيك منها ، قلت ملتاعا ، وهل تعني أنني أنا ، وانها هي هي ؟ وهنا صمت عني ، عدت إلى أبي الطفل المطارد من عمه ، عدت لتصبح بدايتي في نهايتي ونهايتي في بدايتي ، تجلت لي غمامة بيضاء هيئة لينة ، تسبح فوق ذرى شاهقة ، جبال بعيدة عن موطني ، لم يذهب إليها أبي ولم يسمع بها ، رأيت خطوطا نحيلة فوق السفوح المتعرجة ، المتقلبة ، بعد تدقيق ، عرفت أنها مياه ناتجة عن ذوبان الثلوج ، وأنها بدايات الأنهار ، هذه الحيوط النحيلة ستلتقي بخيوط أخرى ، ستكون خطوطاً اغلظ ، تحفر مجرى أعمق ، ثم يلتقي المجرى بالمجرى ، ويصب المنبع في المصب ، والمصب في المنبع ، تتوحد البدايات بالنهايات ، والنهايات بالبدايات ، وهكذا تتدفق الأنهار الكبيرة إلى البحار إلى المحيطات إلى الأعلى ، من يرى وهن البداية لا يمكنه تصور عنف النهاية ، انتهت إلى الغمامة تناغيني وتلفت نظري ، دهشت ، وكنت أرى الغمام في الأعلى لأول مرة ، أتجول بينه وعبره بلا حاجز ، أخطو فوقه ، وأميل عليه ، وكان بإمكانى أن اتكئ لو أردت ، قالت الغمامة والسماء تلوح مها : أنا أحتوي أبيك ، أنا من أبيك ،

وأبيك مني ، تساءلت : كيف ؟ فقالت والريح طيبة تدفعها إلى مستقر لا أعلمه ،
أنها في ذلك الزمن كانت ماء ثم أصبحت بخاراً ، ثم صارت غماماً ، وضباباً
وندى ، ثم عادت سيرتها الأولى إلى حين ، في إحدى مرات التحول والتقلب
والتغير كانت جزءاً من مياه ترعة تحترق قرية أبي ، ترعة تمتلئ دائماً بمد الفيضان
الذي كان يغرق تلك النواحي ، قالت الغمامة إنها لامست جسد أبي ، تساءلت :
كيف جرى ذلك ؟ قالت : كان أبوك يهيم على وجهه ، ويخشى الظهور في دروب
القرية ، لم يكن يمتلك إلا جلباباً وطاقيّة وسروالاً ، الجلباب تهرأ ، تمزق ، كان
أحياناً يغسله ، ينشره في الشمس ليجف ، وإذا مر إنسان يستتر نفسه بالماء ، هكذا
نزل إلى الترعة ليحجب عريه أثناء مرور أربعة من الجمالّة يسوقون جمالهم المحملة
بالقش والحطب والجريد ، قضى وقتاً ليس بالهين لأن ثلاثة جاءوا ، توقفوا ،
قرفصوا ، وبدأوا الكلام ، وزادوا وعادوا فيه ، عندما ذهبوا خرج متعباً ، وكنت
أنا قطرات أبلل جسده ومسامه ، طرح نفسه في الشمس ، وكان ذلك أوان تحول
وتغيري ، فارقت جسد أبيك بخاراً غير مرئي إلى الأعلى ، لكنني أودعته أثراً لم
يظهر إلا عندما أوغل في العمر وتقدم ، قلت : هذا صحيح يا غمامة لا أعرف
مرساها أو محريها ؟ حدثتها عن آلام عاودت أبي في الأيام الديسمبرية ، إذ يظهر
ينحطو متناقلاً ، يكر على أسنانه ، يلفظ الآهة المكتومة ، تلتوى ملامحه ، يكتم
الشكوى ، يطلع السلم درجة درجة بصعوبة ، قلت لم يذهب أبي إلى أطباء من
تلقاه نفسه ، في الليالي الشتوية يتمكن منه السعال ، يهتر جسده تطلب أمي منه أن
يذهب إلى طبيب ، فيقول بعد أن يهدأ قليلاً أنه سيذهب غداً إلى قصر العيني ،
ويجيء الغد . ولا يذهب ، يعود أحياناً بأوراق شجر الجواقة ، يغليها في الماء ،
يقول إن ذلك المشروب يشفي السعال ، يطلب مني صحيفة قديمة ، يطبقها ،
يضعها على صدره ، لكن السعال لا يخف ، يتكرر في ليالي الشتاء ، يعقب التوبة

بأهة .. آه بابوى ، لم يذهب إلى طيب ، لو أنه :.
صحيح ، لكل شيء قدر ، صحيح ، للأعمار حدود ، حدود ، لكن
الدنيا أسباب متقابلة ، متعارفة ، متداخلة ، لو ذهب إلى طيب ! .

ابدت الحسرة القصوى ، غير أن الغامة قالت : أنت تحدثنى عن أشياء
أجهلها ، ما أعرفه ميلاد ذلك الألم ، الذى سرى ثم قضى ، بداية توغله من
العصص ، قلت : هذا موضع لم نخط به خيراً ، قالت : أنت تنسى أو
تنسى .

جزعت لقولها ، قرأت أبي مستنداً إلى كنى وعمرى بين الثالثة عشرة
والرابعة عشرة ، نفق داخل مستشفى عام ، طيب شاب يرتدى معطفاً أبيض
يقول لطيب آخر : إزمان فى العمود الفقرى ، وسعال مزمن . بدا أبى
مستسلماً ، صامتاً ، كأنه لا يبالي بما يقال ، بما يجرى حوله ، تلك ملامحه التى
اعتدتها أثناء المرض ، تقبل سكوتى ، انسانى ، وجلد ، رأيت رجلاً ينصحه
بالذهاب إلى اعرابى فى صحراء الهرم يقوم بعمليات الكى لكنه لم يذهب ، لم
يذهب أبداً ! اخبرتنى الغامة انها طافت فضاءات لا نهاية لها ولا مست صخوراً
لم يرها بشر ، وانها أسرت زمناً فى مناطق الجليد حتى حررها دفء عابر نادر ،
التصقت بقضبان حديدية لنوافذ بيوت هاجعة ، وقضبان زنازين عالية ،
وكوات فى جدران دور عبادة ، تمددت فوق ألواح زجاجية ، وحطت فوق
مداخن باردة ، وأسلاك ، وعلقت فى فضاءات صباحية ، وغروبية ، وليلية ،
حتى فرقها أشعة شمس فطقت إلى ذرى عالية ، خفت المناجاة الغامية ، نأت
عنى ، وأدركت اننى راحل فى الآماد التى لا يحدها بصر ولا تقع فى نطاق
عينين ، عرفت اننى أدنو من منزل الأصوات الباقية ، حيث كل ما لفظ حتى لم
يفن ، ولجته سمعت جملاً قيلت فى جلسات مسائية هادئة ، آمنة ، فيها

وصل ، ونجوى ، وكلمات مصاحبة للإيماءات ، ولحظات الإدراك المفاجئ ،
 وجمل قيلت عند بدايات الطرق المؤدية ، الشروع في سطر ، وخشية من غيبة ،
 واستفسار عن وصول ، وتقدير لمسافات ، وتحيات عابرة ، اجهدت سمعى أثناء
 مروقى ، سمعت صيحات حراس حدودية ، ونداءات ليلية تطلب الافصاح ،
 وسلاماً تعزفه آلات نفخ نحاسية ، ارتعشت تأثراً ، هذا منى ، نوبة رجوع تعقبها
 نوبة صحيان ، كيف أضل أو أنسى هذه الاعتبارات الطقوسية ، لحظة مواراة
 جثمان صاحبي بشيابه العسكرية عدا الحذاء الذى خلع عنه وأعقب ذلك تمدده
 هامدا ، صرخة جندى من رجاله : انظروا انه راض ، هادئ ، زعقة حانية
 ملووعة من ضابط عرفه وحارب معه : سلم لى على أخى . أمانة لا تنس ، سمعت
 صوت أبى ، وقف شعرى ، واقشعر جلدى ، صوت أبى ، صوت أبى الذى
 يشحب فى ذاكرة مسمعى ، ابى يرد عنى ، متى .. لم أعرف ، كان توقى
 مستحيلا ، كنت محكوماً بالمضى والسريان الدائم ، أما محاولتى الاستزادة ، فغير
 ممكنة ، ورغبتى بالبقاء هنا أو هناك لانتلبى فى كل الأحوال ، سمعت حفيف
 الموج . الموجة إذ تدرك الموجة ، ثم تصفيق ، تصفيق ، هتاف ، عبد الناصر
 يخطب ، تعجبت ، هل وقع التوحد؟ الصوت لأبى وادراكى انه لعبد
 الناصر ، والكلمات نطقها عبد الناصر من قبل ، يؤم القناة ، يحكى التاريخ
 الطويل ، سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل ، من فوق منبر الأزهر يخطب ، يقول
 إنه لن يغادر مصر ، إنه باق وان أولاده فى مصر ، لم يرحلوا إلى أى جهة ،
 الصوت نضر كأنه يخرج لثوه ، عندما لفظ ما سمعت كنت أنتفس هواء الدنيا ،
 وأعى ظهور شمسوها وتعاقب لياليها ومجىء الأعياد وحلول الحزن وتزول الأسى
 بالنفس ، وكان أبى يمشى فى الأرض ، يضمنا بيت واحد ، ويظلنا سقف
 واحد ، وأسمع صوته فى الصباح وعند بدايات الليل ، استعدت بعينى عقلى
 ظهيرة تلك الجمعة ، ميدان مسجد الحسين والزمن خريفى نوفمبرى فيه بدايات

شياء مقرب ، صفوف من متطوعي المقاومة الشعبية ، يسكون البنادق ، صوت جماعي يتصاعد ، لا يروح من بالى رجل يرتدى جلبابا وجاكة قصيرة .. بما كانت جلدية .. ربما .

عناوين الصحف تعلن أن بور سعيد دفعت ضريبة الدم ، مشيت وعندى حماس ، ورغبة مجهولة في المشاركة ، ابتسمت عندما سمعت صوتى في المدرسة ، أخير زملايى - كنت أكذب - أن أحد اقاربنا الأقربين يحارب الآن في سيناء ، سمعت صوتى في الحارة ، انادى أخى الأصغر ، أخيره أننى رأيت طائرة معادية تحترق - كنت أكذب - تلك أيام راحت ، أصواتها باقية ، لكنها شذر ، لا تسمع بترتيب وقوعها ، أصوات هائمة ، يجد بعضها طريقه إلى السمع فأفهم ، والباقي يتبدد ويضيع ، فلا قدرة لى عليه ، أصوات تعيد بعض المذاق ، عبير واهن ، لكن الأيام نفسها تظل بمنأى عنى ، ضائعة ، خطر لى ان ما ضاع لا يمكن استعادته ، ولكن طردت المخاطر عنى ، لماذا أسعى إذن .. وكيف يرد مولاي على ؟ أصوات تلك الأيام ، في الصالة الضيقة تجلس ، صفارة الخطر المتقطعة ، صفارة الأمان المتصلة ، وانفجارات بعيدة ، صوت من عرض الطريق ينادى بجزم ، بلهجة أمر ، مطالبا شخصاً ما أن يطفى النور ، سمعت صوت أبى ، لكن كنت أعى أنه لعبد الناصر ، عبد الناصر يتكلم بصوت أبى ، حوار الهامس عندما زار قرى الإسماعيلية الأمامية ، والخطر فى بور سعيد على مرمى ، اصغى إلى رياح ، أعرف أنها رياح ذلك اليوم بعينه ، سمعت صوت أبى مرة أخرى لكن المتكلم ليس أبى ، يتحدث إلى جندى فى آخر زيارة ميدانية ، يسأل عن وجبات الطعام ، أتكني ؟ عن مرات الاستحمام ؟ عن مدى الأسلحة البرية ؟ يتردد الصوت فى غرفة مغلقة ، اجتماع يحضره نند من قادة كتائب الصواريخ . ما امكانية اسقاط الطائرات الإسرائيلية المغيرة المعربة بواسطة كمانن متقنة ؟ ما الوسيلة وحائط الصواريخ لم يستكمل بعد ؟ ثم سمعت

صوت أبي من أبي ، يدعو لي ولإخوتي ، يدعو لي ولزوجتي وابني الذي لن يعي صورته ولن يذكر ملامح جده ، كان عمره عند رحيل أبي ثلاثة أعوام وخمسة شهور ونصف ، خططي أبي تطوف ضريح الحسين ، سمعت صوته يقول لي متعبا وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من سفره الأبدى ، من ارتقائه الضوء وضياعه بين النجوم الذاريات : أنا خلاص يا جمال .. أنا في النازل . اهتف : لا تنقل ذلك يا أبي .. عمرك مديد بإذن الله . لكن خاب فألى وذوى أمتي ، اسمع أنات رجل قدم من الريف إلى المدينة في الزمن المملوكي ولسبب ما قبض عليه وصلب .. يتردد سؤال ، لماذا الموت ظلما ، لماذا الاجهاز على العمر قبل الأوان ؟ اسمع هتافا ، الاستقلال التام أو الموت الزوام ، يجيشني صوت إمامي في زمن سحق البعد : أنا ترجان الخائفين ، أنا صوت من لا صوت له ، إني لم أخرج مفسدا ولا ظلما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فن قبلني بقبول الحق فإله أول بالحق ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين ، سمعت أمية يقهقه ساخراً عندما بلغه موت الحسن بعد أن دس له السم ، أمية بن هند ماضغة كبد حمزة عم الرسول ، يقول : لله جنود من عسل ! سمعت همهمة ، غمغمة ، مصمصة أسي ، ومهممة دهشة ، امرأة تستنجد ، امرأة يتعثر طلقها ، امرأة ترجو شخصاً ما ألا يتركها وحيدة في الدنيا ! لم أدر من أي عصر ؟ سمعت تراتيل جنازية بلغة غامضة ، مندثرة ، لا تفصح عن معانيها ، ولا رموزها ، غير أنها أورثتني حزنا ثاقبا فريا ، سمعت تدفق ماء في منطقة صحيرية ، سمعت شلالا يهدر ، سمعت موجة ترتد عن الشاطئ ، سمعت خريف صنبور غير محكم الاغلاق ، قطرات مطر متوالية تصطدم بأرض صلبة ، بأرض رخوة بأرض تغطيتها الحشائش ، بأوراق نبات كثيف ، بزجاج مقهى عريض ، سمعت الماء يملأ كني أبي عند الوضوء صباح يوم الجمعة ، صوت طائر حط لتوه

على شاطئٍ بعد رحلة طويلة لا يدري إنسان مقدارها ، سمعت نداءات طيور تتجمع في سماء شمالية أسراباً ، مع سريان البرد الخريفى ، تستعد للاتجاه إلى الجنوب ، سمعت كرواناً ليلاً يبرق ، طيور منقرضة هائلة الحجم ، حمامة قرية تقف فوق ايريال قديم مثبت إلى سور السطح ، الوقت ظهيرة ولعبي توقف ، انتظر خطى أبى فوق السلم ، عودته اليومية ، مرتديا حلتة الصفراء ، ممسكا بالطعام أو قرطاس الفاكهة ، صمت ظهيرة ، حارة ، هدبل القمرية مستمر ، منقطع ، شجى ، يشى بإيقاع الزمن الخفى ، النائى ، القصى جداً ، اصغى ، لكن صوت عودة أبى لم يبدأ بعد ، صوت جميل يرتل ، يولى قبل ان يفصح ، مطلع نشيد يشيد بأيام كفاحية ، لم أشهدها ولم أعرفها ، نغير نحاسى ، مناجاة انثوية ، حيرة ، فتاة تقول أنها لاتدرى ما يجب ان تفعل ، امرأة تتحدث عن هجر قاس ، صرخة منبئة من لحظة المتعة الأولى ، صوت حنون ضام رقيق ، يقول ماذا تريد منى ؟ أو شكنت أن أجيب ، تلك عبارة قلت لى ، وأجبت عليها ، لكها ولت كل ما فى منزل الأصوات ترديد ، ورجع قديم ، اصطكاك ركبتين ، صلصلة ، همس ، أبى يتحدث إلى أمى واللبل يتقدم ، يتحدثها عن هدايا سيأخذها معه عند سفره إلى البلدة ، أرز ، صابون ، قماش ، موسيقى حانية ، اختلاط اصوات فى مطعم صغير ، اللغة غريبة ، الملائق تحتك بالأطباق ، صوت تلاقى حافة كأس زجاجية بحافة كأس أخرى ، كباس موقد الغاز ، يتتابع فى سرعة ، تضطرب البيران قبل انتظامها فى وشيش متظم ، تلك أمى ، الموقد أمامها ، وطعامنا فوقه ، قوائم الطبلية الخشبية تستقر فوق الأرض ، تتحلق حولها ، أبى وأمى واخوتى ، يوزع أبى « مناب » كل منا ، خاصة اللحم ، صوته يرشف الشاى ، اعملوا لى كباية شاى ، صغير غامض ، متصل ، منقطع ، أصوات سحيفة البعد ، وقع اخفاف الجبال على رمال صحراء ، صوت ذرات الرمال المتناثرة المتخلفة عن الخطى ، رواحل

الحسين؟ . ربما صوت امتداد جذور شجيرات في أراض صحراوية ، أصوات ليلية ، صدى طلقة طائشة ، تميز أذنى بين انفجار وآخر هذا مكتوم ، إذن .. اصاب الهدف . من ؟ أين ؟ كم الحسائر ؟ انفجار يعقبه رنين وصدى ، إذن .. طاش التصويب ، انفجار .. هذا المدفع ، وذاك لدبابة ، هذا صاروخي وذاك لغم أرضي ، أقف بين من سيعبرون ، أظهر أقصى الود تجاههم ، بعد لحظات سيمضون إلى قدر ، إلى خطر ، إلى عدو انقلب فيما بعد إلى صديق - كما قالوا ، كما زعموا - سمعت أصوات مراقبتي لهم أول مرة ، الحركة الحذرة ، التزول إلى القوارب ، سمعت ايقاع نبضى ، علامات خوفى ، لا أكذب ولن أزعم ولا أدعى غير ما جرى لى على الرغم من مرور الحول أثر الحول ، خفت لكننى حرصت على أن أبدو جلدا ، أستجيب لتظرات صاحبي المادئة ، النفاذة ، الباحثة فى أعوارى ، سمعت تمايل قارب المطاط عندما نزلت إليه ، سمعت الأبحار معهم عبر الماء والتجوم فوقنا والليل يقشانا ، ابتعادنا عن مواقعنا ، فى البحر ، فى الوحدة ، مع الاتجاه إلى العدو يتزايد القرب الإنسانى ، نزل داخلى أمن ، سمعت اشارات لاسلكية ، وخطواً حذراً ، وخطواً متهوراً ، وخطواً بين .. بين ، سمعت خطى ثابتة ، وخطى مترنحة ، خطى أولى حذرة ، مستكشفة ، واهنة ، غضة ، وخطى أخيرة مرتجفة ضعيفة ، طلاقات مباغته ، صرخات الهجوم وصرخات الدفاع حيث يسترد الإنسان زمنه الوحشى ، سمعت صوت المفاجأة فى أصل جوهره ، مصدره ومنبعه قبل أن ينفرد ويتجزأ ، سمعت الصدى ، التردد الكونى ، الاشارات مجهولة المنبع ، سمعت شجيرات جافة تهب فى أن أقف ، أن أصغى إليها . طلبت ذلك فوقعت الاستجابة ، تساءلت الشجيرات بصوت قادم من مترل التساؤلات ، لماذا الموت فى الحرب وقد جرى ما جرى ؟ لماذا إذا كانت النتائج معكوسة ؟ لماذا وقتلتنا يتجولون الآن مزهوين فى المدن التى كانت مستعصية ؟ ألم ترهم فى الأحياء القديمة التى لازمها

أبوك وأودع عمره في كل جزء منها ؟ هم هناك يستفسرون ، يستصون .. لماذا ؟
وهنا أدركت اننى أفارق منزل الأصوات ، واننى قد أعيره لكن لا أدري متى ؟
أو كيف ؟ رأيت مساحة من الأرض ، نطقت فقالت : وطأنى صاحبك الذى
تحمله فى غدوك ورواحك . هل تذكر زيارتك لزوجته ومعاشتك لنمو الإنسان ،
وضياع الوجود الإنسانى ؟ أو مات ، قالت بقعة الأرض : وطأنى أخيراً ثلاثة ،
أحدهم هو الذى صوب مدفع البرج الرئيسى ، هو ضاغط زناد الطلقة التى
تأثرت إلى شظايا ، إحدى الشظايا اخترقت جانب القلب الأيمن واستقرت ،
هنا معنى ضرر غريب فتساءلت : هل جاء قاتل صاحبي إلى هنا ؟ ، بدا لى
صديقى الذى كان ! رأيتة يمشى واقفاً ويقف ماشياً ، جرحه طرى يترف ،
مازال يترف ، دمه يبيلل القميص الكاكي ، بالضبط عند موقع القلب ،
حدثنى فقال إنه يشكرنى لأننى استجبت له عندما جاعنى فى الحلم وطلب منى
زيارة أسرته التى كان رياً لها . بدا مهموماً ، متقدماً فى الضنى ، وهذا الملم
أعدهه منه فى حياته ، فى لحظة بدا لى ما تأخرت فى اكتشافه ، وجهه ووجهه ،
أما ملامحه فلعيد الناصر ، وعندما تكلم سمعت أبى ، قال : تسأل عن قاتلى ، إنه
أول من زاركم ، أجبته وعندى حدة وعتاب : لم يزرنى أحدهم يا إبراهيم .
كرر متجاهلاً نطقى باسمه : إنه أول من زاركم . قلت وحق يتمكن منى : مالى
أناو..؟ قاطعى يهدوء باتر كاسلويه فى المباغته : أول من زاركم انتم الأحياء ،
بدا حزينا ، سمعته يقول بصوت أبى : لم تكن حياتى كلها إلا حلا . حزنت
وتفتت روحى وهرت كلى غصبة ، حرت ، هل أرد على أبى ، أو أحاور
صاحبى الشهيد ؟ أو أحملق إلى عيد الناصر ، اعتصمت بالسكينة ، قال : ماذا
جرى .. أهو السبات الذى يطول ؟ أم أنه المحاق يبدأ ؟ أم إنه النسيان ؟ ذهب
عنى ، أو ذهبوا ، نزل فى ضيق وكدر ، رددت حائراً ، لماذا رحلوا .. وما
الجدوى ؟ انتهت إلى ملاذى الأعظم يرمقنى بما يشبه الاستكار لما أقول ،

صحت اعذرني يا سيد الشهداء ، ترى ما حل بنا ؟ لم يجبى قلت متهدجا ،
اشفق على ضريحك الذى أودعته أمان طفولتي وعمري الأول ، وعطر أبى ،
وجعلته سدره المنتهى لبلواى فى دنياى ، أنت تعرف ما أجعله ، لم أتأكد من
تبدد عبوسه . قلت : أنت ركنى الشديد . يلتفت إلى حانياً ، اهتف مطمئنا :
الآن حق لى الخوف !..

آية

« الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل
من بعد قوة ضعفا وشيبة » .

صدق الله العظيم

حقيقة

« .. النفوس الإنسانية جبلت على الجزع والخشية فى أصل نشأتها ، الجزع فى
الإنسان أقوى منه فى الحيوانات ، أما الشجاعة فأمر عرضى ، ألا ترى الطفل ابن
الشهر أو الشهرين ينتفض مفزوعا ، مرتجفا ، من الصوت المفاجئ ...

تعاقب الرؤى

رأيت مولاي الحسين فى رمنه الأصيل ، عصره الأول ، دهره الخاص ،
يجلس داخل بيته وحمله ليس بهين ، يستشعر ديب المقبل ، بداية تغير
الأحوال ، تبدلها ، وان ما يبصره لفظيع ، لا تلوح علاماته جليلة ، تحتفى فلا
افصاح ، لكنه يبصر ويرى منذ أن دس السم لشقيقه الأكبر وثمة حزن

لا يغيّب ، يكسو محياه الجميل ، ينكت التراب بأصبغه ، أو ترحل نظراته إلى ما لا يراه غيره ، إنه يأخذ جانب الخدر ، يحتاط لنفسه ولمن حوله ، معاوية يستهدفه ، يرسل إلى المدينة عيون وأرصاده ، صباح كل يوم يرسل إلى المدينة تقريرا إلى دمشق ، به حركات الحسين ، معاوية لا يكتفى بذلك ، بل يوفد واحداً من عتاة شرطته السريين ، يستقصى خروج الحسين ودخوله ، تردده على المسجد ، مجاورته لقبر جده المصطفى ، توقفه في الطرقات ، حديثه إلى الناس ، عطفه على الفقراء ، والغرباء ، شرطياً سرياً آخر أصله رومى ، وشرطياً سرياً ثالثاً ، ورابعاً وخامساً ، كل منهم يجهل الآخر ، لا يدرى ان هناك من يقوم بنفس عمله في اللحظة ذاتها ، في دمشق يطلع معاوية ، ويقارن ، رأيت الحسين هادئ الملامح ، أسيان الحيا ، لا يجاهر بعذاته لمعاوية ، لا ينقص العهد الذى أخذه على نفسه ، اقتربت منه ، والظروف حوله جاححة ، اثرياء القوم يلتفون حول معاوية ، الأثرياء القدامى ، والأثرياء الجدد ، المصالح تتولد وتنمو ، ومصالح تتولد ، والمناصب تتعدد ، والتطلع في ازدياد ، تتسع الفتوحات ، وتمتد الأمصار ، وتواكبها الاطماع ، بذل الوعود ، وتعاطم أساليب الترهيب تنوع ، رأيت أيام حبيبي المتزه ، تنقلت فيها . تنوعت وتكاثرت ، هادئ قصر معاوية في الشام ، ودهشت بل فرغت لمظاهر الغنى ، هذا الذهب وتلك الفضة ، الخز والديباج ، ثياب معاوية ، تأنقه ، عطره ، رأيت ذكاهه وخبثه ، وتلونه في المجلس الواحد مرات وقدرته الفائقة على اظهار خلاف ما يبطن ، ولم تكن أيام المصطفى بناثية ، لم يمض على هجرته إلا ثلاثة أو أربعة أو خمسة وأربعون عاماً . من عرفوه وشاهدوه وخطابوه وقعدوا معه وحاربوا خلفه ما زالوا أحياء ، أما تواضع أبو بكر وزهد عمر فالعهد بهما أقرب . سمعت بأذن ما قاله معاوية لندمائه في ليلة صفا فيها

الزمن وراق له : لن يتبقى تأثير لأهل البيت ، النيل علنا من سيد الخلق صعب والحوض في ذلك وعمر ، لكن من يمتون إليه .. سمعت ما هو أشنع ، لم أطق ذلك ولم احتمله فانصرفت ، ثم سلكت طريق في شرطة معاوية ، رأيت اهتمامه بالشرطة السرية ، وبت اعداد لا حصر لها بين الخلق ، خاصة عجائز النساء اللواتي ينفذن إلى أدق الحجابيا ، يستمعون ، يدونون ، يلمسون السم لهذا ، أو يكيون لذلك ، يوزعون الأقاويل ، والاشاعات ، رأيت قادة النواحي ، والولاة ، والساعين إلى البلاط وطلاب الرضا ، والساعين من أجل الترقى والكتابة في اللواوين ، رأيت الشعراء والقصاصين ، ومصيغى الأمثال ، يحدثون الناس عن أفضال معاوية ، وحلمه وتقواه ، وكرمه ثم كرمه ، ثم يعرجون بقول السوء إلى الإمام الحسن والحسين وكل من والاهما ، رأيت ما أكد لي - عبر زمان غير زمانى - ان ما يتصوره العقل مستحيل الوقوع ، يمكن حدوثه ، كل شيء يتغير ، لن أنسى ، استمر سفرى في زمن حبيبي الأوفى عبر منزل الرؤى ، مررت بمحطات غريبة ، رأيت أبي واقفاً ينظر برقة وطمأنينة ، همت بالتداء عليه ، أخبره أنه في المدينة المنورة ، على مقربة من قبر الحبيب المصطفى الذى تمتى طوال عمره الحج إليه وزيارة قبره ، وغاب عنا قبل تحقق أمنيته ، قبل أن نحققها له بعد أن أصبحنا قادرين ، آه .. لم تفعل ، رأيت في زمن الحسين شابا ، حرت ، صحت به ، لكننى كنت مبتعدا عنه كراحلة تنأى بسرعة بالغة عن منطلقها ، راح يتضاءل حجمه ، حتى صار نقطة ، ثم معنى ، وعندئذ رأيت صاحبي الشهيد ، ووقته التى أعرفها ، رأيت دمه طريا في موضع جرحه ، جاء إلى زمن الحسين يتزف ، لمحتى ، همت بالتداء ، لكنه ولى عنى أو استمر ابتعادى ، ثم لمحت جندا كثيفا ، في جسد كل منهم جرح طرى غير مضموم ، غير ملتئم ، قصانهم

كأكية ، والحوذ رمادية ، والأحذية مترية ، بعضها مبلول بمياه القناة ، كنت قادراً على عد الشعيرات البيض في رأس أو صدر أى منهم مع سرعة مروق ، يتأهبون للصياح ، قبل أن يصل صوتهم إلى مسمعى ، رأيت أبى ، رأيتته نجيلاً ، ضامر العود ، متعب الخطى ، الشيب يكلل رأسه كله وهذا لم يحدث فى دنياه ، رحل والشيب غير متمكن منه ، أى زمن هذا ؟ ضمنى حنين وانهكنى شجن ، تمتت التوقف ، لكن سريانى دام عبر منزل الرؤى ، حمت فى الحاق ، وقطعت اليباب الشاسع حتى رسوت عند مولاي الأبى وفى حلقي غصة ، كنت استعيد ملامح أبى المتعبة ، أعى أنه قريب وانه بعيد ، وانه لم يعيش هذا الدهر القصى ، كنت أجهل جذره ولا أقف على جده النائى ، برغم ذلك حملت أيامه الصعبة معى فبكيت منها قبل شروق شمسها ورثيت له منها قبل أن تلوح نجومها ، أو تبرغ أقمارها ، وتهب رياحها ، قبل بردها ، قبل حرها ، ندبها وهى بعد بعيدة لا تزال فى رحم الغيب ، تأملت منها وهى مستقبل لم يأت بعد ، تقدمت فى تلك الأيام الدوارس ، توقفت عند الحبيب ، فاجأتى رائحة ضريحه فى قاهرته القديمة ، العبير الحى ، البخور وبقايا المسك والعطور المتبددة وماء الورد والسجاد القديم وخشب الصندل العبق وبرودة الرخام وكساء النجف الأحمر المعلق ، والخزف المنقوش ، والعاج الراقد فى خشب المنبر ، وأوراق المصاحف العتيقة ، وتلؤلؤ المشكاوات ، وعبير الأشواق وتضرعات المكلومين ، وليت بوجهى تجاهه ، لم أره ، فدهمتى وحشة ، مع انه انبأنى عند ولوجى إلى الديوان أنه سيصحبى جل الوقت وليس كله ، لفتنى وحدة ، واغرورقت نفسى باليتم ، والفقد ، وخفت حتى كدت أبكى ، لم يطل ذلى ، تجلى لى فى زمه الدينوى ، رأيتته يجلس والدار غير آمنة ، معاوية مات ، يزيد ابنه يضيق عليه ليأخذ البيعة ، ما يجرى حول مولاي عجيب ، تتقلب الأوضاع ، تتقل من النقيض إلى النقيض ، ما يجرى عجيب ، يبايع الناس

يزيد ، المدانير ، المناصب ، الترهيب ، الترغيب ، تحول الخلافة إلى ملكية تورث ، رأيته يفكر في التقلب ، التحول ، التغيير ، مداراة النفوس لما تبطنه النفوس ، النأي عن موضوع الرسالة ، شراء ما يفنى بما يبقى ، يتكلس الجهد في خزائن القلة ، ويتحول إلى قلائد من ذهب وفضة وأحجار كريمة ، وغير كريمة ، يتجسد السوء في يزيد ، الفاسق ، شارب الخمر ، عظيم الجنة ، مجبور الوجه ، قبيح الظاهر ، قبيح الباطن ، ها هو في أعز موقع ، في أمنع مكانة ، خليفة محمد رسول الله ، يستدير الزمان والعيون ترقب ، أفئدة تلتحف ، أفئدة زائفة ، وأخرى بين بين ، الحق ساطع والحقائق جلية ، البرهان مستقيم ، لكن ما من إنسان يجاهر ، ما من أصعب تشير وتفصح ، الوفود تتوالى على قصر يزيد في دمشق ، تتوطد أركان دولة الظلم ، تمتد دعائم القهر ، تتبدل المعاني وتتقلب القيم ، الاستثناء قاعدة الوقت ، ماذا يجري للناس والهجرة لم يمحض عليها ستون ؟ كيف تظهر الوجوه خلاف ما تبطنه النفوس ؟ كيف تنطق الألسنة بما يخالف الألسنة والضمائر ؟ كيف تعبر الملامح عما يخالف محتوى الباطن ؟ كيف تتغير الحقائق وتهتر الثوابت ؟ في الدواوين وأوكار الشرطة السرية ومقارها العلنية تبدى الاقتراحات بقتل الحسين إن لم يبايع ؟ يقول الكثيرون بإهدار دمه ، هو التقي ، النقي ، يعاتب أحدهم والى المدينة ، لماذا لم يقتل الحسين في داره عندما رفض البيعة ليزيد ؟ ، تجلى لى الحسين مهموما ، يفكر في فقراء الدنيا ، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم ، وهم كثر ، وهم في كل زمان غير زمانه ، يفكر في المستقبل الآتي ، الرحمة ، انعدام الخوف والضيق ، التقوى وخوف الحساب ، لا يعنيه أمره هو ، بل إنه لم يفكر في شخصه أبداً ، لا يتوجه إلى الخلق باعتباره ابن بنت رسول الله ، ولكن لما يمثله جده من معنى ورسالة ، يطرق جميل الحيا حزينا ، يتذكر جماعة من فقراء المدينة ، يتقدمهم رجل شرطة مستتر ، يهتفون ليزيد ، ما يؤله أن يتحمس

هؤلاء والضركله لاحق بهم ، وهم لا يعلمون خبايا الغد ، ازدادت اقتراباً منه ، وحنوا عليه ، لم يحدثني عما أرى وأطالع ، إنما أثر صحبتي إلى أيامه الشداد لأطالع بعيني وأعرف واستخلص العبر وأعرف المبتدأ من الخبر ، تفرقت حنايا قلبي ، تقدمت منه ، خاطبته وأنا معزول عنه ، بيني وبينه ستار لا يرى ، ناجيته وأنا لا أدري ، أسمعني أم لا يسمعني؟ : مالي أراك بادي الضنى ؟ ثقيل الحمول ، ما للموع عينيك متجمدة ؟ ما لانساني عينيك قلقين ؟ ما لآحزانك سوافح ؟ ما لأشجانك بلا حد ؟ تطيل التأمل في الدهر القلب كما أطلت أنا من بعدك ؟ يؤرقك طمس المثل وتحول القيم كما أرقى ذلك ؟ في مركز الديوان شكوت إليك حيرتي وغررتي وها أنا أواجه حيرتك ، ليتني عشت دنياي في دنياك ، ليتني قضيت أيامي في أيامك لأهون عليك ، لأذب عنك سوء ، هنا شعرت بوجوده إلى جوارى ، التفت ، ولم يعد الاشرار عني بعيد ، رأيت إلى جوارى ، وفي نفس الوقت رأيت أمامي ، رأيت هو ينظر إلى هو ، لم أدر إلى من أتوجه بجدتي ؟ مولاي الذي يصحبنى يرق لى ، ومولاي الذي أمامي يتأهب لمواجهة البلايا ، يستعد لزمان مدلم ، مقبل ، قلت مندفعاً ، حسن النية ، أبيض السريرة ، ان ما يحيره سوف يحيرني ، وما يؤرقه سوف يؤرقني . في زمنه تحولوا وتبدلوا وتغيروا ، وفي زمني سيتقلبون ويتقلبون ، الفروق قاذحة ، فأين زمني من زمنه . قلت وأنا أحاوره ..

علمتني يا شفيعى أن الأشياء تتبدل حتى ما نظن أنه يستحصى على التغيير .
قال وهو يحاورني .

تذكر أن الأسوأ يتغير إلى الأحسن ، كما يتبدل الأفضل إلى الأردأ ، وإلا
لما كان التغيير والتبدل في الأصل ..
قلت وأنا أحاوره ..

عشت يا إمامي زمنك الردىء قرب نهاية عمرك الدينوى ، أما عمرى
فيمضى من خبيث إلى أخيب ، اسمح لى ، دعنى أقص عليك بعضا من
زمنى ..

يهز مولاي رأسه ، أقول والصوت منى جريح .
تعرف يا أخضر القلب ، يا طاهر النفس ، أنتى شبيت وكان أول
ما وعيته ، ما أدركته أن وطننا بأكمله انتزع من بينه ، وأنهم قاسوا هجاجا
وشتاتا .

أوما فتدفقت الشجاعة فى عروقى .. قلت أحدثه ..
تحرير فلسطين . دارت الدروس حول هذا الهدف والمعنى ، كذا ترددت
الأغانى ، وضعت الكتب والمؤلفات والمحاضرات ، سجلت الرسائل العلمية ،
قدمت الأفلام والمسرحيات ، وتم اختيار نوعيات السلاح ، ومشت الطوابير
فى القىظ والحر فوق الأراضى ذات التتواءات ، وفوق الأراضى السهلة ،
الحضرة والصفرة ، ودفعت الكماثن الليلية ، الالههم ثم الالههم ان دماء نرفت ،
وأرواحا أزهدت ، اعزاء راحوا ، مع الزمن أسر الموضع الذى أسرى منه
جدك المصطفى ، زعقوا ، فلسطين الجريحة ، فلسطين نارى ، فلسطين عارى ،
العودة إلى حدود ١٩٤٨ ، العودة إلى حدود ١٩٦٧ ، ثم العودة إلى حدود
١٩٧٣ ، لكنهم جاءوا يا إمامى إلى عقر دارى ، أنا الذى عشت الحرب ،
سمعت هدير طائراتهم فى الأعلى ، تبدو كقطا بيضاء محمولة آتية من ناحية
الشمس ، ثم تنفجر الأرض ، رأيت الشظايا لحظة اختراق الأجسام ، رأيت
بمعنى موت الأحباب ، ورأيت هجرة الأهل لبيوتهم . فى ساحة قرب البحر
بمدينة بور سعيد انحنى رجل يرتدى ملابس صفراء ، عامل حكومى فيما
أظن ، ركع ، قبل الأرض ، حيث مبع الأصول ومستقر الفروع ،

لا أعرفه ، لكن وجهه عالق بذهني ، لا أدري ان كان عاد مع العائدين ، أم أصبح نسيا منسيا ، رأيت الأشجار تتوقف عن الطرح والاختصاب بعد أن أفزعها الشظايا ، وتكالتب الجروح عليها ، فالأشجار تفزع كما يفزع الإنسان ..

قال امامي :

أعرف ذلك ..

قلت وقلبي ينبض وسفري يشتد :

رأيت وضع الخطط وتكديس الجهود ، واستنفار القديم المنسي ..

قلت بعد وقفة هينة :

كنا نحارب ولم نكن بجائفين .. فكيف .. كيف بعد أن صرنا قادرين ؟ في ليلة تغير هذا ، رفر علمنا بجوار علمهم ، تلقت اذاعاتنا المرئية والمسموعة البث المباشر منهم ، رأيت الزى العسكري المعادي ، ارتفعت أسلحتهم في تحية ، وروى الوصافون ، المنافقون ، الخانعون ، السباقون إلى الموائد في كل النواحي اللقاءات الحارة ، المؤثرة ، وارتفعت الالفتات ، وخرجت حشود محشودة ، صفقوا ، وهم لا يعون ، ولا يرون الضرر الآتي والضرر اللاحق ، ثم أصبحت اعلامهم جزءاً من الواقع اليومي ، ما كان مستحيلا تصوره وقع .

أوما إيماءة ، قلت ..

ثم تدفقوا إلى شوارعنا القديمة ومناطقنا العتيقة ، تغامزوا وتندروا ، ترفعوا وتفحصوا ، لا يطيب لهم الجلوس إلا قرب ضريحك ومرقد رأسك ..

قال مولاي وهو يحاورني :

جمال .. ما من حادث مخلوق من عين وأثر وخبر ، من نجم وشجر ، من رسم وطلل وحكم وعلل . إلا .. ويلحقه التغيير .

خفف عني حليته ، وخفف عني انه ناداني باسمي ، أى أنه خصني داخل
تخصيصه لي بمصاحبته لي ، وهنا رأيت جمال عبد الناصر واقفاً ، مستغرقاً لكنه
شاخص إلي ، بلا بعيداً ودانياً ، ثم رأيت أبي يقف عند موضع مغيب
الشمس ، تمنيت أن أصل إليه ، رأيتة وحيداً ، كان شديد البعد عني ، لكن
بصرى ميز تعبيراً ، رأيتة على وجهه ، تعبيراً ومعنى أعرفها ، لحظة عودته إلى
البيت حاملاً بين يديه افطارنا أو غذاءنا أو كسوة العيد ، رأيتة ينظر إلى الطرف
القصى من الكون ، التفت فرأيت مسلم بن عقيل في زمنه الخاص ، يصغى ،
الحسين يطلب منه أن يمضى إلى الكوفة ، إلى أهلها الذين كاتبوه ، طلبوا منه أن
يقدم ، أن يسرع ليقم العدل ، ليقوم الزمن المعوج ، أن يحو الظلم ويرسي
العدل ، سمعت مسلم يقول له إن هذا البلد مشثوم ، فيه قتل أخوك ، وجرح
أبوك ، لكن الحسين بصر ، جاءتة الرسل ، ليخص إلى هناك ليجلو الأمر ،
فالسكوت على الجور جور ، يمضى مسلم ، مولاى يرنو إلى ، عبد الناصر ،
أبي ، رأيت أمى في الزمن الذى كنا فيه معاً ، رأيت أشقائى ، وزوجتى وأبنائى
وأحفادى من بعدى وأصحابى ، أصحابى الذين اختلفت معهم ، وأصحابى
الذين رافقتهم ، رأيت من أحببت ، من خفق لمن قلبى ، رأيت كل من
جاورت ، فى السكن ، فى الطريق ، فى السفر ، رأيت كل من رأيت ، كل
من وقعت عليه عيناي يوماً ، وكل من اقتنى أثرهم بصرى ، كنت أراهم كلهم
فى آن واحد معاً . فرضى قلبى ، وأقبل أملى ..

دقيقة ..

التام الجمع سرور وغبطة ، وحلول الفرقة فكاك وهلاك ، معها تبدأ
الحيرة المنومة التى لا راحة بعدها ثم يقع الضعف الذى لا يلبه قوة ، ليت

الجمع يلدوم حتى تتحقق الأحلام البسيطة الإنسانية ..

رقيقة

تجلد ، فإن في الغيب ما شهدته ، وغاب عنك ..

ما كان ، ما سيكون ..

.. ودعت مسلم بن عقيل ، ابن عم مولاي الحسين عند خروجه من مكة ، تجليت له على صورة صاحب له ، راقته مقداراً من الطريق الوعر غير الممهّد ، وعر المسالك ، ثم حاشني مولاي عن الاستمرار . عرفت فيما بعد ، عرفت بعد أكثر من ألف وثلاثمائة عام أن دليله ماتا من عطش وحر ، وأنه أبدى الشاؤم لكن قرّة عيني ومفرج كربى طلب منه الاستمرار وكنت الرسول الذي حمل إليه الأمر بالاستمرار ، ذهبت إليه في صورة رجل من صحب الحسين ، ابلغته أمر مولاي ثم تركته في سفره هنا ، عدت إلى مكة ، عند مشارفها حام حولي ثلاثة من شرطة يزيد ، أخذني خوف ، وحذر ، نأيت بخطي حثيثة عنهم فرحلت إلى زمن أبي ، أدركته في لحظة افتقاد مرة وعر على تحمل ثقلها ، وصلت إليه وهو صبي عند أهل أمه لا يقيم في بيت واحد ، وليس له فراش ثابت ، ولا يظله سقف واحد ، ولا يأكل من ماعون بعينه ، بدا لي هادئاً ، غريباً ، واليتم غريب كما عرفت بعد مدى طويل ، عندما أصبحت يتيماً بلا أب ، رأيت لا يسعى إلى التحرش بإنسان يماثل عمره أو يكبره ، هادئاً ، صامتاً دائماً . يقلقه المأوى ، واللقمة ، لا يخالط الصبية الذين يماثلونه عمراً . بمنأى عنهم ، داخله شعور بتفوق ، وأمل يزمن غامض ينتظره ، زمن سيصبح فيه ذا شأن ، يفكر في الدنيا القسيحة ، تلك المدن البعيدة ، وهذه الطرق المؤدية ، وامتداداتها ، في الموضع الذي تغرب فيه

الشمس ، في الأزهر حيث أسرار العلم وأسرار الحرف ، لو أن اليتيم لم يلحقه ، لكنه يغمض عينيه ويرى لحظة يمكنه فيها قراءة المكتوب وكتابة المقروء ، ليس ذلك عليه ببعيد ، رأيتُه ينام تحت سقف بيت رجل سقاء ، حدثني قطعة جلد قديمة . أصلها موضع من بطن ماعز ، أما الآن فجزء من دلو جلدي معلق إلى بئر عتيقة قل عليها اقبال الشاربيين ، قالت إنها لامست ظهر أبي عندما كانت جزءاً من قرية تمتلئ بالماء للظالمين ، كان ينقل الماء إلى بيوت عديدة ، رأيتُه يمشي متثاقلاً ، يمسك فم القرية بيده الصغيرة ، يلهث عند صعوده أراضي تميل إلى ارتفاع ، يطرق باب بيت كبير ، يدخل ، يفرغ الماء في الزير ، لا ينظر حوله ، هكذا يجب أن يكون السقاء حتى لو كان صبيها صغيراً ، يحفف عرقه ، درت حوله ، رأيت الحدقتين ، يود أن ينام ، اقتربت منه ، وقفت على مقربة حتى شممت رائحة ثيابه وشعر رأسه وبالعجبي ، إنها نفس الرائحة التي نفذت إلى أنفي في طفولتي ، كنت انتظر عودته في الظهيرة ، أجرى ، اتعلق بعنقه ، يحيطني يديه لو كانتا فارغتين وينحن لي لو أنه يحمل قرطاسا به طعمية ساخنة ، أو أرغفة ، أو خضاراً ، أو لحمًا ، أو .. فاكهة ، لم يردني ، ولم يكسفنني ، كنت أشم رائحته التي تختلط برائحة حلتها الصفراء الكاكية ، نفس الرائحة التي وهنت مع الزمن فيما بعد لقلّة عناقتنا وندرته وتباعدا ، هي ، هي ، أشمها ، رائحة أبي الخاصة ، تلك ولت ، افلقت مني إلى الأبد ، لم يعد لها مصدر ، ولا أثر عندي ، ربما تبقى شذاها في ثيابه التي أغلقت عليها حقيبة ولا يساندني قلبي لأفتحها حتى الآن ، ادركت أنه من رضا مولاي وحنوه عليّ اتاحته الفرصة لي كي استعيد ذلك العبير الأبوي حتى تمنيت لو أن ذلك لم يبت ، تشاغلته عن وقفته ، وعندما عدت إليه لقيته نائماً ، متعباً . قتمنيت لو أني حملت قرية الماء عنه ، لو ساعدته ، لكنني أدركت عبث ذلك ، وقلة جدواه فولجت أخلامه ، رأيتُ أقف على رصيف قطار ، أنا مسافر وهو مودعي ، قال لي :

راقبتك السلامة .

ثم يقترب مني ، يسألني ..

لكن أنت من ؟ .

قلت :

أنا ابنك الذي سيكون ..

تهل وجهه فرأيته شاباً مليحاً ، قال ..

بك تتنى غريبي ..

أومأت ، لكن تهله يتقطع فجأة ، يقول وكأنه يحدث نفسه ..

لكنني سأعود كما بدأت ، غريباً ، مقطوعاً .

وهنا بلا متعباً ، عجوزاً ، نخيلاً كما بلا في أيامه الأخيرة ، رفع إليّ

عينيه ، قال ..

ستمع بي وتذكرني ، وتطلبي فلا تجد ..

جزعت ، صرخت والقطار يتحرك :

ساعني يا أبي ..

يقف فوق الرصيف ، يدها مبسوطتان إلى أسفل . أسرع القطار فبدأ البعد

ولاح القفر ، استيقظ أبي ، خرجت من حلمه العابر ، رأيت في بيت رجل

آخر من أقاربه ، لم أعرف درجة قرابته ، ولم أر لحظة انتقاله من بيت السماء ،

هذا الرجل تخصص في جني ثمار النخيل ، رأيت أبي يربط خصره بجبل ،

يتسلق الجذوع ، يقطف البلح ، في الليل يرقد فوق فراش من القش ، في الليل

يحفص ، في الليل يتقلب ، يتذكر أمه فدمع عيناه خفية ، يكره أن يراه مخلوق

باكياً . وبرغم ضيقه وجوعه وتلطمه كان يشعر أن هذا كله عارض ، مؤقت ،

وأن أياماً أخرى في انتظاره ، وأنها ليست ببعيدة ، في بيت الرجل لم يشعر أبي

براحة ، كان للرجل أولاد عديدون لم يتركوا أبى فى حاله ، جلس أصغرهم فوق المصطبة ، يطلب منه أن يتاوله السطل ليشرّب فيناوله أبى ، تطلب منه المرأة أن يحضر لها بعض اقراص الحلة الجافة من فوق السطح فيحضرها أبى . تطلب منه أن يوقد الفرن فيوقده أبى . ثم رأيتّه يعمل فى ماكينة الطحين ، يعبئ الأجوّلة بالدقيق ، الذرات الناعمة تغطى وجهه وذراعيه ، رأيتّه يلتقط دودة القطن والشمس شديدة الوطأة ، رأيتّه يسوق قطع ماعز يقوده باتجاه الترع ، يصيح به أحدهم فيشمر ثيابه ، يحمل عترة صغيرة ، يخوض بها الماء الرمادى ، رأيتّه يعبر الماء يحمل صبيا يصغره بعدة أعوام ، اسمه عبد اللطيف ، رأيتّه يجدل سعف النخيل الأخضر فى أشكال هندسية صغيرة ، يجمع التين ذا الرائحة العسلية ، يرص أجولة قمح ، يربط أعواد البوص الجافة ، يحمل طاولات العجين ، يصغى إلى أحاديث رجال متقدمين فى العمر يفترشون الرحبة الفسيحة ، من معارفى عنه أنه لم يكن ينسى اسماسمه ، أو لقباً ، أو حواراً ، أو وجهاً رآه ، أو منحى طريق ، يعرف كل من فى البلدة ، الأنساب والصلوات والجسور غير المرئية بين الأرحام ، يستقصى ويستفسر ليعرف ، يحذر عمه ، يستقصى أخباره ، إذا عرف بمفارقتة القرية إلى سفر قصير ، أو توعده لمرض فإن حمولة تخف ، ويتجول فى مدى أوسع وأرحب ، رأيتّه يجلس خلف جدار من لبن ، بمفرده ، يستريح ، يفكر ، يدبر ، رأيتّه وحيداً فقوى حزنى وعصف لى ماض بعيد قاس ، أصبح الضوء غريباً ، تقطعت سبلى وتزاحمت استفساراتى ، وحننت إلى صوت لم يبق منه صدى أو أثر ، كذا الملامح المبهمة ، والنغمة الغامضة ، تابعت أبى يمشى فى درب مجهول لى على جانبيه بيوت غريبة ، موصدة ، سمعت وراءه ، أسرع فأسرعت ، ناديتّه ، لم يلتفت ، دنوت منه ، مددت يدى ، انتهت إلى ملابسه التى لم أعهد لها ، التفت إلىّ ، تعجبت ، توقفت ، رأيت أمامى مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى أهالى الكوفة ، لم أر

ملاح أبي ، كنت في زمن غير زمنه وغير زمني ..

لطيفة شعرية

حين قرى الهوى وقلنا سررنا
وحسبنا من الفراق أمنا
بعث اليبين رسله في خفاء
فأبادوا من شملنا ما جمعنا

لطيفة شعرية

كنت السواد لقلتي
فيكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت
فمليك كنت أحاذر

لطيفة شعرية

واني لاستهدى الرياح نسيمكم
إذا هي أقبلت نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام إليكم
فإن هي يوماً بلغت فأجيبوا ...

سماع ..

لما تيقنت أني لست أبصركم
أغمضت عيني فلم أر أحدا

نوى

وكان سراج الوصل أزهر بيننا
فهبت به ريح من البين فأنطفا

تجلى الوصل ..

الوصل تقيض القطع ، الوصل حياة والقطع موت ، الوصل أصل ،
والقطع عارض ، الوجود مبنى على وصل ، الأنفاس المتصلة تعنى استمرار
الحياة فإذا انقطعت الوصلة بين النفسين مات الإنسان ، أما الأجنة فلا
تتخلق ، ولا تتكون ، ولا تنبض إلا بعد وصل ..

التقل والترحال

رأيت ملامح أبي في جسم عبد الناصر، يرتدى طربوشاً أحمر وجلباباً
أخضر من الصوف، هو أبي وهو عبد الناصر، لكن حضورهما لا يمتد إلى
العالم المألوف، كذا الحركة والخطو، رأيت يسعى في طريق تراه ناعم،
يتوقف أمام مقهى ريفي يتجمع فيه الذين هم على سفر، رأيت نفسى أجلس
في ركنه البعيد، كنت أرى ما بداخله وما بخارجه في آن معاً، المقهى في
الكوفة، يا لعجبي، مقهى في زمن لم يوجد فيه مشروب القهوة بعد، وفي
الكوفة .. كيف؟ يتوقف أبي، يسأل بصوت عبد الناصر ..

جمال ابني هنا؟

يسكت الرواد والزبائن، لماذا لا أجيئه؟ لماذا الصمت؟ همت فقل
لساني، جمد صوتي وتعثرت الكلمات في حلقى، لماذا لا أقوم؟ لماذا لا

أصبحه؟ جاونى صوت أجهل صاحبه ..

أوانك لم يحن بعد ..

انصرف أبى متبعداً ، وحيداً ، مستوحشاً ، الخطى منه ، وميل القامة عند
المشى لعبد الناصر ، قام رجل قصير يرتدى زى أهل الكوفة زمن الحسين
همس ..

من يرتدى الأخضر والأحمر .. أهو أبوك؟ ..

قلت . نعم ..

قال .. هذا لباس النعم ..

ثم وهن صوته عندما قال ..

لا يزعجك ما ستراه ..

كدت أسأله عم يعنى؟ لكننى نظرت المقهى خالياً من رواده ، استطلت
جدرانها وضاق فراغه وشحب هواؤه ، رأيت مقعدين بلا مساند ، يفصلهما
مقدار مترين ، يتوسط المسافة مكتب بلا أدراج ، متسخ ، عليه بقع حبر
جفت وخطوط وبصمات غامضة ، تلك زنزاة ، داخل سجن ، والسجن من
سجون ابن زياد والى الكوفة ، يدخل ضابط مرتدياً الثياب المدنية ، ثياباً من
عصرى ، يحفف عرقه بمنديل ورقى معطر ، ملامحه ليست غريبة عنى .. لكن
متى .. أين؟ ، لم أحط علماً حتى ذلك الوقت ، ينظر إلى طرف حناثه ،
يحركه مرات ، تتبعث جلبة ، خطى ، صفع ، بصق ، ركل ، أراهم يدفعون
عبد الناصر ، معصوب العينين ، موثق اليدين ، يرتدى الثياب التى رأيت فيها
عند ظهوره أول مرة ، القميص الفضفاض ، والبنطلون الواسع ، أوقفوه أمام
الجدار ، وبنا لى حريصاً على رفع رأسه ، أراه هو والضابط أمامى . اثنين
لا ثالث لهما ، لا أرى من يدفعون به ، لكننى اسمع احتكاك احذيتهم ،

أصوات وجودهم وحركتهم ، عرفت أنهم من رجال الشرطة السرية قساة القلوب ، عرفت أنهم أول ثلاثة وصلوا إلى الكوفة ليخوفوا الناس من الوقوف إلى جوار الحسين ومناصرتهم ، في هذه اللحظة برق خاطري فأدركت شخص الضابط ، هو من ضربني وصفعني ولكمني وهددني وسب أمي وأبي ، هو الذي أبدى لي الرقة واللين ثم انقض على يروم فقأ عيني ، عندما اعتقلت في أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، كان عبد الناصر وقتئذ ملء العيون ، مهاباً قوياً ، جليلاً ، قاسياً على من ابغضوه ، وعلى بعض من أحبوه ، وكان هذا الضابط شاباً مختالاً مزهواً برتبة رائد واسمه منير ، ألم بي غثيان ، وضيق لزج ، ركزت نظراتي على يديه اللتين صفعتا وجهي ، وقبضتيه اللتين سددا اللكمات إلى صدري ، واستعدت ماملاً على خاطري بعد خروجي من المعتقل . أن أرى من صفعني ، من سبني ، تزايد ضيق وتمتت مفارقة هذه الزنزانة في هذه اللحظات ترددت على مقربة مني أنفاس خفاف ، لطاف ، التفت ، ابتل قلبي بالسكينة ، شفيعي يقف على مقربة ، أنست روحي ، وعمرت جسور الرضا والوثام فرحلت لتوى إلى مدينة الكوفة ذاتها ، تجلى لي مسلم بن عقيل في درجة من النور الأحمراني مستمدة من مكونات الديوان الشعشعانية ، نظرت إلى قرة عيني ، إلى الحسين ، وجهه مضع بالحنين ، مأوى ومرقد للطف الجميل ، انجذبت إلى محياه الرقاق فشف قلبي وتمتت لو دام على وقت النظر إليه ، عرفت أن الشوق الإنساني القديم يملأ عليه كيانه وهو يواجه ابن عمه ومبعوثه ، هاهو مسلم ، تجلى لي في لحظة تضاعل تشاؤمه الذي رافقه منذ موت دليله ، بايعه أربعون ألفاً من أهل الكوفة ، يكتب إلى الحسين ، «أقبل فإن الخلق معك» ، رجال الشرطة يرفعون الأمر إلى حاكم الكوفة ، ينهونه إلى خطورة ما يجري ، يتجه الحاكم إلى المسجد ، يصعد إلى

المنبر، يحمد الله ويثني عليه ، يطلب من القوم ألا يسارعوا إلى الفتنة
والنفرقة ، يصيح فيه أحد رجال يزيد ..
هذا رأى المستضعفين ..
يقول ..

لأن أكون من المستضعفين وأنا في طاعة الله أحب إليّ من أن أكون قوياً
في معصية الله . رأيت التقارير تدبج بالجبر السرى في مقار الشرطة ومأوى
العيون الخفية المبتوثة ، يراجعها ويضيف إليها هذا الضابط الذى لا يغيب عنى
بملاحمه ، تخرج التقارير إلى دمشق ، تنبه وتحذر من أمير الكوفة النعمان ، تحذر
من تقواه ، من نظافة يده ، والأدهى .. تعاطفه مع الحسين ، الضابط لم ير
يزيداً أبداً ، لكنه يدرك المطلوب تماماً ، ينصح بتغيير أمير الكوفة بآخر يقدر
على الامساك بزمام الوقت ، إنه يضم غرضاً خفياً ، أن يسند إليه منصب
أعلى ، ربما في دمشق نفسها ، منصب يمكنه من جمع قدر لا بأس به من
الثروة ، والحوطة على مساحة أرض ، هناك الأقل منه ، استولوا على الضياع
واشترتوا الجوارى الحسان ، إنه يتخيل نفسه سارحاً في البرية ، أو سائحاً في
المدن ، يلتقى صدقة بالحسين ، يمسك به ، يقطعنه ، يحتر رأسه ، يذهب إلى
يزيد ، يقول له ، قتلت من ادعى أنه أحق منك ، قتلت من جرؤ فامتنع عن
مبايعتك ، ثم يتأهب لتلقى العطايا والمنح ، تجلّى لى يزيد فى دمشق ، وعندما
بدت لى ملامحه دهشت ، تلك ملامح أعرفها . طالعتنى وضقت بها ، رأيتها
ونفرت منها ، أبصرتها عن قرب واحترت صاحبها ، كيف جاء إلى هنا ؟ لم
أشأ الاسترسال فى الدهشة فكتمت وحجبت ، تجلّى لى وأمر الحسين يقلقه ،
ما يتحدث به الحسين ولى زمنه ، حديث زهاد لم يعد له محل ، قيم مندثرة ،
إنه يسعى إلى أردأ الخلق فيولبهم ، وإلى أحطهم فيعينهم ، لا يتق أبداً بمن

ثبت صلاحه ، لا يقرب من عرف بورعه وتقواه ، إنه مقدم على لحظات تغير
 وتحول ، وتلك لا تحتاج إلى من يمسك العصا من الوسط ، المهم الآن ، من
 يوليه امارة الكوفة ؟ من ؟ إنه يستعرض التقارير ، يصغى إلى هذا وذاك ،
 يتأمل الأوصاف والسمات ، لا يستغرق وقتاً طويلاً ، يبتدى إليه ، إنه فاجر ،
 قاس ، لم يعرف صلة الرحم ، ولم يرق يوماً لمسكين ، عشوم ، غليظ العبارة
 على من لا يستحق ، إنه عميد الله بن زيادة أمير البصرة ، الوقت لا يحتمل ،
 يصدر الأمر بتولية ابن زياد ، أن يتوجه فوراً إلى الكوفة ، تجلي لى عيد
 الله بن زياد ، قبيل خروجه من البصرة تباح له الفرصة كى يبدى الولاء
 ويعلمن ، عندما ابلاغوه أنهم قبضوا على رسول الحسين إلى البصرة أمر بإحضاره
 إلى الميدان الكبير ، استل سيفه وضرب عنقه ، هكنا رأيت مقتل أول رسول
 فى الإسلام ، اعمد ابن زياد سيفه بدون أن يمسح ما علق به من دم ، خطب
 فى الناس ، قال إن يزيد ولاء الكوفة ، وأنه عزم على المسير إليها ، وأنه
 استخلف أخاه عثمان بن زياد ، حذبهم ، هددهم ، خوفهم ، أقسم أن
 يأخذ الأذن بالأقصى ، والبرىء ، بالملذنب ، رأيته يستدعى هذا الضابط ،
 يطلب منه أن يرسل عيونه الخفية إلى الكوفة ، لينتسوا ، ليتحدثوا عن بطشه
 وقسوة قلبه ، وسخائه على من يتبعه ، ثم سأل الضابط ابن زمنى عن
 الحسين ، عن زيه ، وعن عاداته ، فى صحوه ، فى نومه ، ولوازم عياداته ،
 وصفة مجلسه ، وطعامه ، ومواعيد تناوله ، وساعات نومه ، وعده الضابط
 أن يقدم إليه تقارير تقي بكل ما يطلب ، فى نهاية نهار خرج من البصرة
 وعليه رداء أبيض وعمامة سوداء ، تلثم فى منتصف الطريق ، الأخبار عنده
 تقول إن الكوفة ملتفة حول مسلم بن عقيل ، وأن أكثر من أربعين ألفاً بايعوا
 الحسين ، إذن .. التحوط ضرورية ، والحذر واجب سلديد ، رأيت ابن زياد

يعبر أسوار الكوفة متخفياً في لباس الحسين ، بعض الناس يرونه فيظنون أنه الإمام قد جاء ، يقولون ..

مرحباً يا ابن بنت رسول الله . قدمت خير مقدم ..

وهنا سافرت وأنا واقف ، عدت إلى تلك الزنزانة ، رأيت هذا الضابط بعينه ، بملاحه ، بقامته الممتلئة ، لكنه يرتدى الثياب التي رأيت فيها أول مرة ، يدور حول المكتب ، يقف أمام عبد الناصر معصوب العينين ، يسأل بصوت مغاير لصوته .

لماذا قدمت إلينا ؟

تمر دقيقة ..

ترتفع يد الضابط مفرودة الأصابع ، تهوى على الوجه الذي طالما أطل وأشرق وحنأ ، يتوقف الضابط ليرى تأثير الصفعة الأولى ، تماماً كما جرى معي . العجيب أنني تألمت وتوجعت كأن المضروب أنا ، كأن المعضب أنا ، تمضي دقيقتان كاملتان ، ترتفع اليد مرة أخرى ، الصفعة أثار الصفعة ، لم أسمع آهة ، ولم تصدر أنة ، أحمر جلد الوجنتين ، وأحمرت راحة يد الضابط ، خفت أن تصدر عني صرخة فزع ، كنت موصولاً به ، في سعي إليه ، خفق قلبي خفقة ذات مدلول ومعنى ، أمامي عبد الباصر ، والحضور لأبي ، الرائحة له ، رائحة ثيابه عند عودته اليومية ، الرائحة التي لا يمكن لي أن أخطئها أبداً والرائحة التي لن يتكرر مذاقها أبداً ، عبر زمني الآمن ، وعطري المتبدد ، تعاقبت أيام وليالٍ مكتملة الأهلة ، صحوة سماواتها ، رائحة ظلها ، عذب نداها ، ساعاتها مدتي بالمنى وشوقني إلى ما أهوى وما أحب ، حتى إذا اتصلت بأسبابي نفست عليّ به الدنيا واستكثرت عليّ ، فسعت بالنشيت إلى الألفة ، وبالفرقة إلى الالتئام ، وبالمر إلى المسرة ، وبالنقص إلى الجمع ،

فكسفت بهجتي ، وأرهقت نضرتي بالفراق ، ويست جذع وصلبي ،
واجديت اخضراري ، تشتتا في الآفاق بعد أن ضمنا وقت واحد ، وجمعتنا
أرض واحدة ، وأظلتنا سماء واحدة ، ولتنا ليالٍ فقيرة مادتها ، غنى محتواها ،
وانفعلنا بكبرياء ضد عدو استهدف ذلنا ، تمزقنا .. وقد كنا كالأعضاء ،
المؤتلفة ، اللدنة ، المنطقية وها هو أبي يهان ، ويصفع ، فتهتد أيامي ،
ويتبدد معنای ، وتندوى الرائحة الغالية ، يترمد قلبي ، لا أقص رؤياي على
أحد ، ألود بالنظر إلى ونسى وعاصمي ، يبدو شجيا ، بوجهه يعيش حزن
قديم كبقايا الدمع في المآقي ، لم يخطئ بصرى ، ولم يكلم ، ولم ينحني فهمي
وادراكي .

يزعق الضابط فجأة بعد تراجعه ثلاث خطوات ..
كيف تضربونه ؟ .

روعت ، زلزلت زلزالا ، اللغة غريبة ، لم أتعلم مخارجها في طفولتي ولم أتبهج
حروفها ، يقشعر بدني ، لغتي العربية غير متداولة ، محظور التعلق بها أو
الحوار ، التحية ، والنداء على الحبيب أو القريب ، وترجمة الشاعر ، والبوح
بعبارات الحب ، واللفظ ، والأنس ، والنكته اللاذعة ، محظور التخاطب
بها عبر الدواوين ، أو تلقينها للأطفال الذين تفتتح عيونهم على دنيا غريبة ،
في أي زمن أسود رسوت ، وفي أي وقت أغبر استقر سفري ؟ تدلكك قلبي
الموهن . يتزع الضابط العصابة عن عيني عبد الناصر ، يفك قيد يديه ، يشير
إلى المقعد القصير بلا مسند ، يجلس إلى المكتب ، يبرز علبة سجائر خضراء
نفس العلبة التي مدها إليّ واعتذرت لأنني غير مدخن ، يمز عبد الناصر
رأسه ، أكاد أثب ، إنها نفس هزة رأس أبي ، لا يمكن أن أتوه عنها ، هزة

دماغه ، عندما يكظم ضيقاً ، أو ينجح غيظاً ، يفتعل الضابط الود والرغبة في القربى ، يقول ..

« تعرف أنتى أدركت أيامك ، أنتى انتمى إلى جيل يطلق عليه اسمك ، رأيتك مراراً ولكن ليس عن قرب ، فلم يكن لمثلى أن يحلم بلقائك ، تأثرت بكلماتك وطربت للأغاني التى ذكرتك ، أنت باق ، وإن تكن هنا فهذا سوء فهم . أنت لم يقبض عليك مختلسا وإن حاولوا اتهامك بعد موتك ، لم يقبض عليك مرتشياً وإن صرحوا بما يشوه سيرتك .. نحن لم نصدقهم ، صحيح أنك الآن أمامى ، لكن اعذرني ليس الأمر يبدى ، أنتى أودى واجبات وظيفتى ، لا تنس أنتى حلت بينهم وبينك .. الذين ضربوك لم يسمعو عنك ، اسمك لم يذكر منذ زمن بعيد ، صورك لم تنشر ، تماثيلك هدمت ، كنت مصدراً للتهديد وأنت فى قبرك ، لا تنس أنتى حشتم عنك ، لا تنس انك فى زمن غير زمانك .. عبد الناصر ، لماذا قلمت ؟ لماذا ؟ .

اسمع مهمة ، أسافر إلى ابن زياد مرة أخرى .

مرحبا .. مرحبا .. قلمت خير مقدم ..

لا يكلم الناس الذين ظنوه الإمام الحسين ، لا يلتفت بئمة أو يسرة ، يصل إلى القصر ، يبرز المراسيم ، يستدعى الضابط ، يأمره بإخراج جميع الغرباء من المدينة ، يأمره بمجشد جمع من حثالة الاعراب ، وبذل الوعود لهم ، مستصرف لهم مكابيل الشعير إذا مشوا فى طرقات الكوفة هاتفين ليزيد ، وسبوا الحسين ، يأمره بأن يرتدى رجال الشرطة ملابس عامة الناس ، وأن يتولوا هم الصباح ، والهناف حتى لا تفلت الأمور ، يأمر بتفتيش المدينة بحثاً عن مسلم بن عقيل رسول الحسين وإمساكه حياً أو ميتاً ، تلك مهمة عاجلة ، يأمر بضرب أعناق عدد من عابرى السبيل على مرأى أكبر عدد من الناس ،

والمناداة عليهم ، انهم من رجال الحسين ، يبدى الضباط حساساً زائداً ، وعد بما يثلج صدر ابن زياد ، يقول ابن زياد إنه يريد رسماً وافياً دقيقاً لكافة مخارج الكوفة ، ومدخلها ، ودروبها ، وتعداداً وافياً دقيقاً لبيوتها ، وحصراً لأصحابها ، يريد مسحاً شاملاً لجميع الطرق المطروقة والمهجورة حتى مسافة ثلاث ليالى سفر ، كذا المواضع التى يسهل عندها الاقتراب من الفرات لأخذ المياه ، والمواضع التى يخف فيها النخيل والنبات ، والتي يغرز فيها ، والقرى ، والمحلات ، يطلب بث العيون فى كل منها ، وإذا كان بعضها مهجوراً فليعض عدد من الشرطة المتخفين للاقامة فيها ، يصغى الضابط ، تلك اطرافته التى أعرفها ، ملاحظه التى سبقت حملته إلى وسبه أمى وأبى فجأة ، ملاحظه التى تواجه عبد الناصر فى موضع آخر من سفرى هذا ، يخرج من القصر ، اسمه يعنى النفس بسماع مديح ، لعل أخباره تبلغ يزيداً فى الشام ، لعل اسمه يذكر هناك فيصدر مرسوماً بترقيته ، لعل ما تشبهه النفس يتحقق ، لعل وعسى ، ينبث ضباطه وعسسه ، كل يبدى الهمة ، كل طامح فى رضاء قائد الشرطة عليه ، كل يخشى عيونا مدسوسة لا يدرى بها ، بعضهم طافوا بالطرقات زاعقين ، يسبون الحسين أضفوا حساساً على أصواتهم ، شدوا من ملاحظهم شأن من يصطنع أمراً فيظهر الانفعال الزائد ظناً منه أن هذا يقنع الآخرين . رأيت الجند يسكون ثلاثة غرباء ، ثلاثة من عابرى السبيل ، لم يشب عليهم ذنب ، لم يعرف لواحد منهم اسم . ضربت أعناقهم أمام القصر بغية تخويف وترهيب ، أمسكت بلحظة تغير نادرة ، لحظة رجحان كفة على كفة ، لحظة تبديل المواقف ، سمعت قولاً يتردد : ما لنا وما للحسين ؟ ، توقفت عند طريق النطق ، النبض الحثي للحروف ، الصيغة يتردد هذا كله من لغة إلى لغة ، من لهجة أخرى ، من زمن إلى زمن ، عندما تتعامى البصائر ، كثيرون لم

ينتظروا ، جأهروا بحماسهم ليزيد ، لابن زياد ، انقلبوا ولفظوا نقيض ما قالوا ، قطبوا الحواجب ، زموا الشفاه ، كأنهم كانوا في غي ثم أدركوا ، درت بعيني ، بنظري حولي ، أين مسلم بن عقيل ، أين ؟ رأيت الضابط عابساً يواجه عبد الناصر ، يلقي السؤال تلو السؤال .

لماذا ظهرت ؟ لماذا جئت ؟ إلى من تحدثت في ميدان الدقي ، هل دفعتك دولة أجنبية ؟ هل تقف وراءك جهة ما ؟ .

ينطق اسئلته بإيقاع سريع ، كأنه يتعمد المباغثة ، والارباك ، أدركت أن الأساليب لم تتبدل وإن اختلفت الحقب ، هكذا سألتى الضابط ، أنظر إلى صمت عبد الناصر ، إلى عينيه الواسعتين ، لم تفقدا بعد قدرتها على النفاذ ، بغض الضابط بصره خفية لثوان معدودات ، يفلت من نطاقها لحظات ، يبدو السكوت مقلقا ، يسأل ..

لماذا تجمع الناس حولك .. لماذا أحاطوا بك ، من أخبرهم بظهورك ؟ . يستمر الصمت والامتناع ، تتوتر لهجة التساؤل ، يشير بيده ، يدخل إلى الزنزانة ثلاثة ، لا يراهم عبد الناصر إنما يشعر بهم غير أنه لم يهتز ، لم يبدر منه ما يبدر مني عندما دخل اثنان من المخبرين السريين المخصصين في الجلد واستنطاق المتهمين ، ووقوفهم إلى الخلف يحدث قلقا ويث اضطرابا في النفس ، تصبح الضربة متوقعة في أى لحظة ، والضربة غير المرئية تؤلم أشد . ألتفت فنهاني الضابط ، بسرعة رأيت ملامح شاب أسمر اللون ، نحيف ، يرتدى قميصاً وبنطلوناً . قميصاً أبيض مخططاً ، وبنطلوناً رمادياً . قميصاً قصير الأكمام وبنطلوناً واسعاً ، كان يمسك بخيزرانة ، لم أعرف اسمه ، ولم أسمع مخلوقاً يناديه ، نهزني الضابط وسبني ، عرفت أنهم يحرضون حرصاً شديداً على ألا يتعرف الضحية إلى معذبه ، إلى جلاده ، لهذا يتخذون أسماء غير

اسمائهم ، ويمشون بين الناس حذرين ، في تلك اللحظة اضطربت ، كنت موزعا بين مواجهة الضابط والإجابة على أسئلته وبين انتظار الضربة . وألتي انتظار الضرب أشد من وقعه على جسمي عندما بدأ . عبد الناصر لم يلتفت ، لم ترف جفونه ، هذا عجيب ، ولم يتفق لإنسان ممن جلسوا أمام الضابط طوال مدة خدمته أن احتفظ بشبائه هكذا .

لماذا هاجمت أصحابنا ، لماذا حرصت على تنكيس أعلامهم ؟ .

عبد الناصر لا يخفى تعجبه ، لكنه لا يديه نطقا ، على مهل يستدير بوجهه ، تستقر نظراته باتجاه مولاي .. هل يراه ؟ هل يراى ؟ تتعلق عيناه بالجهة التي يتضوع منها عبير الحسين . تطوف بهما مناجاة استعصى على فهمها ، أو النفاذ إلى مكوناتها ، وتلك حيرة ألت بي مراراً في مواجهة عيني أبي الهادئين ، الآسياتين ، عندما يطول صمته وتعمق وحدته وينظر إلى ناسجاً التأويل والاستفسارات والشروح العvisية ، وكان آخر عهدى بذلك في شرفة البيت قبل سفرى عندما حدق إلى وأغدق تخنانه على وكف لسانه عن التعبير حتى أنى استسلمت لنظراته ، ولكنى لم أفهم ، لم أعرف أن المتبقى من عمره وقتئذ أحد عشر يوماً لن تريد ولن تقص . لىتنى رحى الطوفة بطوفة ، لىتنى قابلت النظرة بالنظرة والحنين بالحنين ، والشوق بالشوق ، لىتنى ! ، هل كان يتزود من ملاحى قبل سفره الطويل ؟ لىتنى أدرى ! ، لا يمكنى أن أجزم ، غير أن لنظراته هذه مقاماً ، وموقفاً ، لا أقدر على التطرق إليها الآن فلم أناهل بعد ، وذلك لعظم ما بهما ، واستغلاقه على ، ها هو مسلم ابن عقيل يقول لهانى بن عروة ..

أيتنك لتضيفنى وتجيرنى .

يقول هانى .

لقد كلفتني شططا ، لولا دخولك دارى وثقتك بي لأحبيت أن تنصرف
لشأنك غير أنه لزمى من ذلك زمام .. أدخل .. أدخل ..
رأيت ابن زياد يقصد بيت هانى ، يتجه بقصد زيارته أثناء توقعه ،
هذا فى الظاهر ، ويستميله فى الواقع ، هانى ذو عزوة ، وقوة ، رأيت
الخدام يحير هانى أن ابن زياد بالبواب ، هانى يستدعى مسلماً ، يدفع إليه
بسيف ، يطلب منه أن يقف خلف الستار ، سيرتب جلوس ابن زياد بحيث
يولى ظهره إلى الستائر ، وعندما يجلس عمامته فليعتبر مسلم هذه الحركة بمثابة
إشارة لكى يتنفض ، ليحدث شره ، يقف مسلم مخفياً ، يدخل ابن زياد
يصحبه حاجبه ، مسلم فى مخبئه ، وجهه منقبض ، خدقت بالبصر المتين
فلمحت وجتى أبى ، وضمة فمه ، وتجيعة جبهته ، وموقع عينيه فوق
العينين ، وقلق عينيه عندما تصبح الحيرة شارته إذ يفكر أو يشرع أو يقدم على
شئء تأباه نفسه وتكرهه روحه ، رأيت «هانى» يرفع عمامته ، لكن مسلم
لا يتحرك ، لا يقدم ، بدا لى أنه لن يفعل ، دهشت ، خفت لا .. بل ذعرت
وغضبت ، هانى يرفع عمامته للمرة الثانية .. يضيق نفسى ، ماذا جرى لابن
عقيل ؟ وهنا تجلى له صوتى ، سمعنى ولم يرنى ، سمعنى ولم يسمعنى غيره .. قلت
له حاتاً ..

أقدم ..

يلتفت ، وجهه عذب ، تأسره حيرة .. يقول ..

هل اقتل مسلماً غيلة ؟

يتملك صوتى حق ، أقول ..

ابن زياد قاتل ، ستقتل مجرماً ، ابن زياد سيقنتك ، سيمثل بك ، سيلقى
برأسك من فوق سور القصر ، سيمنع الماء عن مولاى الحسين ، سيأمر بقتله

وحزر رأسه ، شيشهه في شوارع الكوفة ، سيسي نساء الحسين ، سيوشك على قتل ابنه ، اقتله ، ربما غير قتله الأسوأ إلى الأحسن ، إلى الأفضل .. أقدم .. يقول :

لا إيمان لمن قتل مسلماً ، هكذا سمعت رسول الله يقول .. لن أقتله غدرأً أبداً ..

لمحت ابن زياد يتأهب للانصراف ، اندلعت خواطري ووجن فكري ، تبعثرت في شواردي ، مددت يدي أبغى اختطاف السيف لكن يدي غاصت في المقبض ، كأني أمسك بالهواء ، أو أقبض على ضباب ، خوي داخلي ، سمع ابن عقيل صوتي متعباً ، واهناً ..

لماذا ؟ لماذا لن تمضي ساعات إلا ويقتل هاني الذي يستضيفك ويخفيك ، سيرسل ابن زياد ضابطاً من عتاة ضباطه ، سيتخفى ويبحث عنك ويتبع الخيلة حتى يصل إليك ، ضابط غير معروف لك ، ولا لأهل الكوفة ، لكنني أعرفه ، وأحفظ ملامحه لماذا ؟ لماذا ؟ كان من الممكن أن يتبدل الزمان ، يسأل ابن عقيل متعباً ..

ولكن صوت من أنت ؟

نوديت من ركن خفي ..

جمال .. هذا ليس لك ، وأنت ليس له ..

خرجت أقتني أثر ابن زياد ، ما يشغله ، أين يخفي مسلم ؟ لو قبض عليه ومثل به علناً سينهى هذا تردد الخائفين من الجهر بعداوة الحسين ، أما المتذبذبون فسيحسمون دخائلهم ، وهؤلاء كثرة يجب أن يواجه إليهم جل جهده الآن ، لكن قبل هذا كله أين مسلم بن عقيل ؟ رأيت هذا الضابط يرتدي زي ذلك الزمان ، دقت النظر إليه يتقن دوره حتى كادت أصدقه وأنا الذي رأيت منه ما

رأيت ، عندما أخبره أحدهم أنه سيأخذه إلى ابن عقيل زعقت مخذرا لكن صوتي لم ينفذ عبر الحجب ، لم يقدر على قطع المسافة من زمني الذي أحاطني في هذه اللحظة كما تحيط الميشمة بالجنتين . رأيت ابن زياد يستدعي « هاني » ، يواجهه ، اقتربت تحفرت ، يرد هاني :

والله لا أجيئك به أبداً . أنا أجيئك بضيق لتقتله .

يرفع ابن زياد قصيبه ، يضربه على وجهه . لا يتردد لحظة أمام مكانة هاني وشيخوخته ، يدرك ابن زياد أن أخطر ما يواجهه الآن جملة تلفظ وقد تردد . تلك أخطر من جند كثيف ، خرجت من القصر فزعا أعدو في شوارع الكوفة ، يتردد صوتي صارخاً فيسمعه البعض ولا يسمعه آخرون ، ولم أعرف سر ذلك . واستغلق الأمر عليّ . وإن اضمرت الاستفسار ، صرخت منبثا بمقتل هاني ، فكنت أنا من أفضى إلى أهالي الكوفة بالنبا . عدوت إلى مسلم لأخته ، في الطريق ابن عقيل يشهر سيفه فحمدت الله وأثيت عليه ، حوله جمع وحشد ، إنه في عدة وعدد ، كم رأيت . ربما ثلاثة أو أربعة آلاف ، يمضون إلى القصر ، ينسحب رجال الشرطة . يجلون الطرقات والميادين والنواصي ، يتردد الضابط ، ماذا لو دارت الدائرة ماذا لو انقلبت الآية ؟ اذن ليتوارى مؤقتاً . أو ليتشاغل بأمر ما حتى تتضح رياح الغلبة قادمة من أي جانب ؟ يحاصر ابن زياد . معه في القصر ثلاثون من العسس ، وعشرون من الوجهاء ، يأمر ابن زياد العسس بالتسلل إلى الخارج . يندسون . يخوفون الناس مغبة القتال ، رأيت الضوء الأحمراني يضمد بيوت الكوفة وشواشي نخيلها ، العسس ، العسس ، كل منهم موعود بمكافأة سخية . دراهم . وقح ، وشعير ، ومنصب ، ولقمة سنية ، يندسون . يتشرون . يهيمسون ، يرغبون ، يحدرون ، يحدلون الناس ، يمتون أهل الطاعة ، يذكون الطمع ، كنت أرقب

انتشارهم وهمسهم في الآذان حيناً وجهرهم بالقول ، رأيت الضابط يهمس ويوسوس ، كنت فرداً ، والعسس جمعا ، صوقى غير مأذون له بالوصول إلا في أوقات لا أعلمها ، كنت عاجزاً وهم قادرون ، ألمى عظيم لعجز القدرة عن مواجهة القدرة . عندما يواجه الإنسان عصراً بأكمله ، وزمناً رديئاً مقبلاً ، ومما يزيد في وعورة المقام ، وصعوبة الحال ، رؤية الخلق يتحمسون لما هو ضدهم ، ويتصايحون من أجل ما يضرهم ، وهذا مقام وعر ، والكلام فيه خطر ، وقد عشته في زمني الدينوي عندما رأيت بعضاً من قومي وناسي يهتفون ويهللون للصلح مع الأعداء ، يهتفون لصلح ما هو بصلح ، ويرفعون الأيدي تحية لقاتليهم ، إلى هذا ألححت ، وذلك ما عنيت عندما قلت عجبت لقومي ينتصرون عندما يهزمون ، ويهزمون عندما ينتصرون ، لكن هناك معاني أخرى ومقامات وعرة ، سأخوضها عندما يؤذن لي بذلك . ذلك تقدير العزيز العليم ، أما الآن فأغلق ذلك الباب خشية وتقية ، رأيت الخذلان ، وديب الوهن إلى أعضاء الرجال ، سمعت الرجل يقول للرجل : انصرف فإن الخطر شديد . سمعت شاباً عفياً يهمس : يا روح ما بعدك روح . سمعت امرأة تقول لرجلها : غداً يأتيك أهل الشام فإذا ستعمل في الحرب ؟ دم لميالك . رأيت رجلاً ينسحب ، رأيت رجلين . رأيت جمعا ينفصل . تغلق البيوت على أصحابها ، يتحول الخذلان إلى انفضاض ، إلى نكوص ، إلى هروب ، يأفل النهار ، ابن عقيل يحاصر القصر ومعه ألف . يتبته إلى قلة العدة والعدد ، يتراجع إلى وسط المدينة ، ابن عقيل الآن في خمسمائة ، يخترق شارعاً جانبياً ، يخرج منه ومعه ثلاثمائة . يدخل إلى المسجد في مائة . يحين وقت الصلاة ، يصطف وراءه ثلاثون . يسلم يميناً ، يسلم يساراً ، إنه بمفرده تماماً الآن ، ما من رجل حوله ، ما من صاحب ، ما من نصير ، يخرج إلى الليل المكتمل ، إلى اقفر الطرق ، رأيت الضابط في ناحية من الكوفة ومعه عسس ، يظهر الهمة ، ابن عقيل غريب ، ما من يدله على

بيت يأويه ، أو شخص يجيره ، يمضى ، يتعد عن المسجد ، يعمق السكون عندما يختنى الخلق ويعز النصير . وينأى الرفيق ويقع الرجال خلف جدران البيت ، ابن عقيل يمضى من درب إلى درب . إنه مكلوم وخائف ، حزين لخذلانه ، وخائف على إمامه الحسين ، كيف يبلغه بما جرى ؟ كيف يشيه عن المحيء ؟ كيف يتصل به الآن ؟ من يحمل الرسالة وأين المطايا أين ؟ إن ضنا ثقيلًا يحل به . كيف يتم التحول ؟ كيف ، يتراجع الجمع ، يتستر الخذلان بالخذلان ؟ يلتفت ، لكنه واهم ، ما من صوت خلفه ، ما من ديب ، لم يكن باستطاعته رؤيتي أو سماع خطوى لكنه شعري . في نفسه جزع ، لكن ما يجيره السهولة التي تبدد بها الجمع ، تبدو الدنيا غامضة والنفوس مستعصية ، التفت إلى الحسين ، وددت لو أرجوه تمكيني من التخفيف على ابن عقيل ، أجمنى مقدار ما يفيض على وجهه من حنو وتأثر ، عدت إلى ابن عقيل ، سعيت ، وددت لو أحذره من اللجوء إلى بيت المرأة ، تمنيت لو أخبره عن ابنها الذي سيرشد جند ابن زياد إليه . كيف أعرف ولا انطق ؟ لكن الديوان لم يأذن لي ، لم يرفع الحجب بيني وبينه ، غير أن طبيعتي الإنسانية تغلبت على فاندفعت أجرى زاعقاً ..

يا ابن عقيل احذر ..

لم يلتفت .

يا ابن عقيل انتبه ..

توقفت ، بدأ يستدير إلى ليتخذ وضعا يواجهنى به ، وما لبث أمرى أن اضطرب ، وقذف بي في منزل الدهشة والروع ، أمامي أبي ، رأيته متعباً ، غريباً ، عليه ثقل الأيام ، معفر الثياب ، وكان وجهه على مثال وجهه في العام الذي لم أدر في حينه أنه الأخير ، العام الذي تضاعل فيه جسده ، وشحب

حجمه ، وضافت حدقتا عينيه ، ووهنت ضحكته ، وتباطأت حركته ، وقوى
سعاله ، قلت بعد أن خفت دهشتي ..

ماذا تفعل في الكوفة يا أبي ؟

لم يجبني ، رددت .

أبي ، أنت في أرض لم تطأها أبداً ، أنت غريب مثل .

يلوم صمته عني ، تدهمني وحشة ، يبرد داخلي ، أصير في غم ، رأيت
نفسى بعين نفسى ، رأيتني في بلد غريب انزله والعصر مقبض ، بلد لا أعرف
فيه أحداً ، لا ينتظرنى أحد ، ولا أقصد انساناً ، لا أدري أين مبيتى ؟
لا أعرف مأواى ؟ الكل يسرع حولي ، والنوافذ مغلقة ، وضوء المصابيح يلوح
من خلف زجاج بعضها فيشي بجملة ليلية ، ودفء ورائحة طعام ، فيتضاعف
حرمانى ، وتعمق وحلتي ، رأيت أبي والهجوم متكأ كثة عليه ، هذا وجهه
عندما شكالى وحدته ، وأن لا أحد يكلمه ، وكل مشغول بنفسه ، قلت :
ضيعت زمني معك ، دعني اصحبك الآن ..

يمد يده باسطة أصابعه ، يمنغى .. اذن .. هو يسمعني ، متى أسمع ومتى
لا أسمع ؟ متى تتزل الحجب ومتى ترتفع ؟ لا أدري ، عندما يجين الألوان
سأسأل الديوان ، أبي يشير إلي ، اشارته على رأس القرب ، ورأس البعد
حاسمة ، لم أحاول ، رأيت مصدر الشفق بالقرب منه ، منبعه الذي يصدر
منه ويفيض مؤذناً بلحظات الغروب ، في الجهة المقابلة رأيت صفى ، عرفت
أنه في شغل عني ، ليلي دامس ، لكنني كنت قادراً على النفاذ فيه بنظري
وكانه نهار ساطع مشمس ، أرى السواق والأبراج والجسور المؤدية ،
والأراضى التي تتر بالماء ، وجرذان الجحور والنخيل ، اهتزاز شوارب صراصير
الليل في سعيها ، كان بمقدورى احضاء خيوط نوت العنكبوت ، كنت أرى

ما أمامي. وما ورائي ، لا تحول دونى حواجز ، كنت أرى شيئين مختلفين من
زمنين متباعدين ، اصغيت فسمعت أنين التراب ، وضيق جذور النبات بترية
مستعصية ، ثم رأيت ظلاً يعدو ، رأيت بيوت الكوفة مظلة على دروب
جهينة قرىي ، أما النخيل الكثيف ، فنخيل البصرية ، والهواء الجاف من
الحجاز ، والنجوم البادية من سماء بحر عدن ، والرائحة من مداخل طولكرم ،
تدفق مياه القنوات وسرعتها من فاس المغربية أما المياه ذاتها فن عيون اليمن ،
يطالغني أبي ، إنه صبي مفزوع ، أنفاسه عجل ، وقلبه مهول ، رأيت عمه
يعدو وراه رأيتها معاً ، مع أن كلاً منها لا يرى الآخر ، طريق ملتو
يفصلها ، عمه يجرى بعد أن لمح ، ينبغي خنقه ، الخلاص منه والانفراد
بالييت والأرض والنخلات ، أبي يجرى ، ما من مغيب ، ما من منقذ ،
صرخت انبته بمكان عمي ، لم أدر .. هل وصله صوتي أم لا؟. لكنني رأيت
يقفز سور جرن قديم ، يحفر لنفسه في كوم تبن ، اسمع صوتاً يحاطبني فيه
ثبوتية ، وديمومة ، إنه ضوء النجم القصي . قال إن ما رأيت وما تراه سيحفر
علامة داخل أريك . سيعاوده ذلك في صحوه ونومه ، وسيعاوده في آخر
ساعة قضاها نائماً قبل رحيله سألت ..

أهى الصورة الأخيرة التي ستلوح له من الدنيا ؟

لم يجيبى النجم القصي . سألت ..

أى تاريخ هذا ، ما موقع اللحظة من الزمن المعداد ؟

لكن الحوار انقطع

سمعت شجوا وأنينا ، يبعد عم أبي أو من هو في مقام جدى ، رأيت أبي
يرتجف كفرخ مبلول ، مع قدوم الفجر يدخل رجل ، يشعر بوجود أبي ،
يتساءل : من إنس أم جن ؟ يقل خوف أبي ، يتحدث إلى الرجل بما

جری . یصحبه إلى داخل البيت ، یضع أمامه صحننا فيه لبن ساخن ورغیف
وقطعة جبن یقول أبی بصوته كما بدأ فی السنوات الأخيرة ..
والله لم أذق لقمة منذ یومین .
یرت الرجل علی كتفه ، یؤلئی جوعه ، وخوفه ، وحزنه ، وضيقه ،
فأبسط یدی أمام عینی ، أقول متأسياً ، حسبي ! . .

ایضاح ..

.. حدثنی خالی فی الزمن الذی خلا من أبی ، وغودر فيه قلبي ، قال إنه
یذكر رجلا اسمه عبد الکریم زیدان ، کان المرحوم یوده كثيراً ، فی کل زیارة
إلی البلدة لا ینسه ، یخضر له شیئاً ، قاش جلباب ، فی مرة أخرى شمسية ،
أو سبحة من خشب الصندل عطر الرائحة یحرص علی شرائها من جوار صریح
الحسین ، علبه حلوی طحینیة ، أو شالاً قطنياً من العوریه ، قبل أن یموت
عبد الکریم زیدان بشهرین جاء أبی إلی البلدة وزاره ، حمل إلیه صندوقاً
صغیراً ، فيه سکر ، وشای ، وخمس قطع من الصابون المعطر ..

تجلی سربانی ..

رحیلی دژوب وشفیعی یونسنی ، لا تفرغنی البوادی ، ولا تصرفنی
المواجم ، ألبس کل ما أنا مؤهل له ، من رداء شوق ، وقیص هوی ،
وصدار وجد ، وسترة حنین ، تکشف لی الزواهر ، وتبرق لی نجومی
الطوالع ، تبصر عینای ما لا ینصر ، تناولی شاسع وادراکی فسیح ، أما
شجنی فرهیف ، یتغیر حالی مع أنفاسی ، یدوم سفری ، ویستحیل

استيطاني ، أسافر في وقوفى ، وأقف في سفرى ، لا تأخذنى سنة ولا نوم ، ولا ترهقنى مشقة أو غفلة ، ولا تمس ذاكرتى علة ، ولا تهددنى عزلة برفقة حبيبى ، لا تلحقنى آفة ، فطوفة بطوفة ، ونظرة بنظرة ، وحنين بحنين ، وشوق بشوق .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟..

رقيقة ..

أحبكم مادمت حيا فإن مت يحبكم عظمى فى التراب رميم

وصل فى وصل

.. يدوم صمت عبد الناصر فلا رد ، يومئ الضابط ، تحتك أحذية الحراس الثلاثة ، تشى بالقسوة التى تدنو ، أشعر بحضور عبد الناصر الجليل ، الوعر ، هيكله الفاره الذى يفوق وجوده المادى ، ومشيب فوديه ، وتلك الألفه المرققة ، رأيت مواكبه عندما كان مكتملا غير منقوص ، لم يمل بعد إلى محاق ، كان لحناً لم يتم ، واطلالة فى اشراقات الأعياد ، وانتظار لطلاته ، كان وكنت وكان أبى ، وكنا سملا ملثما ، والزمان فى ظاهره نضر ينحى ولا يعلن ، يبطن ولا يظهر ، لا يبوح ، لا يتشى بما هوآت ، بعوامض العيب ، يستعصى على الأبصار المحدقة ، رأيت بأسى تهدل جلده ، وانكساره ظهره ، وتعبه فى مواجهة هذا الضابط القادم من منازل الضر والبلوى ، إنه حليق الذقن ، مدبوع الجلد ، نفس الرائحة التى وخزت شعيرات أنفى وأنا معصوب العينين ، لا حول لى ولا قوة ، رأيت صغره فى مواجهة الكمر المدفون ، والضالة فى مواجهة الشمول ، والتقييد يقابل الحركة ، الماء الآسن والماء

الآجن ، الماء العطن والماء المزهرة السلسيل ، يتفرض الضابط ، لا يتحقق هياجه ، يخالف الأصول التي تعلمها .

لا ترد إذن .. أنت لا تعرف ماذا ينتظرك ؟ ..

يقف الضابط فجأة ، ينظر إلى مدخل زنزانة التحقيق ، أرى وجوها مطلة ، وجوها اسرائيلية ، وأخرى أمريكية ، ممثلين عن الموساد ، والاستخبارات العسكرية ، ومدير المخابرات المركزية . يتحقق الضابط من مجال بصري ، تتمطى ظلال ، وتتردد الأصوات متعاقبة ..

أنت متهم بعمادة أصحاب النهى والأمر .. في العالم .

أنت بنيت السد ..

عادت الأسياد في البيت الأبيض ، والبيتاجون والسينيت ..

انخرت إلى الفقير وعاديت الغني .

تطلعت إلى المستقبل ..

تتكاثر الأصوات ، تختلط ، بصعوبة أميزه عندما كان فتياً غفياً وأيامه واعداً ، يعلن تأميم القناة ، الناس يصفقون ، يزأرون ، أين ذهبوا ، أين راحوا ؟ اسمه يعلن التحدي ، يستعيد مجد الأيام القصية ، بيت العزيمة ، لم يكن لدينا جهاز راديو . خرجت من غرفتنا فوق السطح ، شبيت على قدمي ، وأمسكت بيدي حافة السور فالتصق بجلدي طلاء مقشور بللته الرطوبة ، صوته قادم من الطابق الأرضي ، عبر المنور ، يتصاعد ، والليل في أوله ، وإذ أرفع رأسي ، أرى لوحة اعلانية تضيء في الأفق البعيد بالأحمر والأزرق ، فوق السطح جلست ، أرتدى جلباباً بني اللون ، أبي يقف في الركن بجوار عصا الايريبال الخشبي لراديو الجيران ، نعلمق في السماء ، ثلاث طائرات على ارتفاع منخفض تعقبها ثلاث أخرى ، تصعد إلينا الست

روحية ، يسألها أبي عما جرى في البلد فتقول انه الجيش ، وأن الملك انتهى ،
والناس يقولون إن الجيش سيرخص الحاجة ، ويجعل ركوب المواصلات مجاناً ،
صباح اليوم التالي نزلت . قطعت الطريق من مدخل نحارتنا ، مررت بديكان
الباجورى ، ومحمد الحضرى ، وجلال الطعمجى ، وتوقفت عند عم محمد
بائع الصحف ، اشترت الأهرام ، الصفحة الأولى ، صورة كبيرة لقائد الثورة
تتوسط الصفحة ، وصورة أقل حجماً له ، ينظر نظرة جانبية ، نحيل ، أنفه
كبير ، بهى الطلعة ، صور أخرى متساوية الحجم ، فوق السطح تمدد فوق
ظهره ، يسند رأسه إلى الجدار ، رحت أقرأ له الأسماء ، لم نتوقف عنده
بالذات . صحبني أبى وصحب أخى إذ كان يحرص على صحبتنا . ذهب بنا إلى
ملعب في خلاء الدراسة ، مدرجات خشبية ، ومدعورن في
ولافتات من تجار الحى ترحب بالقادة الأحرار ، سمعت أن الشرطة ستقدم
عرضاً ، رأيت بالونات متفخخة في أرض الملعب المفروشة برمل أصفر غامق ،
من أقصى الملعب تنطلق خيول يركبها فرسان بثياب مزركشة ، يعدون ،
يركضون ، يفجرون بالونات ، يعلو تصفيق ، ثم تمر طوابير كشافة ، رأيت
المناديل الخضراء حول أعناقهم والحبال البيضاء التي تنتهى بالصقارات ،
وأحزمة جلدية تتدلئ منها خناجر ، يلتفون ناحية موضع من المنصة ، يرفعون
أيديهم ، في هذا الموضع كان هو ، لم أره . لكننى سمعت صوته . وكان
مجلجلاً ، تتخلله وقفات . تلك أول مرة أسمعه ، انصرفنا ، وسقانا أبى عصير
القصب ، سمعت صوته بعد توالى السنين مهموما يعلن الانكسار وضياع
الجند ، وتلك بداية الحاق ، وأول اشارات الغروب الذى أثقلنا واعم نشأتنا ،
وأجهز على ما أجهز غير أنه لم يلحق الضرر بالعصر الذى سمعته فيه أول مرة ، ولا
يخطو أبى عند صحبتنا له ، ومشييه معنا ، لم يلحق الضرر وان لى هذا كله فلا
انكفى لأراه إلا داخل رحيلى هذا ، أما في عالم الحس فإدراكه وعروم حال ،

وإن كنت أودعت اللحظات مقداراً من وجودي ، ومسافة من زمني ، سمعت
 ركلا ، ثم صفعا ، لكنني لم أسمع انينا أو صراخاً أو استجداء مرحمة مع أنه
 تجاوز الخمسين وآخر عهدنا به كان مثقلاً بالأوجاع وداء السكر وعطب القلب ،
 احتد الأمر ، تداخلت الأصوات ، استطعت تمييز ضيق الأنفاس وتفتق الجرح
 وانين العصب ، تتكاثر على الأصوات والرؤى ، تتطاير حول شظايا زمني ،
 الذي هو بعض زمنه ، أود لو أطلب التفسيرات . تأخذني هزات الشجي ،
 يشملني أسي ، يضمئني جرح ، يثقل عليّ فأهرع مولياً ، أسمع بكاء قديماً .
 أنظر ويا ليتني ما نظرت ، مسلم ابن عقيل محطم الأسنان ، مدلى الفك ، عطشه
 شديد ، عيناه تدمعان بعد وقوعه في الأسر ، إنه عاجز ، محاط ، مسلوب
 السيف بعد أن صال وجال ، يقول أحد الواقفين : إن من يطلب مثل الذي
 تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك . يقول ابن عقيل : والله ما لنفسي
 أبكي ، ولا لها من القتل أرثي ، لكنني أبكي لأهلي المقبلين أبكي للحسين ،
 وآل الحسين . أسمع رجفة ، ألتفت ، أرى مولاي بأسو ويخزن ، أرى جبينه
 الوضاء يتغضن ، أمسكت نفسي عن نفسي ، صمت عن النظر ، كفتت عن
 الفضول ، توجعت ، أمثل محبوبي يتألم ولو للحظة ؟ نسيت أنه كان بشراً
 سويّاً ، لكن لم يدم ذلك ، إذ وهنت على مهل شمسي ، واصفر كوني ، ودنا
 ليلى ، وبدت في أفق أول نجومى الذاريات ، امتلأت حاسة شمي براحة تراب
 بلدتنا ، ورائحة البئر القديمة التي غطيت جدرانها بالطحالب الخضراء ، ورائحة
 قواديس الساقية ، وهذا كله عبر الفراغات إلى رثتي أبي ، وطرق مناماته ،
 رأيت أضواء البيوت في الكوفة ، ورأيت نملة سوداء تدب في ليل الليل على
 صخرة صماء ، تواصل سعيي وكنت غير مكتمل بعد وإذا اكتمل الإنسان
 يرحل كالناقلة إذ تم حملتها تبحر أو تفلح أو تتحرك وثمة عودة . لكن الإنسان
 هو الوحيد الذي يكتمل فيمضي ولكن بلا رجعة .. فالنجا ، النجا ..

خاطرة ..

.. الموت موتان ، موت أعظم وموت أصغر ، أما الموت الأعظم فيتمثل في السكوت على الجور ، والتغاضي عن الزيف ، واخفاء الضمائر ، وغض البصر عن الحق المهضوم والتشاغل عنه بطلب المنصب الزائل ، والمال المكتنز ، كذا الرضا بالأمر الواقع والنأي عن محاولة تغييره والتقاعد عن الجهاد ، أما الموت الأصغر فهو بطلان الحواس ، وتوقف الأنفاس ، وهجوع القلب ، وبرودة الجسد عند مفارقة الروح ويبوسة الأطراف ...

المخرجات

.. تلك لحظة شروقية ولا شروق ، حمرة وصفرة وزرقة بعيدة وشفافية غامضة ، في النور الرقيق الحنون رئيسة الديوان ، ستنا الطاهرة زينب ، سنية ، عذبة ، مطمئنة ، ودالة ، تملأ الجهات الأربع ، هذا مولانا الحسن متولياً على النواحي الواقعة إلى يمين الموجودات ، أما ذلك فلب الضياء ومبند العتمة ، سيد الشهداء وشفيعى ودليلى وأمانى فى خوفى . لم أدر موضعى أو فى أى جانب أنا ؟ انفلق الضياء عن قرية مبانيها متجاوزة ومتباعدة ، طرقاتها رملية ، تلك لحظة الحسين من مكة ، يصحبه أهله وصحبه ، تتهادى رحله ، والدرب وعرة ، أما المقصد فالكوفة ، قيل له أن يسلك طريقاً جانبية لكنه أبى ، إنه يمضى فوق الأرض التى مهدتها أقدام المسافرين ، لا يخشى عيون يزيد المدسوسة ، قلبه منقبض ، والشواهد عكرة ، لكن الانقباض قد يعقبه بسط ، والضيق ربما تلاه فرج ، أما السكوت عن الضمير فهو الهلاك المبين ، قبل خروجه طاف بمكة ، تذكر المواضع الأول . تلك التى تمهل عندها ،

والتي آوى إليها ، والتي هزه الحنين في ظلها ، تلك التي شهدت أيامه الأولى عندما كان أبوه غصاً وغصنه مورقاً وكان جده الكرم يلاً الدنيا ، استعداد اللحظات الآمنة ، أيام طفولته في المدينة ، واللعب ، وهذه الربي ، وتمنى لو ألقى نظرة ربما تكون الأخيرة ، تذكرت هذه النسبات التي تتسلل عبر قبط الصحراء ، لثم بعينه الكعبة ، شرب ماء زمزم ، طاف بالزوايا والأركان ، تلك التي أودع عند كل منها مقداراً من الأيام الرواحل ، خاطر يهب على روحه قاسياً في رفته ، حاداً في رهافته ، ينبثه أنه لن يرى هذا كله ، يحاول اقصاه ، يمضي إلى تفرقة ما فاض عن حاجته على الفقراء والمرضى ، في لحظة خاطفة استكان وجهه لتعبير غريب لازمه ولم يفارقه ، يودع مكة ، يخرج ، على الطريق المؤدية يلتقي الفرزدق ، يسأل عن حال القوم ، يقول الفرزدق حزناً إن قلوبهم معه ، وسيوفهم عليه . إذن الأمر كما حدثه قلبه ، يستمر رحيله ، خروج ولا دخول ، المصير المنتظر يتكشف له عند كل خطوة ، يستدير الزمن ، ينهل من منزل الضر والبلوى ، بعد مرحلة أخرى يقابله رسول ابن عقيل ، يفضي إليه بالأبناء الموجهة ، بالأخبار الجسام .. إذن ، لم يعد المصير مجهولاً ، هذا هو الحسين في ركبته .. وضاء ، عازم ، مرقق الفؤاد ، صادق النوايا ، ليواجه بعمره من يريدون شد حياة الخلق إلى الوراء ، إلى عصور الجاهلية الأولى ، إلى ما يثقل الوجود الإنساني المحدود بالشقاء ، في ركن قصي من قلبه المكلم أمل بمواجهة القوم ، مجادلتهم ، محاولة ثنيهم عن تقاعسهم ، وخوفهم من السلطان الزائل ، لكن الخواطر تنبثه بما سيجرى وما سيكون من سفح دمه . فليكن عمره محدوداً ، ولكن ما سيحدثه قتله على أيديهم سيتأجج بعد أن يبدأ مجرد جذوة ، إنه يوشك أن يرى بعينه ما سيجرى هنا نظرت إلى مركز الديوان ، أعضاؤه وأوتاده وأركانه يرقبون

ويصفون ، حسيني ينظر إلى نفسه بنفسه ، في خاطري تكاكات الأفكار والقول ، ما من مجال للحديث إليهم ، ليس بوسعي إلا التلقي ، كنت هادئاً غير مستوحش ، يخرج الحسين إلى كربلاء ، رأيته ، واستعاد الديوان معي اللحظات الجسام ، رأيته ، ورأيت بعده خروج الندى والطل ، رأيت خروج الزهر من الأكام ، وخروج الموجة من رحم الموجة ، خروج اللحظة من اللحظة ، رأيت خروج النظرة إلى المنظور ، ولحظة خروج النهار من الليل ، وخروج النجم من باطن الكون ، خروج الدمعة ، رأيت ما أحدثه خروج عبد الناصر في ذلك الزمان الغريب ، الناس يتحدثون عن ظهوره ، يؤكد الذين شاهدوا الواقعة في ميدان الدق أنه هو . الملامح ملامحه ، والقسمات نفس القسمات التي تحملها الصور القديمة . والقسمات نفس القسمات التي تحملها الصور القديمة . يؤكد رجل متعب أنه لا يمكن أن يغطي وجهه أبداً ، تقسم فتاة شابة لم تعش زمنه الدنيوي أن صوته الزاعق هو هو نفس الصوت الذي اصغت إليه طويلاً خلال التسجيل المتداول سراً ، يقول فلاح في البراري القضية إن عبد الناصر جاء مليئاً نداء الذين لا حول لهم ولا سند . وأنه جاء لأن هذا البلد محمي بآل البيت ، فيه الحسين ، والسيدة زينب رئيسة الديوان ، وسيدى زين العابدين ، والسيدة فاطمة النبوية ، والسيدة سكيته ، والسيدة رقية ، والسيدة نفيسة ، رحمهم الله أجمعين ، يؤكد صحفي شاب أن عبد الناصر هرب من سجنه ، وأنه خرج ، خرج مضمداً الجبين ، به عرج خفيف ، وأنه شوهد في عربة أجرة بصحبة ثلاثة لا يعرفهم ، وأن تهريبه تم بعد تدبير عظيم ، رأيت الحيطه والحذر ، جنوداً غرباء يقفون عند المفارق ، يشهرون الأسلحة العجيبة ، يدققون في المارة ، يتفرون في الملامح ، والهويات ، وأوراق اثبات الشخصية ، رأيت رجال المخابرات المركزية يوقفون

القطارات ، والسيارات ، ويقلبون الحمولات ، ويمسكون بالمنافذ ، أيقنت أن ثمة أمراً يجري لكنني لم أفهم عليه ، كدت أسأل ، لكنني رحلت إلى لحظة ماضية فرأيت عبد الناصر مرتدياً زيه العسكري ، لحظة خروجه معلناً الثورة ، ثم تبدلت الرؤيا فإذا به في صحراء نائية يدبر أمراً ، وكان في قلة وعرفت أنه سيكون من أمره ما يكون ، رأيت الحففة تخرج من الحففة ، والدم يضحخه القلب فيتدفق ويسعى ، ليس للإنسان إلا ما سعى ، سبحانه ! ، تتبدل أنفاسي فأرى خروج أبي من البلدة ، من قريته ، من موضعه الأول وأيامه الأولى ، يمشى مع مثيل له في العمر اسمه عمر ، يسعيان باتجاه الجسر ، يولى أبي ظهره للبيوت ، يودع دنيا ويستقبل دنيا ، الأولى معروفة والثانية مجهولة ، يتوقف ، يستدير ، البيوت يندارها النخيل والدوم والسنط واللبخ ، عيناه تدمعان ، لا يهون عليه فراق البلدة إلى أرض لم يرها ولم يطأها ، لا تهون عليه جهينة مع أنه شرب المر فيها ، سقاها عمه التوتياء والمر والحنظل ، صبغ أيامه بالنيلة ، أو شك على الفتك به ، أو ثقه ذات ليلة واتجه به إلى التزعة قاصداً اثقاله بالحجارة واغراقه لولا الصدفة التي دفعت إلى طريقه برجل طيب ، باشجاويش النقطة واسمه أحمد حسين ، ولولا ضابط النقطة واسمه أبو حشيش ، ولكل منهما مواقف ومقامات وأحوال سترت في موضعها عندما يحين الحين ويأذن الكريم ، ويسمح لي أركان الديوان ، جعلني الله من الساعين إليهم دائماً ، ومن الطوافين حولهم ، والمتمسحين بأعتابهم وأطراف مقاماتهم وأطراف ظهورهم . رأيت أبي يدمع عند الجسر ، عند اختفاء البيوت التي لم يعرفها إلا دائماً على اعتبارها ، رأيت يدمع لأنه يعرف أن ما كان لن يكون ، إنه عندما يعود إلى البلدة يوماً ، قرب أو بعد ، سيجد أن كل ما يعرفه قد نأى عنه بدرجة أو أخرى ، هذا ما أدركه أبي وهو غض العمر ، وهو معنى لم

أصل أنا إليه إلا بعد أن نالت السهام منى وكثرت جراحاتي ، استغرق أبي عامين يعد نفسه للخروج بعد أن صار عيشه صعباً ، في ليلة طقت الفكرة في رأسه فخشيها وأرجف خيفة منها ، شجعه وقوى قلبه رجل طيب اسمه محمد علي ، استفسر أبي عن مصر ، عن الحياة فيها ، عن شكل بيوتها ، عن سبل الرزق ، والمسعى ، والمأوى ، وعناوين الأقارب ، حفظها وتلاها مرات بينه وبين نفسه ، عزم ثم انثنى ثم عزم ، استدار الزمن الأكرى ، فرأيت أبي الذي أعرفه عند شروعه في سفر لزيارة ولي من أولياء الله أو لزيارة أحمد حسين رجل البوليس الذى انقذه ، رأيته عندما يروح ويحجى يسأل عن مواعيد القطارات ، السريع منها والبطيء . ثم شرائه الهدايا ، احضاره القفة الفارغة المجدولة من الخوص ، يرتب اللفافات ثم يفرغها ، يخرج ما وضعه ، يجاذر أن يضع الشاى بجوار الصابون ، يلف الأكياس بورق جريدة قديمة ، يرتب الأشياء من جديد ، في الليل يتقلب ، وإلى المحطة يصل قبل ميعاد القطار بساعات ، هذا قلقه كما عرفته مع أن سفراته تلك موقوتة ، سفرات لها رجعات ، أى حيرة ؟ أى أسى ؟ أى شح ؟ أى ، لنا ، فقال ، مات عليه قماً . أن تخين لحظة خروجه من البلدة

وصديرى داخلى ، سروالين من الدمور ، إلى صدره يضم عشرة جنهيات ، ما ادخره عبر سنوات من عائد الفدان ونصف الفدان ، نظرت إلى مولاي وقبلت قلبي وحنينى .. الحسين . أدرك ما جال بخاطرى ، جاعنى الجواب ، عرف أن أبى ضاق بالدنيا حتى بدت له أحيانا أضيق من ثقب ابرة ، لكن كان لديه فضول ، وعنده أمل ، سيعطى هذه الجنهيات العشرة لأحد المعارف فى مصر ، سيرجوه أن يلحقه مجاوراً بالأزهر ، سيتعلم ، سيرعف الحرف من الحرف ، سيفسر الكلم ، وسيقرأ القرآن ، والأحاديث ، والتفاسير ، سيتلو .

ويكتب . ويتفقه ، سيرف الدنيا فالجهل عماء ، سيحاول أن يعرف مواقع النجوم ، ودورات الشمس والقمر ، وأسماء الأزهار ، وتواريخ العظماء والسير ، كان أبي مولعاً بتبع الانساب ، كل بلدة ومن انجبت ؟ والوقوف على أعمال الناس في الأزمنة الممحية ، كان حاد الذاكرة فإذا سمع اسماً لا ينساه أبداً ، وإذا مر بيوم شتوى غائم فلا يروح بدرجات ضوءه الرمادية من وعيه أبداً ، وإذا جلس في جمع فإنه يذكر ترتيب جلوسهم ولون أرديتهم بعد انقضاء عشرات السنين ، كان يذكر أسماء الأيام التي غزر فيها المطر أو اشتد الحر على غير عاداته في عام بعيد ، تلك ذاكرة لم تنبأ أبداً حتى ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ، الليلة التي كنت فيها نائماً عنه . أتابع الخطى التي بتواليها يكتمل خروجه إلى مصر ، مصر ضروعها كثيرة ولن يعدم مورد رزق يعينه حتى يتعلم ، حتى يقرأ ويكتب ، حتى يعرف ما لا ترويه الألسنة شفاهة ، ها هو يقطع جزءاً طويلاً من الطريق المؤدى إلى طهطا ، أول المدن في طريقه ، وهنا وقع لي ماكنت أرجوه ، أذن لي الديوان كله بالظهور لأبي ، تجليت له على الطريق ، كنت شاباً في العشرين ، ارتدى جلباباً أبيض وطاقيّة من الصوف وأقبض على عصا من الخيزران ، ولم أدر.. ملامحى أهي ملامحى أم ملامح أخرى ؟ يتقدم منى أبي ، أرقبه يمشى والعالم خلو منى بعد ! يتجاوزنى ، يعود إلى ، يسألنى عن المسافة المتبقية إلى طهطا يسألنى ورفيق رحلته بعيد عنا ، والنهار مليح حان ، تسنح لي الفرصة فأتملى من وجهه ، أرصد مواطن الحزن والحنين حول عينيه ، وفمه ، يتصل الشجو الغامض منى إليه ، ومنه إلى ، أصف له الطريق ، أذكر له منحني بين النخيل ، ومصرف لا بد من عبوره عند قرية الطليحات وجزء مبتل ، طيبى ، عليه أن يتجنبه ، ومترل لثرى حوله كلاب ، فليحذرهما ، وشمس ربما تشتد ظهراً ، إدن فلا

يخوض في حقول الذرة والمرات التي تتخللها ، ليلزم الطريق ستظله أشجارها ، يشكرني ، ويدعوني بالستر ، يكاد يسألني ، من أنا؟ لكنه ينجل ، يستدير فأصبح عليه ، يلتفت ودهشة تحتويه «أتعرفني يا ابن الناس»؟ ، يتسم له في ، تمتد يدي بالخيزرانه ، أقول «رافقتك السلامة .. يبدو أن سفرك طويل ، خذ هذه لتمنع الكلاب عنك » ، يدعوني مرة أخرى ، يستدير ممسكاً بالعصا ، وتلك عصا احتفظ بها طوال عمره ، حتى في أيام غضبه وهجره البيت كان يصحبها معه ، عصا لم أدر مصدرها إلا في أسفاري ، أما منشؤها ومنبتها فهذا ما لم أحط به خيراً ، من توكأ عليها ، وأى مآرب كانت فيها ؟ وعلى أي الأغنام أو الحيوانات هشت ، وإلى أي الصور تحولت؟؟ فهذا ما لم أحط به خيراً . ها هو ينصرف عني ، يمد الخطو ليلحق بصاحبه ، يحاوره ، تمنيت له السلامة ، توجهت إلى رئيسة الديوان أن تحيطة برعايتها في خروجه هذا ، ينقصني وجودي الذي تم قبل أن أبدأ ، انفرق قبل أن أتجمع . أسأل عن السنة ، تجيئني الإجابة هذه المرة . إنه العام الثالث والعشرون بعد التسعمائة والألف التالية على ميلاد السيد المسيح ، لكن لم يفص إلى باليوم أو الشهر ، وإن تجلت لي معارف تعجبت منها ، لحظة مفارقتة حدود البلدة ، حطت يمامة مهاجرة فوق بقعة مجاورة لمقابر قديمة جنوب الفسطاط ، وسطعت شمس فوق رمال صحراوية تقع شرق العباسية ، أحصى رجل اسمه الرمالى مقداراً من المال ، وتلقى طالب حقوق اسمه محمد خلف هدية من نابولي ، علبه حلوى محشوة باللوز ، كان ما بين خروجه ولحظة خروجه الأبدي من الدنيا سبع وحمسون سنة ، ولحظة ميلاد أمي يومان اثنان ولحظة ميلادى اثنان وعشرون عاماً ، ورواجه من أمي ست عشرة سنة ، وكان بين خروجه وخروج الحسين إلى كربلاء ألف ومائتان وثلاث وأربعون سنة ميلادية ، وبين

خروجه وخروج عبد الناصر من الدنيا سبعة وأربعين سنة ، وبين خروجه ومجيء الاسرائيليين إلى مصر أربع وخمسون سنة ، وكان بين مجيئهم ورحيله عنا ثلاث سنوات ، وكانت مدة إقامته في الدنيا ثمانين عاماً - كما قالت أمي - وتسعين - كما قالت عمتي - وأكثر من مائة - كما أكد أحد أقاربه المعمرين . أما السجلات الرسمية فقالت ، اثنان وستون ، عبتاً حاولت أن أعرف الحقيقة من مولاي ، من سيدتنا الطاهرة ، امبتع عنى ذلك ، عدت إلى أبي . هففت حوله وهو يركب مع صاحبه عربة بضاعة في قطار بطيء يتجه إلى مصر تهاديت نجوار ركب الحسين السارى إلى الكوفة ، تأكد لى هرب عبد الناصر من سجنه ، تنقلت وتابعت حركتى ، تشتد رأى ، يعود الحسين إلى جوارى .. آسف .. أعود أنا إليه ، يططب علىّ ، يتحن علىّ ، يقوى عصدى ، يثبت قلبى . أقول ..

غرنتى في ازدياد بعد كل ما تبلى لى

يقول

كل ما خلق لابد أن يرجع إلى ما كان عليه ، هذا مقطوع به
الحنين في عيني أنى يعاودنى ، قلبى مثقل ، ملامح عبد الناصر في مواجهة الضابط ، آلام ابن عفيل ، أقول ..

أخشى ما ينتظرنى

يقول :

ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى

أقول .

ردنى

يقول

ألا تؤمن ؟ .

قلت :

بلى .. ولكن ليطمئن قلبي ..

وهنا رأيت في موضع قصي من الديوان . وجلت ، فلم استطع كتابان
ما بي ، تساءلت ..

في أى اصقاع نساقر؟ في أى رحم ينبت النسيان ؟ أى ميشمة ثقيلة تحوى
الذكرى ؟ أى مثوى يجنى الأيام . والليالي ..

رأيت الحسين غاضباً ، يواجهنى .

ألم أقل لك ..

انكسرت ، وانكسر خاطرى ، وصار لعابى مرأ ، لم ألفظ ، قال :

ألم أحذرك .. ثمة شيء واحد لا تسأل عنه أبداً ..

ركضت دقات قلبي تأسفاً وحسرة ..

راح من أمامى ، رأيت في موضعه من الديوان ، لم أدر إن كنت عدت

إلى ما بدأت منه ، أم أنتى فى موضعى الصحيح ؟

توجع وأنين ..

لقد لاقيت من أسفارى هذه تعباً ونصباً .

المواقف

الجلديات

موقف

التأهب

هي الشمس إلا أن للشمس نيبية
وهذا الذي نعبئه ليس يغيب

. أوقفني في موقف التأهب ، ثم فارقني ، هجرني ونأى عني فعدت إلى
غربة وقرر بعد أنس وألفة ، صرت إلى جنفوة بعد ودمل ومودة ورحمة ،
صرت بمفردى ، غربياً في غربتي ، نائياً في نأئي ، بعيداً في بعائتي ، لكنني
أشبه بمن يستجمع كافة قواه تأهباً لاندلاق عظيم ، كنت قادراً على رؤية
ما أمامي وما ورائي ، فوق وتحتي بدون حركة من عيني أو رأسي ، صرت
بسرّاً كلي ، كآني النانار والمنظور إليه كآني الراي والمرئي ، رأيت الماثراً عجيباً
لا عهد لي بمثله في طيور الدنيا . قد من ضوءه ولبيف ، ريشه شمع لألوان
الدنيا ، أما رأسه فرأس بشرية ، وجهه آدمي ، حدثني قلبي أنني أعرف
الملامح لكنني لم أتمكن من تدقيق بسرّي لشدة الألق فعرفت أن أوان معرفتي
له لم يحن بعد ، رأيته يحوم في سماء الديوان ، وأنها محيطلة بالديوان إحاطة
ببأس اليفضة بدفئارها ، بدا لي الطائر السجيب محلقاً إلى أعلى وإلى أسفل ،
صعوده مبروط . وبروله طلوع ، وإذا به ينطق ، فيأمرني بالتأهب ،
فخضعت واستهيجت ، لم أنزهه شعف ، وإن اضمرت الدهشة لأن مولاي

فارقني وهو الصاحب والرفيق والدليل الذى به اهتدى ، سكت ، وإن عرفت أن كل ما يرد على عقلى من خواطر ، وكل ما يرعش قلبي من أحاسيس معروف مدرك لسادة الديوان سادتى ، عند نقطة بعينها رأيت رجلين يقفان فيما يشبه الضباب ، وخطر لقلبي أن شدا أيامها شديد القرب منى ، أخبرانى بالصمت أنها تلقياً أمراً كالذى تلقيته ، ثم أوضحنا لى مقصدنا ، ونهاية وجهتنا ، كربلاء ونقطة قصية من الزمن ، ولينا وجهتنا صوب كربلاء ، وعرفت أننى فى بداية الموقف ، وهذا موقف هين ، له من الألوان الرمادى ، ومن الأيام الأحد ، ومن ساعات النهار ما قبل شروق الشمس ، ومن الحرارة بداية شدتها ، ومن حالات العيون لحظة ما قبل خروج الدمع ، ومن القلب خففته الوهلى عند سماع النذير الثقيل . بدأ سفرنا وتبدلت علينا الألوان ، مررنا بسواد حالك كالرخام الأسود أو القطيفة اللبكية ، وزرقة صافية كلون الفيروز عند نشأته ، ثم رأينا ضوءاً ثاقباً نحيلاً يخرق الديوان من أقصاه إلى أذناه ، ثم تعددت أجسام غريبة تشبه المذنبات ، أو النيازك أو الشهب ، وأخرى لا ندرى عن طبيعتها أو هويتها شيئاً ، تقبل علينا فيظن المبصر لها أنها ستخترقنا ، ستغرقتنا ، لكنها تعبرنا ، أو نعبرها فلا يلحقنا أذى أبداً ، تتداخلت كواكب قديمة ، وأخرى حديثة ، كما يتداخل شرر النار ، تعاملت ، وتجمعت فى خط مستقيم ، ثم سعت فى أثر بعضها ، لكنها لم تتصادم ، كل فى فلك يسبحون ، وتعاقت المراثيات علينا بسرعة تغير الخواطر ، فقلت لا يكون هذا إلا لأمر جلال ، توالى الألوان علىّ ، ألوان جديدة لا عهد لى بها ، وليس لها مقابل فى عالم الأسماء والأوصاف ، ومن حين إلى حين يمرق ظل طائر الضوء المشع الذى أمرنى ففررت أنه رفیق سفرنا هذا ، لم أفكر فى صاحبى لشدة ما تعاقب علينا لكننى أدركت أن أوان الدنو يقترب ، ولاحظت

أننى كلما اقتربت ابتعدا عني ، حتى اختفيا عني عندما انتهى رحيلي ، وأوشك على الانجلاء ليلي . هنا انغرس الخاطر السديد فأرجف وعي ، كيف لم أعرفها ، كيف لم أدرك الملامح المهمة في جملتها وتفصيلها ، كيف وقد طالعتها عمراً . أبي عن قرب ، وعبد الناصر عن بعد ممزوج بقربي ، كيف لم أخطب كلا منها باسمه ، كيف أرحل بصحبة أبي وتداخلى غربة ، كيف لم أقترب منه حتى وإن شاغلتنى الأفلاك والرؤى . غاص سؤال في وجداني . أهي بداية النسيان

تذكرت صديقاً قديماً يكبرني سنًا ، وكنت ملوعاً مغموساً في حزن طرى كالقار الساخن السائل ، قال صاحبي : أنت في حاجة إلى عام كامل كي تنسى ، لم أرد ، استنكرت ما سمعت ، تساءلت بيني وبين نفسي ، كيف ينظر له أننى سأنسى ذات يوم حتى وإن بدا بعيداً ، وكأنه انتبه وخن ما جال بخاطري فقال مواسياً ، كل الأشياء تولد صغيرة وتكبر ، عدا الحزن فإنه يولد كبيراً ثم يصغر . ضقت بقوله هذا ، وضقت بتذكري له في موقفي ، لكن عسيسة الصبح البعيد عن زمني الدنيوي ، وتنفسي هذا النهار الذي لم أعشه أبداً أدخلني ، وجدت نفسي بمنأى عن عصرى ، في كربلاء ، أمامي معسكر مولاي الحسين ، خيامه مضروبة ، لم يتبق معه إلا أهله ، وأقرب الأقربين ، أما اليوم فهو الثالث من أيام عطش الحسين ، حيل بينه وبين الماء ، في المواجهة جند يزيد ، إنه العام الخامس والستون المنقضى على هجرة شفيعنا المصطفى محمد رسول الله ، إنه العاشر من محرم ، إنه الجمعة ، ضمنت مولاي بنظرائي ، ولقفت صغيره الرضيع المقاسم في غرارة قلبي ، وتوقف فجأة عن الطواف ببصرى ، رأيت صاحبي اللذين رحلا معي عبر موقف التأهب ، رأيتها أو هكذا شبه لي ، أبي وعبد الناصر ، يرتديان زى العصر ، ويمسكان أسلحة العصر ، ويقفان بين صحب الحسين الذين بقوا معه ولم يفارقوه

وتأهبوا للظما وانقطاع المدد ، بقيا معه ، مع خاصة خاصته ، أخلنى العجب ، فانطويت تحت لواء الحبيب الأوفى ، الحبيب المتزه ، مرآة الحق ، وجلى الغموض ، عين القدر وعطر أيامى التى لم تأت بعد ، كنت أرى ولا يرانى أحد ، وعندما جف حلقى ، واشتد عطشى عرفت أنى أكابد ما عاناه القوم ، عرفت أن موقف التأهب ولى ، عرفت أن القدر سابق ، والقضاء لاحق ..

موقف الظما

« بل هم فى لبس من خلق جديد »

صدق الله العظيم

.. صرت بين أهل الحسين وصحبه ، حصارهم حصارى ، وتعبيهم تعبى ، وظماهم ظمئى ، غير أنى خصصت دون الكل بقدرتى على التنقل بين موضعهم المحاصر ومواقع من يحولون بينهم وبين ماء الفرات البارد الرطب ، لم أكن أدرى إلام سينتهى أمرى ؟ وهل سأقضى أم لا ؟ وإذا قبضت هنا فهل سيتلاشى خبرى ، وينقطع جذرى ، ثم لا أوجد فى المستقبل البعيد الذى أتيت منه ، أقصيت التساؤلات التى محورها ذاتى وتملكنى شوق إلى السعى فى أثر أبى ، أبى الذى رحل عنى بالموت وصار قدرى أن أقضى نصيبى الباقى لى فى الدنيا بدون طلعاته ، بدون أن أصغى إلى نوبات سعاله الليلية فى الأيام الشتوية ، أو قدميه عند صعوده السريع والذى أبطأ مع تقدم عمره ، وديب الوهن إليه ، بدون أن أنتظر دقائق يديه على باب بيتنا وقد كان هو تعريشة سقفه ، وأمنه اللبلى من الطوارق الغربية ، والمفاجآت الداهمة ، كان ضوءه

النهر ، صرت أفتخرى ما تبقى لي من عمر بدون شعورى أنه هناك . في مكان ما ، وأنه باستماعي السعي إليه فأراه ، وأصافحه ، وأجلس إليه ، أذسمه بالنظر وقد أشيخ عنه أخاطبه بالنطق فيستجيب ، ما تبقى من زمني ينالو الآن من توقع مقابلاته فجأة في طريق ما ، ما اسم ذلك اليوم بعيد ؟ كنت أركب القطار القادم من الضواحي ، عندما رأيته يقف منتظراً عبور المزلقان ، لا بد أنه شتاء ما إذ كان أبي يرتدى المعطف القديم الوحيد عنده ، ما اسم ذلك اليوم ، ما اسم ؟. تالفت حولي وأنا في أرض غريبة ، أرض غير أرضي وزمن غير زمني ، رمال جافة وشمس حارقة والماء بعيد ، وأفواه نلسأى بين فاهي ، وأمل واه في النجاة ، هذا ابن مولاي الحسين القاسم ، الرضيع ، مذبوح من رقبته بسهم ، لم يوار الثرى ، يخرج أبوه ، يحمله بين يديه ، يشهد السماء على ما يخبري لأحفاد رسوله الكريم وعترته وآله ، عاينت ذلك بعيني ، وبصري ، ولم أكن محارباً ، ولم أرم بسهم أبداً . لم أقذف رحماً غير أبي وددت لو مكنت من هذا كله ثم وجهته إلى القتلة ، أعرف أنني أواجه قلباً قست ، ونفوساً تعامت ، وأنه ما من فؤاد سيرق أو يحنو ، وعهدني بالقلوب إذا ألفها حال القسوة فان يقص ذلك من فسوتها شيئاً ، أرى مولاي مكروباً لكنه لا يخاف الدنو من نهاية محتومة إنما يؤله ويغز في روحه ذلك الظلم البادي على أقرب الأقربين ، لم أدر ما أفعل ، غير أنني رأيت أبي يسعي باتجاه النهر ، هذا خطوه الذي أعرف ، عدوت في أثره والرمال تتناثر عند عقبي .

أبي ..

ولم يلتفت إليّ ، زدت من ركضى حتى جاورته ، ثم سبقته وملت بوجهي لأرى وجهه ، لأعلى وأتحقق ..
تعال إلى النهر ..

هكذا ، بالصمت أمرني ، سررت لأنه عرفني ، ولأنني تملت من وجهه ، من ملامحه ، قدرت أنه في الخمسين أو الستين ، وإذا شئت الدقة فإنه أبي كما كان يطالعي وجهه أثناء دراسي الإعدادية ، عند مدخل شبابي وقتوتي ، عندما كان عفيفاً يستيقظ في أيام الشتاء الباردة ، ويسمع صوت قببائه الخشبي في البيت يضرب البلاط ، ثم يفتح الباب ، يغلقه اغلاقاً هيناً رقيقاً ، ثم ينزل السلم ، أسمع خطواته في البداية قريبة ، قوية ، ثم تتضاءل فوق بلاط الحارة المرصوفة بالحجارة المضلعة حتى تتلاشى فتدوب يقظتي وأروح في نوم عميق ، يبتعد أبي ، وآه من البعد ، ها هو بجوارى في أرض لم يحدثنى عنها أبداً ، يسرع في اتجاه النهر ممسكاً بقرية جلدية بنية اللون ، مقددة الجلد ، فمذ وقت طويل لم تنتفخ بالمياه ولم تقطر قطرة منها ، عرفت أنها القرية التي كان يحملها فوق ظهره ، أو بمعنى أدق وأوفى ، القرية التي سيحملها في صباه الآتي عندما سيعمل سقاء ينقل الماء إلى من سيأورونه زمناً ، ما أراه يمت إلى دهر بعيد لم يأت أوانه بعد ولم يحن حينه ، ولم تولد بعد الحيوانات التي ستسلخ جلودها وتصنع منها تلك القرية التي أراها الآن ، وهنا سر غامض ، والاستفسار عنه مؤجل الآن ، الموقف وعمر ، والقلب طافح بالشحون ، بما يكون ولن يكون ، فالأمر عجيب ! ، لو تجرأت وسألت ، ربما تجلب جراتي الضيق بي ، والضيق بي يؤدي إلى السخط عليّ ، والسخط يعقبه البعاد ، والبعاد يقصيني عن الديوان ، وإقصائي يعني حرمانى . لذا لزمتم الصمت ، انتهت إلى أن صوت أبي ليس صوته ، الصوت لعبد الناصر ، وسرعة جريه لمازن ، واطرافته لايراهيم الرفاعي ، توحد بهم وتوحدوا به فاحتواهم واحتووه ، صار مجمع المحبين الذين رحلوا قبل الأوان ، أحببت عديدين على القرب والبعد وهم الآن واحد ، أبي مضاف والآخرون مضافون

إليه ، وقد يتبدل الحال ، فيتفرق أبى بينهم ، ذلك قدر لا أعلمه ، دونى
و بدون إدراكه سراييل ملهات وصحاب وأى صحاب ؟. استمر ركضى إلى
جواره ، أنا الذى لم أركض إلى جواره فى حياتى الدنيوية ، لم أركض فى
صغرى لأنه كان يحنو علىّ ويأخذ بيدي ولم أركض بعد نفسجى لتباعد
المسافات بيننا ، وفى هذا الموقف أقر بلذبي فأنا المستول عن الجفوة للذقت
على الشقوة ، هذا يقين مدرك ، ثابت ، كلما خطوط خطوة تزايد عطشى ،
عانيت ظمأ أهل الحسين وصحبه ، وظمأ أبى ومن توحدوا به ، وزاد علىّ
ظمأ غريب ، ظمأ غير مدرك بالحواس الخمس ، موجع ، مقلق للراحات ،
يقلق ويقض مضجعى ، ويرض كبدى ، ظمأ جهم ، لا أدرى مصدره ،
ولا ترويه أنهار الدنيا وأمطارها ، وهذا أصعب أنواع الظمأ وأوعرها ، نما
وتدبب فصار ذا ثلاث شعب تنوه فيها الخطى ويفضل القفا فشعب يؤدى إلى
أبى ، وآخر يفضى إلى مولاي ، وثالث ينتهى عند من أحببتهم ، فى يوم
عاشوراء هذا ، الماء منعدم عن أحبى ، واليبوسة فى ازدياد ، والمدد منقطع ،
آلتى سلوك الشعاب الوعرة إلى أبى فعظم ظمئى إلى أيامنا الأولى ، إلى اللحظات
لا ولن أعياها ، إلى وجهه وما ارتسم عليه من تعبيرات عندما ضمنى أول
مرة ، وكنت بعد لحماً طرياً لا يعى إلا جوعه أو بوله أو برازه دون أن
يسميهم ، يرتدى جلباباً من قماش الكستور فى الشتاء والزفير أو البويلين فى
الصيف وجاكته وهبها له أحدهم ، فى مرات زيارته القليلة لبيتى بعد زواجى
كان يحبب ولا يطيل المكوث ولهذا الزيارات مقام آخر سيجىء عندما يأذن
الديوان بذلك ويسمح التجلى ، ولكن أعمى فى خضم الخمق جلوسه الهادئ
المستكين الخجول ، ونظره إلى محمد ولدى ، ومداعبته له بحذر خشية أن يبدو
منه خطأ ما . هكذا أظن وأعمى ، سألته ، هل يشبهنى محمد فى طفولتى ؟

فلو ما برأسه الممثل بهوم الوحدة ، رأسه الذى تضاهل حجمه فى آخر سنى
عمرى ، قال : نعم يشبهك ، ثم صار يردد ذلك فى كل مرة يزورنا فيها ،
عندما يحىء محمد مندفعاً ، يقف أمامه لحظات ، فيحتضنه أبى لحظة لا تدوم
ثم ينظر إلى ، كأنه يتذكر سؤالى ، وكان السؤال ما زال عالقاً بلا إجابة . كأنه
يرضىنى ، وكأنه يبدد الصمت فيقول : إنه يشبهك عندما كنت طفلاً . لم
يعش أبى مشاعر الجدل كما يجب أن تعاش ، لم يشبع من حفيده ، ابن ابنه
الوخيد الذى رآه ، من ذرية من أنجبهم فقد جاءت ابنتى الصغرى بعد رحيله
عنا بسبعة شهور إلا عشرة أيام ، وعن أبى وحفيده الذى هو ابنى حديث يطول
لا يناسبه هذا الموقف لما يتضمنه من دقائق مؤلمة ، توجعنى ، تقص مضجعى
وتجرح أيامى المتبقية ولو فتحت الباب فيه الآن فكأنى اسدد سهام جيش يزيد
إلى كيس قلبى ، هذا ما لا طاقة لى به ، تزايد ظمئى إلى رائحته التى كنت أشمها
فى سنينى الأولى ولهذا السنين مقام خاص هو مقام الأمان . فند أن ولت
وابتعدت ولئى أمنى وضمرت أمانى ، وصرت مطارداً فى حياتى ، وتلك
عوامل يطول شرحها لكن بالامكان أن أفتح طاقة صغيرة على هذا المقام
الجخيل فأرى منها أبى وعودته عند الظهرية ، وخطوه النشيط ، وبين يديه
طعامنا وقوتنا ، وتردد أنفاسه الليلية ، وإمساكى ليدى فى طريق مزدحم ثم
تلك الرائحة ، رائحته هو ، صدى ظمئى وظماً الحسين وأهله ، ما من أحد
يرق لهم ، وما من قوة ترق لى . أو تقرنى من هذه اللحظة القديمة التى ستندثر
معى ، ولن يبتقى منها إلا شظايا وأصداء فى منزل الروى الباقية ، ولو قصصت
فحوها على أى إنسان لسخر منى وهزأ بى ، فما الذى تعنيه عودة أبى عند
الظهرية فى يوم من أيام طفولتى عند الآخرين ؟ ما الذى تعنيه كل هذه
اللحظات ، يا أحببى لكم . ومن سيدرك حقيقة ظمئى هذا ؟ أقدم ما أعيه من

ذاكرتي التي تغص الآن بالناس والمدن والشوارع البعيدة والنواصي والمقاهي
 والجبال والوديان التي لأعرفها والغض والحلب والحنين ، والتجليات
 والأخيلة ، ازيح هذا كله وأصل إلى لحظة نائية من أيام الحرب ، كان عمري
 ثلاث سنوات ، نسكن في شرفة وحيدة فوق سطح بيت من خمسة طوابق ،
 سقفها مرتفع ، عمله سبع عشرة دنامة خشبية ، كثيراً ما قد أبي فوق ظهره
 في لحظات راحته أو انسه أو اطمئنانه إلى الغد الآتي . يبدأ في احصائها
 بصوت مرتفع ، ثم يتذكر أياماً بعينها فيقرن كلا منها بدعامة ، ويتذكر
 شخصيات عرفها فيطلق على كل دعامة اسماً ، في تلك الأيام التي عشتها
 بوجودي الحسي والمجنون ، واجترتها بأعضالي كافة ودقات قلبي وتوالي أنفاسي
 ودفق دمي ، انطلقت صفارات الانذار عاوية ، واخترقت سماء القاهرة حزم
 ضوئية حادة منبعثة من الأرض إلى السماء تبحث عن الطائرات المحومة ، وفي
 السماء يتفجر الغلام للحظات بأضواء الفوانيس التي تلقيها الطائرات المغيرة
 لتكشف المدينة المستورة بليل كئيف . في هذه الليلة اشتاء القصف فقال أبي :
 سنزل عند الست وجيدة في الطابق الأرضي من الحارة صاح البعض
 مطالبين ساكني الطابق العليا بالتزول إلى الأدوار السفلي ، واطفاء الأضواء
 تماماً . أمي حامل ، وفي رحمها يتكون شقيق الذي أصبح فيما بعد اسمه
 اسماعيل ، نزلنا عند الست وجيدة وانقسمنا ، أمي ذهبت إلى حجرة تجمع
 فيها نساء البيت كله ، بقيت في الصلاة ، تحدث الرجال عن الشظايا التي
 تقطع المسافات وتحز الرقاب ، تكلموا عن شعراوي ابن الباشجاويش أبو
 أحمد ساكن الطابق الثالث ، تطوع للقتال مع الفدائيين ، حكى أبوه عن
 دبابه اسمها الثمر عند العدو ، مصفحة ، لكنهم قصفوها بطلقة من نوع خاص
 قسمتها إلى نصفين ، أصغيت ، ازدادت التصاقاً بأبي ، لذت بجانبه عندما

كان جانبه يؤمّني ويبدد خوفاً ، ويذود عني الكروب ، من بعيد انفجارات متلاحقة ، قال قاتل منهم ، الضرب ناحية العباسية ، استمر صمت للحظات ، قال أحدهم ، أطف يالطيف ، انتهت الغارة ، واضيبت الأنوار بعد صفارة الأمان ، صعلت أمي السلم متمهلة ، في هذه الليلة نمت قريباً من أبي ، من حين إلى حين كنت استيقظ لأطمئن أنه بقري . وفي هذه الليلة بدأ حصار عبد الناصر في الفالوجة ، وضيق العدو خناقه عليهم ، ونزفت دماء في مواقع أخرى ، وفي كربلاء اشتد الرمي على مضارب الحسين ، وكان بإمكانى الرؤية من سائر جهاتي واستيعاب ما أراه بحيث لا يؤثر ما أراه أمامي على ما أراه خلفي ، وكنت ملهوقاً على رى ظمئي الحسني وظمئي المعنوي ، الماء يدنو منا ونحن ندنو منه ، ماء الفرات الرمادي المختلط بلون أحمر باهت ، متدفق من منابع بعيدة إلى مصب لا نراه . رأيت الحر الذي جاء لقتال الحسين ثم اختار جانبه ، سمعته يصيح بجند يزيد ، «دعوتوه حتى إذا أتاكم اسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه ، لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه وأحطتم به ، منعتوه من التوجه في بلاد الله العريضة فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنها ضرراً ومنعتوه ومن معه عن ماء الفرات الجاري ، تتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش ، بشس ما خلفتم محمداً في ذريته لاسقاكم الله يوم الظمأ العظيم ، لم تتوبوا وتترحوا عما أنتم عليه ، لاسقاكم الله يوم الظمأ » ، رأيت عمر بن سعد يقوم ويأخذ سهماً فيرمى به ، يقول : اشهدوا لي أني أول من رمى فزعقت صارخاً ، أي شهادة تطلبها يا أحمق ؟ تاه صوتي وتبدد ، لم تصغ اذان القوم ولم تسمع ، يبدأ هجومهم على أهل الحسين وصبغه ، هو قلة وهم في عدد وعدة ، يدنو أبي من ماء الفرات ، يعاودني الظمأ القاسي ، يشردمني

ويبددنى ، ظمئت إلى لحظة أخرى ، تكن في البداية ، حننت إليها حنين الغريب ،
المحاصر ، المقطوع عن النصير والمدد ، لحظة تائمه في رحم الأيام التي خرجت
إليها وحيداً ، دليلي وإمامي هو الحسين ، ولا دليل لي غيره ، حتى رسوت في
هذا اليوم الحزين لأشهد ما أشهد ، خرجت إلى ترحالي هذا ولا حيلة لي ، وقد
تركت ما بيدي ، ولم أسند أمرى إلا إليه لأنى لم استشر انساناً ، انما قادتني إلى
الديوان عذاباتي ، وتيسى عنى ، خرجت عن أيامى إلى أيامى خروج الميت عن
أهله وماله ، ولم أكن أدرى ، أن ظمئى سيقرن بالحنين إلى بدايتى ، إلى لحظات
لن يتذكرها غيرى ، تقبع في كتز مكونات الدفينة ، حجرتنا الوحيدة بعد انتهاء
بياضها ذات يوم أجهل الآن اسمه وموقعه ، أمى ترتدى جلباباً أبيض ، عفية ،
شابة ، لم تزل منها الأيام بعد ، تساعد أبى في نصب سرير حديدي أسود
القوائم ، كل قائم ينتهى بجلية نحاسية صفراء . في ركن الحجره ، فوق قطعة
قماش ملون ، يرقد اسماعيل أخى ، ابن شهور وربما ابن أسابيع .. لا أعرف
الآن ، لكننى أرى وجهه الأبيض المستدير ، وعينيه المحدثتين إلى السقف ،
تبحثان عن شيء غامض يطول بحث الصغار عنه ، ملفوف في جلباب أسود .
بعد ولادته جاءت إلى أمى امرأة قاسم التاجر ، وبعد انصرافها ، ارتفعت حرارة
اسماعيل أخى ، أدركته الرعشة ، جاءت أمى بقطعة شبة وألقته فوق صفيحة
ساخنة ، تشكلت القطعة بوجوه عديدة ثم استقرت على وجه شديد الشبه بالسنت
فتحية ، ثم جاءت أمى بعروس ورقية وراحت تثقبها بإبرة ، وتردد ، في عيك
يا فتحية . وحدث أن شفى أخى ، راحت عنه الرجفة وزالت الرعشة . وقررت
أمى أن ترتدى السواد . وأن تعجبه عن العيون . أصبح عطشى جارفاً إلى تلك
اللحظة القصية . لحظة تائمه ، ضائعة ، تقبع في النصف الثانى من يوم مجهول
الهوية لي ، رأيتها وأنا نارس كربلاء قبل أواها بمئات الأعوام . العطش ينال
من والسهام تلى السهام في اتجاه مولائى ، يعقبني أبى إلى أدنى نقطة تنحدر

صوب النهر ، هذا خطو أبي ، هذا إطار وجوده الجسائي عندما تأخذه اللهفة لقضاء حاجة ، يميل ، يغطس بالقرب كلها فتمتلئ مرة واحدة ، يتبعها من النهر ، فإذا بها متفخة تشر ماء ، المرتقى وعر ، لكنه يجاهد ثقل حمله ، بينا أميل إلى النهر لأملاً الكيس الذى يخصنى وألقى به بين يدي ، ولما لامستى برودة المياه تعاطم ظمئى ، وحتت إلى ظل ظليل يغطى خضرة حديقة نتظر فيها عودة أبى إلينا بعد انتهائه من عمله ، اعتاد أن يصحبنا من حين إلى حين ، نزر المتحف الزراعى المجاور للوزارة ، يدخل من باب الفسيح القديم ونحن فى إثره ، يحيى من يقفون بالباب ، فيردون التحية بأحسن منها ، يقول أحدهم ، « أهلاً .. عم أحمد » ، ويقول آخر أهلاً يا أحمد ، يتقدمنا إلى داخل المبنى ، وفى قلبي الصغير شعور بالفخر والاعتزاز ، أبى معروف هنا ، لا يدفع ثمن التذاكر ، يعرف كل من فى المكان ، الموظفين ، وزملاء السعاة ، نظوف بالفنارين الزجاجية التى تحوى الحبوب وأنواعها ، والحيز وأشكاله ، وآلات الزرع والحراث ، ولوحات مطابقة لرسم قديمة فوق جدران المعابد الفرعونية ، ثم نطيل الوقوف أمام تماثيل من شمع أو جبس ، يشير أبى إلى تماثيل شيخ البلد قائلاً لأمى : ألا يشبه الشيخ هريدى؟ ، ثم نعجب بالهودج المحمول فوق جملين ، بداخله عروس جميلة ، لا يتعجلنا أبى ، إنما يدعونا أن ننظر ونأمل ، يختار لنا مكاناً ، ظليلاً فى الحديقة الكبيرة ، ثم يقول لنا إنه سيذهب إلى الوزارة ، سيتسلم البوستة ويوزعها ، ظل هذا عمله لسنوات عديدة ، يفارقنا فلا تغادر أماكتنا ولا نبرح مواضعنا حتى يرجع إلينا ، كنا ننظر رجوعه ونرنو إليه ونشاق إلى طلعه ، وكان تأخره عنا يثير خوفنا واضطرابنا وتوجسنا ، غير أن ذلك لم يدم معنا ، فقد مات هذا الإحساس مع تقدمنا فى العمر وتفرقتنا عن بعض ، وكان ذلك أول غروب أبى . يبدو قادماً نحونا خطواته مسرعة ، متأيلة ، نفس الحطى التى يهرع بها إلى الحسين وأهله الآن ، ملت على

الفرات ، شرعت في بل ريقى ، في تناول جرعة أروى بها عطشى المقدد ،
لكننى تذكرت أن أبى ملاً قربته ولم يذق الماء أبداً ، فأخذنى الخجل مما شرعت
فيه ، حملت كيمى وقلت : عسانى أرضى بذلك أبى ، أرضيه بعد فوات
الأوان وقد اغضبته مرات بلا حصر ، وكأنه أدرك ما جال عندى ، وما ضاعف
كلومى وأحزانى ، فصاح ينيهنى إلى الموقف الذى أنا فيه ..

ظلاً الأحباب وعمر .

سعيت في أثره ، ارتقيت المنحدر ، رأيت المكان كله كأنى أراه من نقطة
معلقة في الفراغ ، كأنى أحوم مخلقاً . أرفب ما يعزى تعنى ، كنت أرى الكل
حتى نفسى ، كمن يرى نفسه في الحلم . كنا كنت قادراً على الشعور بما يعزى
داخلي ، وزاد على في هذا الموقف أمر خصصت به ، ولم أعهد مثله من
قبل ، لا عندى ، ولا عند الآخرين ممن سلكتوا طرقاً مشابهة لطريقى ، ومن
ذلك قدرنى على الشعور بما يطوف بأبى من مشاعر ، كأنى هو ، وكأنه أنا ،
ثم زاد ذلك ، فأصبحت قادراً على التألم لحظة ابتعاث الألم في كيان مولائى
ومرشدى الحسين ، ثم اتسع ذلك ، فشعبت بالأم زين العابدين ، وأخيه
القاسم ، وأبناء مسلم بن عقيل ، ثم فانس ما خمسين ، فلم يعد مقصوداً على
الآلام الجسدية ، إنما تعانى ذلك إلى ما يجول بالنفوس والحواس ، وكل
ما جرى في هذا الموقف مؤلم فظيع ، وأيسره شعبي . ومن ذلك ما توألى على
نفس الحربن يزيد بدءاً من لحظة تروده . حتى انضمامه إلى الحسين ، صرت
أنا الحربن يزيد ، عملى .. جندى من حدود ابن رباد والى الكوفة ، مقصدى ،
مخارطة الحسين ، والحيلولة دون وروده ماء الفرات . كان عزمه عزمى ،
ومقصده مقصدى ، ثم مسارت هواجسه هواجسى . وتروده ترددى ، ثم
أخذنى ألمه الذى هو أسمى ، ماذا سأفعل ، وكيف سأواجه ربى يوم الحساب ،

خاف وخفت ، خشى وخشيت ، ندم وندمت ، اختار واخترت . الوقوف إلى جانب مولاى . ثم صرت إلى ما صرت إليه ، فما من رمية سهم تصيب واحداً من أهل الحسين إلا وتحدث نفس التأثير عندى ، فى نفس الموضوع العباب ، صرت مجمعاً لكل آلام ذلك اليوم الجلل ، منذ مشرق الشمس وحتى اللحظة التى اجثت فيها رأس الحسين ، نزت دماى بمقدار ما نزه الكل ، عرفت فزع الإنسان إذ تلممه حجارة المقالع ، وألمه عندما تنغرس فيه السهام المديبة ، وعطش الطفل الرضيع ، وجزع المرأة التى يرى أحبابها يصرعون بين يديها ، وهلمها خشية الانتهاك قسراً ، وفى حلقى اشتد الظمأ فكادت اتضعف ، ولم يكن وقوفى هذا الموقف ممكناً إلا لأمر جلال ، ولعقاب شديد أستحقه ، أو لحكمة خفية تضيق مفاهيمى عن إدراكها ، ويرغم كل عذاباى .- بقى أبى محمور وعى ، ويؤرته ، ويؤر عيني ، أما مولاى الحسين فقبلتى ، ومهجرتى ، يزعتى أبى ..

آه يا بوى يا أنا .. آه يا قتيلهم ..

أرجفت زعفته كيانى ، أنها أقصى مراتب الألم الرجولى فى صعيد بلدتنا النائبة عن كربلاء بالزمان والمكان ، عندما يصرخ الرجل هكذا ، يعنى ذلك نزول المصيبة ، وقلة الحيلة ، وطلب الغوث ، فالرجل لا يصرخ عندنا إلا لمصيبة تقصر عنها الحروف المنطوقة ، ولا تستوعبها كافة أشكال المخاطبة ، تطلعت من سائر جهاتى فرأيت أمياه التى نجح أبى فى ملء القرية بها مسكوبة ، متسربة بين ذرات الرمال ، احترقها سهم ، فى نفس اللحظة انسكبت مياه كيسى ، رأيت انتفاضة أبى ، رأيت ألمه المروع وأدركنى ، رأيت أبى الذى عاش عمره كله ولم يتشاجر مع إنسان ، ولم يصفع وجته ، ولم يسدد قبضته إلى مخلوق ، لم يصفع شخصاً ، أبى الذى يكره العراك

ومعقته ، ها هو يشهر حساماً يمانياً مصقولاً ، ويسمى بخطاه المألوفة لبصرى ، أدركت أن من كان يحتويهم انفصلوا عنه ، أحلق نظرى بهم ، كأتى أراهم من خلال ضباب ، أعرف أن هذا عبد الناصر ، وأن هذا ابراهيم ، وأن ذاك مازن ، وثمة آخر لا أعرفه أبداً ، لكننى لا أرى ملامح وجوههم ، أو لون أرديتهم ، يقف أبى بين يدى مولائى ، يقول أبى بصوته وهو صوتى ..

مولائى أتأذن لى بالقتال ؟

كان حال أبى حالى ، فترقرقت روحى ، وتشفشفت ، وتبسست وصار الكيان بما يحتويه اريحاً مزهراً ، يدوب أبى وأذوب معه ، يتشجن بالشجن ، أبى الذى لم يعرف من الحسين إلا الطواف بصريح رأسه ، وتقبيل أعتابه ، واللوذ به عند الشدة ، ها هو يقف أمامه قبل أن يوجد أو يولد ، يراه وجهاً لوجه ، تتردد أنفاسه فى مواجهة أنفاس الحبيب ، ولو تحقق المنى لتلقى عنه لظى الشمس ، وعطش بدلاً منه ، وتألم نيابة عنه ، عاتبت فى خاطرى المؤرخين الذين سيحيثون ، عاتبت أبا مخنف ، وابن كثير ، والدينورى ، والطبرى ، والرواة الجهوليين ، عاتبتهم لأنهم لم ولن يذكروا أبى وصحبه ، ويجيبهم إلى كربلاء .

مولائى .. أتأذن لى بالقتال ؟

يكرر أبى بينما يرنو إليه الشفيق ، العلب ، النورانى ، ولم أدر الإجابة ..

من أسرار هذا الموقف

.. اعلم وقلك الله وبصرك بما بصرت به ، أنا الذى كنت ضالاً فهدانى ، ونائياً فقربنى ، وأدنانى ، وتائباً فدلنى ، وغياً فمقلنى ، ومعدباً فخفف جروحانى ، اعلم أيها الفطن اللبيب أن الحزن لا يكون إلا على ماضٍ ، وأن الظلم لا يكون

إلا إلى مفقود . وأن الشوق لا يكون إلا إلى غائب كلما الحنين ، اعلم أن الظماً نوعان ، حسى ونوعى ، فالأول يقع لافتقاد الماء ، وإن كان ذلك ليس شرطاً بالضرورة ، فربما يغيب الإنسان الماء غيباً ، ويتعاطم ظمؤه ، هذا معروف في بعض حالات المرض ، وربما يواجه البحار أو يبحر فيه ، البحر ملآن لكن ما فيه لن يسعف الظامئ أما الظماً المعنوى فغير متناه ، منه الحنين إلى المفقود ، إلى الزمن الذى ليس فى المتناول ، إلى رؤية محبوب غائب ولم يعد فى امكاننا إدراك طلاته وطلعاته ، إلى لحظة نائية لم تبق سواها من سنين عديدة ، إلى رائحة عبرت حواسنا فى زمن قصى ، إلى وقفة عند ناصية منسية لم تدم غير ثوان إلى صغير قاطرة تمضى ، لا تعرف إلى أين أو بمن لكنها تحرك الأسى وترجعنا إلى ذكرى الأحباب البعيدة ، إلى حفيف فستان ، إلى مذاق طعام ألقنا طاهيه ، اعتدناه ثم رحل عنا ، إلى ممشى فى حديقة ، إلى ظل مثلية ، إلى رائحة بساط عتيق ، وربما إلى جلسة ود انتهى وما عاد . قد يكون الظماً لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض ، للاطلاع على سر الأشياء وغوامض الموجودات ، إلى ما يتقصى ، ما يفلت منها ، ما يتسرب بين أيدينا ، الظماً حال ، ومعنى ، تتعدد فيه الأوجه ، معرفته لا تتطلب الوعى به لأنه ملازم للنشأة الإنسانية ، يبكى المولود إذ يظلم ، قلنا إن الحنين درجة من درجاته ، كلما الشوق ، والاتضاع ، كل منهم تشتد وطأته بغياب المفقود ، كل أنواع الظماً تسكن باللقاء ، يهب القلب ، يهفو إلى غائب فإذا ورد سكن ، تماماً كما يرد الظامئ جدول المياه ، والحنين والشوق لا يصح تعلقها بحاضر ، إنما متعلقها دائماً بغائب ، هذا ما استقرت عليه الأحوال ، وما أدركته العقول وما عبرت عنه المهج . لكن ما جرى لى فى كربلاء غريب ، رأيت أبى ، وكان ممكناً لاشتياقى أن يهدأ ، أن أعبر جسر الفقد ، لكن ما جرى لى

عجيب ! كلما أحدثت البصر اشتقت أكثر، وفي كل نظرة تجمعني بين أحب ، ألقى الفقد ، وزاد على الأمر ، فكنت أعي أن ما أراه خيالا وإن كان حقيقة ، أنني متفرج ، أنني أحلم ، وهذا من قلة النعم على ، ولم أكن بحاجة إلى طول تأمل كي أعي أنه قد زج بي إلى عذاب عريب ، لم أنبأ به ولم يخطر لبشر ، وأن هذا قدرى في المواقف كلها ، وأنى كلما قاربت على الرى ، تبدل أمرى فتجدد ظمئى ، أمر الله تعالى نبيه أن يقول : ربي زدنى علماً ، ومن طلب الزيادة يظل ظامئاً أبداً لا يعرف حداً ولا منتهى . صار شوقى إلى أحبائى دائماً أبداً ، صرت كمشارب البحر كلما ازددت شرباً ازددت عطشاً وأضمرت النية أن أسأل ، فهذا أمر جديد على ، منذ أن بدأت رحلتى بصحبة مولاى ، فلم أدر بالضبط ماذا جنيت ، وهنا نظر بطول ، ومعانٍ تتعدد ، أشغى التصريح بها لذا أقتصر ... فسامحونى !

موقف الحنين

.. عظم الحنين فاكتمل ، صار موقفاً عظيم القدر ، منه يلوح الماضى ، يقترن بالحزن ، جوهره جلال ، وعبرته مفجعة ، فالحنين يا سادى أول درجات النسيان ، والحنين لا يرد بنفس القوة فى كل مرة يهب فيها ، يكون فى أوله عفاً قوياً ، ثم ينقص ، ثم يضعف ، ثم يهن ، يأتى النسيان الذى يلفه ويطوبه ، الحنين كالدهر لا يرى ، له من النهار ساعة الأصيل ، ومن الليل أوله ، ومن الفصول نذر الخريف ، ومن أحوال الحرارة رطوبتها ، ومن الأوقات لحظة توارى الشمس خلف الغمام فى يوم شتوى ، ومن مكثون الذكريات أحلاها وأغلاها ، ومن أحوال القلب الخفق المتعب ، ومن الورود

بقايا رائحتها، ومن العلوم علم ما كان، أوقفني في ركن قصي من أرض كربلاء
فحبل بيني وبين القتال، لم يعد لي إلا الفرجة، فرأيت أبي ومن جاءوا معه،
يقاتلون بين الحسين، وكنت واجفاً، فالقلة تواجه الكثرة. وقدماً قال لي
أبي. الكثرة غلبت الشجاعة، حوصرت بالحنين وحنيني هنا عجيب، كنت
أحن إلى ماضٍ ومستقبل معاً، هذا حالي وأنا في زمن قبل زمني، أرى
ميلادي قبل حمل أمي بي، أرى ذهابي قبل مجيئي، وفقدى قبل وجودي،
وغيابي قبل حضوري، وأمسى قبل يومى وغدى، حننت إلى لحظات ولت
وكنت أعي أنها لم تأت بعد، كنت أرى ما سيجرى فيها، وأنتى مدركها،
وأنتى سوابكها بعد فوات الأوان، ولن يذكرها أحد غيرى فعمرها مقدر
بعمرى، ولن يعرفها إنسان ولن يسعى من أجلها إلى الديوان، أنها في موضع
مامنة، وشاء مولاي، وشاعت رئيسة الديوان أن أراها من زمن سابق على
زمني، من موقف أرى فيه أبي مقاتلاً بين يدي مولاي، في أول الموقف
اكسحني الحنين فذراني، هنا قلبي إلى صباحات شديدة التأني، أيام
الجمع، عطلة أبي الأسبوعية. لن يرتدى حلة العمل الصفراء ويخرج إلى
الوزارة، إنما يمضي إلى ضريح الحسين ومسجده، يصلي الفجر، ويعود مع
ضوء النهار الأول إلينا، في يده اليمنى طبق مليء بالفول، وفي اليمنى كوب
زجاجي كبير مليء باللبن، الفول من رجل مشهور حلبي الأصل، لا يبيع إلا
قبل شروق الشمس، ولأحباب الحسين فقط، وعند ظهور الشمس يتوقف
وينصرف، مذاق حبات الفول في فمي، مع أن عصوراً آتية تفصلني عنه،
وسنوات مولية تبعده عني، كذا اللبن اللدسم، يأتي أبي بصحيفة، «المصرى»،
كتب اسمها فوق راية خضراء مرفوفة عليها هلال أبيض وثلاثة نجوم، تشعل
أمي الموقد، تدفع الكباس مرات، تضع الاناء النحاسي وبداخله قطعة

السنن ، وعندما تنصهر تماماً ، تفرد العجينة ، وتنتظر اصفرار الفطيرة ، ثم تخرجه على مهل ، ترشه بالسكر ، بعد الشبع ، يجلس أبي مسنداً ظهره إلى الجدار ، يشير بأصبعه إلى الحروف ، اقع إلى جواره ، أتابع أصابعه في حركتها البطيئة ، ومنه أعرف القراءة قبل دخول المدارس ، حفظت شكل الحروف ، منه هو الذي لم يتلق تعليماً ، هو من خبت أحلامه القديمة ، وصار لا يدخل الأزهر إلا مصلياً ، بعد أن كان يأمل دخوله طالباً للعلم والسر ، ربما تنتابه نشوة أو روح مرح ، يبدأ في قراءة خبر لا وجود له ، يتحدث عن مقابلاته مع دولة رئيس الوزراء ، والمسؤولين وخبر عن تقديم استقالته إلى وزير الزراعة ، لأن صحته لا تسمح له بمواصلة العمل ، وخبر عن عدم قبول استقالته . يتقدم نهار الجمعة ، يوم العطلة ، بطيء الحركة ، يتوضأ ، ثم يصحبنا إلى ضريح الحسين ، أنا وأخى ، يضيق المسجد بالمصلين ، يفترشون الحصير والصحف فوق الأرصفة المحيطة ، تنتهى الصلاة وفي جيبتي أثر السجود ، وفي أنفي رائحة الأبسطة العتيقة أو الحصير القديم . ومن قبل ومن بعد رائحة المسجد الظليل والتي لن تنبدد من أعماق حسي حتى أفضى ، ويدخلون يجثماني إلى مسجد سيدى وحيبى ردليلي الحسين ، للصلاة على ، تلك وصيتى ، تماماً كما كان مسجد الشفيح آخر مكان دخله جثمان أبى ثم خرج منه خروجاً لا دخول بعده ، وملفوقاً بغطاء لا سفور يليه ، تلك وصيتى يا أحبابى ، وياحفاظ نسيم ودى ، فبالله لا تنسوا .

كنت أتعلق بيد أبى اليمنى ، وأخى بيده اليسرى ، نطوف بالضريح ، تمسك قضبان المقصورة الفضية ، نحتوى بالرهبة الهامة الحضراء التي تله الشاهد ، ويتصارع في أنوفنا مزيج من روائح ، لللال الائمة رائحة ، لبقايا العطور ، لأنفاس القابعين في الأركان ، للرخام رائحة ، لأسطية النجد .

المصنوعة من قماش أحمر ، للزجاج الملون الذى تنفذ منه الشمس ، زرقاء ،
خضراء ، برتقالية ، للفراغ داخل الضريح رائحة ، للمصاحف القديمة ، للركع
السجود ، نخرج والنهار منتصف والضوء منكسر ، نقف أمام دكان صغير ،
صغير جداً ، يشتري لنا أبى الخروب ، يقدمه البائع فى طاسات نحاسية ، تمهل
فى تذوقه ، الطعم مسكر عذب ، أورتثنى هذه الوقفة عشقاً لمشروب الخروب ،
صار له عندى أثر حسى وأثر لا يدرك أبداً . ولو قصدت الاقاضة فيه فلن
يكفيني تسويد صفحات طوال غير أنى أخشى الاطناب وثقل الاسهاب فأتساءل
فقط ، أين المذاق القديم ، أين ؟ لم أدر أن عبير المشروب غامق اللون
سيصحبني إلى نهاية عمرى المقدر ، وأن عبيره الرطب سيرعش أغشية قلبي ،
ويرفرق فؤادى ، ويقوينى على الحنين المرهف ، نمضى إلى فندق قديم مجاور
لضريح الحبيب ، إليه يجيء ناس البلدة ، يجلس إليهم أبى ، يستفسر منهم عن
أحوال الأهل ، الحى والميت ، تجول عيناي بالمكان ، مطبعة فى نهاية الفناء
الفسيح .. الفسيح ؟ ماله الآن لم يعد فسيحاً ، ماله ضاق وانكش بعد أن اشتد
عودى وتعددت سنينى ، ماله يبدو لى محدوداً ، كئيباً ، وقد كان مرتع
طفولتى ، والمكان الذى ينشرح فيه قلبي ؟ ، يجيء الشاى فى أكواب صغيرة
تضيق عند منتصفها ، تتغير وجوه وتبدل ملامح ، لكن فى كل مرة نرى الحاج
عبد مدير الفندق ، نوبى الأصل ، يرتدى الجلباب البلدى والطربوش
التركى . وعبد المقصود أفندى كاتب الفندق ، بدين ، يرتدى بدلة ذات
صديري أفرنجى من الصوف ، صيفاً وشتاء لا يغيرها ولا يبدلها ، يجلس فى
مقصورة زجاجية . يرد على التليفون . يسجل الطلبات التى تخرج من البوفيه إلى
الحجرات ، يرفع يده محيياً من حين إلى حين ، فى صدر الصالون الداخلى ،
فوق أريكة جلدية يجلس رجل مغربى ملتحفاً بعباءة من الصوف الأبيض ،
عظيم اللحية ، أخضر العينين . أتطلع إليه من بعيد . يقول لأبى إنه يخرج من

بلادہ البعیدہ ماشیا علی قدمیہ ، وأنہ عبر البحار والصحاری ، وصل إلى الهند ، قضی عمرہ کلہ یبحث عن موضع یمکنہ الرقاد فیہ بہدوہ بال وطمانینۃ ، وأنہ بعد أن لف ودار وتزوج عدۃ مرات أثناء رحیلہ وطوافہ ، لم یجد مثل هذا المكان القریب من ضریح الحسین القاہری ، سكن الفندق ، ومنذ مجیئہ البعید لم یفارقه أبداً إلا للصلاة فی المسجد والطواف بمثوی الرأس الشریف ، فندق الکلوب العصری القدیم ، والحادم عمر الأسود بعینہ الفسیحتین ومشیہ الصامت ، وتحتہ الموجزۃ لأبی ، الباب الحدیدی المؤدی إلى الفناء ، حننت إلى مکان آخر ، دکان ترزی بلدی ، مکانہ ممرضیق فی مواجهة مسجد الحیب ، أرضیۃ الدکان ترتفع عن الطریق مقدار نصف المتر ، مکسوة بخشب ، الجدارن الثلاثہ مغطاة بفتارین زجاجیۃ بداخلها قطع قماش ، یخلع أبی الحداء ، یتربع فی مواجهة الحاج الصاوی الذی یرتدی نظارة طبیۃ ذات اطار معدنی تنزلق حتی طرف أنفہ ، ویغطی أصبعہ الوسطی من یدہ الیمنی بکستبان یمحمیها من وخز الابرة ، یفرد القماش علی ركبتيہ ، قماش القفاطین والجلایب والعباءات ، حننت إلى وجہہ ، وطاقیتہ ، وحافۃ الصدیری الذی یدو من تحت قفطانہ ، إلى البساط الأفغانی القدیم ، رأیت هذا البساط ، لكننی لم أُمیز ألوانہ کما کنت أراها فی الزمن القدیم ، ظلال مہمۃ طمست نقوشہ عنی ، کذا جلاباب أبی ہلع قلبی عندما نظرت إلیہ ، کنت أعی بالنظر والحنین والشعور أن الجالس هو أبی ، أدرك حدود جسده ، وهیئہ إذ یجلس مطرقاً ، غیر أن ما دهانی وفرانی أن ملامح وجہہ فی هذه السن ، فی ذلك العمر غابت عنی ، راحت منی ، لم یسعی البصر الکلیل ، وقسا علی الحنین إلى الملامح ، کیف کانت . کیف ضحکته واطراقتہ ، ولحظة مدته الحدیث . کیف إشارة یدہ ، کیف .. کیف ؟ تاهت منی ملامحہ ، كأنہ یسمى فی لیل

غميق ، أو تحول بيني وبينه غيوم ، أو اشتد على قصر نظري ، روعت
فصرخت ...

مولاي وإمامي .. هذا أول النسيان ..

لم يتقني ، فتجسد لي اليتيم الذي بدأ مع رحيل أبي ، لكنني أدركت أن من
يهيمن على الديوان سمعي ، تمنيت لو قريني منه ، لكنه لم يمن علي ، قلت
ودمعي يسبق قولي ..

أني وجل ..

ومرّصمت ، ثم أتاني صوت الطاهرة رئيسة الديوان ..
لا تكن من القانطين ..

عاودت النظر ، وعاودني الحنين فرأيت أبي ولم أر ملامح وجهه ، أراه
ولا أراه .. قلت : ما زاغ البصر وما طغى ..

قالت :

أو لم نعركم ، ما يتذكر فيه من تذكر ..

قلت :

البصر يغر ..

قالت :

اصبر .. لقد وصلت إلى زمن لم تكن بالغه إلا بشق الأنفس ..

آسنى الصوت الذي صيغ من عبير المنى ، وجوهر الحنين ، والألفاظ
تيقة الياقوتية ، من سر النظر ، غير أن الحنين غمرني ممتزجاً بوحشة ، فقلت
ارات منهبة كأني انقلبت طفلاً .

تلك بداية النسيان .

جاءني صوت خافت غامض كقوس قزح

لقد نسيت ، واليوم تُنسى ..
قلت دامعاً ، مخمل القلب ..
تلك بداية النسيان ..

.. صمتوا كلهم عنى . انقطعت رئاسة الديوان عنى ، ولم يطل مولاي
على ، كدت أسأل ، لماذا أمر بما لم أعهد؟ لماذا أرى أبي الآن ، وأشم
عبيره ، وأعى لون الضوء في النهار البعيد ، ولافتات الدكاكين ، وملامح
بعض المارة ولون معطف تاجر الموييليا القديمة الذى اعتاد أبي أن يجيئه ، لماذا
أرى هذا كله ولا أرى ملامحه ؟ لماذا ينجيل إلى أن حرقه الفراق أخف ؟ لماذا
أدرك أنه راحل من قديم ، مع أنه أمامى ، لماذا لم أعهد ذلك في أسفار
الغربة عندما رافقتى مولاي ، ولم يتخل عنى ، كدت انطق الاستفسار ، لكن
الهاتف الحرقى حذرني ..

ليس لك ان تسأل عما لم تحط به علماً .. ألم يخبرك الإمام الحسين
بذلك ..

أسكت على أنفاسى ، وعدت أحرق إلى أبي ، إلى هذه اللحظة التى
تشبث بها ، وهذا من عجائب موقف الحنين ، تبينت أنه بإمكانى أن أمسك
وجدى أو شعورى ، فإذا رأيت أو حننت إلى لحظة نائية كان ممكناً لى أن
أثبتها إلى حين ، ولو كنت أمر بمجنون غامر ثم جاءنى من لا أأرغب فى إظهاره
له ، أو وقف حزنى ، أو أساى ، أو فرحى ، فإذا خلوت بنفسى أرسلته من
جديد واسترسلت فيه ، عاودت النظر ، لكننى أيقينت من فقدى ملامح أبي
فى هذه اللحظة ، هذا ما تأكدت منه ، تكاثفت على الظلال ، ولم أدر ،
أهى ظلال معنوية ، أم ظلال حسية ، ولما اشتد على حالى وعظم وجلى ،
تعولت ، تغيرت ، تبدلت كل ، أصبحت ذلك الخياط ، أصبحت أنا

صاحب الدكان ، أتربح بعد صلاة الجمعة ، على مهل أسرج الخيط ، وأقص القماش بالمقص الكبير المتين القديم الذى لا يوجد مثله الآن ، أحمد ربى الذى أعطانى القدرة فى هذا العمر على ايلاج الخيط فى ثقب الإبرة ، وحفظ مقاسات زياتنى فى دماغى ، أحمده لأنه أبى حبال ودى متصلة بزياتنى وجلهم من كرام الناس المستورين ، مشايخ أزهر ، وتجار خان ، وأبناء أصول من بلاد بعيدة ، ورحم الله الشيخ هاشم الكبير الذى كان يجمىء إلى مصر مرتين فى السنة من قرينته جهينة فى أقصى الصعيد ، ينزل فى فندق البرلمان بالعتبة ، كان يجمىء لغرضين اثنين لاثالث لها ، الأول تأدية فرائض الصلاة الخمس فى مسجد مولانا وحيينا ، والثانى لتفصيل ملابسه عندى ، كان مهيباً ، من رجال الزمن الحلو القديم ، الزمن الذى كنت اترك فيه ذكائى مفتوحاً ، أفضى حاجتى وأرجع لأجد كل شىء كما فارقت ، حتى صبي المقهى لا يمرؤ على استرداد فنجانہ وكوبه الفارغين إلا بعد عودتى ، رحم الله الزمن الجميل ، ينظر إلى أحمد الغيطانى ، ينتظر يجمىء خلف بك الذى كان سيباً فى جريان رزقه ، ثم زواجه ، وانجابه ولديه ، يجلسان صامتين ، متأدبين ، ربما يشعران بضيق ، ربما يرغبان فى الجرى ، فى اللعب ، لا يمشى أحمد بدونها منذ أن عرف جمال المشى ، كلما الثانى ، أحمد من بقايا الناس الطيبين ، لم يكن يفارق الشيخ هاشم الكبير ، يصحبه من الفندق إلى المسجد ، إلى آل البيت ، فى الصباح الباكر قبل ذهابه إلى الوزارة يمر به ، بعد غياب الشيخ هاشم رحمه الله لم ينقطع أحمد عنى ، دائماً يتقصى عن القادمين من جهينة ، يصحبهم ، يلطم ، ينفق وقته معهم ، لو شاء لأصبح تاجراً كبيراً ، زميله الذى خرج معه ، عمر الماخوت ، من أثرياء سوق العتبة الآن ، يجمىء إلى الحسين فى عربة حنطور يجرها جوادان مطهان ، تاجر سمك كبير ، عرفنى

أحمد به عندما أشار إليه ذات عصر وأسرع إليه ودعاه إلى كوب شاي عندي ولكن الماخوت اعتذر بضيق وقته ، قال أحمد مشيراً إلى العربة ذات الجرس : هل تصدق ، خرجنا من البلدة معاً وجئنا إلى مصر في عربة موفى ا . قلت له : لو شئت لأصبحت مثله ، قال لى : الدنيا حظوظ .. المهم أن أرى أولادى الآن وأجنهم ما عرفته من غُلب ، من شقاء . أحمد يقضى عمره في الصحبة ، في ود الآخرين ، في الرفقة ، في أداء الواجب . عزاء هنا ، وفرح هناك ، إلى زيارة مريض ، لو دنا أجلى وحانت ساعتى ، سيكون من أول الساعين في جنازتى ، ممن يحملون نعشى ، وسيكون ممن يترحمون علىّ ، ويتذكرون كلما مر بدكافى ، وربما يئىء إلى قبرى في الأعياد والمواسم ، يجلس صامتاً ، خجولاً ، ولو تكلم فإن حكاياته لن تنتهى ، نبيه ، يتذكر أدق التفاصيل ، مطلع على الأنساب والأصول ، مسكين ، ولو أنه التحق بالأزهر ، ولو تلقى تعليماً ، لصار له شأن ، جازى الله أولاد الحرام ، لكن الله عوضه ذرية صالحة ، يقول لى دائماً إنه لو تسول بجوار مقام الحسين فسيفعل حتى يتم ولداه تعليمهما ، لكنه يتبع قوله بالدعاء : ربي لا تحوجنى إلى مخلوق . تكل يدى ، لم تعد الصحة هى الصحة ، لكن الدكان أحسن لى من القعدة ، أتمنى لو يستردنى الله مكانى ، أخشى رقدة قد تطول ، هنا انتظر أصحابى الذى أأنس بهم . يعيشون ، يقعدون ، لا تتبادل كلاماً كثيراً ، لكن معهم تنصل الونسة ، منذ خمسين سنة لم تتبدل جلستى ، يتغير الزبائن ، ويتوافد الأعراب علىّ ويمر آلاف المارة بين حدقتى عيني ، لكن الدكان على حاله ، أما الأيام البعيدة فلا نملك ازاءها إلا الحنين ، أما الأيام الحالية من الصحبة فصعبة ، لا يكون الأنس إلا بالكثرة ، والتفرقة أول الوحشة والانكسار ، أول الغياب .

آه يا أحمد .. يا غيطاني يا ابن الناس الطيبين ..
انظر إليه ، كأنه فهم عني ، ملت إليه كي أراه ، كأنه بعيد عني ، قربت
عويناتي ، لكنني لم أر ملامحه ، ناديته ..
يا غيطاني ..

شعرت بصوته لكنني لم اسمعه ، عجباً ، عجباً ، رجعت إلى أصلي
فأصبحت أنا جمال مرة أخرى ، عدت لاهث الأنفاس ، كأني ارتقيت
منحدرًا وعراً بقلب عليل . وعندما اكتمل ابصاري غرب عني أبي ، كذا
الدكان ، وشق على أن أفارقه قبل رؤية ملامحه ، لكن الهاتف الخفي أهاب
بي ، لا فائدة ، ما من أمل يرجى ، وعرفت أن ملامح الإنسان تتبدل في كل
لحظة ، وأن الوجه الواحد يحتوي وجوهاً بلا حصر ، وأنه ما من ملامح ثابتة
أبدًا ، فالتغير يقع مع الموضع والضوء والبرد والحر ، والحزن والفرح ،
والضيق والانسراح ، والشروذ والتركيز ، وأتينا نقضي الأوقات الطويلة نطالع
وجه الحبيب القريب ، ونتملى منه ، ونحفظ عنه ، ونهتزله ، ولا ندرى أبدًا
أن ما نراه الآن ليس ما سنطالعه بعد لحظات أو في الغد ، ونحجب عنا الغفلة
الإنسانية حقيقة فحواها ومضمونها ، أن تلك الملامح التي نتطلع إليها الآن ،
والتي نخيل إليها أنها لن تمحي أبدًا من أذهاننا وذكرياتنا المثقلة وأنها لن تغرب
أبدًا ، هذه الملامح ستهت يوماً مع الفراق ، مع البعاد ، ولن يخطر لنا أبدًا
أننا سنجهتد يوماً في استعادة ملامح أقرب الأقربين ولكن عبثاً ، تهت ذكرى
الشيء الذي لم نتخيل يوماً أنه سيهت أبدًا ، آه ، كل من عليها فان ويبقى
وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، ما من أمل يرجى في استعادة ملامح أبي
عند هذه اللحظة بذاتها ، لا بل كل اللحظات ، بل إنني عندما أتذكره أو
أتخيله إنما استرجع أو أتخيل شيئاً مختلفاً ، علامة باهتة تقول ، هنا كان أبي ،

إشارة بعيدة ، أما الواقع فقد ولى ، انطوى ، هتف بي الهاتف أننى رأيت من
أبى أقصى ما يمكن لى أن أراه من خلال عيني الحاج الصاوى ، صاحب
الدكان الذى ولى ، الدكان الذى اندثرت معالته تماماً فى زمانى الدنيوى ،
أصبح بوتيكاً يبيع معاجين الأسنان الأجنبية ، والألبان ، والحلوى ، وأدوات
الحلاقة ، والمجوهرات الصناعية ، تبدل كل مارآه أبى ، وما انطبع فى
حديقته ، تبدل كما تبدلت ملامحه عندى ، ولأن وهن الذكرى وضعفها بين
القلب فقد قوى على الحنين واشتد حتى لم أكن بقادر على الراحة فى أى
وضع ، وقوف أو جلوس ، أما الهرب فى النوم فلا محل له فى الديوان ، هبّ
على الحنين كراشحة مكان مهجور مغلق ظل المسك مقبوراً فيه سبعة آلاف عام
من عمر دنيائى ، عرفت أن الحنين جالب للمودة والرحمة ، ولكن يا أسنى ،
فى غير أوانها ، فى غير موضعها ، فى غير مقامها يغذيان الحنين ، والحنين
عابر يهب كالخواطر ، والخواطر أيضاً عابرة ، وليست مقيمة ، لا تبق فى
القلب إلا مقدار هبوبها ، لكنها تورث ألماً غير منظور ، وأشد الأوجاع ما كان
خفياً ، هل سمع إنسان بخاطرة اتخذت من قلب سكننا ، لا تقيم الخواطر
بالقلوب إلا زمن مرورها وهذا زمن لا يمكن قياسه بحساباتنا الإنسانية ، قال
شيخى الأكبر محيى الدين إن لله سفراء إلى قلب عبده يسمون الخواطر ، لا
إقامة لهم فى قلب العبد إلا زمن مرورهم عليه ، فيؤدون ما أرسلوا به إليه من
غير إقامة لأن الله خلقهم على صورة رسالة ما أرسلوا به ، فكل خاطر عينه ،
وعرفت أنا أن هبوب الحنين سيكون بمقدار ما أرى . والأهم بمقدار ما بقى
حيا فى أعماق من الأيام البعيدة ، حننت إلى صحبة مولائى الحسين ، شرفت
به . إلى ظهوره ، إلى أخذه بيدي ، إلى عطفه على ، إلى الأُنس لى ، ضريح

رأسه مقصدي ، أسافر فأطوف به قبل رحيلي . ثم يصبح بؤرة حنيني إلى وطني ، وأثر عودتي أهرع إليه فكأنني أجدد إقامتي في داري ، عندما سمعت إليه في الديوان تركت كل ما بيدي ، لم أسند أمرى إلى أحد ، لم استشر إنساناً ، ولم أفكر في مولود أو ولد ، جئت إلى الديوان متجرداً ، خرجت من واقعي إليه كخروج الميت عن أهله وماله ، لهذا حق لي الآن الرغبة في رؤيته وشرع لي الأمل في اطلالة منه علىّ ، ولكنه لم يهلّ ، لم يلبح ، لم يبد ، فلقني الخذلان والهجر ، ثم هذا الحنين من جديد فرأيت طريقاً مزدحماً ، دقت النظر ، رأيت أبي ، يصحبنى أنا وأخى إلى زيارة ضابط بوليس سابق اسمه أبو حشيش ، يقصد بنا عمارة تقع في موضع ما بالقرب من ميدان الجيش ، أجهل موقعها الآن ، ولا أعرفها على الرغم من أنني أذكر طلاءها الأصفر ، وسلاسلها المرتفعة ، وخشب الباب بني اللون والمعمر الطويل المؤدى إليه ، رأيت أبي ورأيت أخى ورأيت نفسي ، كنت أمشى خلفهم ، لا أنظّاهم ولا أتجاوزهم ، في حجرة الاستقبال وقفت في ركن قصي ، يدخل رجل ، إنه أبو حشيش ، لا أرى ملامحه ، أشعر بفرحة أبي وهو يشير إلينا :
جمال ابني الأكبر وهذا إسماعيل الأصغر .

لم أكن أعرف وقتئذ أنه الضابط الذي أنقذ أبي ، هذا ما عرفته بعد رحيله عنا ، كان خالي يتحدث عن طفولة أبي عندما ذكر اسم الضابط الذي آوى أبي في النقطة ، ها هو أبي ينظر إليه ، كأنه يقول ، لولا أنك نجيتني من أهلي وناسي ، لولا أنك أخذت العهد والميثاق على عمي بعدم التعرض لي لما أنجبتهما ، ولما سمعت ، رأيت أبي يصحبنا إلى بيت خلف بك ، البيت القديم في الظاهر ، فسيح ، متعدد الحجرات ، صالة متسعة ، وسجاد ثمين معلق إلى الجدار ، ودولاب كبير من خشب ثمين مزدحم بمجلدات قانون ، اللغات

عربية ، وأجنبية ، أود النظر عن قرب ، غير أنى أخشى الخطأ غير المقصود فاحجم ، رأيت الابن الأكبر لخلف بك يلعب باتومويل صغير ، يدفعه فيجرى ، ونحن ننظر إليه ولا نشاركه ، رأيت أبى يصحبنا إلى متاجر شارع الموسيقى ، يشتري لى عربية اطفاء ، ولإسماعيل تراماً بداخله رجال ونساء وكمسارى يعلق حقيبة جلدية ، تلك عادة لم تنقطع إلا مع تقدم الزمن بنا ، فى العيد الصغير والعيد الكبير لعبة لكل منها ، وثوب جديد ، رأيت أبى يتمدد فى الغرفة الوحيدة ، يقول إنه سيأتى لكل منا بطائر يمكنه الطيران فى فراغ الحجر ، من حين إلى آخر أسأله عن هذا الطائر العجيب ، لكننا لم نره مطلقاً رأيت يصحبنا إلى سينا أولمبيا فى شارع عبد العزيز ، ومنظر فى فيلم لا أذكر اسمه ، قارب فى بحر ، وشكوكو يغنى ، رأيت المدخل الخلقى لصالة السينا الامامية ، طلاء الجدران الجبرى أصفر ، ومعدات اطفاء حمراء اللون معلقة ، ورائحة عتيقة ، ربما للرطوبة المنبعثة من المر الذى لا تطوله الشمس أبداً . رأيت سوق الخضار الكبير ، ودكان الحاج عمر الماخوت تاجر السمك الكبير ، مجرى صغير أمام الدكان تصب فيه مياه الغسيل القادمة من داخله ، من جلسنا نرى غطاء الثلاثية الخشبي الثقيل ، العمال يرصون قطع الثلج فوق السمك ، مناخذ نحاسية مستديرة قوائمها معدنية ، مزدحمة بأكواب الشربات ، والشاى ، وكوب صغير تطل منه أعواد النعناع الأخضر ، الحاج عمر غارق فى الظلال يرتدى الجلباب البلدى والطربوش الأحمر ، وعلى مقربة تقف عربته الخاصة ، مربوط إليها جوادان أسودان ، عليها سرجان يلمعان ، أمام كل منهما جوال ملىء بالتبن أو الشعير لست أدرى ، وفوق منضدة مرتفعة عند مدخل الدكان فونغراف ذو بوق كبير ، عاد الحاج عمر الماخوت من الحجاز بعد أن حج للمره الرابعة ، يصغى أبى ، ينظر مشوقاً إلى

حديث عن زمزم وزحام الحجاج في منى، ويوم الوقوف بعرفات، يصغى أبى، ولم أكن أدري أنه يتمنى ويتمنى ! أرى لوكاندة البرلان القديمة المطلة على ميدان العتبة، الطلاء الرمادى، الأقواس التى تحم الممر الذى يقع أمامها، مدخلها ونوافذها المستطيلة، وحجراتها الفسيحة مرتفعة الأسقف، والحاج محمود أحمد من بلدتنا، يرتاح بعد أن أجريت له عملية جراحية، يزوره أبى مرتين يومياً، يصحبنا إليه، ينظر إلينا، يقول: ما شاء الله يا أحمد.. أولادك كبوا.. يجوار السرير سلة فيها فطيرة، وإلى جوارها بطيخة كبيرة الحجم، يطلب من أبى أن يقطع من الفطيرة، من البطيخة، أهدى تمنياً، بينا يسيل لعابى داخل فى، يشجنى الحاج محمود: خذ يا جمال، أبوك رجل كريم ولا يقول لأبداً. رأيت أبى فى مكتب سكرتير مدرسة عبد الرحمن كنتخدا الابتدائية، ابراهيم أفندى، أرى وجهه، ونقطة مستديرة من وشم أخضر تصدرر جبهته، يقول أبى إنه سيدفع أول الشهر، السبت القادم، يقول ابراهيم أفندى: بإمكانك ألا تدفع لو قدمت شهادة فقر، يقول أبى: هذا فال سيبى، أنها أول مصاريف أدفعها للولد. رأيت ميدان العتبة الخضراء، أبى يصحبنى إلى الوزارة، موقف العربات يتوسط ميدان العتبة، عربات شركة الثورن كروفت بطلائها الأخضر والأبيض، أطل عبر النافذة الخلفية، كوبرى قصر النيل، ثم ينقطع ما أرى لحظة نزولنا بالقرب من الميدان الفسيح دكان كواء، تنزل إليه ثلاث درجات تهبط به عن مستوى الشارع، يحمل أبى ياقات بيضاء تخص خلف بك، أرى أبى يصحبنى إلى محطة مصر، ينتظر خالى القادم من البلدة، يشير إلى القضبان الحديدية قائلاً، أنه خط الصعيد، لا انتبه إلى صوته المضمخ بالحنين فى لحظة أنما اعبه بعد ذلك بسنوات طوال، كذا رقاده فى ساعات راحته، وتخليه الحركة

القطارات المسافرة ، يقول : الآن يتحرك قطار الثامنة ، يقف بالمراكز ، أما قطار الثانية عشرة فيقف بالمديريات فقط لأنه سريع . الآن يوشك قطار الصحافة على دخول طهطا . الآن يقوم قطار الرابعة والنصف من أسبوط . أرى رصيف المحطة مرة أخرى ، يمسك أبي بيدي ، يصيح : يا محمد على ، يا محمد على ، يطل خالى من نافذة القطار ، يناول أبي القفة التى تحوى « الزيارة » . فى صالة البيت الصغير تمزق أمى القماش الذى يغطيها ، فوق الخبز الشمسى والبلح المحفف تتمدد أوزة مذبوحة وحمام ، يقول خالى : أسلقهم حتى لا يتعنفوا . ينشط أبى . يخرج ، ييحى ، يهمس لأمى ، راجياً منها ألا تشكو لشقيقتها وأن تدع أيام إقامته فى مصر تمضى بهدوء ، وأنه سيلي كل ما تطلبه ، ولن يزعق أبداً . يصحب خالى فى الليلة الأولى إلى مقهى أحمد عفيفى ليدخن المعسل ، وفى اليوم التالى إلى الأضرحة التى تضم مرقد آل البيت ، إلى سيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة ، والسيدة رقية . إلى سيدى زين العابدين ، يبدو خالى ضجراً ، أصفر الوجه ، مزوم التقاطيع ، ويفهم أبى ، ينزل إلى فندق الكلوب العصرى ، يتجه إليه وجلاً ، خائفاً ، يكره ويتخاف ما سيقدم عليه ، لكنه يريد أن يرضى نسيبه ، يهمس فى أذن عمر الخادم ، يرجوه أن يوفر له فص أفيون ، وصل نسيبه من البلدة ، ثم يكرر عليه : إنها ليست له ، والله العظيم ليست له ولن نخسه ، فى البيت يقول لأمى همساً ، هل أنت راضية .. لقد أحضرت ما أراده من أجلك ، وتجيّب أمى بهزة من رأسها ، إنها راضية . رأيت أبى يصحبني إلى مقبرة رجل لا أدري اسمه ، بناؤها حجري ، بابها حديدي ، حوض الخامى مليء بالنبات ، بالريحان ، الوقت عصر ، لهذا ظلت رائحة الريحان تعني عندي دائماً المهدى ، رأيت سطح بيتنا القديم ، نخرج من العرفة ، يحملني أبى فوق

ذراعيه ، ينظر إلى الأفق الملتهب بنيران صفراء ، بالسنة هب ، يقول أبي ،
هذه النيران ناحية غمرة ، وتلك ناحية قصر النيل ، يخفق قلبي ، هذا يوم
يمكنني تحديده ، السادس والعشرون من يناير عام ألف وتسعمائة وخمسين
وليس لذاكرتي أدنى فضل في معرفته أو الإشارة إليه ، إنه يوم معروف دونته
كتب التاريخ التي تعي الأحداث الجسام . ها أنا أجلس فوق السطح ،
يتحدث عن شاب من بلدتنا ضبطوه في البيت يجلب نفسه ، يقول إن من
يفعل ذلك يخن أو يموت ، فوق السطح يحكى أبي عن رجل اسمه العياط .
موظف في الوزارة ، ضايقه ، في صوته ألم وشكوى . أقف بين طرفي الملاءة
المنشورة فوق حبال الغسيل ، أدعو على هذا العياط ، يدرك قلبي هم أبي
وكرهه ، غير أنه يقول لي ، لاتمن الأذى لخلوق ، يأبي أن ادعو على
الرجل لأن دعوات الأطفال تستجيب لها السماء بسرعة ، أدرك تبعه وأنه
يفضفض عن نفسه لأمي ، أراه يمسك مقشة يقتل بها ثعباناً وجده يزحف
بجوار دورة المياه ، يقول لأمي : هاتي جازاً لنشعل فيه النيران ، لا بد أن
تضيق راحته تماماً لأن وليفته ستسعى وراءه بحثاً عنه ، أمي تخاف الثعابين
والأبراص ، إذ يظهر أحدها يتقدم هو منه ، لو طرق الباب طارق على غير
انتظار يفتح هو ، إذا مشينا في الشارع نكون فوق الرصيف ويمشى هو ناحية
عرض الطريق ، نأكل فينال هو نصيبه آخرنا ، تجلس أمي الباب ، ترتدى
جلباباً أبيض ، تعصب رأسها بمنديل ملون ، تنتظر سماع خطاه فوق السلم ،
لوقع خطاه صوت لم يصدر قط إلا عنه ، كلما طرقته المتابعة للباب ،
ها نحن نتظره في صالة البيت الضيقة ، نتظر خطاه ، في صالة بيت الدرب
الأصفر الذي انتقلنا إليه زمناً ، أرى نفسي بعد عودتي من عملي ، أجلس في
غرفتي بعد أن صارت لي غرفة تخصني ، يرن الجرس ، أسمع صوت أبي في

الصلاة ، ربما أقوم إليه ، وربما أبقى مكانى حتى يفتح هو الباب ، وربما لا يفتحه ، أرى نفسى أثناء زيارتى إلى البيت بعد أن صار لى بيت وأسرة ، اسمع صوته فى الصلاة يقول : لقد جئت مبكراً كى أرى «جمال» ، ها هو بيتى ، يرن الجرس رنات متعاقبة ، وهذه رنات لم تتردد أبداً بعد سفره الأبدى ، يدخل إلى الصالون ، يجلس ، فى نفس المقعد ، تطول فترات الصمت . يدعولى بالستر والنعمة ، فأدرك أنه أوشك على الذهاب ، يقوم ، يقول إنه سيمضى ، فأطلب أن يبقى ، يقول إنه سيزور شخصاً يقيم فى مكان قريب ، أقول : لكن مشوار عودتك طويل ، ستأخر ، يقول إنه سيرجع مبكراً ، قبل أن يفتح الباب يقول إنه سيدعولى ولزوجتى ولابنى عند مقام الحسين ، يرفع يديه ، يطلب من العلى القدير أن يهبنا الصحة ، والعافية ، وأن يحوش عنا أولاد الحرام ، وأن يمتعنا بنعمه ، أقف عند بداية السلم . فى هذه اللحظات الأخيرة ، أظهر الود ، أردد ، مع السلامة ، خذ بالك من نفسك ، يجئنى صوته : الله يسلمك يا بنى ، ادخل ، ادخل من البرد . أدخل متعباً ، وعندما أسند رأسى إلى الوسادة أحن إليه وألوم نفسى ، كان يجب أن استبقيه ، كان يجب أن يقضى ليلته عندى ، لا يجب أن أدعه ينصرف بسرعة . أقول لنفسى ، فى المرة القادمة لن أدعه يذهب هكذا ، فى المرة القادمة ... ، لكن هذه المرة لم تأت قط ، ولم يعرفها عنى قط ، مرة أخرى أصغى إلى خطواته القديمة ، قدمه وذها به ، اقتراه وابتعاده ، ثم تغيب عنى ، انلفت حائراً حولى ، لو اسمى إلى أرجاء الديوان ، إلى منزل الأصوات الباقية ، افتش عن هذه الخطى ، انقب عن أصداثها ، لكن كيف واين ؟ عند هذا الحد تزايد هجرى ، وعظم خوائى ، وتزايد فقر روحى المدقع ، الأصوات لا تستجيب لذاكرتى الغاصبة ، لا تلبى التمنى ، أما الحنين فيربك عند اضطرامه ، ويجلب

النسيان الذى لاراد له ، والنسيان يأتى بالجفوة ، والجفوة موت ، كذا سأنسى يوماً ، لقد نسيت واليوم أنسى ، انقسم عمرى إلى عمرين متباعدين ، عمر سمعت فيه خطو أبى ، بشرى الألفة والأمان ، وعمر جف منها ، حنتت إلى الانتظار القديم ، لم أسمع صوتاً ، لم يقع صدى ، أدركت أننى على شفا حفرة من موقف الخذلان والندم ، وأن مقامى سيتمد ، سيطول ، وعلابى متدرج ، توسلت وتضرعت ، رجوت سيدى ودليلى أن يرجئى دنوى منه لأن قلبى مثقل ، وضميرى دام ، وعطر ودى منقطع ، وحنينى فى تكائف كثيف ، آه يا مولأى ، إن لم تأخذ بيدى فىلى من أكل أمرى ، وعلى من أعرض وفالى وغدرى ؟ ولبن أبدى حججى واعذارى ؟ بمساعدتك رأيت وعرفت ، فهل سمعت حنينى ورجالى ، هل ترحم قلة حيلتى إزاء الحنين الوعر ، ذكرت ماسطره شيخ من شيوخى الاجلاء . ذكرته والحنين متمكن منى ، سلام على نسيم كان يصل من الحبيب إلى قلب كل عنه كل طيب ، نعم ! وسلام على روح كان يهدى لعلامة القبول والرضا . صار كرباً بحسرة على مافات وما مضى . بل سلام على ليل كان يلتقى طرفاه بأنس ، يفتن عليه الجن والإنس ، بل سلام على لحظ كان يتبعش به العائر ، ويتجدد بنوره الدائر ، بل سلام على حرم كان لا يدب فيه واش ولا رقيب ، ولا يحل به ظنن ولا قريب ، بل سلام على رسائل كانت ترد بعتب يحترق به القلب ، ولطف يحيا به الروح ، بل سلام على علامات كلما طرق خيالها حاجت البلابل ، وتقطعت السلاسل ، بل سلام على مصافحة كانت الكبد بها تدوب ، وعلى معانقة كانت الأمانى بها تثوب ، بل سلام على مجلس ، كان ممثلاً بمحدث حلو جرى مع الحبيب ، ليس لأحد من الخلق فى تعريضه وتصريحه نصيب ، بل سلام على يقظة كانت مقصورة على

الشوق إليه والوجد به ، بل سلام على رقاد كان الحلم يعرضه ويحلوه بأكثر مما
كانت النفوس تتمناه وتهواه .

نؤمل عيشاً في حياة زهيدة
أضرت بأبدان لنا وقلب
وما خيّر عيش لا يزال مفرعاً
بفوت نعيم أو بموت حبيب

هكذا مدت ميذا ، وصار الرسو أبعد الأمور عنى ، الحنين إلى الحنين
يداهنى ، حنين إلى ما عشت وعرفت ، وحنين إلى حنيني ، صرت موزعاً
متفرقاً ، ولأنى ، ولأنى ، حق على العقاب ، وهنا خفف الله عنى ففتح على
بتجل ..

تجل عابر

.. هذا تجل عابر ، بمثابة نقطة بين مرحلتين ، ولحظة تلتقط فيها الأنفاس بين
عناوين ، بدأت أطفو إلى أعلى عليين ، ولم يساورنى الخوف أن أرد أسفل
سافلين ، ثبت أمرى عند نقطة مرتفعة ، حدقت بالبصر الحديد ، رأيت عالمنا
الأرضى كله ، مستديراً ، جميلاً ، مهراً ، رأيت داخل شكله الاكرى
الأشكال كافة من طول وعرض واستقامة وعوج وتربيع وتثلث ، رأيت
القارات كلها في تفصيلها وفي جملتها . رأيت البحار وما تحوى والجبال وما
تحمل والشهب ومقاصدها ، والغمام ، رأيت المدن وحركتها ، والقرى ،
والمدقات والشوارع ، والمنحنيات كلها ، ثم طاو عنى بصرى ، فأصبحت أرى
ما أشاء ، ما أتمناه أرغبه ، دون أن يغيب عنى الكل ، كأنى أرى الدنيا كلها

وفي نفس اللحظة أرى علامة مرور صغيرة عند ناصية مجهولة ، أرى المدينة ، وأرى زهوراً ملونة مطلة من سلة معدنية بيضاء معلقة إلى نافذة من طابقين في إحدى بناياتها . أو منمنمات خشبية تتصدر باب بيت قديم ، بل امكنتى قراءة عناوين الكتب في واجهات المكتبات ، حام بصرى وحط كفرخ حمام متعب على المواضع التي عرفتها طفلاً ، وصبياً ، وشاباً ، ثم رجلاً مكتملاً ، وهنا أفيض على بقدره خصصني دون غيري ممن سبقوني في التجلي ، وهي قدرتي على رؤية المكان في زمانين أو عدة أزمنة ، كل ذلك في نظرة واحدة ، وأول من رأيت أبي ، ها هو يسعي في صباح باكر والندى يقطر ، ها هو يمشي في ظهيرة مزدحمة ، رأيت على طريق مهجور بين قريتين ، ثم رأيت يصحبنى ها هو متجه إلى عمله ، إلى المصلى الذي يقع في الطابق التحتى من مبنى الوزارة ، إلى الحديقة المجاورة حيث يتمدد عندما يدركه التعب ، ها هو في شارع قصر الشوق ، صباح شتوى ، لا يرتدى إلا جلباباً ، ثم يقف في الطريق ، وقد أصبح وجوده علامة على الحيرة التي هي في أصل النشأة الإنسانية ، الدكاكين مغلقة عدا دكان السنن بائع الخبز والدقيق ، يطيل النظر ، يعقد يديه خلف ظهره ، رجل يمسك الأرزفة الساخنة التي وصلت من الفرن لتوها ، ينتظر أبي انصرافه ، ثم يتقدم ، يلقى السلام بصوت خفيض ، وهذا صوت لم أعهده في رحيلى الطويل هذا إلا بعد زواجه وانجابه لى ، لنا ، يطلب ستة أرزفة ، ثم يقول للرجل الملتحي : ويكتمل لك بهذا ثلاثون قرشاً ، يقول : لم يتبق الكثير على بداية الشهر ، يقول الملتحي : ولا يهيك يا أحمد ، كان الله في العون . عندئذ يتشجع أبى فيطلب خمسة قروش ، ويكتمل المبلغ بذلك خمسة وثلاثين . أدقق النظر حتى أرى الشعيرات النامية على يده وعند مفاصل أصبعه ، كذلك التصاوير على الورقة المالية الصغيرة . أراه في نفس الوقت ،

يمد يده بالطبق الفارغ إلى سيد بائع الفول ، ها هو راجع إلى البيت ، لقد
جاءنا بإفطار اليوم ، أراه يدخل مقهى ، يتوقف عند مدخله ، يقول السلام
عليكم ، فيرد عليه كل الجالسين : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، كنت
أرى هذا كله في آن واحد معاً ولم يكن يغيب عن بصرى في ذات الوقت رحيل
السحب ، وتكون الثلوج ، ودوران الأرض حول محورها . وبرد الزلازل ،
وهبوب الأعاصير ، وهذا أمر يطول شرحه ، ويقصر عنه أدق الوصف ، رأيت
يتقدم من عربة لنقل الموتى ، تقف في شارع جانبي بمدينة طهطا ، ابتهجت ،
هذا هو أبي الذي رأيت راحلاً عن البلدة كما رأيت في أسفار الغربية ، يقترب أبي
من العربة ، يسأل سائقها ..

من الميت ؟

رجل. من بنا ..

وهل سيدفن في طنطا ؟.

لا .. في بنا . سأسافر به الليلة ..

يقول أبي :

هل تصحبنى معك ؟

ينظر إليه السائق المعجوز ، المرهق بالوحدة ..

إلى أين ؟.

نسمى إلى مصر .. إلى لقمة العيش ..

يقول الرجل ، وقد مال قلبه إلى أبي وعطف ..

تعالى يا بنى .. الطريق طويل وسنسى بعضنا ..

يتقدم عمر الماخوت ، يسأل ..

ستأخذ مناكم ؟؟ .

يتشم السائق القديم ..

تكفى الصحبة الطيبة ..

يعود الماخوت إلى أبي ، ييدى ضيقاً ، هل يسعيان إلى مصر في عربة لنقل الموتى ؟ هذا شؤم ، يقول أبي إن الأعمار بيد الله ، ولكل أجل كتاب ، وأنه شاء أن نرحل إلى مصر راكبين ، هذه العربة ، فهل نخالف مشيئته ؟ ، تابعتها بنظري ، تابعتها وأنا مفاجأ ، في دهشة ، تلك هي المرة الأولى التي أحاط بالوسيلة التي جاء بها أبي إلى مصر ، عربة موتى ، عندئذ سمعت صوتاً معاتباً .. وهل اهتمت بالاستفسار يوماً ؟

.. آه . مولاي الحسين يطالغني بوجهه النوراني بعد طول غيبة ، يجديق إلى بعينين رأيتها في كربلاء لحظة اصابته بالجرح الحادى عشر ، اختلط على الفرح بالشفقة لمحبوبى ومولاي فخرت من حائق صمعا !!! .

موقف

اللقاء ، والتلقى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أفقت يا أحبائى الكرام من صعقى وغشيقى فإذا بي في ميدان باب الحديد ، سنة مجهولة ، وشهر لا يمكننى تسميته ، ويوم مجهول الاسم ، لم اعن بالسؤال ، وفيما يبدوا أن هذا من نذر اليأس ، واليأس خطوة تجاه النسيان ، أدركت أنه يوقفنى في موقف اللقاء والتلقى ، حيث درجة أخرى من العذاب المنزل بي والذي أتلقيه صاعراً ، هذا موقف له علوم جمّة ، منها علم الجمع والكثرة ، وعلم الفرقة ، وعلم الطول والعرض ، وعلم الأصل والظل ، وعلم الزمان ، وعلم الظن ، وعلم الخشية ،

وعلم الجهل بما سياتى . له من لحظات النهار لحظة انبلاج الصباح ، ومن الرياح ريح المهبوب ، ومن درجات روائح الأزهار الرائحة الولود ، وله من الوضع الإنسانى التحديق ، ومن حركات اليد السلام والمصافحة ، وله من الأحوال الدهشة والحذر معاً ، والمنزل المقابل له فى الديوان منزل ما كان وما سيكون ، علمت من الإلقاء فى معارفى اننى فى زمن لم أولد فيه بعد ، واننى ما زلت مشتتاً بين العناصر ، ولا وجود حسياً لى ، وإنما أنا هنا بوعىي القديم ، وإننى أنتظر أبى ، وإننى سأصير ضاماً ، ومضموماً ، وقبل أى فرصة للاستفسار تطلعت إلى مدخل الميدان من الناحية القبلىة ، عربة نقل الموتى ، تتوقف ، يفتح بابها الایمن ، منه ينزل أبى ، عند وقوع بصرى عليه اصبحت أنا هو ، صرت أنا أبى ، صرت المصباح والمشكاة والفتيل والزجاجة واللهب معاً ، أشعر بتعب الطريق وغباره وخوف من الأرض التى لم تطأها قدمای من قبل وشوق لزيارة ضريح الحبيب الحسين ، وآل البيت وتساؤل عما سيحدث لى واين أكون فى مثل هذه الساعة عندما يجيء الغد ، ومن يمر الآن ، بالضبط الآن فوق الجسر المؤدى إلى المنحنى فى البلدة التى صارت بعيدة ، نائية ، وحذر من أهل السوء المتربصين بالغرباء ، وقبل هذا وبعده ود عميق تجاه السائق العجوز الذى اقتسم طعامه المصروع فى منديل أحمر كبير معنا ، وطوال الطريق كان يفسح لنا مكاناً إلى جواره فىلملم جسده ليتسع المقعد المستطيل لى وللماخوت صاحبي ، وكلما مررنا ببلدة أو مدينة كبيرة عرفنا بها وحكى لنا عنها ، وقص علينا بعضاً مما جرى له فيها ، توقف بنا أمام المقاهى الصغيرة التى تقع خارج المدن ، ودعانا للنزول ، وأقسم ألا ندفع مليماً واحداً مقابل الشاى وشوربة العدس الساخنة ، يقول لنا : أنتما مقبلان على غربة ، والغربة تحتاج إلى كل ملهم خرجتما به من البلدة ، كان فرحاً بنا ، وطوال الطريق الطويل ، لم يتوقف إلا أمام دكاكين

الخانوية الذين يعرفهم واحداً ، واحداً ، يبادلهم السلام والمودة ، ويسألهم عن الحال والأولاد ، يقدمنا إليهم وكأننا أعز الناس عنده ، قال لنا إنهم الوحيدون الذين يمكن له التوقف عندهم ، وأن يأتس بهم في سفره الطويل ورفقته للموتى حيث لا يقبل أحد على مشاركته فيه بعكسنا نحن ، كان يشير إلينا ويقول ، إخواني في الطريق ، رجل طيب ساقته العناية إلينا ، خفف عنى الضيق ، وهون بداية غربتي في بلدنى التى لم تسعنى وغلقت ضباب أبوابها فى وجهى ، وسقتنى المروءة على أقرب القلوب . يفتح باب السيارة الأيمن ، يقول : ربنا يجعل البركة فى سكتكم ويسوق إلى طريقكم أولاد الحلال ، قلت : يهون علينا فراقك يا شيخ لكن هكذا حال الدنيا ، ثم لاحظت أن الماخوت صامت فخفت أن يظن الرجل الطيب الجفوة منه ، قلت : يعنى لو نزلت انا وعمر صاحبي إلى بنها كيف نستدل إليك ؟ يضحك ، فى بنها خانوقى واحد ، اسال عنه ، ستجدنى ، قلت : والله يا عم لو فتح الله على ورزقى باللحمة الحلال سأجىء إليك وأزورك. يضافحنا، تهتز عندما يديرها، الملح من الطاقة الضيقة طرف النعش المثبت إلى الأرضية ، يشير إلينا بدراعه ، .. السلامة ، استدير إلى الميدان الفسيح ، وزحمة الخلق من كل جنس ، آه .. كبيرة ، واسعة والله يا مصر ، سككك لا أول لها ولا آخر ، ربنا يقسم لى اللقمة الحلال فيك ، ويغنيى عن سؤال الناس ، ولا يجوجنى إلى أحد ، ضروعك كثيرة ، والرزق فيك ، والأزهر ، والعلم ، ساعدنى يارب على أن احفظ كتابك ، وأفهمه ، وأكون من قرائه ، وغظنى بالستر ، مبنى كبير حوله سور من الحديد ، المباني عالية ، والشوارع صلبة الأرضية ، والناس كثيرون ، أسأل واحداً منهم ..

.. وهنا أصبحت أنا أبى ، وأصبحت كذلك الرجل الذى سأله أبى ، كنت

كاتبًا عموميًا في طريقى إلى المحكمة الشرعية لأقعد في نفس المكان الذى لم أغیره .
منذ عشرين سنة ، حافظتى تحت ابطى ، أوراق اللجنة الرسمية ، والورق
الأبيض ، وعلبة صغيرة فى جيبى ، فيها الختامة ، وقطعة ورق صغيرة ،
لتجفيف المداد ، تقدم منى قروى صعيدى فى عمر الشباب . سألتى عن مبنى
محطة مصر ، أشرت إليه بسرعة ، فقال : أكثر الله خيرك . بعد أن تجاوزته
التفت ورائى ، ورأيته يتحدث إلى زميل له ، فقلت لنفسى ، ربما يتزلان مصر
أول مرة ..

تطلعت بعينى أبى ، ولاحظت أن الماخوت قلق ، لا يستقر على حال ،
شارد بفكره فنويت أن أسأله ، خشيت أن يكون شىء ما قد ضايقه منى ،
أردت أن أخفف عنه فسألته ، هل تخاف المدينة ؟ أم تعمل ألف حساب
وحساب لأيام ما زالت طى الغيب ؟ أم يفكر فى الأهل الذين فارقهم فى
البلدة ، رجوته ألا يعول الهم ، قلت له إن اللقمة لو عزت فسأحرمها على منى
وأعطيها لك ، وأن الهدمة لو ضاقت سأحلها عن جسمى وأعطيك بها ، قلت
له إن من خلقنا لن ينسانا ، يا رجل كن خلى البال .. ، قاطعنى فجأة ..
اسمع يا ولد نحوى ..

نطقت بلسان الماخوت ، وهكذا اطلعت على النية المضمرة ، والرغبة
المؤجلة ، قلت بلسانه مؤجلاً الافصاح عن حقيقة ما فى باطنى ..
تعال يا أحمد ، ناطر فى أى مطعم ونشرب شاي مصر ..
قلت بلسان أبى :

قروشنا قليلة ياماخوت ..

يحدثنى قلبى - قلب أبى - بأن الماخوت يخفى شيئاً عنى ..
دخلنا إلى معطم فول وفلافل ، أول لقمة تقسم لى فى مصر ، بسم الله

الرحمن الرحيم ، اللهم اجعلها مباركة ، من مكاننا نرى الرائح والغادى ومبى
محطة مصر ، منه تقوم القطارات وإليه تصل ، لا أعرف اليوم الذى سأقف
داخلها وانتظر القطار إلى طهطا ، إلى جهينة ، قلت ..
والله لم يكن هناك « داعى » ..
نظرت بعيني الماخوت ، وصار فكره فكرى .

« .. بعد أن انتهى من الأكل سأدفع الحساب ، لن أطلب منه مليما ،
عندما ألقى نفسى فى لحظة مناسبة أقول له ، مع السلامة ، لكل منا طريق ، لم
ولن أصارحه بعنوان المعلم هريدى فى حلقة-السمك ، أنا لا أعرف هذه
الحلقة ، ولكننى سأسأل ، ومن يسأل لا يضل . المعلم قريبي وسيساعدنى ،
ويمكنه أن يلمنى فى الأيام الأولى ، يستضيفنى ، حتى أن لم يتسع لى بيته أنام فى
دكانه ، وثقل واحد ليس كثقل اثنين ، لو ذهبت إليه مع أحمد ، ربما قال : لم
يكتف بنفسه ، إنما جاء معه بشخص آخر ، وهذه عيوب أهل البلدة ومتاعهم
وبلاويهم ، بعد خروجنا من المطعم يبدو أحمد راضيا ، لكن قبل أن ينسى
العزومة ، وقبل ضياع اثرها ، أقول ..
شوف يابو خاله ..

اصغيت بأذن أبى ، وبسمعه وبقلبه الذى بدأ يدرك ويفهم ، مثل هذه
اللهجة تنذر بحسم ، بقول فصل ، اصغيت إلى الماخوت ، يقول إنه يجب أن
يفارقى هنا ، وأنه سيقوم بمشوار ربما كان فيه سبب لرزق كلينا ، شعرت أننى
شقى ، سأحرم من الصحبة ، وسأقابل مصر وحيدا ، الماخوت يكذب علىّ أنا
من قرصتنى الأيام ونالت منى ، أفهم ذلك ، لقد رتب أموره من جهينة ، بيت
النبة لكنه لم يفضفض لى ، ولم أشأ أن أثقل عليه ، ولا أن أمنعه ولا أن أحوش
عنه رزقه .

ربنا يسهل لك ، فرقتك صعبة لأننا مشيناها معاً ، لكن رح شوف
نفسك ..

سمعت الماخوت بأذنى ابى ..

يوم أو يومين وأجىء إليك ..

يكذب علىّ ، اين سيجيئنى ؟ أنا الذى لا سقف يغطيه ، ولا عنوان لى ،
ولا وجهة ، يصعب علىّ أن يتركنى ، يتجعد حلقى ويتمرر ريقى لكننى
صافحته ، وتمنيت له السلامة ، وأوصيته بنفسه خيراً وأنا بحاجة إلى من يوصينى
بنفسى ، ورجوت الكرم الحليم أن يبعد عنه أولاد الحرام ، يهز رأسه ، يعطينى
ظهره ، ويسرع كأنه يتمنى لو غاب عنى بسرعة ، نسى حتى أن يصفحنى ، إلى
من الآن ؟؟ إلى أين ؟؟ سأمسك نفسى ، وأسأل عن الطريق إلى مقام الحسين ،
أزوره ، وأطلب منه الحماية ، وأن يتبّه إلىّ فى غربتى ، وأن يبعد عنى أولاد
الحرام ، فأنا بلا أم ، بلا أب ، ولا أحد يعنيه أن يسأل عنى أو يستقصى
أحوالى ، ولو ضربنى ، لو صدمنى هذا الترام ، أو تلك العربىة ، فسأروح على
نفسى ، وينتهى خبرى ، مقطوع من شجرة ، وأنا لا أعرف المكتوب لى فيك
يا مصر .

وهنا صرت فراشاً يعمل فى متجر أقشة . ومينفاتورة ، أمضى إلى البوستة
لأشترى عدة طوابع ، عندما اعترضنى قروى ، صعيدى ، تفوح منه رائحة
البلدة طازجة ،

- أين الطريق إلى الحسين يا عم ؟

يبدو حائراً ، ولولا أنى فى عجلة ، لضحكت منه . وسليت نفسى ، قلت

له .

- يظهر أنك صعيدى بشوكك .

ينظر إليّ ، كأنه لم يفهم ، بسرعة أشرت بيدي إلى اتجاه ميدان العتبة
المؤدى إلى مقام الحسين ..

.. وللحظة عابرة عجبت ، وحزنت لأننى خاطبت ابى بمثل هذا اللسان
المعوج ، ولأننى ضايقتة وإن لم بيد عليه ذلك ، ضقت وإن كان لسانى لسان
غيرى ، لكن ما الحيلة ، وهذا ما جرى ، وهذا ما قدر لى أن أمر به فى هذا
الموقف الغريب ، أصبحت ابى مرة أخرى ، تتبعت الرجل بنظرى ، لا بد أن
أسأل شخصاً آخر ، لكن بعد أن يخفى هذا عن نظرى ، ربما يضللى ، ألم
يفضحك منى؟ آه منكم يا ناس مصر . مثل الآن كعود ذرة فى غيط كمنون ، لا
أحد ينتبه إليّ ، والشوارع تضيق بمن فيها . ولكنهم بعاد عنى بعداً نافرماً ،
الغريب فى جهيئة إذا ظهر عند الجسر يلتف الناس حوله ، ويدلونّه ،
ويستضيفونه إذا اقترب الليل ، ويطعمونه إذا كانت ساعة الطعام ، لكن كل
من أراهم حولى غرباء عن بعضهم ، ياه ، الميدان فسيح ، عريض ، سأسأل
أى أفندى ، لكن قبل السؤال لأملأ عيني ، فهذا أول ما أراه من مصر ، مصر
التي لا أعرف المقسوم لى فيها ..

« .. هنا وقع لى أمر عجيب ، وهو من أسرار هذا الموقف ، أنا أبى .
اعتدت هذا وأنا أعرف كل ما عاناة . لكننى صرت أيضاً كل ما وقع عليه نظره
أول مرة ، فكنت ولم أكن ، انطق فى سكوتى ، واسكت فى نطقى ، امتسى فى
وقوفى ، واقف فى مشى ، صرت صيباً حافى القدمين ، ممزق الجلاب ، يمسك
علبة من الصفيح ، وكنت قلب أبى الذى اشفق عليه . صرت حملاً عجوراً ،
هرماً ، فوق ظهره جوال ثقيل ، يحكم توازنه فوق ظهره ، وصرت سائق
حظوظ يعلس مستظراً ، وعندما نظرت إلى هذا الصعيدى الحائر لم أعن بالتوقف
عنده ، فنظره لا يدل على أنه سيركب ، إنه واحد من هؤلاء الذين يظهرون كل

يوم في الميدان ، وبعد فترة تطول أو تقصر ، ربما يطوف بالمقاهى حاملاً سلة فيها السميط والجبن والبيض ، وربما يطوف حاملاً حقيبة بها قصان ، وملابس داخلية ، وجوارب قطنية ، وأمشاط ، وربما يصادفه الحظ فيصير معلماً له صولة وتطل من فه أسنان ذهبية ، ويمتطي في المساء «كاريتا» يجرها زوج من الخيول المدللة غير التي يمتطيها في الصباح ، حظوظ وأرزاق ، صرت السؤال الذي جال بخاطر أبي. ترى كم يأخذ منى لو أوصلنى إلى مقام الحسين؟ وكنت الاجابة أيضاً : لا داعى يا أحمد ، ادخر قروشك للأيام القادمة ، لا أحد يعرف ما ينتظرك . صرت نشالاً يتأهب لركوب الترام ، وصرت بصاصاً يرتدى معطفاً وجلباباً ، وصرت جندياً نوياً من المهجانة ، وكنت خاطرة في فؤاد أبي ، هل يوجد المهجانة في مصر أيضاً؟ ، وكنت الصورة التي تداعت إلى ذهنه ، عشرات الجنود السود يركبون الجمال ، يهاجمون القرية ، يصرخون ، ينادون الرجال بصيغة الأنثى ، خشى بيتك ، خشى بيتك ! صرت امرأة ترتدى خلخالاً ، صرت بائع ترمس يرص قراطيس الورق في صفوف طويلة فوق عربة اليد الخشبية وكنت المشتري ، صرت فاكهياً ، وصرت بواباً لفندق عتيق من طابقين ، وكنت السؤال : بكم اقضى الليلة فيه إذا ضاق بي الحال ؟ صرت بقالاً ، وزبوناً وحيداً في مطعم ، وجندياً للمرور ، وسائقاً لعربة كبيرة وسائقاً لمركبة صغيرة ، وراكباً لدراجة ، وسائقاً لترام يرتدى الطربوش والحلة الصفراء يضع منديلاً حول عنقه ، صرت سائقاً لقطار يعبر الطريق متجهاً إلى محطة مصر ، وفتاة صغيرة تدحرج طوقاً ، وشيخاً عجوزاً يسمى ليوم المصلين ، وبائع مخطوطات قديمة وتلميذاً يشوط حجراً صغيراً ، وبائعاً لحلوى غزل البناب ، وكودية زار ، وموسيقياً يحمل عوداً مغطى بقمش أخضر يتجه إلى مقهى لينتظر أصحاب الأفراح والحفلات ، لعل وعسى . صرت مدخناً لرجيلة يجلس أمام

ذكان يبيعُ علب القטיפفة الفارغة ، وصباغ أقشة ، وجندباً من قوة المطافئ ،
ومستشارا يمشى في تودة ، وامرأة شابة جاءت هاربة من قريتها بالوجه
البحرى ، تحاول ان تبدو ثابتة غير وجلة حتى لايطمع الطامعون ، ولا تلفت
النظر ، صرت عاملاً في البلدية يشعل مصابيح الغاز عند الغروب ويطفئها بعد
انبلاج الضوء ، وباشا بدينا يرتدى الطربوش وبدلة التشريفة يركب عربة
مكشوفة ، كنت نسمة هواء رطبة تخفف تعب أبى ، كنت حدقتيه المستعنين .
لكل ما يراه بدهشة بكر ، كنت الدهشة نفسها ، والسؤال الحائر ، والالجابة
المبهمة ، والأحاسيس الغامضة ، والخوف الغض ، كنت خطاه المسرعة إذ
يعبر الطرقات ، وخطاه المتمهلة أمام كل جديد يراه ، وخطاه الساعية ، كنت
مواطئ قدميه ومدرجة جسره ، والأرصفة التي مشى عليها ، ومداخل البيوت
التي مر بها ، وجدران البيوت التي تطلع إليها ، وحشائش حديقة الأزبكية التي
استراح فوقها ، كنت حجراً ، ونباتاً ، ولافتة منسية ، كنت انحناءة ، ولفطة ،
وإيماءة وجلى ، وانطباعة أولى ، وخاطرة ، وحية ، وتساؤلاً ، أى تصرف
يجب أن يفعله ، وأى حديث ينبغى التفوه به ، كنت الخفقة المباغثة التي تعقب
الخشية ، والإدراك بأن قسماً من العمرولى ، ولن يرجع ، وكنت الحسرة التي
تعقب ذلك ، كنت للرهبنة من غد آت ، وكنت وهن الساقين ، والظماً ،
والتصرع الصامت إلى مرقد الإمام الحسين الذى سيصل إليه أول مرة بعد قليل ،
كنت كل ماعاناه أبى في هذه اللحظات الأولى ، وهذا عنابى في ذلك الموقف .

موقف كان وسيكون ..

رأيت المشرق والمغرب معاً واتكأت على الموضع الذى تغرب فيه الشمس

.. وهذا موقف تتنوع فيه الأسباب ، تبدو واضحة أحياناً ، وتدق مرات أخرى لتخفى ، البعض تكون راحته فى لقاء محبوبه ، والبعض تكون راحته فى قهر عدوه ، ومنهم من تكون راحته فى الفوت ، وأنا جميع هؤلاء ، أحطت علماً قبل الوقوف اننى سألقى حبيبين ، وسيظل الحبيبان واحداً ، واننى سأنعم بالقربى بقدر ما سأشقى بها ، لأن كل ما رأيته وسأراه زائل ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، سبحان من ألقى بى فى ذلك الموقف الغريب ، فيه اتخذت صورة غير صورتى ، وهيته مغايرة لميثنى ، ثم دفع بى إلى زمن غير زمنى ، لكنه زمن عجيب تتجاوز فيه الأزمنة ، فثمة ما أراه من عصر مضى ، وشيء آخر أراه لكنه من زمن لم يكن حينه بعد ، والزمانان متجاوران ، وأنا بين البيتين ، لا يمكننى إدراك فى أى زمن منها أعيش ، وحتى لا يقع اضطراب ، ولا يحدث شتات ، فأنا حريص عليك أيها المطلع اللبيب ، أذن لى إمام المجاهدين ، بشرح موجز بسيط ، فن ذلك أقول ، إننى جئت زمن أبى القديم ، جتته وأنا رجل تجاوز الخامسة والأربعين ، وهذا عمر لم أبلغه عند بدء تدوينى لتلك التجليات ، سواء فى التدوين الأول الذى مزقته ، أو التدوين الثانى الذى لم ينته بعد ، كما أنى لا أدرى هل سأطيل إلى هذه السن ، أن ينقطع حبلى قبل ذلك الحين ، ذلك أن ما عشته كان صعباً ، كما أن عصرى

كان قفراً ، تراكم على وعلى زمني سوء الحظ فخبنا ، وتمكن من ربوع وطني
الدينس والانكسار ، فيه بارت بضاعتي وكسدت سوقى ، كتمت صراخى ،
وتجنبت انتهاكى ، وهدد اللثام عرضى ، دار قومي مع الأخف الأسهل ، ونأوا
عن كنف التزاهة ، وظنوا فى ابتعادهم عن طوارق الحداثان راحة وأمناً ،
استكانوا إلى مواقف الخزى والاذلال ، وقنعوا بالمتيسر من الحال ، وتجاهلوا
الحكمة ، ونأى الأنس ، وانتفت المودة ، أما المحاسن فقد فرت ، والفضائل
كسيحة ، والآمال عائرة ، والمستقبل مسدود ، اعذرني أيها المطلع اللبيب إذ
كنت أفيض وأسهب ، فتلك مراسم حالى فى زمني الأعوج ، وهذا حديث
يطول ، ويبعثنى عن مقصدى ، فاسمح لى بالعودة إلى ما كنت على وشك قصه
وروايته ..

كان وسيكون

.. وهكذا وجدت نفسى فى الخامسة والأربعين ، وأنا لم أولد بعد ، كنت
مشرفاً على قرن كبير من أفران الحاج الرمالى عندما جاءنى رجل من نواحي بلدتى
يصحب شاباً حياً ، حديث عهد بمصر ، قال لى إنه يرجونى مساعدة أحمد
هذا فى الالتحاق بعمل ، أى عمل يأكل منه « عيش » ، يقبه حاجة السؤال ،
ويبعده عن أولاد الحرام ، أحد أقاربه ضحك عليه وسلبه الجنيهاات التى ادخرها
وجاء بها من البلدة يضمها إلى صدره بعد أن خيط عليها بالابرة والفتلة ، وعده
هذا القريب الجانى أن يساعده فى الانضمام إلى طلبة الأزهر ، ثم راوغه ،
وماطله ، حتى كاد أحمد ان يمد يده إلى الناس ، لكنه لم يفعل فهو عزيز النفس ،
تقلب فى أعمال مضنية ، قاسية ، إذ عمل حملاً يفرغ الأحجار من المراكب فى

مرسى روض الفرج ، وعمل فى دكان عصير قصب ، يكسر الزعازيع ويقشر العيدان ، وعمل فى مصبغة خيوط ، لكنها أعمال لم تدم ، كلها مؤقتة ، قصيرة الأجل ، كما أنه طامح إلى بدء تعليمه فلعل وعسى ان يجد فسحة من وقت ، حدثت ببصرى ، وكان بصرى يسمع عنى ويرى ، فكنت أرى أبى فى غزن القصب عندما يذكر الرجل ذلك ، ويحل فى تعب ، وأرى ساقبه ترتشان فوق السقالة الممتدة من شاطئ النيل إلى المركب ، فأنوه بنقل الحجارة ، وتزكم أنقى رائحة النيلة فى المصبغة ، حدثت إلى أبى ، وكنت حنينى كما يدرأ الغريب عنه هجرات الحنين إلى وطنه ، سألت أبى الذى لم يصبح بعد أبى ، أى تعليم يقصد ؟ فقال إن الله لو أذن له فسيتعلم القراءة والكتابة ثم يرجع إلى البلدة فقيهاً ، وأن إقامته فى مصر مؤقتة ، مصر بلد كبير ، والغريب يضع فيها ، وهو لم يخلق للعيش هنا ، إنما غايته العودة إلى جهيته ، وهنا وقع لى كشف خاطف ، فاطلعت على قبس من خبايا أبى التى لم أقف عليها قط فى حياته ، رأيت كيف أنه عاش منذ يوم وصوله إلى مصر، وحتى يوم رحيله الأخرى وهو يعتبر أن إقامته فى مصر موقوتة ، نفذت إلى ترددات صوته الخفى ، فسمعته فى حقب متتالية ..

سأتعلم وأرجع ..

بعد عملى فى الوزارة سأطلب نقلى إلى البلدة .

بعد أن يتعلم الأولاد فى مصر سأرجع إلى البلدة

بعد تخرج جمال .

بعد تخرج إسماعيل ، بعد أن أطمئن على نوال ، والصغير على ..

بعد انتهاء خدمتى لا مقام لى فى مصر ، الأولاد كبروا وتشاغلوا عنى ..

سأسافر لأموت هناك ، فى الأرض التى خرجت منها ، فلا أكلف أولادى

عناء دفتى وجنازتى ، وأرحل خفيفاً للملاقة ربى ..
ولم يتحقق ذلك قط ..

عرفت من هذا الكشف ان أبى عاش فى مصر أربعين أو خمسين سنة ، وان هذا العمر الكامل كان موقوتاً عنده ، لهذا لم يختلط بناس مصر ، ولم يتزوج من مصر ، وصان لهجته الرفيعة ، وسعى دائماً إلى أهل بلده فى مصر ..

وهنا انتهى الكشف الوامض ، الخاطف ، عدت إلى أبى ملوماً ، محسوراً ، مشفقاً ، لكننى لم أجد ذلك ، قلت له إنه سيركب فى كل يوم عربة يجرها حصان ، عربة خضراء مغلقة ، لها بابان خلفيان يغلقان ، برتاج حديدى ، داخلها أرفف فوقها أقفاص الخبز ، خبز مستدير ، طازج يجب ان يصل إلى البيوت ساخناً ، وهذا يقتضى السرعة ، والحفة ، والأمانة ، هذه عربة الرواتب ، أما البيوت فلناس من علية القوم ، لهم مقام وجاه ، ستمضى إليهم ثلاث مرات يومياً ، خبز الافطار ، والغداء ، والعشاء ، جولة طويلة ، ينتهى اليوم فيرجع إلى الفرن متعباً ، مرهقاً ، ينتحى ركناً قصياً اذنت له بالنوم فيه عندما علمت أنه لم يتخذ مسكناً بعد ، قبلت على وعد منه ان يبحث عن غرفة ارتحت ، ثم وثقت فيه عندما علمت بجده فى البحث عن مأوى . ثم تبدل خاطرى . نظرت إليه باعتباره أبى الذى سيكون ، فترقرقت حناناً ، غير أنى لم أكن قادراً على اخباره من أكون ، لم يُسمح لى بذلك ، وعندما تشتد رغبتي ، وتقوى ، حتى انى أشرع فى ذلك على الرغم من عدم الأذن لى ، وأناهب لإخباره بحقيقتى وبما هوأت ، يثقل عندئذ لسانى ، ويضيع منى الكلام ، فيتملكنى الهبت ، وتقوم الحجب أمامى ، فانقطع عن المستقبل ، وتعمى رؤيتى ، وتتعضر أفكارى . ثم تبدلت هيئتى ، وتغير الموقف علىّ ، أصبحت أنا السائق ، أمسك الأعنة ، واسوط الجوادين ، أتوقف أمام البيوت حتى ينزل

أحمد - الذى هو أبى - يفتح الباب الخلقى ، ويتناول الراتب المخصص ، كنت ارقب همته وأراه يغض البصر حياء عند الوقوف أمام الأبواب المفتوحة ، مع أنها أبواب خارجية تؤدي إلى حدائق أو أفنية فسيحة ، لكن مما لفت نظرى وشد انتباهى سؤاله عن أصحاب البيوت ، من باشوات ، ومشايخ ، ورجال علم ، وتجار كبار ، عن عائلاتهم ، وأصهارهم ، عن حوادث كبيرة اشتركوا فيها ، يبدولى دائماً وكأنه يضمراً يترى التعبير عنه لئلا يفتعل ، يشرق وجهه ويصفو عندما تقترب من ميدان الحسين ، فى كل مرة يقول ..
شاه الله يا حسين ..

إنه يستجير به ليحميه ، ويدراً عنه الضيق ، ويبعد عنه أولاد الحرام ، كنت اصغى إلى حكاياته العديدة ، عن رجال من جهينة ، وأصحاب بيوت كبيرة ملأوا الدنيا همة ، اختالوا وزهوا وأفاضوا بكرمهم ، وسخائهم وانحنت لهم الجباه ثم رحلوا ، بعضهم لم يخلف أثراً يذكر ، وبعضهم خلف ذرية فاسدة ، بعد جولتنا اليومية نعود معاً ، يصحبني إلى الأسطبل ، يجلب الحصانين ، ندفع معاً العربية إلى ركنها ، ثم نمشي معاً ، يعود بمفرده إلى الفرن . إنه متعب ، مرهق ، يأكل عشاءه البسيط ، الذى لا يتغير إلا فى أحوال عابرة عند ذهابه لزيارة شيخ جاء من جهينة ، أو إلى فرح ، إذا دعى إلى العشاء يتناول عندئذ المرق ، واللحم ، والفطير ، أما عشاؤه اليومى ، فرغيف من خبز الفرن ، وقطعة جبن ، وقرن فلفل ، أو شريحة خيار مخلل ، يدخل الفرن ، يمتلئ فراغها برائحة الوقود والدخان ، والعجين المتخمر ونشارة الخشب ، يصعد فوق طاولات العجين يقلب الطاولة الأخيرة حتى لا تلتصق بقايا العجين وذرات الدقيق بجسده وثيابه وهنا وقع لى كشف بطيء ، متأن ، لكنه ثاقب ، نافذ ، له عندى تأثير عظيم ، وبمقتضاه اطلعت على بعض من خواطره الليلية ،

والأصوات التي اعتاد سماعها ، ومنها ديب فتران ، وصرصار ليل ، وصفير غامض يتردد في ساعة معينة ، وخطوات تقرب ثم تتعد ، وباب يفتح ثم يغلاق في مكان ما ، ونداء مجهول ، وخطوات جندي الدورية ، يتأكد من مئاة أقفال الدكاكين ، وآهة مكتومة ، وصفير قطار يعبر الخلاء البعيد ، صوت الحنين ، وآذان الفجر من المسجد القديم ، عسعة الليل ، وأصواته المهمة التي ربما يجيء بعضها من أعماق الكون السحيق ، وتنفس الصباح ، عندئذ يقوم متحمساً طريقه في عتمة القرن ، متجنباً التعثر في الأواني والطاولات والحواجز إلى حوض المياه ، كان محظوراً عليه إشعال عود ثقاب ، أو أى ضوء خوفاً من الحريق ، ولم يكن قادراً على مغادرة القرن لسببين خشية من اللصوص ، ولأن الباب مغلق برتاج خارجي ، كان أشبه بالحبس ، أما الخواطر الليلية ، والتي تبدأ عقب تمدد جسده المنهك ، وإغماضه عينيه ، وتلاوته الفاتحة ليعبد عنه الشياطين ، مرت أمامي خواطره خلال هذا الكشف ، وكنت أراها كما تراءت لمحيلة أبي ، تماماً ، تثير عندي ما أثارته عنده هو لحظة ورودها عليه وفراقها له ، فإذا كان التأثير حزناً حزنت حزنه ، وإذا كان حزيناً - وهذا هو الغالب - حننت حنينه ، وإذا كان مرحاً وبهجة ابتهجت مثله ، وإذا نَفَس عن ضيقه بنطقه فجأة : يا كريم ، يا حلیم ، مدد يا حسين . أو غنى فجأة ، أو ضرب ركبته بقبضة يده ، كنت أفعل مثله ، أما عن خواطره فعرفت منها حنينه إلى الجسر ، وأيام الدميرة ، ورائحة التين العسلية ، ومذاق البلح الناضج المتساقط تحت النخيل ، وتخيُّله لنخلاته التي اغتربت عنها ، وأوان نضجها ، وجمعه السوباتات وذهابه بها إلى الرجل الطيب الباشجاويش أحمد حسين الذي انقذه من الموت ، وعلى يديه كتب له عمر جديد ، اين هم الآن ؟ كذا امرأته الطيبة ، انعم الله عليها بالخلفة ، كل ما يتمنيانه أن ينجبا طفلاً أو طفلة ، والله

سيدعو لها عند مقام الحسين بعد صلاة الجمعة القادمة ، وعندما تسمح الظروف ، ويرضى عنه الحال ، ويسافر إلى جهيته ، وسيعرج في الطريق إلى بلدة الحاج قنديل شرق النيل ، سيشتري صابوناً ، وأرزاً . وقاش جلباب للمرأة الطيبة التي حنت عليه كأم ، وقدمت إليه اللبن والمخروطة في الصباح ، سيتزل من القطار في دير مواس ، ويعبر النيل إلى الحاج قنديل ، سير الرجل لرؤيته ، وعندما يمشي ناس البلدة لتحيته سيقول أمامهم ، ان عمراً جديداً كتب له على يد عمه أحمد حسين ، سيجلس متأدباً بحضرتة ، ولن يضع ساقاً فوق الأخرى أمامه أبداً إذا جلس على دكة ، ولن يمشي أمامه ، وعند فراقه سيقبل يده كما يقبل الابن يد ابيه ، وعندما يركب القارب سيقول له بصوت عال ، ادع لي . ثم يبحر القارب ، ويلف الشاطئ غمام ، وتناى ملامح الطيبين ، ومن الملامح يبدو وجه السائق الطيب الذي اصطحبه من طهطا إلى مصر ، لو مر بيننا سيميل إليه ، بنا قرية من مصر ، قد لا يذكره الرجل ، سيقول له ، أنا من ركبت معك ، كان معي صاحبي . ترى ما حال الماخوت الآن ؟ لم يره منذ زمن ، لكنه سمع بأخباره ، يرددها ناس جهينة الذين يلتقون بعد صلاة الجمعة في مقهى العجم أمام مسجد سيدنا الحسين ، بعد أن عمل أياماً معدودات مع هريدى تاجر السمك ، سمع يوماً قائلاً يقول إنه ذاهب إلى معسكرات الجيش الإنجليزى في العباسية ، فسأله ، أتصحبني معك ؟ ، أوأما الرجل ، ذهباً إلى هناك حيث أقيم مزاد لبيع أشياء قديمة ، هياكل عربات ، وصناديق ، وملابس ، قروش الماخوت قليلة ، في نهاية المزاد بق صندوق زجاجى تطل منه اسلاك وأنابيب قصيرة ، وقال آخرون إنه جسم غير معروف من حديد وزجاج ، اشتراه الماخوت بمجنيه وثلاثين قرشاً ، ربما أعجبه منظره ، ربما هذه الروح الغريبة لديه ، عند باب المعسكر نزل رجل بدين من عربة ملاكى ، دخل ثم عاد

مسرعاً ، لحق الماخوت عند مفارق الطرق ، سأل : بكم اشترت هذه ؟ قال
 الماخوت كذباً - هكذا يقولون - عشرة جنيهات ، قال البدين ، خذ .. هذه
 عشرين ، أعرض الماخوت عنه وأولاه ظهره ، قال البدين مهلوقاً ، هذه
 أربعين ، خطا الماخوت مبتعداً عنه ، من هنا إلى هناك اخرج البدين ثلاثمائة
 جنيه وأقسم أيماناً مغلظة انه لا يمتلك الآن مليماً فوقها ، عندئذ استدار إليه
 الماخوت وبل طرف اصبعه ، عد الثلاثمائة ورقة ، ورقة ، ورقة ، ثم سلم الرجل
 هذا الجسم الغريب ، يوشك الآن أن يصبح أكبر من المعلم هريدى نفسه ،
 يقولون إنه اتفق مع فندق كبير على توريد كميات من السمك ، دنيا !
 حظوظ ، ربنا يسهل له ، يبدو قطار قبلي ، القاطرة السوداء تنفث البخار
 والدخان ، يتوالى الهدير المتتابع في بداية تحركها ، وصفارة غامقة ، منذرة بيده
 الغربية ، أو العودة ، رصيف المحطة ، كثيراً ما ذهب وتوقف وتابع بعينيه رحيل
 القطارات ، يودعها بعينيه ، حتى تختفي العربة الأخيرة عند المنحنى ، ثم يسود
 الرصيف ذلك الفراغ الذى يعقب رحيل القطارات وانصراف المودعين
 والحالمين ، وموظفى المصلحة ، يخلف هذا غصّة وحزن عنده . يعود إلى
 الأزهر ، صحن المسجد المحاط بالأروقة ، وظلال الأعمدة ساعة العصارى ،
 وعصافير تطير إلى أعالي المآذن ، وملمس رخام الأرضية ، درس العصر ،
 الشيخ صالح الجعفرى ، مهيب الهيئة ، يسند ظهره إلى أحد الأعمدة في الباحة
 المغطاة ، مهيب الهيئة ، يحيطه المریدون ، رجل صالح وله بركة
 وكرامات ، جاء من السودان ، ولم يفارق الأزهر إلا للصلاة في مسجد الحبيب
 الحسين ، سيجىء يوم يمكنه الانتظام ، متابعة الدروس ، فهم كل ما يقال ،
 لكن قبل هذا كله يجب فك الخط ، واتقان القراءة ، لعن الله الحظ العاثر ، لو
 أن لديه فائضاً من الوقت ، على أية حال هذا عمل مؤقت ، سيدخر من القروش

الأربعة قرشاً كل يوم ، حتى يمكنه أن ينفق على نفسه ، سيميش بأقل القليل ، والحمد لله ، لا أحد وراه ، ولا أحد أمامه ، ما من مسئولية تثقل عاتقه إلا مسئولية نفسه ، تختلط الشوارع المؤدية إلى الأزهر ، إلى الحسين ، إلى جهينة البعيدة ، تتداخل المقاهي ودكاكين المانيفاتورة ، والسجاد ، والنحاس ، والفضة المصقولة ، والفلاجات الجالسات على الرصيف ، أمامهن اقفاص الفراخ ، وأواني الجبن القريش ، وقرب مملوءة باللبن الرائب ، وأكوام البصل الأخضر ، وأقراص الحلوى ، والملاءات اللف ، الأرداف واضحة المعالم ، البراقع ، اليشمك الذهبي ، وجه مستدير وعينان مكحولتان ، نساء مصر ، آه منهن ، يوماً ما سيكون له بيت ، وامرأة تنتظر عودته ، واطفال يتهللون عندما يرونه ، يتعلقون به ، يمتطون ظهره ، يحبو بهم ، يصحبهم إلى الحدائق ، إلى الحسين ، إلى مقهى العجم ، إلى المتحف ، إلى المعارف والأحياب ، أطفال لا يعرفون الشقاء الذي عرفه ، ولا الغلب الذي ذاقه ، إذا طلبوا منه ورغبوا اتى إليهم بما يطلبون وبما يرغبون ..

عند هذا الحد انتهى الكشف ، أغمض أبي عينيه نائماً ، ولم يكن من اسرار هذا الكشف الولوج إلى احلامه ، أو الاطلاع على مكوناتها ، انتهى الكشف وعندى ألم عظيم ، آخر صور ترد عليه قبل نومه ، قبل انحلل يقلتته ، رأى قوامها بيت ، فيه امرأة ، وأطفال ، وباب يعلق عليهم معه ، ورائحة طعام تنتظره بعد رجوعه من عمل لم يتضح له .. صرت فى وجد غريب ، معذب لى ، قاس برفته على ، وبعد انتهاء الكشف ذهني فوق هذا خوف عجيب ، خاصة واننى لم أدر الخطوة التالية من ذلك الموقف . تعاطم خوفاً وتسربت البرودة الثلجية إلى أعماق ، تخلخل عضدى ، واضطرب داخلي ، فكأنى افق عند نهاية الدنيا وأوشك على الفقد الذى لاراد بعده ، وعند هذا الحد الذى

كدت أتهاوى معه ، نوديت بصوت هو صوت محبوبة قديمة لى تأنيساً لى ، فحنتت إلى ذلك وتعجبت من سماع هذا اللسان فى ذلك الموقف ، ولم أدر المراد بى ، هدأت ، ولكن لم يخف عذابى ، ولم تن وحلقى ، بعد حين لم أدر مقداره بان لى عبد الناصر ، وعرفت أنه فى هجاج مروع ، وانه يقاسى محناً جمة ، وانه مطلوب ، وانهم جادون فى اثره. وانه يسمى إلى الاختفاء وما من معين . انه مهجور من صحبه ، من العصر الذى صال فيه وجال ، وقف وشفخ ، أقام وشيد ، حدثت ، فرأيتة يمشى فى الشارع المؤدى إلى القرن ، إلى حيث يعمل أبى ، وعرفت أن لعبد الناصر فى هذا الموقف وجودين ، فوجود طبيعى ، من حيث انه طالب فى مدرسة ثانوية بالإسكندرية ، يرتدى الطربوش والبذلة ، نحيف ، طويل القامة ، كبير الأنف ، إذن .. استطيع تحديد العلامة الزمنية ، النصف الأول من الثلاثينيات ، لكننى رددت خائباً عندما تذكرت ان لكل موجود فى هذا الموقف زمانه ، وان الأزمنة متجاوزة ، متداخلة ، فلا حد ، ولا غد ولا أمس ، ولا فصل ، لا قبل ولا بعد لا علامة ، ولا ظاهرة طبيعية ، ولا حدث بعينه يمكن اتخاذه علامة ، لهذا لم أعرف ابدا كم مضى على أبى فى مصر مع أنى رأيت لحظة وصوله ، وعانيت كل ما عاناه جملة وليس تفصيلاً ، ولا شك ان ذلك لحكمة تخفى علىّ ولأمر يصعب وصولى إلى كنهه . أما الوجود الآخر لعبد الناصر، فوجوده فى تلك التجليات وهذا ملتقى ملء بالأسرار ، رأيتة يتوقف أمام القرن والوقت غروبى ، والسماء البادية فوق البيوت حمراء اللون ، واللبليل متأهب . قريب ، ويخرج إليه أبى ، إنه يعرفه ، وآية ذلك انه هس له ، وصافحه ، ثم سأله ..

جائع ؟

ها هو يهز رأسه ، يمشى أبى إلى جواره ، اتبين فى هذه اللحظة حفرة طويلة

ممتدة اسفل الجدران يحوى فيها ماء صاف لاتشوبه شائبة ، يطلب أبى منه ان ينتظره تحت عمود ينتهى بمصباح غازى لم يضا بعد ، يتجه أبى إلى دكان يبيع الفول والطعمية ، انه يعرف البائع ويناديه باسمه غير أبى لم أسممه ، يطلب منه أبى أن يتوصى به لأن ضيفاً عزيزاً نزل عليه من البلدة ، لم يشأ أبى أن يفصح عن اسم ضيفه ، أو درجة قرابته أو معرفته به ، إذن .. يعرف أبى ما أعرفه ، يعرف أنه مطارد ، وان أثره مقتنى ، وان فى صحبته خطراً ، وبالرغم من أن حظى عند هذه النقطة من الموقف كان المراقبة ، والرؤية لا غير ، فقد أتيج لى استعادة بعض مما عرفته ، كان أبى يتأثر ويحزن كلما سمع عن شخص كان عزيزاً ونال الزمن منه ، أو تبدل عليه الحال ، فنسيه قومه ، وهجره الذين التفوا حوله يوماً ، استعدت أسفه عندما جاء وزير سابق - نسيته اسمه الذى أخبرنى به - كان يقف بمدخل مكتب الاستعلامات متعباً بشيخوخته ، متكئاً إلى عصاه ، يطلبون منه إبراز بطاقته ، تصادف دخول أبى ، رآه فعرفه ، كان أبى بعد تقدمه فى العمر ، ينادونه : ياعم أحمد ، ولا يسندون إليه عملاً بعينه ، صار يقضى وقته كله فى المصلى ، إما مصلياً ، أو متمدداً فوق الأرض ، راحلاً بعينه عبر السقف إلى مجهول بعيد وكان بعض الموظفين القدامى يطلبون منه أن يقرأ لهم الفاتحة عند مقام الحسين ، عرف عنه فى تلك السنين التى كانت اخيرة بأنه من أحباب الحسين ، يقول أبى لموظفى الاستعلامات : ألا تعرفون معالى الوزير .. تفضل .. تفضل ياباشا ، ينظر إليه الرجل متسائلاً ، وهل تعرفنى يابنى ؟ . يخاطب أبى قائلاً : يابنى ، مع انه يتجاوز عمره ، لكن هذا شأن بعض من تولوا المسئولية زماً مديداً ، يقول أبى بصوت مرتفع ، صورتك معلقة فوق فى مكتب الوزير .. من لايعرف معاليك ؟ ، كان أبى يقول لى عند نهاية روايته متأسفاً : تصور .. لم يعرفه أحد ، دنيا ! ، كان يبدو عليه الأسف بعد عودته

من الذكرى السنوية لوفاة زعيم سياسى قديم من الصعيد ، يقول لى : تصور .. إن الذكرى لا يحضرها إلا ثلاثة أشخاص ، حتى أولاده لا يحضرون ، وبعد أن تموت زوجته فلن تقام أبداً . ها هو أبى يستدير حاملاً أرغفة ساخنة ، وجبنا ، وحلوى طحينية ، يتجه إلى عبد الناصر ، يمشيان فى الظل ، يقول أبى لنفسه - وقد وقفت على حديثه الصامت - إنه كان مهدداً دائماً بالفصل ، كان باستطاعة أى مدير أن يفصله لأنفه سبب ، أن يحرمه من رزقه ، ورزق عياله ، لكن بعد أن جاء عبد الناصر انتهى ذلك ، يقول لنفسه كما قال لى مراراً بنفس الألفاظ نفس الإيقاع ، لقد انصف عبد الناصر الضعيف من القوى والفقير من الغنى ، ولو لم يفعل ذلك لكفاه ، انه يمشى الآن ، عنده تأثير عظيم ، فعبد الناصر الذى لن يراه الا من خلال زحام المواكب ، مخذول ، مطارد ، الزمن الذى أراه زمن الثلاثينيات ، هذا مؤكد ، فأبى وحيد ، لم يتزوج بعد ، وهو يعمل فى القرن ، وراتبه اليومى أربعة قروش لا تزيد وإنما قد تنقص إذا أخطأ . أما عبد الناصر فيمت إلى زمن بعيد سياتى ، يستدعى أبى ما تم فى المستقبل كأنه ماض ، فيصير كل ما سيحدث قد حدث ، وهذا غريب على ، وخارج طاقة مفاهيمى المحدودة . ومداركى الإنسانية ، ولم أفهم أبداً ، كيف يمت كل منها إلى زمن مختلف ، ويمشيان معاً ، يتحدثان ، ويأكلان ، وينظر كل منها إلى الآخر ، ولأن خطاهما تتابع ، فلم يعد بوسعى إلا تأجيل التساؤلات ، وتراكم الدهشة والروع ، ها هو يصحب عبد الناصر إلى حجرة صغيرة تقع فى بيت قديم فناؤه فسيح . تقف فيه عربة قديمة مهملة تغطيها شبكة صيد عريضة يتخلل اطرافها قواقع بحرية . تضىء المدخل لمبة صغيرة ، يتراقص فتيلها المشتعل عند أول هبة هواء ، دخلاً إلى البيت ، تراجعت إلى مدخل الحارة ، حارة الانشاء ، اتبع لى ان اطلع على اسم الحارة ، أما متى سكن أبى هذه الحجرة؟ كيف استأجرها؟ ،

فهذا ما لم أقف له على أجوبة ، ولو شاء سادق وأسيادى فى الديوان اطلاقى لأطلعونى ، وهنا استعدت أمراً حيرنى ، فبعد رحيل أبى عن دنيانا تلك ، اقتضى الأمر استخراج أوراق عديدة حتى يتم صرف المعاش الحكومى ، وقام أخى إسماعيل بذلك كله لغياي وسفرى المشوم ، وكانت إحدى البطاقات القديمة تحمل عنواناً لم نطلع عليه من قبل ، ولم ينم إلى علمنا أن والدى أقام به ، حارة الانشاء بمنطقة السيدة زينب ، حرنا ، متى آوى أبى إلى ذلك المكان الذى لم يذكره لنا قط ، متى رقد فوق هذا الموضع ، ومتى رآه بعينيه اللتين أدركهما الآن البلى وصاروا فوهتين مظلمتين ، هو لم يذكر لنا ذلك ، ولم يطلعنا على تلك الأيام التى قضاها فى حارة الانشاء ، وكان بعض من تقصيرنا اننا لم نسأله ، حاولت تفسير الأمر للحاطرى فقلت إنه ربما عنوان أحد أقاربه أو معارفه ، كتبه أبى فى بطاقته القديمة تلك عندما كان بلا عنوان ، بلا سكن يخصه ، بلا باب يعمل مفتاح رتاجه ويغلقه على نفسه ، ويرقد خلفه . لكن ها هو إمامى فى نفس ذلك العنوان ، نفس الحجرة ، كنت بمعزل عنها ، أراهما ولا يريانى ، اسمها ولا يسمعان تردد أنفاسى ، ولا يشمان رائحتى ، انتهت إلى اننى أجلس بينهما ، غير أن وضعى عجيب ، فأنا لا ألمس الأرض بمعدى ، إنما أتربع فى الهواء ، فى الفراغ ، وأتسكى على لا شىء . تبدو الحجرة كابية لخلوها من الأثاث تماماً دق أبى فى الجدار ثلاثة مسامير إلى الجدار ، علق إليها جلباباً وصديرياً وسريراً طويلاً ، فوق الأرض فرش سجادة منسوجة من بقايا قماش قديم ، عند طرفها الأيمن اسند حذاءه . كان يسند إليه رأسه كوسادة ، يبدو خجلاً من شحوب المكان وضيقه وعتمته ، لكن عبد الناصر يبدو راضياً ، يتخاطب مع أبى بالنظر ، فلا صوت يسمع لهما ، ولا تتهز شفاههما لمخارج الحروف ، وكنت افهم عنها ، عبد الناصر يقول إن الغربة انهكته ، لم يتخيل

يوماً أنه سيقاسى الغربية بأرض تقع على ضفتى النيل ، يجاوبه أبى بالنظر ، يطمئنه بدون نطق ، يقول عبد الناصر إن الشدة التى يقاسيها الآن فاقت كل ماعرفه ، لم يتصور أبداً أن تقع عيناه يوماً على هذا العلم فى قضاء مصر ، ويقرأ فى صحيفة مصرية ، يومية ، إعلاناً يدعو ناس مصر إلى قضاء العطلة الصيفية فى دولة إسرائيل ، قرب الميدان الذى مازال اسمه التحرير توقف أمام شركة سياحية ، ينطق اسمها بالإنجليزية ، ويكتب بالحروف العربية ، قرأ لافتة معلقة على الواجهة الزجاجية ، أسعار الرحلات للفرد وللوفود الجماعية . مواعيد قيام الأوتوبيسات المكيفة ، والطائرات ، من تل أبيب إلى القاهرة ومن القاهرة إلى تل أبيب . يشير أبى إلى الطعام حتى لا يتوقف ضيفه ، بينما يبطئ من المضغ ، يأكل القليل خشية ألا تكفيها الكمية ، كما أنه لن ينهى طعامه إلا إذا اكتفى الضيف . من الممكن أن يتحمل قلة الشبع ، أن يتام بجوعه ، ولكن الضيف يجب ان يشبع ، يتابع عبد الناصر التعبير عن مكنون نفسه بالنظر فيقول إنه عندما جاء إلى ذلك الزمان وجد الناس فى دهشة ، وبعد دخوله السجن ، وهروبه منه وتجوله بين الحلق رصد شحوب هذه الدهشة ، بل إن الكثيرين اعتادوا تلك الأخبار عن سفرهم ، وعن وجودهم ، وقراءة ومشاهدة بعض المسئولين هنا يشيدون بالعلاقات الودية ، قلت عندئذ من موضعى وبالتنطق : بعض هؤلاء أنت تعرفهم ، كانوا على مقربة منك . لاحظت ان صوتى لم يصل إليهما فلزمت السكوت وان لاحظت إطراره أبى ، وخيل لى أنه يود لو قال ما قلته لكنه آثر ألا يؤلم الرجل فى محنته ، ولما فهمت ذلك لمت رعوتى . يقول عبد الناصر : لم يتبغى إلا قلة . يقول أبى : القلة أول حد الكثرة . يقول عبد الناصر : الناس عابسة وجوههم ، الملامح تغيرت . يقول أبى : هذا زمن صعب ، يقول عبد الناصر : فى جولانى القديمة كنت أرقب أقدام المارة ،

أراهم يرتدون الأحذية ، الحذاء قليل ، فينشر صدرى وأنا مرتاحاً ، أعرف
اننى على الطريق السليم وان تعاظمت الصعاب . يقول أبى : حقاً .. لقد
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى . يقول عبد الناصر : اليوم عندما كنت فى
الطريق إليك رأيت امرأة ترتدى جلباباً أسود ، تحمل رضيعاً ، وتمسك بيد
طفل صغير ربما فى الخامسة ، ربما فى السادسة ، والطفل حافى القدمين بينا
الشمس متقدة ، والأرض ملتهبة .. تردى الحال ، أبى غريب هاهنا . يسط
أبى يده ملامساً موضع قلبه : وأنا غريب مثلك ، ولكن الغريب للغريب
نسب ، وبالغريب والغريب معاً تنتفى العربة . يتهد عبد الناصر بالأنفاس ،
يتساءل : كيف جرى هذا كله ؟ عندئذ لم استطع أن امنع نفسى عن النطق
قلت : تركت لنا خليفة السوء ، انت الذى اخترته ، خليفتك هو الذى قوض
عهديك ، كررت : انت الذى اخترته ، لم يسمعى ، واضمرت السؤال ، حتى
إذا ما زالت الحجب بينى وبينه واجهته به ، وطلبت الاجابة ، رحمت أتابع أبى
عندما قام لينفض التراب عن السجادة ، يفردها ، يرجوه بالنظر أن يتمدد ،
يسأل عبد الناصر : وأنت .. اين ستنام ؟ ، يقول أبى إنه اعتاد الشقاء طوال
عمره ، ولا شىء يريحه مثل الأرض . يقول عبد الناصر : نم إلى جوارى . لكن
أبى يرجوه أن ينام فهدا ينتظرهم سفر عظيم . عظيم ، هكذا وصف أبى ذلك
الرحيل ، ولم أقف على سر ، ولم أدركه الطريق . ولم أعلم الوجهة ، وإن
داخلى خوف من هجوم مفاجئ ، يقول أبى : إذا قلت ليلاً أو احتجت أى
شىء - أيقظنى ولا تردد ، لا يييب إنما يتمدد صامتاً ، متأثراً بما يديه أبى
تجاهه ، لا يزال فى العالم خير : هذا رجل فقير لم يكن باستطاعته مد يده للملاسة
يدى . كان نائياً عنى وكنت بمنزل عنه . وها هو يعرض نفسه لخطر جسم غير
مبال ، يوفر لى اللقمة والمأوى ، أما الذين عرفونى ، وسعوا للقرب منى ،

واقفوا خطاي ، فيستصون اخبارى ، ويقتنون اثرى ، يريدون اقتلاع عودى
ونفي عن عصر راق لهم ، يتمدد عبد الناصر ، تبدو قامته أطول في رقدته مما
تبدو في وقوفه ، نام ونام أبى ، ولم أمم ، ولم يطرق الوسن جفنى وهنا فائدة لا
بد من ابرازها ، فنذ رضاء الديوان عنى ، والسماح لى ، فقد انتفت عنى بعض
الصفات الجسمية المصاحبة للطبيعة الإنسانية ومن ذلك دوام يقظتى وانتفاء
النوم عنى ، فلا نوم ولا اغفاه انما يقظة دائمة يتوهج خلالها وعى كأنه ضوء
ساطع ، وهذا مالم يعانهُ بشر ومالم يعرفه أنس من قبل ، ربما يشحب هذا
الضوء وبين لكنه لا يتقطع ، أما الثقلات ففاجئة . وهنا يجب ان أفصح قليلاً
أيها القارئ الكريم والولى الحميم ، فالحواجز كلها مرفوعة أمامى منذ ولوجى
الديوان . فلا زمان ، ولا مكان ، ولا حاجز حسياً ، ولا حاجز شعورياً ، ولا
حاجز أرضياً ولا فلكياً ، ومن ذلك انتقالى بيسر مع أنفاسى ، من حال إلى حال
ومن زمن إلى زمن ومن حيز إلى حيز مع تغير أنفاسى ، فع شهبى انتقل إلى عصر
قادم ، وعند زفيرى أصير إلى زمن مضى ، أو أكون طفلاً ثم أصبح شيخاً ،
وسبحان من هو كل يوم فى شأن ، سنفرخ لكم أيها الثقلان . لكن يجب التنويه
والإشارة إلى أن رغبتى أو قدرتى ليستا المحرك لانتقالى أو مشاهدتى ، إنما كنت
مستسلماً لمن شاء ربى ان تكون مقاديرى بيده ، فحيناً يعذبنى ، وحيناً ينعمنى ،
ولكن أبيع لى كل ما يباح للخواطر والمشاعر الإنسانية ، ومن ذلك التساؤل ،
والندم ، والدهشة ، والخوف ، والحزن ، والحنين ، والروع ، والفرع ، والألم
الحسى ، والمعنوى ، كذا الفضول ، والضيق ، والسخط ، وسائر الأحوال التى
تعرفها الطبيعة البشرية ، وهكذا لم أعرف النوم فى تلك الليلة لأن النوم غريب
عنى فى رحلى الدائم هذا . بقيت جالساً معلقاً فى الفراغ مشرفاً على رقاد
جسديها مطلاً عليها ، أحصى أنفاسها ، واصغى إلى الليل ، صرت بمثابة

الحارس لنومها من كل طارق مفاجئ ، أو كابوس مفزع . أو حلم ثقيل ، أو ألم يقض مضجعها . كان أخشى ما أخشاه هجمة مباغته ، فأنبها قبل فوات الأوان ، غير أن سهري عليها ولى ، كذا حرصى ، كما ينتهى كل شيء ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، شقشق الفجر وتنفس ، وهاهو الصبح يصعس ، يقوم أبى معاذراً إيقاظ ضيفه ، يخرج ، ثم يرجع حاملاً علبة من الصفيح مملوءة باللبن الساخن ، يسكب محتوياتها فى كوبين زجاجيين ، برق يهز كتف عبد الناصر ، يخرجان معاً قبل أن يكثر المارة فى الطرقات ، ويتعاطم السعى والخطر ، تبعتهما ، ونالت منى الدهشة عندما خطوا وخطوت خلفها ، خرجا وخرجت وراءهما ، زالت حارة الانشاء ، اختفت البيوت ، تبدلت الأرض غير الأرض ، والمصر بغير المصر ، تلك أرض مجدبة مؤدية إلى كربلاء ، إلى الكوفة ، وعندما حاذيتها لأتملى من ملاحظتها ، رأيتها مصبوغة بلامح هذا الزمن البعيد ، فلكل عصر قسيات بشرية ، عرفت ان هذا الموقف آذن بانتهاء ، والسلام ..

موقف

النلم

فلا يخوضن غمرات هذا الجهاد
إلا موثقى سعيد يمشى
على الأرض حياً وهو شهيد

.. عندما وصل أبى بصحبة عبد الناصر إلى زمن الكوفة القديم كان مفصولاً من عمله ، فاقداً لمورد رزقه الوحيد ، وسبب ذلك خطاب وصل

إليه من أحد أقاربه في البلدة ، كتب على المظروف هذا العنوان : إلى حضرة
المحترم الرمالي بك صاحب أفران الرمالي ، ومنه إلى المحترم أحمد الغيطاني .
تساءل البك بدهشة : من يكون هذا ؟ فقيل له إنه عامل بقرن الحبز
البلدي ، فغضب غضباً عظيماً ، وتعجب من تلك الواقعة ، كيف يجزؤ
عامل فقير ان يجعل منه وسيطاً ، يتلقى رسائله عن طريقه ، ثم طلب من المعلم
أن يسوى حساب الغيطاني هذا ، وأن يخلى سبيله . قال أبي لعبد الناصر
وبيوت الكوفة تلوح من بعد ، والنخيل حولها باسقى ، والله ياسيدي لم أعط
عنواني لأى إنسان . ولكنه تدير من عمى لأخسر عملى وأفقد رزقى . قال
لعبد الناصر : أحسن سننى تلك التى قضيتها بالقرن ، قال عبد الناصر : كل
ماض يبدو لمن عاشه جميلاً حتى وإن امتلأ بالصعاب . يبدو أبى حزيناً ،
يقول عبد الناصر مخففاً : ولكن لولا الوظيفة لما تزوجت ، ولما أنجبت ذريتك
التي عاش منها أربعة . لاحت الحسرة فى صوت أبى : أربعة .. ماذا فعل لى
أولادى الأربعة ؟ قال عبد الناصر : أنت ربيتهم أحسن تربية . وعلمتهم ،
لا تتأسف يا أحمد على مافات واغفر لهم وسامحهم . قال أبى متداركاً : لا
أتحامل ولكننى أعاتب ، وقبل خروجى من الدنيا ، قلت لهم سامحونى .
فسامحونى ، ومن أسنى أن أنفاسى لم تسعفى ، كذا وهن قلبي ، فلم انطق
بغفرانى لهم ، ولم يسمعوا الكلمة منى ، ويعلم ربى انى حافظ حتى الآن
ودهم ، ومن حين إلى حين أرجو الذهاب إليهم فأطوف بهم ، أراهم ولا
يرونى ، وأسمع منهم ولا يسمعونى لم يكن ابنى جبال الأكبر حاضراً لحظة
فراقى الدنيا ، وكنت مستوحشاً ذلك الرحيل الذى لا أدرى إلى أين يؤدى
بى . وعند مفارقة روحى لجسدى زعقت زعقة أيقظته من رقاذه فى هذا البلد
الغريب ، البعيد . غير أنى هدهدت روحه كما كنت أهدهده صغيراً .

طمأنته ، فعاد إلى سباته . يتهدأ أبي : الأولاد .. والله وحشوني الأولاد . وهنا جريت حتى حاذيته . أوليته وجهي . صحت : انظر .. اني بجانبك . غير أنه لم يسمعي ولم يرنى . فأطلت دمي ، وعدت أسعى في أثرهما وألقى في معارف أن من أسرار هذا الموقف ذلك الحاجز بيني وبينها . أراها واسمعهما ، ولكنها لا يشعرا بي ، وان حالى هو كوني تابعاً . لأننا معها أبداً ، وان كل ما أراه سيضاء بتلك الدرجة من النور الواهن ، الشاحب خفيف الحمرة والذي يتخلل السحب العالية أثر مغيب الشمس مباشرة . وان الرائحة المصاحبة لي في ذلك الموقف ، رائحة المطر العتيق الذي مضى على نزوله زمن وجمعت قطراته في شقوق رخوة أو حنايا نبات ، وتلك رائحة مؤلمة للشجون ، مشيرة لما مضى ، وان كل ما أسمعه يمت إلى مقام الصبا ، أما علوم هذا الموقف فكلها مندثرة ، ملغزة ، ولا مقابل لها في عالم الأسماء المعهود لنا ، يقول عبد الناصر : اني حزين مثلك ، حزين لأن من استأمته خانتي ، ومن وثقت به نقض عهودي . وهنا يقول أبي بحزم عجيب : أتيت لنا بتغليفة السوء . يصمت عبد الناصر ثم يقول : ابتعدنا كثيراً . يقول أبي الذي هو ثاني اثنين يلجان ليل الكوفة : لانتحزن ان الله معنا ومنذ هذه اللحظة ، وعلى أثر هذا القول افترقا . مضى كل منهما في درب غير الدرب الذي مضى فيه الآخر ، كذا انقطع نظري عنها ، وغابت اخبارهما ، عدت غريباً ، فقلت لأتدبر ما مررت به ، ولأتمن فيما سطرته ولأسترجع فيما ذكرته ، ولتأخذني عبرة من البصر لبصيرتي ، ومن سرى لسريري ، فقد استشعرت ديب الحن ، وزمن الكدورات ، فإن اهتديت فقد عرفت ، وان تعاميت بعدما رأيت ما رأيت فقد وهبت . ملكنتي الزفرات الحرى شوقاً إليهما ، كما اختنق حلقى بغصة عندما رأيتها أول مرة خوف الفراق ، تزايد شحوني ، وغزاني ضيق سرمدى ،

وتساءلت : هل سيسعى ابني أو أحد احفادي في اثرى ، ويلج الديوان بحثاً عن ذكرى بعد أن أكون قد صرت نسياً منسياً ودهرى كله قد ولى ، وكأنه لم يك شيئاً ؟. تبدل وضعى ، فصرت جالساً فى مسجد قديم من مساجد الكوفة ، أرضه مغطاة بالحصير ، وسقفه من جذوع النخيل ، أصبحت قاعداً بين القاعدين ، فى مواجهتى أبى ، واجهته بعينى وكيانى . وعند هذا الحد من ذلك الموقف سمح لى بأن أراه بجواسى كافة ، وكان يبدو فى عمر لم أعرفه فيه ، فلا هو شبابه ، ولا هو شيخوخته ، يتحدث إلى القوم مذكراً إياهم بتخاذلم عن نصره الحسين ، مثيراً فيهم التلاوم ، موقداً جذوة الندم . ثم تبدل موقعى فصرت مراقباً لجلسة داخل بيت فسيح لوجيه من وجهاء الكوفة ، انه سليمان بن صرد الخزاعى ، وهو رجل كان له صحبة مع النبى . عليه الصلاة والسلام ، عرفه ، وجلس إليه ، وسمع منه مباشرة أما بقية القوم فهم ، المسيب بن نجبة الفزارى ، وكان من أصحاب على وخيارهم ، وعبد الله بن سعد بن نفيلى الأزدي ، وعبد الله بن وائل التميمى ، ورفاعة بن شداد البجلي . يتحدث إليهم بعربية فصحة لم أسمع لسانه ينطق بها ، أبى الذى عاش ما يقرب من نصف قرن فى مصر لم يغير لهجته الصعيدية أبداً ، ولم يتكلم تلك اللهجة القاهرية ، حتى انى كنت أتحجب من التحدث بها فى حضرته ، أو فى حضوره أسمى ، فيقلب لسانى ، وأتكلم كما يتكلم هو وكما سمعته منذ أن وعيت ، وحتى فراقى له ظهر يوم الجمعة قبل سفرى المشثوم . عندما نظر إلى وأطال النظر ، يتحدث أبى إلى وجهاء القوم : لقد ابتليتم بطول العمر ، والتعرض لطول الفتن فارغبوا إلى ربكم ألا يجعلكم ممن يقول لهم غداً « أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » ، قال أمير المؤمنين على أن العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ، وليس

فيكم رجل إلا وقد بلغه ، لقد بلغتكم كتب الحسين ، وقدمت عليكم
رسله ، وأعذر إليكم يسألكم نصره عوداً وبدعاً وعلانية وسراً ، فبخلتم عنه
بأنفسكم حتى قتل إلى جانبكم . لا أنتم نصرتموه بأيديكم ، ولا جادلتم عنه
بألبستكم . ولا قويتموه بأولادكم وأموالكم ، فما عذركم إلى ربكم ، وعند
لقاء نبيكم وقد قتل فيكم ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ، لا .. والله ، لا
عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك .. ثم تبدل
موقفي فأصبحت مصغياً مع مصغين آخرين إلى أبي ، المكان سوق الكوفة
داخل خيمة منسوجة من شعر الجمل ، يقول : إني والله لخائف ألا يكون
آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه العيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل
فيه الجور أولى الفضل . كنتم تمدون اعناقكم إلى قدوم آل نبينا ونمئهم بالنصر
وتخونهم على القدم ، فلما قدموا توائمت ، وعجزتم وتربصتم ، وانتظرت ما يكون
حتى قتل فيكم ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل
يستصرخ فلا يصرخ ، ويسأل النصف فلا يعطاه ، اتخذه الفاسقون غرضاً
للليل ودربة للرماح حتى قتلوه ، عدوا عليه فسلبوه ، وما أن فرغ أبي ، حتى
وقف أحد القوم واسمه خالد بن سعد بن نفيل فقال : أما أنا فوالله لو أعلم أن
قتلى نفسى يخرجنى من ذنبي ، ويرضى ربيها لقتلتها . ولكن هذا أمر به قوم كانوا
قبلنا ونهينا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين ان كل ما أصبحت أملكه
سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين ، أقويهم به على قتال
الفاستين . يقوم رجل اسمه المعتز حنش بن ريبة الكنانى ، يقول : وأنا
أشهدكم على مثل ذلك .

ثم يقف رجل لا يكشف لى اسمه فيقول : وأنا .

ويقول آخر أسود الوجه مثل ذلك ، يقول آخرون ما قاله الأولون ، ينزل

صمت ، ويقوى الضوء الشفقي ، ولما عاودت النظر كان أبي قد ذهب ، فانفجرت فجوة في صدري ، كذا في صدور القوم ، يذرفون دموعاً سخية . يندمون ، وتقول الأفئدة الموجوعة : ليتنا وقفنا إلى جانب الحسين . ليتنا متنا معه . وتدور عيناي بحثاً عن أثر أبي بيما يقول فكراً لهم . لماذا الحسرة وقد فات الأوان؟ كان بجرمي النظر منكم ، ولما مضى ، لما انقضى تحركت الضمائر واستيقظت المشاعر ، خلق الإنسان من الندم ، درت بعيني غير أنني لم ألقه ، تضيبت مواطئى خطاى ، وأوغلت في دروب الغربة ، واضطربت أحوالى ، فلا جلوس يريحى ولا نوم يأتينى ، ولا وقوف يشغلنى ولا مشى يلهينى ، ولا السعى إليه يوصلنى ، اشتد على الندم فأثخنتى عناصره من كل صوب ، رزحت تحت وطأة العكارة . وتركز كيانى حول لحظة فائتة . مرت بي ، وموقعها يوم الأربعاء السابق على سفرى ، لم أكن أدرى يوم الأربعاء أنه بقى لأبى ثلاثة عشر يوماً ، ولم أكن أعلم يوم سفرى أنه قد بقى له عشرة أيام ، تبدو الأيام التى تسبق اليوم المعين عادية ، تكرر كرها بكل ما تحفل به ، لا تبدو نذر ولا تلوح علامات وان كان الأمر يختلف بالنسبة للإنسان الموشك على الرحيل ، فثمة شيء غامض يتحرك عنده وينذرته باقتراب الموت ، ولا يحدده ، بل يوحى به ويشى بخطاه الخفية ، بأنه مقرب من جهة ما غير محددة ، انه قريب ، وانه سيطبق بعد حين لم يطل ، وقد عرفت فيما بعد شواهد جمة أكدت لى ان أبى استشعر دنو يومه قبل وقت أبعد مما ظننت ، وسأذكرها في موضعها ان شاء ربي الكريم وأمد في أجلى حتى أدون ذلك ، لاتدرى نفس نأى أرض تموت ، وانى لأسأل نفسى مرة أخرى عن تلك البقعة من الأرض التى سأسند إليها رأسى ، وأغمض عيني تاهباً لرحيلى ، أين هى ، وفي أى حيز تقع؟ كل ما يمر بنا في تلك الأيام القليلة التى تسبق الموت

لا يلفت النظر ولا يستوقفه ، فإذا ما وقعت الواقعة ، استعدنا ذلك .
وسرعان ما نستعيد الحوارات ، نذكر أدق التفاصيل ، والإيماءات وحركات
الأيدي ، تبدو كل جملة لفظت أو كل نظرة ذات دلالة ، منبئة بما سيلي
ذلك ، تماماً كالمرّة الأولى التي يطالعنا فيها وجه الحبيب ، فالمرّة الأخيرة التي
لن يتكرر بعدها لقاء . من عمر التواصل ، من مرّات الأنس والبشرى
والمفاجأة والخلاف والنشوة نذكر دائماً البداية والنهاية في يوم الأربعاء
المنقضى هذا ، كنت في زيارة لصديق انجز عملاً ، وكان مكان زيارتي على
مسيرة ربع ساعة من مكان عمل أبي ، كانت الساعة تتجاوز الواحدة ظهراً
عندما انصرفت ومشيت عدة خطوات ، وهنا خطر لي خاطر ، ان أعرج على
الوزارة ، في مثل هذا الوقت يعود أبي إلى القسم الذي يعمل فيه ليوثق في
دفتر الانصراف ، ابهجني الخاطر ، فعندما يراني سيرس كثيراً ، سيربك قليلاً
لفرط بهجته في البداية سيطلب مني أن أمكث قليلاً حتى اشرب شايًا أو
قهوة ، وقد يطلب مني أن أصحبه لأصافح بعض الموظفين القدامى ، يقدم
ابنه الأكبر إلى من عرفوه منذ عشرات السنين يتحمل الضيق ويقاسي الشدائد
ليربي أولاده . قلت لنفسى : كان يصحبنا إلى كل مكان في طفولتنا ، في
الطريق يلي رغباتنا ، فلما شببنا واشتدت سواعدنا واستقلت عوائلنا واتسعت
مداركنا ، وتعددت علاقاتنا ، وهجرناه ولم نعد نصحبه ، ولم نعد ندرى شيئاً
عن رفاق طريقه ، وأناس وحدته ، سررت لما جال بخاطري ، ومشيت في
طريق إلى مبنى الوزارة ، توقفت عند مفترق ريثما أعبّر الطريق ، نظرت حولي
خوفاً ، من العربات المسرعة ، لمحت عربة خالية قادمة ، انحنيت قليلاً ،
ولحظة مرورها بمحاذاة صحت « باب اللوق ياريس » ، لم أتوقع وقوفه ،
خاصة أن الطرق المؤدية إلى باب اللوق مزدحمة وسائق عربات الأجرة

يرفضون الاستجابة ، غير أن السائق توقف ، أوأأ لى ، « تفضل » . كررت « باب اللوق » ، أوأأ مجيأاً ، يبدو أنه خارج إلى يوم عمله لتوه ، وبعض من السائقين يتجنبون الامتناع فى بداية يومهم خشية تعثر الرزق ومفاجآت الطريق ، مررت بسرعة أمام مبنى الوزارة الذى كان يضم أبى وقتئذ فى موضع ما منه ، أما الآن فقد خلا منه إلى الأبد ، ولم يعد أى أثر لإمكانية توقى رؤيته صدفة يعبر الميدان المؤدى إلى المدخل ، نظرت إلى المبنى ، لم يخرج مشروعى عن كونه خاطرة وفكرة لم تتحقق ورغبة لم تتجسد ، قلت لنفسى : سأزوره فى فرصة أخرى . هكذا ضننت عليه بمفاجأة كانت ستسره ، بددت فرحة كانت ستواتيه فى اليوم الثالث عشر المتبقى له ، لو أعرف ، ليتنى فعلت ، كنت فى مدينة الكوفة ، وفى زمن ينأى عن زمنى مئات الأعوام عندما دهمنى النوم المروع فبكيت ولكن بكأى لم يخفف مابنى . كيف ضيقت ما ضيقت وقد كان ذلك فى متناول يدى وملك يمينى ؟ إلى هذا الحد تشاغلتن عنه أو شغلتنى الدنيا . عصرت قبضتى يدى ، عضضت التواجذ ، تعازم ألى ، وعند هذا الحد من شروع هلاكى وبدء محوى شعرت بيد حانية تمس رأسى ، تطلعت فرأيت سيدنا شيخ العارفين ، مولأى محبى الدين ، نظرت إليه ، أذن لى ، فقممت من كبوقى مشى فتبعته ، كان مهيباً فى نظرى ، ذقنه من شعر أسود عميق ، طال صمته وحرته فى مغزى ظهوره لى عند هذا الحد من ذلك الموقف ، والعجيب اننى مع التركيز فيه ، ومع تردىدى .. نعمت بالصاحب والصحبة بعد معاناتى ، جعلنى الله ممن اقتفوا اثره ومشوا على مدرجته حتى التحق بدرجته ، أمين . غير أن ندمى لم يخف ولم يبل . بل زاد على ما هو أدمى وأمر ، فقد زال عنى الظل والفىء ، صرت فى قىظ لاهب ، فجأة نطق سيدنا فقال : .

عندك شيء ؟

جهزت على الفور بمكنونى ..

توسط لى باشيخ العارفين عند الديوان ، عند رئيسه الطاهرة ، عند
عضوية النورانيين ، عند حبيبي ورفيق هجرانى ودليل أسفارى والغائب عنى
منذ حين وليس لمن كان مثلى أن يسأل عن ..

يستمر شيخي فى النظر إلى ..

عندك شيء ؟

أصيح :

أريد أن تبدل هذه اللحظة تبديلاً ، أن أتذكرها فأتذكر انى مررت بأبى
وزرته ، أن استعيدها فأراه يستقبلنى ويتהלل لرؤيتى ويجلسنى إلى جواره ..

قال شيخ العارفين ..

هذا أمر صعب المرتقى ..

أقول .

ولكن ليس شيء على الله ببعيد ..

قال الإمام الأكبر :

بالأمس نسيت ، واليوم تُنسى ..

ثم قال ..

إن كنت ذا فطنة فقد أوامناً إليك بما هو الأمر عليك ، بل صرحنا بذلك
وتحملنا فى ذلك ما ينسب إلينا ..

قلت :

لكننى اليوم وحيد ..

غاب عنى فصرخت :

أمثلونى بين يدى مولاي الشهيد ..

عندئذ امطرتى الندم بوابله ، وبلغ من شدته أنه صرعنى وبعد حين لم أدر
مقداره أفقت ، ولكن ندمى بدأ من جديد .. من نفس اللحظة التى أدركت
فيها خطئى وجرمى وتقصيرى . ثم يتزايد حتى أفقد وعيى ، وأفبق لأعانيه من
جديد ، يولد مرة أخرى داخلى عفاً مرة إثر مرة إثر أخرى ، كنت عاجزاً عن
الخلاص منه أو التخفيف من وقعه ، لأنه داخلى ، وكيف أخرج منى ؟ وكلما
بلى تبدل ندماً عفاً ، وأنا لا أستطيع فككاً ، وتلك الشواظ تلهبنى ،
صرخت ..

أليس فى مقدوركم التخفيف عنى ؟

لم يجبنى أحد . ولم يرد صوت . وعند حد مقدر ظهر شيخنا مرة أخرى ،
اقترب منى فى دوامة عذابى حتى وقف وأنا ملقى صريع . رأسى بجذاء قدميه ،
انتظرت ، ولما سمعته يقول ..
أمازلت عند مطلبك ..

قلت

ليس ذلك بأمر بعيد ..

عندئذ أخرج من ثنايا جبهته نصلاً أبيض حامياً ، أمسك بشعر رأسى ،
أشهر النصل ، ثم هوى به ، ففصل رأسى عن جسدى . اقتلعه وأمسكه
بيده ، فصرت أنظر إلى جثة نفسى بلا رأس بينما يقطر الدم من رقبتى ،
ويتدفق من عروقى المجزوزة ، شعرت بيده تراخى عن شعرى ، وللحظة خيل
إلىّ أنه يمسك رأسى ، لكننى انتهت إلى أننى طاف ، معلق ، لقد صرت فى
خلق جديد ..

* * *

موقف النجم

« .. لا أقسم بمواقع النجوم
وإنه قسم لو تعلمون عظيم .. »
صدق الله العظيم

.. صرت رأساً بلا بدن ، وبدناً بلا رأس ، ولكم صعب علىّ حالي
ورثيت نفسي ، وأشفتت علىّ عندما رأيت بعيني رأسي جثتي بلا رأس أول
مرة ، واطلعت بعيني حواسي على رأسي الطافي المتقطع عن جذره ، عرفت
ان جمال الجسم البشري وكاله في اتصاله ، انه قائم على بعضه ، لو عزل عضو
عن سائر الجسد لبدأ بلا معنى ، غريباً في وجوده ، ضعيفاً في مظهره ، واهناً
في جوهره . مثيراً للراء ، للشجن ، أصبح لي ظلان بعد ان كان لي ظل
واحد ، اتبعه ويتبعني ، أطويه وأسطه وأحياناً يلفني ، لكن بدت ذراعي
غريبة عني ، خاصة يدي ، وأصابعي التي طالما ضممتها وفردتها وأمسكت بها
القرطاس والقلم ، في عزلة اعضاءي تجسد ضعف النشأة الإنسانية المجبولة على
الكل والجمع والوحدة ، رثيت لقدمي ، لصدرى ، لقضبي الذي عبثت به
في صغرى وكبرى ، وأولجته في فروج شتى ، أنه بمنأى عني ، لا يطاوعني ،
ولا يستجيب ، يدي لا تقدر على مداعبته ، أو الاحاطة به أو هدهدته ، لا
يتقدمني ولا يعبر عوالم انثوية ، لكم بدا رنواً وكأنه قد من خرقة بالية ،
رثيت لنفسي ، صار لكل عضو توجه مغاير ، هكذا ارتفع رأسي بعد أن
ألقيت نظرة التبايع على بقية جسمي ، سبحت في سماء مدينة الكوفة ، رأيت

من عل عال المدينة مضمومة ، ملمومة مضمدة بالنخيل والشجر ، ثم تزايد ارتفاعي فرأيت الكوفة وكربلاء معاً ، استعدت بأسي أحوالي في موقف الظلم . ورؤيتي لحبيبي ومولاي الحسين وهو محاصر ، ممنوع من ماء الفرات . حدثت ببصرى الجديده فرأيت ذلك الموضع الذي اجثت عنده رأس مولاي الطاهر ، وهذا موقع لا يعلمه الآن من البشر الفانين غيري ، ولا يمكن لآدمي تعيينه سوى ، لكنني لا استطيع البوح به في تدويني هذا ، لقد خصصت بذلك أثناء محنتي ، وما خصني لا يمكنني نشره إلا بإذن ، والاذن لم يقع ، لذا أسكت ، كنت غير قادر على التزول بذلك الموضع والوقوف به ، وابداء الحزن على ما جرى ، كما كنت غير قادر على التزول إلى كربلاء ، والوقوف عند مرقد سيدي وسيد ساداتي ، كيف أنزل وأنا بلا قدمين اسمي بهما ، كيف أطرق باباً من بيوتها وما من يد تأتمر بأمرى ، فأصافح من أشاء ، وأشير إلى من أشير . يستمر تحليقي في لحظات غروبية كايية ، ولم أكن أدري ما أفعله عندما يحىء الليل ، هل سأحط على الأرض خطأ ، أو آوى إلى قمة جبل يعصمني من الأذى المجهول ، أو أركن إلى موقع لا يلحق ما تبقى مني ضيق أو مضايقة . كنت لا أدري كيف سيكون مرقدى وهل سيكون لي استيقاظ ونام ، اضطجاع وركوع ، كنت محكوماً بخلفيتي الدنيوية ، لا قدرة لي على تصور ما سيلحق بي . قلت بلساني : فلأصبر على ما أصابني ، يطول تحليقي ، أسبح في غمام ، أعبره ويعبرني . وعندما بدأ الشفق يغمق ، بدأت أعرف جوعاً غريباً ، مريباً ، جديداً على أحوالي ، جوعاً شاحباً ، لكنه ثقيل ، لم أعهده أبداً ، لا يحركه خواء معدة ، ولا انقطاع زمن عن طعام ، ولا شهوة ، ولأنني مازلت قادراً على التشبيه والاستعارة حاولت أن أعثر له على مثل . وجدت صعوزية جمّة ، غير أن أقرب الأحوال امتلاء مائة بالبول

والعجز عن اطلاقه ، ربما يشبه مقدمات الاغماء ، غير انه ظل جوعاً لم أعرفه
قط . وعند حد معين لم أدر طبيعته الزمانية أو المكانيّة ، نوديت ..
ياجمال ..

نظرت إلى نقطة من السماء بعيدة ، لأنه لارقبه عندي ، فقد حركت
جفني وعيني ، كالعاجز ، الراقد ، بنظر حوله ولا يتغير موضعه ، ولا جسده ،
رأيت نقطة خضراء ، درجة ليست بزمردية ، ولا زرقية ، ولا ريبية ، أو
خريفية ، لا تقترب من الصفرة ، ولا من الزرقة ، ومن المعروف ان اللون
الأخضر ينشأ من اختلاط اللونين الأساسيين الأصفر والأزرق ، ويقدر غلبة
أحدهما على الآخر ، تتحدد درجة الخضرة ، أعلم ان من علوم هذا الموقف
علم الألوان ، واسرارها ، غير ان لون النقطة الأخضر لم تقع عيناي على
مثله ، مشع ، يراق ، وهادئ أيضاً ، واضح كزرقة البحر في المواضع
العميقة ، وفضية القمر في الليالي الصافية ، وضوء الصبح ، حدقت بعيني ،
تقرب النقطة الخضراء مني ، أستكين فلا أرحل ، إذا بها طائر لكنني لم أتبين
ملاحمه ، قادم من سمت القبلة ، يتيامن ثم يشرق ، ثم يطير إلى الجنوب ، ثم
يبعد تجاه الشمال ، كل هذا وهو في دنو مستمر مني ، حتى صار في مواجهتي
فإذا به ضياء خالص ، ونور صرف ، ومن ذلك تشكل الملامح الإنسانية التي
تعلقت بها غير مصدق ، وعندما اكتمل وجه الطائر الآدمي ، زعقت ..
أنت .. أنت .

لم أعرفه إلا في صور المحاكمة المطبوعة والمرئية . مدثراً بالبياض ، يلف
قضبان القفص الحديدى ، كذا صور الهجوم ، يندفع في قلب النهار ، عبر
مركز الضوء ، معه صحبة صدورهم عارية داخل مرمى الخطر كله ، يقتحم
النصبة ليلخص زمناً ، ويتقدّ أمه ، عرفته في الصور المرئية التي التقطت على

عجل ، ينزل من عربة النقل ، يلتقي القبلة ، ثم يعود في ثوان ليمسك المدفع ، عرفته بجيالي وها هو أمامي . حراً من كل قيد ، مكشوقاً من كافة الحجب ، طائراً أخضر من ضوء . هاهو يثبت جناحية حتى يستمر معلقاً في الفراغ ، أقول بجنان عظيم ..

خالد ، تكلمت أنا وفعلت أنت ، تمنيت أنا ، وتمنى غيري ، وأديت أنت ..

يهز رأسه الذي دقت ملامحه وصار في هيئة وحجم رأس طائر ، لم يجيني ، إنما قرب فه من في ، وكنت غير قادر على عناقه لأنني بلا ذراعين لا أقدر على الدنو منه لأنني مسير ، محكوم بمن يوجهني ، فإذا شاء تقدمت ، وإن رغب ارتفعت ، وإن اراد ابتعدت ، ليس بأمرى شيء ، ثبت وضعي في مواجهته ، فلم أضمه إلا بعيني ، ولم أحطه إلا بنظرائي ، كان عندي شجن مديد أود لو بحت به . لكن في تطلع إلي فه كما يتطلع الطفل إلى ثدي أمه قبل الرضاعة ، عندئذ قطر في في ثلاث قطرات من شراب طيب حلو يشبه عسل النحل المصفي ، لكنه ليس بالعسل ، تذوقت واستحسنت ، عرفت أنه اطعمني ما يشبه المن والسلوى ، فتحت عيني والشبع يملأني ، والجوع قصي عني ، نسيت مذاق أى طعام تناولته طيلة عمري . يرتفع خالد ، يثبت عند نقطة مرتفعة متطلعاً إلى رأسي وكأنه يطمئن عليّ ، عندئذ رأيت فجوة حمراء في مقدمة صدره ، بقعة ضوء قانٍ تقطر دعماً حقيقياً وكأن للضوء عروقاً ، بالضبط في موضع القلب ، صحت . هل تأملت ؟ .

جاءني صوته من موضع شروق الشمس ..
أعطاني الله من هذه القوة لكن الله قواني عليها ..

رأيت قطرات الدم تندمج بالفضاء الكوني ، تدور مع الأفلاك ، تولد مع
جديدها ولا تتدثر مع قديمها الذي حان أوان فثاته . رأيتها تمد الحمرة
المصاحبة لبزوغ الفجر على ضفتي النيل ، تصبغ اطراف النخيل ، وشواشي
الأشجار الفارحة . وفي عتمة الليل تستقر قطرة على هيئة نجم في السماء ، نجم
صغير بين النجوم التي تزحم السماء ، لكنه يفرد عن غيره بأمر جمه ،
وخصائص دقيقة . منها ما يظهر ، ومنها ما يخفى ، من ذلك انه لا يرى إلا في
سماه وادى النيل ، ولا يمكن رصده إلا من فوق تلال الوادى ، وجبل
المقطم ، وجبل عتاقة ، وجبل الجلالة ، وجبل موسى ، ومن ذرى كئبان
الصحراء الغربية ، لا يخفى طوال فصلى الربيع والحريف وينأى قليلاً . قليلاً
في فصلى الصيف والشتاء . يلمع عند تمام نضج المحاصيل ، واكتمال خضرة
الشجر ، ولعان عروق المناجم في ضوء النجوم ، وبخلاف النجوم كلها ،
يمكنك تحديد موضعه وضوئه القانى عبر السماء الغاصة بالأفلاك ، وهنا
أحاول أن آتيكم بقبس مما يختص به هذا النجم العجيب بين النجوم ، في
الطعام مثلاً يختص نجم الثريا بالحلاوة . والدب القطبي بالمرارة ، والسها
بالحرافة ، والشعري اليمانية بالدمومة . ولنجم خالد المذاق الطيب . وفي
الألوان ينسب السواد الحالك إلى السها . والبياض المشوب بصفرة إلى الدب
القطبي ، والشقرة إلى الشعري اليمانية وما ينتج عن امتزاج لونين إلى الثريا .
ولنجم خالد الحمرة القانية ، والزرقه البحرية ، والحضرة الضبابية . وفي
الأمكنة ، اخص الدب القطبي بالجبال الجرداء ، والصحارى ، والسجون ،
والشعري بالأراضى الحشنة ، ومواضع النيران ، والقلاع . وللثريا السهول ،
والبقاع ، والوهاد غير المأهولة ، وبيوت الملوك والسلاطين ، وللسها الرمال ،
والكئبان والأسواق الدائمة ، والأسواق الموسمية ، والمنازل القائمة على الطرق .

والنواصي المؤدية إلى البساتين . ولنجم خالد ، كل أرض سهلة ، والمدقات ،
 والمكان الندى ، والصفاف . كذا الأبنية العتيقة . وفي الطيور يختص الدب
 القطبي بالكراكي ، والبجع . والنعام ، أما الشعرى فبالديوك والقهارى ،
 وللثريا طيور المساء ، وطيور الليل ، والسها بالعصافير المهاجرة والأسراب ، أما
 نجم خالد فله النسر والعنديل والعقاب . ومن مراحل العمر ينسب إلى الدب
 القطبي الشيوخوخة ، والشباب إلى الثريا ، والفتوة إلى الشعرى ، والطفولة إلى
 السها ، ولنجم خالد العمر الجميل الذى ولى . وفي الأعضاء ينسب الرأس
 للدب ، والصدر والحصر والاليتين للثريا ، والكبد للشعرى اليمانية ،
 والذراعين ، وأطراف الأصابع للسها ، كذا الساقين ، ولنجم خالد القلب
 والشرايين . وفي الأنساب يختص الدب بالأجداد ، والسها بالأشقاء ، والثريا
 بالأمهات ، والشعرى بالآباء ، ولنجم خالد الأولاد وأولاد الأولاد . وفي
 الأخلاق الباطنة ينسب للدب اضطراب الرأى ، وللثريا التفكير والتأمل ،
 وللشعرى الغضب والحمق ، وللسها الزهو والاستقالة والذكاء ، والفتنة ،
 ولنجم خالد الحلم والثورة . وفي الأشجار يختص الدب بالكافور ، والشعرى
 بالورد الفارسى ، والسها بالصنوبر والأرز ، والصندل الأبيض ، والثرى
 بالأنوس ، ولنجم خالد النخيل والصفصاف . وفي الأصوات . للدب
 المهمة . وللشعرى الحديد بصوت خفيض ، وللسها همس ، وللثريا
 الصباح ، ولنجم خالد صرخة المولود الأولى أيها القارئ الحميم . هذا حزه
 من كل وما أوردته كل من بعض ، فالسر عظيم ارفع البصر حدق إلى
 الشرق ستره ، لامل النظر . ضوءه الواهن سيلفت انتباهك ، وكلما اطلت
 النظر اتضح لك كنهه واسفر لك عن تنف من سره . واذكر ان هذا النجم
 الوليد قطرة من دماء خالد الذى خلصك وخلصنى . هذا ما عرفته فى طفوى

ورحلى عبر الفراغات والفضاءات ، وبما أود قوله ، أنه سيأتي حين من الدهر
يهتدى به كل من يسمي في البر ، أو يخوض مياه النيل مسافراً ، غير أن
اكتشافه كعلامة ثابتة يحتاج إلى زمن ، وخبرة ، وعلم ، وطول دراية ، ودقة
ملاحظة . بالضبط كما انقضى وقت طويل وسنين لا يعرف مقدارها قبل أن
يكشف الإنسان موقع اللب والسها والثريا والشعري اليمانية وكوكبة العرس
وزحل والمشتري وأطراف المجرة ، ها أنا أنه وأشير ، لا أضن بمعارفي ، ولا
أجل بما اطلعت عليه ، وخصصت به في ذروة مختي بعد انفصال رأسي عن
جسدي . هأنذا أصرخ ، عسى أن يرى أهل وقومي ما رأيت ، وأن يعرفوا ما
عرفت ، وان يهتدوا إلى موقع ذلك النجم كما اهتديت ، فانتبه يا غافل ! .

* * *

موقف الشدة

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾

.. يارب خفف جروحاتي ، أنت السميع العليم ، تمنيت لو طال الحوار
واتصل ، لكن خالد ارتفع ، خلف عندي الرضا والامتلاء والشبع الغريب .
عرفت ان قدراً من الرحمة لحقتي ، وانتي قد لا أخلد في عذاب الندم الشديد ،
جعلني الله وجمل القراء والسامعين من أهل الرحمة الخالصة ، آمين . عرفت ان

ما حل بي من نعمة موقوته ترجع أسبابه إلى زمي الدنيوي ، وان لم أقف على
 تفاصيله ، وان وعدت اني سأطلع عليها فيما بعد . هذا الحكمة خفية ، ضمنت
 جهلي في رأسي ، واستسلمت لطفوي ، تبديل على الأحوال ، أميل مع كل
 ريح صرصر ، وأتههدد مع كل نسمة ، حتى رأيت من علي شائق الزمن
 السحيق ، فدرت في الفراغ ، وأوتيت البصر الحديد ، ها هو أبي وعبد الناصر
 يسعيان في صحراء قريبة من نهر الفرات ، معها جمع لم استطع ان أحصيه ،
 غير أنه لا يتجاوز العشرات ، أمكن لي تمييز بعض الملامح ، فرأيت صاحبي
 الذي استشهد ظهر الجمعة ، ورأيت « مازن أبو غزالة » ، وجمعاً من صحبه
 استشهدوا بعده ، بعضهم طبعت صورته ، وألصقت على الجدران ، ثم نزع
 في بلادى عندما أصبح العدو صديقاً وجاءت وفودهم تترى بغير قتال ، لمحت
 اصحاب بخالد الأربعة ، ألقى في معارفي انهم قاموا بمجهود جهيد ، بذروا الندم
 في نفوس القوم ، وحركوا الضمائر التي ماتت ولم تتحرك لنجدة الحسين ، وان
 الندم تحرك وقوى ، قام نفر هنا وهناك يطالب بدم الحسين ، والتأثر له ، لم أدر
 إلى أين وجهتهم ، هل يقصدون شخصاً بعينه ، أم أنهم يسعون خلف جماعة من
 قتلة الحسين ، خاصة وان عبد الناصر حدد اسماءهم ، وعين أماكن
 تواجدهم ، وبث العيون في أعقابهم ، ورصد سكناتهم وحركاتهم وتبع مواطني
 أقدامهم ، حتى يسهل الانقضاض على كل من رمى الحبيب بسهم أو صوب
 إليه مقلعاً أو أصابه بجرح ، هو وأهله وصحبه ، أما أبي فسعى إلى كل من
 خذل الحبيب . أوقد في الصدور ناراً بطيناً اشتعلها صعباً إخمادها ، وكان ذلك
 بداية ندم القوم واحزانهم على خذلانهم الحسين ، وعلى مصرعه حتى يومنا
 هذا . وإلى ان يحين الحين . لاحظت بدء نزول الليل ، حمت في عتمته
 حولهم ، تعرفت بجاسة شمي إلى رائحة أبي ، فاستعدت من جديد مرات عناقنا

النائية ولحظات قربنا ومرات صفائنا ، رأيت يدي اليمنى تسوى وتمهد الأرض الحشنة لمرقده أما يدي اليسرى فتهدس عنه وعن صحبه هوام الليل . وكان ذلك غريباً مستحدثاً علىّ . أن أرى عضواً من جسدي لا يأتمر بأمرى ، ولا يتحرك بإشارات خفية منى ، غير موصول بي ، مقطوعاً ما بينه وبينى ، ما بينى وبينى ، حمت فوقهم أرقب أخطار الليل لعلى أحذرهم ، أو أنذرهم ، كيف يصلهم صوتى ؟ هذا ما لم أعلمه . غير أننى قلت : ربما أتت النوايا بالوسائل . ولما دنا الصبح وانجلي قام عبد الناصر فحمد الله كثيراً واثنى عليه ، وبعد صلاة العداة قام خطيباً فى جمعه ، فقال بصوت حزين ، ونبرات ثكلى ، ذكرتنى بظهوره ليلة الثامن من يونيو ، وكانت مساء خميس ، وإعلانه الهزيمة ثم التنحى ، ها هو يبدأ فيقول :

« إن الله أذن فى فراقنا هذا اليوم فعليكم بالصبر واحتمال الشدة .. »
 ثم صفهم للحرب ، فكان تعدادهم سبعين ما بين راكب وراجل ، ونخيل إلى أنهم دون ذلك ، جعل مازناً فى الميمنة ، وحُسَيْن صاحب خالد فى الميسرة ، وأعطى رايته لأبى ، ثم أمر بحطب وقصب ان يترك فى موطن من الأرض يشبه الخندق مخافة أن يأتوهم من ورائهم . فنفعهم ذلك . ومن النقطة التى تعلقت بها فى الفراغ حملقت دهشاً ، مشمئزاً ، إذ رأيت من لا أطيع ذكره ، من خلف عبد الناصر فى حكم مصر - لعنه الله - ، أقبل فىفى فى الخلف ، جباناً كهمده فى عمره ، يدبر ويدفع بغيره ليفخذ ، وفى الوقت الملائم ينجو بنفسه ، كان فى عدة آلاف من الجنود ، وخدام الاحتكارات الأجنبية ، جنود يرتدون الحرب فى زمن ابن معاوية قاتل الحسين . وجنود يرتدون الزرى الحقى للموساد ، ومقاتلين من قوة الانتشار السريع الأمريكية ، ومرترقة مجهولى الهوية ، وأرباب بنوك ، وأصحاب شركات للمياه الغازية ، ومقاولين ،

وممارسة ، وتجار آثار ، وكانوا يرفعون راياتهم ، وعليها اعلانات عن اجهزة
تكيف للساخن والبارد ، وثلاجات ذات بابين ، وسيارات ، وعباءات .
حريرية ، وطائرات حربية تستخدم في أربعين جيشاً ، وطلاء جديد للأظافر
النسائية ، وماكينات حلاقة كهربائية وراية تعلن عن فوائد مصرفية . رام مازن
أن يرميهم بسهم فنهه عبد الناصر قائلاً : اكره ان أبدأهم بالرمية الأولى . ولما
نظر إلى جمعهم كالسيل ، إلى سلاحهم ، وإلى لافتات صوتية تطالبهم
بالاستسلام ، وصوت مذياع إسرائيلي يعلن في مكبر صوت يدوي : قف وفكر ،
سلم تسلم ، سنضمن لك جرعة ماء ، وطعاماً ، وأدوية ، رفع عبد الناصر يديه
بالدعاء وقال : اللهم انت ثقتي في كل كرب ، ورجائي عند كل شدة ، كم
رأيت من كرب يهن فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ،
ويشمت فيه العدو ، انزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك ، لم أكن أدرى
أن هؤلاء كانوا يجتمعون على النيل مني ويتوحدون على قصد واحد ، وهو
القضاء على ، ومحو أثرى ، وتشويه سيرتى . وقد كنت غافلاً عن ذلك الذى
يقودهم ، أنا من دفعته حتى وقف بجوارى وعينته نائباً لغيبتي وحضورى ،
وأعترف بعد فوات الأوان ان العشاة غطت عيني حيناً من الزمن ، وكان الثمن
الذى دفعته وسفحته بلادى وامتى باهظاً ..

يسود صمت للحظات ، يزعق بينهم زاعق ، وإذا به ضابط اسرائيلى
يرتدى غطاء الرأس القرمزى الخاص برجال المظلات ..

هل فيكم إبراهيم الرفاعى ؟

يصبح أبى مجيباً ..

نعم .. هذا هو .

ويشير إلى صاحبي الذى استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر ..

يزعق الضابط الاسرائيلي ..

هل فيكم ابراهيم زيدان ؟

يجيب ابي :

نعم .. هنا هو ..

ويشير إلى صاحبي الذي استشهد فوق التبة رقم سبعة شرق القناة . صباح

الأربعاء العاشر من اكتوبر ..

هل فيكم ابراهيم عبد التواب ؟

نعم .. هنا هو ..

يشير ابي إلى صاحبي الذي استشهد يوم الرابع عشر من يناير بعد مائة وأربعة

وثلاثين يوماً من الحصار في موقع كبريت شرق القناة ..

يضحك الضابط الاسرائيلي ، يضحك ، يضحك .

لماذا حاربتكم ؟ لماذا دربتكم ، وجاهدتم ، لماذا قُلتم ؟ أعلامنا في فضاء

بلادكم ، وجنودى مروا أمام بيوتكم ، والتقطوا الصور التذكارية عند

قبوركم ، وغازلوا بناتكم ، أما أنتم فقد نسيتم ولن يقوم ذكر لكم .. بل إن

اياماً لم تشهدوها يخشى بنو وطنكم فيها الاشادة بكم ، أو التلميح إليكم .

يزعق ابي ..

سأحرقك حرقاً ..

يردد المذيع الاسرائيلي :

قف وفكر ، سلم تسلم .

يقول ابي ..

اللهم خذه إلى النار ..

يتدفع ضابط المظلات الاسرائيلي راكباً فرساً ، كان بينه وبين ابي أرض

واطئة فعثر الفرس بجحر فتعلقت قدمه بالركاب ، أخذت الفرس تصرب به كل حجر وشجر حتى مات فوق ربوة يقف إبراهيم الرفاعي ، أراه مهموماً ، يداه تلامسان خصره تماماً كما عهدته في أيام الحرب الطوال ، غير ان ضيقاً يجعل ملامحه غريبة غنى ، هاهو يقرب من أبي ، يسأله ..
أصبح ما ذكره ذلك الضابط الاسرائيلي ..

أبي واجم ، تنزل به حيرة ، لا يدري ما يقول ، ينظر الرفاعي إلى جثة الضابط الاسرائيلي وبه غموض . قال ريتشارد آلن ضابط الاستخبارات الأمريكية وكان أحد الذين شهدوا ذلك الموقف : كنت في أول الخيل التي تقدمت لحرب عبد الناصر وصحبه ، وكنت معيناً كواحد من الحرس الخاص ، تقدمت لعل أصيب رأسه فأحظي بعلاوة أو ترقية . فلما رأيت ما جرى لضابط المظلات الاسرائيلي تشاءمت ، وتذكرت الجسارة التي بدت عند منصة العرض بعد ان أكدت لنا التقارير أن قومه وهنت عزائمهم ، وانهم انشغلوا بلقمة الخبز اليومية عن كل ما عداها بعد أن صيرناها عزيزة المنال عندهم ، خف حماسي ، تراجعت ، لن أزع بنفسي حتى لا ألقى ما ألقى .

ورأيت شيخاً جليلاً ، مهيباً ، قاهري المولد ، والنشأة والمات ، وهو أستاذي ، عظيم القدر ، صاحب الشرف ، والقدر ، والهبة ، هو من نصحتني بالتجلى ، لأن النائم يرى ما لا يراه اليقظان . تقدم ابن ياس من عبد الناصر ، طلب منه الاذن بالكلام ، فأذن له .. يتقدم ، ثم ينادى .

« . يامعشر القوم ، انكم تنقادون لأرذل الناس ، وأحطهم شأنًا وقدرًا ، من لم أعرف مثيلاً له بين من عرفت ، لو عنده عشر مقدار ما لدى أجبينكم من الشجاعة فليبرز الآن ، إنه يسمعي . أيها الجلف ، الداعر ، الجاني ، ألم تكن تهرع إلى عبد الناصر جاثياً ، ألم تجبن عن ملاقاته منفرداً ، وعن الاتصال به إلا

من خلال وسيط ؟ هل مخاطبته يوماً باسمه مجرداً كما ادعيت ؟ ألم تهال لكل ما
بدرمته ، ولكل ما أسفر عنه ؟ ثم ولاك فاستخلفت قلبت وتتكرت ، وعاديت
الفقراء والمعدومين وكل من كد لأجلهم ؟ حرضت ضده ، وضد مبادئه ، وهو
غائب لا يستطيع رداً أو دفاعاً ، وفرطت فيما فرطت ، وهذا لم يتفق مثله لخاير
بك سلفك الذى سلم مصر المحروسة إلى العثمانيين . لم ترع للماء هؤلاء حرمة ،
ولم تصن لهم ذكرى ، والآن تجمىء متخفياً محتبئاً وراء عدد وعدة ، وهم يولون
وجوههم تجاه الثأر لابن بنت رسول الله ، تمنع عنهم ماء الفرات كما منعه قتلة
حبيتنا ومولانا . تحول بين الماء وبين هذا الجمع شريف المقصد ..

يز الرفاعى رأسه أسى وحسرة ..

إذن ما قاله الضابط الإسرائيلى صحيح .. متنا بلا دية ..

يردد المذبذب الصهيونى ..

قف وفكر .. سلم تسلم ..

يصيح شيبث بن ربيعى أحد قتلة الحسين مخاطباً ابن إياس ..

اسكت أيها الشيخ الخرف ، قد أكثرت من الكلام فاكفف عنا ، ألم
يكفك ما دونت فى كتبك المهجورة التى لا يقرؤها أحد ، والله ليعطش الجمع
كما عطش الذين قبلهم .

يرتفع صوت ابن إياس ..

لاسقاكم الله يوم القيامة .. بشس القوم أنتم ..

يأمر الجلف الجافى برميه ، يصيه سهم فى كتفه ، يجرح ابن إياس .
رأيت أبى يصرخ ..

يا أتباع قتلة الحسين ، يا عبيد الأمة ، يا شذاذ الآفاق ، يا عسس ،
ياسماسرة ، يا قتلة أولاد الأنبياء ، والله ان الغدر فيكم لقديم يا أخبث ثمر ..

يسأل ولم كيزى مدير المخابرات المركزية ..

من هذا ؟

قيل لى انه رجل فقير ، لم تنشر الصحف اسمه ، ولم ير فى حفلات الاستقبال ، ولم يمش فى جنازته عليه القوم ، لم يتقدمها مندوب من رئاسة الجمهورية ، أو باقات زهور ، لم يمك طيلة حياته بالدولار ، كما أنه لم يعرف التوكيلات السياحية ، ولم ير البحر إلا مرتين عندما سافر إلى مدينة الإسكندرية فى مهمة رسمية ، ولم يجلس ساعة متصلة فى غرفة مكيفة الهواء ، ولم يرتد إلا ملابس مصنوعة من قماش محلى .

يقول موسى ديان ضاحكاً .

المحارب جمعاً فيه مثل هذا ؟ ، إننا لمتصرون ..

يردد المذيع ..

سلم تسلم ، أمامك الحياة الهينة فلا تكن من الهالكين ، من دعوكم تخلوا عنكم ، من وعدوكم بالمؤازرة خذلوكم ، أنتم محاصرون من جميع الجهات ، ولا أمل يرجى لكم ، أيها المحارب . قف وفكر البق برمحك ، حطم سيفك .. سلم سهامك ..

يتقدم أبى حاملاً الراية ، يمسكها بيد ، ويشهر سيفاً باليد الأخرى ، انه أول من برز إلى الحرب ، قاتل قتالاً شديداً حتى قتل نيفاً وأربعين رجلاً ، تكاثر الجمع عليه ، رأيت نصلاً يصيب ساقه ، وعرفت عندئذ أصل تلك الندبة الغائرة فى ساقه اليمنى ، والتي تأملتها طفلاً ، وتحسستها عندما كنت أقعد أمامه ، يداغبني وأداعبه ، وتأملتها كبيراً عندما كان جليابه ينحسر قليلاً ، غير أننى كنت أحميد ببصرى فلا استفسر ، تلك الندبة لا بد وانها اختفت الآن بعد ان دب البلى إلى جسمه فى القر ، وضاعت ضمن ماضع إلى الأبد من ملامحه طرت

مرتفعاً ، وطرت منخفضةً ، وعندما انجلى الغبار رأيت الراية في يد صاحبي إبراهيم عبد التواب ، لم أقف لأبي على أثر ، شغلت بالبحث عنه ، لكنني لم أره ، وعجبت ، وإن كان عجبى الآن أخف عن ذى قبل لكثرة ما رأيت ، وغرابة ما جرى لى ، أقول أيها الملقى القطن انه ألقى في فهمى اننى سألقى أبى مرات أخرى . وإن هذا ليس آخر عهدي به ، وإن ما أشهده وما شهدته ليس بالخط الأخير ، فالترحال مازال ممتداً ، وعلم مداه عند ربى ، سبحانه ، لا أشرك به أحداً . طمأننى إدراك ذلك . وعدده من علامات الرحمة لى ، والرفق بحالى ، مع إننى مجتث الرأس من القفا ، لاجسد لى ، دمي يقطر ، فيختلط بالغيوم والشفق ، والضوء الذى يسبق شروق الشمس ، ويندمج بقوس قزح ، لم أدر كيف سألقى أبى ، هل سأقبله كما قبلته من قبل ، أم أننى سأحوم حوله ، يفصلنا بعد ، ويمنعنا نأى ، وأنا مغموس فى الغربة ، أنظر إلى مايجرى ، فأرى خروج مازن «أبو غزالة» قاتل كالليث حتى قتل . يدعو له عبد الناصر..

اللهم ارحمه ، وادخله الجنة

يخرج إبراهيم زيدان ، ادقق النظر محاولاً متابعتهم ، غير أننى لم أقدر ، علا التراب ، وسال الدم ، أرى رشق السهام كالطر ، اصغى إلى عبد الناصر يقول لصحبه ...

قوموا رحمكم الله إلى الموت الذى لا بد منه ، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم ..

يخرج القاتنم محمد عبيد ، وقرآن مجهول الاسم قتل فى شارع مراسية بمنطقة السيدة زينب خلال ثورة العام التاسع عشر بعد الألف والتسعمائة .. يقولان لعبد الناصر..

السلام عليك يا أبا خالد ، انا جئنا لنقتل بين يديك ، وندفع عنك ..

يقول ..

يرحمكما الله ..

استدناهما منه ، فدنوا وهما دامعان ، قال ..

ما يبكيكما يا جنديّ العزيزين ، فوالله إني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريري العين ، قالأ : جعلنا الله فداء أمتنا ، ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك ، نراك وقد احيط بك ، كل من ادعى الولاء لك ولبلادك يوماً يقف حائلاً بينك وبين الماء ، قال : جزاكم الله خيراً .. قالأ : السلام عليك ورحمة الله يا نصير المهضومين والضعفاء ، قالأ : السلام عليكما ورحمة الله وبركاته ، فقاتلا بالقرب منه حتى قتلا .

وهنا سمعت اربيل شارون يقول للجلف الجافي : أندري من نقاتل ؟ إننا نقاتل فرسان العصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين ، لا يبرز إليهم أحد منا إلا قتلوه على قتلهم وصعوبة احوالهم ، ظننت ان ظهورنا المفاجئ الصاعق سيقضي عليهم ، ظننتهم سيستسلمون .

ثم حمل الجنرال موسى ديان على ميمنة عبد الناصر ، فثبتوا له ، وجثوا على الركب ، وشرعوا الرماح ، فلم تقدم الخيل ، ولما استدارت رشقها اصحاب عبد الناصر بالنبل ، فصرعوا جون فوستر دالاس ، موردخاي جور ، والعزيز هنري ، ثم حمل جمع من قوات الانتشار السريع على ميسرة عبد الناصر ، وثار من شدة القتال غبار شديد وما ان انجلى إلا ومصطفى أبو هاشم عامل البترول السويسى المنشأ والمات صريع ، وإلى جواره عويس بائع الفجل السريع الأرزقي ، ومرجان النوبى ، ومشى إليهم عبد الناصر ، قالأ : يرحمكما الله . يدنو الفريق عبد المنعم رياض ، يقولأ : يعز على مصرعكم ! أدعو الله أن يدخلكم الجنة . قال مصطفى أبو هاشم : بشرك الله بالخير ، قال الفريق عبد

المنعم رياض : لولا أنى أعلم ان فى الأثر من ساعى هذه لأحببت ان توصينى بكل ما أمك . فقال له مصطفى : إني أوصيك بهذه . وأشار إلى راية عبد الناصر ، ثم انشد :

نصروك أحياء وعند مماتهم
يوصى بنصرتك الشفيق شفيقا

ثم حمل جيمى كارتر ، فى جمع من أصحابه على أصحاب عبد الناصر ، فصدى لهم أحمد عرابى ومعه عشرة ، فكشفوهم وقتلوا منهم الكسندر هيج ، وقتل ثمانية من أصحاب عبد الناصر بينهم أحمد عرابى . كان الرجل بعد الرجل يأتى إليه فيقول : السلام عليكم ورحمة الله يا نصير الفقراء ، ونصير الوطن . فيجيبه عبد الناصر قائلاً : « عليك السلام ، ثم يقرأ : « ومنهم من قضى نجبه ومنه من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » ولم يتقضى وقت طويل حتى قتلوا جميعاً فيما عدا سبعة وقفوا يندودون عن عبد الناصر المهجمات الأخيرة ، سبعة لاغير ، وهم ماسح أهدية ، قتل أثناء قصف مدينة بورسعيد العشوائى ، ودفن تحت الردم ، ولم يسأل عنه أحد ، ولم يستفسر عن غيبته أحد ، ولم يتحر مصيره مخلوق لأنه كان غريباً ، كذا لم يعثر على جثته فى زمنه ، وغلام يرتدى زياً قديماً وعمامة خضراء صغيرة لم أدر إلى أى عصر ينتمى شفيق سدراك ، واحداً ممن عرفت ، ممن استشهدوا يوم السادس عشر من أكتوبر ، كذا رأيت جواد حسنى ، وعصام الدالى . وجندى مجهول الاسم عندى ، ورجل مغربى جاء إلى مصر عابراً وأقام فى زمن بعيد ، سمع بأخطار الفرنجة فخرج مع الخارجين للمغازاة فى سبيل الله . وقاتل حتى قتل . يبرز كل منهم إلى أثر صاحبه حتى لم يتبق إلا الغلام ، فعانق عبد الناصر عنقاً مريراً ، يتقدم راجلاً ، يعترضه الجنرال رفائيل ايتان ، يضربه فيصره ، ينادى الغلام ..

يا ابتاه عليك السلام منى ...

تهدم السهام ، والطلقات الحارقة الحارقة حتى يصير درع عبد الناصر
مرشوقاً كالقنفذ ، يبق مطروحاً على الأرض ملياً ، ولو رغبوا قتله لقلعوا ،
يصيح الجلف الجافي من بعيد ..
ومحکم .. ماذا تنتظرون ... اقتلوه ..

تحاملوا عليه من كل جانب . ضربه الجنرال أرييل شارون على كتفه الأيمن ،
وضربه جون فوستر دالاس على كتفه الأيسر . وضربه رونالد ريغان على عاتقه
ثم انتزع مناحيم بيغن الرمح قطعته في بوائى صدره . ورماه جيرالد فورد بسهم
فوقع في نحره ، وعندئذ اشاروا للجلف الجافي ، أذنوا له ، فتقدم عمياً بهم ،
صدره مغطى بالقميص الواقي ، حول معصمه ساعة تنذره بأى خطر قريب ،
وعصاً تحوى فيها تحوى جهازاً يطلق مادة مخدرة لمن يريد الاقتراب منه لإلحاق
الأذى به . وفيها بعد قالت صحيفة الواشنطن بوست إن حمايته كلفت دافع
الضرائب الأمريكى ثلاثة مليارات من الدولارات . هكذا يكون هو أعلى العبيد
سعراً منذ أن عرف العبيد ، عندما اقترب من عبد الناصر اعطوه سيقاً ، يغمض
عينيه ، يهوى بالسيف فيحترق الرقبة ، عندئذ بدأ القوم سلبه ، فأخذ قيصه
الجنرال الكسندر هيج ، واخذ سراويله عثمان أحمد عثمان المقاتل ، واخذ درعه
مناحيم بيجين ، واخذ قطيفة له كانت من خبز امرأة الجلف وزوجه لعنها الله .
وأخذ خاتمه الياهو بن اليسار ، واخذ فردة صندل كان يرتديه ذلك المذبح الذى
قرأ الانذار تلو الانذار .

كنت أحملق مذبحاً من الألم فوق ذبحى القعلى ، ها أنا أسمع وأرى ، ولا
أفعل ، لا أقدر ، هذا حبيب اكتملت دورته ، تجرعت الغصص ، فغمزنى
حال دونى ودون الرسم عندى ، يتأينى ضيق ، يلف ما تبقى منى ، غائب

ستطول غيبته عنى ، فلا وعوده ستتردد فى سمعى ، ولا صوته سيصرف عنى
ترحاً ، ولا ظهوره سيلوح لى ، وعندما تتردد سيرته ، سنقول ، كان هنا
يسعى ، وكان هنا يخطب ، وكان هنا يلوح ، وكان يعد .. كان . انتهت إلى
جالى ، وإذا بى ارفع وأعلو ، رأيت ما بين المشرق والمغرب مجللاً بسواد عقيم ،
دقت ، تحققت ، وعندئذ اطلعت على عجب عجاب ، انهن نساء مصر
كافة ، من أزمنة متعاقبة ، مختلفة ، من مضارب خيام ، وعشش بوص ،
وبيوت من الطين ، أزيأوهن متنوعة ، كذا أغطية رهوسهن ، لكن ما يجمع
بينهن أنهن مشحات بسواد قديم ، ينحن ، يبكين ، يتصرعن ، يرثين الليث
المولى ، ويجزعن للمركب الموحولة الخائفة ، رأيت جلدنى كما عرفتها فى طفولتى ،
نجيلة ، طويلة ، تلتحف بالشفة الصعيدية ، رأيت جلدنى أم أبى عمياء لآترى ،
رأيت جدة لى عاشت فى زمن بعيد ، رأيت أمى واختى وجارتنا القديمة وامرأتى
وزميلاتى وكل من وقعت عليهن عيناي صدفة فى طرقات مدينتى والقرى التى
رحلت إليها ، وبائعات فقيرات يفترشن الأرض بجوار الأضرحة ، والمزارات
وفساقى الموقى ، رأيت امرأة العزيز ، ورأيت شجرة الدر ، ونساء الأحياء البلدية
اللواتى خرجن متظاهرات ، رأيت نساء حاسرات ونساء محجبات ، نساء يقرآن
ويتحدثن بعدة ألسنة ، ونساء لا يميزن الحرف من الحرف ، رأيت نساء خرجن
من بطون الحوارى فى تلك الليلة المظلمة التى أعلن فيها عبد الناصر التنحى ،
كن حافيات ، يجهلن وجهتهن فى الظلام ، والمدينة الخائفة ، ارتفعت إلى
مسافات أعلى فغابت عنى اصواتهن ، عرفت انى رأيت حشداً لم يتفق ان يجمع
مثله من قبل فى عالمنا الأرضى ، وانهن لو وقفن صفاً واحداً لأحطن كوكبنا
الأرضى سبع مرات عند خط الاستواء ، تمنيت لو جلت بينهن ، لو اصغيت إلى
لغاتهن وهججتهن ، بعضها قديم مندر لم افهمه ، ومنها الذى لم تولد حروفه بعد ،

غير اننى تأيت ، ابطأ زمنى ، ركلت الحسرة فى قوادى ، رددت : صبرا على
النائبات صبرا . فكرت فى ابى ، اين هو ، اين ؟ عندما كدت اغمض عيني
ياساً ، وان أولى بعيداً عن وجودى ، لمحت مولاي وسيدى ، فخفضت جفنى
لأننى لا أقدر ان اخفض رأسى ، قلت : هلا يا قوادى وكبر ، مازال أمامى
مقدار ما بين الثريا والثرى . انقلبت اجوالى ، فعرفت ذرا الفرح الإنسانى ،
تمنيت لو أجلت لحظة التلاقى حتى لا تنقضى حلاوتها وتصبح ماضياً لا يمكننى
استعادته ، اتجهت إليه على مهل مؤجلاً النعمة ، والصبوة ، شغلنى مرأى وجهه
عن كل ما عرفته من كدورات ، حمت حوله ، وعندما أذن لى حطت على
كفه الأيمن ، فبلت ثيابه بدمالى ، لأن عنقى يتزف ولم يكف ، استكنت ،
وصار من عزالى اننى مذبوب القفا مثله ، لم اعن بالسؤال عن مصيرى أو عما
سيجرى ، وهل سيلتئم شمل رأسى وبلدى ؟ كنت فرحاً برؤياه . حتى أتى صبرت
رقية الوصل بين الشخن واللين . بين الحار والبارد ، بين الحزن والفرح . بين
المظلم والمضىء . كنت فى حركة داخلى حتى وسع رأسى المخزوز العالم كله . فلم
اطق نفسى ، لقبدي فهمت البشارة . آويت إلى كفه كما يأوى طفل إلى حضن أبيه
الذى عاد بعد زمن بعيد . نظرت فرأيت جئان عبد الناصر ، عارياً بلا رأس ،
ألقي فى معارفى ان أبى يمشى الآن ، يسعى فى مكان شديد . عدت انعم بالقرب
واستنشق الشوق من اعطاف الحبيب .. قلت :

الغريب من جافاه الحبيب .

اجابنى سيدى ، سيد سادأتى ..

بل الغريب من واصله الحبيب ..

قلت : أما والحال هكذا ، فاسمح لى بالبكاء على أحوال احدثت هذه

الجفوة ، شرعت ادمع ، مردداً ، حسبي الله ونعم الوكيل ..

موقف الجمع

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشقى نحي البلايل

.. خالق الأصيل والظل وما بينها ، فإن شاء حسر ، وإن شاء أسبغ ، فائق
الحب والنوى ، فإن أراد جمع وإن رغب فرق ، فاتق الرق ، فإن شاء قرب
وأدنى ، وإن شاء أقصى ، مجب لدعوة الداعي ، فإن شاء أعطى وإن شاء
منع . أوقفني في موقف الجمع وأنا ناقص ، وليس لناقص أن يسأل عما ليس
بناقص ، كنت رأساً فقط ، أما الجسد فبعيد ، لا استقرار لي ، ولا جنب
عندئ اضطجع عليه ، وأصعب أنواع الرحيل عندما يرحل الإنسان داخل
ذاته ، فتمر به الدنيا ولا ينالها ، وهذا من عذاب الدنيا ، أوقفني وليس لي
ساقان ، أو ذراعان ، هكذا تم انتقالى من موقف الشدة إلى موقف الجمع ،
وهو موقف صعب ، له من أيام الاسبوع يوم الجمعة ، ومن النهار اللحظات
الفاصلة بين الثانية والثانية ، ومن الليل لحظة انصافه ، أنتهى إلى اليوم الراحل
أو إلى اليوم المقبل؟ ، ومن الشهور فبراير اقصر الشهور عمراً ، الشهور كلها
تسبقه أو تلحقه ، محيطة به إحاطة الأشقاء الكبار بأخيم الأصغر ، له من
الألوان قوس قزح بدرجاته ، ومن الطبيعة اكتمال أوراق الشجر في الربيع قبل
فراق الأغصان الخريف ، علومه جمّة ، فمنها علم اللقاء ، وعلم إضافة الحرف إلى
الحرف ليكتمل المعنى ، وعلم وقوف الكواكب على خط مستقيم ، واقتزان
الشمس بالقمر ، وظهور النجوم وعلم ارجاع الأشياء إلى أصولها ، وعلم الزوال

والحكمة منه ، وعلم كل من عليها فان ، وعلم لا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وعلم اللحظات القديمة ، وفيه علم الطول والعرض ، وما ينتج إذا تجاوزا ، وعلم نجوى ، وعلم سلوى ، وعلم المولعين بالوصل ، وعلم لحظة استقرار الشعور بالفراق ، وعلم اللحظة الأخيرة التى لن نرى بعدها أحبباً نعرفهم أو مكاناً ارتبطنا به ، وقضينا فيه زمناً ، وترديدنا الصامت : وهل سنرى ما رأيناه مرة أخرى ؟ وهل تكون الرجعى ؟ ، كذا علم اجترار الزمن القديم ، والأشواق المجهولة وعلم الحشوع المطلق عند المرور بالطلل الدارس ، والشجر المجتث ، والمياه التى جفت فى القنوات القديمة . والسواق العتيقة التى كفت عن الدوران ، والمقاهى التى أغلقت أبوابها وانفض منها السمار والأغرب والعابرون وعلم انطواء الدهر ، وعلم تلامس الشفاه التلاقى بينه وبين حبيبته . وأما العلوم التى تخصنى فى هذا الموقف فعديدة ، منها علم ضعفى وقلة حيلتى . اعلم أيها المتلقى الفطن أننى ضعيف . أضعف مما تتصور ، وأرق مما تتخيل ، وقلبى لا يقوى على استعادة الزمن القديم ، وعشقى الذى لن يعود ، كما لا أقدر على وصل وريقة شجرة بغصنها الذى انفصلت عنه ، ومن علومى علم الفرق بين نهار اتوقع عند انتهائه رجوع أبى إلى البيت ، أو مجيئه إلى بيتى - عندما أصبحت رباً لبيت ، وصرت أبا بدورى ، ومرورى بمبنى الوزار قبلاً أعرف أنه فى مكان ما منه - وبين نهار أعرف أنه سينقضى وأننى لن أراه أبداً ، ويقينى أننى لن اسمع خطواته فوق السلم ، ولا طرقاته فوق الباب ، كذا علم نسيان الأصوات ، مذاقها ، وتردها ، تلك الأصوات التى قضينا زمناً نصغى إليها ، ونحاورها ، ويعد غيابها يحيل إلينا أنها معنا وأنها لن تغيب قط . حتى نجىء اللحظة التى نكتشف فيها فجأة أننا لن نستعيدها أبداً . أننا نسيناها . أنها غابت إلى الأبد ، وأن ترددها من حين إلى حين فى الذاكرة الإنسانية لن

يدل عليها قط . تذكرت النعمة التي حلت بي عندما مررت بمترز الأصوات
الباقية . لكنها نعمة موقوتة شأن النعم كلها ، هذه علوم جمّة ، لو افضت فيها
وشرحت فساطيل وافصل ، وهذا يرضيني ، ويهدئني ، لكنني أخشى عليك
اللئال أو الضيق أيما الملقى عني ، لذا سأتجاوز واحدك عن رحيلي في هذا الموقف
إلى زمن لم أولد فيها بعد ، زمن لم استنشق هواه ، ولم تقع عيناي على
فراغته ، وقضائمه ، سنجح رأسي في ثلاثينيات قرنتا العشرين هذا الذي ولدت
فيه ، وربما أموت فيه ، لا تدرى نفس بأى أرض تموت ، رأيت رؤيا سررت
بها ، إذ أنها لم تتحقق لغيري ، حطقت في فضاء ميدان الحسين القاهري ،
وكتت أري ولا يراي أحد ، درت حول المئذنة النحيلة الرشيقة السامقة ،
سدحت بصري إلى الدكاكين والمقهى القديم ، فرأيتة هو ، رأيت أصلي ،
ورأيت الجذع الذي تفرع منه غضني ، رأيت أبي ، الحبيب القريب الذي
نأى ، وبنهايه وموته مات جزء من عمري قد يكون أطول وأغنى وأعمق من
الجزء المتقي ، مات جزء من تاريخي ، ليس للإنسان إلا ما سعى ، بالأمس
نسيت وغداً أنسى ، صرت مقطوع الجذر ، والريح يمكنها اقتلاعي ، صرت
مأهباً للوران الدائرة على ، وتمكن النائية مني ، ولم أعد ما كنت غير بعيد ، رأيت
أبي الذي لن اصغى إلى صوته في حياتي الدنيوية المتبقية ، ولن أحاوره ، إذ ولى
زمن الموانسة وراحت أوقات الغبطة برؤيته ، خاصة زمن طفولتي ، وقد كنت
أبتهج في بادية سنيني ، وأصير قرير العين ، ناعم الأحلام ، مطمئناً لمجيء
الغد ، عنلما أنام إلى جواره ، وافتح عيني في الصباح فألقاه بجوارى ، ويزداد
فرحى عنلما أعلم أن اليوم عطلة وأنه باق معنا ، لكن لما يبست وشيبت واشتد
عردى ، وتى زمن القرى ولم أعد أنام إلى جواره ، ليت العهد يعود ، ليتني أنعم
بجواره ، بالحديث إليه ، ليته أذن لي بقاء ، أقول ذلك وأنا أراه من موضع

تخليق ، واتابع خطوه أثناء عبور الميدان ، أراه في لحظة يستحيل على غيري أن يراه فيها ، إنه قادم من موقف الشدة حيث كان يحمل الراية ويشهر السيف اليماني ، رأيت الندبة في ساقه لم تلتئم بعد ، حذقت فتبينت غباراً يتخلل شعره ، ذرات رمال من تلك الصحراء التي حوصر فيها مع صحبه ، عرفت من أين جاءت هذه الذرات لكنني لم أعرف إلى أين ستمضي بعد مفارقتها لرأسه ، وهنا أوتيت كشفاً مناسباً للموقف فرأيت هذه الذرات وقد توزعت على سبعين موضعاً من الدنيا بعد مفارقتها لرأسه وبعد رحيله الأبدى ، لو ذكرتها كلها ، لو احصيتها للآن لاستوعبت مجلدًا يصعب حمله ، احطت برحلة كل منها ، عرفت كيف وصلت كل ذرة إلى الوضع الذي وصلت إليه ، انتهى الكشف وحططت فوق شرفة المثانة الدائرية ، ومما خصت به قدرتي الاحاطة بعدة أشياء في وقت واحد ، كأن أصغى إلى أحاديث عدة وأميز كلا منها ، أو أرى ما يجري في مكانين متباعدين أو أكثر ، ها هو أبي يقف أمام مقهى العجم ، إنه مقهى قديم اندثر في خمسينيات قرنتا العشرين . وموضعه الآن في زمنك أيها المتلقي عنى مجموعة من الدكاكين تتغير المعالم ، وتبديل المباني ، لكن الأرض التي عرفت وقع خطاه هي هي ، كم من أماكن تردد عليها ، وكم من أبواب طرقها ، وحشايا استند إليها ، ومقاعد ودكك جلس فوقها . ثم زالت ، تفككت ، تفرقت أجزاءها ، وددت لو تعقبت أثر كل ما لامسه أبي ، أو وقعت عيناه عليه ، لعل شيئاً ما يحتفظ بأثر غامض منه ، لم تتحقق رغبتي ، لكنني تلتقيت وعدكاً جميلاً باحتمال وقوع ذلك ، عندما يجين الوقت والموضع المناسبان ، ها هو يتردد ، لا يدخل المقهى ، لو جلس بمفرده سيطلب كوب شاي أو فنجان قهوة ، سيكلفه ذلك خمس مليات ، وهو في حاجة إلى المليم الواحد ، فنذ أمد وهو بلا عمل ، منذ أن فارقت يدها راية عبد الناصر ، منذ أن رحل عن

تلك الموقمة بطريقة ما ، وقع عليه الاختيار ليقى ، وليقص ما جرى على أجيال متعاقبة ، وفي أزمته متباعدة ، حتى لا يضيع ما جرى كما ضاعت أمور جمّة ، غير أنه الآن بلا مورد رزق ، منقطع ، وحيد ، ومدخره القديم ينفد ، والأمانى الكبار تخف ظلالمها ، والعمر يجرى ، ها هو يلمح اجد أقاربه ، إبراهيم ، وإبراهيم هذا عرفته في صغرى ، وفي كبرى ، يمت إليه بصلة قرابة ، كان آخر من زاره أبو ليلة الثلاثاء ، ليلة الثامن والعشرين من أكتوبر ، يتشجع أبي فيدخل المقهى ، يصافحه إبراهيم ، يسأله عن أحواله ، يقول أبي إن الدنيا كلها مغلقة في وجهه ، يقول إبراهيم إن الفرج قريب ، يقول إن خلف بك سياتى ، ها هو خلف بك يصغى إلى أبي ، أبي مطرق ، وإطراقته هذه واحدة من اطراقات عديدة أدت إلى تغيير بعض مما تصور أنه لن يتغير ، وإلى وهن ما تصور أنه لن يهن أبداً ، اطراقات متفرقة ، كل منها وقعت في زمن ، شعر ببعضها ، ولم يشعر بالأخرى ، لم يلحظ ترابطها ، وتتابعها ، وتأثير كل منها . بحيث أدت إلى وضع لم يتوقعه ، وتراجع عن نوايا لم يتصوره . إنها تلك اللحظات التي تمر بنا ، ولا نتبها ، لكن بعد حين طال أو قصر يحدث التغير ، يصبح الإنسان ليس هو ، مع أنه هو هو ، لم يتغير ولم يتبدل ، ها هو يدارى خوفه وقلقه بينا باطنه يأمل وتلك أحاسيس شتى جهلناها ولم نطلع على مكنونها ، ولم نقف على أسرارها ، كذلك هذه اللحظة بعينها ، وقد عاودت أبي مراراً ، وكانت آخر مرات استرجاعها يوم الأحد الموافق للسادس والعشرين من شهر أكتوبر . ومن الأمور العجيبة التي وقفت عليها أنه استعادها في حضورى مراراً . لكننى لم ألحظ ذلك ولم أنتبه ، وأتى لى أن أقف على سر العلاقة بين تغير ملامحه الذى يكاد لا يرى أو يرصد ، وبين ما يتحول في خاطره ، وهذا علم قائم بذاته ، غامض ، وأسارره بلا حصر ، والعجيب الغريب أن أبي

أثناء استعادته لهذه اللحظة كان دائماً يخشى ألا تنتهى به إلى النتيجة التي انتهت إليها في ذلك الزمان البعيد . وقد عرفت يا أحبابي مثل هذا الشعور مع فارق في الموقف . حدث أثناء سهري عند صديق حميم ، دعانا ذات ليلة إلى العشاء ، ثم جاء بجهاز العرض ، رأينا ستة أفلام متعاقبة ، رأينا العربية التي تجر المدفع عيار ١٣٠ مليمترا ، تتوقف في مواجهة المنصة ، ونزول خالد منها ، وعودته الحظافة ليتناول مدفعه ثم تقدمه الجسور ليفنى الزمن الخسيس ، ليقتضى على الخلف الجاني ، ليثار مما جرى ويجرى ، وما وقع منه في موقف الشدة عندما منع الماء عن الداعين إلى الثأر من مقتل مولانا وسيدنا ، وفي كل مرة نرى فيلماً جديداً ، وتتوقف العربية ، أخشى ألا تنتهى اللحظات إلى ما انتهت إليه ، أخشى أن يعاق خالد ، ألا يتم ما بدأه ، وكأني أعيش وقوع الحدث نفسه بدون معرفة نتيجته . ها هو خلف بك يصغى بوجه جاد الملامح شأن من يقبض بيده على سلطة ، ومن يقدر على تقرير أمر ، بعد أن اصغى طلب - بدون النظر إلى أبي - أن يكتب طلباً ، وأن يأتي به ، لعل وعسى ، يرفع أبي صوته بالدعاء ، ينصرف ، أراه في مكان قريب يمسك ورقة بيضاء . إنه حائر ، لا بد أن يلحق بخلف بك قبل ذهابه ، تلك فرصة قد لا تسنح مرة أخرى . لكن من يكتب الطلب ؟ لو .. لو أنه تلقى قدرًا من التعليم . لو التحق بالأزهر ، ليس من اللائق أن يطلب من خلف بك كتابة الطلب له ، عند هذا الحد وقع عجب ، ومع أن العجائب تواردت على حتى لم أعد أعجب لشيء ، إلا أن ما جرى اذهلني وأنا رأس مقطوع بلا جسد ، لكنني رأيت جسدي يمضي أمامي ، أمام أبي ، يتصل برأس ليس هو رأسي ، ويحمل وجهًا ليس وجهي ، وعندما دقت النظر تحايلت لعيني ملامح عبد الناصر ، لكنني لم أتق أنه هو ، غير أنني تأكدت من جسدي ، إذ كنت أشعر به وأنا في مرقدي على حافة الشرفة الدائرية لمسجد

الحبيب المتزه ، والشفيح الأوفى ، تلك يدي ، وهذا صدري ، هذه أصابعي ،
أدركني شوق نادر ، شوق من نفس إلى نفس ، لفتني وحشة ، وحن رأسي إلى
جذعي ، ورقت هامتي لجذري ، وهذا شعور خصصت به ولم يتفق وقوعه
لأحد من بني البشر ، حتى لمشايجي الأجلاء ، إذ أن أحداً منهم لم يقف مثل
موقفي ، ها هي قلماي تخطوان على مقربة من أبي ، يسعي تجاهي ، يطلب
السماح بلحظات قليلة من الوقت الغالي ومساعدته على كتابة هذا الطلب من
سطور قليلة ، عندئذ امتدت يدي إلى جيب تلك الثياب التي كانت تبستر
جسدي تناولت قلماً ، نزعت غطاءه ، وفوق منضدة مستديرة من نحاس أمام
دكان يبيع الحرز الملون ، والحزف العتيق ، بدأت يدي اليمنى تكتب الطلب
الذي أخبر أبي عن مضمونه شفاهة ، فخطت يدي التي بمعزل عنى ، ما.
نصه ..

السيد صاحب العزة والمعالي وكيل وزارة الزراعة .
تحية طيبة ،

أتقدم إلى معاليكم ، راجياً مساعدتي في الحصول على عمل باليومية
كعتال ، حيث أني رجل فقير وأعول أسرة كبيرة .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مقدمه لجنابكم

.. تمتد يدي بالقلم ، يتناوله أبي ، على مهل يوقع ...

أحمد الغيطاني

تأثرت بالصيغة البسيطة والكلمات القليلة ، كما أني فوجئت بشيء لم أعرفه

أبدًا ، وما أكثر الأشياء التي لا أعرفها عن أبي ، آه يا أسني ، ولم أكن أيها
المتلقى القطن جاحدًا به ، لا والله العظيم ، لكنه زمني القبيح ، وغفلة الطبيعة
الإنسانية ، عرفت أن أبي تقدم للعمل كعتال ، وأنه قضى زمنًا يحمل أجولة
بنور القطن في قسم البذرة . وقد كنت أعرف دائمًا أنه ساع يحمل الخطابات
ويفرقها ، هذا واقع حقيقي لكنه لم يبدأ ولم يتحقق إلا بعد عمله أربع سنوات
في قسم البذرة ، وهذه الحقيقة موقعها علم تواضع الآمال ، وهو علم يخصنا
كلنا ، أما ما يخص أبي منه فكثير ، وقد تواضعت آماله بعد التحاقه ، وبعد
زواجه ، صار انتقاله من عمله كعتال يحمل الأجولة إلى ساع يفرق البريد أمرًا
يستحق المجاهدة ، وأشد أهمية من التحاقه بالأزهر . أميته الأولى ، وهنا معانٍ
عديدة يتضمنها هذا العلم وقتت على بعضها ، فن ذلك أنه ليس كل من مد
يده نال ما يطلب ولا كل من نام حلم بما يريد ، ولا كل من ادعى سلم له
بدعواه ، ولا كل من دعا اجيب ، ولا كل من وصل ود ، ولا كل من بكى
أرضى ، ولا كل من منع خاب ، ولا كل من سبغ غرق ، ولا كل من خُوف
ارتعد ، ولا كل من أومن اطمأن . وفي موقعي هذا استعدت أمرًا جرى قبل أن
يجرى ، وتم قبل أن يبدأ ، إذ جال برأسي عندما ذهبت إلى الوزارة ، وصعدت
مع شقيقي الأصغر إلى قسم التحقيقات القانونية ، مررت بالطريقة التي كان يجلس
فيها ، دخلت لأنهي اجراءات صرف المعاش لأمي ولشقيقي التي لم تتزوج
بعد ، جلست إلى مكتب أحد الموظفين ، والحق أنهم قابلوني بالرحمة ، وغضوا
البصر عندما ذرفت دمع الحزن ، بعد أن رأيت جدولاً يضم أسماء عاملين
استحقوا مكافأة ، كان اسم أبي مدرجًا ، إلا أن خطأ طويلاً بالمداد الأحمر
انطلق امامه يسد جميع الخانات ، وينتهي بعبارة تقول إنه توفي في
٢٨/١٠/١٩٨٠ ، قلبت الأوراق في ملف الخدمة ، طلبت إجازة ،

وكشوف ، وتوقعت أبي ، وقعها في أيام شتوية باردة ، وأيام صيفية ، في أيام
محمطة ، وأيام صافية ، في الصباح وعند الظهر ، وعند المساء ، وهو حزين ،
وهو فرح ، وهو يفكر فينا ، وهو خلى البال ، وقلبت الأوراق ، حتى وقعت
عيناي على أول ورقة بالملف ، استوقفتني ، إنه خطي ، الطلب الذي كتبته يدي
أثناء انفصال رأسي ، وتفرق جسدي ، تأثرت بالصيغة البسيطة ، رأيت لحظة
من لحظات أبي ، هذا الطلب البسيط إحدى المقدمات التي أدت إلى وجودي
الذيوي ، قرأت ما عليه من تأشيريات ، توقفت عند تأشيرة بقلم أحمر انيق
الخط ، « يعين بأجر يومي بمقدره خمسة قروش » ، خمسة قروش صاغ ، عدت
إلى موقعي هذا ، استدعيت ما لم يقع بعد ، رأيت الطلب بعد رحيل أبي . ولون
الخبر القديم ، والورقة البيضاء التي اصفر لون اطرافها ، تستقر الآن في موقع
مجهول لي ، خزانه حكومية عتيقة ، أو مخزن في طابق أرضي ، رأيت أبي في
الوزارة ، أيام عمله الأولى ، ها هو يستجمع همته ، وقواه ، رأيت ساقيه
ترتجفان تحت ثقل الاجولة ، تتوتر عروقها ، يزداد باطنهما التصاقاً وقرناً من
الأرض ، وكان بمقدوري تحديد وتمييز هذه المواضع التي توقف عندها لحظات
عابرة ليحكم وضع حمله الثقيل على ظهره . كان يضع طرف جلبابه الإمامي
بين أسنانه ويرفع يديه إلى الخلف بينا يرقد الجوال المليء بالبندرة فوق ظهره
المنحنى ، عند حد معلوم تبدلت ساقا أبي بساقى أنا ، كذا تبدلت سلسلة ظهره
بدها من فقرات العنق السبع وحتى العنصر ، صار ثقله ثقلتي ، وأنيته أنيبي ،
وأله المكروم ألمي ، وارتيافه ارتجافي ، وقد وجدت ذلك عظيمًا خاصة وأن آهة
واحدة لم تصدر عنه ، حتى لا يظنونه ضعيفاً ، غير قادر على التحمل ، ارهقتني
ثقل الحمل الأول ، والذي كاد أبي يسقط تحته لولا أنه تمالك نفسه والله
سلم ! ، كان الفارق بين ظهري وظهر أبي ، وساقى وساق أبي أنه غالب المر

زمناً ، وقاسى الأوجاع دهرًا ، وحمل قرب المياه في البلدة ، وأغنام أقاربه
 وعدى بها مصارف المياه ، أما ظهري أنا وساقاي فلم تتعدوا حمل الأثقال لأنه
 هو جنبني ذلك بكده ، وحماني بتعبه ، وعندما اعتقلني الضابط والخبر وأخذوا
 عشرات من كتبي ، حملها أبي فوق ظهره حتى العربة الرمادية التي وقفت تنتظر
 عند مدخل الحارة ، خفت أن اخذل أبي فلا يتحمل ظهري ثقل الاجولة ، أن
 تلتوى قدماي ، عندئذ يفقد رزقه ، وهذا من الأسباب التي أضيفت إلى جملة
 أسباب عذابي ، ثم اشتد الأمر فحمل ظهري في مرة واحدة مقدار ما حمله أبي
 في يوم واحد ، ثم في أسبوع واحد ، ثم في شهر كامل ، ثم في مدة عمله
 كعتال ، وبرغم تعاطف عذابي ، وشدته على جسمي ، فقد كان نعيمى في
 بلائى ، ودوائى في دوائى ، وراحتي في تعبى ، ذلك أنى رأيت قسماً من جسدى
 ملتئماً بأبى ، إلى ذرجة أننى حلمت بنعمة لا حرمان بعدها ، ووصل لا هجر
 يعقبه ، وأمن لا خوف يدهمه ، كما أنى ملكت الدليل على اتصال أعضائى
 المنفصلة عنى برأسى ، فقد عانى رأسى ما تعانىه اعضائى ، تلقى منها وأخذ عنها ،
 فعرفت أن ثمة وصلاً محتملاً ، وخيطاً غير مرئى لم ينقطع ، وشملاً لم يتبدد
 تماماً ، رضيت بما حل بى ، ففى هذا عقاب عادل للجفائى ، وعدم اهتمامى
 بالسؤال والاستفسار عن غضون غارت فى وجه أبى ، ونظرة أسى لم أعها إلا
 بعد اختفائه عنى ، وذهابه الأبدى ، وانعدام امكانية التلقى والرد بيننا ، واليأس
 التام من التلاقى ، حمت فوقه عند رجوعه من الوزارة فى الدقى إلى سكنه
 القريب من الحسين ، أراه ولا يرانى ، يمشى وحيداً من الدقى يعبر الكبارى فوق
 النيل ، يقطع الطريق متمهلاً ، يتلفت حوله أحياناً ، يرتفع صوته بغناء
 صعيدى فيه نحين إلى المنبت والمشأ ، يسلى النفس فى غربتها ، ويدفع ويوفر
 ثمن تذكرة الترام ، أو الأوتوبيس ، رأيتة يستيقظ نشيطاً فى غرفته التى لا تحتوى

إلا على حصيرة قديمة ، نفس الحجرة التي آوى فيها عبد الناصر ليلة قبل ظهورهما معاً في كربلاء ، يتوضأ ، يصلى ، ثم يدعو الله السر ، أن يغمض عنه عيون أولاد الحرام ، وأن يبارك له في ماله ، ها هو يقطع الطريق من العطوف إلى الدق في صباح باكر مندى ، يصلى قبل أن يصلوا ، ويتنظر ، ثم تبدأ أحواله ، فأعاني كل ما عانى ، وأقاسى كل ما قاسى ، رأيت يوم الجمعة يستيقظ نشيطاً ، فرحاً ، إنه اليوم الذى يمضى فيه الوقت الأطول إلى جوار ضريح الحسين الحبيب ، بعد الصلاة يمضى إلى مقهى العجم ، يلمح خلف بك فيمضى إليه ، يجيه في أدب ، ويقف على مبعدة سيرة لا يقربه لكن في غير ذلة ، خلو من أى إحساس بالضعة ، يحمل تجاهه الود العظيم ، إنه السبب في جريان رزقه ، وكانت تلك الوقفة وهذه الطلة بداية لعلاقة بينهما تقلبت بها الأحوال ، وأمدتها الظروف بالمد والحزر ، واستمرت حتى ذلك اليوم الذى كنت أجهل موقعه قبل أن يجيء ، الثامن والعشرون من أكتوبر ، ها هو خلف بك يسأل أبى عن أحواله . أبى يحمد الله ، يدعو له بالعمر المديد ، كان أبى يقول أحياناً ، اللهم لا تجعل يومه قبل يومى ، وكنت أنا أخشى رحيل خلف بك فجأة ، لأننى أعرف أن حزن أبى سيكون هائلاً ، ولأن ثمة هاجساً حدثنى دائماً ، أن رباطاً خفياً يشد مصير كل منهما إلى الآخر ، وقد أطال الله عمر خلف بك سنة ونصف سنة بعد رحيل أبى ، ولا تزال البقايا الغالية والتي تحوى ملبسه وأوراقاً شتى ، تضم شالاً حريريًا عليه رسم الكعبة أهداه إلى أبى أثر عودته من أرض الحجاز ، كان أبى شديد الاعتزاز بهذا الشال ، يفرد ، ويطبقه بعناية ، ويحفظه من كل سوء ، يعرضه للهواء ، ولا يلفه حول عنقه إلا في المناسبات التى يندر حدوثها ، كذلك احتفظ بورقة من مجلة المصور بها تحقيق عن محكمة الخليفة ، وقاضيا محمد خلف الحسينى ، ويرجع تاريخه إلى أوائل

الخمسينيات ، ولو أتى قلبت في مجلدات المجلة القديمة لعثرت عليه غير أنى لم
 أفضل حتى الآن . في صغرى ، وفي ساعات صفاء أبي ، أجلس إلى جواره طفلاً
 وأقرأ له هذا التحقيق الصحفي ، يصفى مسروراً ، وعندما كبرت وشيبت
 وتشعبت طرقنا ، وتعددت سبلنا لم أقرأه له أبداً . أسأل نفسي الآن بلا فائدة
 ترجى ، لماذا وقد كنت قريباً منه بقلبي ، لماذا لم أنطق ، ولم أعبر ، فما وصله منى
 شحيح . شحيح ، هذا ذنب ينوء به ظهري ، فالنجا . النجا ، في يوم الجمعة
 هذا يقابل أهل البلدة ، القادمين ، أو المقيمين في مصر ، يرحب بهم ، وينفق
 ما معه في دعوة الذين نزلوا مصر أول مرة ، وقد يصير على صحبتهم إلى بيته
 المتواضع إن عز المأوى للقادم الغريب ، هنا ما فعله مع كثيرين ، وكم من
 أهالى بلدتنا الذين جاءوا قراء معدومين ، تمددوا فوق هذه الحصيرة لياليهم
 الأولى ، ثم مضوا عنه ، ودارت بهم الأيام فأصبحوا من أهل الثراء ، والجاه ،
 وكنت على وشك أن أذكر العديد من الأسماء التي أعرف ، لولا أنني امتنعت
 أيها القارئ الفطن ، إذ أعلم أن ذلك لن يرضى أبى في غيبته الأبديّة عني ،
 وربما اعتبره منى تشهيراً بقوم أسدى إليهم معروفاً ضئيلاً ، والحق إننى لم أسمع منه
 هو ، بل سمعت بما قام به من أمى وخالى وأعمامى وآخرين ، يرحمنا الله من
 بعده ، ها هو يسعى ليظل على مريض من أقاربه ، أو معارفه ، أو ليشارك في
 فرح . يقضى واجباً هنا وآخر هناك ، يضطك عندما يجد نفسه في رقعة
 وأنس ، يقص الأحداث القديمة ، والأنساب والقربات ، والدرجات التي
 شغلها كبار المشهورين قبل أن يصبحوا وزراء ، أو باشوات ، أو زعماء ، كان
 يقول أحياناً ، أقرهم إلى نفسى عبد الناصر لأنه أنصف الفقير من الغنى ، ولأن
 والده كان رجلاً بسيطاً مثلى ، انتهت أثناء تهومي كما يتبته الغافل ، رصدت
 مرور لحظة عبرت بأبي كرفة رمش ، لحظة استقر فيها وهن تسلل إلى رغبته

القديمة ، الموجلة ، أى الدراسة فى الأزهر . لا أقول انقطاع الرغبة ، أو اندثارها ، عسى أن تعينى الكلمات على التعبير عما رأيته من فضائى الذى اسبح فيه إنها لحظة مارقة لا يرصدها الوعى ، ولا يدركها فى حينها ، ثم تتكرر على فترات متقاربة أو متباعدة ، فتضعف همة ، أو تنفسخ فكرة ، أو تفتقر عزيمة ، طرح النوايا القديمة لا يشمر فجأة ، لا يتقرر بغتة ، انما يتولد على مهل ، يتسلل بطيئاً ، ثم يندلع فجأة كلهيب شمعة ، يبدو مستقرًا ، مرسلًا ضوءه ، لفترة ، ثم يتوهج لثانية ، ويعود ليخبو ، غير أنى رصدت اللحظة الأولى لانشاء أبى عن مقصده القديم ، وتلك اللحظة بدت كخفقة عابرة ، أثناء مروره ما بين شجرتين قائمتين حتى الآن ، بجذء النيل عند منطقة العجوزة ، غير أن شعورًا لم يفارقه ، ومؤداه أن كل ما يمر من ظروف وعرة عابر ، وأن ثمة وضعًا أفضل ينتظره ، وأن ثمة واقعًا مريحًا سيصل إليه يومًا ، لعلى أكون قد وفقت فى شرحى لما رأيته ، يحوم رأسى ويسبح فى فضاءات مصر ، رحلت مع الاصائل إلى الجنوب ، إلى جهينة ، ها هو أبى يعود لأول مرة بعد خروجه مضطربًا ، وبعد عدد من السنوات لم أدر مقدارها ، لأن مولاي واركان الديوان لم يطلعونى على تاريخ خروجه أو عودته ، وذلك كعقاب لى على عدم معرفتى منه مباشرة ، رأيت عينى أبى ، وشوقه ، ولطفته على رؤية كل المواضع ذات المعنى والدلالة ، اصغى إليه يتحدث فى رجة بين البيوت ، الجالس إليه هو الشيخ عبد اللطيف محمد على ، والشيخ هاشم الكبير ، قال الشيخ عبد اللطيف إن الوقت قد حان ليكمل نصف دينه ، العمر يتقدم به ، ولم يعد صغيرًا ، أم أنه ينتظر حتى تلف عليه امرأة من نساء مصر فتطويه ، لماذا لا يفكر والبلدة أمامه مليئة ، مزدحمة . قال الشيخ هاشم الكبير إن هذا صحيح ، وإذا كان الله قد يسر له الرزق الحلال فلماذا يتأخر؟ ، أطرق أبى وفى النفس حاجات شتى ، لكنه قال إن عمله صعب ،

وعائده قليل . خمسة قروش ، هل تفتح بيتاً ، الزواج مسؤلية . ذنوت منهم .
كنت موجوداً وغير موجود ، اراهم ولا يروننى ، هذا وجه أبى ، وتلك حيرته
التي أعرف ملاحظها وترقرقها . لا أدرى ، لماذا أدركنى الحزن فجأة ، فارتفعت
محلقاً فى فضاء البلدة ، ذرفت دموعاً تساقطت فوق الدرب الذى يقسم البيوت
إلى شقين متواجهين ، ولم يتبته بعد لأن دموعى قليلة ، شاحبة ، ولأن أوان
المطر لا يزال بعيداً ، نظرت إلى البلدة من عل ، فرأيتها مضمومة ، محاطة
بالنخيل ، والبيوت الصغيرة ، فى أحدها ولد أبى ، وفى بيت آخر يجلس الآن ،
وكنت أجهل موضع جسدى ، معزولاً عنه ، غريباً . فالاختلاف سمة زمنى ، لا
تشابه أحوالى فيه ، ليس فى كل حين أخض بالدعة ، ولا فى كل وقت أناغى
بلحن مطرب ، كنت عرضة لعتاب غامض ليس ينقطع ، وبلاء محوماً
أدركنى ، طرف منه ، أمر ثقيل بدأ بفراق أبى .. لن يرتفع . وضيق وكمد
لتواجد عدوى فى وطنى ، يتنفس الهواء ذاته ، وشوق لرؤية عبد الناصر الذى
يبدو لى الآن حلماً بعيداً ، لمت نفسى لأنى ضيقت به فى زمنه ، وهذا قدر
الإنسان ، لا يعرف جوهره إلا بعد انقضائه ، ولا يدرك كماله إلا بعد أقوله
فكان ندمى على أحبابى فى مقدار ندم الذين تخلوا عن الحسين ، ولم ينصروه ،
ولم يخرجوا لنجدته حياً وانفاسه مترددة وقلبه خافق . وكان وجدى ممزقاً ،
مشتتاً ، زمنى العجيب يجمع ويفرق ، فإذا ابتعت نفسى بالأمنيات ، اختلجت
خواطرى بالظنون ، وإذا انتعشت آمالى بالتوقع ، تضيبت غاياتى وصعبت ،
وإذا تحركت إرادتى هدهدا الذبول ، آه ، ما من ذكر إلا وادركه نسيان ، وكما
نسيت غلداً أنسى ، ما من حب إلا شعثه السلو . عواطف ملائمتى يوماً ، تهت
بها ، واختلت ، وظننت أنها لن تبعد أبداً ، ثم جاء حين من الدهر على عواطفى
فأصبحت بدداً . . غربت وأقلت ، جاء زمن بردت فيه نار قلبى ، آه ، ما من

وجد إلا أدركه النقص ، وما من فؤاد إلا كلد بالريب ، وما من سمع أصغى إلا ويرم ، وما من لسان اسهب إلا كف ، ما من عين بكست أبلكا ، وما من خاطر استقر وتمهل ، ما من قريب إلا أصبح بعيدا ، وما من حبيب إلا صار غريبا ، هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا ، ما نحن وكل الموجودات إلا خواطر غير مقيمة في ذاكرة الزمن . لكن .. أى زمن ، ما الزمن ؟ ما الدهر ؟ ما الوقت ؟ صحت في طوافى الليل وأنا هائم بلا مستقر ، بلا ماوى .

يا حبيبي .. يا مولاي ، يا مجير أبى ..

لم يجيبني الحسين ، تمثل لي بشرا سويا ، وكائناتا مكتملا ، لا يدركه نقص إنساني .

قلت بلسان حيرتي ..

إلى أى مجال ارحل ؟ في أى فراغ اتحرك ؟ أى قوة تدفعني ؟ لماذا الأفول ؟ لماذا النسيان ، لماذا لا أختار ميعاد غروبي قبل أى يلوح ضوء شفق ؟ الزمن ، إنه الدهر ، أى شيء هو ؟!

ينظر إلى ، يصمت ! يرتج عندي ، لقد فهمت عنه ، تلت حطيتي الثانية ، وسبوس لي فؤادي ، واغرقتي خواطري ، فقلت وتساءلت عما يجب ألا أسأل عنه ، لو سألته عما لم احط به علما للمرة الثالثة ، سبيل وجودي ، وأعود إلى سيرتي الأولى ، ستصير تلك التجليات كلها إلى عدم في عدم ، اسدل جفني تابعا ، مستغفرا ، راجيا العفو عني ، اشعر بنأيه الوئيد ، بابتعاد الحبيب ، يعاودني ذلك الجوع الذى لا تحركه معدة ، هذا الحرمان الذى لا تغذيه شهوة . يسقط ظل على ، يجيشني خالد في طيرانه الأبدى ، أبدى الدهشة البريئة ..

هل تعرف أيضاً ذلك الزمان ؟

وبدون أن يلفظ ، بدون أن يجيبني ، تلقيت المعارف والحقائق ، فنذ وقوفه

معصوب العينين في صباح ذلك الخميس الباكر أمام فرقة الاعداء ، صباح ذلك الخميس المسمى إلى زمني ، تحرر هو وصحبه من كافة القيود ، فلك هو زمان العبر كله ، وتولى صاحبه الثاني الزمن الآتي ، واختص صاحبه الثالث بالزمن الأقل ، واحاط صاحبه الرابع بالازمنة ذات الشواهد والدلالات ، أما صاحبه الخامس فكان من أصحاب الزمن الحاضر وهم قلة ، تحولوا إلى خمسة طيور من ضوء ، وزهره ، وندى ، وضباب ، وظل ، صبح خالد من ضوء ، وترى عبد الحميد فتوشك أن تهتمف ، ما لهذا الطائر وريشه الغريب فإذا دنوت منه وجدت أوراقاً من زهور الدنيا ، أما حسين فصيح من ذلك الضباب الذي يرى عند الفجر . وكان عطا من قطراته الندى ، يدنو من قرص الشمس فلا يتبخر ولا يتلاشى ، ويحوم حول الاحباب في ذروة الحرارة فيلطف وينحف ، أما عبد السلام فله الظل والنجوى ، صار مأواهم الدهر ، وتجوأهم عبر الأبد ، واختص خالد بأمور جمّة ، اذكر منها وقصدي ضرب المثل لا الحصر ، أوكل إليه رى كل صنوف النبات في بر مصر ، فهو الذي يسقى تلك الصفصافات المظلة ، وأشجار النخيل في أديتها ، وغصن الرحمان اليتيم الحزين الذي نما بالقرب من قبر أبي ، وهو الذي يحمل بذور اللقاح عبر الفراغات من زهرة إلى زهرة ، وهو الذي ينذر بالخطر إذ يلوح ، زلزلاً كان أو صاعقة كونية ، وأخذ صوته ذلك الهاتف الخفي الذي يصيح بالناس في أعماق الليل ، والذي ناداني في بدء تجلياتي ودعاني إلى الرحيل فاستجبت ، كلنا فهو الذي أوكلته رئيسة الديوان بإمامي ، رنوت إليه ، اغدقت بعيني عرفاني له ، واعجابي بجرأته ، وشجاعته ، وثأره لنا من الحلف الجافي ، كدت استفسر منه عن الحين المقدر الذي ستبادل فيه الحديث ، متى أسأله فيجيبني ؟ متى أحاوره ومحاورني ؟ لكنه قطر في في المن والسلوى ، الرضاب العذب ، أشار بجناحه الأيمن إلى هناك ،

عرفت أنه يشير إلى أبي ، فعدت أنظر إلى أصلي ، رأيت ظهيرة جهينة الحادة ،
وشممت رائحة الخبث ، والأفران الموقدة ، وأجولة الطحين ، وقواديس السواق
المصنوعة من الجلد والمضمخة بماء الأعماق ، يجلس أبي إلى الشيخ
عبد اللطيف ، الشمس في الزوال ، ونسمة تعبر سعف النخلات البحرية ،
وعجوز يتأهب في المسجد القريب ، وثلاثة صبية يلعبون السيجة ، وجمل
يركع محملاً بالبوص عند المخزن البحري ، وجلتي عائشة تقول لأمي التي لا تزال
بكرًا : اخرجي بهذه الأرغفة إلى جدتك نجمة ، أمي تلف الخبز الساخن في
طرف طرحتها السوداء ، تحطو خارج البيت ، قبل أن تستدير إلى جهة اليمن
مدت الخطي ، يبدو أنها لمحت الرجلين ، يقعدان في الظل ، وعند الخطوة
السابعة بعد خروجها من باب البيت تقع عينا أبي عليها ، يدركه شعور غامض ،
حيرة ، ونشوة ، وأطياف من عالم المرأة الذي لا يزال مجهولاً عنده ، قبل أن
تتحنى عند المنحنى يسأل ..

ابنة من هذه ؟

يحييه الشيخ عبد اللطيف ..

ابنة علي باشا .

الشيخ علي باشا المداح ؟؟

يحييه الشيخ عبد اللطيف ..

نعم .. يرحمه الله ، لم يعوضنا الله بصوت يشبه صوته ..

يقول بعد اطراقة قصيرة ..

اسمع يا أحمد .. أخطبها لك !
فينظر إليه أبي حائراً ، خجلاً ، لا يجيب ..

* * *

السفر الثاني

التجليات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله

« .. فاجتمعنا لمعان

وافترقنا لمعان

أما الأمر فظل محصوراً في أربع حقائق

الأول والآخر ، والظاهر والباطن .. »

مدراج

تعبت ، نعم ، أنا الغرب الحائر ، الراحل ، الغائب ، الموزع ، المفرق ، المشتت ، أنا المحكوم عليه بفقدان الاستيطان . أنا محزوز الرأس من القفا ، كحبيبي وصفيني ودليلي في غربتي ومرشدي في فقدى وطمانيتي في تيهي ، نور طريق المدلم الموعر ، مولاي الحسين ، الضنين على بما يعلم مع أنى لم أضن فداخلي مباح ، وتمكنوني مفصح عنه ، استغفرك يا من ليس كمثلته شيء . فأين أنا منه ؟ أين أين وما بيننا مثل ما بين الثريا والثرى ، ما بين العلو والسفل ؟ تعبت لما تبددت . وصبار وجودي لا يماثله وجود . أحن وأصبو لعل وعسى . لكن خاب فألى ، ما رأيت لم يبرو ظمئى ولم يهدئ روحى التى لا أدرى مستقرها وماواها ، رأسى المهوم أم جسدى المننى عنى ؟ تعبت فتوسلت إلى بنى الأكرمين ، حتى لا أشك فيما عندى ، خاصة أن قديمى يهت وموجوداتى تن .

كان ممكنا ألا أبوح بشقائى ، فالكتمان من طبعى لولا أنى أمرت بالافشاء والعلن ، لذا أشهدكم يا أحبائى واخوانى - جيبكم خالقي ما عانيت - . أشهدكم أنا الضعيف ، حزين الفؤاد ، فى كل لحظة وطرفة ، أننى مؤمن ، موثق ، واثق ، مسلم بأن الفراق حق . وأن اللقاء حق ، وأن الصرخة الأولى حق . كذا الاطلالة الأخيرة من الحدقتين ، خفقة القلب الولى حق ،

ودقته التي لا دقة بعدها حق ، أن الوجود حق ، وأن العلم حق ، البداية حق ، والنهاية حق ، والأسى على ما راح حق ، وأن الجمال حق ، والقيح حق ، والكمال حق ، كذا القصص ، أن سماع النداء حق ، والصمم حق ، النطق ، الصمت ، القدرة ، العجز ، والعلم الأعم ، والجهل الأتم حق ، وأن البعد والقرب والذنو حق ، وأن الفناء والبقاء والاصلاح والعطب والبحر والبر والوسع والضييق والقسمة والسلامة والرجوع وعنصر الحياة وشجر الماء والنحر والقاب والمحق والشفاء والمرض والبكاء والضحك والارتفاع والخفض ومداداة الكلوم ، هذا كله حق . كذا الطي والنشر ، والأسباب الموصلة ، والأنساب التسلسلة ، والشم الرواسي ، والجنور الموغلة الضارية ، والاتصال ، والاتصال ، والخيال ، والمثال ، أشهدكم أن مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان حق ، أشهدكم أن الحق حق ، فاشهدوا يا حفاظ ودى ، ورعاة نسيى أنى أسلم بهذا تسليميا كثيرا . لكنى أذكركم أن خالقى وغالقكم ابتلانا نحن ثمر النشأة الإنسانية ببلاء ما ابتلى به أحدا من خلقه ، إما ليسعدنا أو ليشقينا على حسب توفيقنا إلى استعماله ، فكان البلاء أن خلق فىنا الفكر ، لذا أكاشفكم بأننى لست بغافل أو مستسلم لأحوالى ، حتى لو أيقنت أن ذلك من طبيعة البشر .

أقت فى أقت وعيى مراصد أرقب منها الذنو الواهن ، وأستشعر هذا اللبيب الرهيف ذا الكنه الغريب ، أقصد النسيان الذى هو عدو ، فى دنياى الحية ، تباعدت زيارات أنى ، لم يعد يطرق أحلامى . لم أعد أحاور نفسى بعد استيقاظى فأسأل : هل رأيته ، وكيف بدا لى ؟ وقد كنت أسأل فى الشهور التى تلت رجله عنا . والرؤى يا أحبابى أمرها عجب ، منها ما تذكره ونعيش معه فترات طويلة ، ومنها ما نستوحشه ، ومنها ما تهالل له ونستبشر ،

ومنها ما يثبتنا ، أو هكذا يبدو لنا ، ومنها ما يتبدد عند رجوعنا إلى عالم الحس ، ومنها ما يعيد إلينا ما تبدد منا ، فنستعيد الشذى والعبق والصوت المقتد . بعضها نتذكره إثر صحونا ، ومنها ما نستعيده بعد انقضاء ساعات إذا أثارنا أمر ذا صلة ، وقد اتفق لى هذا وما هو أكثر ، وما سأذكره فى موضعه ، لكن ما أعيه ناصعا أن أبى لم يزرنى فى منامى منذ أمد ، عندما اقترب اكتمال عام على رحيله استرجعت مامر ، بذلت الجهد والمحاولة . فى مثل هذا اليوم رأيته لآخر مرة ، سابع عشر أكتوبر واليوم جمعة ، بعد سنة وافق يوم سبت ، وهذا شأن التقويم الميلادى لحركة الأفلاك ، تثبت الأعداد وتتحرك الأيام ، يتقدم اليوم يوما فيوما حتى يلتحم بموقمه القديم ، يندمج بنفسه ، أول الدائرة آخرها . نقطة البدء نقطة النهاية ، رأيت دخوله علينا عائدا من صلاة الجمعة ، متهللا ، باسطا ذراعيه ، « أهلا » ، مع اكتمال العام الثانى ومجيء السابع عشر يوم أحد ، حاولت أن أتذكر ، أى ثياب كان يرتدى ؟ ما لونها ؟ لست واثقا ، وقلة اليقين تولد الحيرة ، والله يا اخوانى إن الأمر حيرة ، إن الأمر حيرة . لكن مما يصنى بعض عكارتى ، اننى أذكر الحوار الذى جرى فى مضمونه وليس فى نصه ، سألتى : إلى أى البلاد ترحل ؟ قلت : إيطاليا وفرنسا . فبدت عليه دهشة البسطاء الأولى ، وفرحة الأب .. الذى أنجب فسوى واكتمل ابنه وصار يرحل بمفرده إلى بلاد لم ولن يظاها ولن يراها بعينه ، تتم : ماشاء الله ، ماشاء الله ، خرجت إلى الشرفة أدخن الترجيلة التى يعدها أخى الأصغر كلما جثت البيت الذى فيه نشأت ، جاء أبى ، وكان مجيئا هادئا لا تسبقه مقدمات ، أراه الآن مستريح الملامح ، راضى النظرات ، وكأنى أراه من صغرى عندما كان نشيطا فى خطوه ، والتجاعيد قصبية عنه ، أراه على غير ما كان يبدو فى اللحظة ذاتها ، فكأنه

أعار مخيلتي صورته القديمة لأراه فيها كلما حاولت استعادته ، جلس هادئا راضيا ، ثم التفت إليّ وأطال كمن يتزود أو ليثبت ملاحي في ذهنه الذي سينأى ولا ندرى ، ثم أغدق عليّ من نظراته النسيمة ، وتلك لا يمكن النفاذ إلى كنهها لحظة تفرقها ، لكنها نفضح للغافل بعد تمامها ، وبعد انقضاء أوانها ، فسبحان من له الدوام ، وإذا أوفى الإنسان نقاء البصيرة ، وصفاء الرؤية ، وشدة التدقيق ، فرمما يسأل نفسه : لماذا يتطلع إليّ هكذا؟ ، ولا تلوح الإجابة من طي الحجب وربما تشى بفحواها بعد فوات الأوان ، وآه من القوت ، وعدم القدرة على إدراك الشيء في حينه ، ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى .

أرى نظراته الهادئة الموشاة بالرضا والسكينة والدعة والرغبة في التزود قبل الرحيل ، رضا من اقترب ، وطمأنينة من يدنو من التسليم والاستسلام لما قدر ، رضا من أتم وأوفى فاكتمل وقارب على الرحيل ، هذه النظرات الأصيلية الواهنة المشرعة للغروب والحاق ، فهي بين بين ، لاعصر ولا مغرب ، لا صبح ولا ظهر ، نظرات من دنا وتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى . تطلعوا يا أحيائي إلى ذوى القربى منكم ، ربما ترونها وتعرفونها إذا علمتم ، لكن أنى لكم ذلك ؟ أنى لكم ؟ . نفس هذه النظرات أغدقتها أمى عليّ بعد حين مقدر ولم انتبه ولم أعرف ولم أتنبأ حتى ، أنه يعلم السر وما يخفى ، فأنتى لي أنا المحدود المقيد العلم بما سيكون ؟ لما طال سكون أبي ، ولم يحول النظر عنى واستمر يسلم ويتملى منى وأنا غافل ، ولما انقضى الكنه الغامض أردت إنهاء ذلك الصمت فقلت « تركت مع أمى خمسة جننيات لترسلها إلى عمتي » ، قال لي « وسيع الله عليك وبارك لك في ابنك وبيتك » ، بعد اطراقة حاد خلاها عنى قال : « وجنيه لأسرة عبد الرحمن » وأتبع سؤاله بتعبير وهزة رأس مهونا عليّ الطلب ، وعبد الرحمن هذا رجل

فقبر كان من خدام الحسين ، يجاور ضريحه القاهري ، ينفض الغبار عن العتبات المؤدية ، أو يزيل شيئا ما علق بالسجاد أو الرخام ، أو يساعد عجوزا خانه الخطو ، يحمل في بعض ساعات النهار أو الليل صندوق الأصباغ ، يمضي إلى مقهى الفيشاوى القريب القديم ، كان نجيبا ، طويلا ، أسمر ، حاد الملامح ، وقد يحلو لبعض الرواد أن يمزح فيناديه « عبد الرحمن .. تعال اسمع الخلاء » . إذ يرانى يقبل علىّ ، يضافحني ، يستفسر عن أبي الطيب ابن الطيبين ويوصيني به خيرا ، ثم يقطب عينيه « إنه حبيب الحسين » ، وأقول له « هذا أمر لا يحتاج إلى وصية ياعم عبد الرحمن » ، في زمن لا يمكنني تحديده بالدقة المرجوة اختنى ، لم أفكر فيه ، ولم يلفت غيابه نظري ، حتى أخبرني أبي متأثرا برحيله ، وأنه فارق أسرة فيها صغار . سألت : أكان متزوجا ؟ ، قال نعم ، وعائلته في مقابر الفقير يسكنون حوشا قديما ، تأسف أبي عليه لأن الرجل لم يذكره أحد ، ولا يذهب إلى أولاده أحد ، ولم ينتبه إلى غيابه أحد ، صار يمضي إلى عائلته ، يقدم إلى الأولاد بعض ما يفيض عن الحاجة أو يقتصده ، وهذا أدق من حيث المعنى ، لأن أبي عاش جل عمره لا يفيض عن حاجته شيء . كان يطلب مني أو من أخى إسماعيل لقلة ذات يده . بعد عودته إلى صمته سألتني « أحمىء لأودعك في المطار » قلت لا تتعب ، اعتدت السفر ، ليثني استجبت ، لرأيته بعد مشاهدتي تلك ، أذكر ضياع الفرصة فأندم ، مع أن اللحظات كلها ولت وصارت إلى عدم ، لست بقادر على تحديد اللحظة التي وقعت عيني عليه آخر مرة ، بعد نزولي إلى الشارع ، بعد وقوفي إلى جوار العربة الصغيرة رفعت رأسي ، يدها متلامستان ، رأيت أمي ، إخوتي ، ولم أر حثيث الخطى الذي هو أقرب إلينا من جبل الوريد ، لا أدري موقع اللحظة من حركة الأفلاك ، اعذروني يا

إخوانى لو أطلت وفصلت ، أعرف أنها لحظة لاتعنى شيئا عندكم ، لكنها بالنسبة لى عمر ومعنى وهوى ، فاحتملواى ولا تملواى لا أراكم خالقي بعضاً بما عانيته ، أزعم الآن والسنون تلفنى بكرها والعمر ينطوى كطلى السجل للكتب ، اننى لا أنسى ما وقعت عليه عيني فى مجمله وليس فى تفصيله ، بعد تبديد الثواب ، بعد تشتتها فى الكون الغريب ، حاولت مطابقة اللحظة باللحظة ، والموقف بالموقف . ومن نبع حنينى أروى أحاسيسى عليها تتكرر ، لكننى أشبه بمن يحاول رى ظامئ من ظل الماء ، أو ينحت من أريج زهر شمها يوماً تمثالاً لمن أحب .. فأين القرب ؟ وأين البعد من البعد ؟ رحبت أردد بينى وبينى ، منذ عام لم يكن متبقيا له إلا سبعة أيام ، ستة ، أربعة ، يومان ، وعندما طلع صباح الواقعة كان الأربعاء يقابل الثلاثاء ، عقدت الهمة وقصدت زيارة المثوى ، والأربعاء يوم لم يعتد قومى زيارة موتاهم فيه . قطعت الطريق المترب الأصفر ، والشمس لافحة ، والخلق قليل ، والشواهد حجرية ، علامات على حد الأبدية ، لم ألت عم عبده حارس القبور ، بابا مقل ، دخلت وحدى ، الجزء الذى يرقد فيه أبى لم يجدد بسور بعد ، مكشوف للطريق ، وهذا يضابقنى ، وقد عقدت العزم وأضمرت النية على بناء مقبرة انقل إليها أبى حتى لا يكون ضيفا على آخرين ، حتى لا يكون غريبا فى رقدته كما عاش ، حتى تكون رقدتنا إلى جواره ، عسى أن تساعدنى ظروفى عسى . قعدت فوق حجر عند موضع قدميه ، اصغيت إلى رياح جافة حارة تهب فترتد بين الجدران المتقابلة ، والأبواب المغلقة ، حدثت أبى بكلام كثير بددت به صمتى ، عللت النفس أنه ربما يصغى ، وتساءلت عما جرى للججان فى هذا العام المنقضى ، وكيف يبدو الآن ؟ كنت كلما جئت أسأل عم عبده : هل جاور أبى ميت آخر ؟ حتى نهاية العام الثانى بقى أبى وحيدا ، تطلعت الى

الأرض المنبسطة ، والجدران العتيقة ، والمصاطب والشواهد ، رقود يجهل كل منهم الآخر ، جيران لكن لا يتزاورون .. ناجيت أبي : لن أغيب ، لن تتباعد المدد بين زيارتي إليك . قت بعد مكث ساعة أو أكثر . بسطت اليدين ، واليدان محل القبض والعطاء ، لذا كان بسطهما علامة السؤال والتسليم ورجاء الإجابة ، والسؤال حال افتقار ، وحاجة إلى الإجابة ، وعندما بسطت يدي لمن يراني ولا أراه كنت مفتقرا إلى الكثير ، لي ولأهلي ولن صاحبت ولن أحببت ، لذا سكت ولم أنطق ، بل توسلت بعيني ورجوت ، وتلوت فاتحة الكتاب ثم أقيمت السلام مودعا ، وتراجعت حتى المنحنى كيلا أولى أبي ظهري ، استندت مستقبلا الطريق ودمعي نافر وقلبي ساج ، كنت بحاجة إلى من يشرح لي القضية ، فالأمر عسر ، والسر جليل ! ، حل العام الثاني ، وفيه اعتدت القسم برحمة أبي ، وقد قضيت زمنا أنني فيه أي خاطرة توحى لي أن بصري لن يقع عليه ، وأن لفظ « أبي » اختفى من قاموس ندائي ، اسمحو لي أن أذكر واقعة ربما حوت علامة . اذ حدث بعد رحيله ان ذهبت إلى طبيب اختصاص بعلم القلوب وجراحاتها ، وأثناء تدوينه بعض الملاحظات عن علتي كبسني بخاطر عجيب ، وإن بدا في لحظته مألوفا معقولا متزنا ، أليس هذا الرجل عالماً بالقلوب ؟ إذن .. ألا يقدر على بث الحياة فيما همد منها وسكن خففة ويطل هفوه وتوقف نبضه ؟ لم أنطق الخاطر المباغت ، وتذكرت زيارتي لصاحب لي ميسور حاله ، ولحظة دخولي حديقة بيته ، رأيت بستانيا عمره يقارب العمر الذي رحل فيه أبي ، حضوره يماثل حضور الراحل الكريم ، فاندفعت تجاهه حتى أتى رأيت في عينيه دهشة مهذبة ، وفي صباح شتوى كنت اجتاز باب بيتي عندما رأيت والد امرأتي ، أم عيالي ، فعانقته عناقا حارا وهفوت نحوه ، وكأنني أرى في كل أب ظلا من ظل أبي ، غير أنني دائما

ارتد ملوما محسورا ، وأوعر الآلام مايقع عند التيقن من استحالة الغرض ، هذا مقطوع به فانتبهوا ، يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ، جنبكم خالقي - وجنتي - السهو والإهمال ، والغفلة والزلة . في ذلك العام الثاني ، كم رأيت من رجال يشبهون أبي ولم أتوقف لأنقب ملاحظهم ، بل إنني كففت عن تأمل أقرابي الأقربين ومحاولة تلمس الشبه الخفي أتذكرون يا إخواني - في السفر إلى الحق - اكتمال العام الأول على رحيل جمال عبد الناصر؟ ، ميدان العباسية والطرق المؤدية مزدحة غاصة . الوفود تترى ، والجماعات تتوالى والخلق كثير ، والممر وبهو المسجد يفيض بالورود . في العام التالي لم يعد الجمع هو الجمع ، وفي الثالث قل المدد ، وفي الرابع اتسعت المسافات ، وصار الضريح وجهة المخلصين الأشداء المحبين ، صار مانظنه قريبا بعيدا ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . لكنني استأذنكم بإتمام مناجاتي والافضاء بضموني ، فأقول إنني رأيت غرباء ، فقراء ، لم تتح لهم فرصة الوقوف بين يديه يوما . لم يعرفهم وعرفوه ، رأيتهم يسعون إليه فرادى ، يتوقف القادم من الريف أو أحشاء المدن . يطلبون له الرحمة ، والله يا أحبائي رأيت يوما عجوزا تبكي تقعى أمام الرخام البارد ولا تخشى عيون وأرصاد الجلف الجافي الذى بدد وضيع آثار صوته ، وصادر من شدا له يوما بالغناء الجميل ، وشوه السيرة الزكية ، استخف قومه فأطاعوه فكانوا من الخاسرين آه .. كل شيء يجرى إلى أجل مسمى والذكرى تمضى لمستقر لها .. النسيان ... كيف كان مزور عام على استشهادك يا ابن بنت الحبيب المصطفى؟ من زارك سرا ، ومن ذكرك علانية ، ومن أقسم على الثأر لك؟ ، وهل يستمر بكاء الخزانى في كربلاء؟ للذكرى أطوار ومراتب ، فأبي الذى كان يبدو لنا بعد شهر من رحيله ليس هو الذى ذكرناه بعد سنة ، ومولاي الشفيع الذى

أينع في قلوب المحبين النادمين بعد عام ، ليس هو من تبيكه دموع من عاشوا
زمنى . كذا عبد الناصر . وسيجىء اليوم الذى لن يذكر فيه إلا في السياق
العابر ، ثم يلوح زمن يبهت فيه هذا كله ، فالغواث يا اخوانى المحبين . كيف
يمكن صون ما كان من حشر الماضى وبعد المستقبل الآتى وصعوبة المسافات ؟
كيف ؟ من أجل هذا خرجت وحاولت . وجاهدت حتى وصلت إلى سادنى
في الديوان وألقيت عندهم بركى وحططت رحلى وفصلت خطى ، وكان من
أمرى ما كان ، ولم أعد أدرى كم انقضى وكم تبقى ؟ ومن مرشدى من بعد
مولأى الحبيب الشهيد ؟ إذا تحركت فإلى من ؟ وإذا اجتمعت فبمن ؟ وإذا
افترقت فبمن ؟ كل ما مررت به كنت منفصلا عنه حتى وان اندمجت فيه ،
قصيا عنه وان دنوت ، قال مولأى الحسين : إن اتبعنى فثمة ما يجب ألا
تسأل فيه ، وقد وقع الخطأ منى ، لكننى لم أبلغ بعد الحد الذى تحق علىّ فيه
الجفوة الأتم . مع أنى كتمت ولم أبح ، في مواضع كثيرة كان لايد أن أسأل
فيها واستفسر عنها فإلى من أحيل شيئا من نصبي وحيروى ؟ ، هذا كله ثقيل
علىّ ، فأنا وان بدوت ثابتا راسخا ، وأحيانا جهها صعب التقبل ، فإننى أرق
مما يلوح للناظر ، وأشرف مما يجيل للرائى . لا إله إلا هو يعلم السر وما يخفى ،
إنه على كل شىء قدير ، بكيت لأننى في نأى دائم عنى وعمن أحببت ، وكل
ما تعلقت به يقلت منى . صرت معلقا في فراغ عتم ، ما من نجوم بادية ، ولا
يابسة مأمولة ، افتقدت العلامة ، وتاهت الدلالة ، فتذكرت قول شيخى
الأكبر سيد العارفين محبى الدين ، ان الهم يولد كبيرا ويصغر كلما دام
واستصحبه الإنسان ، حتى ان المعاقب بالضرب ما يحس به إلا في أول ما يقع
به مقدارا قليلا ، ثم لما يتخذر موقع الضرب فلا يشعر به ، كذا الأحزان .
كثيرا ما أحاول جاهدا استعادة صوت أبى ، وعبثا أحاول ، فالأصوات أول

ما يستسلم للنسيان ، ثم تتبعها العادات الصغيرة ، كطريقة النظر إلى
 الموجودات وحركة الأيدي عند الحديث والاضطجاعة ، ولوازم الحديث ،
 وهيئة الضحك والاطراق عند التفكير وجوهر الحضور . يندغم هذا ، وتبتهت
 الفواصل ، ثم يتلخص الوجود الذى كان فى لفظ « أبى » ، « أمى » ،
 « صاحبي » ، وددت سماعه لكن لم يتيسر ذلك ، تمنيت الرجعى إلى منزل
 الأصوات الباقية لكن عبثا التفتى . نطقت بعتابي لمولاي وصفى وإمامي
 الحسين . أفى مثل حالى ينأى الخليل عن خليله ؟ أتصبح قصيا وأنا بحاجة إلى
 الأنس ، لو بقى الإنسان وحيدا لهلك ، سمى إنسانا من الأنس ، خمسة
 حروف متصلة أول ثلاثة منها أنس ، وهذا عين الحاجة ، فلو انقطع الأنس
 لامتنعت الأسباب ، كنت خائفا فى ترحالى هذا ، لأن وجودى تشتت ،
 فرأسى هنا واطرافي موزعة ، لقد جتتمونا كما خلقناكم أول مرة ، كنت وعيا
 مكتملا فى كيان منقوص . بكيت وأنا عاجز عن تجفيف دمعى ، فالصلة
 مقطوعة بينى وبين يدي ، ناجيت شفىعى أن يمن علىّ ، فالساعة آتية لا
 ريب فيها ، فاصفح الصفح الجميل ، وهنا هفوت كلى إذ رأيت الطائر
 الأخضر مألوف الوجه لى ، محبوبه عندى ، مظعمى ، رفر ف خالد حولى ،
 وتأهبت لأفتح فاهى مستقبلا زادى فأشبع بعد جوع ، وأطمئن بعد خوف ،
 وأستريح بعد كد ومشقة ، لكنه لم يفعل كما عودنى . اقترب مادا جناحيه
 الضوئين ، فكفكف دمعى ، ونزح من همى ، فدعوت خالقي أن يطمئنه فى
 أبديته ، وألا يضيحه أبدا ، وأن يعوضه شبابه الذى لم يتمه ، تبعته صاغرا
 مطيعا ، أمستكينا هادئا وأنا لا أعلم المراد بى . مررنا بفضاءات وقراغات لا
 مقابل لها فى العالم الإنسانى . لكن انشغالى بمقصدنا جذبني عن تأملها . إلى
 أى محط سننتهى ؟ وأبغض الحيرة الجهل بالوجهة . عند حد معين مقدر اتخذ

خالد سبيله في المجهول سرنا فعلت وحيدا بدون وحدة . إذ أتيت حتى
الإنساني أني مقبل على لحظات عجب ، ثم بدأ إلقاء المعارف في وعبي فعلمت
أنني أدنو من الديوان ، لكن من جهة تخالف الجهة التي جئت منها أول مرة ،
دنوت من سادتي ، انتظرت الإذن . علمت أن قدومي ليس كمجئتي أول
مرة ، وأنتى مستدع ولست ساعيا ، تطلعت وأنا خلو من الدهشة الأولى .
مولاتي وسيدتي الطاهرة في الموضع نفسه . وفي هذه المرة خيل إلي أن إطراقتها
تشى بشبه من إطراقة أمي ، فحتنت وملت ميلا ، وتلأل الألق الجميل في
عيني حتى صرت غير قادر على التزود فأغمضت حدقتي . وليت قبله إمامي
الحسين ، وقاض أساى فخاطبته بوجهتي وليس بنطقي ..

– لماذا تركتني يا قرة أعين؟

لم يجيني ، لكنني أعرف أنه يسمع ما تبطنه نفسي ، واجهته بلامح طفل
ضل عن والديه في قفر ، فهجره الأمن والظما والمأوى ، ولما ظهر له مرة
أخرى لم يبك ولم يهز معانقا ، إنما وقف صامتا يعاتب ويشكو ، إنها
اللحظات التي تمهد للبكاء المرير ، فيها الخوف من عودة الوقت الوعر
والوحدة والفرحة باجتماع الشمل ، ولما تصارع هنا كله غلب الحرس وغاب
النطق ، تقول رئيسة الديوان ..

– تشكو التعب؟

أوجز ..

– ما بدأت منه أعود إليه ..

تقول لي :

– اقرأ كتابك كني بنفسك اليوم عليك حسيا ..

– هنا يقيني ..

تقول لى :

- ومن ضل فأتما يضل عليها ..

- ليس للإنسان إلا ما سعى ..

ثم ينزل صمت ، جاءنى الإذن بالنظر إلى اكسير قلبى ونن بؤؤ عيني .
عندى طيف عتاب وغمام أمل وعبير رجاء ، فكيف لمن هو مثلى أن يعاتبه ؟

- مولاي .. لا أرجو إلا المودة فى القربى ؟ .

يقول الشفوق ، نزهة الناظرين ، وموضع الانصاف ..

- إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

- أولى شوق وآخرى تودد إليك .

يقول :

- ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ .

أنضرع ..

- يا نبع الصفاء يا مشرق المودة ، تعذبني قلة حيلتي ، وصعوبة

الطريق ..

يقول ميراث الوارثين ، ودره أصداف القرار المكين ..

- إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ..

- يا إمامي . لم يعد حالى حالى ، جئتك ملوعا بالفقد ، ولما أطلعتنى على

ما أفلت منى .. افتقدته أكثر ..

يقول صاحب الثغر البعذب المنكوث بعصا الظالمين ..

- كل شيء بقدر .

استمر فى قولى لعل وعسى .

- رأيت بعضا مما سمعت إليه ، هذا حق ، شاهدت مالم يتح لغيرى ،

هذا حق ، صحبتني ، وهذا شرف عظيم لم يحظ به إنسان من العالمين ، لكنني كنت متفرجا ، مبددا . لم أكن فاعلا ..

يقول مراد الطالبين ، ونهاية مقصد الساعين ..

- وجودك محدود وتبغى وجودا غير محدود ..

أهتف :

- أعى ..

يحييني :

- أعن نفسك ..

أتوسل :

- تهت الذكريات عندي ..

يقول :

- اسع ..

أفيض :

- يا حبيبي ، يا مغرب الأسرار ، باللطيف المنن ، يا رفيق الاشارة ، ما أبغيه

لحظة تبقى ولا تفتني ..

يقول :

- كل يوم هو في شأن ..

أشرح :

- مجرد لحظة عابرة ، تقع فيها عيني على من فقدت ، على من ضاع مني ،

على من طواه العدم ..

يقول شفيعى :

- لا يفنى أب له ابن ..

أقول :

- لكننى قصرت ..

تقول سيدتى ذات اللطف التوراني :

- بل ضيعت ما ضيعت ..

أستفسر خجلا :

- ماذا ضيعنى ، وبنى أى حيز فقدت ؟

يتسم :

- ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ..

ارتددت إلى صمتى ، ضاق اللفظ ، اتسع المعنى ، صعب المراد واستغلق

للمقصود ، وصار ما أراه قريبا منى ، غير أنى خفت الفقد فنطقت :

- وعزتك عندى ، ستجلى صابرا ولن أعصى لك أمرا ..

وهنا سمعت مولاي الحسن طيب القلب :

- جمال ، أتمنا لك ما رأيت لأنك سقتنا فيما جئنا له ، لكن المتاح مقدر

بأول وآخر ، وحتى تفر عيننا فإن متناك لم يحن بعد ..

وهنا نطقت رئيسة الديوان :

- أم تظن أنك مقدر بوجود لا يبلى وعمر لا يفنى؟؟.

أجيب :

- لا وجلالك عندى .

تقول :

- كل من عليها فان ..

أهمس حزينا الحزن كله ، أسيانا الأسمى للر ..

- عفوك يانقية ، رضاك ياطاهرة ، كان أملى استعادة ما ضيعته فإذا بي أضيع

ماتبقى لى ، ظننت أنى وصلت بينا أنا فى عين الفصل ، ظننت أنى اجتمعت وأنا
فى عين الفرق ..

ينطق أمامى :

- لست مهملا ولن تترك سدى ..

يتزل قوله بردا وسلاما على . تقول رئيسة الديوان ..

- أمامك المقامات ، فسلم وافهم واكتم ، دليلك شيخ العارفين محيى

الدين ..

.. وهنا عمرنى خوف ، ألم يحتر رأسى ؟ ألم يفرقتى عن بعضى ؟ ها هو ذا يقف
مهيبا ، بالضبط كما رأيته أول مرة . لمحت شها يجمعه بعظيم ممن عرفتهم أول
فتوى ، وبداية تلمسى الطريق ، الشيخ أمين الحولى الذى أثار بصائر عدة . وليس
هذا بالمقام المناسب لأفضل معرفتى به ، رأيت شيخى محيى الدين بن عربى يقبض
على قلبي فى كفه اليمنى ، يفك المنديل المنسوج من الضوء الغروبى والموشى بظلال
النجوم ، يسطر راحته فيك أسره ، يسعى قلبي ، نعم .. يمشى ، قلبي أنا المترع
من وطنه الذى هو صدرى ، ها هو ذا حى ينبض ، هذا خفقه ونبضه ، أتعرف
إلى الحقيقة المتعبة التى أصغى إليها الأطباء طويلا فى دنيا حسى ، قبل أن يصرحوا
لى بتعب قلبي نتيجة علة قديمة ، وكأنه لا ينقصه إلا عطب مادى مع انه ناء
وفاض . ها هو ذا يسعى ، ثم يسجد ، يسجد على مرأى منى أمام الديوان كله ،
يستدير تجاه مولاي الحسين ، أصبح قلبي يرى ، فى الصدر أعمى لأن الصدر
حجاب عليه ، والآن له رؤيته ، يختار وجهته بمنأى عنى ، فأنا التابع وهو
المتبوع ، يتناوله مولاي الحسين بيديه ، يرفعه ، يتأمله ، يمس إليه بما أجهل ،
يسلمه إلى شقيقته الطاهرة النورانية رئيسة الديوان . تنظر إليه ، تغلق عليه
الرحمة ، فهذا ميلدى ويكف زلزالى ، ليس بوسعى إلا المراقبة فلا أعلم المراد بى أو

بقلي ، كفاني رضا أن الحبيب أحاطه بأنامله وأسبغ عليه العناية ، وبث النفس
 العطرى حوله ، رئيسة الديوان تطيل النظر ، تمسك جنبيه ، تباعد ما بينها فينقلق
 كالثمرة ، يُنقسم إلى قسمين موصولين بريقة واهية ، فينصل ويصل ، في دنيا
 حسي خفت اجراء عملية لإصلاح علقى ، عندما علمت انى أغيب عن وعي ،
 وأن الطبيب المداوى يشق صدرى ويستخرجه ويغرز فيه المشط والرباط ، كنت
 أجزع ولا يغمض لى جفن كلما تحيلت ذلك ، وها هو ذا قلبى منفصل عنى ،
 ولست بفاقد شعورى ، ولا أدرى المراد بى وبه ، هاهو ذا قلبى شطران ، يفيض
 ما بداخله ، تتدفق أحزاني ، فيض لا يتقطع وسيل لا ينتهى ، عديدة لاحصر لها .
 حزن على ما ولى وافترق وهذا أعظمها ، وحزن على أحبابى الراحلين ، وعشتى
 القديم وآمال لم تتحقق ، وحزنى على ديار فارقتها ، وأرض أخرى لم أكن بالغها
 إلا يشق الأنفس ، وحزنى على أمسيات لطاف ، ولحظات قصار ، اتصل فيها
 الود بين العيون ، وأصغيت فيها إلى الأحية اصغاء جميلا ، ولحظات ودّعت
 فيها ، حزنى على الشفق ، ونزول الغسق ، وحزنى على نسمة لن ترجع ، حزنى
 الغامض ، مجهول الكنه والأسباب ، وحزنى الداهم المفاجئ الغتيت الذى
 يقبضنى من كافة جهاتى ، وحزنى السارى عندى على مهل فيكدر شربى ويعتم
 هواى ، وحزنى على أحزاني ، يفيض هذا كله من قلبى ، حتى إني تعجبت ،
 كيف اتسع حيزى لهذا كله ؟ لاحظت ان سيد عرش قلبى والمتولى على خفقاته
 يرجع الطرف بينى وبين مكنونى ، فرق فؤادى لى وصعب علىّ حالى ، دمعت
 دمعتين ، وهنا تناولت رئيسة الديوان قلبى كالوليد وعلى مهل غمسته فى وعاء
 الحنين ، ثم غمسته فى وعاء الشوق ، ثم الآمال ، ثم الرجاء ، ثم بللته بالرضا
 والصبر الجميل ، ثم جمعت أحزاني التى فاضت ، واستخلصت لها ودسته فى
 غرارة كيس قلبى الدفين ، ثم غسلت هذا كله فى الشفق الوردى ، وهذا جوهر

وجردى ، وخلصه سرى الذى لم يطلع عليه مخلوق ، فاحفظوه عنى يا هواة
ودى ، حفظكم خالق من كل سوء . لما فرغت رئاسة الديوان نظرت إلى ،
فتعاضم عندى الوداد ، ورأيت فيها هيئة أُمى عندما تتأملنى صامتة ، تنطق فى
سكوتها بما يعجز اللسان عنه من حنو ورفق وشفقة بى . تمد قلبى إلى شيخ
العارفين ، يلتفت إلى ..

– قلبك عندى أمانة ..

أسأل :

– لم ؟

– حتى لا يتحول ..

أولى بوجهى تجاه حبيبى ، أنطق من حزنى وخوفى .

– أنتفنى عنك ؟

يقول أنور الجبين :

– هذا شيخك فى مقاماتك .. اتبعه ، واخلص ، تكن من الكُمل ..

إذن . أوصانى تاج فؤادى ونبراسى ، فأسلمت أمرى ، وسكن ميلدى .

لكن بقى عندى خوفى من شيخى ، خوف التلميذ فى مواجهة أستاذه ، وخشية
المريد إذ يخلو إلى شيخه ، ورهبة الطالب الذى يحدّ فى أثر مطلوبه ، بقى خوفى
والخوف لا يكون إلا مع الجهل ، فلم أدر ما سيصير إليه أمرى مع شيخى ، خفت
مع أنى لم أخف عندما صحبت مولاى الحسين ، فهو الأمن وان أخافنى ، وهو
الرضا وان أسخطنى ، وهو الرحيم لى وان كدرنى أو عاقبنى ، أما فرعى الأكبر
الآن ، ان يكون هذا آخر عهدى به : فلا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا
تدرى نفس بأى أرض تموت ، لم أصرح بما عندى وإن أيقنت ما من شىء ينجى
على سادتى ، غير أننى لم أتأكد ان كان شيخى يحاط علما ؟ فارقت مركز الديوان

وعندى حنين إلى قلبي ، حنين لا يصحبه خفق ، فقلبي منق ، صار لي قانوني الخاص ، وحالي الذي لا حال مثله ، هاهو ذا شيخى الأكبر يسعى ، يخطو مهيبا ، لاتقص المسافة بينى وبينه ،-عبرنا منازل الديوان ، والحنين إلى صادق يشتد ويقوى ، ألم يغسل فيه قلبي ؟. تبدو من بعد سحق شجرة ، أو تكويننا يشبه شجرة ازداد اقترابا ، هذا جذع بعيد في أسفل سافلين ، وفروعها ضاربة في أعلى عليين ، لايقدر بصرى على الإحاطة بها ، وكلما اقترنا ازددت يقيننا باستحالة وصفي لها ، أو تصويرها لكم ، ولكننى باذل جهدى غير ملخوما في وسعى ، وخالق المعين فلا شبيه لها في الأوصاف التى أعرف :

- تلك شجرة الخلق .

أخذنى الهت ، وفى اللحظة ذاتها اتنتست بشيخى ، هو سيد العارفين الذى اهتديت على يديه قبل أن أراه ، وصحبته قبل أن ألقاه ، وحدثنى قبل أن أسمعها ، وشرح لى قبل أن يعلمنى بعضا مما يعلم ، وزادنى اطمئنانا شبه الغريب بشيخى أمين الحولى - رحمه الله - غير أن ماشاب أمنى وكبر طمأنينتى أنه هو الذى حزر عتى ، وهذا أنا ، المحكوم عليه بالأا يأمن أبدا حتى فى لحظات أنسه ، شيخى الأكبر يحدثنى :

- تلك شجرة لم يرها آدمى قبلك ، فأبشر بالخطوة .
لكل مخلوق من أنس وطير وحيوان وجن ورقة .
هنا ، يبدأ برعمها مع بدئه فى الحياة الدنيوية .
ثم تنمو مع نموه ، لاتتقدمه ولا تتأخره إنما توازيه .
تختصر مع شبابه وتصفر مع شيخوخته ، وعند الأجل .
المسمى يدب إليها الوهن فتسقط عند تمام النضج .
إذا نضج الثمر سقط ، وتلك لحظة مقدرة فى اللوح .

المرصود حيث ما كان وما سيكون

أصغيت ، ما أطلع عليه لم يره بشر إلا المصطفون من الكُمل ، مع ذلك أضمرت فضولا لم أفه عنه ولم أصرح به حول اللوح المرصود ، تمنيت لو أقف على مصيرى وما هو مقدر لى . ومصائر إخوانى ، لم أبح الآن إذ يسمى شيخى وأسى خلفه ، كنت أرى الفروع والأوراق فى جملتها وليس فى تفصيلها ، حيرنى مصدر الضوء الخفى ، فلم تعهده عيني فى دنياى ، سمعت ما يشبه الصراخ أو الاستغاثة فوجف فؤادى وتبلبل خاطرى ، ثم هدأ حالى لما عرفت أن هذا مصاحب لسقوط أوراق وانفصالها عن أغصانها وأن آجالا حانت وتمت ، رأيت أوراقا تتهدى وكأن رياحا خفية هيئة حنوننا تحملها قبل ذهابها إلى الهو السحيق . وقع عندى أسى ، فأوانى خريفى كذا مطلى ، والخريف يا أحبابى حد بين حدين ، كالفاتر بين الماء الساخن والبارد ، وكالصوت بين المخافتة والجهر ، وكالتبسم بين الضحك والبكاء ، وكالاغفاءة بين النوم واليقظة ، وكالنوم بين الموت والحياة ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . استوتفت أن كينونتى خريفية ، لذا قدر على الأسى الدائم المصاحب لى حتى فى ذرى بهجتى ، والذى يدفعنى إلى الصمت المفاجئ ، أو الإطراقة المباغتة ، بدون أن يبدو علىّ أو يلوح عندى ، وظل هذا مجهولا لأقرب أحببى ، عدا اثنتين ، الأولى أُمى ، والثانية سأبوح لكم باسمها إذ أنها ليست مصاحبة لى فى نشأتى الأولى ، رحم الله أيامى مع الأحباب الخُلص ، ولو اتسع المجال وتيسرت السبل فسأعقد فصلا خاصا بالخريف ، فالحديث طويل والأمر جلل . رأيت أوراقا لم تزل بعد خضراء تبتز فجأة ، تهوى ، واستحال علىّ رؤية المقر . قلت لشيخى الأكبر :

– أين منبتها وكيف غرسها ؟ .

قال لى إن الشجرة المثمرة إنما تنبت بالحبة التى ينموها أصلها ، فإذا غرست

تلك الحبة وغذيت وريبت حتى نبتت وفرعت وأورقت واهترت وأثمرت . فإذا نظرت تلك الشجرة رأيته في تلك الحبة التي نبتت منها هذه الشجرة ، فالحبة في البداية نطفة حتى أظهرت صورة الشجرة ، والشجرة في النهاية بها ظهرت فأظهرت تلك الحبة ، فهي من الوجود وهي للوجود ..
قلت : لا أفهم .

قال لي ان مثال ذلك تاجر عمد إلى فراشه وبزه فطواه في خزانة ملكه وعبأه أثوابا بعضها فوق بعض ، فأول ثوب دججه وطواه هو آخر ثوب أظهره وأبداه . ثم قال لي إن كل شيء في الكون الحسى من الحوادث ، كالتقص والزيادة ، والغيب والشهادة . والأعمال والأحوال ، والقول والفعل ، والتوق والدوق ، ولطائف المعارف فن ثمرها ، كذا البعد والقرب ، والمقامات ومناجاة العارفين ومشاهدات المحبين ، وعالم الصورة والمعنى ..

ثم قال لي : ما أنت إلا ثمرة من ثمارها ، وطرح من طروحاتها ..
ثم قال لي : أعرف ماتفكر فيه .. لكنك لو أردت الاحاطة بها فأنت في حاجة إلى عمر يماثل عمر الكون ، لكنني آتيك بما تقدر عليه وأقدر قبل أن يرتد إليك طوفك .. انظر .

.. يتأخر عني ، لماذا لم يتقدمني ؟ سبح رأسي حتى نقطة لم أستطع التقدم بعدها ، تطلعت ، لو أن قلبي معي لا تخلفت أضلوعي وتصدعت من خفقه ، أواجه غصني ، أحلق في وريقي ، حاولت النظر إلى نقطة التقاء غصني بفرع الشجرة لكنني لم أقدر ، تمنيت أن أدرك قوته واحتماله واستنتاج المتبقي ، استعصى على ، فالظلال مهمة والتشابك وعمر ، تلك حياتي ، الأقل منها والمقبل ، كل قديمي ومحدثي وما سأصير إليه ، أراها خطوطا نحيلة على الورقة التي لا أدري متى ستهوى ؟ غشاني الحزن الحريف الذي أعرف ، الغروب الذي طالما أوجعني الوجع

المهين ، كأنى أرى عمرى بعد الحتام والقفل . تمنيت لو شرعت فى المكوث حتى
أوقن أن ورقى لن تسقط أبدا . أن أثبتها ييدى ، أن أرهاها ، أن أرقها . لكن
أين يبدأى ؟ ومن يمكنى ، لو أعرف الآن متى سأقضى وإلام المصير؟ .

- فى اللوح المرصود ..

تطلعت بعينى الثقلتين بكسوف ثقيل إلى شيخى فى الطريق ..

- وما السبيل ؟

- أسأل سادة الديوان .. هذا ليس عندى ..

- أى وسيلة إليهم ، وهل أراهم مرة أخرى ؟ كيف الطريق إلى معرفة المحو

والإثبات ؟ غمزنى شيخى فى مؤخرة رأسى ..

- ارحل .. ولا تكن ممن أقام وحل ..

- إني من الراحلين أبدا ، لكننى أود لو أرى ..

قاطعنى :

- انظر ..

فأطعت ، رأيت الأشكال كلها من طول وعرض وانحناء واستقامة
واستدارة ، وتثليث وتربيع ، تلك الليالى كلها . الشروق والغروب ، والفجر
ومصادر الكتابة ، والبراعم التى تنبت الحنين ، وغصون الآمال الرطبية ، وجذور
الكدورة ، وتشابك هذا بذاك ، وثمر الانقباض ، طافت بي الخواطر وحممت
حول مصدرها . أوقى عند البدء فنفذت بالبصر الحديد إلى ليل بعيد ، تلك ذراتى
مشتتة فى دماء أبى وخلاياه . وتلك كامنة عند أمى ، رأيت شطرى من أمى يلتحم
بجزئى من أبى وأنا شىء ولا شىء ، التفت إلى شيخى أى أننى درت برأسى التى
هى كلى . فهم عنى بالصمت ، سمح لى فسددت البصر إلى ورقة أمى ، دهمتنى
فرعة إذ رأيت وهنها وضعفها واصفرارها ، عكنتى حزن وفرانى ضيق ، تلك

مصيرها إلى انفصال وشيك ، لو دار بي هذا الحاطر قبل ذهاب أبي لنحت النواح
الثاقب ، لوليت فرارا وملت رعبا ، لكنني تأملت ألما مصيره إلى محو ، بررت ذلك
بأن هذا مصيري أيضا ، وربما كنت لها من السابقين ، لكنني جاهل لا أدري ،
دعوت خالقي أن يذهب عنها الصفرة ، أن يبید وهنها ، أن يبده اخضرارا لكن
هل رأى أحدكم يا أوليائي ورقة شجر تخضر بعد صفرة ، أو تينع بعد ذبول؟ إذا
رأى أحدكم مثل هذا فليرشدني ، ليدلني ، دلکم خالقي على الطرق الآمنة .
والدروب السهلة الموصلة إلى الأمان وجنبکم سکتی المعطشة .. آمين ! .

لكن ماذا جرى عندي؟ وقد كان مجرد خاطر فراق أبي أو أمي يهمني في مقلتي
الدمع؟ مالي أو شك على الخضوع والامتثال لرحيل أبي؟ وللتعايش مع يقيني بأنني
لن أراه أبدا؟ مالي أستبق فأنجيل أحيانا أحزاني على اقلع روح أمي؟ مالي أحزن
لنفسى؟ حتى أنني لأرتى وجودى وأواني المغرب قبل تمامه؟ مالي وماذا جرى
لي؟ والله أنا في حيرة مذمومة ياخطارى ، الأمر حيرة ، الأمر حيرة !! .
يأمرنى شيخى أن أسدد البصر ، أرى تلك اللحظة من هذه الليلة جدران
حجرة في بيت قديم ، قريب من الأزهر ، لمبة الغاز مطفأة في الغرفة الوحيدة التي
لا تودى إلى غرفة أخرى ، مسامير مدقوقة في الجدار ، علقنت إلى رعوسها البارزة
جلايب أبي وستان أسود لأمي ، وقبص داخل بصلى اللون ، سبحان من أنعم
على بالكشف فجعلنى أرى اللون في العتمة . والمعنى الغائر في العيون ، في الركن
حشية يتمدد فوقها أخى الذى ظهرت ورقته قبلى ، اسمه كمال ، لم أر أخى الأكبر
واسمه خلف ، حل به الطوى قبل البسط ، تلملمت أيامه القصار وانطوت ،
مضت ، لم ينم برعمه ولم يمتد غصنه في شجرة الكون ، أما أخى كمال هذا فقد
رأيته ولم أره ، رأيته في العمر الذى ينسى فيه كل شيء ويمحى من الذاكرة
الواعية ، إذ غاب عنا وأنا ابن عامين إلا أربعة أيام ، فسبحان من له الدوام ، في

الناحية اليمنى مرتبة محشوة قطنًا يتمدد فوقها من هما أصلى وفصلى ، رأيت قفة من
خصوص مجداول بها ثياب وأربعة أرغفة شمسية من خبز قريتنا ، فوق صحيفة
مطوية وكيس نفوح منه رائحة ملوخية ناشفة ، هذا موقد غاز وتلك حلة من
نحاس ، وهذا براد شاي من الصباح الأزرق منقط بدوائر بيضاء وأربعة أكواب
من زجاج . أبي بين النوم واليقظة . ضجر ، أرق ، قلق ، يتذكر ما قاله عمر
النوبي خادم فندق الكلوب العصري ، انه عند الأرق يناغش امرأته ، يطلبها
فيهدم فينام ، رأيت قضيب أبي مولج في فرج أمي ، خجلت ، ولا أخفيكم يا
إخواني كسوف وحر جي ، فقد كشفت أمرا كان ينبغي أن يُستر ، لكنني مأمور
بالتصريح ، أدبت الواجب ، فاعذروني ولا تلوموني ، أنار الله بصائرکم ،
وخلص من الشبه أدلتكم ، هكذا وقفت على أول مشروعى ، ورأيت أول سعي
في الحياة الدنيا عندما سعى شطرى من أبي ليلتحم بجزئى من أمي ، علمت أن
برعمى في شجرة الكون مسقى بالضجر والأرق والقلق والضيق والحشية من الغد
الآتى ، علمت أنني بدأت غريبا وسأعيش غريبا كأبى ، كما بدأنا أول خلق
نعيد ، سأنتهى كما بدأت ، هذا ما لازمني وما صاحبنى ، بعد أن رأيت ما رأيت
خشيت مالا يجوز الحشية منه ، ألا أوجد مع أتى وجدت بالفعل ، ماذا كنت
سأصير إليه لو أن النوم غلب أبى ؟ لو أن أمي لم تستجب ؟ لو أنه استلقى على الظهر
واندقق منيه في حلم ليلى ؟ لو أن الذرات المؤدية إلى تكويني ضلت طريقها إليه ؟
ماذا لو أن أمي لم تخرج في ذلك اليوم ولم تعبر الرحبة ولم يرها أبى ولم يسأل الشيخ
عبد اللطيف : ابنة من ؟ فيجيبه : أزوجها لك ؟ .

– تساؤل طلما راودك ..

بوغت ، شيخى الأكبر يصغى إلى سريرتى ، يُبتسم لى ابتسامة لم ترخنى ،
يقول لى قبل أن أنطق :

- بل تمنيت ..
- تأملت ، قال بتأن بالغ :
- بلى . وددت أبا غيره .
- هذا بعيد عني ..
- وكنت فحجل من التصريح بوظيفته وعمله كساع .
- أسبلت جفني كبديل لإطراقة رأسي .
- كان ذلك في زمن جاهليتي ، قبل هدايتي وانحيازي إلى الفقراء أمثالي ،
- ومحاولتي تبديد الظروف المؤدية بهذا إلى فقر ، وذلك إلى ثراء ..
- هذا حق ، وما ذكرته أنا حق ..
- سيدى .. لم أتخيل الفراق أبدا ، كنت أصغى إلى القرآن الكريم يصف
- يوم الهول الأكبر ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وأحزن لمجرد تصوري
- أننى سأشغل عنها يوم الحشر الأعظم ..
- يقول شيخى الأكبر :
- كنت صغيرا ، ضعيفا ، في حاجة إليهما ..
- أتضرع :
- مولاي ، أنت تقسو على ..
- يا ولدى ، أنا أعلم الناس بما كابدت ، أعلم أن الشفقة ملازمة لسفرنا
- هذا . لكن للحقيقة قيظ مقض موجه ، يابنى ما من سؤال إلا له جواب ،
- فتأهب لتحل بمقام الاغتراب .
- أيطول مقامى ؟ .
- سنلقى ما كنت ستصير إليه لو أن ذراتك المكونة لوجودك افترقت وضلت
- وما سعت .

- وأبي ؟

- أيهما ؟

- أبي الذى من أجله خرجت ، من أجله جئت إلى الديوان .

يتسم ، لكنها ابتسامة تفضفض سكينتى ..

- أتذكره ؟

أتوجع :

- مولاى .. لست بضنين .

يملس شعرى :

- ارحل ..

أدرك أننا ننأى عن شجرة الخلق ، نفارق نموها وطرحها ، كإلها ونقصانها ، نلج خلاء كله غماء ، أعى أن الظلال التى رأيتها تتخلل الغصون والأوراق ماهى إلا المصائر البديلة ، انتبه إلى شيخى الأكبر يخاطبني بلا صوت ، بلا نطق ، تخرج المفاهيم من عنده إلى عندى :

- لما كان الخالق كل يوم هو فى شأن ، كان تقلب العالم من حال إلى حال مع الأنفاس ، فلا يثبت العالم قط على حالة واحدة ، لأن الله خلاق على الدوام ، ولو بقى العالم على حالة واحدة زمانين لاتصف بالغنى عن الله ، ولكن الناس فى لبس من خلق جديد ، فسبحان من أعطى أصل الكشف والوجود التنزه فى تقلب الأحوال والمشاهدة لمن كل يوم هو فى شأن .. فافهم !

* * *

مقام الاغتراب ..

﴿ .. على أن نُبَدِّلَ أُمَّتِكُمْ وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَىٰ قَلِيلًا فَذَكِّرُونَ ﴾
صدق الله العظيم

.. أبدأ بالاعتذار ، فاللحاق بهم ، والحال غالب ، وعندما سطرت ما ذقته
وعلمته أول مرة كان الأمر سهلاً علىّ ، وبعد تمزيق ما كتبت ، وبعد أن أمرني
شيخي الأكبر بإعادة ما دونت ، لقيت العسر والمشقة ، خاصة وأنا لست أنا ،
كما أن وجودي ليس وجودي ، وهنا أصنّت فلا أبوح ، فثمة سر عظيم أعذكم
بالكشف عنه في المقام الأصح والأوان المواتي . نعم .. فالهمم وعمر . وعلىّ أن
أدرك ما بين الظل والأصل ، والصلة بين الراشحة والزهرة ، أن أرى بعيني مادة
الفكرة ، أن أسبح من المصب إلى المنبع بلا مدد ، خلواً من المعاونة أو مساعدة
مرجوة ، علىّ التثبيت بما لا يثبت أبداً ، بما يقلت وينأى دائماً وتعمجز القدرة
الإنسانية عن ادراكه أو اللحاق به ، ولولا التكليف لما أتمت ، لهذا لو بدأ
الأمر صعباً في موضع ، مستغلقاً أحياناً ، أتمس العذر ، لكن صدقوني في كل
ما أسره أو أعلنه . فلم أحرف ، ولم أبدل القول الملقى علىّ ، ولم أموه ، ولم
أكذب ، لم أتجامل ، ولم أجمال ، ولم أدون خلاف ما عرفت أو رأيت ، هذا
حق ، وسادق أركان الديوان ، وشيوخى ، الأفاضل ، وأصحابي في الطريق ،
وكلهم علىّ شهود ، أصرح بهذا عند بداية المقام لأنني واجهت ما استغلق
علىّ ، وما لا يمكن التعبير عنه بمفردات النطق والكتابة . من ذلك علىّ سبيل
المثال لا الحصر ، أن وجودي الجثمانى المختصر فى رأسى ، امتزج بوعبى ، وصار

بديلا عنه أحيانا ، أى أن وعيى أصبح عوضا ، من ذلك ادراكى لحركتى دون قدمين ، وقبضى على المحسوسات دون يدين ، ونظرى إلى المراثيات بلا عينين ، واصغالى دون أذنين أقول أنا التائه مفتقد المضجع والمقر ، انى أطعت فتبعت شيخى الأكبر حتى انتهى سعينا إلى مدينة غربية عنى مألوفة عندى ، غربية لأنى لم أجتربواباتها ، لم أحط بمطاراتها ، لم أرتد مقاهيها ، ولم أتأمل واجهات بيوتها ، ولم أعبرجسور المؤدية إليها ، ولم يتبدل هواى فى طرقاتها ، مألوفة لى إذ خالجنى يقين أننى عشت بها زمنا ، وأننى أنفقت من عمرى فيها قدرا ، متى ؟ هذا ما لم أقف عليه كيف ؟ لم أجد الإجابة . وسبحان علام الغيوب ، رأيتها كلها كأنى أقف فى نقطة شاهقة من فضائها ، أسطح البيوت محذبة ، بعضها مكسو بقرميد أحمر ، أبراج كاتدرائيات ضخمة ، ومثذنة وحيدة مغربية الهيئة ، جدران رمادية ، ونوافذ مستطيلة ، شرفات قليلة مغطاة ، أرصفة عريضة ، وأحواض مستطيلة للزهور ، ومقاعد متباعدة للجلوس المتعبين ، ومراسى قوارب ، وسفن صغيرة ترسو فوق مياه نهر يتخللها ، نهر ليس فى اتساع النيل الذى أعرفه ، نيلى العريض المهيب القديم ، النيل غريب الصمت كما وصفه شاعر من صحبى فى زمنى - الأبنودى - وهو يهجو الحلف الجافى حيا ، لعنه الله أبدا ، رأيت جسورا حجرية على جانبيها تماثيل برونزية لآلهة قدامى فى هيئة بشر ، وأعمدة اضاءة استوحى صانعوها الأغصان المورقة ، تنتهى بمصاييح تشبه تلك التى رأيتها فى زمن صباى معلقة إلى جانبي عربات الحنطور التى كانت تصطف عند مدخل شارع الأزهر ، رأيت المطر متجمعا فى وهاد الطريق وعند نهاية الأرصفة المنحدرة تلتصق قطراته بأوراق الشجر المصفرة والجلذوع المجذبة ، وأسوار الحدائق وزجاج مقصورات التليفون العمومية ، والمقاعد الخشبية المتباعدة ، إذن .. جئت فى زمن المطر الشتوى ، يداخلنى

انقباض ، لو ان قلبي معي لتسارع خفقه ، لكنه مني عنى ، ذلك تقدير العزيز
العليم ، أعرف ضيق عند نزولي وحيدا إلى مدينة أول مرة ، لا يعرفني فيها
أحد ، لا يتظرني أحد ، عندئذ يدهمني حنين إلى زمن فارقت ، وأقسي ما
كابدته في عمري الدنيوى الحنين إلى ماليس في متناولى ، هذا سر كدوراتى ،
ولب عذابى ، في اللحظات الأولى لا أطيق البقاء ، أتمنى لو بقيت وما
فارقت ، لو اقت وما غادرت ، أتمنى الاستيطان أنا المقطور على الرحيل
الأبدى ، وعند تدوينى ذلك الجزء من هذا المقام تجلت لى أسمى فأحاطتنى دهشة
من كافة جهاتى ، تلك المرة الأولى منذ سلوكى الطريق . تواجهنى ، تقف
أمامى ، تغدق على حنانا غزيرا ، ومودة ، ورغبة دائمة في القرى ، ورقة ،
وتهدينى سلاما كثيرا ، لم أدر إلى أى مرحلة من عمرها تنتمى ملاحظها؟ إلى شبابه
أم شتاء عمرها؟ تغطي رأسها طرحة بيضاء ، وترتدى جلبابا أبيض ، والوشم
الأخضر يلعب وكأنه وشى ذقها بالأمس ، لماذا تتجلى لى ؟ ماذا جرى ؟
تقلقت ، وتمتيت الرجعى إلى شجرة الكون لأستوثق ثبات ورقتها وبقاتها ، بدأ
عندى حزن غامض غريب لم أعهده أنا الذى ظننت أننى خبرت الأحران
كلها ، حزن هادئ ممض يدفع بدمعى إلى مشارف المآلى ، لكنه لا يسكبه فيظل
حيسا . حزن فائر بين بين فلا يفنى ولا يزول ، ولا يبلغ حده الأقصى ، يبدأ
عندى القلق الممض الموجع ، قلق الابن البعيد المسافر الغائب ، ينبثه الشعور
الدفين أن أعز الناس عنده لحقه أذى ، يود الاطمئنان ، لكن ما من نبأ يقين ،
بيننا تعصف به الهواجس وتغريه الظنون ، ويقدر ما يود أن يهتدى ، غير أنه
يتمنى لو ظل على جهله حتى لا يفجع بالنبأ العظيم ، كلا ستعلمون ، ثم كلا
ستعلمون ، علم اليقين ، وقت أسمى الذى تواجهنى به شفقى وان لم أدر أهو شفق
ما قبل ، أم ما بعد الغروب ؟ أما زمنى فختلط أمره على ، وهذا ما أعتمنى ،

أن يكون لها زمن ، وان يكون لى زمنى ، فاحجب غضبك ومقتك عنا يا اعلام الغيوب .

- يا جهال ..

تطلعت بعينى ، أجبته بجبي وخضوعى ورغيتى فى الدنو..

- ألم تسمع أن الدنيا لا قرار لها وانها تتقلب؟؟.

قلت : نعم ..

قالت لى : اجعل فضلا فى ذلك المقام لهذا المعنى ..

انتهى التجلى فولت ورحلت ، امثلت لمطلب نى عبنى ، من كان رحمها

أول موطن لى فى هذا الكون ، استخرت الله وبدأت الكتابة ..

فصل

.. جنبكم الله يا أحبائى الغفلة ، وسط سرائركم ، وخفف الحنين ، وجنبكم اللوعة والحيرة المذمومة ، والنأى البغيض عن الأحبة ، واليأس التام من لقاءهم ، وقاكم الله لظى الغربة ، وتلوجة الوحدة .
اعلموا أن أصل الأشياء التفرقة ، لا أذاقكم ربي مرارة الفرقة ، يحن الإنسان إلى بلد أو مكان خلاف ما عرف وألف ، ويذل الجهد والنفس الوعر الأشق ظنا منه أن سيلقى الراحة التى يفتقد ، ويحقق الأمل الذى عمجز عن الوصول إليه ، ويبلغ المأرب الذى سعى دوما إليه ، حتى إذا سافر أو هاجر أو انتقل ، وأصبح البعيد قريبا ، والقريب بعيدا ، حن إلى الوطن الأول ، والموضع الأصلي ، ورأى فيه مالم يره أثناء كونه حاضرا معاشا ، عندئذ يحن ويهفو ويتذكر فيأسو ، وربما ضاق الإنسان بزمن معين حتى إذا ولى وصار ماضيا

مفتقدا حن إليه ، فالحنين لا يكون إلا لماضٍ أدبر ، وقد قاسيت هذا كله ، حتى
أتى أهفو أحيانا إلى لحظات من زمن سجنى وتقييد حريتى ، واستعيدها فأبتسم
وأنا فى جمع وصحبة .

وعند هذا الحد من التقييد الذى بدأته امثالا لمطلب أمى ، رأيت مولاي
وشيخى الأكبر يميل علىّ ، فصرت أخط ما يمليه هو ، وليس لى من الأمر
شئ

وصل فى فصل

أملى شيخي محي الدين ما نصه :

.. إنه لا يوجد أحد راضيا بحاله فى الوجود أصلا ، ولذلك علة أصلية وهى
أن الحق كل يوم هو فى شأن ، فما تجد أحدا من صالح ولا غير صالح إلا
ويطلب الانتقال من حاله ، هذا هو السارى ، ولا ترى أحداً إلا وهو يذم زمانه
ويحمد ما مضى وخلا من الأزمان ، وليس زمانه إلا حاله منذ وجدت هذه
النشأة ، وأى زمان كان فيه بنو آدم فى وقت آدم نفسه ، حتى ذكر أنه قال فى
نظم له بلسانه ما ترجمته .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
فالإنسان يذم يومه ، ويمدح أمسه ، وهو الإنسان عينه لاغيره ، وقد كان
أمس يذم يومه ، ويمدح أمسه ، وهو الإنسان عينه لاغيره ، إن الإنسان مجبول
على القلق من الضيق وطلب الانفساح والانفراج عنه ، ويتخيل أن كل ما هو
خارج عنه فيه الانفساح من هذا الضيق الذى هو فيه ، وذلك أن الإنسان إذا
كان فى حال مامن الأحوال فإنه مقبوض عليه بذلك الحال لإحاطته به ، فيحمد

نفسه محصورا ، ويرى ما خرج عن ذلك الحصر انه انفساح وانفراج ، لأن الأمر الخارج عن حاله ما هو واحد بعينه فيضيق عليه الأمر ، فلهاذا يجد السعة فيما عدا حاله الذى هو عليه ، فإذا خرج من ذلك إلى الاتساع المتوهم ، فيجد الانفراج فيما فاته ، والضيق فيما احاطه ، فيطلب الإفراج عنه ، كما طلبه في الحال الأول ، فلا يزال هذا ديدنه والله يخرججه من اسم إلى اسم دائما ، أبدا .. انتهى ذلك ..

رُجِّعَى إِلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ

كلما بدأت غربتى ، تتابنى خشية موت الفجأة ، فلا أرى الأهل والصحب ، غزاني هذا الخوف عند مقدمى هذه المدينة التى لا أعلم ما سيجرى لى فيها ، وأين مأوى؟ يبدأ دنوى ، أجيء من جانبها الأيمن ، هذا الطريق السريع ، وتلك الأشجار المنمقة ، متجاورة فى خطوط متساوية ، جذوعها نحيلة ، تبدأ غصونها التفرق والتفرع عند المنتصف ، ثم تتجمع فيما يشبه الاكليل ، الحدائق تتخلل البيوت وتحف الحدود الخارجية بما يشبه الاطار الأخضر ، مداخل البيوت منطوية لاتفصح ، الستائر مسدلة ، تنبعث أضواء خافتة تشى ولا تشى ، العربات تمرق مسرعة ، لافتات الأرقام صفراء ، قطعت مسافة لا أدرى ان كنت سابحا أو طافيا ، يصير احساسى بوجودى عجيبا وكأنى أبدا الشاة الأخرى ، تلك نافورة متعددة الشعب تطلق مياهها إلى علو ، تتخللها الأضواء الناصعة فتتلاأ عبر القطرات الماسية ، رأيت نافورة ميدان التحرير فى قاهرى النائية عنى ، كان ذلك أول زمن عبد الناصر، عيد من أعياد الجيش ، أبى يحمل أخى على الأصغر ، أمى تمسك يد أختى وإسماعيل إلى

جوارى ، فى الحديقة جمع ومارة ونحن كل ملتئم ، نتفرج على الأصواء الملونة
الحمراء والصفراء والزرقاء ، وموسيقى تعزف من مكانا ما ، واعلان ملون يبرق
فوق عمارة مرتفعة مطلة على الميدان ، النافورة انشاء حديث ، والسماة نائية ،
والزمن آمن ، والليل فى بدايته وأبى يشير بيده ناحية النهر يقول لنا إن ثكنات
الجيش الإنجليزى كانت عند هذه الناحية . وأمى تطرق صامته ، رأيت نهارا
مجهولا نائيا غائبا نقف فى حديقة الحرية التى تتوسط الجزيرة ، نواجه كاميرا
تستند إلى ثلاث قوائم خشبية ، ورجل عجوز يدس رأسه فى كيس مفتوح من
القماش الأسود ويطل ليشير بيده حتى نعدل وقفتنا ، وهذه صورة يتيمة وحيدة
تجتمع فيها معا . ولو أنها معى لنظرت فيها ولقيت من هذا الزمن المنذر أترا ،
أين هى الآن ؟ أسألوا يا اخوانى هذا الضابط الغيت الذى طرق بابنا فى الفجر ،
وأرعب أمى وأرجف أبى وأفزع اخوتى مما ترك أترا غائرا فى شقيق الأصغر على لم
يمح حتى كتابتى هذا ، رأيت إخراجة أوراق وكراريسى وصورى ، استولى على
هذا كله ، فجردنى من كتر ذكرياتى ، حتى صورى مع زملاء دراستى الابتدائية
والاعدادية ، جردنى من كل أثر احتفظت به حتى العام السادس والستين بعد
التسعة والألف ، فلم يعد لى من ذلك الزمن المتقضى ما يحتفظ بلامح
أحيتى . تلك الصورة راحت فى راح ، ونافورة ميدان التحرير زالت كذا
نسات العصارى التى هفت وبلت فؤادنا ، وتلك النسمة العفية التى تحللت
شعر أمى المثل من تحت الطرحة فحركت خصلة منه وبدلت موضعها على
الجبين ، راح هذا كله كأنه لم يكن ، فسبحان من له الدوام ! ، رأيت ثلاثة
مقاه متجاورة ، مقاعدها مصفوفة وراء حواجز زجاجية ، مظلاتها حمراء ، تقى
الجلوس برد النواصى وورذاذ المطر ، أين أنا ؟ لم يكشف لى ذلك ، وعندما
تأهبت لألقى نظرة على طريق فسيح يصعد من الميدان إلى مرتفع يتخلله درج

حجرى ، رأيتنى أسمى ، فصحت من روعى ..

- إذن ، أنا فى خلق جديد ..

وأأتانى صوت شيخى الأكبر من حيث لا أدرى .

- بل أنت فى خلق بديل ..

انقطع الصوت فشيخى ليس فى مجال بصرى وان أدركت أننى فى متناوله ، لم أر ملامحى ، فكنت كمن ينظر فى المرآة فىرى شخصا غيره ، هو هو لكن ليس هو ، أو من يضع رأسه بين وسادتين فيصغى إلى قلبه ، نبضه آت من داخله ويبدو وكأنه قادم من خارجه . فسبحان من يعلم ما فى الصدور ، هذا ما كنت سأصير إليه إذن لو أنى لم أنشأ النشأة الأولى ، شاب طويل القامة ، نحيلها ، بنى الشعر ، حواجه كثة ، خطاه مسرعة بعكس خطاى المتسمة بالتهمل والتأنى ، الشوارع خالية ، هذا أنا ، لكن من أكون وإلام بعثت ؟ من أين جئت وإلى أين ؟ كنت كمن يرى نفسه فى حلم . يرى نفسه من الخارج لكنه يفكر ويشعر ويتألم ويحاور الآخرين ، وهنا ألقى فى وعيى بعض أسرار هذا المقام ، ومنها أنى سأعيش خلقي هذا ، غير أن ثمة كرامة خصصت بها وهى احتفاظى بحياتى الأولى فى أصل وعيى ، أما هذا الفتى فلن يعي ، ذلك أن الكرامة خصت وجودى القديم ، ومن أسرار هذا المقام أيضا أن الأمور كلها لن تتجلى وبعضها يسير هين ، من ذلك اسم هذه المدينة وموقعها ، مضيت أتعقب ظلى وأثرى حتى حلت بى ، فأصبح البصر واحدا ، وإن بقيت أنا أنا وهو هو ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ، شعرت بلمس ملابسه على جسده الذى هو جسدى ، وبرودة الهواء تلمح وجهه الذى هو وجهى ، ومسنى حزنه فصار حزنى ، وهنا دخل عليه حنينى إلى موطنى فأبغى حنينه ونما وإن حن إلى أصول أجهلها وأمور لم أعهد لها ، إلى بيت قديم يقع فى نفس المدينة التى أحببتها

وضقت بها أحيانا ضيق الحبيب من حبيبه ، قاهرنى .. إذن ، المنبت واحد ،
سيحانك يا قاتل الحب والنوى ، فى هذا البيت جد وجدة ، وخالة ، وأبناء
خالتي تلك ، فتى يماثل عمري ، وقتاة تصغرني بثلاثة أعوام ، ومكينة قديمة
مزدحمة بالكتب ، وشرقة تطل على ميدان باب اللوق ، وأضواء مآذن
رمضانية ، وطرفات خالة عند الغروب والافطار بعد صوم يوم طويل ، ورائحة
سمك مقلى عند ناصية ، وضجة مقهى ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض ويحمل
فوق رأسه سلة ضخمة يبرز منها السميط والكعك وعيدان الجرجير والجبن
الرومى وشطائر الطماطم والخيار يسند السلة فوق صندوق معدنى داخله مفاتيح
كهربائية أمام بار قديم ، لا يظهر الرجل إلا بعد العاشرة مساء ، شاطئ النيل
والقعاد أمام المياه المتدفقة على مهل ، وبما غذى الحنين افتقاد النخيل الكثيف ،
والأيام الطفولية الأولى ، والرحلات المدرسية إلى الأهرام وحلوان والقناطر
الحيرية ، أسرع الخطى فالوقت يتبدد ، والليل موغل والنذر تسمى بتساقط
الثلوج ، والخطر يكن فى الشوارع ويحلق بالمتجولين فرادى ، والماضين بلا
صحبة وأنا غريب ، صحيح انى أتقن لغتها كواحد من أبنائها ، لكن فى كل
سنة لابد من موافة لتجديد اقامتنا سنة أخرى ، الأجانب هنا مكروهون حتى لو
قضى كل منهم عمره كله ، ولو هاجمنى أحد أبناء هذه المدينة فلن تنصفنى منه
الشرطة ، بل ستنصفه على ، إذن أنا أجنبي ، وهذا أغرب ما صادفتى ، أن
أصير أجنبيا أنا الذى قضيت أصل وجودى أأتس بالوطن ، « لا أقسم بهذا
البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » ،
وأى كبد أقسى من أن يكون الإنسان أجنبيا ، دائما تحذرنى أمى ، وتذكرنى
وتبه على أن أحذر الدخول فى مشاجرة أو أصيب شخصا أثناء لعب عنيف ،
أفضل لى أن أرجع إلى البيت ، هكنا يجب أن أسرع ، هكنا علمت لأول مرة

من خواطره - أى خواطرى - أنتى أعيش هنا كأجنبي ، وأنتى أعيش مع أبى ،
وان أمى تعمل فى أحد البنوك ، وان لم أدر طبيعة عملها أو عمل أبى ، تلهفت
لرؤيته ، ماهيته ، كيف يبدو ، كم عمره ؟ لماذا فارق موطنه ، وجاء إلى
هنا ؟ ، وعند هذا الحد نشب داخلى حنين إلى أبى أنا ، إلى أمى أنا ، ذكرت أبى
والأسى ينهل منى ، وحدة الحيرة تقطعنى ، أى زمن هذا ؟ هل يسمى أبى
وتسمى أمى الآن أو أنها رحلا منذ زمن ؟ وأين أمى التى بدأ قلقي عليها منذ
تجلبها لى ومخاطبتها لى ، ثم طلبها أن اخصص فصلا ، كلما استعدت هيتها
ارتعدت ، فالساح الذى شف فى عينها كان رقرقا حانيا ، كذا الطيبة ، وهذا
التعبير الغامض فى عينها الذى لا أجد له وصفا إلا أنه أقرب إلى الإفصاح عن
السلام النهائى ، السلام الذى يعقب آخر الخطى واتمام المرحلة ، هل يخاف
الإنسان من نظرة حب وحنان تصله من عيني أمه ؟ ، نعم ، إذا كان ما بهما يفوق
طاقة البشر ، ويوحى بمجهول ، فالستر والرحمة يا من خلقت آدم بين الماء
والطين ، احمها ، وخفف عنها وخيب ظنوني بحق جاه حبيك المصطفى ،
حننت إلى أصلى عندما ايقنت اننى أوغل فى ذلك المقام حتى وددت مفارقتة ،
ظهور أم أخرى لى بعث الشاؤم عندى ، فالستر ، السترا ، لا أنكر أن فضولا
تملكنى ، غير أن خروجى عن أصلى أرىكنى وأحزنى ، كأننى سأصير بددا ،
ليس لى إلا ما سعيت ، لذا نظقت لأول مرة « يرحمك الله يا أبى » ، وقد
حشت نفسى زمنا ليس امتناعا لكن رفضا لرحيله وانكارا ليقينى أننى لن أراه
مرة أخرى عندما كان الألم نصلا مغملا فى قلبى لا يقبلنى لا يوقفنى ، لا يربحنى
ولا يرهقنى ولا يذيقنى الوسن ، كان الطيبون الأقربون يقولون لى ، ماذا أنت
فاعل له الآن ؟ ليس بوسعك إلا أن تطلب له الرحمة وأن تقرأ له الفاتحة . أسمع
هذا فلا أزداد إلا عصيا ، طلبى الرحمة يعنى أنه ميت وهو عندى حى ، كم

استمر ذلك ؟ شهوراً ؟ سنين ؟ لا يمكنني التحديد ، لكنني مع ذكر الأوقات الذى لا يمكن رده صرت أقسم « ورحمة أبى » ، ثم لا أنطق إلا صدقا ، ومن يذرى . ربما أقسم يوما كذبا ، عندئذ يكون النسيان قد اكتمل ، والأساس الحى عندى قد احتضر ، تلك عقباى إذن ؟ الغواث يا مرادى الأصنى يامن نأيت عنى ، وضننت علىّ بصحبتك ، يا حسبنى ! ربما تعلم ان نسيانى مكتمل ولم تصرح لى شفقة علىّ ، النجا ياشيخى الأكبر ، يا محيى الدين . لم يجبنى صوت ، ولم يرتد الىّ صدى ، استمر سعي ، عبرت طريقا رئيسيا ، رأيت امرأة ترتدى معطفا جلديا تتحدث داخل مقصورة التليفون ، المخازن مغلقة ، الأزياء فى عتمة الفتارين ، الصيدلية ، متجر لبيع اللبن والأجبان ، اعلان عن فيلم ، فتاة طويلة الشعر عارية الصدر تتعلق برجل أشيب ، اعلان عن حقائب سفر ، مييد حشرى ، أسرع إلى الشارع الجانبي ، على الناصية مطعم صغير لبيع الوجبات السريعة والشطائر المحشوة باللحم أو السجق أو الجبن المفروم ، عند مدخل الشارع معرض قديم للسجاد الشرقى ، يعرض فى الفاترينة قطعاً صغيرة ، مدنشة من الحرير ، وكأسا عتيقا زجاجيا أزرق ، وعقدنا من محار ، يحلولى ويطيب توفقى وتأملى النقوش الغامضة حتى عندما يكون المتجر مغلقا والعتمة مستبدة ، إنها المنطقة الراقية من المدينة ومجرد السكنى هنا تدل على التميز الاجتماعى ، لكن قبل المحيء إليها مررنا بمختلف أقسامها ، خاصة ابى الذى نزلها فى البداية وسكن حجرة وحيدة مع خمسة من المهاجرين العرب ، تلك أيامه الأولى هنا القاسية التى يندر حديثه عنها ، منزل رقم (١) ، (٢) ، (٣) ، (٥) ، تلك البوابة الحديدية السوداء ، أخرجت حلقة مفاتيح ، مفتاح مدبب ولجته فى تقب يتخلل لوحة معدنية معلقة إلى جوار الباب ، يصدر صوت معدنى مختصر ، حجرة الحارسة مغلقة ، بعد الثامنة ليلاً غير مسئولة عن

فتح الباب ، كذا أيام الآجاد ، لمحتها من خلال زجاج النافذة المغطاة بستائر شفافة تجلس إلى منضدة في مواجهة زوجها عامل البناء ، كلاهما صامت ، اعبر الفناء ، مغطى بسجاد أحمر اللون ، قبل أن ألج باب السلم الداخلى استدرت ، الطريق عبر البوابة ، قطرات المطر تلمع فوق سيارة منتظرة ، للبيت رائحة خاصة ، خليط من رائحة القدم والدهان الخشبي والطلاء الراسخ القديم ، وآثار باهتة لعطور يتطيب بها نساء عبرن ، تذكرت أنا - وليس أنا - البيوت التي عشنا فيها معا ، وضمت أيا منا المنقرضة المولية بلا رجعى ، بدءا من الحجرة الوحيدة فوق السطح في حارة الطبلاوى التي أول ما فتحت عليها عيني ، وشقة الدرب الأصفر ، وأيام المشقة فيها لارتفاع إيجارها وتجاوزها طاقة أبى ، ثم عودتنا مرة أخرى إلى درب الطبلاوى ، ثم انتقلنا إلى باب الشعرية ، فالمطرية شهرين لا غير ، حتى استقررنا في مدينة نصر الذى كان سقف مسكنا فيها آخر ما رأى أبى ، وهنا برق عندى في هذا المقام تفسير لأمر رأيت في أسفارى لحظة ميلاد أبى ، عندما وقعت عيناي على منطقة صحراوية مهجورة ممتدة شمال القاهرة ، لا يطرقتها إنسان ، ولم يخطر ببال أن العمران سيمتد إليها وأن البيوت ستقوم فيها ، مبان متجاورة ، آخر ما شيد للفقراء ورقيق الحال في زمن عبد الناصر بعدها وبعده لم توضع طوبة فوق طوبة من أجل عامة الناس ، وصار المأوى على القادر صعباً ، فسبحان الذى منحنا المأوى قبل زمن الجلف ، وإلا لصرنا إلى أرصفة وضياع ، قبل بداية الحرب التي قبل إنها آخر الحروب شهرين انتقلنا إليها ، لم يكن للعمارة باب خارجى يعلق ليلا وحارسن ، كذا جميع البيوت التي عشنا فيها وتورع عمرنا عليها ، وما أبعد الشقة بين ما عسته في أصل وجودى ، ونشأتى البديلة ، أى ناب هذا وأيس أنا من هذه الاحتياطات ، الباب المكهرب والباب المغلق والباب المانع والباب المؤدى إلى المسكن الذى

أعيش فيه ، كأتى ألج بيتا غربيا أول مرة مع أتى أعيش فيه ، أتوقف ، الباب خشبه عتيق ، تتوسطه يد مضمومة نحاسية ، أمسك حلقة مفاتيحي ، مفتاح قديم الطراز ، تهب رائحة الأماكن المغلقة ، هواء رطب غير متجدد ، ظلال مستقرة لا تتحرك ، وأثاث وآثار تدخين ، تمتد يدي إلى مفتاح الكهرباء الذى أعرف مكانه بوضعي الجديد وأجهله بخلقي الأصيل ، إلى اليسار غرفة الاستقبال والمائدة ، أدت ملقاة الزيت ، البيت قديم ويخلو من التدفئة الشاملة ، أخلع جاكيتي المبطنة بالفرو الصناعى ، ألقيتها فوق المقعد المجاور ، مشتهرى أمى وتذكرنى بضرورة وضع كل شىء فى مكانه ، إنها تعود مرهقة وما ترجوه أن يخفقا عنها العبء ، من يأكل فى طبق فليغسله ، ليرجأها قليلا ، أنا جائع ، منذ الصباح لم آكل إلا رغيقا بالجبن ، أدخل المطبخ الفسيح ، فى الحوض المعدنى كومة من الأطباق المسخنة ، علبة الشاى مفتوحة ، ماذا آكل ؟ تهب البرودة من التلاجة ، تتجاور علب الجبن فوق الرف العلوى ، جبن أصفر ، جبن مطبوخ ، جبن بالصلصة ، أمى تفضل الجبن المخلوط بالثوم ، الحبز ، أين الحبز ؟ تضعه أمى فى الدرج التحتى المعلق داخل أكياس من النايلون حتى لا يخيف ، سحبت الدرج .. خال ، لم يعد أبى خلال النهار ولن يرجع قبل منتصف الليل ، أغادر البيت فى ساعة مبكرة فلا تتاح لنا اللقيا إلا فى أيام الأجازات ، فى الصباح الباكر أمر أمام غرفته على أطراف أصابعى خشية انقلابه ، لا يصحو قبل التاسعة أما أمى فتكون قد فارقت البيت قبل استيقاظى وأحيانا أجد رسالة منها فوق رخام المنضدة الصغيرة بجوار الباب ، تمنى لى يوما طيبا ، وتتهنى إلى موضع طعام الإفطار والغداء ، وقد توصينى بشراء شىء ما عند عودتى ، وفى الأغلب الأعم أنسى ، وهنا رأيت فى وجودى الأصيل حارتنا القديمة فحنت ، تلك رائحة الظهيرة التى طالما امتنشت ، الغسيل

المدلل من الشرفات والذي قارب أن ينجف ، رائحة ثقيلة بدأت تفوح ، فعودة الرجال اقتربت ، لم يتأخر أبي عنا ، لم تحمل الثالثة عصرا إلا وهو يتنا ، يظهر عند المنحنى حيث فرن الحاج ناصيف ، أسرع زاعقا ، « بابا جه » ، « بابا جه » ، يتقدم عبر الحارة بخطاه السريعة ، يماه تنحرف قليلا مما يجعله يميل إلى الأمام قليلا ، وهنا تغير بدأ معه بعد أن أودعته أمه الليل وتركه وحيدا أثر علته خوفا من ابدال الجن له ، وقد عاينت ذلك بنفسى فى أسفار الغربية ، سفر الابدال ، فسبحان مغير الأحوال ، يرجع ومعه الحيز الساخن والغموس ، طعمية ساخنة وباذنجان مقلى ، أو سمك ، وإذا تيسر الحال فيرجع مبكرا ، يقول إنه استأذن ساعة ، أو أوصى صاحباً له وزميلاً أن يوقع له فى دفتر الانصراف ، يجيء بالخضار ولقافة ورق مبقعة بدماء لحم الضأن الطازج ، لم يتغير ميعاده قط ، وإذا تأخر تتعلق أبصارنا قلقة ، واجفة بالطريق ، ندعو أن يحفظه الله من الطريق وشروبه ، من السوء ، من البغضاء ، من أولاد الحرام ، ولا نهذاً إلا عندما نراه يعبر المنحنى أو نسمع خطاه وليس لغيره مثلها ، رأيت يهود مبهتجا فى الليالى الناقبات ، رأيت يهود مبهتجا مرحا ، يسط أمانا البلح أو التين ومرة تفاحا أحمر اللون ، لابد أن خالى أرسل إليه إيجار نصف الفدان ، رأيت يطعمنا ثمار القشدة الخضراء ، وأبو فروة ، توقد أمى وابور الجاز ، فتقطع الحبات بنية اللون فوق قطعة الصفيح الساخنة ، والله يا اخوانى لم أذق هذه القشدة كذا أبو فروة منذ ذلك الحين ، منذ أن جلس أبى ضاحكا ، يخاطب شخصا لا نراه بصوت مرتفع ثم يهقه ، يوزع علينا الثمار ولا يتنوق هو ، بينما تهلك أمى جادة راضية فى إعداد شأى ، أو تطبيق غسل ، رأيت يصحو مبكرا فجر الجمعة ، نسمع نزول المياه ، يتوضأ ، يمضى إلى ضريح سيدنا الحسين ، يصلى ، ومع إطلالة الشمس يعود ، يجيء باللبن ، بطبق الفول ، فى

أيام الجمع لا يشتري الفول إلا من رجل قديم اسمه أبو حجر ، يقف بعربته قرب ضريح الإمام الشهيد ، لا يبيع إلا لأحباب الحسين ، ولا يمكس المغرفة إلا بعد انتهاء صلاة الفجر ، حتى إذا ما اقترب بزوغ الشمس ، للمم حاجاته ، وكف عن البيع ، يدفع عربته بسرعة يتوارى في حارة أم الغلام ، لم يتكرر مذاق فوله عندي منذ أن رحل ، 'ناعم كالزبد ، مغموس في الثوم وزيت الزيتون ، يميل لونه البني إلى صفرة ، يعود أبي متأطبا جريدا ، إما الأهرام أو المصرى ، أرى الأهرامات الثلاثة وصور الصفحة الأولى لرجال يرتدون الطرابيش ، أرى علم مصر الأخضر ذا الهلال الأبيض والنجوم الثلاثة ، يرفرف في مقدمة جريدة المصرى ، يسند أبي دماغه إلى الجدار ، يفتح صفحة الوفيات ، ويقدرته الشاحبة على القراءة يشير بأصبعه إلى الحروف التي تشكل أسماء الراحلين ، حفظت أشكال الحروف من استقامة وانحناء ونزول الميم والنون ، فتعلمت منه أن أقرأ قبل دخول المدرسة ، فسبحان من علم نبيه الأمى الأسرار كلها ، رأيت أمى عبر هذه الصباحات البعيدة تقلى الفطائر ، أو الزلاية ، أو تظل مستيقظة بعد ذهابه إلى صلاة الفجر ، تعد المحروطة ، بين النوم واليقظة ، أشم رائحة العجين أثناء طهوه على البخار ، حلة من نحاس يوضع بها الماء المغلى وفوقها مصفاة محزمة بشریط من القماش ، داخلها شرائح العجين الرفيعة ، رائحة انصهار السمن ، الحليب السكرى والوعد بإفطار لا يتكرر كثيرا ، وهذا افطار أيامى الغروبية ، التي اكتملت ولن ترجع ، لم أعرف له شبيها أو مثيلا أو مذاقا قريبا بعد أن تبددت بين السنين ورحلت عبر بلاد الخلق ، ويكفيه أنه كان إفطارا مغمورا بالأمن وانتفاء الحشية ، واتمام القرين من أبى وأمى ، أبى وأمى في وجودى الأصلى ، أما أبى الذى أنتظره الآن ، كذلك أمى فلا أعرف عنها شيئا بعد ، يضايقتنى جوع وضجر ، وتضمنى وحدة ، تدق ساعة حادة الرنين في

مكان ناه ، نفس الرنين الليلي ، علامة ، خلعت حذائي الضخم ، أخشى الخطو به فوق الأرضية المكسوة بالخشب ، يحدث صريرا يقلق سكان الطابق التحتي ، عندئذ يستدعون البوليس وما أيسر ذلك هنا لهم ، وما أمره وأقساه علينا نحن الأجانب ، سكان البيت لا يخفون ضيقهم من سكاننا ، في الليل أرغب في الاستحمام ، غير أن تدفق المياه من الدش يقلق الجيران ، الراديو لا أسمعه إلا هامسا ، ماذا آكل الآن ؟ شرائح السمك المدخن تحتاج إلى خبز ، كذا اللحم المحفوظ والسلامي ، المرئي تجزع لها نفسي ، الزبدي .. زبدي بالشمس ، بالليمون ، بالفراولة ، زبدي بالتفاح ، أتناول علة وملعقة صغيرة ، أرجع إلى الصالون ، لورأتني أمي متغضب ، كيف آكل هنا ؟ يجب أن أترقق بها هي التي لا تجد الوقت لتهرش شعر رأسها ، يرن التليفون ، تقع عيناي على سبعة كتب متوسطة الحجم ، دواوين شعر ، شعر أنشدته أبي ، أبي في نشأتي الأخرى شاعر ، وشاعر كبير ، لماذا هو هنا ؟ ما الأمر ؟ ينطق البيت بما لا أفهمه ، وبما لا يربحني ، كذا ملامحي ، ونبراتي التي أصغيت إليها عندما أمسكت بالسماعة ، إنها أمي ، تسألني .. أين كنت يا ضائع ؟ تقول : اتصلت مرارا ولم يجيني أحد ، أسأل : متى ستعودين ؟ تقول في الحادية عشرة والربع ، أجب باختصار : سأكون نالما ، تقول إن ثمة فطائر محشوة باللحم والشامبينيون في درج الثلجة التحتي ، ما عليّ إلا تسخينها ، إذن . لن أراها الليلة ، لو أنها رجعت مبكرة لحاورتها ، وأصغيت إليها وأصغت إلى ، شعرت بلهفتها عليّ ، وشعرت أيضا بعجلتها ، اختلست وقتا لتكلمني ، تمنيت لو اكتملت جلستنا الليلية ، كلانا في الثياب المتريلة والدفء ، دائما أرى أمي وأبي في ثياب الخروج ، بعد انتهاء المكالمة تضاعف خواتمي ، أفضل انتظار رنين الجرس على إنهاء مكالمة كنت أتوقعها ، خاصة إذا لم يكن عندي ما أفعله ..

الوصل الأول من هذا المقام

.. فى لحظات الكشف عن الحقائق القديمة التى أجهلها ، ما عم منها وما خص ، لا أدرك كل شىء بالضرورة ، فأحيانا أرى فقط ما أرى ، بدون أن أعرف ما أشاهده ، وبعد حين مقدر يُلقى فى معارفى التوضيح والتفسير لما أكون قد أبصرته من قبل ، فتكتمل الرؤية ، ليس كل ما يراه الإنسان يدرك كنهه وطبيعته ، ألا ينظر الطفل إلى الأشياء كلها ، لكنه لا يعرف كل ما يرى ، كذلك ، لا يدرك كل ما يقرأ ، وقد تظل الكلمات صماء لا تشىء بمكنونها للقارئ الغافل ، الذى لم يؤت علما بقدر . عند بداية هذا الوصل رأيت طفلة سمراء ذات جدائل ، تحمل على ظهرها حقيبة جلدية بنية اللون ، تمشى بجوار سيدة ممثلة ترتدى ثوبا أسود اللون ، تدخل الطفلة من باب مدرسة عالية الجدران ، تضم كنيسة حمراء الطلاء ، تقف المرأة وحولها نساء أخريات ، ترتب الطفلة التى وقفت تنظر حولها إلى الصغيرات الأخريات ، لم تبك ، ولم يبد عليها ارتباك وقد سر ذلك المرأة فأبذت ارتياحا ، ثم رأيت فتاة ربما تبلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، تركب دراجة ، تعبر ميدانا فسيحا ، خلفها فوق مقعد الدراجة الخلفى حقيبة بها أقمشة ولفات خيط ، وزراير ، توزع هذه البضاعة المحدودة على البيوت ، عرفت أن أباهما يعيش فى مكان بعيد ، متزوج بأخرى ، وأن أمها أبّت الطلاق لأن من سيجىء ليتزوج إحدى البنات سيرتد طويلا عندما يعلم أنها مطلقة ، الأب لا ينبى بحاجة البيت ، الابنة الكبرى تساعد أمها فى توزيع بعض البضاعة ، أمها أصبحت مشهورة كدلالة تباع الأقمشة واللوازم النسائية لعائلات الضاحية التى تجد سيلاتها نصبا فى الذهاب إلى سوق العاصمة ومتاجرها ، عندما دارت الفتاة بالدراجة إلى شارع جانبي ، ضيق ، مستقيم ، على جانبيه أشجار ضخمة متباعدة ، وعند نزولها عرفت ان الضاحية

قريبة من قاهرقي ، إذن . فأنا لست ببعيد ، رأيت الفتاة تعمل في مصنع للنسيج ، يبدو عمرها أكبر ، غير أن ملاحظتها لم تتغير ، وقفت على بعض من مكثون قلبها ، ضيق بحالها ، وخشية على أسرتها ، وإشفاق على أمها ، وتساؤل يلى التساؤل : لماذا تقلق وتسعى من أجل زاد يومها ؟ ، ويفيض الزاد عن حاجة البعض ، لماذا الكد من نصيبها ، والراحة من نصيب آخرين ؟ رأيت يومها المجهد في تفصيله وجملمته ، من عمل في المصنع القريب ، ومواصلة الدرس في ذلك المعهد الليلي ، اطلعت على همها اليومي الكبير ، ان تجد الأم وان يجد اخوتها الزاد في الأطباق عندما تحين مواعيد الوجبات ، إنها هي محور الجري واللهاث ، والقلق الذي لاينتهي ، والخوف الدائم مما سيحيى به الغد . وما ستطلع عليه الشمس ، وهل ستجد غدا ما يفي بالحاجة ، قلق ممرض ريب فقار قلبها لايفارقه ولا يتزع منه ، رأيت ما يحدثه هذا القلق لخلقها من اختلال ، وهزة لا تلاحظ ، رأيتها من حيث رقتها ، وحزنها ، وانفرادها بنفسها آخر النهار وقبل النوم ، عند اغماض عينيها ، تجاور شقيقاتها وأخاها الوحيد ، تولى وجهها ناحية الجدار ، لايمكن لإنسان ان يراها ، ولا يقدر مخلوق على ملاحظة ما يتعاقب على وجهها ، تبكي أو تدمع وربما تبسمت ، أو مطت شفيتها ، أو نطقت هامسة جملا غير متصلة ، مرة في لغتها العربية التي فطرت عليها ، ومرة في هذه اللغة الأجنبية التي تتقها إذ بدأت تعلمها منذ سنوات في مدرسة البعثة الأجنبية ، وهنا عرفت أن هذه الطفلة التي رأيتها في أول ذلك الوصل ماهي إلا هذه الفتاة ، وما أبعد الشبه بين ملامح الطفولة واكتال الأنوثة ، ان قلقها الليلي يتجدد تخشى موت الفجأة ، ان يقع لها حادث مفاجئ يصيبها بعجز ، لاتدرى ماذا سيجرى لأمها وإخوتها بعد مفارقتهم أو عدم قدرتها على العمل ، رأيتها تبسم ولم أدر لماذا ؟ ، وهنا عرفت الحقيقة المخفأة ، ماهي إلا أمي في خلق

البديل ، أمى التى تحدثت إليها عبر التليفون فى هذه المدينة الأجنبية . ولم أدر سر العلاقة بين وجودها فى هذه الضاحية ، وحياتها وحياتى فى تلك البلاد البعيدة ، أضمرت الاستفسار ، والأمل فى أن أعرف وأقف ، عند هذه النقطة من ذلك الوصل توجهت بخاطرى إلى شيخى الأكبر ، اتجهت إليه كما يتجه الابن إلى أبيه . وكما ينظر المرید إلى شيخه ، وكما يتعلق التائه بدليله . طلبت العلم بأمر وجودى الأصلى ، وفهم عنى ، إذ أدركنى ما يشبه الغيرة المخالطة للضيق والكمد ، إذ كيف اطلع على بعض من حياة أمى فى خلقى البديل ولا أرى أم وجودى الأصلى ، كذلك داخلنى حنين إلى أمى فأومأ لى وترفق بى ، رأيت خروج أمى إلى الدنيا من رحم جلى عائشة رحمها الله ، وكان ذلك لحظة وصول أبى القاهرة أول مرة ، وفى البيت ذاته الذى كانت أرضه أول ما لامست رأسى ، فى الغرفة ذاتها ، غير أن موضع نزول أمى يبعد عن موضعى سبعة أشبار كاملة . رأيت جلى عائشة . امرأة سمراء ، طويلة ، نحيلة . يتوسط جبينها وشم أخضر ، وعلى ذقنها وشم دائرى يقارب شكل الزهرة ، النساء يحطن بها ، الدودة ، من تلقتنى عند وصولى إلى هذا الكون الغربى ، هى من تلقت أمى أيضاً ، وقد نظرت طويلا إلى المولودة ، إلى عينيها المغمضتين وساقها المشتين وأنفها الدقيق ، وكان بإمكانى أن أرى ملامح أمى التى أعرف فى قسبات الوجه ، يتردد فى سمعى صوت الهاتف الذى جاءنى عند بداية سعى إلى الديوان .. ليس بوسعى إلا أن أصغى وأن أمثل .

تأمل رقدتها الأولى ..

يزعق بعد سكرة ..

- يا غافل ..

ثم غاب الهاتف ، رأسها ملتفت إلى الجهة اليسرى ، غير قادر على

الحركة ، لا يزال لون جسدها محتقنا ، بقع خضراء صغيرة على وجهها وورقتها ، تقول الدودة إن هذا طبيعي بسبب زنقة الولادة ، أهذا البطن الصغير يحتوي رحما سيكون أول أوطاني ، هل سأقلب داخله ثم أفارقه ، وأمشي في الأرض مرحا حيناً وحزيناً حيناً آخر؟ تأمل رقبتها .. لماذا ناداني الهاتف ، لماذا خاطبني هنا ، وظهور صوته في حيز الحس لا يكون إلا لأمر جلال ، أيقنت أن المقصود أمر يصعب عليّ فهمه الآن مها بذلك ، مها حاولت ، فلأنتظر لعل وعسى ، انتقلت من حيرتي إلى راحتي . إذ اكتمل عندي ما لم يتم حتى لشيوعي في الطريق ، ذلك أتى رأيت ميلاد أبي وأمي ، فالحمد لله ، ووقت على العلم بها كطفلة تلعب أمام البيت مع بنات يماثلها سناً وعمراً ، لاحظت تمهلها أثناء اللعب ، وشرودها هنيات . ونظرها إلى البعيد ، وقد حاولت الفهم والنفاذ ، لكنني أيقنت انه من المستحيل عليّ أن أعرف في أى الأمور تفكر أو اطلع على خواطرها ، أو الصور التي تعبر ذهنها ، أخبرت ان هذا من الغوامض المستعصية أمامي ومن العقبات التي لا يمكن تخطيها أو تجاوزها ، كنت كمن يسط كفيه ليقبض على الماء ليلبغ فاه ، وما هو ببالغه ، أرى ميلادها .. نعم ، أراها في هذا العمر .. نعم ، أراها قبل أن تنجبني .. هذا جائز ، بل إنه واقع حدث ، أما أن أعرف ما يحول بخاطرها الآن عند رؤيتي لها أثناء لعبها ، فهذا باب مغلق لا فائدة ترجى من طرده أو محاولة فتحه حتى مع التوسل والرجاء ، فأيقنت أن ما جال بخواطرها وما مر بها في مقام العدم . عندي ، فلا فائدة ترجى ، لهذا صممتُ وإن لم ينقطع رجائي ولم يتبدد أملى ، لكنني أضمرت وما نطقت ، وإن كنت أعلم ان باطني مكشوف لسادتي ، وانهم أقرب إليّ من دمي في عروقي ، كنت ظالماً إلى أمي ، وهذا العطش إلى رؤيتها بدأ عندي منذ تجليها لى أول مرة

أتناء سفري في بداية هذا المقام المبارك بإذن الله ، رأيتها والليل عاصف ،
ورياح شديدة تهب سعة النخيل وشواشي النبات وأطراف الحطب فوق
السيوت ، أمي فتاة مكتملة ، خمنت أنها في السادسة عشرة ، إلى جوارها
جدتي التي نخل قوامها ونقص وزنها وتقدد وجهها وتدب ذقنها ، حتى كأنني
اطالع امرأة أخرى غير التي رأيتها لولا بقايا الزمن القديم في الملامح ، أمي
ممتلئة قليلا ، تلف وجهها بطرحة سوداء ، شقيقها الذي سيصبح خالي يسند
باب البيت بظهره ، فالزلاج الخشبي يرتج ولا يكتفي ، والهواء شديد ، جدتي
تقول ، استر يا كريم ، عندما تهب الرياح عنيفة هكذا ، فلا بد أنهم قوم من
الجن يتعاركون ، يتحاربون ، وما هذا الهبوب إلا أنفاسهم الغاضبة ، استر
يا كريم ، أتساءل والليل حولي عاصف ، أين جدي؟ أين والد أمي ، وهنا
تقلب بي الزمن كما تتقلب الأنفاس ، فسبحان الله حين تمسون وحين
تصبحون ، رأيت والد أمي ، ولأنتي لم أشاهده أبدا ، ولم أجلس إليه ، ولم
يداعبني طفلا ، ولم يلاعبني صبيا ، ولأنه لم يخلف لي صورة ، أو أثرا يدل
على هيئته ، فلم أعلم به إلا من حيث ما يلقى في معارفي ، عرفت انه شيخ
موقر موفور الهيبة في البلدة ، له كلمة مسموعة ، وحرمة ، يؤم المصلين ،
يؤذن لأوقات الصلاة الخمسة بصوت جميل ، عذب ، قوى ، يسمع في
سائر أنحاء البلدة ويتجاوز فضاءها إلى النجوع الجاورة والكفور القريبة ،
بعض مشايخ البلدة ورجالها العمرين وأصحاب الكلمة فيها يقصدونه ويقفون
على مقربة يصغون إلى أذانه الشجي الورع ، الصاعد إلى السماء كعين ماء
سلسيل ، يتدفق ماؤها من أسفل إلى أعلى ، فسبحان من بيده الملك وهو على
كل شيء قدير . لكنه اشتهر في النواحي بمديحه للحبيب المصطفى ، يقبض
عصا من معدن ، بطرفها قطعة دقيقة من حديد ، تلك أنعامه التي ترتل عليها

سيرة مَنْ ظلله السحاب ، ولان الحصى تحت قدميه ، من أسرى به ربه ليلا
من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، علمت انه ملجأ للعجزة والمرضى
والمسوسين والعاجزين عن إتيان نسائهم ، يكتب لهم الأحجية والتعاويد ،
يقرأ في آذان الأطفال الأدعية ، بينما تلمس يده جباههم المتهبة ومواضع
الأم ، وحتى زمن تدويني هذا يذكره المعمرون من أهالي جهينة بلدتنا ،
ويقولون إن جمال صوته لم يعوض حتى الآن ، أمى لاتذكره ، لا تعيه ،
رحل مبكرا ، قبل الأوان ، ذات ليلة عاد إلى البيت بعد صلاة العشاء
وتأهب للنوم فوق المصطبة المواجهة لباب البيت ، وبجواره صندوق خشبي
عتيق ملىء بالكتب القديمة التي اصفر لونها ورق ، تخلته الثقوب ، ومخطوطات
كُتبت بالفلم الغريب ، وقد أدركت في طفولتي بعضا مما تبقى منها ، لايرتاح
جدى إلا بعد رقاذه على مقربة من صندوق كتبه هذا ، بعد نفض ما قد
يكون علق به من غبار ، اغلقت جدي الباب بالضبة ، وتياً للرقاد ، إلا أن
طرقا يرتفع ، وصياحا يعلو ، يخرج جدى مستعيذا بالله ، عدد من رجال
البلدة الذين اعتادوا السهر عند دكان حميد البقال ، قال قاتل منهم ان جملا
عفيا قد برك عند الجسر ، وبأبي الحركة ، وانه يقطع الطريق على الرائح
والغادى منذ الغروب ، وان صاحبه في حزن عظيم ، يقول إنه اشتراه منذ أيام
بمال كثير ، وان من يستطيع مداواته وعلاجه شخص واحد في هذه البلدة ،
وسمى جدى والد أمى ، وهم يرجون جدى ان يسرع ليداوى الجمل
والجمال ، دخل جدى إلى البيت ، ارتدى جبته وقطفاته وعمامته حتى ان
جدي سألته عن ضرورة ذلك والليل مسدل والمسافة قريبة ، غير انه صافحها
مصافحة المحبين ، ودخل الغرفة ، فقرأ الفاتحة في أذن أمى التي ماتزال بعد
طفلة ، وفي أذن شقيقها الذي كان صيبا في الحادية عشرة ، وتمم في اذنيه

عقب فاتحة الكتاب بما لم يسمعه إنسان ، ثم خرج إلى الجماعة وجلدني في عجب وانقباض ، عند وصولهم إلى الجسر حلق إلى الجمال ، وكان غريب الهيئة ، ليس من أهل النواحي المجاورة ، يعبر الجسر لأول مرة ، لم يره أحد ، ولم يعرفه أحد ، قيل إن الجمل عند وصول جدى سكن وان جدى نظر مرة أخرى إلى الجمال وقال بلهجة الموقن العارف : هل جئت ؟ ، كانت لهجته غريبة ، غير ان كل من صحبه لم يتنبه إلى غرابتها إلا فيما بعد ، وذلك شأن كل الأحاديث العادية التي يتبادلها الخلق والتي لا تلفت انتباهها ، ولا يتوقف عندها خاطر ، لكن إذا وقع حدث مفاجئ خارق ، أو حلت مصيبة ، استعاد الكل ما قيل ، فيرون في العادى غير المألوف ، وما قيل بشكل عابر يسمى إلى التيس من الألفاظ ، حمحم الجمل ، طلب جدى ممن صحبوه أن يتعدوا قليلا فتراجعوا ، اعلى سنام الجمل المغطى بمعد مدثر بالصوف ، شب الجمل على قائميه الأماميين ، ثم بدأ الخطو مسلما قياده للرجل الغريب ، وبعد خطوات معدودات خرج من دائرة رؤية الواقفين ، ومنذ هذه اللحظة لم تقع عين على جدى ، ولم يدل على اثره إنسان ، فيما عدا أوهام بدت للبعض بعد ذلك لم يثبت صحتها ، بكت جلدني ، وبعد مرور ستة نصحوها بإقامة مأتم وتقبل العزاء في رجلها ، لكنها أبت ، كان يخالجه شعور غامض أنها ستلقاه يوما ، أما الآن فيجب الانتباه إلى الوديعة المعلقة إلى رقبته ، ابنا وابنتها ، هما من ببقيا لها بعد أن مات ثلاثة كلهن إناث أنجبتهن بعد مجيء الأبن الأكبر ، وكانت أمى الرابعة وهى التى عاشت ، لا بد أن تربيها وتحميها وتدفع عنها الأذى ، إذ تسمع من يقرون اسم زوجها بالمرحوم تغضب وتقول إنه لم يميت ، وإنه لبي نداء خفيا ، يستصغى فهمه على أهالى النواحي كلها . ويوما ما سيرجع ، في فجر يوم شتوى بارد قطعت الدودة العجوز الرحبة جريا من بيتها

إلى بيت جدتي ، طرقت الباب ، أيقظت النيام ، كانت ترتجف ، قالت إن باب عشتها طرقة طارق ، ولما قالت من ؟ أجابها صوت : الشيخ على ، فتحت الباب ، رآته يقف إلى جوار جملٍ أبيض اللون كالخليب ، سألتها عن أحوالها وعن أحوال عائشة امرأته ، وولديه ، وعندما سألته ، لماذا لا يرجع إلى بيته ؟ قال إن الأوان لم يجن ، والكريم لم يأذن بعد ، ثم غرب في الطريق .

قالت إن جسمها كله يتنفض منذ أن فارقها ، بدأ الشك على وجوه النساء اللواتي مرعن مستفسرات ، غير أن جدتي سألتها عن شكله وأحواله ، هل بدأ متعباً ؟ وما حال ثيابه ؟ ، أكدت الدودة انه متورد الوجه ، مستدير كالرغيف ، أما عباته فيضاه حريرية ، ثم انصرفت ، ولم يرها أحد بعد ذلك إلا ذاهلة .

فيما تلا ذلك من سنوات ترددت أقاويل عن ظهور الجمل الأبيض براكبه ، مرة عند الحد الشرقي لزاما البلدة من الأرض المزروعة ، ومرة عند سور الجبانة جهة الغرب ، ومرة عند البئر ، وتصغى جدتي إلى ما تسمعه صامتة ، لم تكن قد تجاوزت السابعة والعشرين عندما ذهب ، بعد سبع سنوات جاءها الحاج هريدي وهو مستور الحال وعنده نخل كثير ، طلبها على سنة الله ورسوله ، قال إنه استفتى شيخا كبيرا في بندر سوهاج فأفتاه أن طلاقها يجوز شرعا ، صدته بحزم صارم ، قالت إنها ماتزال ، على ذمة رجل

خرجت جدتي إلى الأسواق ، باعت واشترت ، القمح والذرة والشعير والسمن ، حاورت وجادلت ، وشيئا فشيئا استقر في البلدة ان عائشة وهبت عمرها لولديها فلم تعد ترد على ذهن رجل لا من قريب أو بعيد ، وهذا عرف قديم ، عندما تدفع الظروف بامرأة شابة إلى منازلة الحياة وحيدة ، فلا يطمع فيها أحد ، ولا ينظر إليها أحد ، ويحق لها السعي وراء الرزق ، والوقوف في

زحام الاسواق ، معها تعلم الابن - الذى هو خالى - المكيال والاصناف من اين يأتى بها ، كيف يبيعها ؟.

عند هذا الحد من ذلك المقام تمنيت لو أوغل أكثر ، غير أن مشيئتي ليست طوعى ، كذلك منحدرى ومرشأتى ، نهي شىخي الأكبر إلى أن ذلك الوصل من هذا المقام قد قارب على الانتهاء ، واتي مها حاولت فلن يتكشف لى أكثر مما هو مقدر ، رجوته أن أرى أمى فيما تبقى لى ، فاستجاب لى ، واطلعت على وجهها لحظة ابلاغ جلتى لها الخبر ، أحمد ولد الغيطانى يطلبها ، تلوح بيدها ، خفت رفضها الزواج من أبى ، ومن ثم لا انشأ النشأة الأولى ، مع أنى نتاج لها ، لكن هذا خوف غامض محير غريب له مقام ومكان عظيم ، لو اطلعت على السيرمه لاضطرب حالى ، تقدم إلى أمى من قبل وجل من النجع المجاور ، هو عبده السماء ، يحمل المياه إلى البيوت ، عنده أكثر من عشر قرب يؤجرها ، كما انه يصنع العديد منها ويرتق التالف منها ، وكافة السقائين يعرفونه ويقصدونه من البلاد المجاورة ، كما انه طيب السيرة ، وهذا طيبى ، فلا يعمل الرجل سقاء إلا بعد ثبوت امره ، ألا يدخل البيوت على النساء والرجال فى الغيبة ؟ ، أبت أمى الزواج منه ، إنها لاتطبق راحة جلود القرب ، فهل ستعيش معها ؟.

قالت جلتى : إنه رجل محمود السيرة وسيسترك يا ابنتى . صممت أمى ، ولم تعاود جلتى الحديث ، لم تسع إلى مضايقة ابنتها أبدا . فقد جاءها جلدى فى المنام ، وأوصاها خيرا بابنته ، فالطفلة وحيدة ، وهو غائب غيبة لا يعلم مداها إلا رازق الطير ومحبي العظام وهى رميم ، كان جلدى يقف فوق غمام سابح ولا أرض تحته ، كمت جلتى ولم تبج ، ولم يعلم به سواى فى هذا الوصل ، ومن قبل عاينت بنفسى بقاء الأصوات ، وسمعتها بعد فنائها ، ودخلت إلى أحلام أبى ، لكن أن تبقى مادة الحلم ولا تتبدد ، فهذا مما خصصت به ، وأخبرنى

شيخي الأكبر أن أحلامي وكل مارأيت في منامي منذ اغماضي عيني لأول مرة في هذه الدنيا في متوالى ، ويمكنني الاطلاع عليها ، فقط .. عندما يحين الأوان المقدر ، وقال لى ان مثل هذا لم يتفق له ، فشعرت بنجمل ، اذ تميزت عليه بأمر حتى وان بدا ضئيلا ، لكنه أليس القائل ان الفروع محل الثمر ، رجعت إلى أمى البكر ، إنها صامته ، سكوتها الذى ينطق ، هى لم ترأبى من قبل ، ومن أين لها أن تعرفه ؟ تسمع عنه منذ طفولتها ، فما جرى لأحمد الغيطانى شائع ، معروف ، فى البلدة ، هو اليتيم الشقى ، اضطهده عمه ، وشرع فى قتله ، لكن الله نجاه وحماه ، ما جعل قلبها يحن ، إنه يعمل فى مصر ، يعنى متذهب لتعيش هناك ، مصر الفسيحة ، أم الدنيا ، مرقد آل البيت والأولياء الصالحين ، سيدنا الحسين ، سيدتنا الطاهرة زينب ، سيدى زين العابدين ، السيدة عائشة ، وهنا سمعت الهاتف يصيح بي ..

– انتبه ..

فتجلى لى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، مسجد جميل عربى الزخارف ، منمنم ، مفروش بالحصير ، والهدوء ، والاستكانة ، فطفت به وانتهت كما أمرنى الهاتف ولم أفهم فعلت إلى أمى ، تجلس هادئة متأملة ، مشترك البلدة والرحبة والبنات اللواتى يسألنها دائما ولا يخفين رائحة الشاةة « متى تتزوجين يا بختيته ؟ » ، « ألم يتكلم عليك أحد يا بختيته » ، « ألم يحبك أحد يا بختيته ؟ » ، يعرف أن عمرها تقدم عاما أو عامين عن العمر الذى تعارف الناس هنا على زواج البنت عند بلوغه ، الرابعة أو الخامسة عشرة ، تضيق بغمزاتهن ، تفضل التأى عنهن ، وإذا اضطرت لمجالستن تصمت اتقاء الحشهن وطول ألسنتهن ، رأيت خالى يفضى إلى الشيخ عبد اللطيف محمد على بالرضا والقبول ، ورأيت أبى ، فانتهى هذا الوصل ، والسلام ..

الوصل الثاني من هذا المقام ..

.. فأين الشوق إلى زمن الحياة المنصرم؟ وأين الأسى على كل نفيس لن يرجع؟ من أين وإلى أين؟ أين الأين؟. هذا أبي في اخضرار فتوته ، قبل غروبه بواحد وأربعين عاما مما تعدون ، يقطع الطريق الطويل عائدا إلى البلدة في أجازة ، يدفع ثمن التذكرة من راتبه الضئيل ، ادخره قرشا قرشا ، يركب قطار الثامنة صباحا المتجه إلى قبلي .

أقول يا سادتي إن سفري إلى جهينة ثاني موطن لي بعد رحم أُمي لا يكتمل إلا بركوب هذا القطار الذي يتحرك في الثامنة صباحا منذ سنوات نائية وحتى الآن ، في أيام تدويني هذا ، وإلى أن يتبدل ميعاد قيامه المخطط ونظم الجداول ، فلو جرى ذلك يوما - وحتما سيجرى - فتذكروا أن قلبين إنسانيين عاشا وتعلقا به ، وحتا لركوبه ، وأرسل تخيله عندهما الشجو والشجن ، الأول قلب أبي رحمه ربى ، والثاني قلبي العليل ، المنتزع من صدرى ، المصروع في مندبل ، القائم عليه شيخى الأكبر ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

أقول وهذا ثابت قائم معى حتى يومى ، إنه لا معنى لسفري بدون هذا ، على الرغم من رحلي في قطار السابعة والنصف السريع الفاخر وثير المقاعد ذلك أننا لم نسافر إلا فيه وبه قبل أن تنال يد النقص منا ، قبل تبدل الدنيا أو تبدلنا نحن ، والله لا أدرى يا اخوانى .

هذا أبى يعد المحطات ، يتعجل طى الطريق ، إذ يمر بدير مواس ، ينظر جهة الشرق حيث يقيم الرجل الطيب الذى أنقده من موت . الباشجاويش أحمد حسين ، في عودته سيزوره ، ويمكث عنده يوما أو يومين ، في قطار الثامنة يسلى النفس بالنظر من النافذة حيناً ، والحديث إلى جيران الرحلة ، يسافر

في فيض من حنينه وحزنه وفرحه ، فحينه إلى الأرض التي رآها أول ما لامس ، حتى أيام الشقاء تبدو عزيزة ، لأنها ماض يستعصي نيله ، صحيح أنه ماض عاناه ويحشاها ، لكنه الآن منه بآمن ، أما حزنه فلاضطاراه إلى مفارقة هذه الديار ، وهؤلاء الناس الذين حنوا عليه ورقوا له وفتحوا له بيوتهم ، وأمنوه من جوع ومن خوف ، كذلك فراقه لتلك النخلات ، والمنحنيات ورائحة الماء في قواديس السواقي ، ورائحة الطحين الطازج ورائحة الخبز واشتعال البوص داخل الأفران ، وقعدة الجسر ومذاق بلح النخلات عند تمام نفضجه ، والتين العسلي ، والشاي في الأسواق التي تُنصب في أيام معلومة ، وعندما اطلعت على ذلك علمت أن هذا كله صار عندي ، أما فرحه فلرجوعه أياما معدودات ، وهذا يحسد أمله الذي أضمره ولم يهن ، أن يرجع يوما إلى جهينة ، فيستقر وينعم بالعيش ، وقد عرفت هذا الشعور خاصة فرحة عند عودته إلى البلدة عندما سافرت عقب غروب أبي ، وكان سفري لرؤية عمي ، اخته غير الشقيقة ، عندما وصلت مدينة طهطا واجتزت دروبها وخرجت منها إلى الطريق المؤدى إلى جهينة ، هففت على ربح غريب ومسنى وجد ملك على روجي ، فحقق قلبي وهو هادئ ، وتجاوز نظري المدى وهو ثابت ، وعند المدخل المؤدى رأيت النخيل الكثيف فحننت حنين الغريب الغائب إلى أصله ، والمننى إلى موطنه ، والعائد بعد شتات وهجاج ، بداخله خوف ألا يعرفه أهله الأقربون ، حزنت إذ رأيت النخيل ، مامن شيء من الموجودات يقوى على الحنين إلى الماضي كشجر النخيل ، ربما لأنه ثابت قديم ويندر تمايله حتى مع الريح الصرصر ، ربما لأنه راسخ فكأنه أفلت من العدم ، هل رأى أحد منكم شجرة نخيل تسقط محضرة ؟ ، حتى إذا انقطعت المياه وجفت الآبار وكف الهواء عن حمل بذور اللقاح تظل واقفة فيظن الناظر أنها منتصبية مورفة وهي ميتة

مختصرة ، كعصا سليمان الحكيم التي ظل مستندا إليها بعد رحيله ومماته فأطاعه الجن والطير ظنا منهم انه يقف حيا ، حتى إذا تمكن السوس من الخشب انقصفت العصا فهوت وهوى ، سبحان محيي العظام وهى رميم ، فى الطريق فرحت وخفت أحمالى إذ كنت اقطع ما قطعه أبى ، وأنظر إلى ما نظر إليه ، كأننى أتوب عنه أو أعيذ السيرة ، وهنا اطلعت على لحظة مندفرة موقعها هذا المقام ، لحظة من عمر تلك الناحية ، جهينة ، إنه العام التاسع والثلاثون بعد الألف وتسعمائة ، حيث مقدار المدة المتبقية على وصولى إلى هذا الكون الغريب ست سنوات ، وكان عبد الناصر فى هذه اللحظة بعينها ابن واحد وعشرين ، والزمن المتبقى على مجئ خالده إلى هذه الدنيا ثلاث وعشرون ، أما وقوفه أمام فريق ضرب النار فبعد ثلاثة وأربعين، وقفت على السنة ولم أعرف اليوم، لاسمه ، ولا موقعه ، إنه يعلم السر وما يخفى ، وهنا أوضح أمراً طالما حيرنى ، وقد أدركته بعد صحبة لمولاي وضياء عيني الحسين ، وسيلدى ابن عربى شيخى الأكبر ، فكل ما أهملت الاستفسار عنه لن يكشف لى سره ، خاصة علامات الزمن ، ومن ذلك عمر أبى الحقيقى ، ومقدار السنين التى عاشها فى هذه الدنيا وأمور أخرى جمّة ، واداركى بعض ما حرم علىّ من علامات فهى لأسرار الطريق ، جعلنى ربى من المسافرين دائماً به ومعه وإليه ، رأيت لحظة أن أمسكت يد أبى بيد الرجل الذى سيصبح فيما بعد خالى ، والذى سأعائش فقدانه ضياء عينيه ، وسيقدر لى أن أصحبه إلى الأطباء ، والإصغاء منفردا فى حجرة جانبية إلى الحقيقة النهائية بفقدان بصره ، بإظلام هاتين العينين المحدثتين الآن إلى أبى ، لمحت شعيرات يد أبى اليمنى ، وتلك ستظل مطلة من جلده إلى ما بعد ولادتى ومجيئى إلى هذا الكون ، ثم تبدل بشعيرات أخرى تصحبه حتى همود يده وتمدها إلى جواره ، هذا ما ألتى فى معارفى ، وهو من الدقائق التى لا تخفى لى

بيال ، ولم أفكر فيها ، ولم تدر بخلدى أبدا ، رأيت شاهدى العقد ، الشيخ عبد اللطيف ، ورجل آخر أجهله ، كان الأمر يتم في هدوء ، بلا مظاهر عرس كتلك التى أعرفها وأعهدا ، وقد حدثت في المأذون طويلا ، ورأيت ملامحه ، وثيابه ، ولفات عمامته وسمك نعليه ، أقول إنى أدركت هذا الرجل بعد رحيل أبى وجلست في مواجهته وعلى مقربة منه ، كان ذلك في سفرى الثانى إلى البلدة بعد رحيل من انجبنى وربانى وأحسن تقويمى .

حضرت عرسا لأحد أقاربى في نهار حار ، قانظ ، جلسنا في المضيقة ، وكان ذلك بعد آذان الظهر ، قعدت على دكة مفروشة ببساط قديم ملون بخطوط طولية حمراء وخضراء ، عتيق ، متهرئ الحواف ، عرفت في هذا الوصل ان جلوسى كان في موضع اعتاد أبى ان يشغله كلما جاء إلى هذه المضيقة ، وهو مكان قريب من الطريق يتيح رؤية الرائح والغادى ، فسرت لذلك وارتحت ، نظرت إلى المأذون ، ترسخ يقينى انى أعرفه وأنى رأيت رؤيته قديمة ، وبعد ان غطى اليدين بالمتديل الأبيض وتلا عبارات الطلب والقبول ، وقال إن هذا الزواج يتم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، مال علىّ الشيخ عبد اللطيف ، قال لى : إنه المأذون الذى عقد لأبيك .

أعدت النظر ، ويقينى يتزايد انى شاهدته من قبل ، مكتمل الصحة برغم تقدم العمر ، عنى ، أهو أكبر من أبى ؟. رحل أبى وبقى هو ، لو أن أبى عرف الراحة ، لو أن شقاهه أخف ، وهنا ألقى في معارفى أسرار جمّة أمرت بالأفشيها أو أفصح عنها أو ألمح ، ولو فعلت لخالفت ، لذا أمسك عنانى مخافة أن يغلبنى الوسواس فأكشف ما حرم علىّ كشفه ، وعند هذا الحد لاحظت نأى شيخى الأكبر عنى ، تمنيت الاقتراب منه والالتئاس به خاصة انه مرشدى الأول ، وعلى يديه تجلت لى علامات الهداية ، ولى به عناية عظيمة ،

باديته بجواطرى فلم يجبنى ، خفت ، خاصة أنى دائم المقارنة بين صحبتى له ،
وصحبتى لمولائى ونورى الأتم سيدى الحسين ، معه كنت كالطفل تجاه أبيه ،
يأمن له وان خافه ، يهرع إليه وان عاقبه ، يسعى إلى القرب منه وان جافاه ، أما
شيخى فأرهبه ، عندى خشية منه كالتلميذ فى مواجهة أستاذه . خاصة أنه
يقبض على قلبي ، ينظر إلى من بعيد نظرة مثقلة باللوم ، فتسبح لى الفرصة ،
أخاطبه بغير نطق ، لماذا تقسو علىّ يا سيدى وأنا فى كنفك ؟ لماذا وأنا فى
حمايتك ؟ لماذا وأنا طوعك ؟ لماذا وقلبي عندك ؟ لماذا وأنا التابع لك ؟ أهذا
نصيبى منك ؟ إن كان ذلك كذلك فأنا راض ، قابل ، مطيع ، لم يجبنى ،
وشعرت بقلبي يتقلب فى كفه ، لم أدر لماذا صمته عنى ؟ غير انه عندما أشار
تبع اشارته فرأيت نفسى فى نشأتى الأخرى ، متمددا فوق سريرى ، متطلعا
إلى جدران حجرى المغطاة بصور كبيرة لمطربين يصرخون أمام مكبرات
الصوت ، وصورة لفتاة ناضجة النهدين ، مُشرعة حلمتيهما ، وصورة عن
أطفال جوعى ، منتفخي البطون فى مكان فقير من هذه الدنيا ، وصورة
بالحجم الطبيعى لأرنستو شى جيفارا، كنت ممددا بكامل ثيابى فوق السرير،
ولاحظت طول قامتى فى وجودى هذا للمرة الثانية ، وهذا الطول يبدو واضحا
أثناء نومي ، وذلك لانحنائى عند مشيى ، رأيت ملامحى مهتدلة ، متعبة ، شفقتى
مرتجيتين ، وعلى وجهى هذا الضعف الإنسانى المصاحب للنوم والمثير أحيانا
للشفقة ، ألا يشفق الإنسان على من يجب إذا رآه نائما ، ضعيفا ، وقد ينحنى
ليقبله ، فما الأمر وقد رأيت نفسى نائما ، متمددا ، ليس ييدى من الأمر
شىء ، حتى ان اشفاق طغى على فضولى ، طفت بى ، ونظرت إلى ملابسى
المبعثرة ، ورأيت عدة أحذية ضخمة ، ودهشت إذ رأيت حذاءا للترحلق ، مع
أنه لا محل للدهشة ، ولكن دهشتى تخص نشأتى الأولى ، التى لم أعرف فيها

الترحل على الجليد ، رأيت صندوقا للسيجار ممتلئا بعملات معدنية تنتمي إلى دول شتى ، ورضيت عندما رأيت قطعة معدنية مصرية ، خمسة ، عشرة قروش ، وعملة فضية صدرت في عيد النصر . رأيت كتباً باللغات الثلاث ، الإنجليزية ، والفرنسية ، وقليلاً بالعربية ، كان أحد الكتب مفتوحاً ، لم أعمه بعد ، تلك حجرتي إذن ، لم أعرف هذه الفوضى ولا هذه اللوحات صارخة الألوان ، لكنني عرفت مثل صورة جيفارا هذه ، أهدتني أياها محبوبة قديمة لي عرفتها قدراً من الزمن ، وأحببتها غير أن حبها لم يبق منه شيء عندي ، وقد كدت أهلك فيها ، إن عذابها كان غراماً ، كانت متعلقة بآخر ، وقبل رحيلها إليه في البلد الذي أقام فيه أهدتني صورة جيفارا هذه ، بعد سنوات معدودات جاءت إليّ وكانت راغبة في إحياء وجدى القديم ، وبعد أن نكحتها مرة زال كل ما علق بي يوماً تجاهها ، وهذا له مقام آخر ، ربما فصلت فيه الأمر وأحطتكم به علماً إذا مد الله في أجلى المقدر وثبتني في شجرة الكون وقوى عضدي ، انتهت إليّ وجود شيخى الأكبر معي ، في الحجرة ذاتها ، بينما قطرات المطر تتساقط في الخارج مصطدمة بسقف معدن قريب فتحدث أصواتاً متتابعة ضخمها الصمت الليلي ، يبدو اني اعتلتها فلم تقلق نومي ، شعلتني تطلع شيخى إليّ ، نظرتة غريبة ، لم أدر مكتونها أو مرامها ، وتلك نظرة علقت بي ، وستعودني في نأيه وعند احتجابه عنى ، وقد عرفت في حياتي الدنيوية مثل ذلك ، تمضى العمر برفقة الأقرين حتى إذا سعى الفراق واكمل ، تبعه النسيان مها اجتهدنا في قهره ، فما من شيء مخلد ، وأول ما يغطي النسيان فروق ما بين الأيام ، ثم الحوارات ، أما القلعات والرفقة التي كانت فندكرها في مجملها وليس في تفصيلها ، ثم لا تقدر إلا على مشاهدة تنف مارقة منها يُنسى ، أما الأمر الذى يستعصى على النسيان زمناً غير هين فما يتعلق بالنظرة ، كت ومازلت

أرى عيني من أحببت ، عينا أبي ترمقاني بنظرة معينة طالغني بها ذات يوم بعيد ، أقوى ما استدعيه إلى ذاكرتي ، طبيعة تلك النظرة ، في تجريدتها وليس في اتصالها بأى شيء ولو فصلت لأفضت ، ولكنني أخشى الاطالة ، وهذا غير مقصور على الحبيب الغالي الذي انجبنى ، ولكن يتصل بكل من عرفت ثم فارقت إن كرها أو بمشيئتي فتأمل تفهم ! ، تلك نظرة شيخى التى ستصحبني بعده ، كحضور الحسين المتدفق الذى لا يفارقي قط ، سمعت خطى مسرعة لامرأة ، دقات الكعبين على خشب المر المؤدى إلى الغرفة ، تدخل مسرعة ، تتوقف ، تقول ، نمت بدون عشاء يا حبيبي ؟ ، تلك أمى إذن ؟ .

ضقت برؤيتها وحننت إلى أمى ، غير اننى دفعت دفعا للنظر إليها ، سمراء ، رقيقة الشفتين ، وطويلة الأنف ، بيضاوية الذقن ، واسعة العينين ، بيدوان من خلف نظارة طيبة ليست سميكة وليست رقيقة ، نحيفة ، طويلة ، قلقة فى وجودها المنظور واللامرئى . توحى للمشاهد عند ظهورها أنها لن تستقر طويلا ، وانها ستخرج بعد لحظات قصار من دائرة البصر ، حضورها حى ، لكنه متوتر ، عرفت أنها لن ترانى إلا فى نشأى الأخرى ، أما أنا فكنت أراها مرتين ، مرة من حيث نشأى الأصلية ومرة من حيث نشأى الأخرى هى أمى وليست أمى ، وهذا من أغرب ما صادفتى ، وان كنت لا أدرى ماسيئتظرنى وما سأصير إليه . تمنعت بملاحمها فتزايد ضيق لوجود أم لى ، وغمرنى فيض من حنين إلى أصل نشأى الأولى ، غير ان الحال لم يتبدل على ، وبقيت فى مواجهة أمى هذه ، ولاحظت انحسار قيصها عن ظهرها عند ركوعها إلى جوارى وأنا نائم . فتكشفت لى مساحة من ظهرها انحسر عنها الجزء الأسفل من ثوبها المكون من قطعتين ، فداريت النظر خجلا وان لاحظت استدارة ردفها ومئاتها فضقت لتعلق ذلك بوعى ، ولت نفسى وان عللت هذا بأننى أريد اقصاء فكرة ان هذه

أُمى غيرة منى على أُمى أنا ، رفعت وجهها ولم يكن غريبا عن تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها من قبل تدخل المدرسة ، وتركب الدراجة وتعمل الهم ، تعجبت لتغير المصائر وغرابة وجهتها ، فماذا يربط بين الحال الذى رأيتها عليه فى المشاهدة الأولى ، وما أظالعه الآن ، البلد غير البلد ، والبيت خلاف البيت ، فما أبعد الشقة بين نشأة الجذور والمدى الذى تنتهى إليه آخر الفروع . وما أوسع المسافة بين صلابة الخدع ولين الثمرة ، وما أنأى الفرق بين حدة الشوك ورقة الزهر ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وكل فى فلك يسبحون .

كنت مرة على سفريا إخوانى إلى بلد عربى ، وفى المطار قابلت نبيل وامراته وعياله ، عرفت نبيل هذا فى حارتنا صبيا صغيرا يتجنب اللعب مع الصبية وكان هو الولد الوحيد الذى يرتدى ساعة حقيقية حول معصمه ، وله اخت بيضاء من كل سوء ، جميلة ، اسمها سهير ، أما والداه فقصيران ، ممتلئان ، ماثلا القامة ، بيض البشرة ، يقال إن أصلهما تركى ، يخرجان فى صمت ، يرجعان فى صمت ، لم يسمع أحد صوتاً مرتفعا يخرج من بيتهم ، ولم تشبك أمه فى مشاجرة مع إحدى نساء الحارة ، قالت أم نبيل مرة ان نكبة عابرة حلت بأسرتهم التركية مما اضطرتهم إلى سكنى الحارة ، كانت أمه تظل من النافذة مددا طويلة لاتشير إلى جارة ، ولا تومى . ولا تتبادل الحديث ، لا يبدو إلا وجهها المستدير كطبق الفضة ، يجاورها أحيانا نبيل هذا ، رأيت نبيل فعرفتى وعرفته ، صافحتى وصافحته ، سألتنى عن وجهتى فأفصحت ، وسألته فشكا إلى حاله ، وفشله فى العثور على مسكن له ولزوجته وولديه ، ولما صعب عليه السفر إلى بلد نطفى ، قبل عقد العمل فى إحدى البلدان الأفريقية ، وذكر لى بوروندى ، فتساءلت عن موقعها ؟ قال لى انه لا يعلم عنها شيئا ، لكن لا بد من الاغتراب

زمنًا حتى تتحسن الأحوال ، ثم تصافحنا ، وافترقنا ، كل إلى وجهته ، ولا أدري في أي موضع هو من الأرض الآن؟.

ومرة أخرى يا إخواني كنت في مدينة باريس الأوروبية وكان حال الوحدة غالبًا عليّ ، فشرعت أمشي للمسحة في شارع البيجال ، أنظر متعجبًا إلى نساء شبه عاريات في برودة ثلجية يعرضن أجسادهن للراغبين في الإيجار ، ومن خلف واجهة زجاجية لكشك يبيع الشطائر ناداني شخص باسمي ، تعجبت واسترثت ، وعينًا حاولت استعادة الملامح ، قال لي : ألا تعرفني ؟ ، ثم قال لي إنه رآني عندما كنت أزور موقعًا مطلقًا على قناة السويس في زمن الحرب ضد إسرائيل ، عندما كنت أنقل الأخبار إلى بني وطني الكرام ، أبديت اعتذاري ، إذ أنني التقيت بالكثيرين ، وتلك أيام صارت الآن بعيدة بعيدة ، ثم أبديت دهشتي وعجبي ، ما الذي جاء بمجندى الاستطلاع هنا ؟ ، ضحك وقال إنها رحلة طويلة ، لكنه ضاق بما صارت إليه الأحوال في الوطن الحبيب القريب ، وبعد انتهاء خدمته العسكرية بدأ له طريق الأمل مسدودًا ، موصلًا ، فالراتب قليل ، والوضع عسير ، والفساد ضارب ، وأسافل الناس صاروا في الأعلى ، ولا أحد يفكر في الفقراء ، كيف كان سيترج ، والأمل معدوم في حصوله على مسكن من حجرة واحدة يأوى إليه ؟ وكل ما يعين على الحياة صار في غير المتناول ؟ كان لابد من الرحيل ، جاء في إثر صاحب له هنا ، عمل بائعًا للصحف ، وبائعًا للورد عند مداخل محطات المترو ، ثم استقر به الحال هنا يعمل في إعداد السندويشات منذ نزول الليل وحتى انبلاج الصباح ، وهذا عمل وعمر لا يقبل عليه أبناء البلد ، لكنه مضطر ، والمضطر يركب الصعب ، بالغ في ترحيبي وأصر على إكرامي ، وإن مانعته ، فكلانا في غربة حتى وإن كانت غربي موقوتة وغربتة دائمة ، فارقته والأسى ينهل

منى ، فهل كان لى أن أصدق عندما رأيت مرتديا خوذته ، ممتشقا سلاحه ، متأهبا لعبور الليل والاختطار إلى قلب خطوط العدو ، أنه بعد عشر سنوات سيقف فى هذا الموضوع من العالم ، واتنى سألقاه ويلقانى .

ولكن مالى أبعد يا اخوانى ، إنى محدثكم عن بعض رفاق صديقى الذى استشهد ظهر الجمعة التاسع عشر من أكتوبر . وعند هذا الحد من ذلك المقام تجلت لى أمدى للمرة الثانية ، فى هيئتها الحنون ، الوديعه ، وابتمست لى ، فقلت بنحواطرى ، ما الأمرى أمدى ؟ ماذا جرى لك ؟ ولماذا تبدين بعيدة وانت قريبة ، وماذا يعنى تجليك هذا ، رأيتها تقف فى أرض قاحلة ، صخرية ، وتحت قدمها اليمنى تتبع عين ماء عذب فرات لذة للشاربين ينساب إلى أسفل فى مجرى نجيل تحدده سلفا أوضاع الصخور وتعرجات القشرة الأرضية ، ما لأمى وهذا النبع ، هى التى لم تظأ أرضا قاحلة طوال عمرها ؟ لكنها لم تجبىنى على استفسارات نحواطرى ، إنما أمرتى ألا أسهب ، وأن أوجز ، وإن أتبع شيخى الأكبر ، وإن أتم وقوفى على نشأتى الأخرى ، ولم يكن بوسعى إلا الطاعة والامثال ، وإن تعاضم قلتى وارترى حزنى من نبع جديد ، فالطف ياذا الجلال والإكرام ، إنك على كل شىء قدير ..

الوصل الثالث من هذا المقام

.. تأكد لى ان ليس كل من رأى ، عرف مارأى ، وإن من رأى ليس كمن علم ، تبعت أمدى فى نشأتى الأخرى بعد أن تركتني أغط فى نومى ، تقف أمام صوان محفور فى الجدار ، تدس يدها فى الرف العلوى ، لم أعرف ماذا أمسكت ولكننى رأيت الاطمئنان على وجهها . تتجه إلى المطبخ الفسيح ، تتناول علبة كبريت كبيرة وهذا حجم لم أعهده ، صندوق صغير مقسم إلى

خانات ، تشعل الموقد ، تضع فوق الشعلة المتأججة وعاء به أرز مخلوط بجبات سمراء ، ربما زبيب أو بندق ، تضع إناء آخر فوق الشعلة الأخرى به مرق ولحم ، من الأول غرف مقدار قبضة ، من الثاني اضافت إلى الأرز قطعة وأربع ملاعق مليئة بالمرق ، تتجه إلى الصالون ، تجلس فوق الأريكة القريبة من المدخل ، تلتهم الطعام بسرعة ، تمضغ بسرعة وتردد أسرع ، أتابعها بعين الفضول ، وليس برغبة الابن في معرفة كل شيء عن أمه ، والفرق لا ينجني على الفطن بين الفضول والرغبة في المعرفة ، كما ان نظري إليها يختلف عن نظري إلى أمي أنا ، أمي التي يتضاعف حنيني وقلقي عليها كلما طال مكثي في هذا المقام ، وتلك مشاعر صعب التصريح بها ، عسر شرحها ، إذ انني خصصت بها ، وانفردت ، هذا مقام ذقته أنا ولم يذقه غيري . فإذا غمض منه جانب ، فالعذر .

كنت أواجهها ولا تتراني ، غير اني لاحظت اختلاج نظراتها ، وتثبيتها البصر تجاه الفراغ المعلق به رأسي ، حتى قوى ظني أنها تشعر بوجودي ، ولم يتفضل شبحي الأكبر القابض على قلبي بالايضاح ، تفرغ من طعامها ، تجمع حبات الأرز المتبقية ، تضع الطبق فوق المنضدة المجاورة ، تلفظ .. آه ، نفس الايقاع الذي طالما لفظ به أبي آهة الارهاق والضنى ، حتى إني عجبت ، أئمة علاقة ؟ أم هو التعب الإنساني وحد مخارج الآهة عندها وعنده ؟ ، إلى اليمين مذبياع داخل دولاب زجاجي ، يعلوه جهاز للاسطوانات ، وفوقه صورة لعبد الناصر ، يبدو أشيب الفودين ، تنتمي إلى ما قبل زمن الهزيمة والانكسار ، عرفت أنها متعلقة به ، تستعيد ايامه ، وتحفظ ببعض من خطبه ، واغنيات من عصره ، وانها في لحظات الشجو والفراغ من ثقل المشاغل تصغى إليها وقد تبكى ، تنظر إلى الهاتف ، تمسك الساعة ، تفكر في إدارة القرص ، لكنها لاتفعل ، يميل رأسها بطيئا ، تنعس ، أدنو ، أرى شعيرات بيضاء ، شممت

رائحتها ، رائحة ليست جديدة على ، ليست مجهولة لى ، فبينى وبين الروائح وطيد صلة ، وما من رائحة علقت بأبنى اندثرت قط ، وإذا تكررت بعد مدى تنبعث حية ، كأنها تأتي من وقتها ومصدرها الأصلي ، عند انتقالها من اليقظة إلى النوم ولجت رؤاها ، فقابلتها وقابلتني . ودنوت منها ودنت منى . لم تر إلا رأسى ، لكنها لم تظن أبدا ولم تلحظ أنه غير متصل بجسد ، سألتها . فتطلعت إلىّ ، وهنا رأيت جمالها الخاص الدفين ، فعلمت بعضا مما أريد أن أعلمه . ألمت بالوضع من وجه ، وبقيت جاهلا به من وجوه ، إذ لا يعلم الشيء من كافة أوجهه إلا الكريم المتعالى ، كنت على وشك أن أطلب منها صحبتى إلى عملها الصباحى ، وعملها المسائى ، وان ترينى جهاز الهاتف الذى تتصل بي عبره ، مرة لتطمئن على عودتى من المدرسة ، ومرة للتأكد اننى أكلت ، ومرة لتأكد عما إذا كنت بمفردى أم اننى فى صحبة ؟ ومرة لتكرر على ضرورة الحذر عند فتح صمام السخان ، ولتذكرنى بموضع الصابون المعطر ، واللوف البلدى الذى وصلنا أخيرا فى مصر ، اللوف الذى لاشىء مثله يدعك الجلد ، وليس هذا الاسفنج الصناعى ، كنت على وشك ، لولا أن المفتاح دار فى الباب ، انتهت رؤاها ، وراحت ترقب الباب قابعة ، فى المدخل ظهر ، إذن .. هذا هو أبى ، أراه لأول مرة ، من صلبه ينحدر وجودى الآخر ، ومن غصنه ينبت فرعى البديل ، خيل اللىّ اننى قابلته ، ناديته ، وأصغيت إليه ، لكن اين ومتى ؟ واجهته ، حمت حوله ، يخلع حذاءه وجوزبه ويمدد ساقيه فوق منضدة صغيرة . لم تفتنى نظراتها إلى قعدته ، وهنا لاحظت انكساراً فى عييه ، كأن وجهه مهزوما فى معركة لم تبرد نيرانها بعد ، أرهفت أذنى إلى حوارهما الليلى . يقول إنه تناول عشاءه ، يقول إن أخبار مصر كهاى ، ان الجلف سيخطب غدا ، يقول إنه مامن يوم يمر إلا. ويظهر فى التلفزيون ، تقول أمى ،

كابوس ... تمر فترة صمت ، يقول إنه لم يصل أحد من مصر ، تقول أمى :
يقول القادمون مع دخول الشتاء ، لا يجيء إلا المضطر ، بعد لحظة تقول : والله
الروحشة زادت بامصر ، يتجدد الصمت ، عرفت انها تحدثنا عن الجلف
الجافى ، وان الفترة تقع من السنوات التى اشتدت فيها مصائبه ، لم استطع
تحديدها على وجه الدقة وان خمنت أنها تلى الحرب التى استشهد فيها صاحبي ،
عادا إلى الحديث غير ان صوتها لم يصلنى ، رأيت حركة شفاهما وتعبيرات
وجهيهما ، قلت لعل ثمة علة لذلك ، بقيت حتى حانت لحظة مفارقتها الفرقة ،
أمى تتقدم أبى ، تتوقف أمام الباب الأول ، تهز رأسها فى اللحظة التى يدفع فيها
أبى الباب الثانى ، حجرتان متجاورتان متباعدتان ، أما غرفتى أنا فقلت التى فى
نهاية المرحيىث أرقد ممددا نائما بكامل ثيابى ، ابقى فى فضاء المر ، أشعر يقرب
أبى منى لكننى لا أراه ، لا أدرى كم مر على ، لا أعلم إن كان ذلك فى الليلة
نفسها أم تلك ليالٍ أخرى متعاقبة ، متداخلة ، فالزمان والمكان لا يقيداننى ،
أحار ، أتبع من ؟ أرقب من ؟ غير ان حيرتى لم تدم ، إذ رأيت أبى وأمى معا ،
كل فى حجرته ، لكننى أراهما فى وقت واحد ، وألم بهما رغم تباعدهما عن
بعضهما ، وهذا بعض مما خصصت به فى رحيلى هذا ، هاهى ذى أمى مرتدية
قيص نوم أصفر ، تندس تحت الغطاء ، عينها مفتوحتان والظلام حالك ،
ستظل جائعة أبدا إلى النوم ، تود لو نالت حظها من الراحة ، لو أغمضت
عينها بدون أن تضبط المنبه على السادسة إلا ربعا ، جميع أبناء هذا البلد
يعملون خمسة أيام ، ويرتاحون يومين ، تزدحم بهم الطرقات المؤدية إلى
الريف ، إلى الغابات ، إلى الشواطىء ، لكنها غريبة ، وابنها ، وزوجها ، غرباء
ولاسند ، لاشىء يقيمهم مخاطر هذه الغربة إلا مدخر كاف تكفى فوائده لضمان
الحل الأذى إذا ما طردوا يوما ما ، وحتى الآن لم يتوافر السند ، لو تنام ، المبني
هادئ ، ما من أصوات ، فى مصر تفضج الشوارع الآن بالحركة ، لكم تود أن

تمشى فى الشارع المؤدى إلى الحديقة اليابانية صباح جمعة ، فى الأجازات تبدو المدينة هنا مهجورة ، تضاعف الخواء ، وتكثف الوحدة ، أيام الجمع والآحاد فى مصر مسترخية ، رضية ، تخلو فيها شوارع القاهرة من ضجيج بقية الأيام ، لكنها لم تعرف الوحشة أبداً ، ولم تبعث على الانقباض قط ، إلا إذا اعتصم القلب المخزون بجزنه ، تتأهب ، يتمدد أبى . اطلقاً الأضواء عدا الضوء الأحمر الخافت جدا للساعة الرقمية ، برغم العتمة أراه كأنه فى وهج النهار حتى يمكننى احصاء شعيراته البيضاء ، وملاحظة اختلاجات جفونه ، يستلقى على ظهره مفتوح العينين ، يحمق إلى لاشيء ، أعرف ان هذه اللحظات ذرى عذاباته ، تنطوى الأيام والشعر لايزداد إلا نأيا ، ولحظات الوهج القديم تأبى المعادة ، يسأله بعض ممن يلتقون به عن جديده ، فيقول إنه مشغول فى عمل ملحمى ، حتى ان صحفا كتبت أجباً ، واتصل به الناشر البيروتى ، أرى أمى فى خلوتها الليلية ، تواجه الجدار بعينين مفتوحتين ، تنسحب تماماً إلى داخلها ، لم تسمع أى حركة غير عادية من الغرفة المجاورة ، تدرك أنه مستيقظ وان لم تره ، عندما انتقلوا إلى هذا المسكن ، قالت له ان كل شيء يمكن ترتيبه كما كان فى مصر ، المكتب فى مواجهة الباب ، والمكتب متراسة على الحائط المقابل ، والسرير الضيق بالقرب من النافذة ، حتى إنه قال مبهتجا ، كأنى لم أفارق بيتنا فى المعادى ، حتى لون السجادة .. من أين جئت بها ؟ ، استبشرت خيرا ، فالأحوال ليست معسرة ، وهى لاتألوا جهدا حتى لاتكلفه فوق مايطيق ، وحتى تظل مساحة زمنية كافية لایشغله فيها شاغل ، لاتسعهها الدنيا من الهجة ، وتبدد كل متاعها ، وينتهى لهاثها الداخلى ، عندما يخرج بين الحين والحين من مكتبه ، يداعبها ، أو يجلس أمامها صامتا ، تحرص عندئذ أن يكون كل ماتقوم به ردوداً لأفعاله ، ومجاوبة على مايبدو منه ؛ تعرف انه انجز أو بسيله إلى تمام أمر بدأ :

في العتمة ألح أسى أمى هذه ، بل إنها تهز رأسها وتوشك ان تمصص شفتيها ، ليت لو دام ذلك ، لم تزد معه الأيام إلا صعوبة ، أصبح كالولود التي أصابها عقم فصارت عاقرا فجأة ، فلم تعد الدنيا هي الدنيا ، تغير طعم كل شيء ، هاهو ذا أبى ضجر ، متهاو ، يواجه نفسه بالحجة تلوح الحجة ، في البدء عنه يجيئه إلى هذه المدينة التي طالما تغنى وحلم بها كان الحال صعبا والاقامة غير إنسانية ، والمرقد خشن ، حتى الحمام كان يضطر إلى قطع مسافة ليستحم مرة في الأسبوع ، فالحجرة التي سكنها مدة من الزمن كانت خلوا منه ، ولهذا مالم يعتده في مصر .

علل النفس ان كثيرا من كبار المبدعين الذين نزلوا هذه المدينة عرفوا ضنكا أشد مما قاساه ، أما هو فلم يطل به الأمر ، إذ حصل على عمل في المكتب الثقافي لتلك السفارة ، أصبح يمكنه الجلوس على مقهى فترات طويلة ، ودفع ثمن مايشربه ، هنا لكي تجلس يجب ان تجدد ماتطلبه على فترات زمنية متقاربة ، تذكر بأسى مقاهى وسط المدينة ومصر الجديدة ، والحجيزة ، وتהלل النادل عند ظهوره ، وافساحه المكان له ، ربما يقضى نصف نهار لايشرب إلا فنجانا من القهوة ، الأمر هنا مختلف ، أمكنه ان يتناول العشاء في هذه المطاعم التي لم يكن يمرؤ على دخولها ، ان يزور المتاحف في غير الأيام التي تفتح فيها مجاناً لمن لايقدر . بل دعا فتاة ثم امرأة أخرى إلى العشاء ثم تكرر ذلك ، بل إنه صار يقضى الاجازات كأهالى البلد خارج المدينة وعرف فندقا صغيرا في المنطقة الشمالية .. لكن الحواطر لم تواتيه . والاشراقات لم تنبث ، قال إنها فترة الاستيعاب ، فللمتاحف عديدة ، ودور السينما لايمكن له أن يلم بما تعرضه ولو تفرغ لذلك ، أما المسارح فيحول دونها جهله باللغة ، ألح أمى في رقدتها ، أدرك أنها ليلة أخرى ، إذ أن القميص غير القميص ، كما أنها تلف شعرها حول

اسطوانات صغيرة من البلاستيك ، ما يضايقها حتى الذروة انعكاس التوترات على الولد . نعم .. أنا في نظرها ولد حتى وان خطت شاربي ، كانت دائما تسمى ابنة ، تكون هي الأقرب ، ولكن بعد مجيئها هنا حملت الله أنه لم يرزقها ابنة ، كانت مستشب وتنمو هنا ، كان قلقها عليها سيصبح مضاعفا ، إنها تحاف على ، وعندما شمت رائحة النيذ جعلتني أقسم لها أنها المرة الأولى والأخيرة ، وحذرتني مرارا من الماريجوانا ، والحجوب ، وهذه الأشياء المنتشرة بين طلبة المدارس هنا ، لكنها بدت مسرورة عندما قلت لها إنني جمعت آن واكتشفت انني الرجل الأول ، وصارت تفارق البيت عندما تجيء آن وتتركنا معا ، لكن عصبية أوى تقلقها ، وزعيقة كثيرا أمامي ولى ، وبعده عني ، وعدم جلوسه معي ، وعدم اصطحابه لى كما كان الأمر في مصر ، ربما أدى هذا إلى تضخم عزلي ، إلى الذهاب مع من هم مثلي كما يحدث كثيرا هنا وتلقى الأسر ذلك كأمر عادي ، يسأل أوى هذا نفسه ، أكان لابد أن يتقبل زوجته وابنه ؟ أكان من الضروري ان يوافق امرأته على رغبتها في المجيء معه ؟ لكن أليس هو الذى شعر بالوحشة هنا ؟ ألم يعلل النفس بأن الأمور ربما صارت إلى الأفضل بعد مجيئها ؟ خاصة أنه خشي عليها التعرض لمكروه في مصر بعد مجيئه إلى هنا ، وتكرار ظهور اسمه موقعا على بيانات تدين مايقوم به الجلف الجافي ؟ ، ألم يقل إن امرأته تتقن لغة البلاد ، وانها سترعى شئونه اليومية وتزيج عن كاهله عبثا ؟ ثم ان وجودهما معه سيكتف احساسه بالوطن الذى صار بعيدا عنه بالمسافة المكانية ، جاء ، ولم يكن صعبا عليها ان تتلحق بعمل ، ثم عمل اضافى في المساء ، بدت قلقة مفتقدة الأمان القديم ، خاصة ان شوطا كبيرا يجب أن يقطعها الولد حتى يسند نفسه ، يجب أن توفر له مدخرا معقولا ، الحق أنها ساعدته أيضا عندما شرع في تعلم لغة هذه الديار ، أقبل متحمسا ، في مصر ضايقه ان العديد ممن زاملوه

يتقنون لغة أجنبية ، أما هو فلم يساعده الحظ لظروف دراسته الأزهرية ، حقق تقدما ، وعندما أتم قراءة كتاب بدون ان يرجع إلى القاموس ، مشى في الأرض مُرحا ، وانبسط كل البسط لكن الشعر لم يجيئ ، كل المحاولات توقفت عند البدايات ، صار مكثونه خاويا وأرضه جدباء ، وفروعه لا تثمر . ها هي ذى أمى تتذكر أول مشادة بينها هنا ، عندما قال لها انه كان من الممكن له ان يثمر لولا الأعباء العائلية ، انفجرت فيه ، عن أية أعباء تتحدث ، ولد واحد وزوجة تطحن نفسها ليلا نهارا ، عن أية أعباء يتكلم ؟ هل يدري بمصاريه هذا البيت ؟ إن مرتبه لا يكفي دفع إيجاره ؟ عن أية أعباء ! إنها تتنحر لتوفر له ساعة أو ساعتين ، لكنه لا يشعر ، ولا يرحم ، توقعت أن يكون رده عنيفا ، لكنها فوجئت به بصمت ، وكفاه ترتفعان قليلا ، ورقبته تغوص ، تقصر ، وعيناه تضيقان ، وحتى ظهر اليوم التالي لم يفتح باب حجرتة ، وعند عودتها في المساء قررت ان تكون رقيقة معه ، ان تدعوه إلى عشاء في مطعم يجبه يقع داخل الغابة التي تحيط المدينة ، غير أنه لم يعد إلا بعد استغراقها في النوم ، بدأ يقضى خارج البيت أوقاتا أطول ، خاصة تلك الساعات الليلية التي اعتاد الجلوس فيها إلى المكتب ، هو الذي لم يختل نظامه طوال عشرين سنة عاشاها معا إلا لمرض أو كدر عام أو خاص ، لم يكن صعبا ان تدرك التأى الذي بدأ ، والحرق الذي اتسع ، وبدت لها ايامها في مصر حلما موعلا في البعد ، في غير متناولها ، حتى تمت لو أنهم بقوا معا ، وان أدى ذلك إلى دخوله السجن ، لكن الأمر كان أصعب عليه من السجن ، كان من المستحيل ان يقبل ما أرادوه منه ، مستحيل ، هي التي شجعتة وآزرته وقوت عزمه على الخروج إلى حين مقدر حتى تبدل الأحوال ، كان يفرض عليها بكل بواعث قلقه وضنكه ، ويستلقى بجوارها كطفل ، وتحشى هي على دخائله المرفهة وتدفع عنه بقدر ما تستطيع ، لكنه

الآن لم يعد يفضى ، ولم يعد يتكلم ، وما يدور بداخله أكثر بكثير مما يديه ، ادرك أبى هذا وهو يفكر فى . ما الذى يربطه به ؟ ابنه ؟ ماذا يعنى هذا ؟ امتداده ؟ أى امتداد ؟ له حياته المنفصلة ، سيحمل اسمه بعد موته ؟ وماذا سيعود عليه بعد أن يكون نسيا منسيا ؟ سيغمض عينيه ولن يفتحها ذات يوم ، وسيحزن عليه ابنه - الذى هو أنا - يوما أو بعض يوم ، ثم ينساه ، قد لا تطلع عليه شمس باكر ، يصغى إلى قلبه ، يتابه خوف مباغت ، ان تتوقف الدقائق ، ألا يرى مشرق الشمس ، هذا أمر استجد عليه ، عند تأمله الأيام الرمادية من خلف زجاج المقهى ، ينظر إلى المارة ، إلى اللافئات ، إلى مروق العربات ، إلى حركة الشارع فى ظلال البرد ، فجأة يرى هذا كله بعينى إنسان آخر ، ربما ابنه ، امرأته ، أو شخص يجهره سيعيش بعده ، يخشى الموت فجأة بعيدا عن البيت الذى عاش فيه صباه ، والبيت الذى عاش فيه شبابه ، بدون أن يرى طرقات الضاحية الهادئة ، كان كل من يسكنها يعرف الآخر ، قريهم التليفون قبل استبداله بالتليفون الأتوماتيكي ، كان إذا أراد أن يتصل بصاحب له من الضاحية ، يطلب من عامل التليفون الرقم ، وأثناء الانتظار قد يصغى إلى متكلم آخر يطلب رقما ، فيتعارفان ، كانت الأيام غير الأيام ، كان ذلك فى مصر قبل ان تتبدل الأحوال . يخاف ان يبلغه يوما خبر موت أمه أو أبيه وهو عنها بعيد ، هل تصور أن هذا ما سيصير إليه حاله هنا فى هذه المدينة التى ينتمى الكثيرون قضاء أسبوع فيها ، وها هو ذا يعيش ، يعمل فيها ، كيف كان يمضى آمنا فى مصر وحيه خلو إلا من قروش قليلة ، ولا يأمن هنا وعنده ما يكفى ويفيض ؟ كثيرا ما فكر فى العودة ، أن يركب الطائرة ويتزل فى مطار القاهرة ، وليكن ما يكون ، لكنه يتخيل ما ينتظره ويصبح لعبه مرا ، مجيء الخبر الليلى ويده ورقة الاستدعاء ، وفى المكتب الكئيب يبدأ الحوار المتلوى . والطلب

الذى يقول طالبه انه يسر ، فى البيت يرن التليفون ، هذه المكالمات الغامضة ، وفى الطريق لا يخفون انهم فى أثره ، أثناء تجواله هنا تطرقه خواطر الموت ، يتنازع أمره بينه وبين نفسه ، يشعر بالرتاء لوجوده حتى يوشك أن يبكى ، ومهما حاول فلا ينجو من الغم ، وفى هذه اللحظات الليلية. تزايد عليه الخواطر السود ، عندما كان فى عمر ابته هنا كان افق العالم مفتوحا ، والغد بلا حد ، والمعانى فى متناول اليد ، حتى سنوات السجن القديمة لم يهن فيها عزمه ، ولم ينكسر عضده ، ماذا جرى فى السنوات التى سبقت رحيله ؟ تشاغل كل بنفسه ، وافقدت الحميمية ، وبسط الجلف ظلاله على الحياة فررها وسودها ، أتأمل أنا وجه أبى هذا ، تتعاقب على وجهه تعبيرات شتى ، ها هو يفكر فى مرة أخرى ، ألا يقصر فى حق ابنه ؟ نعم ... لم يسأله عن أحواله فى المدرسة ، لا يعرف اسماء أصحابه ، أمه تغدق عليه ، لا يتقصه شىء ، لكن هذا لا يكتفى ، لا بد أن يقرب منه ، من الغد سيبدأ ، لا بد ... فالديار أجنبية ، والولد دائم الحنين إلى أصحابه فى مصر ، وإلى أيامه فى مصر ، يتمنى لو سافر ، يخشى ان يحتجزوه ، ان يمنعوا عودته .

أحيانا يقلقه مشيه مع فتیان هذا البلد ، ان تسرى إليه عاداتهم ، عقاقر المخدر ، الشذوذ ، أى شذوذ ؟ يفزعه ذلك ، لا يتفرض خوفا إلا إذا تخيل أمرا محذوقا بمؤخرة ابنه - التى هى مؤخرتى - من المهم أن يقرب منه ، أن يتخذه صاحبا حتى يسر إليه بكل ما يلقاه ولا يخفى عنه أمرا ، ليبدأ غدا ، سيسأله عن المدرسة ، لا .. بل سيدعوه إلى مقهى بعيد ، سيتبسط معه ، سيفضى إليه بعض هم ، سيحدثه عن ضيقه بعمله فى هذه السفارة ، عن اضطرابه الصمت عند حديثهم عن بلدهم ورجلهم ومنجزاتهم ، عن صحة كل مواقفهم ، ليس له ان يبدئ رأيا ، بل حقه معلوم أصلا ، لا بد

من المسائرة إما صمتا أو نطقا ، هو الذى لم يكف أبدا فى مضر عن الجهر والعلن ، سيقول لابنه ان هذا من عظيم عناياته ، غدا سيدأ واقعا جديدا ، غدا سيكف عن الهيام فى الطرقات ، وقضاء الوقت تَمَامًا المارة من خلف زجاج المقاهى . لو اتصلت به فلن يلبي دعوتها ، غدا سيدخر طاقته ويرجع مبكرا ويبدأ القراءة ، يغمض عينيه بينا خواطره الليلية تشحب على مهل ، وافكاره تنقلب إلى رؤى ، علمت ان أبى هذا يغمض عينيه متحمسا ، مثقلا بالنوايا . وإذ يصحو يتبدد منه كل عزم ، ويتعلل بكثرة المشاغل والاضطرار إلى عمل لا ينجبه والغربة ، يصبح وفكره فى حيرة ، وعلمه فى شبهة ، رأته نائما ، ملامحه مضمومة ، كمن على اذنيه وقر ، وعلى رؤاه غشاوة ، وحركت رقدته عندى شففة ، شففة الكبير على الصغير ، مع أنه هو الكبير وأنا الصغير ، وتزايد أساى لما بقيت فى هذا البيت المضمند بالليل والغربة والهجران ، وقد كنت أحذر فى بداية هذا المقام أى اندماج أو رابطة تنشأ عندى تجاه ما سأجده وألقاه فى حياتى تلك ، وذلك حرصا منى وغيره وتأكيذا لذاتى على ارتباطى ينشأتى الأولى ويقائها معى حتى فى سريانى عبر حياتى البديلة وفى ذرى اغترابى ، لكن أئمة ما يبقى حقا؟ ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .. انتهى ذلك الوصل من هذا المقام ..

الوصل الرابع من هذا المقام

.. ل . و . ر ، تلك آيات قلبى العليل الحزين ، المقطوع منى ، المنفصل عنى ، فلما كانت الأزمنة يا أحيائى ثلاثة ، ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، لذا كانت الأحوال ثلاثة ، فالحزن على الماضى ، والفرح فى الحاضر ، والخوف

من المستقبل ، وقد عرفت الثلاثة ، غير أن الكلوم غلبت عندي ، فأنا والله لست بغافل عن الحاضر المنقلب إلى ماض ، ولست بساه عن المستقبل الآتي اللاحق بالماضي ، أليس كل ماض بعيد ، وكل آت قريب ؟ ، الحزن متمكن عندي ، مقيم ، مستوطن ، فلا تغتروا إذا ما رأيتموني باسماً أو ضاحكاً ، المآثم منصوب ، دائماً في حشاشتي ، أعز من أحببت ولّى عنى ، وأرق من عشقت راح منى ، ولثقل ما أنوء به شرعت مراراً في الكف عن تدويني ، لولا الأمر والعبارة ، أما الهدف فلا يزال بعيداً ، والدنو صعب ، وجدنتي في زمن لم أعشه وبلد لم أزره . وجودي غير مدرك بالحواس ، لاتقع عين عليّ ، ولا تصغى إذن إلى صوتي لو نطقت ، فلا وجود لي مع وجودي ، من غربة إلى غربة ، فلا تحزن يا فؤادي ولا تدمعي يا عيني ، ولا تنتكس يا قلبي القصبى عنى ، وادركني يا صاحب الدم المراق هدرا في هجير كربلاء .

كنت كمن يرى مشهداً في حلم وهو غير مائل فيه ، فيرى ولا عينين ، ويسمع بلا أذنين ، ويدرك بلا إدراك . وهذا والله عجيب . لكنه ما عانيت ، فهل اكنم عنكم سرى ؟ كلا ستعلمون ، ثم كلا ستعلمون .

هذه بلاد جبلية ، تغطيها الثلوج ، قراها متباعدة ، ومن مدينة صغيرة رأيت ركباً يخرج ، وباشا متدثراً بالأغطية يركب الزحافة الوسطى فعرفت أن الزمن عثماني ، وجهه أبيض ، ملامحه ليست غربية ، لكن أين ؟ لم أدر ولم أتذكر ، إنه يفارق المدينة مغضوباً عليه ، معزولاً بفرمان سلطاني ، منفيًا ، رأيته يقطع ودياناً وجبالاً ، لا يتوقف إلا فيما ندر ، كنت أرى وجهه قريباً كأنى أو شك أن أعانقه ، وكنت أشم جلد معطفه المبطن بفرو ثمين ، رأيت دخوله ، مدينة شهباء ، مبانيها بيضاء ، في أقصى إقليم الشام ، رأيت استقراره في بيت فسيح لا يفارقه قط ، رأيت تعاقب الفصول ، كان الشتاء

يبدأ أمامي وينتهي قبل أن يرتد إلى طرفي ، كذا الربيع والصيف والخريف ، والأشجار تغرس وتنمو وتشيخ في لمح البصر ، والجدال تملأ بماء جار يتجمد ويفيض في لحظتين متعاقبتين ، والمباني تقوم وتزول ويدركها التصدع ، والأضرحة تقوم وتندثر .

رأيت فيما رأيت الباشا تتوالى عليه الشهور والسنون ، ينكح وامراته تحمل وتلد في مقدار ثانية مما تعدون ، رأيت خروج الحفيدة التاسعة من رحم أمها إلى تلك الحياة الدنيا ، كدت أصبح إذ رأيت اللحظة من قبل ، في أسفار الميلاد ، وكان مولاي الحسين على مقربة مني - معذرة - بل أنا على مقربة منه ، فإليه تنسب الموجودات ، قال لي مرشدي الأوفى حيثئذ : سيكون لك شأن معها .

آه يا خير أدلتي ، لم تركنتي ؟ لم هجرتني ؟ أين أنت ؟ أنا حبيك المفصول الرأس مثلك . أنا الباكي عليك ، الموجدوع من أجلك ، اغثنى يا وضاء ، ياسيد أحتي ، تعال ، أقبل ، وأنا أرى مولد هذه البنية ، ثم تقدمها في العمر ، تحبو ، تمشي ، تتكلم بلسان متعثر ، ثم بلسان طلق وصوت مليح ، ينبت نهداها ، تفارق الشهباء إلى دمشق عاصمة إقليم الشام ، رأيتها تعانق شخصا . تتحسس ظهره العاري ، ثم رحيلها عن بر الشام كله إلى هذه المدينة الأوروبية ، ترحل عنها وبها الليالي ، وما هذا إلا عرض لذلك الحق غير المنظور ، الظاهر ، الباطن ، والذي نسميه الزمن ، وتلك كنية إنسانية ، بها من الإشارة ظل ، وليس لها من الافصاح شيء ، لكن ثمة دلائل بدأت تلوح ، ولكم حيرتني وسهدتني واقتضتني ، غير أنني الآن غير قادر على التنبه ، حتى التلميح اعجز عنه ، شغلت بتبع زمن هذه البنية ، حتى استقر بي الوصل عند ليلة شتوية باردة .

. الساعة تشير إلى الرابعة ، والغروب مكتمل ، ترحل الشمس مبكرة عن هذه الدير ، في نفس اللحظة تغمر بيوت وشوارع وحوارى قاهرى ، رأيتها في صالة بيت صغير ، تستند إلى منضدة بلا طلاء ، مغطاة بكتب لم اتبين أى مضمون تحوى ، لم أقرأ عناوينها ، إذ حجبت عنى بغشاوة ، رأيت أوراقا مرتبة ، وصندوقا يحوى بطاقات بيضاء ، وعلبة خشبية دائرية محلاة بصدف البحر الأعظم ، تطل منها أقلام مختلفة ألوانها وأحجامها ، مقعدها بلا مسند ، وعلى الجدار لوحة ملونة لمسجد متعدد القباب ، باسق المآذن ، يطل على بحر أزرق ، وفوقه سماء فيها غمام ، وخلفه غابة من خضرة ، بهجة للناظرين ، وفي أقصى الركن الأيمن ثلاث حشايا متجاورة فوق الأرض ، فراش ينتهى بوسادة لصق الجدار الذى تتوسطه نافذة مستطيلة تبدأ من أرضية الغرفة حيث يبدأ حاجز حديدى إلى مدى ، فتلك شرفة ولا شرفة ، ستارة شفافة تحجب أنظار المتطفلين ، تؤدى الصالة إلى غرفة النوم ، لكننى لم ألقها ، ولم أقف على ما بداخلها ، انتهى طوافى بالبيت ، عدت أنظر إلى هذه البنية متسائلا ، مالى وما لها ؟ فلم أعرفها ، ولم ألتق بها فى أيامى ، تذكرت صوت سيدى الحسين وكأنى اسمعه الآن ، ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، فوجفت وتوقفت . وتعشمت ، خفت .. هل أخطأت وأنا لا أدرى خطئى الثالث ، علمت أن النذر تلوح ، وان ما يقلقل سكوفى يعمل عمله البطيء ، تركز بصرى على البنية ، تتأهب لخروج ، ترتدى جاكته جلدية بنية اللون عليها زخارف ألوانها سلافية . أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، مبطنة بفرو أبيض ، تضع فوق رأسها طاقية عالية الجوانب ، تمسك حقيبة من صوف قديم مجدول ، تخرج مليية دعوة صاحبة لها من بلدتها دعت صديقين ، احدهما مصرى ، وهنا ارتفعت فرأيت المدينة كلها بين يدى

كالكرة، دقت البصر فرأيتها تسمى عبر طريق مضاء بمصابيح عتيقة الطراز ، وبلاط الرصيف يلعب ، المطر الذى كف يبلل اسطح البيوت المخدبة ، وأبراج الارسال الإذاعية القائمة فوق جبل يحد المدينة من الناحية الشمالية ، لإفتات الإعلان الضوئية توشحت بضباب ، خضعت المدينة للبرد فلا تسمع إلا همسا وصيحة نائية شاردة هنا أو هناك ، وهنا رأيتنى فى نشأى الأخرى ، أدخل باب بيت قديم قريب من المنطقة الجامعية ، أتجاهل المصعد فأقفز درج السلم ، فحسدت نفسى لأننى لا أقدر على ذلك ، خاصة بعد تجاوزى الثلاثين واكتشاف أمر العلة فى قلبى القديم ، رأيت مصافحتى لشابين من أهل البلاد ، وآخر لم أدر موطنه ، وشابة أخرى ، جلست فوق حشية وأنا لملم بالمناسبة ، احتفال بسيط بمناسبة اجتياز المرحلة الثانية ، لم أدر ما هى تلك المرحلة ، ما موقعها وما موضعها وإلى أى مستوى تؤدي ؟.

فوق طاولة من خشب أطباق ، باذنجان مفروم ، وحمص مطحون ، وزبادى ، وشرائح لحم ، وطبق عمدة ملىء بأرز متوج بلحم مفروم ، وصلصة حمراء كثيفة متعة للطاعمين ، أحد الجالسين ، يعالج سداة من فلين ، لزجاجة نبيذ وردى ، كانت درجة الحرارة داخل الغرفة تقارب الثلاثين ، ومدفأة الزيت تبث حرارتها بثبات ، فى الخارج ما دون الصفر بعشر درجات ، وثمة منخفض جوى حاد فوق الجزء الغربى من القارة ، والفرصة مهيأة لسقوط ثلوج ، والقمر فى أقرب مدار له إلى الأرض ، وعلى مسافة سحيقة خارج المجرة يكتمل تكوين نجم عملاق ، وأما المريخ وعطارد والزهرة وزحل والمشتري وسائر التوابع فكل فى فلك يسبحون ، كانت الساعة الخامسة مكتمل أمرها ، وتجاوزتها سبع ثوان عندما دخلت الغرفة هذه البنية ، تطلعت ، فرأيتها تدخل مباشرة إلى المكان ، وإلى ، ليس دخولها كأى دخول

آخر ، لا تخطو وإنما تنساب . لا تمشي وإنما تسرى ، تمنحني إلى الأمام هونا وكأنها توشك أن تمحو ، أو ستهدي كريا ، أو ستخفف ضيقا ، أو تهدد طفلا ، أو ستفضي ببشرى ، كأنها تمشي فوق الماء ، وعندما سلمت وقعدت لم يكن وجودها إلا همسا ، ولم يكن حضورها إلا شجوا ، وبعد انقضاء وقت لم يكن دخولها قد انقضى بعد ، والمعروف ، المشهود ، أن الدخول عامة فيه لذة ، لذة الداخل من البرد إلى الدفء والداخل بصحبة تبعه على أمل الخلاص وطرحه خارجا ، ودخول الذكر في الفرج ، ودخول الفاتح المنتصر ، ودخول الواردات على الأفتدة ، ليس لدخولها مثل ، دخول يحرك المكنون ، يثير الأمل ، يسقط حجبا ، والدخول علامة الحاضر .

كان دخول أبي قريته جهينة من بواغث ومسيبات مسراته ، أما دخوله البيت علينا ونحن لم نزل بعد صغارا فكان يعني اكتمال أماننا وراحة معنانا ، أما دخول قرة عيني الحسين إلى الكوفة فلم يتحقق ، وكان دخول صاحبي الشهيد إلى أرض العدو لحظة ذروة وتأهب لفناء .

رب سائل لي : وماذا عن دخول القبر؟ أجب قائلا إنه دخول عالم نجهله من ناحية ، وخروج أيضا ، خروج عن عالمنا ، لذا أعده خروجا قبل أن يكون دخولاً ، والخروج جالب للحزن ، والحيرة المذمومة ، والخوف للجهل بما سيكون ، والحديث عنه له مقام مغاير ليس هذا أوانه أو مكانه ، أما الدخول فصاحب للراحة والدعة ، لما استقر دخولها وتمكن ، قدمها لي أحد الجالسين فقال عني : صاحبنا المصري ، وكانت الفرصة لأسدد بصري ، فرأيت الوجه الجميل الرقاق ، ولاحظت أنها تشير بيدها اليسرى ، وتتناول الطعام بيدها اليسرى ، وتتكئ إلى اليمين ، بعد دقائق عاودت النظر . بالعجبي كأني أمام انثى أخرى ، جماها يزداد عمقا ، شفاتها تحدتتا ونظراتها

أعمق ، صار وجودها مشعاً قويا بعد أن بدأ خافتا ، قال صاحبي يفرقي :
لور .

تُذكرت أسفار الميلاد ، عندما اختار لها أبوها اسم لور ، غير أنى من
حيث نشأتى الأخرى ارتحت لوقع الاسم وان بعث عندى خاطراً لم أقب على
كنهه وحرك عندى سرا لم أقدر على حله ، لاحظت أنها لاتكلم كثيرا ، مقلة ،
ليس عن شح ، إنما عن فيض ، تجيب بالنظر وتشارك بالإيماء ، وإذا حان
الحين تفتح شفتها فتزهر كلمة ، ويولد لفظ أو لفظان ، وقد تكتمل جملة ،
كل حرف مصحوب بابتسامة ، وابتسامتها يا إخوانى عجب ، لاحظت من
حيث نشأتها الأولى ذلك الشبه الحقيقى الظاهر بينها وبين جدها الباشا الذى لم
تره هى ، وربما تجمله ، كما أنى وجدت فى ملاحظها شها وقرينى بوجه تميمت لو
ألقاه فى هذه الدنيا ، ومن حيث نشأتى الأخرى لاحظت جمال وجودها
الحسى ، ترتدى بنطلونا من القطيفة السوداء يحدد بوضوح جلى
الاستدارات ، وخطوط الالتقاء ونقاط التفرق بين أعضائها المكونة ، أما
قيص الصوف الأحمر الغامق فلم يخف نهوض صدرها فى غير افراط ، وفى
هذه اللحظة اكتمل توهج عينها أو خيل الى ذلك ، ومن وجودى الأصلى
دققت النظر ، وداخلنى يقين اننى رأيتها من قبل ، لكن متى ؟ ، لم أعرف ،
كيف ؟ لم أدر ، عللت يقينى بأن وجهها هادئ ، مألوف للناظرين مع أنه لا
مثيل له ، سهل ممتنع ، لكن السر الذى تكشف لى فى هذا الوصل ، ان ثمة
جسرا بينى وبينى ، بين نشأتى الأولى ، وخلقى البديل ، ونشوتى فى كينونات
أخرى ، سأفيض وأفضل إذا سمح المقام ، أدركت لتوى ان سرا بدأ بعد أن
تكشف لى سر ، تقترح صاحبة لور عليها أن تغنى ، تلتفت إلى صاحبها
الأجنيين ، تقول إن ما سيسمعهان مفاجأة وان صوتها لا مثيل له ، وانه أفضل

الدروس لتعلم اللغة العربية التي يكدان لتعلمها ، تبسم لور . عندئذ نظرت إليها نظرا ثابتا وليس عابرا ، أقت بعيني على ملاحظها ولم أتردد مختلما ، رأيت جلالها في بهاء مستمر وألئى ، لا لتردد لور ، لا يبدو عليها خجل ، تعدل من جلستها فتستند إلى مقدمة ركبتيها اليمنى ، وتحيط ركبتيها اليسرى بأصابع يديها ، تبدأ ، تبدأ فأصغى إلى مطلع الموشح القادم من الزمن الأندلسى ، يحن وجهها حيننا ضافيا كافيا ، ويفيض حتى يغمرنى ، يملأ صدرى ويتيسر أمرى ويحجل عقدة قولى ، فترحل إليها أنفاسى ، وتسعى إليها دقات قلبى ، وتسافر رحلى بأيامى صوبها ، الفلاة ، الفلاة ، يقوم فى التومهرجاني ، ويبدأ موسمى ، يتنظم فلكى فى دوراته ، يفنى سكوتى ويتبدد صمقى ويبدأ صخبى ، وينهمر غيئى بعد طول جذب ، استحسنى ، اصفق ، اتمايل حتى يدهش الجمع ، وتخصنى لور بطرفة نظر ، تقول مضيقتنا : اظهر على حقيقتك ، ولم يدر أحد اننى أزيح الحجب وأدنو من معرفة السبب ، غزائى صوتها السلسيلى ، الزيزفونى ، الأكاسى ، الغرونى ، الشروق ، المسائى ، الربيعى ، البرى ، البحرى ، الندى . وأثار عندى الحنين والحنان ، وهددنى إلى أيام حلوة مرت عندى ولم أعشها ، وبعث هنيئات جميلة عبرتني ولم أشهداها ، وذكرتنى بدفء موطنى القديم فكذت أنوح ، وأتى إلى بأمى وكدها ، وتعيا ، فوددت لور رأيتها للتوفأصمها وتضمنى ، وقربنى من أبى فى غربته فرثيت لانكسره البادى ، وانكفائه الدائم على ما يكنه ، واقلاعه متسللا دائما من وقته المعهود ونفسه وشعره الذى ما عاد يأتى .

تنتهى لور فتستسلم كل قلاعى ، وتمهد كل وديانى ، وتسفر كل أقبينى وتظهر دقاتنى . يحين أوان الانصراف ، ابدى الرغبة فى المصاحبة عبر طريق العودة ، فتومئ إيماءة دالة مختصرة ، تحذرنا صاحببتها وصاحبتى ، ان حماسى الزائد والمخالف لطبيعتى ينذر بتغير فى أحوالى ربما ادى إلى خطر . تقول لور

ضاحكة إنها لانتحشى ، تبدو جادة فجأة فتتحدد ملاحظها وتبدو كأنها رموز دالة على ملامح أخرى لا تُرى ولا تلمح إنما توحى ، تمنى للجميع ليلة طيبة ، وعندما أغلق الباب ، وصرنا إلى الدرج ، بمفردنا ، نزل علىّ بهت فلم اتكلم ، ماذا أقول ؟ لفنى خجل فتعثرت حروف نطق فكأنى كنت أحتسى بالجمع والصحبة لأقول ما أملاه الفيض علىّ حتى إذا انفردنا تعثرت واربتكت لم أعد ادري ما يقال ، وهنا ادركنى فى نشأتى الأولى مشاعر صعب الافصاح عنها ، لكنها تتضمن شفقة على حالى فى نشأتى الثانية ، ألا أشبهه ؟ ألسنت مثله ؟ أطوى ولا ابسط . لكننى لم أشهينى فى اندفاعه تجاهها ، وان كنت لا أخفى ولا أنكر انى درت فى فلکها عندما رأيتها ، حتى وددت لو أبدو أمامها فتدركنى من حيث نشأتى الأولى لا الثانية ، ظهورها فى هذا المقام وزعنى بين النشأتين وشئتى بين الوجودين . لذا ضقت بصمتى هذا ، واربتكت من حيث الوجود الثانى ، وارتحمت إليه من حيث انه يتيح لنشأتى الأولى طول النظر والتأمل منها ، غير ان الصمت لم يدم ، إذ اقترحت هى اسراع الخطى حتى نصل مدخل محطة المترو ، تقول إنها تكره التزول إلى هذه الأنفاق خاصة فى الليل ، وصعود السلالم والممرات التى تصل الأرصقة ، أقول : إذن لتركب عربة أجرة ، قلت ما قلته والمطربيث رذاذا خفيفا ينبئ باستمرار طويل ، أما الرياح فباردة تفاجئنا بهبات حادة خاصة عند النواصي وافتراق الطرقات ، فتضطر إلى انحناء ، أسارع بفتح مظلتي وبسطها فوقها ، تريحها مبتسمة حتى تحجب عنى المطر ، أقول همسا « أنا لايمهم » ، تبسم ، فأحب ابتسامتها حبا لذاته حتى أتمنى المعاودة ، وعندما هممنا بالركوب تساءلت عن شارعها ، تلفظ اسمه بأناقة عطرية وإيقاع مزهري ، ودغدغنى نطقها للراء ، إذ أنه وسط بين نطق حرف الغين والراء ، فهى لاتفصح عن

الراء افصاحا تاما وفي الوقت عينه توحى بالغين وتشى عنها ، كذلك التقاء
اللام بالواو عندها ، فكانه نزول من عل للأخذ بيد سفل ، أما خروج الفاء
فهو التحديد عينه ، في الطريق تتوالى الأضواء علينا من مصابيح عتيقة
ولافتات اعلانية وصيدليات خافرة ، أسألها عن سنواتها المتقضية هنا فتقول
سبعاً ، وانها توشك على الانتهاء من رسالتها العلمية ، وأنها تعمل في تدريس
اللغة العربية لأبناء العمال المهاجرين . صمت آخر . لماذا لم تعرف طريقك إلى
الإذاعة .. إن صوتك أجمل ؟؟ تضحك فأحباً ضحكها حبا ثالثا لذاته ،
ضحكة مقصودة حانية ، إنها لم تفكر في ذلك قط ، كانت تعنى في حفلات
المدرسة ثم الجامعة وجلسات الأصحاب ، صمت آخر . عندئذ نطقت بلسان
وجودى الأول ، أريد أن أعرف كل شيء عنك ؟ ، ولدهشتي التي لم تتفد
بعد ، فوجئت بلساني في وجودى الثانى ينطق نفس العبارة ، أريد ان أعرف
كل شيء عنك ، هكنا أنطقت نفسى بنفسى ، وناب لسانى عن لسانى ،
ولأن التساؤل كان مفاجئاً ، فإذا بها تنظر إلى والمعجب لا يخفى ، تهمس :
كل شيء ؟ أومى وأنا في حيرة من أمرى في وجودى الثانى ، كيف واتنى
هذه الجراءة ، وما الذى انطقنى ؟ . صمت ، تتوقف العربية أمام بيت تلتقى
عنده ثلاثة شوارع ، أقول قبل ذهابها عنى ، هل يمكننى الحديث إليك ؟
تنطق باختصار سبعة أرقام ، لا أملك ورقاً ، أخط الأرقام على باطن كفى ،
نومى فأحب إيماءتها حبا رابعاً لذاته ، أطلب من السائق الانتظار حتى
توارى داخل البيت ، حتى اسمع صوت المصعد ، هي طالعة الآن وقلبي
طالع ، اجتاز الطرق كأنى أراها أول مرة ، أما ولوجى البيت فغاير لكل
مرة ، كأنى استوثقت سلامة البنية وصحة النظام بعد ظن خاطئ ، انتظرت
عودة أمى ولم أتم ، جاءت متعبة ، قبلتها وعانقتها واشفقت عليها لإرهاقتها

البادى ، منذ وقت طويل لم أدخل إليها وهذا غريب ، لم أجلس إلى أبي ولم يجلس إليّ ، قالت لي باسمة : لا بد أنني اخفى عنها امرا ، هل تخفى عن أمك شيئا ، قالت ، أهو حب جديد؟ ، أو مات .

من؟ قلت ، حليلة من الشام ، قالت ، عربية؟ قلت نعم ، قالت ، ستعرفني بها؟ ، قلت نعم . عندما يحين الأوان ، ومتى يحين الأوان؟ قلت؟ لا أدري ، قالت ، صفها ، قلت ، لاتوصف ، بدت سعيدة ، قالت ، أنت غارق ، قلت ، حتى القاع ، قالت ، زدتنى شوقا لرؤياها ، ثم طلبت منى ان أنام بقرها الليلة . أو مات ، فقامت نشيطة مبهجة ، إذن .. سنأكل معا ، فى هذا الليل تقاربنا وقالت لي قبل ان ترحل عبر نومها ، لا بد أن تعرفني بها ، فقلت مؤكداً . استيقظت والنهار أحد ، لن أذهب إلى المدرسة ، يمكننى النوم كما أشاء ، أو الاستلقاء إلى مدى ، واستعدت من حيث نشأتى الأولى استيقاظى صباح الجمع ، ادراكى فى اللحظات الأولى ان اليوم عطلة ، صوت الموقد الغازى ، رائحة الزلابية التى تقلبها أمى ، أو الأقراص الصغيرة التى تسويها ثم تفرقها بالسمن ، وعودة أبي من صلاة الفجر ، ودورق الحليب اللدسم ، واكتمالنا حول الطبلية قصيرة القوائم ، ادركت انى غبت عن وجودى الأول ، واننى أكاد أفقد ما خرجت من أجله ، لكن الفضول الإنسانى غلبنى وطفنى ، فعدت إليّ ، رأيت نفسى ، اغسل وجهى ، احلق ذقتى ، أوجل لحظة شروعى فى الاتصال حتى أعيش متعتها بدلا من انقضائها ، أفضل توقعها بدلا من استعادتها ، والغريب انى من حيث النشأة الأولى تعجلت سماع صوتها حتى أننى استبطلت الخطى وضقت منى ، على مهل أمد يدى ، وقبل اتمام الرقم أغلق الخط ، ثم أعيد الكرة وأنا ألفظ الأرقام رقما ، رقما ، بصوت مرتفع ، انتظر زنين الجرس ، يجيئنى صوت غير

الصوت ، أجنبي عني ، غريب لم تألفه أذني ، يقول إن الرقم صحيح ، ولكن مثل هذا الاسم لا يوجد هنا ، يتبدل اليوم وتهمر الكلدورات ، تتصل أمي ، هل افطرت ؟ هل ستخرج ؟ ثم تساءل ، مالك ؟ قلت ، لاشيء . قالت ، متى ستري صاحبك ؟ قلت ، لا أدري ، قالت ، حدث شيء ، قلت ، لا ، قالت ، لا .. بل حدث شيء ، قلت ، إذن حدث ، قالت ، ماذا ؟ قلت ، عندما تيجئين ، قالت ، وحياتك أخبرني الآن ، فقلت ، انني أفضل الصمت الآن ، لم أخرج ولم أبدل ثيابي ولم يتغير على الحال ، فقد ثبت كمدى وتمكن قهري مني ، وأحدق بي ضيق ، ولم أقدر على مد يدي إلى الراديو ، عند العصر كنت في خسر ، احتجت سماع الصوت الإنساني ، فأدرت القرص ، لأحداث صاحبي وصاحبة لور ، لعل آتي منها بقبس ، أما حتى الظاهرة فتوجيه شكرى على دعوتي ، جاعني صوتها ، فسلمت وشكرت ، ثم حدثني عن مظاهرة ستطلق غدا من الميدان الرئيسي احتجاجا ، قالت ، من المهم حضوري إذ يجب ان تبدو المظاهرة مهية المنظر كثيرة العدد أمام الصحافة والاعلام ، كدت استفسر عن لور ، وهل تيجيء أيضا ، لكنني فوجئت بها تقول لي ان لور خابرتها صباح اليوم وطلبت منها الاتصال بي ، إذ أملتني الرقم الأخير خطأ ، إنه سبعة بدلا من ستة ، سهو تعتذر عنه لور ، ربما ضييه العجلة أو المطر ، ودعت صاحبي بطيء الأنفاس ، لم أضع الساعة مكانها ، أخاف أن أدير الرقم ، لكنني عزميت وتوكلت ثم أصغيت إلى رنين الجرس الذي لم يستمر طويلا ، رسا عندي صوتها فارتفعت الكتابة وتأجلت الاستقالة ، واتضح الصفة ، ومن وجودي الأول رنوت مرتاحا إلى وجودي الثاني ، رأيت علامة هذا اليوم الشتوى ، واحطت ببعض ما احاطني ، وكانت أشياء متباعدة لا اتفاق ظاهراً بينها ،

ومن ذلك الرصيف الأيمن المؤدى إلى البيت ، واجهة معرض السجاد ياقوتية
الظل ، والقطع الصغيرة الدقيقة النقش ، تقول اللافئات إنها صنعت في
قرى نائية بأواسط آسيا ، وصوت المرأة التي تناولني الشطائر عندما تقول لي
شكرا بلغة موطنها ، السلم الكهربائي الذي يستمر في الحركة حتى توقف
القطارات تماما ، وقطرات المطر التي تأتي مفارقة أوراق الأشجار ، أحببت
لونها الأخضر السخي ، حيث يلد اللون من لونين مختلفين لا وجود محسوساً
لأحدهما في اللون الناتج عنها ، أحيانا تكون الغلبة للأصفر ، وأحيانا
للأزرق ، لكن لا يظهر الأصفر ولا الأزرق ، يندمج كل منهما في الآخر
ليتكون الأخضر ، كذا سائر الألوان ، وهكذا حالي مع حالي عند هذا الحد
من ذلك المقام ، إذ تداخل وجودي في وجودي ، أحيانا اتغلب بنشأتي
الأولى على نشأتي الثانية ، ولكن دون ان تظهر نشأتي الأولى في نشأتي الثانية ،
وعندما اتجهت فرحا إلى هذه الكنيسة الأثرية الشهيرة ، مقصد الزوار
والسائحين ، كنت أمشي في الأرض مرحا ، أبسطها كل البسط ، ولم أدر أيها
أنا ، فالخطى لي ، واللهفة لهفتي ، هذا ما خبرته عبر أعوامي الطوال المندثرة
التي لن تعود ، عندما اتجه إلى لقاء محبوبة لي ، ينثقت وجودي ويشف
كياني . وأرغب الحديث إلى كل من يلتقيني أو تقع عليه عيني ، وعندما
رأيت سيدة عجوزاً تمسك سلة من خوص ملون تظل منها وردات ملونة ،
اشترت وردتين ، وقبل الموعد بست دقائق ، قبل ان يستقر العقرب الصغير
على الرقم الرابع ، والكبير على الثاني عشر ، كنت أقف متأملا واجهة
الكنيسة وزخارفها الجصية ، اسأل نفسي ، من أي جهة ستأتي ؟ من أي
ناحية ستظهر ؟ في أي لباس ستبدو ؟ أي كلمات ستقال في اللحظات الأولى ،
ويوجدى الأول أتساءل ، كم من اللقاءات جرت في نفس المكان ؟ وكم

من الأيدي تصافحت؟ وكم من المصائر التقت؟ وتفرقت؟، في السماء
غمامات رمادية، وعلى القنطرة الحجرية مجموعة أجناب متدثرين بالملابس
الشتوية، وفوق الأرض تحط حمامات آمنة، من مكان بعيد تنبعث موسيقى،
يميني الصوت فجأة، مساء الخير، ألفت متهللا، يبالغني وجهها المحملي
المهادئ، عاد الفتى رتقا، والفرق جمعا فأبقيت يدها بين يدي مقدار
لحظات، تساءلت، إلى أين ترغيبين؟، قالت: إنني أحب ضفة النهر أيضا،
وانتي جئت إليه مرارا، أقرب مياهه الرمادية لكن بمفردى. ولكن أن
تشعري بالبرد؟، قالت، إذا زادت الوطأة لنمض إلى مقهى، قلت
ضاحكا، ان هذه المدينة لا يوجد فيها إلا المقاهي، والحدائق، ثم
أضفت.. وصوتك، ثم قلت، ان مقاهي القاهرة شيء مختلف تماما، ثم
قلت انني لم أر الشام للأسف، لكنني يوما سأذهب إليه، وانتي اعتبر اقامتي
هنا موقوتة مها طالت، شاء أبي، شامت أمي، أم لا. ثم قلت ان الأشجار
تبدو أجمل في الربيع، وان الغصون العارية تثير انقباضي، قلت إنني أحب
المطر وأعشق رؤيته من خلف حاجز زجاجي، لكن الأيام الرمادية تمدني
بكآبة، وأنني اقتنص مرات ظهور الشمس وأولى وجهي إلى حديقة
النباتات، أخلع قيصي، وأتمدد عاري الصدر، أما في مصر فالشمس مقيمة
أبدا، عندي جوع إلى هذه الشمس. لكن أبي يقول إنهم أفسدوا كل
شيء، وإن الأيام غير الأيام، قلت ضاحكا إنني سأبلغ الثامنة عشرة في
أبريل، قلت إنني لا أصدق، وجهها لا يوحى أبدا، كأنها زميلتي في
الدراسة، ضحكت وقلت إنني لم أضحك من قلبي منذ زمن بعيد، ساعات
عديدة أقضيها بمفردى هذه الشوارع الخالية من المارة قاسية على القريب،
وأنا غريب، سكت لحظة تشاغلته خلالها بالنظر إلى قارب كبير مغطى بزجاج

شفاف ، تبدو صفوف المقاعد خالية ، يركبه الأجنب ليروا معالم المدينة من
النهر ، التفت إليها ، وجودها الهمسى يجعلها صفة لا موصوفة ، كأنها خلقت
في المساحة التي تفصل الضوء عن الظل ، والشذا عن مصدره ، ظل الندى
على الندى ، تسليم الليل على النهار ، تردد أشعة الشمس على الغمام في
الأعلى ، تنظر إلى مياه النهر ، إلى درجات حجرية قديمة محفورة في الشاطئ
المخدر ، على مهل تلتفت إلى ..
« ماذا تريد مني ؟ »

اختصار موجز ، وحيرة غارية ، اتوقف عند مفترق ، واحلق عند
حدين ، أتردد بين إجابة وسؤال ، في وجودى الثانى حيرة ، ماينها استقر
صمتى ، غير أن ذلك لم يدم ، أقول - ولا أدري بأى اللسانين نطقت ؟ -
« أريدك أنت » ، تولى وجهها شطر النهر ، أمد يدي ، ألمس أطراف
أصابعها ، مشارف وجودها الحسى ، احتوى يدها الدقيقة ، الرقيقة بين
يدي ، تلتفت إلى ، ما بين شفثها انفراجة رقيقة لا تلاحظ كخط الأفق
الفاصل بين الأرض والسماء ، يُحدِّد ولا يُحدِّد ، أما عيناها فطاقتان على
عالم أجهله ، تشع بالنظر سؤاها الذى نطقته منذ لحظات ، ماذا تريد مني ؟ ،
يهفو قلبى في صدرى ، ويتقلب بين كفى شيخى الأكبر . وهنا رأيت شفثى
تنطقان ، لكننى لا أسمع ، رأيت إيماءاتها الصامتة . ولم أدرك جل ما
قلت ، يضايقتى هذا ، مع أنى لم أنطق كلمات كثيرة أو جملا معلودة ،
وعللت ذلك بأن ما يقال في اللقاءات الأولى لا يمكن استعادته كاملا ، بل
يجرى فيه الأمر بمجمله ولا يدرك في تفصيله ، ولأننى اجتزت منزل الأصوات
الباقية ، وانقطع أملى في العودة إليه ، واستحال رجوعى فقد يشت من
قدرتى على معرفة ما قلته ، والغريب العجيب اننى من حين إلى حين أرى

دخولها على أول مرة ، ولحظة خلعتها الجباكت المبطن بالفرو ذى التنوش
السلافية ، أعلم أن الإنسان الذى سمي إنسانا من النسيان لا ينسى اللحظة
الأولى ، ولا اللحظة الأخيرة ، أما ما بين القوسين فيندمج ، تطمس معاملة ،
تنطفئ فترات وتبرق أخرى ، ربما ينسى زمن بأكمله ، تخفى تضاريسه ،
لكن لحظة البداية ولحظة النهاية لا توليان أبدا ، أما التفاصيل الدقائق فمن
العيب محاولة استعادتها ، أبدا ، أبدا .

انظر من وجودى الغريب ، أرى نفسى دانيا منها ، يحيط خصرها
بذراعى فتميل إلى صدرى ، وتسبل جفنيها العلويين ، أغطي شفتيها بشفتى ،
أزداد قريبا حتى أرى الشعيرات التى يسرى عبرها الدم البادية فى جفنيها
المسدلين ، فى حضنى تبدو أصغر وأدق ، وعلى صدرى فرشت رائحتها التى لم
أعرف مثيلا لها ، بين ذراعى أدفا ، وكأننى ألمم حمامة طال بها السفر ، تدب
الحرارة فى جسدى ، تسرى الرغبة عندى ، وتتحرك الشهوة فى ، ولم أكن
خجلا من التصاقى بها وشعورها بقسوة رغبتى وشذبتها ، وتلك جرأة دهشت
لها ، لم تواتنى فى هذه السن عندما مررت بها ، أنا الذى لم أعرف امرأة إلا فى
الثانية والعشرين ، لا أكف ، تندس بدى ما بين ثيابها ، فكأنى رأيت لون
بشرتها بيدي ، تزداد ميلا نحوى واستبكانة ، يصير وجودها حيننا ومحنة ،
وشفقة ، ورقة ، ومنه ، حرك هذا عندى الرغبة فى القربى ، وتلك رغبة
منقوصة لغياب جسدى عنى ، فلم يعد من نصيبى إلا النظر منى إلى ،
والدهشة منى على ، والحسد ، والتمنى لو كنت أنى ، وهذا عجيب ، ولم
يتفق لأحد غيرى ، حتى مشايخى الأجلء ممن مهلوا لى الطريق وعرفونى به ،
وأخذت عنهم فيه وله ، حتى رفاقى وإخوانى الذين اتبعت خطاهم ونور
علمهم عقلى ، هذا خصصت به ، وان كان مؤلما ، انفردت به وان كان

معلبا ، مضنيا ، انتهت إلى حركة جسدها في ابتعاده عني ، بينما تغصق مياه
النهر ويطل الليل عند الحافة ، وتدنو السماء من الأرض ، اكتمل انفصالها
عني ، وأنا متوهج العروق ، طامعٌ في الباقي ، انطق فأسمع نفسي « حرام
عليك » ، مشيرا إلى توتر حالي ، فأجابتنى « وحرام عليك » ، ففرفت أنني
تبيأت لها وأنها تبيأت لي ، وأن ما تمكن مني تمكن منها ، وما سرى عندي
سرى عندها ، فلأت يدي ، واستوتقت أمرى ، وورغت الضم والعناق ،
والاحتواء ، غير أنها عرضت عني برق ، وحنو ، قالت « امهلني ، إني في
حاجة إلى قرار » ، ثم قالت « إني مضطربة » ، ثم كررت « إني مضطربة » ثم
قالت « إني في حاجة إلى قرار » ، لم أعاود الكرة ، هل يصير قريبا إلى بعد ؟ وما
كان بيننا منذ لحظات ، أيتقلب إلى ذكرى ؟ أشراقة ثم ولت ؟ ، تساءلت
بصوت خفيض « متى تقررين ؟ » قالت « إني بحاجة إلى فرصة ، إني
مضطربة » ، تساءلت « أيطول الأمر ؟ » ، قالت « لا » ، بدا لي نطقها لحرفي
« لا » عجبا ، فيها العمق الأقصى ، والرجع الآتي ، وبشائر الحنين ونسيم
المودة ، وعبق القرب حتى وإن وقع الفراق ، منطوقها لا يشبه منطوق ،
ومخارج حروفها لا مقابل لها ولا مثل ، تنطق كأنها تندكرزنا جميلا ، نحن إلى
عمر آمن ، مفتقد ، أو تلمح إلى مكان عزيز ، أو غائب عزيز ليس في تناول
البصر ، فن اين لها البحة الأسيانة ، والقيض الشجوني ؟ . رأيت خلق البديل
في البيت ، ولم أعلم أهو اليوم نفسه أم يوم تال . بمفردى ، فأبي غائب ، وأمي
لم ترجع بعد ، عبر الهاتف يجيئني صوت لور الشفقي ، المؤيد السوسني ، تقول لي
أنا « يمكنك ان تجيء وتفضي الليل معي ان شئت » ، أطوى الشوارع طيا ،
ادخل المصعد الضيق ، اضغط المفتاح ، يرتفع محدثا ضجيجا في تلك الهدأة
السكونية ، اقف في الطابق الثالث ، احدق في رقم الشقة ، يرن الجرس مرة

واحدة ، يصنعى قلبي الخافق إلى وقع خطاها المقرب ، تفتح الباب ، تقف بوجودها الأفق المفتوح أمام وجهي ومقصدي فيلين سعبي ، فأخطو إلى الداخل ، ولأني رأيت البيت من حيث نشأت الأولى قبل ان تراني فلم أركز البصر على الجدران ، أو صورة المسجد الجميل ، ولأني ألج المكان أول مرة من خلال نشأتى الثانية فبدوت مترددا ، غير ان تأثير وجودى فى وجودى لم يخف على ، إذ شعرت شعورا خفيا أننى رأيت المكان من قبل ، متى وأين ؟ هذا ما لم أعلمه أبدا من خلال وجودى الثانى المحدود ، خلعت حدائى ، وجوربى ، وجاكتى ، وقعدت عند حافة الحشايا المتجاورة خضراء اللون ، والتي تشكل فراشا بجوار الجدار ، بينما جلست على حافة المقعد ، تدس يديها المبسوطتين المتجاورتين المتلاحقتين ، براحتيهما بين ركبتيها ، سألتنى « تعشيت » ، أوأمأت ، وكنت انظر إلى الطاولة البسيطة المثقلة بالكعب ، والأقلام ، والصناديق الصغيرة الممتلئة بأوراق البحث ، إنها تجلس هنا إذن ؟ ، تخلع قيصها الأحمر النيذى ، يفصح أجسدها عن ألح خمريئى مطعم بحمرة ، وكثفين مستديرتين ، أرى غنقها بأكملة من المنبت ، تمد يدها إلى الخلف ، تفك المشد الأبيض الشفاف الرهيف ، ينفر نهاها كالنبا العظيم أو الخوف المفاجئ ، أما الحلمتان فهستان ورديتان ، دائريتان ، سخيتان ، دالتان مدلتان مومثتان ، نضاحتا الهوى ، أرى عريها مكتملا فتم أركان الحقائق ، وتنجلي المعرفة ، اسعى حوله بنظري واطوف فلا تبدى خجلا ولا تدارى ، بل تقبل علىّ ، تساعدنى على فك قيصى ، تمسح شعرى ، تدللى ، تهدهدى ، فتعيدنى إلى سيريى الأولى ، أحيطها وتحيط لى ، اقبلها وتقبلنى ، أرغب فى ان تظللنى أنفاسها من كافة جهاتى ، وكلما حننت عليها ازداد حنانا على روحى ، أما من جهة وجودى المنقوص ، حيث أنا رأس بلا جسد يسعنى على قدمين ، كنت متفرقا بين مشاعر شتى ، أرقب سرعة تطور ما يجرى ، فما بين وقوع عيني عليها أول مرة ، وما بين

تقبيل لها عند ضفة النهر سبعون ساعة ، وما بين ضمي لها واكتمال عربنا سبع ساعات زمنية ، وهذا لم يتفق لي مع كل اللواتي هفا إليهن قلبي وجبا . إني أمام شيء جديد على بحكم وضعي القديم ، حتى أنني ارتبكت ، وسرى اضطرابي هذا إلى وجودي بين أحضانها فلم يتم أمرى بعد ان كنت عفا ، تقول لي « دعني اساعدك » ، غير ان ميراثي الشرقي أبي واستكبر ، تقول لي « تعال إلى جوارى ، أرغب ان اكلمك ، اسمعك ، وتسمعي » ، أضحك مداريا خجلي « حدث عطب فتى » ، انفصل عنها ، وهكذا حال هذه الحياة الدنيا ، اتصال يعقبه انفصال ، تلاق وتفرق ، فسبحان من له الدوام وحده ، من ناحيتي تحرك أمر غامض في قوادى ، لم أدر كنهه بداية ، لكنني لما أطلت النظر إلى العناق والمهامة ، أدركت اني أغار عليها مني مع أني أني ، ولأن الغيرة لاحت واسفرت فقد وعيت عشقي لها وبداية تحركه ، حتى تمنيت أن أكون أنا هو مع أني هو ، وهو أنا ، وددت لو ان قلبي معي في صدري ، فعلامه المحبة خفق القلب ، حرت في أمرى ، فشغلت نفسي بالطواف بها ، تعجبت إذ تبلغ النشأة الإنسانية هذا الحد من الكمال والدقة ، والرقه ، سهرت عليها بعد نومها ، رأيت وجهي متعبا ، غير راض ، لأنني لم أتم ما بدأت ، حتى ظننت بنفسى الظنون ، وحررت فيها سظنه عنى ، غير أني أقول الحق والحقيقة ، فلم تشعرني أبدا بضيق أو حرج ، لم تبد لي ما يحمل المكروه بصيبي ، تأملتني بالنظر الجميل ، رغبت في توسد ذراعي ، ظننت أننا سنضطجع على السرير في الحجره الداخليه ، غير أنها لزمت نفس المكان فتمددنا فوق الحشيه وأحاطنا ليل عقيم من الأصوات ، كنت بجوارها ، وكنت أتمنى وأدوب شوقاً لأرقد على مقربة منها ، اضمها أو تضمني ، مع أني طيلة وجودي البشرى لا أطيق اقتراب انفاس مخلوق مني ، إذ عندما أليج النوم أفضل الوحده والانكماش والانطواء حتى لتلامس ركبتي صدري ، طفت بفضاء الحجره . حططت برأسي في

متناول أنفاسها ، أتلقاها على وجنتي فأنثني واكمل وأنا منقوص ، أني لي بذراعين ، وساقين وصدر اذنيه من صدرها ، وقلب أسمعها به خفتي ، أني لي ذلك ، شغلت بها النفس عنى فلم أكف عن الطواف حولها ، بدا لي استسلامها للنوم مزهريا ، وسنيا ، هسبا ، نجوميا في البعد السحيق ، عند الفجر انتبهت إلى اقتراب شيخى الأكبر منى ، فتأدبت وأنهيت الحملقة ، ولاحظت بطرفى الكليل أنه يقبض على قلبى المصرور فى مندبله بكلتا يديه وليس بيد واحدة ، وأنا فى مواجهته اخجل من نفسى خجلى الأول من أبى ، لم أتحدث إليه مرة واحدة فى عمرى عن امرأة عرفتها ، أو عشقتها ، أبدا ، وبعد ان فتحت بيتا ، وفى زيارته القليلة إلىّ ، وعند انصرافه يدعو لى « متحك الله » ، فأشعر بظل من خجل ، تلك بقايا النشأة الأولى التى اندثر وما عادت ، بل ولت بلا أمل فى الرجعى ، وكل يوم يمضى لايزيدنى إلا بعدا ونأيا ، لذا حق لى الحزن ليس لأن كل مفقود نفيس ، وكل مستحيل مرغوب ، وكل عزيز غائب تحن إليه النفس وتفهو ، بل ، لأنها آمن أيامى ، هذا حق أقربه وأعيه فى صحوى ومنامى ، وهذا من لطائف منته على ، قال لى شيخى الأكبر ، نفعنى الله ببركته وغزير علمه وزاده حرصا على سلامة قلبى القابض عليه . قال لى ..

- ذكر إنما أنت مذكر ..

قلت :

- لست على نفسى بمسيطر ..

قال :

- ارفق ، ولا تنس أنك أنت هو ، وهو أنت ..

مع بدء حديثه صار السكون أعمق ، وانفاسها لا تسمع ، أرى صدرها يعلو بشهيق وينخفض بزفير ، وكنت قد أغمضت عنى ونمت ، أما عناننا

فلطيف ، كئيف ، ويبدو أن رقدتنا وبدء هيامى دفعا شيخى الأكبر إلى التبسط معى ، قال لى - وصوته عقب بالوجد - ان الحقيقة تجلت له فى زمن قصى ، وكان مجاورا وقتئذ بمكة ، وكان لشيخ من أصحابه بنت عذراء ، طفلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام ، وتلقب بعين الشمس والبا ، من العالقات الزاهدات الساجحات ، شبيخة الحرمين - ساحرة الطرف ، إن أسهيت اتعبت ، وان أوجزت أعجزت ، يتيمة دهرها . عالية الهمم ، قال لى إنه نظم فيها بعض خاطر الاشتياق ، فأعرب عن نفس تواقفة ، ونبه على ما عنده من العلاقة ، اهتماما منه بالأمر القديم : وإيثارا لمجلسها الكريم ، فكل اسم ذكره فعنها كان يكنى ، وكل دار نديها فدارها يعنى ، قال لى إنه نظم فيها قصائد رقيقة جميلة ثم اضطر لشرحها ، ذلك ان بعض فقهاء حلب انكروا ما فيها من أسرار إلهية ، قال لى ، إن المنكرين لما سمعوا شرحه تابوا إلى الله سبحانه وتعالى ورجعوا ، قال لى شيخى الأكبر بعد اطراقة . فتدبر يا جمال فيما تمر به ، إن ما تشهده لم يشهده أحد قبلك ، وما تشعر به لم يطرأ على قلب غير قلبك ، ولا تظن أن الأسرار كلها تكشفت لك ، فاكل شىء تبصره تفهمه ، سكت ، وكنت فى رضا ، واطمئنان ، ورجبة لا تحد فى الافضاء بكل ما عندى وما فى سريرى إليه ، ذلك أنه رفع حجاب الكلفة وخاطبى باسمى مجردا ، وباح لى بالهوى القديم ، فوددت البوح بمكنونى ، وهذا مخالف لطبيعتى ، ذلك أنى صموت ، كتمت ، اجارى من أواجهه وأنا راحل عنه ، أقيم مع من يصاحبنى وأنا بعيد ، ألم أخبركم من قبل أحبابى واخوتى فى الطريق أننى راحل أبدا ، فلا استيطان لى أصلا فأنا مستوطن بلا وطن ، ومقيم بغير سكن ، غير أن طبعى هذا تبدل ، معى حسينى ومع من أحببت ، خاصة هذه البنية ، فخصالى فى نشأتى الأخرى متشابهة إلى

حد بعيد بما أنا عليه في وجودي الأولى ، ومن ذلك قلة حديثي حتى في
افضالي ، واستاري ، حتى ان أمي الثانية كانت تضربني على يدي وتقول لي
«أه لو أعرف في أي شيء تفكر؟» ، أو تصيح فجأة ، انطق بأخى ، ، أما
أمي أنا ، أم نشأت الأولى ، فكانت تفهمني بالنظر ، وتدركني بالصمت ،
تواجه ساكنين فتعرف عني الكثير ، واعرف عنها القليل ، وإذ أودعها عند
سفر أو بدء غيبة ، نفترق ، فلا تتبادل القبل ، لا تتعاق ، ولكن جسر
القلبين سليم ، وبحر الود جار متصل ، كنا حالي مع أبي ، أما أمي الثانية
فتقبلني في الغدو والرواح ، تناديني بالتدليل والتصغير ، وتطلب مني ان
اطمنها على مكاني ، لأن انقطاع خبري عنها يربك أحوالها ويرجع قوادها ،
ويشغلها عن عملها ، وتقول لي دائما إن عملها هذا مصدر أماننا في الديار
الغريبة ، وان أحوال أبي لاتطمئن أبدا ، تريد ادخار شيء للزمن يؤمنني ،
تخشى ان يقبلها مرض ، أو حادث مفاجئ ، ربما يشط أبي شططا ، فند
ابتعادنا عن مصر ، وانقطاعه عن الشعر ، تشعر أنه يعيش معنا حياة مؤقتة ،
وأنه قد يهجرتنا يوما ، فهل تدعني أواجه الحياة بمفردى في الغربة ، لا يمكنها
تحيل ذلك ، فما البال لو وقع؟ ، في عصر يوم غارب سألها ، لماذا لا ترجع؟
قالت لي ، هل ترضى السجن لأبيك؟ ، ثم قالت ، هل تقبل له ان يعمل
معهم؟ ، ثم قالت ، كيف ترجع وهذا العلم الغريب يرفرف؟ قلت لها ، لماذا
لا ترجع وتلقى به؟ فقالت لي ، وهل تقدر؟ ، عندئذ استأنفت صمتي ، وهنا
علمت أن كل ما عرفته عن أمي الثانية كان مادة حلمي وصورة في رقدتي
بحوار لور ، ويبدو ان امرأ تقبلا نفذ إلى رؤياي ايقظني ، وهنا احتجب عني
شيخي وممسك قلبي ، نظرت إلى نفسي ، افتح عيني وأثر الرؤيا في انفاسي ،
حتى اتى حنتت إلى أمي حيننا قويا ، أتأمل الوجود المجاور لي ، الساكن

الحى ، هدوء نومها المحتوى لحوية جسدنا متالى الاستدارات ، متماق
النسب ، نحول الحصر ، واكتمال الردفين فى غير افراط ، وانبساط الساقين
ورشاقة أصابعها ، اتذكر تمثال مدام ريكاميه ، كأنه اتخذ وضع النوم بعد
سريان الحياة فيه ، تنقلب فتولبنى ظهرها ، ألامس مفرق ردفها بجسمى
فتدب عندى حرارة واشتياق عظيم ، برفق التحلل شعرها بأصابعى ، أقبل
كنفها ، تستدير إلى ، على مهل تطفو نجاهاى قادمة من أغوار النوم ، تقبلنى
وأقبلها ، آخذها وتأخذنى ، اتجاوزها وتتجاوزنى ، تتحد ، تغمض عينها
لكننى أبقى عيني مفتوحتين ، ارقب ميلاد النشوة ، وانفراج الشفتين بعد تيسر
الأمر ، أما أنا فى وجودى الأول ، فقد كنتا منفصلا مع أنى متحد ، هى
قرية منى ونائية عنى ، اقتربت منها ومنى ، مررت بينها وبينى ، رأيت متعتها
ومتعتى ، تمنيت لو أنى مكانى ، لو احتوتها بدلا منى ، لو أخذتها عنى ، لكن
أنى لى ذلك وأنا ناقص غير مكمل . تأكد عندى فى لحظة الاندماج القلمية
أنتى أهواها ، وأن هواى بدأ عنلما رأيتها وحيدة فى حجرتها قبل ذهابها إلى
مسكن صاحبها ، قبل بدء غنائها ، قبل ولوجها قلبى الثانى ، ضقت منى ،
وأحطت نفسى بنظراتى ، فغريى ذاتى ، ومنافسى هواى ، ومن أخذها عنى
هو أنا ، ومن احتواها شخصى ، احطت وجودى الآخر بنظراتى وأنا كاره
لى ، مستفر منى ، ولما لاحظت اقترابها من ذروة الأوج ثبت بصرى فسمعت
تأوهها المضموم ، ورأيت انتفاضة جسدنا كأنها زلزلت زلزالا ، رأيت نضج
اشتياقى وكإل متعتى ، كنت أرى للنى ولا أشعر بها لغيب جسدنى عنى ،
وتوزعه وششته ، رأيت يديها تسبحان فوق ظهرى ، فذكرتنى اصابعها بترقق
ضوء القمر عبر فجوات الغيوم ، يتم رسونا وينتهى سفر كل منا عبر الآخر ،
تتمدد هادئين ، يحتضن كل منا الآخر ، ارتاح راحتين ، فراحة من حيث أنى

فرغت واصلحت عطبي ورتقت فتق الذي كان أول الليل ، وراحة أخرى لأن ما أثار غيرتي منى قد انتهى ، غير أنى لم تمض دقائق معدودات حتى شرعت اطلبها مرة ثانية ، دهشت ، ضقت ، حام رأسى فى فراغ الغرفة حتى كدت اصطدم بسقفها وقطر دمي ، غير أنى عللت الفرق بينى وبينى ، فوجودى الأول يقترب من الأربعين بقلب معطوب وجسد مشخن بجراح زمن السوء ، أما وجودى الثانى فلا يزال غضبا ، لم يتجاوز العشرين ، دقت النظر فى الفروق بينى وبينى ، قامتى الأولى أقل طولا ، غير ان جهة رأسى اعرض ، وقضيبى الأول أطول قليلا ، فسرنى ذلك واراحنى ، أما يدي فنبسطة ، واصابعى فنحيلة متناسقة ، ويدي عريضة وأكثر امتلاء ، وكانت بشرتى سمراء قحبية ، أما بشرتى هذه فيضياء وشعرى بنى غزير ، أما شعرى الأول فأسود خفيف ، تساقط معظمه ، عند بلوغى هذا المقام ، وأوشكت صلعتى ان تكتمل ، امعن النظر وأنا ألج كونها للمرة الرابعة ، كأن وجودها ازداد تركيزا ، اقتربت اطرافها وصارت كلا مدملجا ، تفرغ ، تطلق آهة ، ينكفى رأسها جانبا ، أقول « تعبت ؟ » ، تولى وجهها تجاهى ، « الحب يربحنى » ، كأن التعب أضنى على صوتها ورائحتها كثافة ، أصير إلى عقب منها ، اتخلل شعرها مرارا ، التفتت فجأة ، تقبلنى ، أنخدر ، اتهدهد ، من ناحية أخرى ضقت إلى الذرورة بما بينى وبينها ، إذ تعاضم حرمانى وارتوالى معا ، حرمان لأنى أنا لست أنا ، فأنا الفاعل والمحروم من الفعل ، بل أتمناه ، أفرغ من وصلها لخامس مرة ، مهدود ، متعب ، متش ، بينا الفرحة عظيمة ، والرضا أتم ، هى تستلقى ريانة ، مسقية ، ساقية ، متوردة ، تنفرج شفتاها انفراجا خفيفا ، يبدو مايبينها كاتصال النهر بالبحر ، عند المصب ، أقوم لأتناول منديلا ورقيا اجفف به عرقها قبل عرقى ورضابها قبل رضابى ، تنظر

إلى ممتنة ، مكتملة الازدهار ، يطلع الفجر علينا ، نظره عبر الستارة
المسدلة ، وثنايا متعتنا ، في الضوء للعذرى نجلس متواجهين ، عرايا تماما إلا
من صدقنا ، تتطلع إلى ، واتطلع إليها ، ارغب في الاحاطة بكل شيء عنها ،
وفوق كل ذى علم علم ..

فصل في وصل ..

.. تتطلع إلى ، وانظر إليها ، وإذا بي أفجأ في وجودى الأول بأنتى أنا
هى ، انظر بعينها إلى ، وأفكر بمنطوقها فى ، أنا فى نظرها مضىء ، حى ،
أبدو أجمل إذ اتخلص من إطراقتى واكتتابى ، خاصة بعد أن تم الشيع
والرى ، عندما كنت أذفع بنفسى داخلها أميل برأسى ، أتوسد كنفها فتلمسنى
بكفها ، سرها هذا كثيرا ، وسررت أنا أيضا ، فتلك المرة الأولى التى أرى
نفسى بعينى أنثى ، كنت لدهشتى أشعر بلذتها ولذتى ، فأنا هى ، والفاعل
والمفعول واحد ، والمكنون والمتكون فيه واحد ، والمعطى والمتلقى واحد ،
وكثيرا ما سألت نفسى ، كيف متعة الأنثى ؟ اتشبه متعة الرجل ، ذلك أنى
خبرت متعة الذكر ، ورأيت آثار نشوة الإناث على وجوههن ، لكننى فى هذا
الفصل وقفت على ما لم يقف عليه غيرى ، واحطت بما لم يحط به قبلى رجل
وامرأة ، إنها تردد كلما اطالت النظر إلى ، لكم هو حنون ، كم هو رقيق ،
اثناء المطر مد مظلته وترك القطرات تبلله ، لكم يمكن اساءة فهمه ، سررت
لأن هذا خبىء طبيعتى ، ولكم عانيت يا صحبى من سوء الفهم عند
الآخرين ، غير أن ما حيرنى توقفها المتأتى عند يقينها أننى أخفى أمرا ، وأن ظللا
غير مرئى ورائى ، واننى بقدر ما أبدو مرحا بقدر ما أدارى شجنا يفوق

الشجون ويتخطى مدى عمرى الغض ، ويقدر ما أبدو فتيا بقدر ما أضمر شعورا بالهرم ، وكلمة حذقت الى ، ازداد يقينها أنني أصحب ظلا غير مرئى لآخر ، حرت من ناحيتى فى سر ذلك ، لكننى علته بوجودى الأول المصاحب لوجودى الثانى ، فلا بد ان اطلالتى عليها تلقى ظلا غير مرئى ، ألا يفاجئنا - ونحن بمفردنا - شعور مهم بأنه ثمة وجودا خفيا يجاورنا أو يصحبنا ، ونحن لا ندرى كنهه أو طبيعته ، تطرق ، تنظر إلى الأرض ، تقول لنفسها إنه يشبه أباه ، فأضطرب الاضطراب الأعظم ، واتساءل ، أى أب تعنى ؟ أتعرف أبى وأنا جهول لا أدرى ، وعند هذا الحد انتهى الفصل ..

عودة إلى الوصل الرابع من هذا المقام

.. أقترح ان تقابل النهار فى الشارع ، ان تتناول إفطارنا فى مقهى قريب نجه ، تبدى حماسا ، تهض ، تعبر الصالة سابحة فى أتوتها وبهاثها ، قبل خروجنا استفسرت عن مكان نومها ، وجلوسها ، وساعات عودتها ، وبقائها هنا وانصرافها ، وميعاد إغماض عينها للنوم ، والموسيقى التى تعشق سماعها ، والموسيقى التى تحبها وتشجىها ، والموسيقى التى تهجها ، والأغنيات التى تصحبها ، وعن الكاتب الذى تأنس إلى علمه ، وعن زجاجات الدواء التى لمحتها عندما دخلت لأغسل وجهى فوق الرف الزجاجى ، وعن أوقات نزهتها ، والحديقة التى ترادها ، وعن آخر مرة سافرت فيها إلى موطنها الأسمى ، وعن مرات اتصالها بشقيقها المقيمة فى أمريكا ، وأمها المصرة على البقاء فى بيروت وتأبى مفارقتها ، وعن الجريدة التى كان يمتلكها أبوها ، وعن المرض الذى ألم بها بعد رحيله ، وعن المستشفى الذى عولجت فيه ، وسألتها

عن طلائع الليل الداجي في عينها ، وهذا الغمام في نظراتها إذا استفسرت عن والدها ، هل آلتها؟ ، قبل خروجنا قبلتها ، فاستكانت إليّ ولاصقت برأسها صدرى فرغبت التلاشي هنا ، بين مقام قلبها وقبله عينها ، نزل السلم المغطى ببساط أحمر قديم ومثبت إلى الدرجات بقوائم نحاسية ، الشارع رمادي والسماء رمادية والصبح يروي الأشجان الأولى ، المقهى فتح أبوابه ، والمناضد صفت والبخار تصاعد من أوعية على القهوة والشاي ، زجاجي الواجهة يشرف على ميدان صغير مبلط بالحجارة القديمة ، من خلاله أرى الشارع الذي تسكنه بأتمّة ، شارعاً آخر مجاوراً ضيقاً ، على جانبيه دكاكين لبيع الخضار ، واللحم ، والحلوى ، شرق المظهر لذا حننت إلى أسواق قاهرتي القديمة ، وتحرك اشتياقي إليها ، تقول لي إنها تحب هذا المقهى في ساعات النهار الأولى ، وتأمل السوق لأنه يذكرها بمدينتها ، يبدو عليها أسى ، تعجبت لتشابه المعاني والخواطر ولم أصرح ، خفت ان تظن في قصدى المحاملة ، كنا نجلس بقرب الباب ، وكلما نخل داخل أو خرج خارج ، تدفقت لفحة هواء بارد غير أني لم أبال ، فهذا مقعدها الذي تحبه ، ومنه تتابع الطريق ، والمارة ، والمطر ، وندف الثلج ، والمظلات في أيدي المرعفين ، وحاملى باقات الورود ، وأرغفة الخبز ، والحاجات البيئية ، والمسكات بأيدي اطفالهن ، والمتعبين والحيارى من أبناء السبيل ، بعد مدى من إطراقة حزينه اشفقت خلالها عليها ، تقول لي أنا إنها كادت تحن بعد رحيل أبيها ، وأنها هامت أياما طويلة في الشوارع والطرقات ، عندئذ ضغظت بوجودي الأصلي على وجودي البديل وسألت بلساني عبر لسانى الثانى وهذا مسموح لي به ، « وكم استمر حزنك العفى؟ » ، تقول « عامان » ، تصمت ، ثم تقول لي إنها خلال الشهور الأولى التي تلت رحيله لم تتخيل يوماً

أنها ستمشق وتسافر وتتمتع بلون الضوء وجميء اللفه وتتمرى لأشعة الشمس ، لكن الزمن ... ، فهمت عنها بوجودى الأول ولم أدرك تماما بوجودى الثانى ، تقول قبل شروعى فى النطق ، إنها كانت تمشى فى الطرقات تبحث عنه بين الوجوه فلا تجد ، وتتوقع ظهوره فجأة عند المنحنيات فلا يبدو ، وتوهم ان قامة هذا تشبه فتهرع لكنها ترتد خائبة لمراى الملامح الغريبة عنها ، وعند لحظة معينة لا تدرى متى على وجه التحديد ادركت أنه فارقتها إلى أبد مجهول ، إلى سر دفين لا يمكن الافصاح عنه قط ، صار هذا الحاطر يفاجئها فتتوقف أثناء مشيا ، وتمشى إذا كانت واقفة ، تقوم إذا كانت جالسة ، وتقعد إذا كانت واقفة ، فلا المشى هدأها ، ولا الجلوس اراحها ، ولا الاضطجاع خفف عنها ، ولا الرحيل سلاها ، سكتت ، وهنا قوى تعلقى بها وازداد من ناحية وجودى الأول ، فكلانا يتيم الأب ، وهى كأنها تروى عنى ، تقول إن الحساسة بدأت فى رثيتها ، اضطرت إلى دخول المششفى ، التقت بالرجل البولونى ، كان وحيدا فى تلك المدينة ، والبلاد ديار غربة له تماما مثلها ، عندما رأته سعت إليه ، كان قد تجاوز الستين ، كثيرا ما توصلت صدره ، كانت العقاقير المهدئة متمكنة منه ، ولم تكن تطلب منه ما تطلبه الأثنى من الذكر ، لكنه كان يبنى ، وحتى لاتغضبه كانت ترضى ، وتستسلم وتحاول مساعدته ، وفى كل مرة تقول له إنها لاتريد منه هذا ، لاتشدد إلا الصعبة ، فينهرها ، ثم يبكى متعبا ، ويقول إنها أشبه بامرأة تمتلك مقدارا كبيرا من المال ، وتحتاج إلى شراء القليل ، وهو لايمتلك شيئا وينقصه الكثير ، تقول إنه يتصل بها أحيانا ، وانه يبكى ، ويهدد بالانتحار ، ثم يرجوها أن تسامحه ، وأن تغض ، أقول والغيرة تشب مخالبها فى أغوارى ، هذه علاقة ضارة ، بل خطيرة ، تجيبنى بلسان غريب ، لغة هذه البلاد التى

أجهلها ، جاوبتها من حيث وجودى الثانى ، ولم أفقه قولى بوجودى الأصيل ، فضقت لذلك ، وتمنيت لو تبدلت فحظلت محلى وشغلت مكانى ، غير ان ذلك عسير ، تعود إلى الاعتصام بصمتها الذى بدأ يحيرنى وان استعذبت ، فى اطرافتها معنى ، وفى تيهها أدلة ، وفى جلستها الصامته تفسير كامل وبرنامج أوفى ، تمنى إلى ابيا وتأسو ، انتبه فى وجودى الأول والأصلى ان غيبتى طالت ، واننى منذ مدى ، منذ ان بدأت هذا المقام لم أره ، لم أر أسمى ، والغريب ان حنينى إليهما صار متساويا ، متلازما ، فماذا جرى ياذا الجلال والإكرام ، تقمت إلى تجلى أبى لى ، إلى أسمى ، إلى أصلى وفصلى ، لمت نفسى إذ انشغلت بلور ، حتى أخذتني عن مقصدى ، وتساءلت ، أهو اكتمال النسيان ، أهو الموت التهاى والأبدى لمن أحببت ، ولمن خرجت إلى تجلياتى من أجله ، تمنيت العودة إليه ، مع أن تعلقى بلور عمق وتأصل وتمكن ، الوحشة ادركتني ، والذنب اقضى ، لكن ألقى فى معارفى ان هذا المقام لم ينته بعد . واننى سأنتقل إلى طور جديد ، لن أرى فيه الأمور فى تسلسلها ، إنما سأراها فى تجمعها وتجاوزها ، فتأهبت كارها ، وحسبى الله هو نعم الوكيل ..

الوصل الخامس من هذا المقام

.. يقول استاذى أبو حيان ، وهو من شيوخى فى الطريق ، ومن أدلتى إلى الغاية ، وهو من الأجلء القدامى الذين اضاءوا لى الدجى ، يقول - رحمه ربى - إن النفس وان كان متصلا فإنه مرتد ، والزمان وان كان متصلا فإنه منفصل ، والوقت وان كان مساعدا فإنه خاذل ، والكتوم وان كان جلدا فإنه باذل ، رأيت أبا حيان عند انتقالى من الوصل الرابع إلى هذا الوصل

المبارك بإذن الله ، وكل ما حولي عدم محض ، وعندما هممت باللحاق به
 للحديث إليه والاستفسار منه والأخذ عنه ، انتبهت في آن واحد إلى ظل الشيخ
 الأكبر فأحجمت وسكنت وذهب عني أبو حيان ، اختفى شيخى القديم كما
 ظهر ، عدت إلى وحدة وخواء ، حزنت على نفسى . إذ سأغمض عيني يوما
 ولا افتحتها قط ، كما أغمض عينيه أبى ، وجمال عبد الناصر ، ومازن ،
 وإبراهيم ، وخالد ، وكل صحبى الذين راحوا ، فالنا من شافعين ، ولا
 صديق حميم ، لكم رجوت واملت ان يتأخر مغيب شمسهم ، وألا تنطوى
 ظلالهم ، كما أدعو وارنو إلى بقاء شمسى ، ونأى ليلى ، هكذا جئت هذا
 الوصل بفؤاد كالى ، وفكر حزين ، ودمع على أهبة ، ليس ذلك والله
 العظيم لأنى ذكرت غيابى ورحيلى قبل أوانه فى حين آخر مقدر فأنا موقن
 الآن ان الموت هو اكتمال الدائرة الكبرى ، وكلما طويت عاما من عمري
 وولجت عاما آخر- لا أدرى ان كنت سأتمه- قل خوفى منه ، وخفت
 رهبتى ، وشجبت حيرتى ، كمن بلغ من العمر آخره- مع أنى مازلت شابا
 غفيا لكنه زمن السوء- يودع أحبابه ، ويرثى أصحابه ، فإذا خطر له الموت
 بدا له فى رحيلهم هم عزاء له ، يقول ، لقد سبقونى ، وهل أنا أفضل
 حالا ، أو اعز مآلا ، أبدا يا إخوانى ، إنما اكتئابى وغيمتى لأنى ذكرت
 أحبابى وهم كثر ، وعيت وادركت أننى بمنأى عن الكرام الأقرين ، وان
 المدى يتسع ، والوقت يطول ، والزمن مساعد على النسيان ، وكما نسيت اليوم
 تنسى ، فسيحان من له الدوام ، لما حامت هذه الخواطر عندى وأحدقت
 بترائى ، وبددت اطلالتها بعضا من مدخرى ، لاح انزعاجى ، عند هذا الحد
 ظهر شيخى الأكبر ، قال لى : لا تنحف ولا تحزن ، ثم قال لى ، ان الهم يولد
 كبيرا ويصغر كلما دام واستصعبه الإنسان هان عليه ما يجد ، ثم قال لى :

كنت انقطعت في القبور مدة منفردا بنفسى فبلغنى أن شيخنا يوسف بن خليف الكرمى قال فلانا وسمانى ، ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الأموات ، فبعثت إليه ، لوجئتى لرأيت من أجالس ، فصلى الضحى ، وأقبل إلى وحده ، فطلب على ، فوجدنى بين القبور قاعدا مطرقا وأنا أتكلم على من حضرنى من الأرواح فجلس إلى جانبنى بأدب قليلا قليلا فنظرت إليه فرأيتة قد تغير لونه وضاق نفسه فكان لايقدر يرفع رأسه من الثقل الذى نزل عليه ، وأنا أنظر إليه واتبسم لما هو فيه من الكرب ، فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد ، خفف عن الشيخ واستراح ورد وجهه إلى ققبل بين عينى ، ثم قال لى شيخى الأكبر ، لا تحزن فأنت تدنو . قلت بالنظر ، ممن ؟ ، قال بالنطق : من الأمر . فلم أدر أى أمر ادنونه ، أو أى أمر ابتعد عنه ، تبسم قائلا : ثم إنك شغلت ، فتساءلت بالنظر أيضا ، بمن وعن من ؟ ، فضحك وقال ، الدنيا ! ، ثم رحل عنى وأنا فى حيرة وفكر ، وانتهت إلى وجود لور أمامى ، ثم رأيت لحظات اللقاء كلها ، انتظارى أمام الكنيسة العتيقة ، احرص دائما على التبكير عند ذهابى ، تجمىء فى موعدها تماما حتى أدهش ، كيف تتوافق مع مواعيد المواصلات ؟ تقبل من ناحية النهر مبتسمة ، أباعد ما بين ذراعى ، أتم وجنتها ، تقبل خارجة من الكنيسة ، تقول إنها جاءت مبكرة بضع دقائق فشغلت الوقت بالفرجة على القاعة الداخلية ، تقبل من ممرات الحديدية ، تعبر الممر المفروش بأوراق الشجر الأصفر المستوطنة بالحريف ، أراها من الرصيف الآخر ، ألوح فتلوح ، اخالف المحظورات ولا أخشى العواقب ، اقفز من الرصيف ، اعبر قضبان القطار السوداء الممتدة ، تصبح امرأة عجوز ، إن ما قت به خطير جدا ، تقبل على أمام دار السينا ، تعشق هذا الفن ، تجيئنى أمام المتحف الرئيسى ذى الواجهة الحجرية القائمة المزينة بالمنايل ، تأتي إلى

المقهى ، من وراء الواجهة الزجاجية تعبر الطريق وحقبتها القماشية معلقة إلى كنفها الأيسر ، اعبر الطريق المؤدى إلى بيتها ، لم اتبه عند عبورى الطريق أنها تقف على الناحية الأخرى ترقبني ، أصبح ، لور ، تبسم ، هذا لقاء الصدفة الوحيد بيننا ، وتخلت حالى لو أننى لا أعرفها وهى لا تعرفنى فنعبر متجاورين لومضة ، قد لا تلاحظنى ، وقد تلفت نظرى بوجهها وقسماتها ، ثم أمضى ، خفت أن يكون ذلك ، أراها تحمل باقة تضم سبع وردات قرنفلية ، يللم سيقانها النخيلة ورق مفضفض ، ألحها من النافذة تقف أمام البيت ، اليوم أحد والحارس لا تفتح الباب لطارق ، وتقطع الكهرباء عن القفل ، اخف حتى أوشك على السقوط فوق الدرج ، أنا بمفردى وقد دعوتها لأول مرة ، لرؤيتها عندى نعيان : فنعيم ظاهرى أبرزه بصياحى أو ضرب الجهاد من جدار أو سيارة واقفة أو ما شابه يقبضنى ، أو اخلع جاكيتى فى الصقيع ، ونعيم باطنى استشره ولا أفهمه ، أدركه فى جملة وليس فى تفصيله ، مهم ، محير ، غمامض ، أرق ، أصنى ، وأجمل ، للحظة ظهورها الأولى رجفة ، وراحة فى روحى ، أحرار فيها وكيف تبدو ، أحرار فى النشاطين ، الأصلية والبديلة ، لكننى أقول ، من رغب منكم يا صحبى فى تخيلها ، فلينظر أطراف الغصون المائلة إلى مياه النهر ، أو إلى السماء الشفقية فى موطنى الصحو ، فكأن اللحظة الشفقية انتشت صورة جسدية ، أو فلينظر إلى قطرات البلل والتدى على التوافذ المزخرفة الحديدية للمساجد العتيقة فى الأصباح الربيعية ، أو ليولى الوجه شطر وميض النجمة الأولى ، طليعة كل الأفلاك الليلية ، وإذا لم يكن فى الامكان النظر فليستعد لحظة حنان نائية ، وإذا تعذر هذا وذاك ، فليحاول بالفهم ادراك مقام الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، وتوسيع الضيق ، والكف عن السؤال ، وانتهاء الترقب ، حدث يا إخوانى ان انتظرت

ظهيرة يوم اقبالها علىّ ، كان الموعد بجوار النافورة القديمة ، حيث عروس البحر تصب المياه من يديها على حبيها الأوفى المستسلم الراضى ، بينا جنيات البحر يرقبن ويباركن ، تجاوزنى وقتها المحدد ، وهذا مخالف لطبيعتها وعاداتها ، تطلعت قلقا ولم تكن بين الساعين ، انتظرت ، نصف ساعة ، ساعة ، ساعتين ، وعند اكتمال الثالثة ادرك ساقى خدر ، وملامحى تقطيب ، وغطى فكرى عبوس قطير ، لم انصرف ، ولما دنت الخامسة وزاغ البصر رأيتها تجرى ، تجرى ، وترتمى بين ذراعى لاهته تسعل ، فلم انطق ولم تنطق ، وبقينا متعانقين مقدارا لم أدر مداه ، تلك المرة الأولى التى تأخرت على ، ها هى ذى قادمة ، تسألنى أن نمشى على الأقدام إلى المناطق التى تراتح إليها فى المدينة ، تصحبني إلى قلب الحى القديم ، إلى شاطئى. النهر ، تشير إلى مقعد رخامى تلجأ إليه إذ تعصم بوحدها ، وتودع نظرها ترقوق المياه الهادئة ، تصحبني إلى الحديقة الملكية ، تتظم الأشجار حول المكان ، تتوزع المقاعد الخشبية ، الممرات مفروشة بالحجارة الملونة ، نافورات صغيرة متباعدة تتظم حول نافورة كبيرة تبث مياهها فى الفراغ العذب ، تحدثني عن رسالتها العلمية التى قاربت على الانتهاء منها ، الحديقة على مقربة من المكتبة المركزية ، تلجأ إلى ضوئها وهدوئها بعد ساعات تقضيها فى القاعة الرئيسية ، بكل بصرها وتجهد عينها فترىحها هنا ، تقبل علىّ فى نفس ملابسها التى رأيتها فيها أول مرة ، هكلنا رغبت ، اطلب منها ان نمضى إلى مطعم تفضله عن غيره ، تتردد خشية أن ترهقنى من امرى عسرا ، ألح ، فنقصد مطعما قديما ، يقدم أطباق الزمن الأفل ، يستقبلنا عند بابه رجل يرتدى زى فارس من قرن وسيط ، ينحنى للداخلين ، نجلس متجاورين والمتناضد من براميل الحشيش المعتن ، والسقف دائرى ، والأرض من حجر ، وعلى الجدران مناظير بحرية ، وخرائط

بالية ، وقبعات رابنة ، وبقايا شباك صيد ، أما النيذ فجيد ، والطعام
فشهى ، والزمن موات ، رأيتها مقبلة وكنت أقف تحت الساعة التي توقفت في
أعنف غارة جوية شنت على المدينة خلال الحرب الكونية ، وتركت تشير إلى
الواحدة والربع كذاكرة ، هاهى ذى تجيئنى ، ستصحبني لتقدمنى إلى واحدة
من معارفها ، شاب يدرس هنا من بلدها ، نصعد مبنى من ثلاثة طوابق ،
نجتاز ممرا تطل عليه أبواب مغلقة ، في نهايته باب مطلى بلون قاتم ، تتقدمنى ،
يبدو شاب ذو لحية ، تتصافح وفي القلب هواجس شتى نمت عندما سمعت
حاسها لرؤياه ، ندخل غرفة ، ليست فسيحة غير انها بسيطة ، حوت كل
شئ ، من فراش ، ومنضدة ، وصوان محفور في الجدار ، وحوض يجوار
المدخل عليه صنوبران ، واحد للماء البارد وآخر للماء الساخن ، وباب
مستطيل يؤدي إلى دورة مياه ، تقعد فوق الأرض ، يجلس هو إلى جوارها ،
يتبادلان المودة ، يمسك بيدها بين يديه ، ولم أفهم كنه العلاقة ، وتساءلت
بيني وبينى ، كم ساعة قضت هنا ، وهل .. ، نظرت إلى الفراش ، وضقت
ضيقا عظيما ، رأيتها تدخل مقهى ، وهذا الشاب اللئحى يجلس بصحبة
آخر ، قدمنى هو إليه قائلا : صاحب لور المصرى ، فكلمت عليه ، ثم بدأ
حوارنا حول أهل هذه الديار وطبائهم وأحوالهم ، وبدت لور راغبة في قرى
من صاحبها ، استجبت ، وبدأت اتكلم حتى لا أتكلم ، هكذا قدرت من
ملايحى وعرفت ، وتلك طبيعة واحدة في الناشئين ، والحق اننى لم أعرفها عنى
من قبل ، بل اطلمت عليها في هذا الوصل ، ومن أصعب الأمور أن يعرف
الإنسان نفسه ، فقد يدرك خبيثة غيره ، ولا يتكشف له ما بين جوانحه ،
فسبحان العليم بما تخفى الصدور ، هكذا أنا .. عندما يفرض العالم على ،
اشاغله عنى بي ، من ذلك إذا ضمنى مجلس وأنا على غير هوى ، أتكلم في

أمور عديدة ، واستدعى بألفاظي تفاصيل لا حصر لها ، وأنا في نفس الوقت بعيد ، ادفهم عني ، وانكم خييتي ، وقد أدركت لور ذلك مع قصر مدتنا ، فكنت إذا جنحت إلى هذا ، وتحدثت طويلا ، تقول ، لا تشاغل عني وكلمني ، هذا ما كان مني في ذلك المجلس ، غير أن صاحبها الآخر سألتني ، لماذا كف أبوك عن الشعر؟.

وحررت للسؤال المفاجئ ، بدأ صمتي ، وإذا به يتبع سؤاله بقوله ، منذ أن فارق مصر لم يكتب شيئا له قيمة ، حاولت لور أن تدفع عني وجوبي ، فدعت الجمع إلى سماع أبيات لأبي ، وانشدتها من الذاكرة ، فدهشت لأنها المرة الأولى التي اصغى فيها إلى ما قاله أبي من فيها ، ولأنها لم تشلق شعره من قبل ، وسررت ، رأيت انصرافنا من المقهى عند منتصف الليل ، وأوراق الشجر الأخضر مغموسة في أضواء النيون السائلة ، ولأن بيت صاحبها قرب من سكنها تأهبت لفرقتها ، قرب مدخل محطة المترو ابطأت الخطى لتتقرب مني بمنأى عنها ، انبسطت لتراجعها هذه الخطى ، فقد خصتني ، ولوحت أن ما بيني وبينها يجب اسراره وعدم افشائه امامها .

اراك في الخامسة؟ ، نعم ، تقول مبتسمة إنها تعرف أبي ، انظر إليها ، نعم .. معرفة شخصية ، ستحكي لي فيما بعد ، ثم تسرع الخطى فلا يتاح الوقت للافصاح والبيان ، ها هي ذى تصغى إلى وأنا مصرّ على صحبتها إلى بيتي ، احدثها عن أمي ، عن ترحيبها بها ، اسكت لحظات وأقول لها ، ان أبي في سفر ، فتنظر إلى نظرة مبهمة ، ها هي ذى تدخل ، تخلع الجاكت ، سلافي الزخرف ، يبدو قيصها الأحمر التينى ، تجيء أمني متلعة ، مرعبة ، أرى نشاطها ، وانتقالها من الصالون إلى المطبخ ، لا تدري ما تفعل ، تروح وتجيء ، تطيل النظر إليها ثم تميل لتسهيلها ، أقول لأمي إن لور

ستغنى لنا ، ترجوها أن تغنى أبياتا تشدها فيروز :
وفى كل أرض وبكل محلة
اخو غربة منا يكابد مطمعا
كأنا خلقنا للنوى ، وكأنها
حرام على الأيام أن نتجسعا

يتردد صوتها فأنتج إليها بالنظر والحس وأسى باد على لم أدر مصدره في
نشأى الأول ، استعيد الأوقات كلها وأضيف إلى ما تردد في خاطرى عنها ،
فلها من الحركات الاستقامة والانشاء ، في صوتها الامتزاج والمعاني الكوامل ،
وفى حضورها الانفراد ، طبعها الرقة ، وأصلها الحنين ، وعنصرها الأعظم
الرحمة وعنصرها الأقل الجفوة ، من صفاتها الصدق والطف والمجاوبة ، ومن
أفعالها ، الوقاية والشدو والصون ، تقوم أمى الثانية فجأة ، تسرع إلى
الداخل ، تتوقف لور دهشة ، تكف ، اقتنى أثر أمى ، تجلس على حافة
فراشها ، تبكى بهدوء ، انحنى عليها ، اقبلها ، اجثو على ركبتي أمامها ،
تظالغنى بابسامة في غير موضعها ، توصيني بلور ، لكم هى رقيقة ، صافية
وجميلة ، توصيني أن أعيشها ، ألا أوجل ما ارغبه ، ثم غزر دمعها ،
ففهمت بوجودى الأول ما فهمت ، وسأذكر منه ما يشقى الغليل ان ناسب
ذلك المقام ، فقد آذنت لحظات اللقاء بانصرام ، أعود إلى غرفة الاستقبال ،
لا أجد لور ، إنها لحظة غير اللحظة ، لذا أرتمى على الأريكة ساهما ،
مستسلا ، أجزع في وجودى الأول ، ماذا جرى ؟ واين لور ؟ أببدو معتم ،
كالشمس إذا غربت تبعها نورها ، وتبقى الأرض مظلمة ، كانت نفسى هنا ،
فماذا جرى ؟ ، رأيت شيخى الأكبر ، يتحدثنى وكأن الحديث لم ينقطع ولم
يتوقف ، يقول لى إنه كان يوما بمنزله ببلدة اسمها مرشانة ، ليلة من الليالى ،

فقام ، وبينما هو واقف في مصلاة ، وباب الدار موصل وإذا بشخص يدخل
ويسلم ، ما يدري كيف دخل ؟ فجزع منه ، وأوجز في صلاته ، ولما سلم ،
قال له : يا يحيى الدين ، من تأنس بالله لم يجزع ، ثم نفص الثوب الذي كان
تحتة يصلى عليه ، وبسط تحتة حصيرا صغيرا كان عنده ، وقال له ، صل على
هذا ، ثم أخذه وخرج به من الدار ، ثم من البلد ، ومنشى به في أرض لا
يعرفها ، فذكرا الله في هذه الأماكن كثيرا ، ثم رده إلى بيته ، قال لى شيخى
الأكبر : أما آن لك أن تعود إلى دارك أم أنك نسيت ؟ ، اقول : ما السبب
الذى جمع هذه الأمهات المتنافرة حتى ظهر من امتزاجها مظهر . يقول لى :
هذا سر عجيب ومركب صعب يحرم كشفه ، لأنه لا يطاق حمله لأن العقل لا
يعقله ، فلنسكت عنه ، وربما نشير إليه من بعيد وربما فطن إليه الباحث
اللييب ، أقول وحزنى على لور يفرينى : اطلعتنى على لحظات المقابلة فهل لى
بالخاتمة ؟ ، يقول لى ، لم تعرف البداية إلا بما يليها وإلا لم تكن أصلا ، لكى
يكون وصول لابد أن يكون سفر ، اتطلع إليه راجيا ، فيستجيب لى ، أرى
وجودى الثانى ، أركب عربة الأجرة ، تولينى ظهرها بعد أن أملتنى رقم
تليفونها ولوحت لى ، تلك اللحظة الأخيرة من اللقاء الأول . رأيت لور
ترتدى الحاكت السلافى ، وجهها لا يزال محتفظا بازدهار اندماجنا ورضاب
جسدها يبللنى لم يحف بعد ، صافحتنى ، ثم ابتعدت ، واختفت عند الناصية
التي يشغلها مقهى لايقدم إلا مشروب القهوة التركية ، وفي مواجهته علقت
لافتة انتخائية ، أراها بجوارى داخل عربة يقودها شخص أولانى ظهره ، لم
أعرفه ، أهو أبى ؟ لم أدر ، بجواره امرأة ترتدى قبعة من الخوص محلاة بزهور
صناعية ، أهى أمى ؟ ربما ، شغلت بلور التي صممت تماما فلم تفه حرفا ، بينما
رحت اتطلع إليها محزونا ، أسأل ، هل ستبقى صورتها هكذا فى مخيلتى ، أم

أنا سلتني؟ ومتى؟ وأين؟ وكيف؟ عند أحد القناطر الحجرية الرمادية التي
تصل ضفتي النهر منذ ثلاثمائة عام توقفت السيارة، يعرف قائدها ابن
سيوقف، قالت لور، سأنزل هنا، ثم قالت إن هذا المكان أقرب، وأنها
إذا بدأت المشي فستصل في موعدها تماما، خاطبت السائق مودعة بلغة
أجنبية، ثم حيت السيدة، ثم نظرت إلى أنا المهوت الأخوذ وكنا اتفقنا على
ألا تبادل القبل، وألا نظهر الضعف، رأيت شيخى الأكبر يقف خارج
العربة، يخاطبها..

- انظر.

فأنتظر أنا، وكان بمقدورى ان أرى دقات قلبها، وان اسمع الهواء عند
زفيرها، واتضح لى الأمر فإذا بشهيقها هو شهيقى، التقت مياغتا إلى شيخى
الأكبر..

- ضع يلك على شعرها..

ترفع يلى متمهلة وتلمس شعرها، أراها بعينى، وترانى بعينها فأدرك
صورتها فى نظرى وأدرك صورى فى نظرها، فعرفت عندئذ ان القدر قدرناه
منازل حتى عاد كالعرجون القديم، ماهى إلاى، صورى لو خلقت انى،
فأهم أنا!، تتطلع واتطلع، تنأى وأنأى، يحجب الزحام خطاها
وحقيبتها الملونة والجاكت السلافى وينطلون القطيفة الأسود المصلع، ابتعد
عنى، وأتوه عنى، وأغترب، فيوشك المقام على الاكبال، ثم انشأناه خلقا
آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

خاتمة هذا المقام

.. إذن ، فما عشقت إلا صورتي ، وما ابجرت إلا في ذاتي ، وما توحلت
إلا بصفتي ، وما اتنتت إلا بنفسي ، وقد ظننت أني التأمت ، فما أخيب
ظنك أيها الإنسان ، وما أشقاني ، فمن طرد إلى طرد أنا ، ومن هجر إلى بعد
ومن فراق إلى احتراق ، ومع تمام ادراكي فإني لم أرعو ولم انتن ، بل لحقت
بي الشقاوة بعد افتراق لور عني ، واستولى على الحرمان ، وغزاني شؤم
الوحدة ، أليس اغترابي عن نفسي وهذا أشق أنواعه وأقسى صنوفه ، شكوت
عكوفي على اشتياقي إلى شيعي ومرشدي والقباض على قلبي ، نفعني الله به ،
ورقق فؤاده علي ، يلد لي قويا مهيبا ، يشير إلى فأتردد مهابة ، يكرر
الإشارة فأخطو تجاهه ، لا أخفيكم إخواني أني مازلت أهابه على الرغم من
طول الصحبة ، واتني في حضرته أصير وجلا بعكس أحوالي مع إمامي
وشيعي يوم تضع كل ذات حمل حملها ، سيدى الحسين ، معه كنت بمتلة
الطفل من أبيه ، أما حالي مع سيدى محي الدين فكالتلميذ الذي يرهب
أستاذه ، وطلاب العلم الذي يخشى الوقوف بين يدي تمتحنه ، ذلك دربي .
وأنا راض ، وليس لي إلا أن أرضي فأنا مضطر ، والمضطر يرى نفسه كالغريق
في البحر ، أو الضال في المتاهة يرى نفسه وعنائه بيد سيده وزمامه في
قبضته ، فهو كالميت بين يدي غاسله ، لذلك عندما يأمرني بالاقتراب اصدع

على خوف وألبي في وجل ، أحوم حتى أثبت أمامه ، أسدل نظري وأسلم
أمرى ، بينا عيناي تحاولان اختلاس نظرة وجلي إلى يده المسككة بقلبي ، غير
أن ضوءاً غريباً شمل يده فغطى قلبي ، فوضت أمرى لصاحب الأمر كله ،
يمد يده اليسرى فيقبض على شعري ، يضع رأسي - وهو كلي - على كتفه ،
أرى جانب وجهه الأيسر ، ولما تكلم جاءني الصوت من خلفي مع أني وراء
فه ، فسبحان من ملك ناصية الأمر كله ، يقول لي : مالك ؟ أجب : يزداد
اشتياقي ، يسألني : لمن ؟ يطلب مني أن أحدد بالقطع لا بالإشارة ، أقمع في
حيرة مذمومة ، ما سألفظه صعب على ، ذلك أن الخاطر عندي انقسم إلى
شعبين ، فشعاب يؤدي إلى أبي ، وهذا اشتياق قديم ، وشعاب يؤدي إلى
تلك البنية لور ، وعرفتها أحياناً بالمشاهدة ، وطورا بالاندماج ، مع أنها هي
أنا وأنا هي ، مع هذا فاشتياقي ينمو وحنيني يطرد ، ارفض مجرد التفكير في أن
لحظة ستجيء فأذكرها ولا تهتر روحى ، وهنا ألقى في معارفي ان النسيان
لا يخطر بالبال الإنسانى ، إنما يسرى خفية ، وانه يكتمل أولاً ، وإذا تم ،
خف حمله ، فإذا وقع وتحقق فكأنه لم يقع ولم يكن ، وهذا أمر فيه لغز لعلى
أتى منه بقبس يبل الصدور ويشق الأفتدة ، من هنا أصل وقوعى في الحيرة ،
والحيرة قرينة التردد ، والتردد لا يكون إلا إذا تجاوز أمران وتناقضا ، كما أنها
تعنى انتفاء الراحة لعدم الاستقرار ، وإن الأمر القديم ظهر ما يخالفه وما يشغل
عنه ، كان ذلك يعنى ان ما لم أطق تصوره يلوح على مهل ، حاولت استعادة
احوالى عند صحبتي لها وتعلق وانشغالى بها ، تساءلت بينى وبينى ، هل
ذكرت أبى معها ؟ أبى الذى رحل عنى والذى نأيت عن موطنى لحسرتى عليه
فحق على الاغتراب ، إذ أن الاغتراب لا يكون إلا مع مفارقة الموطن ، وقد
كان أبى موطنى ، فلما خرج عنى صرت غريباً ، فطلبت المسعى وسعيت وجرى

على ما جرى ، لم أقف على جواب لسؤالى نفسى ، يكرر على شيخى الأكبر ما قاله ، أجيبه بما اتصور أنه الصديق : سيدى .. هنا أمر وذاك أمر . يقول منها لى ما فاتنى : آه .. هذا يطغى على هذا . أحرار فلا أرد ، بينا الشقة تتسع ، يقول لى : ليس على الأعمى حرج ، ولأنى مازلت أبصر خفت أن يكون قوله هذا نذيرا بانتزاع عيني ، كما انتزع قلبى ، فأفقد نعم المشاهدة بالنظر بعد غيابه عنى بالقلب ، غير أننى عدت استرجع ما قاله ، واستعيد نطقه الكلمات ، فكل ما يلقي على لا يخلو من إشارة أو علامة من بعيد ، فتذكرت بوعى المتعب المثقل اننى سمعت مثل هذه العبارة فى لحظة لم أقص عليكم من أمرها شيئا ، إذ لم أشرح لكم ولم أفصل بداية تجلياتى هذه ، لغرابة ما جرى لى ، وتكتما على ما حدث ، لتضمنه أمورا لو أفشيتها ستثير لجاجا وفتنة ، فما كل ما يدرى يذاع ، فللكل علم أهله ، ولكننى انبت أننى متجه إلى هذه اللحظة من جديد ، لنا لا مفر من الشرح . وهذا لايعنى أننى أفضيت بكل ما عندى ، ودونت كل ماينبغى ، فثمة سر عظيم اتكتمه ، لن ألوح إليه ، ولن أنوره عنه إلا بإذن خاص ، أما الآن فإنى محدثكم عما وجب ذكره بداية لأنى منقلب إليه ، إذ حدث يا إخوانى فى الطريق والسفر اننى كنت أفضى اياما معدودات فى المغرب الأقصى بعد رحيل أبى بزمن يسير ، وكنت بمدينة فاس اشارك جمعا من صحبى مناقشة أمور أدبية ، وبعد سهر عدت إلى غرفتى فى الفندق الحديث الكائن خارج المدينة القديمة ، تأهبت للنوم ، وسمعت طوقا ، فلما فتحت الباب رأيت رجلا يرتدى لباسا مغربيا ، يمدق إلى بعينين مألوفتين عندى لكننى لم استطع التحديد والتعيين ، أشار فتبعته صامتا غير قادر على الاستفسار حتى مشى ومشيت خلفه ، الطريق إلى المدينة القديمة ، بوابة أبو الجلود ، تبعت ظله الذى لم يتبدل موضعه كظلى

الذى يطول أو يقصر طبقا لمصدر الضوء ، حتى وصلنا إلى زقاق ضيق ، لا يتسع لمرور شخصين متجاورين ، توقف أمام دكان عتيق مغلق لا يفتح إلا مرة واحدة في مولد أكرم الخلق أجمعين ، وكنت مررت به نهار اليوم مع صاحبي محمد بنيس الأديب المغربي وروى لى ان أهالى فاس يعتقدون ان الرسول عليه افضل الصلاة والسلام قد زار المدينة ومكث غير قليل في موضع هذا الدكان وانه مغلق لا يفتح إلا يوم ذكرى المولد ، كانت الرجل منقطعة تماما والطريق موحشة ، أشار الرجل الغريب إلى باب ضيق ، دفعه ، ثم أشار إلى أن أدخل بسلام ، عبرنا حديقة مورقة. والزمن شتوى ! ، في نهاية المر لجحت سقفا دائريا منمنما يقوم على أربعة أعمدة نحيلة كالخيزران ، تحته يجلس رجل منحيا على منضدة صغيرة ، يستند إليها شريط من الجلد لم أر بدايته ولم أر نهايته ، يسك مطرقة صغيرة ، يلق الجلد فتولد دوائر متقوشة مذهبة ، كان مستغرقا تماما ، ومضى وقت لم أدر مقداره وأنا أنظر إلى عمله هذا ، فجأة رفع رأسه فصحت مهوتا : إبراهيم ، ولم أدر ماذا أفعل ، وما أقول وأنا أقف بحضرة صاحبي المقتول بأيدي العدو الذى أصبح صليقا ظهر الجمعة تاسع عشر أكتوبر ، لم اسأل ، كيف جاء ، وما الذى اتى به إلى فاس ؟ ولماذا ينقش هذا الجلد ؟ ، لم أنطق هذا كله إنما وقفت منتظرا ما يخاطبني به حتى أتى شغل عن الرجل الغريب الذى قادني ، اصغيت إليه يقول لى باختصار دال وشكوى « نسييتى يا جهل » ، فلم أكنب ولم أجب ، قال « لم تعد تذكرنى .. حتى أنت ! » ، قلت « سجلت سيرتك » ، قال متأسفا ، متحسرا « كان يعينى ان تستمر في ذكرى » ، ثم قال لى « اعلم ان الإنسان بعد الموت يظل مقبها ، حتى ينسى ، فيكتمل الموت ويتم ، يصير إلى عدم » ، لم تكف يده عن نقش الجلد ، ثم قال لى « انتى باق لأن بعض جندى يذكرون

نسيم ودى ، ، ولاحظت انه لم يأت على ذكر عياله وامراته ، وخرجت من الاستفسار إذ أتى رأيت غصته ، درت. حذرا حوله ، رأيت ظهره ميللا بالدم ، جرحه الطرى يصحبه ابنا ولى ، لم يكن مرتديا حذاه ، وتذكرت انهم دفنوه فى نفس ثيابه القتالية ، لكنهم خلعوا نعليه كما تقضى الأصول ، توقفت على بعد يسير منه ، أمسك الرجل الغريب بذراعى ، فشييت معه كما يسلم الذاهل قياده ، عدنا إلى شوارع فاس الضيقة وأضواء مصابيحها العتيقة تترقق فى فراغ شتوى ناعس ، أوصلنى الرجل الغريب حتى باب الفندق ، ثم غاب عنى ، لكننى لقيته داخل الغرفة ، تمددت فوق سريرى ، غطاني ، ملس يديه على شعرى ثم فارقتى ، لم ينطق ولم انطق ، وعند الفجر نادانى الهاتف باسمى ثلاثا ، حتى جاء الصبح ، ومضيت إلى الحلقة النقاشية ، كنت أصغى ولا أتكلم ، وكان النقاش محمداً حول نقطة خلافية ، ومال على صاحبى محمود العالم يسألنى عن حالى ولماذا لا أشارك برأى ، لكننى لم أجبه ، إذ تعلق بصبرى بنهاية القاعة ، رأيت الرجل الغريب ، كان يرتدى ثوبا أبيض وغطاء رأس أبيض ، فانتابنى خوف المقدم على أمر مجهله ، وايقنت اننى على شفا أمر عظيم ، انتظرت ان يولى الحاضرون وجوههم شطر الغريب القادم ، وان تبدو على وجوههم الدهشة ، غير ان أحدهم لم يلتفت ولم يتبه عداى ، وعندما أشار ليبت بلا حذر أو خشية ، أى اننى وقفت وبقيت قاعدا ، فصار لى هيتان ممتثلتان ، متشابهتان تماما ، صورتان ، فصورة منى بقت فى مكانى تصغى وتجيّب السائل ليس لى من أمرها شىء ، وصورتى التى انجذبت تجاه الرجل الغريب طوعا وجبرا كما يتجذب الحديد إلى المغناطيس ، والنيزك الضال إلى جاذبية الفلك الدوار ، نظرت إلى المجتمعين واستشعرت ديب الوحدة والوحشة ، فالنفس يحصل لها الأمان من الكثرة ، أما الانفراد ، والغربة فعها الانقباض ، لم يلحظ أحد من الحضور ما جرى لى ، بل إن أحدهم توجه إلى

صورتى وطلب منى ابداء رأى ، رأيت نفسى أحرك فى متكلما غير انى لم أصغ ولم اسمع فقد تبعت الرجل الغريب ، خرجت من القاعة تاركا صورتى وهيتى ، وهذه الصورة هى التى عرفها من اتصل بى وتعامل معى بدءا من أمى وامراتى وعيالى واشقاتى واصحابى ورواد مقهاى الذى اعتدت التردد عليه ، ورجال الجوازات ، ورجال تدقيق الهوية ، ورجال المباحث العامة الذين سعوا ويسعون فى أثرى حتى يومنا هذا ، وعدد من الخلق لا حصر لهم ولا عد ، وسبحان من اخفى علمه عن قوم ، واطلع عليه قوما آخرين ، اعرف ان الكثيرين من أصحاب الرؤى وعلامات الطريق ، الكُمل ، المواصلين ، لم يصلوا إلى ما وصلت إليه ، ولم يختصوا بما خصصت به من الفرصة وصفاء الجلوة ، فن منهم تحول إلى هامة ؟ إلى غمامة ؟ إلى ندى ؟ إلى ظل شمس ؟ إلى جذع نخلة ؟ إلى ثمر على أطراف غُصين ؟ إلى حصى ؟ إلى نجم مارق ؟ إلى افق مبین ؟ إلى اشارات آتية من بعيد ؟ إلى صوت تائه فى البرية ؟ إلى انثى ؟ إلى أبوه ؟ إلى صاحبه ؟ من م تحول مثلى وتقلب ؟ ربما عرف الواحد منهم شيئا من هذا ، لكننى عرفت هذا كله ، وسأفوض وأفصل عندما يلوح الاذن وتبدو البشارة ، تبعت اذن الرجل الغريب ، خرجت معه كما يخرج المبت من أهله وماله ، وخلا خروجى من أى خاطرة عن العودة ، فالسافر يشغله مقصوده عما عداه ، وكانت غربتى معه صحبة ، فالغربة لأنى فارقت من أعرف إلى من لا أعرف ، والصحبة من حيث رفقى له ومشاهدة من لا أعلم كى أعلم ، نزلت الدرج وراه ، عبرنا ساحة جامعة محمد الخامس حيث اقيمت الندوة النقاشية ، جزنا فى البلدة القديمة ، والزحام على أشده ، وكنا نمر بين اثنين يتأبط كل منهما الآخر بدون ان نباعد أو نفصل بينهما ، وأحيانا كنا نجوز بين عدد من الجالسين حول منضدة فوقها أكواب شاي وأطباق خزفية وأوعية للسكر أو الملح ، فلا يهتر ولايميل أحدها ، مررنا بسوق يبيع الثياب الفاسية النسائية ، وسمعت أغنية قديمة لليلى

مراد فحصل لى أنس وحنين ، توقفتنا أمام مسجد القرويين . وتلك المرة الأولى التى اقترب منه . فبالأمس مررت به ولم أدخله ، لاحظت أن الرجل الغريب يتلفت حوله مغلدا الحنين على كل شبر فكانه يحصى خزائن أيامه ، فلما أحس أنى لاحظته هس لى وقال ، انه شهد ضربة المعول الأولى فى أساسات هذا المسجد ، وانه من أحب بيوت الله إليه ، وسبعة مساجد أخرى ، فالعمدة البيت الحرام ، والروضة الشريفة بالمدينة المنورة ، ومسجد الإمام الحسين بكريلاء ، ومسجده بالقاهرة المحروسة ، والمسجد القديم بقرطبة ، ومسجد صغير جميل حزين بناه الباشا حسن فى مدينة بيتش الهنغارية ، ومسجد الشيخ أحمد الدردير المتزوى خلف الجامع الأزهر بالقاهرة ، ثم قال لى معاتبا : انتم لاتبتمون بمسجد السيد أحمد الدردير ، رحمه الله ، كان من أقرب صحبى . صمت فجأة كما تكلم فجأة ، ولج صحن المسجد ، تبعته وأنا لا أدرى إلى أين سيؤدى الطريق ، فالمدى شاسع ، ومازلت عند بداية المدرج ، وقفت فى الرحبة المكشوفة حيث الأرض والسماء متقابلان بلا حواجز ، ورأيت أعمدة الرخام فى القاعة الداخلية المغطاة ، تذكرت الصحن المغطى بالمسجد الأزهر فى قاهرى ، كأنى انظره ، وتذكرت صلاة العيدين وصحبة أبى وانتظارنا الخروج من المسجد لترى عبد الناصر وموكبه ، ذكرت بقلب رقران سيدى محي الدين بن عربى ، ومن التقى بهم هنا فى الزمن العتيق من مشايخ أجلاء ، أصحاب الخيرات ، كاشفو القوامض ، أدلة المسافرين ، السبتي ، المريني ، والكتاتنى رحمة ربى عليهم أجمعين ، تأهبت للطواف بالمسجد ورؤية التفاصيل المعمارية ، لكننى ايقنت أن وقوفى هنا لا عهد لى بوقوف مثله .

تأهبت للطواف بالمكان وتأمل التفاصيل المعمارية ، وكنت كلما نظرت إلى ركن من المسجد أعرف عنه كل مايجب معرفته ، وكأنى طالعت المراجع ودرست ماتبقى ، مع أن جهلى بالمكان ليس موضع شك عندى ، فلا أعرف

عنه إلا القليل ، من هنا علمت ان الرجل الغريب توقف تحت الساعة المائية
وهي من نوادر الآثار المتبقية ، تدفّق كأنه ينتظر أمرا ، ولم يطل انتظاره
وانتظاري طويلا ، إذ ارتفع صوت شجى بأذان الظهر ، ولم أدر مصدره ،
ومن أي موضع ينبعث أو يأتي ، ولما بدأ مألوفاً لي ، محببا إلى قلبي ، قريبا إلى
قوّادي ، أمنت السمع وأدركت أنه نفس صوت المؤذن الذي طالما شجاني ،
وقلب عيني وسدد نظراتي إلى العلو الأسمى .

عندما أجلس في ميدان سيدي ومولاي الحسين قبل الغروب أرقب المارة
وسفر النهار وبشائر الليل ، ثم يعلو صوت المؤذن داعيا لصلاة المغرب ، فتخبو
همومي وتشف نفسي ، وأصير إلى حزن حزين ، ولما سمعت الآذان باللهجة
القاهرة في فاس المغربية أنس قلبي ، وقرب نهاية الآذان رأيت دخول رجال
كُمل ، قادمين من عصور نائية ، متباعدة ، ولم يحدث أن التقي أحدهم
بالآخر إلا في مجال المطالعة ، أو اقتفاء آثار العباد الصالحين ، رأيت الحلّاج
والشبلي ، وذا النون وابن الفارض ، رأيت سيدي أحمد البدوي يدخل ملثما ،
وسيدي إبراهيم الدسوقي ، وسيدي البسطامي ، والجنيد ، ورأيت سيدي إبراهيم
ابن أدهم ، وبشر الحافي ، والمحاسبي ، ومعروف الكرخي ، والترمذي ، والإمام
الغزالي ، وابن سينا ، والفارابي ، ثم تتابع دخولهم إلى صحن المسجد حتى
كدت أعجز عن تتبعهم ومعرفة كل منهم ، مع أنني كنت اتعرف إلى كل منهم
بمجرد النظر إليه ، أما الذين لم أعرفهم بأسمائهم ، إنما في مجموعهم ، فهم
الأئمة ، والأوتاد ، وهم أربعة رجال في كل زمان يحفظ الله بهم المشرق
والمغرب والشمال والجنوب ، رأيت الابدال السبعة ، وكل منهم قائم على اقليم
من أقاليم الأرض السبعة ، رأيت النقباء الاثنا عشر ، وهم الحافظون المراقبون
لبروج الفلك ، شاهدت نقباء زمني الذي أقلعت منه ونأيت عنه ، رأيت قطب

عصرى ودهرى ، ثم تدقق الجمع ، رأيت دخول أهل الحقيقة ، وأهل الوداد ، وأهل السلوى والنجوى ، وأهل الصحبة ، وأهل الجهاد ، كلهم من عرفتهم بأسمائهم أو عن قرب ، ممن حملت لهم الإجلال والإكبار بعد رحيلهم ، رأيت الرجال القائمين على عالم الأنفاس ، ورجال الغيب ، ورجال الفتح ، ورجال الامداد ، رأيت الأحباب ، والأخلاء ، والمحدثين والأولياء ، والشهداء ، والسامعين أبدا ، والمسافرين دائما ، انتظموا صفوفًا ، تأهبوا للصلاة ، غص بالمسجد بهم ، ولم يتبق إلا موضع صفين خاليا عند المقدمة ، أما مكاني فظل في أقصى نقطة من مؤخرة الصفوف ، كنت نائبا ، قصيا ، لا أساوى مثقال حبة من خردل بين هذا الجمع الجليل ، وأين الثرى من الثريا ، وأين الجذب من الغيث ، فسبحان من أكرمني بوقوفى على مقربة منهم ومشاهدتى لهم ، بدا الفراغ غريبا علىّ ، عقب برائحة قادمة من عصور قديمة ، كأنى دخلت قاعة مفروشة بالسجاد لم تفتح قط منذ آلاف السنين ، نقلت أنفاسى ، وسرى هدوءه فلا تسمع حتى همسا ولا نفسا ، وعلى الرغم من فضولى أطرقت برأسى تأدبا وحشمة عندما علمت أن الصف الأول قد اكتمل ، لم استطع مغالبة خواطر توفى البشر فوددت لو تطاولت بنظري لأرى أبانا آدم عليه السلام ، أو لألمح آثار بقاء يونس فى بطن الحوت ، واسأله عن طوافه ، أو لأرى ماتبقى من آلام الصلب على وجه سيدنا ومخلصنا المسيح عليه السلام ، أو آثار التيه على وجه سيدنا موسى ، أو نوح الذى قارب عمره الألف سنة ، لكننى لم أقدر ولم أجرو ، ثم حلت لى السكينة العظمى والأمان الأوفى ، عندما علمت ان إمام المصلين هو سيد الخلق أجمعين ، من قال إن من رآه فى منام فقد رآه حقيقة ، فالشيطان لا يتمثله أبدا « والسما ذات الرجوع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل . جمعت سمى وأحضرت كلى ، ولملت شتات عمرى ، غير أنه فصل بين حواسى ، فباعد ما بين سمى وبصرى ، وما بين

حسى ونفسى ، فأدركت ماهو أشمل من وجودى المحدود ، إذ وجدت اليابسة والبحر والحيوآن والنبات والجبال الرواسى وكل ما اقامه الإنسان يسجد معنا ويصلى ، « ألم تر أن الله يسبح له من في السموات ومن في الأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » ، صليت وانتظرت بعد الفراغ منها ، كنت آخر الواقفين ، ولم أدركم من الوقت استغرق ذهابهم ، انتهى الزمن الذى أعهده وبدأ زمن جديد لا عهد لى به ، وقفت بعد انصراف الجميع تأديبا ، عندى شجى ، وحنين ، ورغبة فى أن ألثم مواضعهم ، ورغبة قائمة بذاتها فى أن أدنو من الموضوع الذى أم منه سيد البرية ، أشرف أبناء ولد آدم صلاتنا ، غير أن الشيخ الغريب عنى أشار لى ، فنبته صاغرا ، مطيعا ، وخرجنا من مسجد القرويين والوقت غير الذى دخلنا فيه ، والسماء رمادية ورائحة مطر لم أدر متى سقط وهطل ، فلم تنفذ قطرة واحدة منه أثناء صلاتنا عبر الصحن المكشوف للمسجد ، خرجنا من مدينة فاس إلى المرتفع الصخرى المطل عليها ورأيت شقاً فى الغمام ينفذ منه قوس قزح ، ويمتد حتى يلامس الأرض ، تقدمنى الشيخ الغريب حتى وصل إلى بداية قوس قزح ، وفوجئت به يشير إلى ، توقف هو وامرنى ان أتقدم ، وفى اللحظة الأولى لم أدر إلى أين الإشارة ، غير ان صوتا خفيا ، الهاتف ، صاح لى .. « تقدم » ، فتقدمت ، وعند حد معين ، صافحنى الغريب الذى أخذنى منى ، ولثم جبته ، وقال لى :

- « كان والدك صالحين ، لذا لن تهمل ولن تترك سدى » .

ثم قال لى :

- « حدى هنا ، فلا خطوة لى بعده » .

ثم قال لى :

- « كلما قابلت واحدا من بنى الأكرمين أقرئه سلامى بقلبك ، سلم لى على

الحسين ، وشيخك محي الدين . وقل له إن اللقاء وشيك » .

تساءلت :

- سلام ممن ؟؟ .

قال لى :

- ستعرف عندما تجربهم ..

تكرر نداء الهاتف :

- أقدم يا جمال ..

رأيت يد الشيخ الغريب تشير إلى بداية قوس قزح التي تكاد تلامس الأرض ، فسلمت سلام المقبل على رحيل طويل ولا يدرى من أمره شيئا ، ثم لامست بقدمى بداية ألوان الطيف ، وبسرعة بدأت ارتقى ، وقبل أن يرتد لدى طرفى كنت أمضى صعدا فى الفراغ ، أصبحت فى فضاء مدينة فاس ، رأيت الجبل المحيط بها والسهل الأخضر ، رأيت المباني البيضاء والأزقة والشوارع ومبنى جامعة محمد الخامس حيث صورنى فى إحدى قاعاتها تصغى وتدون وتجاوز تفعل ما كنت سأفعله ، رأيت الفنلق حيث حاجتى وأوراقى واسمى فى سجلاته ، استبد بى فضول انسانى ، غير أننى كنت اخطو بلا توقف ، حتى تضاءلت المدينة وصارت كقبضة يد ، رأيت المدن المجاورة أفران ومكناس ، ثم رباط الجميل وطنجة وشاطئ البحر والمضيق والمحيط ، رأيت جبال أطلس ، وتلمسان ، وقرطبة ، وغرناطة ، ومدريد والعيون ، وداكار وقرطاج وباريس وقاهرنى ، وحددت موضع الإسكندرية ، رأيت أفريقيا كلها ، وأوروبا وآسيا ، تعرفت إلى القارات الخمس على الرغم من انبعاج الخطوط وتقارب الفواصل . غير ان الشبه بالخرائط كان قويا ، رأيت الليل والنهار معا ، الشروق والغروب ، الشتاء والصيف ، ثم احاطنى غمام وضباب ، خرجت منه لأرى الكوكب الأرضى ، حواف العالم الأكرى ،

المد والجزر والمنخفضات الجوية وبدايات الأعاصير ، كنت أوغل في الفراغ وحيدا ، نائبا النأى كله ، أما قوس قزح فابتعد عني ، أو ابتعدت عنه ، امتد غروبي ، وما فوق فراغ وما تحتي فراغ ، غير انني شغلت بحركة الأفلاك ، وتزايد البعد وتضاؤل عالمنا الأرضي ، حتى تصورت انه بإمكانى وضعه فوق سباتي ، أهذا الحيز الضيق أودعه صورتي البشرية ، وعيالي وأهلي وصحبي ، أيجتوى ثرى أبي واجدادى ؟ ، أسافرت فيه ؟ ، طرت وأبحرت ، أحببت وأبغضت ؟ ، سلوت ومللت ؟ ، اجتمعت وافتقرت ؟ ، نأيت فيه واقترت ؟ ، رأيت الشمس على مقربة في دورانها والتهابها الأبدى ، أدت لها التحية مومنا ، ومن عجب أنها جاوتني ، وأشارت إلى أولادها التسعة فامتثلت وسلمت ، فبسمت. لى الزهرة ، وجاوتني المريخ ، وأشار لى المشتري ، ولوحت لى البقية ، ورننا لى كوكبي الأرضي المحاط بالسحب ، متعدد الألوان ، فهو بين الكواكب الأبهج والأجمل والباعث على المسرة ، حنت إليه فودعني ، وكان ذلك آخر عهدي ونهاية فترتي ومختم استمالتى ، إذ انجذبت صعدا عبر السنين الضوئية فاجتزت مجرة درب التبانة إلى مجرة إلى مجرة ، عبرت الثقوب السوداء ، ومواضع تكوّن النجوم وأصبح مستحيلا على أن أحدد أو أشير إلى الجهة التي كنت أشغلها في الكون ، رأيت النجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، ان هو إلا وحى يوحى ، احتضنت الأفلاك مسلما ثم مفارقا ، رأيت أصل الفصول الأربعة متجاورة ، تطلع الئى الشتاء بالنظر الكليل الهادئ ، أما الخريف فقد حنت إليه ورجوت الصيف تخفيف حره عني ، فاستجاب ، وهذا سر أصرح به ، إذ أننى لا أشعر أبدا بحرارة القيظ مها احتد ، أما الربيع فكنت لا أدري كيف أواجهه ، ويبدو ان عمري الذى يمكننى التحاور معه قد ولى ، فنظرت إليه كما ينظر الكهل إلى

فتية يتراقصون ويمرحون ، وصلق القاتل لى يوما ، إنما أنت كهل فى الثامنة والثلاثين ، فسبحان محي العظام وهى رميم ، رأيت المشرق والمغرب معا ، فقصتها ، انتضت الجهات الأربع الأصلية بالنسبة لى ، شمالى صار يمينى ، وتحتى فوق ، كنت انظر إلى الكواكب كأنى أراها من أعلى ومن أسفل ، رأيت ظل الشمس على صفحة الكون المسحوق فتح لى التفرّد إذ أن ذلك لم يقع لغبرى ، توقفت بعد ملايين الملايين من السنين الضوئية ، توقفت حيث يلتقى الفراغ بالفراغ ، توقفت حيث تولد الأفكار والصور ، والمعانى تترق حولى كسهب ونيازك ، وتخرقنى فلا يمسنى اذى ، فأردد على مهل ، وقد خاب من دساها ، عرفت اننى خلقت المجرات كلها ورائى ، والسدم ، والثقوب الكونية ، ومصادر الإشعاع الخفية ، أمرت بالنظر فظنرت ، وإذا بى أرى الكون كله ، هنا حده وذاك حده ، الكون بأكملة فى متناول بصرى ، وكان باستطاعتى ان أشير فأعين ، وأحدد ، عرفت اننى بعيد ، واننى البعد نفسه ، سألت ذاتى ، هل بَعْدَ البعدُ بَعْدُ ؟ ، وجاوبت نفسى ، ليس للإنسان إلا ما سعى ، سألت : أى حيز أجوز فيه وامضى ؟ ، فجاءنى الجواب من الهاتف الخفى ، لا تسأل عما لم تحط به علما ، عرفت اننى منذ هذه اللحظة مكشوف ، عار ، كما لم يتعر إنسان أبدا .

قلت : إبنى خائف ، جاعنى صوت الهاتف : ليس على الأعمى حرج ، إنه نفس الصوت ، هكلنا عدت من جليد إلى نفس موضعى الذى بدأت منه هنا للدخول المبارك لذلك المقام ، رأسى مقطوع فوق كهف شيخى الأكبر محي الدين ، إلى نفس النقطة التى جُتِّها قبل بلوغى بحر البداية فى سعى إلى الديوان ، إذن .. فهنا صوت شيخى الذى سمعته أول مرة ، إذن فهو متول على ، قائم بى ، حافظ لى من قديم حتى وان احتر رأسى ، وملك قلبى

بيده ، قال لى :

- تقدم .

قلت :

- إلى اين ؟.

قال :

- أمامك بقية المقامات ، أنسييت ما خرجت من أجله .

قلت :

- كلا ..

أمرنى :

- اسع .

ففارقت كفه موكلا أمرى إلى صاحب الأمر كله وجل من لا تأخذه سنة

ولا نوم ..

* * *

مَقَامُ الضَّيْنَاءِ..
«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ»

.. جئت هذا المقام وحدى ، إلا من رقيق الحزن ، ودقيق الشجو ، دجا على لى ، وهبت ریح باردة على نفسى ، واستهيم وقتى ، واستولى على الشغل ، ومرجع هذا كله إلى فراقى عن فراقها ، استولى على شؤم الحنين ، جئت هذا المقام بحنين إلى لو لم يخفف منه ادراكى أنها ماهى إلا أنا ، بل زاد هذا من توتى ، حنتت إلى كل ماتعلق بها ، مع ان الجزئيات كثيرة ، والوقت عزيز ، وعمرى الدنيوى قصير ، جئت بحنين إلى أبى وأمى ، إذ انقطعت عنها أمدا ليس بالقليل ، وكان شوقى إلى أبى متجاورا لشوقى إلى أمى ، فتراید هاجسى ، واعتم خاطرى ، جئت مثقلا بالقديم ، كل ما فته وفاتنى ، ما أبليته وأبلاقتى ، حواف أيامى الحلوة حتى الحافل منها بالضيق ، فكل ماض يبدو لمن عاشه حلوا ، عذبا ، حتى ما كان يبدو فى لحظة جها ، ذلك أنه خرج عن المتناول ، وكل بعيد يبدو ثمينا. مرغوبا إذا ما كان فى عالم الممكنات ، فما البال بما لا يمكن تناوله أو ادراكه ؟ ، سألت نفسى عما سألقاه فى هذا المقام ؟ والسؤال يا أحيائى حال ذلة وافئصار فيها يُساء ، فيه ، سواء كان السؤال عن النفس أو عن الغير ، فلا بد للسائل أن يقب موقف الذلة والحاجة لما هو مفترق إليه فيه ، هذا ما أفصح لى عنه شيخى الأكبر ، وأنا مفترق إلى ما لا يمكن حصره ، أنا الضائع ، المقتصد ، لم تطل وحلقى فى ذلك المقام الوعر

صعب المرتقى ، إذ رأيت صييا صغيرا ، ربما فى السابعة أو الثامنة ، لا يمكننى التحديد ، ظهر ظهورا مفاجئا غير متوقع ، ولو ان قلبى معى لحتىخ خوفا ، فالألوف إذا بدا فى غير موضعه أو على غير انتظار أرجف وأرعب ، طفل غريب عنى ، لا أذكر انى رأيتة فى حياىى الدينوية ، نظرت إليه ، قلت .. من ؟ ، قال ، ألا تعرفى ؟ قلت : كلا .

قال لى :- لقد التقطت لى صورة عصر يوم ، ثم رأيت صورة رأسى المحروز فى صحف شتى ، وهنا وقع لى كشف خاطف أقيت خلاله فى معارفى التناسير الوافية ، ذلك أنى اعتدت خلال سفرى الدينوى ورحلاتى ان ألتقط الصور لشوارع المدن الغربية عنى ، وبعد رجوعى أتأمل ما سجلته ، ما اقتنصته من لحظات عابرة ، أولئك العابرون الغرباء ، هذه الفتاة الملتحفة برداء ملون اثناء عبورها الجسر فوق النهر الأوربى ، هنا المعجوز الذى يهبط السلام العتيقة فى الحى السكنى القائم على سفح الجبل الهنغارى ، هذه الأم التى تجلس فوق دكة خشبية ترقب طفلها الصغيرين يلعبان ، هؤلاء الفتية المبتسمون ، هؤلاء الجلوس الساهون ، من هم وأين الآن ؟ أطيل النظر فلا أصل إلى محط ، ولا انتهى إلى مرسى ، أما هذا الطفل قاسمه حامد ، كنت فى زيارة لمدينة بيروت اللبنانية ، عندما توقفت أمام دكاكين متجاورة اقيمت على عجل من الخشب والصفىح ، تحوى بضائع مصنوعة فى بلاد أجنبية ، لفت نظرى طفل غض يحمل الصناديق من عربة واقفة إلى داخل دكان وقف أمامه صاحبه يرقب ويستظر ، كان حامد يسعى إلى رزقه ، استوقفنى هنا فالتقطت صورته ولم يلحظ هو ولم يلحظ صاحب المتجر ولم يلحظ أحد ، ثم مضيت مطرقا ولم أدر فى أى شىء فكرت ، كان حامد يلتقط رزقه من هذا السوق ، ينظف الدكاكين ، يحمل الأتقال ، يجمع النقايا والعلب الفارغة بعينا ، ثم يعود

مشيا إلى الخيم حيث جده واخته التي تكبره بثلاثة أعوام ..
حامد هذا رأيت صورته مرة أخرى غير اني لم انتبه ولم أتوقف ولم يدر
بخاطري أنه هو الطفل الذي توقفت عنده لحظة عابرة يوما وأنا مغترب عن
موطنى أياها معدودات ، رأيت صورته في صحيفة أوروبية ، ملقى على
ظهره ، محزوز العنق ، مبتور الذراعين ، هرعت إلى غرفة أولادى ، قلت
لشريكى فى سفرى الدنيوى ، انظرى .. يمكن ان يفعلوا هذا بعيالنا !
واستولى عليها خوف وضيق ، فنامت فى هذه الليلة بجوار ولدى وابنتى ،
وكنت أقوم مفزوعا فأهرع لكنى اطمئن على نومهم ، وصورة حامد القليل فى
خيالى ، وأنا لا أدرى اننى رأيت ، والتقطت صورته ، جل مدير الصدف ،
تعالى مرتب المناسبات ، فارق حامد هذا الكون الغربى فى تمام العاشرة
والدقيقة الثالثة عشرة ، كنت وقت ان احتز عنقه جالسا فى بيتى ، وضيقى
صاحب لى اسمه ناصر ، جاءنى من تونس لتقص معا حكايه قوم من قرطبة
الأندلسية نسوا عهد الأجداد فضلوا ، وأضاعوا الموروث والوصايا فحقت
عليهم اللعنة ، فى لحظة معينة كنت أرفع يدي اليمنى وأخفض اليسرى محدثا ،
فى هذه اللحظة اقتحم المسلحون الثلاثة غرفة الصفيح ، أمسك أحدهم بنور
شقيقة حامد ولها من دورات الأفلاك إحدى عشرة ، صغيرة بعد ، عراها ،
وطرحها الثانى أرضا مباعدا ما بين فخذيها الضامرين ، توالوا عليها ، وجدها
وشقيقها بمرأى وعلى مقربة ، اجتز أحدهم حلمتها الخضراوين ، ثم شج
رأسها ببلطة ، فانقطع نسل إنسانى كان من الممكن أن يتكون فى رحم هذه
البنية الغضة ، ما أسلاك أيها الإنسان وما أفجعك وما أغيبك عن عقلك
ورشدك إذ تلغ فى القسوة فلا تتوقف ولا ترتدع إن الإنسان لظلوم كفار ،
كنت أتحدث إلى صاحبي الناصر عن المخطوط القديم الذى حوى ما جرى

للأجداد قبل خروجهم من قرطبة ، عندما أمروا الجدد العجوز بحمل جثة الفتاة وإلقائها خارج الغرفة ، وكان صاحبي الناصر يحدثني عن اللعنة التي حلت بالقوم ، إذ يسمع ابناؤهم عند عمر محدد نداء خفيا قادما من أعماق الصحراء فيخرج الواحد منهم خروجا لا عودة تعقبه . عندما أولجوا الخنجر في دبر حامد ، وأمروا جدته بحمله إلى خارج الغرفة ، كان ذلك ليلة الرابع عشر من سبتمبر. عام ألف وتسعمائة واثان وثمانين من زمني الذي طال عليّ ، وقصر بي ، قال لي حامد : قتلوا جدي ، اضمرت السؤال ولم انطقه ، لماذا رضى الجدد بحمل جثمان حفيدته المنتهك . وحفيده ؟ اظن أنهم سيقون عليه ؟ أظنّ أن الدقائق التي تسبق قتله ستمتد دهرا ؟ أظنّ أنه ناج ؟ وأي نجاة ، أى بقاء هذا ؟ .. اعلمو يا احمالي اننى عرفت الموت في زمني الدنيوى ، خاصة في زمن الحرب ، عندما تطايرت الشظايا حولى ، وشقت الرصاصات سبلا شتى ، خبرت تلك اللحظات التي يمكن للإنسان أن يقضى فيها ، عرفت كيف يوقن في الذروة أن الموت لاحق بكل من يحيطه عداه ، وأنه قادر على مراوغة الطلقة ، ودفع الشظية ، مع أن الأمر صدقة كذا الجواهر ، فلو حل هذا مكان ذلك ، لذهب ذاك وبقي هذا ، سبحانك يا من قدرت الموت والحياة ، فلا تدرى نفس بأى أرض تموت ، سبحانك ، بعد مواجهتى الموت أول مرة ، وكان ذلك عصر أربعماء خريفى صرت أكثر جرأة وأقل خوفا ، اتعرفون لماذا يا إخلالى ؟ لأننى كنت أقول لنفسى دائما كلما استعدت هذه اللحظات ، كاد الموت يلحقنى عصر الأربعماء الماضى ، إذن .. عشت زمنا أطول مما ينبغي لى أن أعيشه وبعد رحيل أبى انجرف حاجز ضخيم بينى وبين الموت ، وبعد أمى زال مانع فصرت أكثر قربا .. لكننى لماذا أذكر من حملتنى حولا على حول وكأنها رحلت ؟ ماذا جرى لها ؟ إني منقطع عن صورتى

البشرية ، فلا أدري ولا أعلم ، لكنني قلق ، مضطرب ، ربما لأنها جاءتني هنا ، هذه التجليات ، لا أدري ، وما من حبيب قريب يطمئن قوادى ، ويهدئ قلبي الثاني عني ، المتقلب بين يدي شيخى ، تطلع الصبي حامد ، مبتسما ، ضاحكا ، مدركا لكل ما جال بخاطري ، وعندما لمَح لي دلتى ، فنظرت ، وتطلعت فرأيت ما انتعدت عنه مسافة ، وتأيت عنه مقدارا ، رأيت ما خرجت من أجله ، وسعيا إليه ، رأيت أبى ، فهفا قوادى ، ولت نفسى لأنى شغلت عنه بنفسى ، بلور ، وندمت لأنى لم أضق ضيقا كافيا عندما رأيت شخصا آخر فى مترلة الأب لي ، أقول هذا وثمة فضول عندى فقد فارقت مقام الاغتراب ولم أعرف كل ما يجب ان اعرفه عنه ، غيزان ما غلب على شوقى إلى لور ، بعد رؤيتى واندماجى لم يعد بوسعى إلا تذكرها واستعادتها فى الخيالات والصور ، هاهو أبى ذا يجلس إلى رجل اسمه عبده ، يبدو أبى عفا ، شابا ، يتحدث إلى هذا الرجل بأبع الدقيق ، بينها منضدة مستديرة من نحاس ، إنها فى مقهى العجم ، أبى يرجو الرجل ان يؤجر له تلك الفرقة ، والرجل يسأله عن الزمن الذى سياتى فيه بامرأته ، فيؤكد أبى أن الأوان لن يطول كثيرا وفى الزيارة القادمة إلى البلدة لن يرجع وحيدا ، لأن السنوات التى انقضت منذ عقد قرانه طالت ، وكلام الخلق كثير والألسن طويلة ، وهو لا يريد من الدنيا إلا السر ، يقول الرجل : ولماذا لا تسافر غدا أو بعد غد ؟ ، يقول أبى : الزمن زمن حرب ، والاجازات ممنوعة ، يسأل الرجل : أين تقيم ؟؟ .

يقول أبى : عند قريب لي فى حارة الانشاء بالسيدة زينب ، ليس من المعقول ان يأتى بامرأته التى ستكون أما لعياله لتقيم مع غريب ، يقول الرجل ، عندما تجيء بها سأعطيك الحجر ، لكننى لا أقبل سكن أعزب عندى الآن يا أحمد . يطرق أبى حائرا ، وألحظ تقدما خفيا فى العمر بحيرنى ، فهو أمامى عنى ، لكننى أشعر بشيخوخة خفية أو غروب غير باد ، سألتى الصبي حامد

المقتول ظلماً ؟ ألا تعرف الرجل ؟. لم أجه وإنما عاودت النظر ، إنه السنى ، عبده السنى ، صاحب دكان الدقيق والحبز القريب من حارة درب الطيلوى التى اقمنا فيها زمنا مديدا ، الدكان الذى توقف أبى أمامه مرارا فى أيام الجذب ، رأيت مرارا يتردد حائرا ، يتظر ابتعاد زبائن الصباح الباكر ليقرب من السنى الذى أصبح عظيم اللحية أشيها ، يطلب أبى خبزا بخمسة قروش تضاف إلى دينه ، ثم يطلب خمسة نقدا ، ليشتري اللبن والقول ، سمعت السنى يقول لأبى ذات صباح شتوى قاس : لكن حسابك ثقل يا أحمد ، فيحار الوالد فى الرد ، فيتدارك السنى قوله ، خذ يا بنى ، وسع الله عليك وقواك على تربية أولادك ، تغيب عنى أصواتها فلا أرى إلا شفاهها تتحرك ، تختلف هنا رؤيتى عما شهدته فى الأسفار عندما كنت انعم بصحبة مولاي وضياء عيني الحسين عليه أركمى السلام وأطيه ، أه با ابن الأكرمين لو بقيت معك ! . فى الرؤى الأولى كنت أبعث فى الزمان عينه فكأنى منه وكأنه منى ، أما هنا فالأمر مختلف ، كنت أرى وسمع كمن يرى ويسمع شريطا سينائيا ، كنت منفصلا وليس متصلا ، ينظر إلى الصبي حامد ، يقول لى ان ذلك لتبدل الحال ، فتساءلت ، أى حال ؟ ، يضحك ضحكة الواعى الذى يدرك ما أنا مدركه ، يقول : لبعده الشقة واتساع المسافة ، يأمرنى أن انتبه ، وإذا بى فى مواجهة اللحظة وما حوت ، وان شتم الدقة كنت فى مواجهة ماحوت ، لم تقع عيني على اللحظة فى شكلها أو جوهرها ، هذا بعيد عنى ادراكه ، وتلك مرتبة لا يصل إليها من هو مثلى ، أعرف الآن ان ما نسميه لحظة أو دقيقة أو ساعة أو نهارا أو ليلا أو شهراً قريبا أو ميلاديا أو حولا أو دهرأ أو عصراً ليس إلا اعراضا لما هو أعم وأشمل ، شىء وليس بشىء لأنه لا يدرك ولا يرى ولا جهات له ، هو محيط بنا ، متغلغل فىنا ، يؤثر ولا يتأثر ، يخفى ويظهر ، يغير ولا يتغير ، كل ما نراه دلالات عليه ،

واشارات إليه ، وأكف حتى لا أخوض فيها نُهيت عنه ، واحوش نفسى عن الكلام خشية وتحسبا ، فعذرا ! رأيت عتوى اللحظة التى كنت استساءل عن كتبها دائما ، التى لم يجددها أبى ، ولم يمك بها ، ولم يقف عليها ، دلتى عليها هذا الصبي المقتول غدرا ، الذى خرج من الدنيا فى غير موعده ، الذى لم ولن يراه أبى ، رأيت اللحظة التى اياها أعنى ، التى وهن فيها عزم أبى ، وهى قصده عن متابعة دراسته ، وتحصيله للدرس ، وفهم سر الحرف ، وإدراك الفرق بين الفروق ، من قبل رأيت بداياتها ، والآن أتأكد من اكتمالها ، رأيت ضوء الشمس الأصيلية ، وأوضاع الأفلاك ، فى هذه اللحظة انكسر عزم أبى ، ثم رأيت اللحظات المتباعدة التى لم يربط بينها ولم يرصدها فى حينه ، عند خروجه من البلدة « فى مصر سأحصل على عمل ، وأتعلم فى الأزهر » .

عند جلوسه فوق مقعد خشبي قريب من كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية التى اندثرت ولم يبتق منها إلا شظايا ، هاهو يجلس وحيدا ، يرتاح إلى الماء الممتد واللون الأخضر .

« ليتنى أحصل على عمل » .

هاهو يعبر مزلقان قطار حلوان القريب من ضريح السيدة الطاهرة زينب عليها السلام رئيسة الديوان ، يمشى متمهلا .

« ليتنى أجد عملا اضافيا ، فلترتب لائى بحاجتى وحاجة البيت » ،

هاهو ذا على مقربة من مثنوى الحبيب الطاهر .

« ليتنى أضمن الغناء للأولاد غدا » ..

أرى نفسى طفلا ابن عامين ، تطلعت إلى بفضولى ذاته الذى لا تخف حديثه كلما واجهت صورتي ، هاهو ذا أبى يفتق نظره الحنون على ، « لو بارك ربى فيه فسأعلمه ، ولن يعرف مرارة الحاجة أبدا » ، وقد صدق أبى فى عزمه ، وأوفى

بما قطعه ، وما وهن عنده من حق نفسه لم يبين قط بالنسبة لى ، ليس لنا فقط وإنما سائر اخوتى ، كد وشقى وتحمل ما تحمل وناء بالهموم الثقال ولم يفرط ، ولم يلن .

قال له قريب لنا اغثنى بعد فقر « لماذا لا تأتى بابنك عندنا يتعلم التجارة ، يقف ويبيع ، ويعرف السوق » ، هب أبى وثار فى وجهه كأن الرجل مس عرضه ، انصرف أبى مقسماً ألا يبطأ متجر هذا القريب مادام حيا ، وقد كان ، قال له أحد الموظفين يوماً بعد أن أقرضه نصف جنيه ، « عندى دكان ترزى ، أرسل ابنك إلى لأعلمه صنعة » ، اعاد له أبى الخمسين قرشا انصرف عنه غاضباً ، هاهو ذا خلف الحسينى ، السبب فى جريان رزق أبى ، من شعر تجاهه بالدين ، حتى فى أيام غضبها بعد تقدم العمر بهما ، اراه شاباً ، يمد بعضاً من قصان أولاده ، « خذ يا أحمد لجمال » ، كظم أبى ضيقاً ، وان بدا على وجهه ظل من ذلك ، لخلف الحسينى عنده مترلة ومكآنة ، يرد القمصان بهدوء ، يقول إن الأولاد ليسوا فى حاجة ، وان الستموجود . ينصرف حانقا متضايقاً ، « لن يلبس أولادى فضلات الآخرين ابدا ، هنا شؤم علىّ وعليهم » .

رأيت سعى أبى ، أبى عاش يتيماً ، وحيداً ، بلاذى رحم يمن عليه ، كل من عطف عليه غريب عنه ، رحمهم الله رحمة واسعة ان كانوا أمواتا ، وزاد فى رزقهم ان كانوا احياء ، أبى الوحيد ، المعلن ، الذى لم يهدأ ولم يرتج إلا فى هذه الليلة من أكتوبر ، أبى يا حامد ، أيها الصبي اليتيم المقتول غيلة ، أبى لم يفصل حلة واحدة جديدة طيلة حياته ، فقط جلباب بلدى من الصوف أذكر لونه بين ما استعيده من ألوان طفولتى ، وجلباب آخر جتته أنا بقمّاشه بعد رحلة لى إلى بغداد ، أما قماش الجلابيب القطنية ، كسوة الصيف وكسوة الشتاء ، فأمى هى التى تذكر وتشترى له بين ما تشتري لنا وإلا فإنه ينسى ، قيل أبى يا حلمد أن

يرتدى مايفيض عن حاجة الأقربين ، وبذل الغالي والرخيص ليدفع عنا
السخافات واستهانات الآخرين .

أرى خروجنا بصحبته عصر يوم ، نمشي ثلاثنا ، أنا وأبي وإسماعيل اخي ،
يرتدى كل منا بدلة جديدة ، أول مرة نرتدى حلتين كاملتين ، جاكيت أزرق أما
البنطلون فرمادى ، اشتراهما أبي من متجر يبيع الملابس الجاهزة من قصان
وملابس داخلية وحلل ، وأخذ على نفسه عهدا موقعا بتسديد ثمنها على اثني
عشر شهرا ، وهذا المتجر يقع في أول شارع السكة الجديدة من ناحية ميدان
الحسين ، وكان أبي يصلي في مسجد مولانا بصحبة بائع يعمل فيه ، والبائع جار
لنا في حارة الطبلالوى ، وكان شقيقه مدرسا لى ، علمنى اللغة العربية ومبادئها
في مرحلة تعليمى الابتدائى ، غير أننى أذكر دائما هذا البائع الذى كانت تتوسط
جبهته علامة السجود ، ويبدو على وجهه الصلاح والتقوى ، يخرج مبكرا ،
ويعود إلى بيته متأخرا ، ولا تراه يسعى إلا مطرقا ، خشية ان تقع عيناه على
جارة ، كان في حاله ، لا يتحرش بإنسان ، ولم يشترك في مشاجرة ، لا انساه ،
ليس لارتباط المتجر بارتدائنا الثياب الجديدة ، وترحيبه بأبى ، وفتح صناديق
الورق المقوى ، وفرده القمصان ، والملابس الداخلية والمناديل ، والجوارب ،
بينما تتبع رائحة القطن المنسوج الذى لم يستعمل بعد ، والورق ، ونحوه
الدوبارة ، أذكره لأنه كان أبا لبنية جميلة ، رقيقة ، مشرقة الوجه ، اسمها
سعاد ، وقد احببتها حبا غريبا عجيبا ، سنوات متتالية ، فدائما أفكر فيها ،
وأحاول وضع نفسى في طريقها ، وإذ أصغى إلى صوتها تتادى صاحبيتها في
الصباح الباكر يخفق قلبى ، وقد كان وقتئذ صحيحا ، سليما ، لم تدركه العلة ،
ولم يُتْرَع منى بعد ، عشقتها ولم أكلمها كلمة ، احببتها ولم أحاورها ، ولو
تصادف ورأيته في الطريق أظهر اللامبالاة واكتم ما عندى .

استمر ذلك حيناً ، ثم باعدنى الزمن عنها ، وذات يوم كنت أتأهب للعودة إلى موطنى بعد رحلة إلى بلاد الأنجليز ، طال بي انتظارى إقلاع الطائرة ، رأيت سعاد فى مواجهتى تقترب من مقعد عريض ، تستند إلى عكازين معدنيين ، ترتدى معطفاً رمادياً وبصحبها رجل ، لم أدرك من ؟ أحد الأقارب ؟ زوجها ؟ لم أجد الاجابة ، ولم أسأل ، وقطعت الرحلة كعادتنا ، اختلس النظر إلى جزء من عمرى وأنا منفصل عنه لا أدرى ما حل به ، ولا أبذل المحاولة لأعرف مع أنه فى المتناول ، أرى سعيماً بجوار أبى عند مسجد الحسين عليه السلام ، ترتدى الحلتين ، لا أدرى مقصدنا ، ولا وجهتنا ، وإن بدا أبى سعيداً ، مرتاحاً لصحبة ولديه فى أجمل صورة ، انظر إلى صاحبي فى هذا المقام ، الصبي حامد ، تلك لحظة من اللحظات الأولى . ما يمر بنا يبدو عادياً فى حينه ، لا شىء يلفت النظر فيه ، ولا موجب للتوقف عنده ، حتى إذا ولّى وانطوى ونأينا فى الطريق وشط بنا السفر ، يلوح لنا ما كان خفياً ، وتضح المعانى المكتونة ، فنقول : «يا حسرة على ما فات» ، أو «ليتني أدركت ما فقدتني» .

فيا إخوانى فى الطريق ، يا أحبائى أوصيكم قبل أن يمضى زمن الوصايا ، أن تنتهبوا إلى ما يمر بكم ، أن تعوا وألا توجلوا أو تفرطوا ، فرب لحظة قد تمرق عابرة تكون هى المحرك للشجن الدائم فيما تبقى لكم من عمر ، وربما تكون استعادتها مصحوبة بالحزن الثقيل الذى لا راد له إذا بددنا ما احتوته من فرص ، أوصيكم فلا تكونوا من الغافلين ، يربت الصبي حامد رأسى ، فكأنى الصغير وهو الكبير ، كأنى الجاهل وهو العالم ، يولى نظرى شطر يوم بعيد ، أرى خالى قبل أن يصبح خالى ، يبدو مهموماً ، فيما بعد لم أراه إلا مقطباً ، عابساً ، نادر الضحكة عسر الابتسامة ، يقول لجلتى الجالسة أمام

القرن ، وأعرف نهاية هذه الزيجة ؟» تدفع جلتى أقراص العجين المتخمر في الشمس إلى جوف اللهب ، تعاتبه «أضقت بأختك يا محمد ؟» ، ييسط يديه علامة الحيرة ، «كلام الناس كثير يا أمى وألسنتهم طويلة» ، ثم يقول «وعندما يجيء من مصر يدخل ويخرج علينا» ، تقاطعه جلتى ، «أحمد ليس غريبا علينا الآن ، إنه زوج البنت على سنة الله ورسوله» ، يحتد خالى ، ولكنه لم يدخل بها بعد ، ولا أعرف رأس هذا الموضوع من رجليه» ، فى هذه اللحظة تدخل أمى ، تحمل حزمة من البوص الجاف ، ترتدى جلبابا أبيض منقوشا بدوائر زرقاء ، وتعصب رأسها بمنديل أبيض تغطيه بطرحة سوداء ، ثبت نظرى عند ظهورها ، وجاشت بى عواطف شتى ، يسكت خالى ، لكن أمى تلحظ ، وتفهم ، فتحزن ، وتدخل الغرفة التى سأولد فيها ، تسند ذقتها إلى ركبتيها ، وتمشط التراب بعود من القش ، هنا عمر لم أر فيه أمى ، وتلك حقبة من الحقب الغوامض ، ها هى ذى ساهمة ، تفكر فى حظها ، وما يتظرها ، وكلام الناس ، ما يضايقها ويؤلمها كلام الأحراب ، يقابلنها عند خروجها بنظرات صامته تضج بالراء المصطنع ، والشماتة الخفية ، البنت صافية تسألها بصوت منغم «متى ستسافرين إلى مصر يا بختية ؟» ، فتقول باختصار قاطع لاسترسال الحديث ، «لما يأذن الكريم» ، استوقفتها البنت خديجة ، فى صباح منقضى ، سألتها «أحمد لم يرسل خطابات ؟» ، تنظر إليها أمى صامته ، تمصص خديجة شفتيها ، «يعنى كان لازم تزوجى واحد فى مصر، والنبي كان أولى بك واحد من أقاربك هنا» ، تصادف مرور اللودة امرأة الغفير التى استقبلت خروجى من رحم أمى ، سمعت غمز ولز البنات وكانت اللودة تحب أمى حبا جما ، وتمخشى أن تغضبا ، أو تسكت عن إغضابها ، ألم يخترها الكريم الغائب - والد أمى -

من بين أهل البلدة أجمعين ليلتها رسالته إلى امرأته ، ويوصيها بابتها ، زعقت الدودة في البنات ، يا قليلات الترية ، قطع الله أستكن ، والله بخيرة مستصبح أحسن منكن ، وظفرها برقابكن كلكن ، ، ترجع أمي إلى البيت ، تتروى في الغرفة ؟ أو فوق سطح البيت ، بعيدا عن الأنظار ، لماذا لا يريد أن يصحبها إلى مصر؟ ، إنها أول بنت من بيت باشا يعقد قرانها ويمضي عامان وزوجها لم يدخل بها بعد ، عندما يجيء من مصر يأتي بقماش جلباب ومنديل وطرحة وعلبة حلوى طحينية وقرصين من السكر ، وعندما يأتي أحد الأقارب يرسل معه ثوبا ، أو قماش طرحة ، في البداية كانت تتباهى بما يرسله ، وعندما ترورها إحدى القريبات ، أو تدخل البيت إحدى الجارات ترقب أمها راضية وهي تعرض ما بعث به أحمد ، ولما امتد بها الزمن ، وتأخر الموعد ، وتأجلت البداية ، لم تعد الهدايا تثير مباهاتها ، بل أصبحت باعثة على قلقها ، بدأت غربتها بين أهل ، لم يعد مذاق اللقمة نفس المذاق ، ولا الرقاد نفس الرقاد ، إنها في عصمة رجل الآن ، لكن الرجل بعيد ، وهي هنا ضيفة تنتظر الرحيل ، والرحيل طال ترقبه ، والحق أن أمها لم تبد إلا حنانا وعناية ، بل إنها تتعمد أمام الزائرات الفضوليات ، أن تتكلم عن بيت يعده أحمد في مصر ليتزوج فيه ، بيت كبير فيه نوافذ فسيحة وستائر ، ومقاعد مكسوة بالقطيفة ، وحجرة نوم فيها سرير ودولاب ، والسريير عليه ناموسية ، والبيت فيه دورة مياه ومطبخ ، تصغى أمي فيخشى قلبها ويهفو قوادها ، خاصة أنها سمعت الجدة نجمة تقول إن بعضهم رأى أحمد في مصر ، وأن أحواله ضنك ، وأن أموره عسرة ، فتردد أمي لنفسها ، عسرة أو صعبة ، ما يعني أن يتخنى من البلدة ليسكت ألسنة النسوة ، حنو أمها عليها يخفف من ضيقها ، وفي الوقت نفسه يؤلمها ، ترى حظها المائل ، وتتساءل عما فعلته ، هي التي لم تغضب ربهما

أبدا ، ماذا فعلت حتى تصبح جرسة ؟
رأيت أيام أُمى فى جملتها ، كأنى أرى يوما حوى جميع أيام غربتها ،
وانتظارها الملىء بالهواجس والظنون ، أشار الصبى حامد إلى موضع من
الأرض يجلس فوقه أبى وخالى ، يبدو خالى جها فوق تجهمه ، ينحط فى
التراب بأصبغه خطوطا متقاطعة ، لحظة فاصلة سيقتر فىها أمر ، يقول خالى
«شوف يا ابن الناس ، بناتنا مش لعبة» ، أشفق على أبى وألوم خالى ، قسوة
فى غير محلها ، وجفاء أخطأ موضعه ، غير أنى بمنأى ، وليس عندى حيلة فى
تبديل ما تم بالفعل ، هذه حقيقة ، وبرغم ذلك داخلنى خاطر بشرى إذ
خفت ألا يتم الأمر وأن يفسخ العقد فلا أجدى ولا ينجبنى والذى مع أنى
كائن بالفعل ، مع أنى أتم وأسى ، يصغى أبى ثم يقول ، « فى المرة القادمة
سأصحبها معى » ، يقول خالى « لاتزعل من الحق » ، يقول أبى « الحق مايزعل
أبدا » ، يتغير الضوء النهارى ، أرى سبع غوايش ذهبية نحيلة وخائفا يعلوه
فص من فيروز ، وقلادة من ذهب كبيرة الحجم ، تتلى منها جنيهات ذهبية
مستديرة ، ورعوسا لأبى الهول ، ومثلثات منمنمة ، وحلقا على هيئة هلال
تتخلله أغصان متفرقة متلاقية ، تلك حلى محفوظة فى صندوق خشبى عطر
الرائحة ، مبطن بقطيفة حمراء ياقوتية اللون ، والصندوق فوق رف داخلى فى
صوان ابنوسى عتيق ، قوائمه على هيئة أقدام أسد مفترس ، والصوان فى منزل
من طابق واحد تحيطه حديقة مسورة ، والمنزل فى ضاحية من ضواحي مدينة
الخرطوم عاصمة بلاد السودان ، هذه الحلى تخص امرأة من أهالى هذه
البلاد ، اعتادت زيارة مصر فى شهور الصيف بصحبة زوجها تاجر سن الفيل
وريش النعام ، وفى احدى زياراتها والزمن منتصف الخمسينيات ، رغبت فى
زيارة ضريح مولاى الحسين القاهرى ، وبعد الطواف وقراءة الفاتحة عرجا

على سوق الصاغة القريب ، ودخلا متجر السرجاني الذي يعرفه رجلها ويتعامل معه منذ ثلاثين سنة بالتمام ، تفرجت وقلبت وأعجبها مجموعة حل مصنوعة طبقا للنظام القديم الذي بطل ولم يعد مثله ، اشتراها زوجها ، تقلدتها وزهت بها حولا واختالت بها ، كانت امرأة بلدية ترتدى الثوب الأبيض ، تتطيب وتذلك جلدها بالزيت العطرية الطبيعية ، ولما أزف زمانها ، وتم وقتها في هذه الحياة الدنيا أبي ولدها الوحيد ، تاجر السيوف الفضية أن يبيع شيئا من بقاياها ، فحفظ ثيابها وجليها ، وأغلق على هذه القطع الذهبية صندوقا وأقسم ألا يفتحه مخلوق ما بقي حيا ، هذه الحل كانت لأمي يا إخواني ، ومن قبل خصت جلتى ، وقد وهبتها لابنتها عندما تأهبت للرحيل إلى مصر بصحبة زوجها ، أمي جاءت بها إلى مصر ، تقلدها في أيام الأعياد ، وعندما تمضي بصحبة أبي لترور أحد الأقارب ، أو أحد الأولياء الصالحين الراقيين في اضرحتهم ، احتفظت بها دائما في علبة فارغة من الصفيح في الأصل كانت لتعبئة الحلوى الطحينية ، واستمر ذلك سبعة عشر عاما ، وفي عصر يوم جمعة رأيت أمي وجه أبي مهموما ضنكا ، كان عائدا من الصلاة ولقاء الأقارب والأصحاب في فندق الكلوب العصري ، فقد مستلنا ظهره إلى الجدار ، بلنا متقلما في العمر ، مرهقا ، عرفت من موقعي في هذا المقام أن أحلامه القديمة موهودة تماما في هذه اللحظة ، وأن شاغله الأكبر اطعامنا ، وضمان استمرار تعليمنا حتى لا يجرى علينا ما جرى له ، لما نظرت إليه أمي حنت عليه واشفقت ، وكرهت أن تراه هكلنا ، قامت متجهة إلى قفة تحت السرير تضع فيها الملابس وأغطية الفراش ، سحبت علبة الحلوى القديمة فتحتها وتناولت غويشتين ، قالت ، «خذهما يا أحمد» قالت «فك بها ضيقتك وضيقتنا» ، قالت «فرج عنا وعنك ، لكن لا تقعد هذه

القعدة ، قال أبي « لن أمد يدي إلى حاجتك يا بنت الناس » قال أبي « هذه أمانة » ، غير أن حزم أمي لم يكن له راد ، فلکم تصمت وتحتق وتبطن وتندارى ، لكنها فى لحظة بعينها تجرد وتصير ، فلا ينفع معها مراجعة ، تناول أبي الحلوى ومضى إلى الصاغة ، رهن ما أخذه ولم يبعه ، فى هذه الليلة خرطت أمي البصل وسبحت الزبد ، وانتظرنا نضج اللحم واكتال دسامة المرق ؛ وقد سافر أبى بعد شهر إلى البلدة وعاد بإيخار القدان ونصف وسلة مليئة بالبلح ، وأرغفة الخبز وأوزة مذبوحة ، وعلة سمن أرسلتها معه جلدق ، ذهب إلى الصاغة واسترد الغويشتين المرهونتين ، جاء البيت فرحا ، « أمانتك يا بختية » ، ولم أسمع أبى ينادى أمى باسمها إلا ساعات الرضا ، غير أن ضيق الحال عاد ، وكان ذلك مصاحبا لتقدمنا فى العمر ، والمدارس ، والدنيا ، لم يرهن أبى الحلوى ، لكنه باعها ، وانفق منها علينا .

وقد اطلعت فى هذا المقام على جهات متفرقة وجزيئات منى ، لم أدر كنهها أو طبيعتها ، ولم أقدر على تحديد مواضعها الأولى فى كينونتى ، لكننى علمت أنها نمت وتمت بهذه الجنيات حصيلة بيع الذهب ، بيعت الأساور ، والخاتم ذو الفص الفيروزى ، وعندما بيعت القلادة الذهبية اختلف الموقع ، رأيت أبى كارها ، ورأيت أمى حزينة واجمة ، فهذا ميراث طويل ، وأعمار متعاقبة ، وقال سيبى ، لكن هناك شىء أعلى وأعز من الضنا ؟ ، وعندما رأى البائع فى متجر السرجانى أدرك بحاسته وموروته أن أبى جاء بآخر ما عنده ، وأنه ليس بعد القلادة بعد ، عرض الغوايش والخاتم والكردان ، وبيع جذر ممتد من ماضى أمى ، وقد أخفت ذلك عن شقيقها زينا طويلا ، وكلما جاء إلى مصر فى زيارة ، واستفسر منها ، أكدت له أن كل حاجاتها فى حرز أمين ، ثم تطوى الحديث طيا ، أ يوجد أعلى من الضنا ؟ ، والضنا نحن ،

فند مجئى إلى الدنيا ومن قبلى ومن بعدى إخوتى ونحن ضنا أبى وتعب أمى ،
وما أنا إلا واحد من سبعة اقلوا عبء أبى وإن رضى بنا وسعى من أجلنا ،
خلف وكإل ، سبقانى وسبقانى ، فقد جاء قبلى إلى الدنيا ، ورحلا عنها بينا
أسعى أول خطوى فيها ، أما محمد فجاء بعد أخى اسماعيل وقبل أختى .
والغريب المحير أنك لو سألتنى عنه ياخطى الوقى ، فلا اذكر عنه إلا
المشية ، وطريقة الخطو ، ولون الجلباب الذى ارتداه آخر مرة ، المشية عندما
كنا نعبر البوابة القديمة المؤدية إلى ميدان بيت القاضى ، صباح باكر ،
وشوارع خفت حركتها ، وقبة قلاوون الرمادية ، نهاية مدى الرؤية ، وأتوييس
ينتظر اكتمال الركاب ليمضى إلى ميدان باب الحديد . وحوض المياه المخصص
لشرب اللواب من خيول وبغال وحمير أمام قسم البوليس لا يقف عنده إلا
حصان واحد مربوط إلى عربة مرتفعة تنقل الرمال ، أبى يتقدمنا حاملا مقطف
الحوص الممتوى على هديتنا إلى جلدنى وخلنا ، أقشة جلابيب ، وقطع
صابون ، وسكر ، وشاى ، وزجاجة من ماء الورد بركة من سيدنا ومولانا
الحسين ، أمى تمسك يد محمد أصغرنا وأضعفنا ، أما أنا واسماعيل فنخطو
بجوارها مئاسكى الأيدى ، جلباب أخى محمد قطنى ، بنى فاتح ، خطوط
بنية غامقة ، يتعل صندلا أسود ، يمشى مطرقا ، وهذه الاطراقة تضفى عليه
ذاكرتى عمرا أكبر من عمره بكثير ، راح يجذب يد أمى ، ويتوقف رافضا
المشى ولم يكن يبكى ، كان رفضه صامتا ، لا يقبل على السفر ، حتى إن أبى
التفت طالبا منا أن نسرع وإلا فاتنا القطار ، قطار الثامنة صباحا ، بعد ركوبنا
القطار وتبدل المشاهد ومرورنا بالبلاد ومرورها بنا وتوالى باعة الطعام من سميط
وبيض وجبن ومياه غازية ومنشدو السيرة النبوية ومادجو الأولياء وأهل الجهاد
الكرام والشحاذون لم يتسم أخى مرة واحدة ، إنما بقى صامتا ، ساهما ،

لا يستجيب للمدابة ، ولا يبلى مجاوبة ، وعلى هذا الحال مضت أيامه في
البلدة ، فهو ملتصق منكمش دائما إلى أمه أو جدته ، لم يخرج من الدار إلا
بصحبتها أو برقعة أبي ، وبعد الخطو يبدو كارها ، راعبا في العودة حتى أن
جلتي احتضته ذات ليلة وملست على ظهره وقرأت الفاتحة أربعين مرة لتطرد
عنه الشياطين ، في اليوم التالي لعودتنا من البلدة سخن أخي ، وارتخت
اعضاؤه ، واتسعت عيناه ، حملته أمي ، وصحبها أبي إلى طبيب قريب ،
فكشفت وكب الدواء ، غير أن قلب أمي لم يهدأ ، عرجا عند العودة على
الشيخ عطية ، وبعد أن بسمل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وتلا التعاويذ
والأسرار ، قال إنه اطلع على مالا يمكن قوله ، وأن هذا مرض لا ينفع معه
حجاب ، لكن اقرأوا آية الكرسي بعد شروق الشمس سبع مرات ، فإذا
طلعت عليه شمس يوم الجمعة القادم فسينجو ويشقى ويعمر حتى يتجاوز
المائة ، ليلة الجمعة نام أخي اسماعيل ، ونمت أنا ، وغفا أبي بعد منتصف
الليل ، ولم تدق أمي طعم الوسن ، وما أكثر الليالي التي قضتها ساهرة ، وقبل
آذان الفجر، الموعد نفسه الذي توفي عنده أبي ، قبل الآذان خرج أخي محمد
من الدنيا . قال الشيخ الذي صلى عليه ، احمدوا الله أن الولد قبض طفلا ،
الأطفال لهم الجنة ، وهي بيضاء من كل سوء ، غير أن أمي قالت باكية ،
متحبة إن الولد شعر ، وأن قلبه الصغير أحس ، كان يشد يدها ويأبي الخطو ،
ليتها لم تسافر ، ليتها لم تسافر ، قال أبي : وحدى الله يا أم جبال ، هذه إرادة
الله . رددت لمناجاة ، ليتنا لم نقبل على البلدة ، قلبه كان يشعر ، اسألوني أنا من
كنت أمسك يده .

وهنا سمعت صوتا يحدثني ، ألفت ، حامد الصبي ، المذبوح مثلي ولكن
بأيدي القساة غلاظ الأكباد ، حامد يكلم نفسه ، وليتنا لم تسافر... ،

اطلت ودققت النظر وتعجبت ، تلك ملامح أخى ، ليس حامد الذى تجلى لي ، قصرت قامته ونحل جسده ، رأيت طفلا آخر ابن عامين ، خفت وكان خوفي هذا خوفا خاصا فى قلب خوفي العام ، من وحلتي ، من الأعوار التى أضربُ فيها على غير معرفة بما سيصير إليه أمرى وما سيتقلب إليه حالى .
أتساءل ..

- « من أنت ؟ » .

يجيبني الصبي الصغير بلسان حامد الذى يصحني في هذا المقام ..

- « أنا محمد شقيقك ، والرحم الذى أواك أوانى .. »

- « وحامد ؟ ، حامد الذى التقطت صورته صدقة ، ثم رأيتَه في الصور

مذبوحا .. » .

قال :

- « هو أنا ، وما أنا إلا شقيقك في نشأته الأخرى .. » .

- لكن ؟؟؟ .

- « أعرف يا أخى الأكبر ما يحريك ، لكنني جئت إلى الحياة الدنيا مرتين ،

فمرة تلممت جزئياتي فكنت محمد الذى يصغرك ، ومرة جئت غربا عنك ،

نائبا ، وأنت لا تدري .. لكن الأسباب جمعتنا ، إن الإنسان كان

جهولا .. » .

- « أنت هو اذن ؟ » .

- « في المرة الأولى خفت السفر ، حاولت أن أتبه فلم يتبه أحد ، حاولت

أن أثنيكم فلم تتثوا ، وفي المرة الثانية تم قتلي فجأة .. أخذت غدرا .

- بصرفي يا من تصغرنى وتكبرني .. » .

- « كنت عامرا بالرؤى والمستقبل ، لكن لم يكتمل ذلك في كلتا النشأتين ..

قلت راجيا ..

- « بحق من رد المثل إلى المثل وربط الشكل بالشكل وجعل سكون البعض إلى البعض ، بحق من يفتى الأدوار ويغير هذه الأطوار ، ويبدل الأحوال غير الأحوال ، اماته ثم إحياء ، بحقه دلتى يا أخى الأصغر... » .
أشار بيده الصغرى :

- « انظر » .

فتوجهت ببصرى إلى حيث أشار مع أن الجهات منعدمة ، رأيت بقعة من عالما الدينوى ، واضحة بكل ما حوت ، غير أنى لم أدر المراد ، ولم أوفق ، فأنشيت ببصرى ، وإذا بشقى ناء عنى ، عباراته خرس ، وإشاراته طمس ، استفسرت حائرا ..

- « أى موضع هذا » .

هنا خاطبني الهاتف :

- « هنا ستفارق ، وهذا آخر ما ستراه فى دنياك ... » .

حولت البصر لأدقق واستوثق ، غير أن ما كشف لى تم محوه ، فقدت الفرصة ، وغامت الجلوة ، وكان قلبى غريبا عنى فلم يقبض ، وصدرى متزعجا منى فلم يضيق ، وكان وعيى بشريا فاغتم وتحسر ولم يفرح بما خصصت به ، بما دلتى أخى عليه ، ذلك أنى يا احبائى رأيت الموضع الذى ستغرب عنده شمسى ، وتأفل فيه نفسى ، وينسدل ليلى ، المكان الذى ستبطل فيه صورتى البشرية ، وهذا كشف لم يقع لمن سبقونى فى الطريق ، أو من لجوا شتى المقامات ، وعرفوا الأحوال كلها ، فكما تعلمون أن المستحيلات خمسة ، هو جل شأنه وحده عنده علم الساعة ، وموعد نزول الغيث ، وما فى الأرحام ، وما ستكسب الأنفس غدا ، وبأى أرض ستموت . لكننى ضيعت

ما كشف لي بغفاتي ، ولكم فقدت ، غير أن هذا الفقد نفيس ، غال .
حننت إلى شفيعى ومولاي الحسين ، فكان حالى كما قيل ..
أدبتنى بانصراف قلبك عنى فانظر إلى فقد احسنت تأديبى ..
غير أنه عنى فى بعد بعيد ، وعند هذا الحد من ذلك المقام أدركت بدون
حاجة إلى تنبيه أو اشارة أن المقام قد أوشك ، وأن الأوان قد دنا ، فأخذت
الأهبة لاستكمال القصد ، وسبحانه من إذا أجمل أكمل ، وإذا شفى كفى ،
وإذا وفقى أوفى .

* * *

مقام القَرْي

، ثالث للقائات ، آخر حد القلة
، وأول حد الكثرة ،

نظرت فرأيت بابا مفتوحا ، يتوسط سورا ممتلئا صبيح من ظلال
فجرية ، حيث تتداخل الألوان منيعة بنهَاب ليل وشروق شمس ، كلُّ
بصرى عن رؤية آخره ، ولكم بدوت في مواجهة لانهائية ضئيلا ، في حاجة
إلى من بيده الملك كله ، الباب بلا حاجب أو بواب ، بدون مغلاق أو
رتاج ، اقتربت منه ، وتوقفت أمامه ، حتى خفت عنى غشاوة نظرتى لشدة
صفاء الضوء ورقته وحلاوته ، لما أنست وكشفت ، رأيت خوخة مغلقة ،
فتمنيت أن اقرعها ، لكن أتى لى ذلك وأنا بلا يدين ، بلا ساعدين ، بلا
أطراف تشير أو تشرع ، بلا حول ، بلا شفيعى سيد قوادى حسنى الوحيد ،
الشفوق على فى مسلكى وغربى ، وشتانى وهجاجى ، حتى وان قسا على ،
حتى وإن نهزى ، حتى وإن عاقبنى ، فشلتى لصلاحى ، واستقامة ما اعوج
منى ، وإتمام افاقتى ، واستدراك أمرى ، شرعت لأقرع الخوخة بيجيتى ، غير
أن صوتا خاطينى لم أدر كنهه ، «لا تفعل ، حتى لو ملكت يمينك وشمالك ،
لن يقرعها إلا من وقى ، وأنت لم توف بعد ، فهى مغلقة فى وجه كل
ناقص ... قلت محاورا ومجادلا ، لقد كان الإنسان أكثر شىء جدلا . «لكننى» .
أسلك الطريق ...» .

قيل لى ..

– « ذلك لا يعنى الكمال ، والوصول لا يعنى الغمام . »

إذن قبونى شامع ، وبيانى واسع ، غير أن عزيمتى لم تقتر ، ازدادت قربا ، فانقطع الأمل عن بلوغ المراد هلاك محقق ، بدأت سعيى حول السور لعلى أنفذ ، لعلى التخطى ، دقت البصر المخلود فى لبناته لعلى الملح فجوة فيما بينها ، لبنات الضوء هذه ، لكم تبلو مترابطة متصلة ، بعد مدى لم أدر مقداره لحت موضع لبنة ناقصة فدنوت حتى ملأت فراغها ، ولم أزجر ، فراغ على قدر رأسمى ، أصبحت كينوتى غسقية ، أصبحت جزءا من هذا السور ، وكنت أشعر باللينة المجاورة لى ، والتي فوقى ، وتحتى ، تطلعت ، إلى ما وراء السور ، تلك أيام نائية ، اتسع مدى الرؤية ، صرت قادرا على رؤية شيتين فى وقت واحد ، والتميز بين متباعدين بنفس النظر ، أرى ما لا يتسع لاستيعابه ثقب ابرة ، واميز تفاصيله ، وأرى اليباب الشامع ، والمساحات والنواصى والسماء كما تبلو من السهول الفسيحة ، وكما تلوح من الأزقة المتعرجة المتداخلة ، وكما تبلو من خلال غمام الأعلى الطافى .

رأيت أمى ، تمشى فوق الجسر ، ملتحفة بالشقة السوداء ، خافقة النبض ، رمادية الحواطر ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، هى التى طال انتظارها لهذه اللحظة ، يجوارها خالى ، وجلتى ، وأبى ، والشيخ عبد اللطيف الذى سعى فى زواجها من أبى ، وجمع من الأقارب ، منهم محمد أحمد على ، شقيق امرأة خالى ، طويل ، مهيب ، دائم الفكر والنظر إلى بعيد ، وقد رأى خروج أبى من الدنيا ، ودعه وخاطبه ، ولكن لا يتسع المجال لذكر ذلك فى هذا المقام ، فصبرا جميلا ، ها هى نى أمى فى زمن لم تلدنى فيه ولم تحمل بى بعد ، تقف فوق الجسر ، تجاهد النفس أن تبلو فرحة حتى لا يمزق قلب أمها ، يصعب عليها فراق البيت الذى عرفته وعاشته حتى وإن كانت ماضية

إلى بيتها ، إلى مصر التي يحكون عليها ويضربون بها المثل ، إنها وجلة ، تسأل نفسها ، ماذا كتب لي فيك يا مصر؟ ، بنفس نظري وعين بصرى أرى يوما من أيامي أنا ، أرى نفسى فأفرح ، وارتاح ، يوم أن سعين إلى وسط المدينة وعدت بعربة نقل قديمة ، صغيرة ، يقودها سائق عجوز ، لأنقل كتيبي وحاجاتي إلى بيتي الجديد ، ادركت ثقل اللحظة على أمي فحاولت مداراتها وتخفيفها بالحركة ، وشارك أمي معي في ترتيب الصناديق ، والأوراق ، وتناولت كراسات وبضعة كتب رجوتها أن تحتفظ بها عندها وألا تطلع عليهم أحدا ، مشيرا ولملحا إلى دقة وشدة خصوصية ما بيننا ، وأنها الموضع الأمين حتى وإن توالى الأحوال وتغيرت ، وتنقلت أمي بين الكتب ، تبدى المساعدة ، وتشير إلى ما نسبت أن أضعه ، فأقول لها ، ولا .. سابقى هذا هنا ، ، تتعاون معا في حمل ثقل اللحظة ، يساعد كل منا الآخر في انقضائها ، تبدى السرور وتطلب من ربي الكريم السر والتوفيق لي ، تبسم وتخاطبني باسمي في مفتتح كل نداء ، عندما أتمت نقل الكتب وقبل صعودي إلى مقصورة القيادة تطلعت إلى الشرفة الحجرية العريضة ، تطل أمي ، رأيتني بعينها ، ترقبني ، تتابع اهتزازات السيارة القديمة حتى يتم تحركها وتقدمها ثم اختفاؤها عند نهاية الطريق ، تبقى واقفة ، تتطلع إلى الجهة التي مضيت إليها ، ترجع إلى الصلاة ، تنظر داخل غرفتي ، الدواليب التي أصبحت فارغة ، بقايا أوراق متناثرة هنا وهناك ، سريري الذي خلا ولن أقضى فوقه إلا ليلة واحدة ، لم تخل الغرفة من الكتب ، انما من عمر بأكمله ، قطعة منها ، تغالب دمعها ، حتى لا تذرف وعرسى وشيك ، هذا شؤم ، تضم شفيتها ، تصرهما ، حاول جمال أن يخفف عنى ، جمال ابن حلال ، وعروسه طيبة تودنى ، تطرق ، تباعد البصر عن الحجرة التي اتسمت فجأة ، ما ولى لن يرجع قط ، وما كان كان ، والقادم غير الراحل ، هذه حقيقة .

هنا أرى جدتي تقف فوق الجسر ، في نفس الوقت الذي أرقب فيه أمي تجلس مطرقة صامتة في صالة البيت ، فوق المقعد الذي اعتادت الجلوس فوقه ، في مواجهة التلفزيون ، تلف رأسها بطرحة بيضاء من قماش خفيف ، جدتي النحيلة التي قدت من صبر وجلد لا تغيب البسمة عن شفيتها ، حتى لا تذكرها ابتها دامعة ، ويا عالم .. متى يلتقي الحى بالحي ، فصر بعيدة ، والسفر طويل ، وحتى لا يكشفها صمتها ، تميل إلى أمي ، تذكرها بضرورة تسخين الحمام المذبوح والأوزة بمجرد وصولها ، وأن تفرد الأرغفة حتى لا تعطن ، وأن تفتح صفيحة السمن على مهل ، إنها ممتلئة ، وتذكرها بالبلع والملوخية الناشفة في الكيس القماشى ، ثم تحذرنا من أولاد الحرام في مصر الذي يحفظون الكحل من العين ، يجب ألا ترتدى الكردان الذهبي إلا عند زيارة عزيز أو قريب حميم ، أما الغوايش فلا تترعها عن معصمها أبدا ، وألا تظهرها أثناء مشيا في الطريق ، أمي تهر رأسها ، أرى كل ما وقعت عليه عيني أمي منذ ركوبها «الحلزونة» ، ويجيء القطار ، وترددها الحذر عند خطوها داخل العربة ، ورنين جرس محطة طهطا ثلاث مرات ، وزفرات القاطرة السوداء البخارية وضجيجها ثم حركتها بداية في بطء ثم تزايدها وتراجع وجوه الأحاب ، وخجلها كذا ارتباك أبي عند انفرادهما وحتى نزولها ميدان محطة مصر ، نفس الميدان الذي نزل فيه أبي من عربة نقل الموتى ، لكن شتان ما بين وصول ووصول ، صحيح أن الوصول واحد لكنه يحوى الوحدة والتعدد فتأمل ذلك !

في هذا الميدان انتظرت أبي وكنت له الدليل والمدرج قبل مجيئي إلى الدنيا ، لكنني الآن انظر إليه وأنا مجرد لبنة في سور لا أدرى أوله من آخره ، سمعت ما يتبادلانه من حديث طوال الطريق ، في جملة ومعناه وتفصيله ومفرداته ، وقد كان أبي حنوناً على أمي ، عطوفاً ، مراعيًا بدء غربتها عن

أهلها ، فتمت صاحب هو والأمين على من رافق ، أحيانا لا يدري ما يجب قوله في لحظات الصمت التي تمتد بينهما ، تحدث عن البلاد التي يمر بها القطار ، وفصل عند دير مواس حيث بلدة الرجل الذي انقذه من هلاك ميين ، الباشجاويش أحمد حسين ، تسمع أمى به أول مرة ، وفيما تلا ذلك من عمر سمعت عنه مرارا ، وتحدثت عنه أيضا ، وعن امرأته ، ولم ترهما أبدا ، ولم تلتق بهما قط ، فالرجل لم يأت إلى مصر ، وأبى لم يصحبها معه في زيارته المتباعدة المتفرقة ، تصغى أمى إلى أسماء بلاد لم تسمع بها ، أسويط ملوى ، الفشن ، بيا ، العياط ، البدرشين ، الجيزة .. أخيرا مصر ، إذن .. هذه هي مصر ، مصر التي تضم آل البيت الكرام ، ستروهم كلهم ، أوصتها أمها أن تقرأ الفاتحة ثلاث مرات عند ضريح سيد الشهداء ، الحسين ، مرة حتى يوفقها مع رجلها ويرزقها الله بالذرية الصالحة ، ومرة لأمها - جلدق - حتى يهون عليها ما تلقاه ، ومرة لأبيها الغائب حتى يستره الله في غربته التي طالمت ، وأن يعيده سالما ، ستضرع إلى السيدة الطاهرة ، رئيسة الديوان ليحزن قلب رجلها عليها ، ولتقويها حتى ترضيه . يتوقف القطار ، أشد ما أقلقها نزولها إلى الرصيف ، هذه الفجوة برغم ضآلتها وضيقها بين سلم العربة ورصيف المحطة تريبكها وترجفها ، على مهل تقرب ، تنزل ملامسة الأرض بقدمها اليمنى ، تماما كما ستدخل بيتها بقدمها اليمنى ، يقرب جمال ، يشير إلى القفتين غير أن أبي يهز رأسه ، سيحملها هو ، تتطلع إلى الزحام حذرة وجلية ، دهشة ، حتى أنتى أشفقت ورققت لها فتمنيت لو مدت العون ولو بظهري تأنيسا لها ، لكن أتى لى ذلك وأنا بعيد ، منفصل ، وهى لم تتجبنى بعد ، تخشى أن يتوه عنها أبى ، أو تتوه عنه ، هذه المركبات خارج المحطة وتدافع الحلق ، كلهم اغراب ، كان فى وداعها جمع هو أهل ، لكن

لا أجد في انتظارهما ، تمنى ملاحظهما بشد طرحتها ، يطلب منها أبى أن تنتظر حتى يأتي بعربة أجرة ، تقف وحيدة ، ترقبه ، تمنى ألا يغيب عن بصرها ونظرها ، إلى يمينها قفة الملابس وفي طياتها علبه الحلوى ، وإلى يسارها قفة الخبز والأوزة وصفيحة السمن ، وهذا أول انتظار وأول وحدة ، كنت أراها من جهات مختلفة ، عن قرب فأتملى من ملاحظها . وعن بعد فلا ألمح إلا شابة صعيدية تقف وحيدة بجوار اغراضها ، ومن علو فلا أرى إلا ثيابها السوداء ، نقطة في نهر المارين والمتظرين والساعين الراكبين والمترجلين ، تلك من ستكون أمى ، يخفق قلبها إذ تتوقف أمامها عربة الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض ، لكن روعها يبدأ ، ونبضها يتمهل عندما ترى أبى بجوار السائق المعجوز الذى تطلع إليها ، وطلب من أبى أن يسرع فالوقوف هنا ممنوع ، يتناول أبى القفتين ليضعهما فوق العربة ، يقول السائق إنه ليس لديه حبل ولكن الشبكة الحديدية ستحفظها من السقوط ، ثم يتبع قوله بتروله ، يلامس أرض الطريق بقدم واحدة والأخرى داخل العربة يلتقي نظرة ويومئ لأبى ، تتوالى الأضواء الخافتة المنبعثة من المصابيح المظلمة بالأزرق ، فالدنيا في حرب ، والأخطار محدقة ، كان أبى يلفت نظرها إلى ما يمران به ، هذا كوبرى قصر النيل ، وهذا كوبرى بدبعة ، في هذه الناحية وزارة الزراعة حيث أعمل ، سررت أنا في مقامى هذا ، ارتحت وأنا مجرد لينة مضغوطة في السور المحيط بهذا المقام ، ذلك أن أمى ابتهجت وانست للحظات ، فتلك دنيا غير الدنيا التى تعرف ، كما أنها اطمانت ، فأحمد - أبى - يبدو واثقا ، قادرا على التصرف ، لا يهاب أولاد مصر ، « وهذه جنينة الحيوانات » .

تنظر إلى البيوت المرتفعة ، والشارع العريض ، تبدل مشاعرها فيقع في قلبها خواء مفاجئ وحزن ، منذ لحظات ارتفع آذان العشاء ، أين أمها الآن ؟ إنها تسمى بصحبة نساء البيوت المطللة على الرحبة إلى الحماة - أو

الخلاء - القريب من ساقية بيت باشا ، أثناء صلاة العشاء واجتماع الرجال في المسجد ، يخرجون ، كل منهن تحمل وعاء الماء الساخن ، البيوت لا تحتوى على دورات مياه ، عدا بيت الشيخ صالح العمدة والمبنى من الحجر ، وبيت الشيخ محمود أحمد المدرس بالمعهد الدينى فى بندر سوهاج ، فى هذا الوقت لا يسعى رجل إلى الخلاء وإلا عد ذلك جرماً يستحق العقاب والجرسة ، أمها فى الخلاء الآن ، بالأمس كانت تصحبها ، الليلة الماضية ، تلك التى لا تفصلها عنها ليلة أخرى ، أما الآن فإنها بعيدة ، نائية ، سترجع وحيدة ، ستقضى ليلتها فى ناحية وهى فى ناحية ما بينها بلاد وعباد وخلق ، اعتادت النوم إلى جوارها ، فى متناول أنفاسها ، ورائحتها ، شعرها وثيابها ، وقلقتها الليلية أحياناً ، إذ تقعد فترات طويلة ، مصغية ، ربما تلتقط أذناها صوتاً يشبه صوت زوجها الغائب ، أو علامة على طوافه حولهم أو اقترابه منهم ، يحل بها خواء وحزن رهيف وحنين قاس ، وقد عرفت مثل ما عرفته أمى فى لحظتها هذه ، عندما أرسل إلى صاحبي وأحد أدلتى فى الطريق محمد عودة يطلب منى اصطحابه إلى مدينة الإسكندرية ، ترددت ، بل احجمت ، بسبب ضيق ذات يدى وقتئذ ، لكنه قال إن الرحلة لن تكلفنا كثيراً ، وأنها ليلة أو ليلتين ، ثم قال لى ، وعلى أية حال ، لا يهملك الأمر ، نزلنا فندقا مطلقاً على البحر ، وعندما تطلعت إلى الأفق الأزرق ، حزنت على الرغم من مواقيت البهجة التى تنتظرنى ، ذلك أنى تذكرت أمى ، وسعى أبى ، ونأى أشقائى ، رددت ، أمى لم تر هذا البحر أبداً ، لم تطل عليه ، ولم تتنسم هواءه ، ليس ما شعرت به وقتئذ إلا ترديداً لما مر بأبى عند وقوفها أمام هذه العمارة ، فكان وحشة أمى هى الأصل وكل ما مررت به فى لحظات متعاقبة هو الفروع والأطراف ، يبدو أبى وكأنه ينحني شيئاً ، لم يطل الوقت ، يقول لها إن الحجرة

التي سيعيشان فيها لابد من انتظار أسبوع أو أسبعين حتى تخلو من سكانها الحاليين ، يتوقف فجأة ، يسألها ، هل سمعت عن الشيخ قيصي ؟ ، توميء أمي ، غير أنها تتلقى تساؤلا وحيرة ، « يعني احنا مش رايجين البيت » ، يقول أبي إن الرجل دعاهما وأقسم يمينا بالثلاثة ألا يتزلا عند شخص غيره ، ثم إن امرأته طيبة وتعرف بنات باشا كلهن ، تطرق أمي حائرة ، يشق عليّ حالها ، لكنها مستسلمة ، ليس يدها من الأمر شيء ، ثم إن وقوفها في الطريق ضابقتها ، فلحم تبدو الطرقات واسعة ، مؤدية إلى الجهول ، وعممة الحرب ، والعربات كأنها ستفلق فجأة وتتدفق تجاهها ، تطلع السلم ، يتقدمها أبي حاملا القفتين ، « ما المقدر لي فيك يا مصر ؟ » ، « ماذا يتظن فيك يا مصر ؟ » ، يبدى الشيخ قيصي ترحيبا ، ونحيباً امرأته لتجلس بجوار أمي ، وتطل فتاة صغيرة من الباب ، تنظر ثم تولى ضاحكة ، ويحيى صبي صغير ، يسلم وينصرف ، يتهل أمي خجل كئيف ، لا تدرى ما يجب قوله ، ولا ترد إلا بحمد الله . أو تأكيد أن الكل في البلد بخير ، وإذ تلحظ نظرات امرأة الشيخ قيصي الطويلة الفاحصة ترقق ، وتطرق ، ويدق قلبها وتمنى لو أنها لم تنجئ إلى مصر ، على مهل تنسحب إلى داخلها ، تللم تعبيراتها وإيماءاتها وكل ما يمكن أن يفصح ويبدى ما في سريرتها ، يقول الشيخ قيصي لامراته ، قومي اعلمي لنا العشاء لنأكل لقمة ، يبدو أبي مبتهجا طلقا ، يتحدث عن أخبار البلدة ، وعن الحرب ، والألمان ، ثم يقول إن الناس في جهينة بعيدون عن كل ما يجري ، تعود الابنة الصغرى ، تحتلس النظر إلى أمي ، تشير إليها ، ترفع الطفلة كتفها الصغرى رافضة ثم تحتنى ضاحكة ، تجلس أمي إلى جوار أبي ، لم تعند القعاد فوق كرسي أثناء تناول الطعام ، لم تأكل أبدا في جمع غريب ، حتى أبي لا يزال غريبا عنها ، وإن بدأت ألفتها

له ، فين هؤلاء هو الأقرب ، تمسك الرغيف ، اعرف هذه المسكة ، هذه النظرة ، هذه الاطراقة ، أعرفها ، فقد رأيتها مرارا عند مجيء أمى إلى بيتى بعد زواجى ، تطلعها من يحيط بها ، وهذا الهدوء الصافى ، الراقى فى عينها ، تلك لحظة ميلاد أو بدء هذا الوضع . تكرر امرأة الشيخ قبيضى رجاءها لأمى أن تقبل على الطعام بنفس مفتوحة ، تؤكد أمى أنها تأكل ، الحق أن امرأة الرجل تبدو رقيقة ، حريصة على بث الألفة حتى أنى امتنت لها فى أسرى وموضى هذا ، تتقدمها لترى الحجره ، تؤكد فى كل خطوة «البيت بيتك» ، فوق الأرض مرتبة مغطاة بملاءه بيضاء ، وسادة عريضة ، لحاف واحد ، وبطانية واحدة ، تربت ظهر أمى «خذى راحتك» ، تصنى أمى إلى صوت أبى ، لم يعرف أبى الهمس أبدا ، وقد أخذت هذا عنه ، حتى أنى كنت أعجب فى نشأتى الدنيوية إذ أرى بعض صحبى يتحدثون فى الهاتف وهم بجوارى فلا أرى إلا حركة شفاههم ، لم أتقن هذا قط . تتطلع ناحية الباب ، كيف تغير ثيابها . البيت غريب ، استصطجع بجوار أحمد هنا ، على مقربة من هذا الرجل الطيب وامرأته ؟ غير أن ما ألمها وضايقتها رغبتها فك حصرها ، منذ الصباح ، منذ خروجها من البيت ، بيت أمها وأبيها - رد الله غرته إن كان حيا يرزق - منذ فراقها جهينة لم تذهب إلى دورة مياه ، متى وكيف ؟ فى القطار لا يمكن ، وهنا لا تعرف الطريق إلى بيت الراحة ، أثناء وقوفها أمام الحوض تغسل يديها وفمها والمرأة الطيبة بجوارها خطر لها أن تسألها لكنها لم تتطقت ، فما البال الآن ؟ والباب مغلق عليها ، هل تفتحه ، ثم تعبر الصالة وقد تضل سكتها إلى حجرة لا يرغبون دجولها إليها ، ولو طلبت من المرأة أن تلتها فرما تسبب ازعاجا ، ان التحلل والألم الضاغظ يثقلانها ، وهى لا تدري ما يجب أن تفعله ، إلا أن تجلس بجوار الجدار ، فى ملابسها ذاتها ،

تصغى إلى الليل ، والوجع الكامن ، وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت ،
فتمنيت أنا الفرار مدبراً لشدة وقع هذا على ، وقلة حيلتي ، فما أنا إلا لبنة في
سور ضارب حولها ، محلق بها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

ماكدت أحول البصر للحظة من زمني حتى وقعت عيناى على أمى فى
نشأتى الثانية ، فى الوقت عينه لم تغب عنى أمى أنا لأنى أرى شيئين فى
مكانين متباعدين ، وقد أخبرت بهذا ، لما رأيت أمى هذه ذكرت لور ، أى
تذكرت نفسى ، لكننى أحن إليها حنين العاشق ، واستعيدها بألم المهجور ،
فما أنا إلا منقلب من طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى
احتراق ، فمن لى بشمة من الإشتياق ، ونسمة من الحبة التى ولت ، قوى
على هذا الحنين الغريب المر ، لور ليست بمتناولى ، بعدت مع من ابتعدوا ،
راحت مع من راحوا ، مع أنها ما هى إلاى ، فإذا لم تكن معى فمن أنا ؟ من
يحسن إلى ؟ من ينظر إلى برقة ؟ من يرحمنى ؟ من يمن على ؟ من ينثر الدواء
الشافي على جراحاتى ؟ من يهتم بشأتى وبمن أسلو ؟

تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجت عليه العنكبوت

بتعازم عسرى ، ويصعب يسرى ، وأنا موقن ، أن مع العسريسرا ، أن
مع العسريسرا ، فلعل نهراً قريباً يعقب ليلى ، تلك أمى فى نشأتى الثانية ،
حجرتها فسيحة ، مضبئة ، منضدة بيضاوية فوقها أوراق لم أدر فحواها ،
وصحف ، وقواميس ، وكتب دعاية سياحية لا ترتدى نظارتها الطيبة ، رأيت
أثر الاطار على جانبي أنفها ، جلدها فى هذا الموضع افتح ، إنها فى السادسة
والأربعين ، هى فى عملها المسائى الذى تذهب إليه من الخامسة إلى العاشرة
ليلا ، أرى تعبها كتمبى إذ يخلق بي الحنين ويغزوني ، وعندى جهل أتم بما
اشتاق إليه ، وهذا حال غلب على فى نشأتى الثانية ، ورمى ظله على فى نشأتى

الأصلية ؛ لكنه في أصلى لازمنى ، وصحبنى وطنى ، وقوى أثر رحيل أبى ، وبعد انقضاء سنوات على ذهاب جمال عبد الناصر ، وإيغالى فى حب مولاي الحسين ، كنا مع تضعف الآمال ، وضيق الأوضاع ، وزندة أنفاسى ، وادراك استحالة تحقق الأمنيات ، وتقلعى فى العمر خيبا ، هذه أسمى الثانية تستدعى إلى ذهنها المكلود هدوء أيام الآحاد ، أهل هذه البلاد لهم يوما عطلة ، السبت والأحد ، مساء السبت تغص المطاعم ، من الصعب العثور على منضدة خالية ، صباح الأحد يصحون مبكرين ، يخرجون إلى الهواء ، إلى الحلاء ، إلى الغابات المحيطة بالمدينة ، أما هى فتنتظر هذا اليوم لتنام ، والحق أنها لا تتأخر فى النوم ، بل تصحو فى الميعاد اليومى ذاته ، وأقصى ما تتاله من راحة ان تبقى راقدة مغمضة عينها ، ليست مضطرة إلى الاستيقاظ بسرعة ، وارتداء ملابسها مهولة ، ثم الوقوف على رصيف المترو. ما بين استيقاظها اليومى وركوبها القطار عشرون دقيقة ، لا ترى الشوارع واللافتات والمارة فوق الأرصفة والأشجار إلا من نافذة المترو فى المواضع التى يخرج فيها من النفق الأرضى ، أو من نافذة التاكسى الذى تضطر إلى ركوبه إذا ما تأخرت ثلاث أو أربع دقائق، تصغى إلى القادمين من مصر، يقولون لها إن حياتها فى هذه المدينة لا بد وأن تكون رائعة ، ممتعة ، ترى الحسد فى عيونهم ، ولم يكن يدور بخلدهم أنها هى التى تحسدكم ، بعضهم يجيء لأيام قليلة ، لكنه يرى من المدينة أكثر مما رأت ، ويعرف عنها أكثر مما تعرف ، كما أنهم سيتجهون إلى المطار ، يحطون مرة أخرى فى مصر ، بلا قلق ، بلا خوف من محاسبة ، أو احتجاز قد يطول أو يقصر ، تبدو لها أيامها فى مصر حلما على قدر ما تخللها من ضنك وضيق ذات يد ، وليت الأمر توقفت شدته عند الغربة ، والخوف من مرض مفاجئ ، والحشية على الابن

الوحيد من التيه في هذه الأصقاع ، أحوال أبي تتردى ، ولا يزداد عنها إلا بعدا ، يعيش على قديمه ، فما من جديد له ، والشعر عنه بمنأى ، لا يطاوعه ولا يواتيه ، لا يتردد في قبول السفر عند تلقيه دعوة إلى ندوة أو مهرجان ، علما مصر التي يخشى نزوله بها ويتمناه ، عندما سافر إلى اليمن عبر فضاءها في الذهاب والاياب ، لكم حدثها عن حسرتة ، إذ يخلق في فضاءها ولا يقدر على ملامسة أرضها ، وعن خوفه أن تضطر الطائرة إلى الهبوط ، عندئذ يتعرض للمساءلة ، ألم تهاجم الحلف الجافي ؟ ألم توقع بيانا في يوم كنا ، سيثأرون منه لأنه رفض العمل معهم ، لأن ضغطهم عليه كان الدافع لرحيله وتشرده ، واختياره المنى ، ودت لو أن اسفاره خفت عنه ، لو اعادت السكينة إلى هجاجة الروحي

في آخر رحلة وكانت إلى دمشق عاد مكتئبا ، رماديا ، لما ألحت عليه أبي الافصاح ، وازداد اغتالا في نفسه ، تذكر أيام سجنه في زمن عبد الناصر ، وبعده القسرى الجسدى عنها ، ايصدقها انسان لو قالت إن ما عاتته وقتئذ يهون إذا ما قيس بما يمر بها الآن ؟ .

نعم .. أصدقها أنا ، وأفهمها ، وأدرك سر حنينها إلى ذلك الجزء من الدهر ، إذ عرفت ما عرفه زوجها الذي هو أبى في نشأتي الأخرى ، ولهذا حديث ذو معنى أقصر عنه الآن فله موضعه ؛ أرى أمى أنا قابعة في حيز ضيق من غرفة معتمة ، أحقق وأدقق ، لم أدركم انقضى منذ مجيئها إلى مصر؟ لكنها في بيت آخر ، ضيقة على امرأة تسمى نادية ، لم أدر نادية من ، وأى قرابة تربطها بأبى أو أبى ؟، وان علمت أن البيت في منطقة روض الفرج شمال قاهرته ، وأن مجيئها إلى هنا لم يمض عليه سوى أيام معدودات ، وجهها يبتئني بتعب وضنى وحريرة ، لم أدر كم مضى عليها في صمتها هذا؟ .

لكننى عرفت أنها ملأى بالحنين إلى البلدة ، إلى البيت المكشوف فناؤه ،
الذى لا يحجبه عن شمس النهار سقف ، إلى خبيز الظهيرة ، وسخونة
الأرغفة ، إلى رائحة الوقود إذ تلتهمه النيران ، إلى رائحة الفخار ، والماء بعد
أن يفرغه السقاء فى الزير ، إلى صومعة القمح ، وفتحها السفلى المغطاة بقرص
دائرى ، يزاح جانباً فتندفق منه حبات القمح أو الذرة أو الشعير ، تغمرها
فتملأ يديها مبتهجة ، إلى حربتها فى الحركة ، صعود السلم إلى السطح حيث
عيدان الحطب وأقراص الجلة وأوعية الفخار المليئة بثمار الدوم الجاف ،
والبطح ، إلى اجتيازها الحاجز العلوى إلى بيت الجد أحمد اسماعيل المجاور من
الشرق ، أو بيت الجلدة نجمة إلى الغرب ، إلى تنقلها من بيت إلى بيت عبر
السطح نهراً حتى لا تخرج إلى الطريق ويحرجها بالنظر غريب عنها ، إلى
جميى أمها من السوق ، إلى عودة محمد شقيقها بين يديه مندبل اللحم ،
ومندبل آخره الطاطم والخضار ، إنه يسمى إلى الأسواق ، سوق الاثنين بتره
وسوق الخميس بالطليحات ، أما سوق السبت فأقرب الأسواق لأنه يقام هنا
فى جهينة ، إذا تيسر أمره وانفرج حاله يعود ومعه قمع من السكر الأحمر ، أو
مندبل ، يقدم إليها هدايا ، وعلى وجهه تجهم جبل عليه ، غير أنه بعد شربه
الشاي ، وتناوله فص الأفيون ، ودسه تحت لسانه ، وبدأ استحلابه على
مهل ، تلين ملامحه ، ويرتاح حاجباه ، وقد تبدو منه ابتسامة ، ويبدو كأنه
على وشك قول ما ، لكن يستمر صمته ، هاهى تغمض عينها ، لا تبرح
مكانها مع أنها بمفردها فى البيت ، إذا رجعت الست نادية ورأتها فى الصلاة
أثناء عودتها من دورة المياه ، أو فى طريقها إليها ربما ظنت أنها كانت داخل
احدى الغرف ، أو أكلت فى المطبخ . لا تدرى متى سترجع الست نادية ،
من هى الست نادية ياربى ؟ لم يرد ذكرها أمامى ، ولم تحك لى أمى عنها ،

لكن هل سألتها أنا؟ هل استفسرت منها؟ اعلموها يا أحبابي الفطنين بمعنى الحروف وجوهر المعاني أن كثيراً من الأمور البسيطة ، التي تبدو للإنسان عادية ، لن تشغل حيزاً ولن تقتضى جهداً ، لا تتحقق ، ذلك أن الإنسان جيل على تأجيل ما يمكنه تحقيقه ويكون على مرأى من بصره وفي متناول يده ، بينما يتشاغل عنه بما ليس في متناوله ، انظروا إلى حالي مع أبي ، إذ كان بإمكانى مد اليد إلى واحد من أجهزة التسجيل التي بجوزتى ، وأن أحدهه ويحدثنى ، وهكذا أبقي صوته بجوزتى فلا يضيع منى ، صدقونى إذا قلت لكم إننى شرعت فى هذا عندما جاءنى مرة زائراً ، يوم أربعاء ، ومعه نصف كيلة فول اشتراها لى من أقاربنا تجار الغلال وحملها هدية إلى بيتى ، خطر لى وهو جالس أمامى أن أقوم وأن أحضر الجهاز وأن أسأله عما كنت أود أن أعرف ، عمره البعيد فى جهينة ، وبجيبته إلى مصر ، عن الأيام الصعاب ، وأقدمت ، فعلا ، قمت إلى حيث يوجد الجهاز ، غير أننى عدلت عن شروعى ، كنت مثقل الجفنين ، ينقصنى نوم الظهر ، الذى اعتدت عليه ، ولو بدأت فسوف يستغرق ذلك وقتاً ، عدت إليه متثابراً ، كأننى أوحى إليه برغبى فى النوم ليعجل بانصرافه ، كأننى ... أليس هذا ما كتته فعلا؟ يومها قلت له إننى أنوى تسجيل ساعة أو أكثر معه عن حياته ، قلت سأبدأ معك بعد عودتى من سفرى ، قال لى : والله يا بنى أنا طول عمرى شقى ، ولم أنتبه ، بل تقاعست ، وتكاسلت ، حتى ولت الفرصة إلى الأزل ، إلى الأبد ، لكننى اعاهدكم وأشهدكم على عزمى وتحقيق نيتى ، أن اتدارك أمرى وأن أشرع فى ذلك لتوى مع أمى بمجرد رد قلبى إلى ، وتجمع اعضاءى ، وعودتى إلى عالمى الدنيوى ، آه .. ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى . هاهى ذى أمى أنا تود فى وحدتها لو بقيت فى بيت الشيخ قيصى ، الحق أن امرأته حنون ، ولولا حياة

أمى لما شعرت بالغرابة قط ، كانت المرأة تقعد معها وتسألها عن أحوال جهينة وأهلها ، وتوصى أمى بزيارة آل البيت ، ثم تسأل مداعبة ، نفسك فى ولد أو بنت ؟ ، فتطرق أمى وتهمس قائلة كل ما يجيء به ربنا مقبول ، له الحمد وله الشكر ، لبيتها بقيت هناك فى الجزيرة ، لكنها خافت أن تثقل على الأسرة ، فسألت أبى عما تم فى الغرفة التى بنوى استئجارها ، قال إنه لم يبق إلا أسبوع أو أسبوعان ، دمت عيناها ، ولم أدر من موضعى هذا السبب المباشر الذى طفر بالدمع ، غير أن أبى تساءل مترعجا ، هل ضايقها أحد ، هل عبس فى وجهها أحد ؟ هل اسمعتها امرأة الشيخ كلاما لا يصح التفرقه به ، بدا عليها جد أعلمه فقد خبرته مرارا ، قالت ، لا .. أبدا ، السيدة قلبها على ، يقصها أن تضع لى الأكل بيدها فى فمى ، فى يوم نال ، يقول أبى انهم سيتقلون إلى قريب له ، لن تطول اقامتهم عنده ثلاثة أو أربعة أيام حتى يوقع عقد الإيجار ، تبدو أمى مستلما ، ليس لها من الأمر شيء ، أراهما فى الطريق ، أبى يحمل قفة الملابس ، أمى تتأخر عنه خطوة ، يتعلق بصرها به ، تخاف أن يغب أو يتوه عنها فتضيع فى هذا الخضم وما لها من قوة ولا ناصر .

أرى أمى فى نشأتى الأخرى ، تمخّلس وقتنا من وقت ، تفكر فى شخص بعيد عنها بالزمان وفى المكان ، تحمل فى حقيبتها خطاباته القديمة إليها والتى اصطحبتها معها من مصر ، وأودعتها مكانا أميننا حتى استخرجتها فى الأيام الأخيرة ، تتوقف عند السطور التى بهت لون مدادها ، أمثل هذا خطه حبيب إليها يوما ؟ الحروف ، علامات انتهاء الجمل ، لكم تساءلت فى قديمها عما عناه بتلك الجملة ؟ أو هذه الفقرة ؟ تستعيد بعنوية وصفا ، أو كلمة ذات إيحاء خاصة بين السطور ، لكم قالت إنه الوحيد الذى التقط جوهرها ، وادرك كتبها ، لكم توقفت أثناء القراءة لتساءل ، أحقا أنا هكذا ؟ لكم

حدثت صمتها وحوارت سكونها ، تستعيد اندفاعاتها ، واسراعها الخطى وتدفق حيويتها ، وضيق الأماكن بها ، لو تعرف الآن مثل هذه النشوة ولو للحظات عابرة لدر نهداها حنينا ولهفة ، ولأرضعت وسقت وروت ، ماذا لو أن المصائر تبدلت ؟ يعني لم تكن لتنجيني ! لا . لا يمكنها تصور ذلك ، لو انجبت منه طفلا أكانت ستحبه كما تحبني ؟ تنبض بالذنب لمجرد سماحها لهذه الخاطرة أن تواتبها ، تمسك سماعة التليفون ، تدير القرص الفضي ، أرى صورة نشأتى الأخرى ، يهفو فؤادى ، أهذه بشارة بقرب رؤيتى لور ، أيقدر لى أنا اللبنة المضغوطة أن تستعيد ما كان ؟ ، لكن يبدو حالى غريبا ، فالعمر أكبر مما عهدت ورأيت فى مقام الاغتراب ، أجلس بمفردى فى غرفتى ، مرتديا كامل ملابسى ، قيصى ، وجاكتى وحذائى حتى قبعتى التى لا ارتديها إلا عند المطر ، أسند ظهرى إلى وسائد صغيرة ، احملق فى التليفزيون ، مباراة ، لم أدر اللعبة ، لم أدر أى الصور استدعى ، وأى الأفكار تشغلنى ؟ يرن الجرس ، لا أكلف نفسى عناء النظر إليه ، أو رفع الساعة ، يتواصل الجرس ، سيدرك اليأس الطالب فيكف ، وهذا ما كان ، تمر دقيقتان من الصمت المكتمل ، يعود الرنين لكنه لا يستمر طويلا ، بل انقطع تماما ، وكان انقطاعا يائسا لا ينبئ بمحاولة جديدة . أسمى فى نشأتى الأخرى على الطرف الآخر متضايقا ، تتق أننى فى البيت ، لكننى لا أجيب ، تردد «ربنا يستر» ، تخشى على الرغم من انقضاء شهور تظن أنها كافية لأنسى لور . لم يبدأ مقبتها لأبى إلا مع اصراره وثورته وهياجه على انتهاء العلاقة ، وقتئذ لم تفهم ، حتى شككت فى أمور لا يصح لها أن تفكر فيها ، حاولت وجادلت لكنه بدا عصيبا ، بل وصل الأمر أنه وضع بقاءه معهم فى كفة ، واستمرار علاقة ابنه بهذه البنت فى كفة ، لكم بدت أمى فرحة بهذه البنية صاحبة

الصوت الجميل التي تبدو دائما كمستغرقة في حلم شفيف ، إذ تأتي إلى البيت قبل أن يراها أبي وتقوم قيامته كانت تفتح لها أبواب السلوى ، وتقبلها ، وتسرع إليها بما لا تحكيه لمخلوق ، ثم تلملم حاجاتها وترتدى معطفها وتلوح بيدها منصرفه ، ثم تعود للحظة قبل بلوغها الباب لتذكر بموضع الشاي ، والطعام ، وتنصرف مهرولة ، راضية لأنني عندما أحيت أحيت فتاة عربية ، لم تغوئي واحدة من بنات هذا البلد ، وهذا عندها يعني أمراً ، لم تكن تدرى ولم أدر أنا أنني أعشق إلا صورتي ، ولم أغرم إلا بكينونتي ، ومع ادراكي واتضح كل شيء ضقت في موضعي هذا ، وشب بين جنبي فضول لأعرف ما أتاه أبي في حق وحققها ، وسر ثورته وغضبه وأزمته ؟ تذكرت أنني أطلعت على بعض من دخيلة لور ، إنها تعرف أبي ، لكن متى وكيف ، لم أعلم .

.. تقول أمي أنا لأبي إنها يجب أن تغادر بيت هذه السيدة ، يقول أبي إنه لم يتبق إلا يومان أو ثلاثة ، والست نادية .. تقاطعه أمي : يا أحمد أنا غير مستريحة هنا . لم يسألها أبي بل استمر صامتا ، حائرا ، وطال سكوت أمي ، لم تقل له إن هذه السيدة تسخر منها ، تنظر إليها طويلا أثناء الأكل ، ألم تسألها عما إذا كانوا يأكلون في أطباق أم في شيء آخر في جهينة ؟ وضحكت بلا سبب بعد أن أطالت النظر إليها ، ما لم تقله لأبي أبدا أنه بعد نومه وأثناء ارقها الليلي سمعت صوت خطى حذرة خفيفة تقترب من باب الغرفة المغلق عليها ، وأن شخصا ما توقف فترة ليسترق السمع ، لم تدر أمي المرأة ، أم زوجها ؟ ، كل ما تمناه باب بيت يغلق عليها ، ودورة مياه تخصها لا يشاركها فيها أحد ، يمكنها التردد عليها في أي وقت ، ألا تضطر إلى انتظار ذهاب مضيفها إلى النوم حتى تنام هي ، وفراغهم من الطعام حتى تقوم ، ومضغ الأكل على مرأى منهم ، يخلسون إليها النظر وكأن كل ما يبدر منها لافت عجيب ، لا تبدى ردود فعل

على ملاحظات ونظرات وغمزات الست نادية ، لكن لا تفوتها شاردة ،
اقتشرت عندما سألتها أول أمس ، لماذا لم تستجا منذ مجيئكما ؟ ، ثم افلتت
ضحكة عالية انتهت بشخرة قصيرة افلتت منها ، غزر عرق أمي حتى ابتلت
ملابسها الداخلية ، لم تفارق مكانها الذي تنام فيه حتى مجيء أبي ، بكت حيننا
وتزفت أشواقا بلا حصر إلى البلدة والبيت ، تمت لو ولت الوجه صوب جهينة
عائدة ، لكن ماذا سيقول الناس ؟ والبنات اللواتي سيسخرن منها ويهزأن بمن
ذهبت إلى مصر ولم تنفع هناك ، سيسمعنها الغمز المستر بالشفقة ، تفكر في
أبي ، تعبت عليه أنه جاء بها قبل استئجار الغرفة ، وتشفق عليه لأنها تشعر
بجبرته ، لم تنقل ضيقها إلا بعد مجيئها إلى هذا البيت ، وكرهها هذه السيدة ،
لكن ماذا تفعل .. إنها في كرب عظيم !.

هاهي ذى أمي في نشأى الأخرى، تتردد قبل أن تتصل بصاحب لها في
مصر ، إن فارق التوقيت يجعل المكالمة الآن غير مستحبة ، سيرن الجرس في
أحد بيوت القاهرة التي خلعت منها ، تعرف أن صاحبها يسهر لكن ربما تضيق
زوجته بذلك . أحيانا ترد عليها ، تبنى الحماس ، إنها تعرف المرأة وما يمكن
أن يخطر لها ، هي التي لم تعد تعباً ولا تهتم بتصرفات أبي ، وعلاقاته العديدة
العابرة في هذه البلدة ، أحيانا تباغتها الغيرة ويتحرك الأسي ، تمنى لو أن ما
بينها استمر كما كان قبل مجيئها هنا ، لو أن جسرها لم يين ، ومدرجها لم
يبيل ، ترقب محاولاته الساذجة إخفاء علاقاته وتأسو وتخزن ، إنها لا تريد
احراجها ، تعرف من صوته لهجته إذا كان بمفرده أو بصحبة امرأته ، من
انطلاقه أو تحفظه ، من إسهابه أو إيجازه ، ليس بينها وبينه خصوصية
ما يكون بين الرجل والمرأة ، تدرك أن العلاقات الإنسانية ذات ظلال عديدة
ودرجات لا تحصى ، تستعصى على أطرافها ، فكيف بالقصى عنها ؟ ، تمنى

أن تتحدث الآن إلى من تثق به ، تشعر بوحدتها ثقيلة الوطأة تلك الليلة ، هذه المدينة الكبيرة كلها لا يوجد بها من يصنعى إليها ، ولأن الإنسان جبل على الرفقة والصحبة والانس لذا كانت الوحدة أشد الأشياء به ضررا ، وأقسى أنواع الوحدة ما كان اكتماله بين جمع وحشد ، ومن اضرار افتقاد الصحبة والرفقة أن تدفع بالإنسان إلى القرب ممن هم غير أهل ، عندئذ يحيق الضرر ، أمى فى نشأتى الأخرى ، ليس من السهل عليها ثلاثة ، أن تمنح ثقتها إلا بعد عمر ، وعواطفها إلا هادرة متوهجة ، وجسدها إلا لمن تحب .

أرى أبى أنا يرتدى جلبابا ، يمشى فى حوار ضيقة متطلعا إلى واجهات البيوت ، يتوقف أمام دكان خياط ، أبيض الوجه ، طويل ، يرتدى طاقية صوفية ، ومنظارا طبيا وتلك منطقة تقع وراء الجامع الأزهر ، أرى أبى يمشى فى شارع عريض يتوسطه خط حديدى لقطار حلوان ، يقسم بصوت مرتفع أن المدة لن تتجاوز ليلتين وأن امرأة الشيخ يوسف محروس طيبة ، وأنها هى التى طلبت بلسانها استضافتها بعد أن علمت بضائقها ، تبدو أمى أنا مجهدة ، أقل وزنا ، وجهها أشحب ، تكتم ما بها ، لا تريد أن تثقل على الرجل الذى لم تر منه مكروها حتى الآن ، إلا هذا التلطم على البيوت ، ما كان يجب أن تجيء مصر قبل أن يكون له بيت ، لكن ماذا بوسعها أن تفعل ؟.

أمى فى نشأتى الأخرى تصنعى إلى زنين الجرس على الطرف المقابل ، تنتظر الإجابة ، دهشت مع أتى عرفت العجب العجاب ، أى شىء قادر على استئارة ودهشة من حزقناه ، من صرقله فى مندبل ، من تحول إلى لبنة فى سور ، ما جعلنى اتعجب رؤيتى لزميل أمى وصاحبها هذا ، إنه أنا ، أنا ذاتى ، لذا كانت دهشتى أوعرما مر بي فى مدينة فاس المغربية عندما قمت بنفسى من نفسى ملييا الإشارة ، لحظة أن رأيت جسدى يفارق جسدى ،

قبل بدء معراجي ، مودعا هذه الدنيا صورتي البشرية تسعى وتجاوز تصني وتقوم بكافة ما قدر لي أن أقوم به لو أن غيبي العظمى لم تبدأ ، فكنت ولم أكن ، ما حيرني أنني أرى صورتي البشرية لأول مرة تقوم بما لا أعرفه ، وتأتي مالم آت ، حياة أخرى بعيدة عني ، غريبة علي ، رأيتني أقوم من نفس غرفتي التي أعرفها ، واحفظ مواضع الكتب بها ، بإمكانني سماع حفيف ثوبي ، لكنه ثوب لا أعرف لونه ولا قماشه ، ثوب لم اشتريه أنا ، باستطاعتي رؤية منبت شعيرات لحيتي الحليقة تماما ، لم أعرف ما تفكر فيه صورتي البشرية تلك ، فكنت أجهل واعرف ، انظر ولا أرى ، أرى ولا أبصر ، فسبحان من بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

ارفع الساعة مسكتا الرنين المتصل علامة المكالمات الخارجية ، الذين يطلبونني من خارج الديار محدودون ، إما صاحبي هذه ، أو شقيقي اسماعيل المقيم في أمريكا ، وزميل صبا يقيم في الحجاز ، وقله من صحبي أعرف أنهم لا يطلبونني في وقت متأخر هكذا ، وهنا حرت ، وبدأ يداخطني خوف غامض ، لا أعرف شيئا عن سفر شقيقي هذا ، لم يتحدثني عنه ، ولم تكن له بوادر قبل معراجي وبدء تجلياتي ، فاذا يجرى في دنياي ، وماذا يدور وأنا بعزل ؟ لماذا يقيم أخي هذه المدة كلها ؟ وأمي أنا ماذا عنها ، أهي بمفردها ، أهي مريضة ؟ لماذا سافر شقيقي ؟ لماذا ؟ ، غير متاح لي الاطلاع على ما يجرى ، أرى مالم يره بشر ، واطلع على مالم يطلع عليه إنس قبل ، ومع هذا كله لا يتاح لي معرفة ما يخصني ، فسبحان من بيده الأمر كله ، له الملكوت كله وعنده السر كله ، أنا قابل ، راض ، وإن كنت آمل في معرفة ما يجرى ، لعلك تسمح ، لعلك تأذن ، عللت جهلي بأنني مهما أوتيت ، ومهما شاهدت ، ومهما أسبغ علي ، يظل البصر حسيرا ، فسبحان مدبر أمري ،

الجامع ، المفرد ، وهو على كل شيء قدير ، أرى نفسى أرفع السحابة ،
أجيب ، ابتسم مرحبا ، هل رأيتم يا أحبابى ذلك الغبار الدقيق الذى تكشف
عنه أشعة الشمس إذا ما نفلت إلى غرفة مغلقة ؟ هل يمكنكم الإمساك به ؟
كنا الأمر الذى شعرت به عندما رأيت صورتي البشرية ، هذا وجهي ،
وتلك سماتي ، هذا أنا كما عهدت ، صوتي المرتفع هو ، انحناعتي ، غير أن ثمة
شيئا يحيل عن حسي وفهمي ، ويستعصي على ادراكي ، رهيف شفيف ينبئني
أن ثمة اختلافاً بيني وبينى ، ايقنت منه وإن لم أضع حواسي عليه خاصة وأنتي
ناقص ، تقول في بلماية حديثها إن شركة الطيران منتظم رحلات منخفضة ،
محدودة المدة وأنه بإمكانى الحضور ، أرى ابتسامتي ، أعرف أن ما تقوله
مدخل للكلام ، ولأنتى لا أطيق شعور إنسان بالمرح عندى ، آثرت ازالة
الأسباب ، قلت إن ظروفى الآن صعبة ثم تساءلت عن أخبارها مع زوجها ،
قالت إن الأمر سوء وأنه لا يكب حرقا ، بل افتقد القدرة على الجلوس إلى
المكب ، وأنه بعد رحلته الأخيرة إلى دمشق عاد ضنكا ، وأنها احتلت عليه
منذ أسبوع ، قال إن الاعباء العائلية هى التى تعوقه ، وتعطله ، وجعلت اسمه
يهت ويتراجع ، قالت إنها لم تطلق صبرا فصرخت فيه ، عن أية اعباء
تحدث .. أنا المطحونة ليلا ونهارا ، ولولا شقائى وكدرى لما وجدت الوقت
لتسكع على المقاهى ، وتسافر هنا وهناك ، قالت إنها فوجئت برد فعله ، نظر
إليها بنبات ، ثم صمت ، كف عن حوارها ، انكش حتى تضاعل حجمه ،
قالت إنها اشفقت عليه حتى ودت لو تقرب منه ، وتحيطه بذراعها ، لكن
ما وقع وقع ، وهنا رأيت لحظة مختلفة في ليلة أخرى ، أقول ما يهدئها ،
أطالها بالصبر ، بالتروى ، بإدراك ما تسببه الغربة ، أراها تتحدث إلى في
وقت تال ، مترعجة ، مضطربة ، إنه لا ينام إلا قليلا ، يحكم اغلاق

الباب ، يطوف بالنوافذ ، يسترب في حارسة الباب ، يؤكد أنها تطلعت إليه أطول مما ينبغي ، يؤكد أنهم أرسلوا في أثره ، وأن الأمر بدأ مع ظهور هذه الفتاة في حياة ابنه ، إنهم ينون قتله ، لهم ثأر قديم معه بعد أن عجزوا عن تجنيده ، اسمع صوتي يهدئها ، انصح بالذهاب إلى طيب ، تصيح : ولكنه يرفض .. لا أدري ماذا أفعل ونحن في غربة ، أما الولد فيزداد صمتا على صمت ، سأجن ، سأجن يا جمال .

أرى أمي أنا تمشي بجوار أبي ، يحمل قفة الثياب ، وعلبة ورق مقوى داخلها موقد غاز ماركة بيريموس ، بيوت متقاربة ، وشمس قسية ، ورائحة مياه غسيل يبلل الأرض وعجوز اعشى يجلس القرفصاء ، أمامه طاولة عليها بسكويت أحمر على هيئة قراطيس ، أطفال يتطلعون إليها ، يتوقفان أمام بيت رمادي داكن الواجهة ، قديم ، على أية حال وإى وضع سيعلق عليها باب تفتحه وتغلقه وقت أن تشاء ، تدخل الفناء بقلمها اليمنى ، كذا العرقة المعتمة الوحيدة في الطابق الأرضي ، يضع أبي القفة وعلبة الموقد فوق الأرض ، يشعل لمبة الجاز ، ترى أمي حصيرة ملفوفة في الركن الأيمن ، يفردها أبي ، ولحافاً جديداً حفت أطرافه بقماش وردى كذا الوسادة الوحيدة ، طبقاً من الصاج أبيض منقوشاً بدوائر زرقاء ، وطبقاً أبيض من الصينى ، وحلة من نحاس ، ویراداً للشاى ، وأربعة أكواب زجاجية ، يفردها أبي الحصيرة ، يقعد عند طرفها ، يتطلع إلى أمي ..

– شوقى يا بنت الناس .

يشرح لها حاله ، إن تأخيره عنها ، وعدم مجيئه إلى البلدة ليصحبها ، لم يكن عن رغبة ، ولا عن إهمال ، إنما بسبب ضيق حال ، إن مرتبه مائة وخمسون قرشا في الشهر ، لن يحوش منها ملياً لنفسه هو ، ولو عثر في الشارع

على بلحة لجاء بها واقتسمها معها ، كان يتمنى أن يستأجر لها غرفة أوسع ، أن يشتري أثاثاً أفضل ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة ، ويبدو أن الله جعل وجهها بشرى خير عليه ، فثمة أخبار تقول إن علاوة قدرها قرش صاغ قادمة في الطريق ، تصغى أمى إليه ، تشعر بالراحة لأن مكانا يخصها هي احتواها أخيراً ، يقول أبى إنه سيخرج ليشتري جازا وطعاما يأكلانه ، إنه يريد أيضا أن يتيح لها الفرصة كي تبدل ثيابها ، يتجه أبى إلى الخارج ، عنده فرح داخلي ، إنه يسعى الآن من أجل بيته ، له أسرة ، هو الذى لم يكن عليه أب ، ولم تعطف عليه أم . تقعد أمى بمفردها تجيل البصر حولها ، الرطوبة ، العتمة ، وهذه النافذة قرب السقف ، أين ذلك من البيت الفسيح العامر دائما بالضوء والشمس والهواء النقي ، تقول لنفسها «الظروف صعبة ، لكن أحمد رجل طيب ، وحنون» ، عاد أبى ، رأيت الليلة في مجملها ، ورأيت شروق الشمس ، غير أن اشعتها لم تعرف سيلا إلى الغرفة ، ها هي ذى أمى تقعد بمفردها ، وحيدة بعد خروج أبى إلى عمله ، الباب مغلق ، لن تفتحه لطارق ، تسمع صياح الأطفال في الفناء ، لم أدر أهذا صباحها الأول أم أنه صباح آخر ، وإن خمنت أنه صباح تال ، وسبب ذلك رؤيتى حبالاً في الغرفة عليه ثياب لأمى وأخرى لأبى ، وطشتاً للغسيل لم ألحظه في الليلة الأولى التى رأيت فيها ما رأيت ، سمعت عزمها وقرارها ، سيكون لى بيت فى مصر ، فيه سرير ، ودولاب ، سيذهب أولادى إلى المدارس ، ولن يعرفوا ما عرفه أبوهم ، أو ما ذقته أنا ، لن يشمت فى الشامتون ، إن شاء ربى الكريم .. » اسمعها تخاطبنا ، ليس من هذه اللحظة ، ولكن من لحظة أخرى تتقدم فى الزمن ، تقول لنا :

– «يا أولاد احمدوا ربنا ، تزوجت اباكم ومرتبته اليومى خمسة قروش

عشنا منها في مصر... .

وخيل إلى أنها توجه الكلام لي في وضعي هذا ، فهل تدرك أنني لينة في هذا السور؟ هل حلت بهذا المقام الذي دخلته وحيدا ، بعيدا عن شيخي الأكبر ، يخيل إلى أنه على مقربة مني ، لكنني لا أقدر إلا على رؤية ما هو أمامي ، أرى أمي جالسة في الصلاة التي أعرفها ، فوق نفس المقعد ، أراها كما عرفتها في السنوات التي تلت زواجي ، كما اعتدت خلال زياراتي ، وكان الانتظار أساسيا عندها ، فهي إما تنتظر مجيئي في اليوم الذي حددته من كل أسبوع ، ولم أخلفه أبدا حتى بدلت الطريق والمعراج والسفر ، ولا أدري ما صار إليه حالي في صورتي البشرية ، وإما أنها تظل من الشرقة العريضة تنتظر عودة شقيقي اسماعيل اليومية ، أو وصول أختي بعد انتهاء يومها الجامعي ، أو أختي علي العائد من كليته أو مشوار قصير إلى الجمعية أو البقال يقضى حاجة ، أو مطلة ترقب مجيئي الذي صار في السنوات الأخيرة أسبوعيا ، إذ تأخر لا تفارق مكانها ، تضع لوحين من خشب ، تقف فوقها لتتمكن من مد البصر إلى نهاية الطريق ، إذ تلمحنى تتجه إلى الباب ، هي التي تفتح لي ، هي التي ترحب بي ، هي التي تقول لي معاتبة ، تأخرت ! ، كلمة واحدة لا تريد ، لا تبدي لوما ، اتعلل بمجج معظمها كاذب ، أبالغ في اظهار تعبي حتى ترق لي وتبدي اللهفة علي ، أمي قاعدة في مواجهتي ، أبي يقف على مقربة منها ، يرتدى ملابس احرام غير أنها خضراء اللون ، أعرف أنه راحل ، لكنه يرقبها ، وهذا جديد علي ، لم أجده إلا في هذا المقام ، فإذا جرى ، ماذا استجد؟.

إني والله قلتي ، إني والله خائف ، اني في حاجة إلى من يطمئنني ، استر ياكرم ، يا حفيظ ، يا دائم ، استر ببركة - ابن بنت حبيك وظيفك -

مولاي الحسين ، أبي راحل عنا فلماذا يقف على مقربة من أمي ، أبي غارب فلماذا القربي؟ ، أراها مهمومة ، أراها مثقلة بشقاء العمر وضناه كله ، هذا وجهها الذي طالته بعد سفر أخي اسماعيل إلى أمريكا ، البيت يضمها مع نوال وعلى ، وعند انفرادها ، ترتب سرير شقيقي ، وتنفض الغبار عن مكتبه ، وتفتح النافذة ليدخل الهواء ، كأنه آت بعد قليل ، وإذ يزيد بها الوجد تقبل الثياب وتحوش الدمع فالبكاء شؤم ، أما الحزن المكتوم فشرع لها ، أراها تتحدث بانجهاى مع أنها لا تترانى ، لا تخاطبني إنما تجلس أمامها جارة لنا ، امرأة طيبة من الصعيد ، شاركتنا الأحزان على الوالد الغالى ، أم محمد ، فياغلي وياحزنى وياخوفى ويا دلى ويا مرارى ويا قدى ، ماذا يعنى هذا؟ تقول أم محمد : لا تحزنى ولا تنتمى وخذى بالك من نفسك فانت صاحبة عيا ، وصلى ، وادعى لابنك أن يرجع إليك سالما ، عقبى لنوال ، عقبى لعلى .

تقول أمى ، متطلعة بانجهاى - ياربى ألا تخاطبني أنا؟ - ألا تحدثني أنا - تقول أمى التى أعرف قدرتها على اخفاء آلامها وضيقها ، وما لا تريد الافصاح عنه تقول : جمال ابن حلال ، وهو بطل على ، ولا يغيب عنى ولا ينسانى ، لكن المرحوم كان يملاً علينا البيت ، أبوهم كان له حس وانقطع ، تقول أم محمد : اطلبى له الرحمة يا أم جمال ، واقولى له الفاتحة ، وترحمى عليه ، ولا تبكى عليه فإن البكاء يحرق قلب الميت ، تقول أم محمد : هذه هى الدنيا ، وتلك أحوالها فاذكرى ربك . يخفت صوت أمى ، اسمعه عاتبا واهنا حزينا : كنت اغرف الطعام لحمسة ، والآن اغرفه لاثنين . كان البيت يضيق بنا ، والآن وسع علينا !! يتأى الصوت ، تخفى أمى ، أين أيام شملنا؟ ، يوم كنت اصغى إلى أبي يحدثنا عن يوم القيامة ، يوم يفر المرء من

أبيه ، وأمه وأخيه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ، كنت أبكى ، أمعقول افتراقنا في هذا اليوم
العظيم ؟ ، فيقول أبي ، يا بني لن يعرف الإنسان أخاه أو ابنه لأنه لن يراه ،
العيون ستكون في منتصف الرموس ، احزن لأننا متباعد ، لأن كلا منا
سيشغل نفسه ، لأن أبي لن يراني ، ولأن أخي سيجهلني ، وأن أمي ستذهل
عني ، أتم مناجيا داعيا راجيا ربي أن يجمع شملنا ، ألا يبدد جمعنا ، أن
يخسرنا معا ، أن يحاسبنا معا ، أن يغفر لي ولوالدي ، أن يرحمها كما ربياني
صغيرا ، غير أنني لم أتم الأربعين بعد في حياتي الدنيوية إلا وتفرقتنا ، واجترت
قيامتنا بدون أن أدري ، وكان رجيل أبي أول منعطف أعظم ، فسبحانك ،
أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ! .

* * *

مقام الحُزن

وَمَا مَرَّ يَوْمٌ أُرْتَجَى فِيهِ رَاحَةٌ
فَأَذْكَرُهُ إِلَّا بِكَيْتُ عَلَى نَفْسِي

.. يقترّب شيخى منى اذن .. لم أعد وحدى، يمد يده إلى السور ،
يتزغنى ، بمفارقى اياه يخلو مكانى ، ولا يخلو ، لأننى عندما عاودت النظر لم
أر فى السور موضعا لأى لينة ناقصة ، لبناته كلها متضامة ، متجاورة ،
مكتملة ، أما النقص فعندى ، والفقد لى ، عدت رأسا محزوزاً محزوزاً
فسبحان من له الكمال كله ، والدوام كله ، يقبض شيخى شعر رأسى ، ألتى
ذلك ، يرفعنى ، فيغيب السور بأكلمه من بصرى ، أقول له :
- « لم تركننى وحيدا فى هذا المقام الذى فارقته يا نبراسى فى الطريق ،
وشيخى الأكبر الذى على يديه اهتديت وعوقبت ؟ » .

لم يجبى بعد سؤالى مباشرة ، إنما برقت لى رؤية خاطفة ، أمى أنا تقعد
فوق حشية مكسوة بثوب قديم لأبى ، تغمض عينيها ، ينقل رأسها ، يميل إلى
صدرها ، ترفعه بغتة ، على شفتيها ابتسامه ، تقول لمن يجلس فى مواجهتها
ولا أراه «أنا صاحبة ، لم أتم» ، تلك جلستها فى مواجهتنا عندما كنا نسهر
الليالى لنحفظ الدرس ، تأبى أن تهجع ، أو تنام ، عسى الحاجة تكون إلى
كوب من الشاى المعطر بالتناع لن تعده إلا هى ، أو لقمة تسد جوعا لن
تعدّها إلا هى ، حتى بعد انتقالنا إلى مسكن فسيح ، صار لى فيه غرفة
بمفردى ، تبقى فى الصالة مستيقظة ، تغالب الهجوع إلى أن يتم نعاسى ، وينام

إخوتى وأبي فتأمن وتذوق الوسن ، وإذ افتتح عيني في رقادي ، تصحو هي قبلي ، حتى وإن يفصلني عنها جدار ، وباب مغلق ، لم أر أمة نائمة قط ، لم أوقفها طيلة عمرى المقدر لي في الحياة الدنيا مرة واحدة ، تنام بعدنا ، وتسعى قبلنا ، هذا ما أدركته عبر هذه الرؤيا الحافظة التي تيسرت لي ، أولى مشاهداتي في هذا المقام الوعر ، صعب المرتقى ، نظرت إلى يد شيخى اليسرى القابضة على قلبي ، فلما رأيت حننت إلى جزئى الذى وسع كلى ، ضقت إذ رأيت يتقلب ويتفرط حزنا إثر اطلاعه على هذه المشاهدة . فكل ما أراه بعيني يطلع عليه قلبي ، غير أنى لا أدرى مردوده وانفعاله لانفصاله عنى ، فلطفا يا خالتي ورحمة . نظرة يا مولاي الحسين ، يا أكرم ولي ، يا نجى ، يا وفى ، يا روضتى ، يا صفحتى الجامعة ، يا بستان القلوب ، يا حديقة المعانى كلها ، لماذا تأبت عنى ؟ إن المودة فى القرى ؟ لماذا أرى أمة أول ما أرى فى مقام الحزن ، والحزن لا يكون إلا على ماض أو فائت ، أيعنى ذلك أن أمة فى الفائت ؟ ، أخشى النطق فصبرنى ، أخاف التصريح فدلنى ، أنا الغريب ، الحزين ، التائه .

يجيشنى صوت شيخى الأكبر ، القابض على ، المسك بي ، يمجينى على سؤالى الذى طرحته عليه أول هذا المقام ، يقول لى : اعلم اننى دخلت مقام القرى ، مثلك ، فى شهر محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة وأنا مسافر ببلاد المغرب ، فتهدت به فرحا ، ولم أجد فيه أحد ، فاستوحشت من الوحدة ، وتذكرت دخول أبى يزيد بالذلة والافتقار ، فلم يجد فيه أحد ، وهذا المنزل هو موطنى فلم استوحش فيه ، لأن الحنين إلى الأوطان ذاتى لكل موجود ، وأن الوحشة مع الغربة ، ولما دخلت هذا المقام وانفردت به ، فبقيت اتبع زواياه وتحادعه ، ولا أدرى ما اسمه مع تحققى به ، فبقيت وأنا على تلك الحال

من الاستيحاء بالانفراد ، والأنس إنما يقع بالجنس ، فقلت رجلا من الرجال بناحية تسمى أنحال ، فصليت العصر وذهبت إلى صاحب لي وكانت بيني وبينه مؤانسة فشكوت إليه ما أنا فيه من انفرادي بمقام أنا مسرور به فيينا هو يوانسي ، إذ لاح لي ظل شخص قهضت من فراشي إليه عسى أجد عنده فرجا ، فعانقتي فتأملت ، فإذا به أبو عبد الرحمن السلمي ، قد تجسدت لي روحه بعنه الله إلى رحمة بي ، فقلت له : أراك في هذا المقام ، فقال فيه قبضت ، وعليه مت فأنا فيه لا أبرح . فذكرت له وحشتي فيه وعدم الأنيس فقال : الغريب مستوحش ، وأنت لم تكن غريبا ، بل شاهدت من أحيت .. قلت لشيخى الأكبر ..

- لكننى لم أكن سوى لينة في جدار ، لهم حضور ولى حضورى ..
يقول لى شيخى :

- لكنك ترى ..

أقول راجيا ، متوسلا ..

- يا بحر المعانى ، أعد لى رأسى ..

- ما كذب القواد ما رأى ، وما زاغ البصر وما طفى ..

أقول متحسرا ..

- لماذا تقسو على يا دلى وأنا فى كنفك ؟

لماذا وأنا فى حمايتك ؟

لماذا وأنا بمتزلة المرید منك ؟

لماذا وأنا التابع وأنت المتبوع ؟

لماذا وأنا الراجى وأنت المأمول ؟

لماذا ؟؟

يقول لى :

- والعصر.. إن الإنسان لنى خسر..

أفهم الاشارة ، أقول ..

- إن كان ذلك كذلك فإنى راض ، متقبل ، مطيع ..

يقربنى ثم يدعنى فيبقى رأسى حائماً حوله ، ييسط منديله الأبيض ، يرتعش قلبى ويخفق ، يدفق ، لكن بمن ولن؟ حرت والله ، كلما ظننت نفسى واصلا إلى مستقر لى أجلى نائيا ، فى أسنى .

ينحنى شيخى باسطا يديه ، أرى عين ماء تتدقق من الأعلى إلى الأسفل ، يضع قلبى فى المجرى ، تختلط دماءى بالماء ، يشير إلى ، أدنو ، يمسه بكلتا يديه ، كما أمسكته رئيسة الديوان ، التقية الطاهرة مولاتى السيدة زينب ، يواعد ما بين جزءيه فينقلق إلى نصفين ، متصلين ، مرة ثانية أرى بطيئى الأيمن والأيسر ، وشربانى ، الأورطى ، والتاجى ، والتلف الذى عض صمام قلبى الميزالى فى صغرى ، هذا ما ظهر لى ، وما استرغنى أعظم ! فقد ألمت فى لحظة بمقادير زمنى الدينوى بما لم أتصور قط أن قلبى قادر على أن يسهه ، وليتنى أستطيع أن أفصل وأن أفسر ، لكننى لم اتلق الأذن ، فصبرا جميلا ! ، أرى حمامة بيضاء ، دقيقة ، جميلة ، ليس كمثلها طائر فى دنياى ، تحط على حافة قلبى ، لم تترك أطرافها النحيله الدقيقة أى أثر يشى بثقلها على قلبى ، فلا وزن يعرف لها ، تميل ، تفتح ناها ، تقطر فى قلبى الصبر على المكاره ، استبشرت خيرا ، وسجدت بعينى وشكرت بلسانى ، عرفت أنى صرت من القوم ، وأن خطاى تبدأ فى وقت ظننت فيه أنى انتهى واختتم ، وأنا بلا قدمين ، أو ساقين ، فرحت فرحا عظيما ، فرح من اكتشف نفسه من الناجحين بعد يقينه أنه من الراسبين ، وعندما غاب عنى شيخى الأكبر لم أخف كهمدى

كلما تركت وحدى ، أوغلت بالفعل فى هذا المقام ، بعد وقوفى عند حده ومشاركه ، وبدا مدخلى إليه غريبا ، فبعد مشاهدتى أمى خطفا وبرقا ، رأيت كافة ما مرى من أفراح عن يمينى ، وكل أحزاني عن شمالى ، إن جاز لى التشبيه بالجهات التى لا وجود لها أصلا فى مسعى ، رأيت افراحي فى قدر السمسة حجا ، فلم أتبينها ولم أتمكن من تدقيقها ، لذا وليت النظر شطر أحزاني ، وفى البداية رأيتها فى جملتها ، وإذا جاز التشبيه ، تبدو كتمام رمادى ، ثقيل ، فى يوم خريفى ، لا يتظر فيه مطر ، وكلما حدثت بانث لى من فى تفاصيلها ، فرأيت اعظمها ترحا لحظة سماعى النبأ العظيم برحيل أبى ، ثم رأيت أحزانا أخرى مضيبة ، مبهمة ، لم أستطع ادراك كنهها ، أو ليها ، وما تدور حوله ، فلفظا يا خالتي ، إن أكثر الناس لا يعلمون ، رأيت لحظات طوافى بضريح مولاي الحسين القاهرى ، وقوفى عند الموضع الكربلائى الذى حز فيه رأسه ، ولحظة رؤيتى نعش جمال عبد الناصر ، كان ذلك فى شارع رمسيس القاهرى الممتد ، الذى فاض وغص بأهل مصر المحروسة ، وقفت فى شرفة بيت صاحب لى ، تجمعنا عنده لى الموكب الأخير ، وعندما اقتربت الخيول السود ، كانت الأيدى قد سحبت العلم الملفوف فيه ، فبدا خشب النعش الأصفر الذى يحتوى الهامة والقامة التى طالما هلت وأطلت ، صريخ نساء وبكاء رجال ، وتلويح أيدى وغيمة حزن كثيف ، فى الطريق تعدو امرأة شابة حافية القدمين ، تمسك طرفى طرحتها السوداء وتحركها يمنا ويسرة ، اقتقدتها نظرى فى الزحام ، غير أن ما يضيع أحيانا يبقى ، وعندما ولت عربة المدفع واحتواها الجمع الكثيف ، غاب عصر ، وفيت حقبة ، واندثرت أمان غالية ، وراحت علامات فسبحان من له الدوام .

وقفت فى هذا المقام على سر عزيز ، ذلك أن أبى قضى الليل كله عند غمرة فى بيت خلف بك الحسينى رحمة الله عليه وعلينا أجمعين ، ليرى

ويودع ويذرف الحزن على الرجل الذى أنصف أهل الفقر من أهل الغنى ،
الذى أمن رزقه وجعله لا يخشى فصلا ، أو اهانة من كبير تلحق به الأذى ،
وهذا ما لم يقله أبى لى ، ما لم يصرح به أيضا لى ولا لغيرى ، إنه اعتاد زيارة
الفقيد الغالى والترحم عليه ، ولم ينقطع حتى فى سنوات المحنة والشدة التى
تمكّن فيها الجلف من مقدرات هذا البلد الأمين ، هذا لم يقله أبى لى ، بورك
الوفى حافظ الجميل ، رأيت حزنى يوم فارقت أبى وأمى وإخوتى أول مرة ،
كنت مقنولا من عملى إثر قرار مفاجئ ، لا مجال الآن كى أفضل أسبابه ،
وسيحين ذلك بإذن الواحد الأحد ، تقرر نقلى إلى مدينة المنيا الصعيدية ، ها
أنا ذا جالس فوق مقعد القطار ، قطار الثامنة صباحا ، لكننى غير مبتهج ،
إنى حزين ، إنى متقبض ، أبى صامت ناطق ، يودعنى بالنظر ، هذا أول
اغترابى عن أهلى وأقساه ، ساكت لكنه يتكلم وأنا مثله ، وقد أدرك ذلك
صاحب محبوبتى لور فى نشأتى الأخرى ، عندما جلسنا يوما فى مقهى قديم
نأكل الفطائر ونحتسى الشاي ، وكنت مهورا بالنظر إلى انعكاس ضوء المصباح
العتيق على قبة شجرة باسقة أمام كنيسة أثرية ، كنت أتكلم ، أتكلم ، عندما
قال صاحبها هذا ، أنت تتكلم لتسكت ، وفيما بعد قالت لور ، أنت ناطق فى
صمتك ، لهذا أنا لا أضيق به ويا احبائى الكرام ، ما أطول المدد التى قضائها
الوالد بيننا مطبق الشفتين ، فأى أمور أفصح عنها فى صمته ؟ وماذا افضى به
إلينا ولم نسمع ؟ ضرب على آذاننا سدا ، وعلى أعيننا غشاوة ، وعلى أفهامنا ،
وقر ، رن الجرس مرة ثم مرتين ، تحرك القطار بطيئا فى البداية ، يمشى أبى ،
كأنه يود اللحاق بى ، زادت السرعة فولى ثم وليت وجهى شطر الغربية ،
رأيت حزنى المنبعث عن غربتى ، والحزن والغربة صنوان ، وأمران متلازمان ،
وحزن الغربية يا صحبى الكرام لا يلازم الرحيل ومفارقة الأهل والأوطان ،

بالضرورة ، فقد يعترّب الإنسان وهو ملازم لمكانه ، قائم بين ناسه ، مصاحب لأحبابه ، قال شيخى الأكبر القابض على قلبى بيده ، إن الغربة يراد بها مفارقة الوطن فى طلب المقصود ، ويراد بها اغتراب الحال ، فيقولون فى الغربة الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه ، والغربة عن الحق غربة عن الدهش ، أما غربتهم عن الأوطان بمفارقةهم اياها فهو لما عندهم من الركون إلى المألوفات فيحججهم ذلك عن مقصودهم الذى طلبوه بالتوبة ، وأقول أنا ، لما كان الإنسان فى سفر دائم ، لذا كان فى غربة دائمة ، ولما تقدم بى العمر ، عرفت أن أصعب أنواع الغربة ما كان غربة فى الاقامة والحزن ، كما أوضحت وجهها من وجوه الغربة ، لذا كان الحزن ملازما للنشأة الإنسانية ، أسألونى يا صحبى ، لماذا يبكى المولود فى اللحظة الأولى التالية لخروجه من الرحم ؟ ، لماذا ؟ ، لأن فراق الرحم أول غربة عرفناها ، يبكى الطفل عند ذهابه إلى المدرسة أول يوم ، تذرّف الدموع عند سفر الحبيب ، وعند مغادرة الأوطان لطلب الارتزاق أو طلب المعاش ، تمضى الحياة الإنسانية من غربة إلى غربة ، حتى تقع الغربة العظمى الكبرى ، الموت ، وان كان هناك حال من الغربة لا نعرفه ، عندما يتفرق الحضور الجسدى الإنسانى فى الكون ، أما غربتى فى هذه التجليات فلم تتفق لغبرى ، ولا لشيخ من شيوخى ، ذلك أننى عرفت أنواعا من الغربة لم تتفق لإنسان قبلى ، منها غربتى عنى ، وغربة رأسى عن بقية جسدى ، وغربة وجودى عن وجودى ، وغربة صورتى البشرية الباقية فى العالم الدنيوى بعدى ، وهذا حديث ابقيه حتى يحين حينه ، ومن أصعب الأمور خوضى فيه الآن ، فعذرة !

رأيت حزنى لحظة نزولى بلداً غربيا لا أقصد فيه صحبا ولا ولدا ، بلدا لم أكن بالغه إلا بشق الأنفس ، أما مأواى فأجهله ، لا تدرى نفس ماذا

تكسب غدا ، رأيت حزني في سنوات عمري الأولى ، تقعد أمي في الشمس ، عند الظهيرة تستقر ملاعبها مع رسوخ الصمت والسكينة ونأي الأصوات عنا ، تجيء يمامة وحيدة ، الأحمر الغامق هو اللون الغالب على ريشها ، يختلط بزرقة قرب العنق ، تمشي ، تهز رأسها إلى الإمام ، إلى الخلف هذا سريعا متواليا ، ثم تستقر عند نهاية السطح ، يتتابع هديلها الغامق ، فيضني على النهار بعدا وغموضا ومعنى ، تتابعها أمي صامتة ، ترى أي الأفكار ، أي الصور ، أي الأحاسيس أثارها عندها هذا الهديل ، فيمامة مهاجرة من ثلج موطنك إلى دفء موطنى وشمسك لك منى السلام ، لك الذكرى العطرة ، فقد مكنت من وعي لحظة كان من الممكن أن تفنى ، ولونت بصوتك ظهيرة آمنة كان ممكنا أن تنسى ، يمامة قادمة من بعد سحق لك السلام ، والأمان ، هديلك في غرارة فؤادى وصندوق قلبى ، فلو حططت يوما على مقربة من الحبيبة أمي مثل الزمن القديم فأبلغها أنني مغترب ، وأنتى ملاقيها حتما فصبر جميل ، ويا حزنى على هذا الهديل ليس كمثلك حزن ! ، يا اخوانى إن أوعر الأحزان ما كان رهيفا ، رقيقا ، كحد الموسيقى ، كلما رق ازداد قدرة على القطع ، رأيت حزنى الذى يصحو معى في بعض الأيام ، هذا الجزن غير المبرر ، مجهول المنبع ، يحل بي فلا يفارقنى طيلة يومى ، رأيت حزنى على عمري الغارب ، وهذا حزن خاص أورثنى كهولة في غير أوانها ، إني - ياسادق - راحل دائما بين لحظتين ، لحظة ماضية لن استعيدها قط ، وأخرى آتية قد لا أصلها ابدا ، رأيت حزنى عندما أواجه البحر الممتد ، وأوغل في الصحراء ، وارتقى الجبل ، واسلك البوادي ، عندما أرقب الشمس الغاربة ، عندما انتظر شروقها ، عندما أرنو إلى النجمة الأولى ، أودع الأخيرة ، وعندما تهب النسمة النادرة ، وحزنى على أصحاب

رحلوا قبل الأوان ، وحزنى على الذى ذوى ، رأيت حزنى عند مرورى
بالمناحيات والنواصى المألوفة ، رأيت درجات حزنى كلها ، شجنى ،
وأسأى ، وسقى ، وعوبلى ، ونوحى ، وحنى ، رأيت شيخا مهيب
الطلعة ، عظيم اللحية ، واحد من سادتى الذين سلكوا الطريق ، وعبروا
البياب ، كان يرفع سبابته ، وفوقها كل ما ذرفت وما ساذرف من دموع ،
رأيت دموعى التى سفحتها غزارا ، وارجفت كينونتى ، ورأيت دموعى التى
سفحتها على مهل ، وهذه دموعى التى لم تتجاوز مآتى ، رأيت دموع دموعى ،
عند هذا الحد بلغ بي التأثر حدا ثقيلا فالتفت إلى يمينى ، هذه افراحي كلها ،
تجمعت فى دائرة مقدارها كهذه الدائرة التى تتوسط زهرة شقائق النعمان ، ولكم
تمنيت يارعاة ذكرى أن أهديكم طرفا من افراحي الإنسانية ، لكننى كليل
البصر ، واهى النظر ، وأفراحي يا أحبابى أدق من أن ترى ، رب سائل من
المطلعين على مكتوفى ، يسألنى ، ألم تفرح عند سماع خطى أليك العائد من
عمله ؟ أتول ، بلى ، وسبحان من يولج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، ألم
تفرح عند سماع إعجاب القوم بما خطته يداك ؟. أقول بلى ، وسبحان محيى
العظام وهى رميم . هذا حق لأنفیه ، لكن معذرة فأكدارى كثيرة .

عند هذا الحد تيقنت أننى متمكن من هذا المقام ، وأننى قطعت فيه
مدى ، رأيت أبى أنا ، الذى كان رحيله بمثابة الحتم على ما فاتنى ، والمفتوح
لما أمر به ، هاهو ذا يصحب أُمى ، يمشیان عبر حارة الوطاويط المفضية إلى
مشهد إمامى الحسين ، فى هذا الزمن كانت زيارات أُمى لثوى رأسه
الشریف ، وإلى ضريح شقيقته رئيسة الديوان ، مما يسر عليها ، ويخفف
عنها ، ويفرج كربها ، ويفض ضيقها ، ويبطل وحدتها ، لم تكن تخرج من
غرفتها إلا مصاحبة لأبى ، ولو ابتعدت أمتارا قليلة عن البيت لتاهت وضلت

وما عرفت طريق العودة ، بل إنني وقفت على حيرة عظمتى مرت بها أمى .
في أول أيامها القاهرية ، قبل خروج أبي المبكر إلى عمله ، اعطاها قرش
صاغ ، وأوصاها أن تشتري فولا ورغيفين من البائع عند مروره أمام البيت
وسماعها نداءه ، أصغت أمى عندما صاح الرجل « يا لوز مقشر يا فول » ،
قطعت الفناء بخطى مضطربة مترددة ، حتى وقفت أمام باب البيت ، ها هي
ذى تنظر من وراء خاها الأسود ، لا تدري ما يجب قوله ، وبأى كلمات
يكون الشراء ، كيف تمد اليد إلى غريب لا تعرفه ، كيف تخاطبه وتناديه ؟ في
جهينة كان بعض الباعة يمرون ، يحملون قففا صغيرة بها بضاعتهم ، أساور
ملونة ، أكواب زجاجية ، أقفاص سكر أحمر ، كانوا يقابضون على ما معهم ،
فيأخذ البائع ملء قده من القمح أو الذرة أو الشعير في مقابل كويين زجاجيين ،
أو رطل من السكر أو علبه ملبن ، لم تتعامل معهم بالقود ، تطول حيرة
أمى ، ويبدو أن وقوفها الصامت ، وبدها المسككة بالطبق لفت نظر جارة
تسكن في الطابق العلوى تصادف مرورها ، امرأة طيبة اسمها أم هدهد ،
تقول لأمى : أتريدين حاجة يا ابنتى ؟ ، تنظر أمى إليها ، تجيب : بقرش فول
ورغيفين ، تنطق ما قاله لها أبي ، تقول المرأة ، هات الطبق والقرش . تعود
به مملتا ، سطحه مغطى بزيت ، تتناثر عليه ذرات الكون والشطة ، وزاد
على ما أرادته أمى بصله خضراء غليظة ، تقول أم هدهد : خذى يا شاة .
تأكلين بالهناء والشفاء ، تتمم أمى ، أكثر الله من خيرك ، ترجع إلى
حجرتها ، تغلق الباب بالرتاج ، لن تفتحه كما أوصاها أبي ، هذا صباح اليوم
التاسع من أبريل عام ألف وتسعمائة وأربعين ، بعد اندلاع الحرب الكوبية
بسنة ، وقبل مولدى بخمسة أعوام وشهر ، تطوف بشفتى ابتسامة غارة .
تذكرت لحظات اعرفها عندما سعت أمى في الأسواق لتشتري اللحم والحصار

والملايس ، عرفها محمد الحضري ، وعبد الهادي البقال ، ونصري الجزار ، وزينب الدلالة ، عرفوها حتى باعوا إليها بالأجل ، رأيتها تفاوض الحاج فؤاد تاجر الأثاث المستعمل ، تبصم على الكيبيالات ، تقصص على بعد عودتها ما قامت به وما فعلته ، رأيتها عندما تصحب أخي على إلى الأطباء في سنوات مرضه ، وليس هذا بالمقام الأفضل كي أفيض وأفصل ، لكنني وقفت على الفرق بين حالين ، والمسافة بين طورين ، فسبحان مسير الفلك ، مغير كل شيء ، إنه نعم القدير .

اعود إلى أبي وأمي القاصدين مشهد الحسين ، بعيني أمي أرى باعة السبح ، والطواق والشيلان والطرح والمصوغات المعدنية من أساور وخواتم وسلاسل وعقود ، وكتب الأدعية المنجية ، ونسخ القرآن الكريم ، وقصة الاسراء والمعراج وما جرى لصريع كربلاء يوم عاشوراء ، ومناقب والده الكريم ، اسد الله الغالب ، علي بن أبي طالب ، تلك لوحة ملونة يبدو فيها جالسا ، عن يمينه الحسن وإلى يساره الحسين ، وتلك لوحة فيها البراق ، من حمل أكرم الخلق أجمعين عند بدء المعراج ، وسبحان من أسرى بعده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وتلك لوحة واحدة من أجل سادتي ، الشيخ أحمد البدوي ، ملثم الوجه ، ممسكاً بيده سيفاً ، ولوحة لأبي زيد الهلالي سلامة يشهر ربحاً ، عند كل زيارة يتوقف أبي ، يحكي لها ما تقوله كل لوحة ، غير أنه هذه المرة صامت ، أرى تفرق ملامح أمي عند اقترابها من مدخل المسجد الحلقى المخصص لدخول النساء ، قبل عبورها العتبة الحشبية يوقفها أبي ، يمسك ذراعها ، تولى وجهها ناحيته ، أصغى أنا مشفقاً ، يقول أبي : شوفي يا بنت الناس ، ربنا قسم لنا أن نعيش معا ، وكما رأيت أنا لا أبخل عليك ، ولا أخفي عنك ما يرزقني به ربي ، حلفتك بالله ونبيه وابن

بنته الكريم القاصدين زيارته ، ألا تفضحني في جهينة ، كلام الناس
 كثير !! رأيت وجه أمي ، ألحظ شحوبها وضموورها ، تغيرت ، نخلت ،
 كأنها فقدت نصف وزنها ، أرى التأثر في عينيها ؛ ليس هينا عليها أن ترى أبي
 هكذا ، يرجوها ، تترقق دموعها ، ييسط أبي يديه موليا وجهه شطر منوى
 الرأس الطاهر ، يقول : القاتحة لابن بنت رسول الله ، هنا تغم الرؤيا فأولى
 البصر بعيدا ، صرت من التأثر في حال ، تلك لحظة ترقوق بين أبي وأمي ،
 يعجز كل منهما عن احتوائها بالألفاظ فيعبران عنها بالصمت ، أو يلوذان به ،
 أبي أهدأ الآن ، بعد غد سيسافران إلى البلدة ، أول عودة لأمي بعد مجيئها إلى
 مصر ، يقطعان الشارع صامتين ، راضيين ، أرى ليالينا الآمنة ، عندما تفرغ
 أمي من الطبخ ، تنتهي من عشائنا ، تتمدد تحت الأغطية ، اصغى وأنا على
 حافة النوم إلى حوار أمي وأبي ، يتدبران أمور الغد الآتي ، أو يتحدثان عن
 جهينة ، أخبار الناس هناك ، من جاء ، من سافر ، من مات ، من ولد ،
 من تزوج ، ومن أنجب ، ومن فتح الله عليه ، يتخلل حديثها الصمت ،
 فأسمع من الكلام فيه أكثر مما اسمع في حوارهما ، يسرى إلى اطمئنان ، وانام
 ملء جفوني ، هادئ البال ، راضى الخاطر ، فأين ولي ذلك يا قوم ؟ وأين
 راح ما كان مني وكنت منه ؟ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه
 ترجعون . عند هذا الحد كدت أذرف دموعا غير أن عيني لم تجودا به ، وأوعر
 الدمع ما احتبس وامتنع ، تردد هديل يمامة الظهيرة النائي في سمعي ، وكأن
 سادتي رقوا لحالي . واشفقوا عليّ من خبيثي المكنونة فأسمعوني نورا يسير ما
 حننت إليه ، اصغيت راضيا واجبا ، فكان حال كما قيل في المعنى ..
 رب ورقاء هتوف بالضحى ذات شجو صرخت في فتن
 ذكرت إلنا ودهرا صالحا وبكت شوقا فهاجت حزني

فيكأى ربما أرقها وبكأها ربما أرقى
 ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
 غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وأنا مصغ ، جاءنى الأمر بالنظر مع انقطاع هديلها عنى ، فنظرت صاغرا ،
 وإذا بى أرى أبى فى نشأنى الأخرى ، ماله مهموم هكذا ؟ ماله تائه النظرة ؟ ،
 إنه ينتظر أمى الأخرى ، نجىء هذه الليلة عقب قطيعة استمرت عامين لم يقربها
 فيها ، غير أن ظروفنا أدت إلى هذه الخلوة المرتقبة ، منها تعب أمى وارهاقها
 الدائم بين عملها الصباحى ، وعملها المسائى ، غير أنها اليوم وقعت عقدا
 يضمن حقوقها فى وظيفتها المسائية هذه ، أضفى عليها ذلك أمنا وطمأنينة ،
 عملها الصباحى يمكن أن ينتهى فى أية لحظة ، مجرد هذا الخاطر ارجفها رعبا ،
 إنهم غرباء ، ضعاف ها هنا ، ماذا سيفعل ابننا - الذى هو أنا - إذا ما تعطلت
 فجأة ، واضطر والده إلى ترك عمله فى هذه السفارة ؟ مجرد التفكير بصيها
 بالوهن ، فإذا لو تحقق ذلك ، لا تطيق يوما يأتى يطلب ابننا شيئا ولا يمكنها أن
 تلبيه ، كأن يرغب فى السفر إلى مصر خلال أجازته ، أو ليشبع احدى هواياته
 التى تبدأ فجأة وينفق فى سبيلها ما ينفق ، ثم يهجر كل شىء بلا مقدمات ، لم
 أعرف شيئا عن هذه الهوايات ، ولم أدر شيئا عن نشاطاتى فى نشأنى تلك ، وإن
 أدركت أن أمى هذه تغدق على ، فعندى حجرة تخصصنى ، بها جهاز عرض
 تليفزيونى ، ومكتبة أفلام ، وجهاز لاستماع الموسيقى ومذياع متقدم يلتقط
 الموجات السارية بين النجوم ، وعدة ساعات ، وقصان ، وآخر صيحات
 الأزياء ، وكثيرا ما يدرس أصحابى من أبناء هذا البلد بعضا مما لدى فى
 جيوبهم ، ولا أبالى ، كنت بحاجة إلى بقائهم معى ، والحديث إليهم ، والخروج
 معهم ، خاصة بعد ابتعاد لور عنى أو ابتعادى عنها ، وكنت فى دهشة من
 أمرى ، فبعض من زميلاتى يحنن إلى ، وأنبئى أمى ، فتخبر أبى ، يحرصان على

تركى مفردا معهن ، بل يبدو السرور على أمى ، وقد يداعبنى أبى بما لا استجيب له ، ومع ذلك لم يطلق علاقتى بلور ، عند هذا الحد من ذلك المقام كرهت متابعة نشأتى الأخرى ، شحب فضولى ، وضاعف هذا حنينى إلى أبى وأمى ، تمنيت أن يبتنى شيخى الأكبر عند هذه اللحظة التى اجلس فيها إلى أمى فوق سطح البيت القديم فى الشمس الشتوية ، والهديل المخملى الغامق فى مسمعى ، غير أننى سمعت صوتا يشبه صوت شيخى الأكبر..

- «ألم تمن يوما أبا غير أهلك؟» .

- «اعترفت بذلك فالسباح ..» .

- «ألم تتجمل من فقرك؟» .

- «قلت إن ذلك كان فى زمن جاهليتى ..» .

- انظر اذن ولا تحيد ..» .

ها هو ذا أبى فى نشأتى تلك ينتظر مجيء أمى ، اليوم مثنى فى الصباح الباكر أمام مكب الشركة المصرىة للطيران ، تأمل نموذج الطائرة ، وصورة الأهرامات ، والكرنك ، واطلاق يشجع الزائرين ، لو أنه بقى ، لو أنه لم يسافر ، يستعيد وجه هذا الضابط الممتلئ قليلا ، كان يرتدى جاكيت من الصوف الأزرق القاتم ، إن ضابطا فى سترة رسمية ونجوم مذهبة على كتفيه لا يخيفه بقدر الجلوس مرغما إلى من يعرف أنه مقدم أو عقيد ويرتدى ثيابا مدنية ، بعد الحديث عن سفره لماذا سافر ، وفى أى مؤتمر أدبى شارك ، ومن رأى ، ومن صاحب؟ ، افصح عن غرضه ، وطلب منه ان يراه كثيرا ، وأن ينقل إليه ما يسمع خاصة من الشبان الجدد ، أراد أن يكون الرفض مهذبا ، غير أن الضابط ضحك قائلا ، اتظن أنك ستفنت منا؟ ، اعتاد رؤيتهم أمام البيت ، احدهم همس إلى البواب عند مروره ، رنين الهاتف فى الخامسة صباحا ، سماعه من ينادى باسمه فى الطريق ، يلتفت ، لأحد ، رنين الجرس

في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلا ، يقف المخبر مبتسما بتحد ، بوقاحة ،
حاملا الاستدعاء ، امتلأت الشوارع يجمع منهم ، وزاحمه من يتسمى إليهم ،
وتهددته الأخطار ، قال لنفسه ، الفرار - عند عدم الطاقة - غير مذموم عند كل
أحد ، ولما صارح أمي ، قالت له ، على ألا تكون في ناحية وأنا وابني في
ناحية ، سنأتي معك ، حتى جاءت الفرصة وحانت ، فخرج خروجاً لانية
للرجوع معه ، والغريب العجيب أنهم لم يعطلوا لحاق امرأته وابنه به ، فكأنهم
ما ارادوا إلا دفعه دفعا إلى الهجرة ، والابتعاد ، وكأنه بسفره حقق لهم ما
ابتغوا ، فحقت عليه الشقوة ، تجيء الأخبار بدخول صحبه السجن ،
فيحسدهم على فقدان حريتهم ، هو الذي يتقل كيفما شاء ، ويرى من البلدان
ما لم يعلم برؤيته يوما ، لكن شتان ما بين رؤية ومشاهدة ، وأمام الخلق بيرر ،
فما الابتعاد إلا للحفاظ على الذات ، وما الإقامة هنا إلا للخدمة من هم هناك ،
لكنه يعي ويعرف ، أنه في الترحال اضاع ما أضاع ، ولم يعد لديه ذخرا للأيام
الباردة القادمة ، وكان الشعر أول من امتطى الفلاة وغرب ، فالفرار أبدا ،
والفرار دائما ، وما من ملجأ يرتجى ، وما من مشوى ، أراه بمفرده في صالة
البيت والليل موغل ، أمي هذه في حجرتها عارية تبكي ، تعض وساداتها حتى
لا يرتفع نشيجها ، يبدو أن مسعاها خاب ، والسبل التي ابتغت منها الوصل
انقطعت ، أتي في نشأتي الأخرى يطلب الوحدة والانفراد ، هذا حاله ، حتى
إذا ماتم له ذلك حن إلى الأنس والألفة ، فتمضى أوقاته ثقيلة غائمة ، جدباء
من كل فعل مجد ، يقول للسامعين السائلين إنه مشغول في عمل كبير ، إذ
يحاول ، يبدأ في تهيئة الجو ، يعد لنفسه الشاي ، يرتب الغرفة ، يتفحص غيارا
لا وجود له ، يسمح عويناته مرات ، يدخن بتأن ، يقول : سأبدأ بعد فراغي
من التدخين ، نسي الموسيقى ، يدير الجهاز ، لا يطول استقراره في مقعده ،
الصوت أعلى مما ينبغي ، يرتب الأوراق ، الأقلام ، يتزل داخله ثقل ، ما من

شاردة استقرت ، ولا واردة أنت ، وأعظم العذاب يا اخواني عدم التمكن من الغرض ، لكنه يقول ، ربما جاء الغد بالأفضل ، يخرج إلى الطريق وعنده راحة وبه تعب ، راحة لأنه انتهى وقت العجز والحيرة ، وتعب لأنه لم يتم ما شرع فيه ، يمشى معاهداً النفس على ألا يضيع الزمن الآتى ، في السفارة يتحدث إلى صحبه عن دراسة سيتمها ، أثر الغربة على الإنسان العربى ، وإذا يلمح لا مبالاتهم وقلة اكتراتهم ، يقول ما معناه إن هذا البحث سينطلق من الخط الفكرى لهذا البلد ، يواجهونه بالصمت ، كأنهم يقولون ، نحن نعرف ما تقصده ، عندئذ يطلب بعض المؤلفات المطبوعة في هذا البلد ويخص بالذكر كتابا أو كتابين لقائد البلد وزعيمه المهتم ، عندئذ يجيب المستشار الثقافى بإيماء ، إذ أنه لا يقدر على مواجهة طلب مؤلفات الزعيم بالصمت ، يقول إنه سيرسل فى طلبها ، بعد انتهاء عمله يخرج إلى الطريق ، يفيض الخجل منه ، يلجأ إلى مقهى بعيد ، يحتمى النيذ حتى تخف اثقاله ، فيلحن الغربة ، والضعف الملازم لها ، واضطراره إلى معايشة من لا يقدر على البوح برأيه فيهم ، أحيانا يسبهم بصوت مرتفع ، ثم يتلفت حوله حذرا ، صحيح أن المقهى بعيد ، لا يرتاده عرب ، لكن الحيلة واجبة ، إنه غريب ، مضطر ، والمضطر يرى نفسه كالفريق فى البحر أو الضال فى متاهة ، وهو يرى عنانه بين يدي سيده وزمامه فى قبضته ، فهو كالميت بين يدي غاسله ، ولا يرى لنفسه استحقاقا لنجاة ، لاعتقاده فى قرارة روحه أنه من أهل السخط ، لا يقرأ اسمه إلا فى ديوان الشقاوة ، اعلمو يا احبائى اننى رأيت من أحوال أبى فى نشأتى الأخرى أموراً جسيمة ، مؤلمة ، حزينة ، ذكرت بعضها منها فقط ، فافهموا ما أشرت إليه فى هذا الارتباط ، فإنه منبئ عن أمور شتى ، ان لم تتحققوا زلت بكم القدم فى مهواة التلف ، واكتفى بالدعاء على الظالمين الذين شتوا أبناء الوطن ، وإن كنت لا أتردد وأنا قصى بعيد عنكم البعد السحيق ، خارج الأكوان كلها ،

فأنصح بعدم مفارقة الديار إذا حل بها ظلم أو عهر ، حتى وان أدى الأمر إلى سبيل الاستشهاد ، وخذوا العبرة من سيرة الحبيب الوفي سيدنا وإمامنا الحسين ، وعند هذا الحد عرفت أن أبي هذا له نشأة أخرى ، لكنني لم أقف عليها ولم أطلع ، ويبدو أنه غير مسموح لي بذلك ، فأمرى إلى صاحب الأمر ، فإليه يرجع الأمر كله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، غاب ما أراه عنى ، وتلا شيخى الأكبر فى أذنى ومسامعى .. «فإذا فرغت فانصب ..» .

التفت إلى شاملى فأرى أُمى ، أم نشأتى الأصلية ، من هى فصلى وأصلى ، وأول منازلى ، لمت نفسى لأننى نأيت عنها ، مع أن أمرى ليس بيدي ، فإلى ربك الرجعى ، أراها حبلى ، وهى لا تعرف أذكرا أم انثى فى رحمها؟ ، أما أنا الذى لم يوجد بعد عندها فأدرى ، فى رحمها ولد ، سيصبح اسمه خلف ، سيطلب فى رسالة يكتبها من مصر أن يطلقوا عليه اسم الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، مع أن البون بينهما وقتئذ شاسع ، لكن قلب أبى وسع الجميل وحفظه ، والحفظ حنو من الحافظ على المحفوظ وحرص ، لها الرحمة الكبرى يوم التناد ، وحسن العقبي يوم يجمعنا ليوم الجمع ، أرى أبى وأُمى يتزلان من «الحلزونة» ، الأتوبيس ذى الطلاء الأخضر ، عند ترعة البئر ، التقطة الوحيدة التى تتوقف عندها العربة التى تمر بناحيتنا ، فوق الجسر ، يقف المنتظرون ، جمع من الأقارب : جدتى وخالى ، والشيخ عبد اللطيف ، وأبو الغيط ، ومحمد أحمد وأخوه يونس ، وهما ممن رأيا أبى عند خروجه من ديار هذا الكون ، وودعاه ، ودخلا عليه فى رقدته الأبدية ، وأقسما للناس أن أحمد الغيطانى كان متبسما ، ضاحكا فى موته ، وأن جسده كسى لونا من ألوان النعيم ، وعند اسرائى من مدينة فاس كانا يسعيان فى الحياة الدنيا ، فهما ممن يرد على خاطرهما أبى الآن . ولا أدرى

في أى صورة يستعيدانه ، ولا في أى موقف يتذكرانه ، أمد خالقي عمرسيما ،
رأيت محمد أحمد مديد القامة ، يتطلع إلى أبي وأمي ، يثبت البصر على هزال
الوالدة الكريمة ، وضمورها ، وشحوب لونها ، حتى بطنها لا يتناسب حجمه
ابدا مع شهرها الثامن ، هاله ضعفها ، كذلك الأمر مع المنتظرين ،
المتربين ، تتم محمد أحمد «عملتها يا ولد الغيطاني» ، يقصد أن أبي لم يحافظ
على الأمانة ، وانه بهدل البنية في مصر ، ضقت أنا بخواطر القوم ، كرهت
تحاملهم على أبي ، لكن أتني لى التدخل وأنا بمعزل قصي ، احاطوا بها ،
النساء يرمقنها بإشفاق باطنه الشماتة ، والرجال يرددون النظر بينها وبين أبي
كأنهم يقولون ، انظروا ماذا فعل بها؟. تتوالى اسئلة النسوة بصوت مرتفع ،
متعمدات ، قاصدات اسماع أبي ..

.. مالك؟ عيانة؟ يا كبلى لونك مخطوف؟.

تتمصص امرأة اسمها عائشة تمت إلى أمي بقرابة. تتمم وكأنها تحدث
نفسها .

.. يا عقلي جرى لك ايه في مصر؟

غير أن أمي لا تستجيب للعطف البادي ولا تتأثر ، تتوقف عن الخطو ،
تتطلع إلى الخلف ، تتأدى بالنظر أبي الذي يمشي متعثرًا خجلا ، وعد هذا جراءة
منها ، إذ ليس من عرف هذا الزمان أن تتأدى الانثى رجلها على مرأى
ومسمع ، أبي يدرك العلامة ، يمد الخطى ، يلحق بها ، تقول له : القفة
ثقيلة عليك؟ ، يتبدد ضنكه ، تختلج مشاعره حتى أنه لا يجاوب ، غير أنه
يلزم جانبها فلا يجيد ، يتم الوصول إلى بيت خالي الذي ولدت فيه ، هامى ذى
منفردة يجلفني وخالي يستجوابها عن أحوالها ، فقول إنها في أحسن حال ،
وأن أحمد ابن حلال ، يأخذ باله منها ، لا يغيب عنها إلا زمن شغله ،

فيقول خلى غاضبا : لكنك نزلت النص ؟ تقول إنه الجو ، يتساءل حانقا :
 أى جو؟ يشير بيده ، مقلصا ملامحه ، تمد أُمى الكف : اسكت يا محمد ،
 أحمد لا يستحق هذا ، ينظر إلى جدتي ، شوفى البنت ؟ ، أرى توافد النساء
 عليها للسلام والمعانبة ، يسألها عن أحوالها ، لماذا تبدو شاحبة ؟ هل تأكل
 جيدا؟ هل بيتها فى مصر فسيح ، فيه هواء ؟ تدخله شمس ؟ لماذا تبدو ذابلة
 اذن ؟ لماذا تبدو هزيلة ؟ ، لا تطيق أُمى لهجتين التى تصطنع الشفقة ، هذا
 التقصى ، هذا التفرس ، يعاودن السؤال تلو السؤال ، صحيح عندك
 سرير؟ ، يعنى تركت نوم الأرض ؟ ، لكن مالك ، لونتك مخطوف ،
 وعظامك ظاهرة ، تقول إحداهن متظاهرة بتبرير حالتها ، يمكن صحتها لم
 توافق هواء مصر ، تصدهن أُمى بلطف ، تنفى ظنونهن ، ثم تنهرهن ، عيب
 تجيوا سيرة أحمد أُمى ، تمصص إحداهن شفيتها ، والله يا بختية بقى لك
 رجل تدافعين عنه ! تقول جدتى التى ظلت صامته ، عيب يا ناعسة ، أُمى
 تكره مقابلتهم ، تود لو انطوت الأيام وعادت إلى مصر ، لا يدعنها أبدا ،
 حتى عند عبورها الرحبة أو وقفها أمام البيت ، يتغامزن بالنظر ، إحداهن
 قالت صباح اليوم ، من يوم حاءت بختية إلى البلد وزادت وتمحست ، فى الليل
 تخلو جدتى إلى نفسها ، تقوم لتأمل أُمى الراقدة ، تجزع غير أنها لا تبدى ،
 تفهم لكنها لا تصرح ، فيما بعد ، بدأت ترسل مع كل مسافرقة فيها أرغفة ،
 وحام مذبوح وبطة أو أوزة ، وسمن ، ودوم أو بلح ، وملوخية جافة ، رأيت
 ميلاد أخى خلف فى البلدة ، رأيت ميلاد أخى كمال فى مصر ، فى هذه الغرفة
 الضيقة ، الرطبة ، ها هى ذى تتمدد فوق المرتبة ، متورمة الجفنين ، هزيلة ،
 حتى أنتى جزعت وخفت ، أم هدهد تدخل وتخرج عليها ، أما أبى فيسعى ،
 إنه لا يقدر على الانقطاع عن عمله ، فالأجازات ممنوعة بسبب الحرب ،

قلق ، خائف ، مشفق على أمى ، شددت عليه ألا يكتب حرفا إلى البلدة ،
ستترجع أمها وقد يترك أحوها حاله وماله ويجىء إلى مصر ، لن يجد مكانا
ينام فيه ، لأم هدهد الجارة ابنة تعمل ممرضة بأحد المستشفيات ، عندما رأته
أمى قالت إن بقاءها هنا مستحيل ، الرطوبة والعنمة وقلة الهواء تسبب فى
حمى النفاس هذه ، أم هدهد ضربت يدها بصدرها ، وأبى تذهب البنية ،
ما من قريب يتردد عليها ، إنها وحيدة ، فردانية ، والنبي أوصى على سابع
جار ، وأمة المسلمين بخير ، والله لن نقيم إلا عندها ، رأيتها تمدد حشية ،
وغطاء بيتها ، تستقبل أمى المريضة وطفلها ، خلف الصغير ، وكال الأصغر
الرضيع ، إذ تغمض أمى عينها تنهرا ابتها عن اتيان أية حركة ، أو أحداث
ضجة توقظ النفساء الوحيدة ، إذا بكى كمال تحمله ، ترضعه من زجاجة
اللبن ، كمال هو الوحيد من بيننا الذى لم يرضع من صدر أمنا ، وإذا عاط
خلف تهذه ، تهدهده ، تسخن الماء ، تسقيها الأقراص التى اتت بها الابنة من
عند حكيم المستشفى ، إذ يدخل أبى معلنا عن مجيئه بقوله «يا ساتر» ، حاملا
البيض أو الخنصار أو لحم الضأن ، تخرج أم هدهد ، البيت فيه ما يكفى ،
لماذا التعب ، لماذا يكلف نفسه؟ ، لكن أمى تشير إليها من مرقدها ، وأثناء
خلوتها بأبى قالت له إن الجماعة حالهم عسير ، وإن المرأة تعول يتيمتين من
دخل يسير يأتيها من ميراث قدره ربع بيت فى حارة الكحكيين ، لم يدخل
أبى طوال رقاد أمى ويده خالية قط ، عرفت لأول مرة فى هذا المقام الوعر
أن رقاد أمى دام أربعين يوما بلباليا ، وأنها عاشت ممتنة للمرأة التى كانت لها
أقرب من ذوى الرحم ، وبها أرفق ، جاءت الابنة المريضة ترور أمى فى
حجرتها ، قالت إن هذا السكن ضار ولا بد من تغييره ، وأنها هى ستسمى
نفسها ، عرفت أمى الطريق إلى شقة أم هدهد ، وعرفت أم هدهد سكتها

إلى الغرفة ، إذا طبخت أُمى للحما ومرقا تعرف مقدار طبق وتصعد به ، وإذا
قَلَّتْ أم هدهد زلاية ، أو سوت كشرى ، أو طبيخا تجيء إلى أُمى بطبق .
جاءت الابنة الممرضة بفرقة وصالة في العطوف ، غير أن أبي قال إن إيجارها
وقدره سبعون قرشا لا يتحملة ، ثم جاءت بفرقة أخرى في حارة درب
الطيبلاوى بقصر الشوق ، لها دورة مياه مستقلة ، وأمامها سطح فسيح ينص
قاطن الحجره ، لا تفارقها الشمس طيلة النهار ، صحية ، هواؤها نقي ، أرى
يوم فراق أُمى لهذه الغرفة التي أجهل موضعها الآن تجارة حوش آدم ، لبتني
صحبتها يوما لتريني إياها ، إذ ارجع ، بعد انتهاء سرياني هذا ، إذا قدر لي
الرجوع ، سأشرح ، سأصحبها لتريني هذه الحجره التي فارقتها وهي حامل
بي ، لكم عانقت أم هدهد ، لكم أوصتها بالزيارة ، استأجر أبي عربيه يد
صغيرة ، فالتاع قليل ، مرتبة ، ولحاف ، ومخدة ، وقفه ثياب ، وحلتان من
النحاس للطبخ ، ويراد الشاي ، وأربعة أكواب زجاجية ، وسكين ،
ومصفاة للطاطم ، ولفه حبال لنشر الغسيل ، ها هي ذى تقعد أمام غرفة
فسيحة ، على حجرها كمال ، وأمامها خلف ، وفي رحمها أنا ، الهواء
والشمس ، والسقف المرتفع يسنده سبعة عشر عمودا خشبيا ، السطح
فسيح ، في أقصى ركنه الأيمن ، وأقصى الأيسر ، عامودان خشبيان ، يمتد
بينهما سلك ، يتزل منحدرًا عبر المنور ، انه هوالى المذيع الوحيد في البيت ،
بالبطاق الأرضي عند أحمد عمر التاجر زوج الست وجيدة ذات الأصل
التركي ، تلك أول غرفة وعيت على جدرانها وحاني سقفها ، وهذا السطح
المتسع ، كل دنياى في صباى . وعلى حواف سورہ مشت تلك الجمامة ، آه ..
يا هديلاً ولى ، أيام الهوى ذهبت كالحلم ، أرى ميدان مولاى الحسين ، هذا
يوم لا أذكره ، فالضوء غريب ، والزمن مجهول ، أما المباني المطللة على الميدان

فواجهاتها متشابهة ، لم أرها أنا ابن هذه المنطقة ، من أودعتها ثلاثين من عمري ، هذا أبي وتلك أُمِّي ، أنا بصحبتيها ، يتقدمنا الوالد بمقدار ثلاث خطى لا تزيد أو تنقص ، إننا نبحت عن مطعم رخيص نأكل فيه ، لكننا لا نجد ، كل الدكاكين مغلقة ، والمقاهي ، وباب مسجد عتيق ، أرى نفسي متقدما في العمر ، ارتدى قبضا أخضر ، اجلس إلى صاحب لي هو مقعم في بلاد الانجليز ، نحن في صالة بيته بإحدى ضواحي لندن ، يكتب شيئا ما في ورقة ، أقول له إنني في الحريف القادم سوف أسافر إلى بلاد الانجليز مع أبي أرى نفسي في بلادهم ، غير أنني اتحدث وكأنني في مصر ، ولم أدر سر ذلك ! ، أرى أبي أمام مبني غريب ، قصر ومسجد معا ، الماء يسيل من حوافه ، يمسك دلو من رخام ، يومي إلى ، لكنني لا ألبس ، فيولي ظهره ، ويدخل مع الداخلين ، ابني وحدي ، ثم رأيت شابا مقبلا نحوي ، رأيت باسما فاطمان داخلي ، اشار إلى فتقدمت ، تبعته ، حتى رأيت صاحبي الشهيد يجلس إلى متضدة مستديرة ، نفس الهيئة التي تركته عليها في مدينة فاس ، يتقش الجلد بالمطرقة ذاتها ، كأنني انظره في عالمه الأرضي ، كأنني لم أفارق ، ولم أعرج ، ولم أعرف لحظات التباعد الأولى ، وما أمرها وما أكثرها وما أطولها رغم قصرها ، يتطلع إلى بعينين صافيتين ، يقول لي :

خلاص ؟.

أقول بسرعة :

- لا ..

يقول لي :

- لا تنس أن الموت الحقيقي يبدأ مع اكتمال النسيان ..

يرتجف قوادى ، ولو أن قلبي معي لا اضطرب ومال ، يستمر صاحبي

الشهيد ..

- لا تنس ، إذا استمر ذكر الإنسان ، أو اللفظ باسمه بعد موته ، أو اجترار سيرته مع من أحبوه أو عرفوه ، فإنه يصبح في اعتبار الحى ، لكن إذا تم النسيان .. يكون الموت ..

كدت ادرك ما وراء قوله ، وتذكرت شيخي الأكبر إذ يقول ، لولا الخيال لأصبحنا في عدم ، كتمت رد فعل ، وامسكت على أنفاسى ، بينما يستمر في دق الجلد بالمطرقة ، لا يكف عن النقش ، اشم رائحة جلد مدبوغ نفاذة ، أرى حقيبة بنية اللون اشتراها لى أبى فى أول سنى عمرى ، لأضع فيها أولى كراساتى وأقلامى ، علمنى كيف افتح القفل ، وكيف أغلقه ، بدا مرحا ، بل إنه غنى ، وفى هذا المقام ادركت لأول مرة فرحه ، إنها المرة الأولى التى يشتري فيها حقيبة مدرسية ، إنها الحقيبة التى ود أن يحملها يوما .. عاودت النظر إلى صاحبي الشهيد وأنا مرقق العبرات ..

- ولماذا يكون الحاق ؟ -

يقول :

- «لكى تولد الأهلة والشموس ..» .

أعابه :

- «وتلومنى ..» .

يلوح بيده الخالية ، وكأن ما يطلبه هين ، بينما يده الأخرى لا تكف ..

- «مع الزمن يقل عدد الذاكرين ، فيطمع الراحل فى اطالة امده ..» .

لمحت الشاب الذى دلنى ..

- «من هذا؟» .

يقول صاحبي مبتسما ..

- «من هذا؟ إنه مازن أبو غزالة ..» .

اسدد البصر مرة أخرى فلا أراه ، صاحبي الشهيد يجلس موليا ظهره

ناحيتي ؛ أناديه فلا يلتفت ، يصمت فلا يجاورني ، يتردد في سمعي هديل
الجمامة ، والسماء ذات الرجوع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ،
وما هو بالهزل ، عرفت أن هذا آخر العهد بصاحبي الشهيد ، فالرحمة ،
الرحمة ، من بعيد ، دان ، وافهموا شجني وشجوي يا أجبائي واخواني ،
فهمني الله واياكم سرائركمه ، وهدأ خواطرنا المكلومة ، آه يا عظيم السلطان ،
يا واسع الرحمة ، يا عميم الإحسان ..

* * *

سريان بين مقامين

إن الممكنات لا تنتهي
فما ببالكم بالأمكنات؟

.. إني على سفر عظيم ، رحيل في رحلى ، فإلام المصير؟ ، عند ولوجي
هذا المقام كنت أشبه بمن سيشرع إلى محلة لن يبلغها إلا بشق الأنفس ،
لا يعرف ما سيجده إذا ما بلغ ، وعند الوصول لا يدري إن كان سيقف على
ما فارقه أم سيتقطع عنه إلى الأبد؟ ، وهذا عين حالى أنا المسافر دائما ،
المغريب أبدا ، فأنا قاعد في قيامي ، قائم في قعودي ، والتفكير في السفر أو
البدء فيه باعث للأحزان ، لأن فيه فراق الأوطان والأحباب ، وهذا حال
حيرتي وكدر صفوي ، ذلك أنني كنت في أيامي مع أهلي وصحبي أحن إلى
رؤية ما تقع عيني عليه أول مرة ، أتوق وأصبو ، وأسعى ، وأبذل الجهد ،
حتى إذا تم مرادى انقلب على امرى ، وذلك لفراق الأحباب ، وفراق
الأوطان ، وعند وصولي إلى أرض غريبة ، يعكنى ألم وضيق ، وأنوح بلا
دمع ، إذ أكره مواجهة من يجهلني وأنا من المستضعفين ، أما أشد السفر قسوة
ما يجبر عليه الإنسان ويعرف هذا عند الجاعة بالننى ، وقد خبرت هذا كله ،
فاذا افعل أنا المجبول على الشوق دائما ، أنا خير من يعلم أن من اشتاق سافر ،
ومن سافر ابتعد ، ومن نأى غرب ، ومن اغترب ضاع وفقد ، ومن ضاع
لا يرجع ، ماذا بيدي أنا المجلوب لى الشوق كلما تنفس شاك أو تألم ذو وجد؟
أنا من يروم الجوى دائما ، وانقل ما عانته عيني إذا بان أحباب وعز إياب ،

إذا استعصت لحظة عابرة على الاستعادة ، قد تبدو في أنظار الآخرين غير ذات معنى ، لكنها عندى المقال كله ، ماذا أفعل ؟ ليتنى أفهم اغترابي . وأصل إلى لب برهاني ، ليتنى قادر على اطلاق لسانى ، وسبر اغوار جنانى . فيا كل غناى . ومدى سؤلى ، وغاية رغبتى ، وموضع آمالى ، ومكون اضمارى ، لماذا أزعج فى سفر داخل سفرى ، لم أدر أنتى مقبل على السريان فيما لم يعرفه بشر .

يتقدمنى شيخى الأكبر محبى الدين ، افهم عنه أن كل ما سأفكر فيه سأراه ، فلن توجد المراثيات لأراها ، بل ستجسد لأننى أريد رؤيتها ، وهذا عظيم جلال ، لم يعرفه كريم ممن سبقونى ، كل ما أطلبه أشاهده عدا المحظور الذى طال التنبيه عليه ، رأيت الآتى فى الماضى ، والأزمة الثلاثة ، والأحوال الثلاثة ، طلبت السريان فى الأصول ، رأيت الذرات ساجحة فى السدم الجبارة ، بعينى الانسانيتين ، شاهدت الذرات التى لا يمكن للبصر ادراكها ، إنها أصل نشأتى ، هذا تفرقها ، وتجمعها ، ثم تشتتها ، ثم تلاقيا ، اتحادها لإخراج صورتنى ، ثم توزعها ، بعد فنائى ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع ، رأيت جدا بعيدا ، من جهة أبى ، طويل الشعر ، يمسك جذعا غليظا ، يمشى فى فلاة قاصدا جمعا من الإخوان ، رأيت جدا لأمى فى زمن سحيق ، يطل عبر كوة ضيقة إلى بسطة من أرض غريبة الألوان والتكوين ، حاولت الاستواء فى مواجهته غير أن ذلك لم يدم ، إنما رأيت مستقبلا قادما ، لن أبلغه قط ، هذا رجل نحيل ، يغطى رأسه بحوذة معدنية لا أعلم لأى غرض ، أما لباسه فغريب ، لاصق بجسده ، هذا يمت إلى بصلة ، إنه من نسلى ، لى فيه باع ومقدار ، لا يعرف شيئا عنى ، ولا عن أبى وأمى ، وجدى وجدودى ، هذا زمن شديد النأى

عن عصري ، بل إن زمني لا وجود له ، ولا ذكر في هذا البعيد الآتي ،
يشيرون إليه قائلين ، الحقبة المجهولة ، ادقق في ملامح حفيد أحفادي ،
اتعجب واسلو ، ثمة شبه بينه وبين جدى الذى رأيت في تجليات الأسفار ،
الذى خرج إلى هجاج عظيم ، باحثا ، متقبا عن السر والجواب الذى حيره
وأقضى مضجعه ، النعامة ، أطير هي أم حيوان؟ ، أعاود النظر لأتملى واستريد
لكنتى اسرى على الفور ، رأيت الحدود كلها ، ولولا الحدود لما ظهرت
الفروق ، مرج البحرين يلتقيان ، رأيت زمنا آتيا ليس بعيد ، ما من حى فيه
يذكر أبى أو يستدعيه بصور الخيلة ، وتذكرت بوعي البشرى خواطرى بعد
خلو الدنيا من تردد أنفاس الوالد الكريم ، إذ أحاول أن احصى من عرفوه ،
وصاحبوه ، وكان لهم معه رفقة ، أقول إنه لا بد يرد على خواطرم وإن في
صور خاطفة عابرة ، أو يمرق في أحلامهم التى تنسى بعد اليقظة ، كنت إذ
اسمع بموت واحد من أحبائه أو اصحابه أحزن ، وأودع جزءا اتوهم أنه كان
متبقيا ، حتى أشهدت في سريانى. هذا ذلك الزمن حيث لا يوجد إنسان
واحد ممن سمعوه ، أو رأوه ، أو وقعت اعينهم صدقة عليه ، فارتوى اسأى
بقطر جديد ، حتى مأواه الأبدى لا أثر له ، وقد سبق أن رأيت عبر هذه
التجليات مبنى معدنيا في موضعه ، لم أدر محتواه ، لكننى في هذا السريان
أرى حديقة مغطاة بجشائش لم أرها ولا أعرفها في دنياى وعبر كل تجوالى
وأسفارى ، لمن الحديقة؟ لمن الزهور؟ لمن هذه المقاعد؟ من يتردد عليها؟
أين مستقر عظام أبى؟ ، أين عظام أمى؟ لكن لماذا أسأل عن أمى؟ ، أليس
هذا بزمن بعيد قادم؟ اتظن يا عليل الخاطر أنها ستبلغه؟ ، نعم .. أعرف أنها
لن تصل إليه ، لكننى مرجف ، مبلىل ، عندى القلق كله ، وعدم القدرة على
التحقيق ، فالرحمة يا قدامح ظنى ، والهويتا يا قوى رجائى ، فلا تسألن عن

شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، صدق ربى العظيم ، وانى قابل بما تقضى به ،
هذا تصريحى وعين حالى .

سريت إلى بعد سحيق لا يمكن للعقول أن تدركه ، تلك بحجرة تضمحل ،
نفى ، اعرف بالتلقى أنها تحوى بعضا من ذرات وجزيئات انتمت يوما إلى
حضور أمى الدينوى ، رأيت ناصبة طريق مرصوف بحجارة قديمة ، على
جانبيه حشائش وعند نهايته كنيسة صغيرة ، مهدمة الواجحة ، رأيت سلما
ضيقا ، تصعده فتاة بهرنى طولها ، طول غير مفرط ، قامة سامقة ، رشيقة ،
متناسقة ، فسبحان من سوى مثل هذا الجذع الإنسانى الجميل وجعله يدب
ويسعى ، يسعد ويشقى .

رأيت شجرة ضخمة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، رأيت مصباحا
خزفيا أزرق اللون ، رأيت محاراً غريب الهيئة على شاطئى بحر ، رأيت خلقا
متباعدين كثيرين ، وفى هذا كله تفرقت ذرات من والدى ، لم استطع
التوقف للتملى والتعكن ، كمن يحاول قراءة لافتة عبر نافذة قطار يمرق مروفا ،
هذا غمام كثيف ، تلك قم مغطاة بالثلوج ، بيضاء من كل سوء ، وديان لم
يطأها بشر ، تراب ناعم كاللديق لم تحركه نسمة أو رياح من العصور الأولى ،
رأيت الرموز والأمور الملتزمة ، رأيت الجمع فى التفرقة ، والوصل فى الفصل ،
والمستقبل التالى ، حيث الصلاح فى الخلل ، وظهور الدعاوى ، حيث يجود
الأغنياء على الفقراء بما فى أيديهم ، ويجود الفقراء على الأغنياء بالقبول ،
وإذا بالكل راض ، فلا فقير ولا غنى ، لا صحيح وسقيم ، إنما الجميع فى
الصحة والعافية مقيمون ، رأيت زمن العدل ، الخلق كلهم يطوفون ببعضهم
كأنهم ولدان مخلدون ، فى أيديهم اباريق وعلى ثغورهم ابتسامات الرضا ،
وأمامهم كؤوس من معين ، رأيت نغمات الإحسان وأصوات الألحان ، وحنين

الغيب إلى المعلوم ، فسمعت فقطبت فتحركت فوجدت فحمدت فحصلت لطائف الأسرار كلها ، هذه لور ، أنا من احببت ومن أحببت أنا ، تقبل كما عرفتها ، تحنو كما حنت ، كان حنينها على دائما متصلا ، هذا الحنين الذي يتركز في اللحظات التي تسبق الفراق ، ولكنها اسبغته على في كل حين ، لور . . من لى بطة من عينيك ، بشمة من شعر رأسك ، من الاشتياق ، من لى بنسمة من المحبة ، يا شفاء قلبي لما به من لطف المواجيد ، يا صفة غير موصوفة ، يا رقيقة الندى ، يا متواجدة أبدا فيما بين الضوء والظل ، في نقطة انفراج الفرع عن الجذع ، من لى بك يا كاملة ، يا رقيقة ، يا حنون ، يا من عنصرها الأعظم الرقة والرحمة ، وعنصرها المنعدم ، الجفوة ، يا من لها غاية الطريق ، اسمك في الصفات المقتدرة ، وفي الأفعال المحيية ، أما حضورك فن عالم الغيب ، لأنفاسك الانفراد ، والصوت ، والمدى الأنتق ، يا من هي أنا ، وأنا هي ، ترتفع الأنوار والليل والظلم ، والشمس والغسق والليل وما وسق ، فتسطع سبحات العدل ، يتقنى المرض ، وما يعود إلا الصدق ، ويعني المهم ، يسرى أمامى شيخى الأكبر ، اسمه يخاطبني ، يقول لى : قال واحد من تلاميذى في الطريق ، قال الشيخ الجيلاني ما يناسب رؤياك عند هذا الحد من ذلك المقام ، أعلم ان الارادة لها تسعة مظاهر في المخلوقات ، الأول هو الميل أى انجذاب القلب إلى مطلوبه ، فإذا قوى سمي ولعا وهو المظهر الثاني ، وإذا اشتد سمي صبابة ، فالقلب إذا استرسل فيمن يجب فكأنه انصباب الماء إذا أفرغ لامر من انصبابه ، وإذا تفرغ له بالكلية ، سمي شغفا وهو المظهر الرابع للارادة ، وإذا استحكمت في الفؤاد ، سمي هوى وهو المظهر الخامس ، فإذا استوفى حكمه على الجسد سمي غراما ، وهذا أشد العذاب ، قال جل شأنه في جهنم « ان عذابها كان غراما » ثم إذا نما وزالت العلل

الموجبة للميل سمي حبا وهو المظهر السابع ، ثم إذا هاج حتى يفنى الحب عن نفسه سمي ودا وهو المظهر الثامن للإرادة ، ثم إذا طفح حتى أفنى الحب والمحجوب سمي عشقا وهنا يرى العاشق معشوقه فلا يعرفه ، كما روى عن مجنون ليلي . مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه فقال لها دعيني فأني مشغول بليلي عنك ، وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، حيث لا عاشق ولا معشوق ، ولا يبقى إلا العشق وحده الذي لا يدخل تحت رسم أو اسم ولا نعت ولا وصف ، وحيث لا عاشق أو معشوق ، يقول شيخى الأكبر ، وقد ظفرت بما ظفر به غيرك من أهل الجاهدة والمعاناة الحقة ، فأمم سعيك ، واقصد سبيلك . يغيب صوته عنى ، يتوالى سريانى فى الأشياء ، أو سريان الأشياء فى ، أرى الحديد فوق الماء ، والزهرة تلدغ الحية ، والشجر يأكل الجراد ، السمك يسبح فى البر ، ويموت فى البحر ، أرى الزمن يمضى معكوسا ، فيولد الإنسان شيخا ، ثم يكبر فيصير شابا ، ثم ينضج فيصير مراهقا ، ثم يصل إلى الحكمة طفلا ، ثم توافيه المنية جنينا ، ويلفونه فى مشيمة الرحم ، ويشيعونه عبر فرج الأم إلى مثواه الأخير بالبكاء والنواح والعيول الطويل ، ينجتنى ، يتحول إلى نطفة ثم علقة ، يرتد إلى ما بين الصلب والترائب ، رأيت القمر بالنهار ، والشمس تشرق عند نزول الليل ، والهلال فيه الاكتمال ، وفى البدر التقصان والمحاق ، هذا طور مختلف من سريانى ، إني متقلب وأنتم منقلبون ، قال خذها ولا تحف سنعيدها سيرتها الأولى ، فرحت إذ رأيت جمال عبد الناصر ، يسعى بين الخلق ، يحكم بالعدل والحسنى ، يمشى بلا حرس ، بلا بصاصين ، الكل يقول له : طالت الغيبة ، حسنت الرجعى ، لم أدر أى زمن هذا ، رأيت نفسى مقتربا منه ، دانيا ، أقول له :

- «أما من فرصة لى معك ؟» .

يقول لى :

- «هل عرفت؟» .

أقول : «لم يصح الكمال وأريده أن يصح» .

يقول : «اثبت» .

أقول : «لم تركت بيتك يخرّب؟» .

يتبسم قائلاً : «لما استطلت عليه أيدى الأعدى حين أخليته فأفنت ثم افنت ، ثم خلقت الجلف الجاني في قومي فهد لتخريبه ، فلما هد من قواعده ما هد رددت إليه بعد الفناء فأشرفت عليه فدارت الدورة دورتها ، وهذا أنا وهذا أنتم !» .

أقول : «وأين أنا؟» .

يقول لي ابن عبد الناصر ، حبيب المظلومين ، نصير الضمحاء :

- «أنت ساكن» .

أقول له بجنو :

- «والساكن ارتحل» .

يقول لي :

- «الحق عنك ، وهذا غاية وسمى»

اتركه متشياً ، ليس لأنى فهمت ، وإنما لرؤيتي له وادراكي رجعا ،
أرى الخلق يبحرون في البر ، ويشقون الطرق في البحر ، أرى الحر بن يزيد
الرياحي ، استبشر قرب حبيبي الحسين ، أقبله ، يرحب بي ، يسهل لي
أمرى ، أقول له :

- «متى عهدك بك؟» .

يقول لي :

- «منذ توسطت هذه اللجة ، وانحزت إلى جانب حسيني وحسينك» .

أقبله ، أودعه ، أرى كل شيء فى كل شيء .،. الفناء قبل الخلق ،
أقول ، هذه حكمته وهذا شأنه ، وهذا قضاؤه ، له الأمر ولنا الطاعة ، له
التدبير ولنا الامتثال ، أرى ما لم أكن أعلم ، أرى صاحباً لى ، ابراهيم
زيدان ، واحداً ممن راحوا فى الحرب المغدورة. ، أقول له :

- « يا شابا لم تزل ، ارفع الهمة . »

يخبرنى :

- « مضى زمان رفع المهمم . »

أقول :

- « انسى ما نهيتنى عليه . »

يقول :

- « بل أنتم الذين نسيتم ، ونسيتمونا . »

أقول :

- « بوركت من مقاتل ورجل . »

أقبله ويقبلى ، يلوح لى زاعقا ..

- « جئوا بالكم من الوطن قبل أن تضيع الفريسة . »

سريت عنه ، اعبر ضبابا غربيا مرجاني اللون ، أمر مرور الكرام بعصور
أجهلها ، أراها فى مجملها ودقاتها ، أسمع أنغاما يطرب لها القلب ، غير أن
قلبي ليس معى ، ليس طوعى ، لمحت مقرنصات زمنى الأول ، أرى الميدان
الذى يحمل اسم شفيعى ، أبى يعبره متمهلا مرتديا جلبابا من الكستور المخطط
واللون بنى ، فأينت أشواق ، آه لو اظلل هذه اللحظة بروشى وظلال
نظرائى ، لو اضمها بين يدى ، لكن يداى ليستا طوعى ، منفيتان عنى ، أود
لو آتيكم منها بقبس ، رب خاطر يحول بأفئدتكم يا اخوانى ، وماذا فى لحظة

عابرة ، ما الذى يعنيه مرور هذا الأب فى ميدان الحسين ؟ اعرف أنه لا شىء بالنسبة إليكم ، ولكنه عندى تراثى وحفظى وصونى ، ولا يميننى هذا من تكرار الوصية ، فرب لحظة تنقضى لا يتوقف البال عندها ، وربما تكون باعثا للعذاب كله أو السلوى بعينها ، فلا تهملوا النظر ، وامعنوا الفكر فيما حولكم ، أشد ما آلتى فى سريانى هذا تلك العصور التى سيمحى فيها اسمه واسمى ، رسمه ورسمى ، لن يعيش فيها من يذكرنا ، أرى وجوها صغيرة متضامة تنظر تجاهى ، اتشاغل بها حيننا ، هذه أمى الجيبية ، المشغول فى غربتى بها ، القلق عليها ، إنها تركب قاربا ، والنهر من ألوان ، أخضر وأحمر وأزرق كالسمااء فى صفائها ، النهر ممتد وعند نقطة سينحى ، وثمة جنود يقفون فوق قنطرة حجرية ، يتوسطهم ضابط يرتدى ثيابا معدنية ، أمى تلتفت ناحيتى ، تصيح ، تنادىنى ، انزل يا جمال ، انزل ، انزل ، وأنا متشبث ، لأبى ، وعند حد معين تقفز أمى من القارب ، يتلقفها أبى الذى ظهر فجأة ماذا يديه ، يديران ظهرهما للجنود المدججين ، يسرعان ، يذويان فى اللون الأخضر العميق ، بينا يولى القارب فى النهر وأنا ألعن الفراق. أرى احتفالا اسرائيليا ، جند منهم يصطفون فى فناء مدرستى القديمة ، ظهر منهم ثلاثة يرتدون لباس مقاتلى البحر ، ثم تكاثرت جمعهم ، أحدهم يشبه البحار الملتحي الذى رأيت صورته على غلب السجائر ، تحلقوا حول شىء لم أتبينه بداية ، وأن علمت أن يحثم طال عنه ، أعرف أن ملنى فى المدرسة ، فيه درجائى ، وشهادائى حتى هذا الحين ، يشعلون نارا ، يصرخون ، يرفعون الأيدي مهددين ، أرى نفسى جالسا فى خلاء اتفرج على شريط سينمالي وحدى ، فى البداية أرى تمثالا لواحد من آلهة الاغريق ، ذكره بادى ، ظاهر ، ثم يتبدل موضعى ، أصبح فى قاع بئر معتمة سوداء ، وثمة فتحة دائرية يبدو منها ضوء السماء

البعيدة ، ادرك أن عرض الشريط مازال مستمرا ، يحاطبني هاتف خفي قائلا ، سترى اباك ، أبدأ الانتظار ، اسمع خطاه ، ومع كل خطوة ارتفع مقدارا ، حتى شارفت على الضوء وبقيت في مركزه ، ألمح أبي بخطو متايلا ، طريقة المشي ذاتها ، يرتدى ثيابا جديدة لم أعهد لها عنده .
«أبي .. أبي» .

يلتفت ، اتجه نحوه ملهوقا عليه ، يبدو وكأنه ينتظر لقاء بمن يعرف ، اصافحه ، انتبه إلى أنني دخلت الشريط السينمائي ، أنا جزء منه ، حواسي كلها تلتقط ملمس يده .

- «أبي .. كيف حالك؟» .

- «أنا بخير» .

- «أوحشتنا» .

يبدى تلملا ، يسحب يده ، يستدير على مهل ، وإذا بي أرى أمي إلى جواره ، اهفو ، كيف لم أنتبه ، كيف لم ألحظ ، أية غفلة؟ انادى ، غير انها لا يجيبان ، يستأنفان نزهتهما في فناء الكون ، يبدو أمامي رجل غامض .
- «أبي متوفى ، راحل ، فلماذا يصحب أمي؟» .

يلتفت ناحيتها ، لكنه لا يجيبني

- «ألا تجربني بما جرى لها في غيبتى؟» .

لا يلفظ حرفا ، بأى لسان اخاطبه؟ ، فجأة أقول :

- «ألا يمكنكني أن أحصل على صورة لها هنا؟» .

يغمزني رجل آخر في ظهري ، يقول :

- ما دام قد وعدك فسيفعل ، لا تكن لحوحا ، وامض» .

فأنصرف مطرقا وأنا منقلب البصر حسير ، أرى نفسي متجها إلى مجمع

هائل من المساكن الشعبية ، آخر ما بناه عبد الناصر للفقراء ، اتوقف عند باب شقة ، تبدو أوى حزينة ، عاتبة ، لا تتكلم ، أقول لها :
- « لا تضيقى ولا تحزنى ، لقد بدد الزمن شملنا ، وتلك مشيئة الدهر » .

كنا نتأهب للانتقال من هذه الشقة إلى مسكن آخر ، لكن ليس كلنا ، ولم أدر من سيفارق ، ومن سيبقى؟ ، يستمر سريانى ، يغيب عنى ماأراه ، لا أنحقق من شىء ، تتوالى على أمور وأقف على أشياء لا يسعنى ذكرها لغموض معانيها ، ومثل ذلك يجرم على كشفه إلا لمن قطعوا فى الطريق شوطا لما يؤدى إليه من التشويش ، فالحمد لله على ما منحه ، وما سمح به ، وإن فهمتم ما أشرت إليه قل تشغيكم وربما زال كله ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت ، عندئذ التفت شيخى الأكبر محيى الدين الى ، بلا منه ما طمأننى وأراحنى ، إذ تبسم لى ، قال :

- « لا تدخل دارا لا تعرفها ، فإ من دار إلا فيها مهاو ومهالك ، فن دخل دارا لا يعرفها فما أسرع ما يهلك ، لا يعرف الدار إلا بانيتها » .
أقول :

- « إني مسكين ، يُضرب لى المثل بعد المثل ، ولا أفكر فى تحبظ الظلمة ، بل احسب أننى فى النور » .
يقول لى بلهجة حنو لم اعرفها منه :

- « يا مجاهدا لم يزل ، امض إلى يوم عشته ولم تره » .
أنفهم ما يرمى إليه ، فيهب على نسيم الشوق ، يأخذنى عنى ، ويخدبني منى ، يذيب جواى ، ويمتحن. كائى وبائى ، اسمع صوتا يهدر :

- «من الملك اليوم؟» .
يجيبه شيخى الأكبر عبي الدين :
- «الله الواحد القهار...» .

* * *

مقام الجوى
فَكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَّرْنَاكَ الْيَوْمَ حَدِيدًا

.. كأني اعود إلى دنيائى ، إذ رأيت الكون كله ، غير أنني أرحل بالبصر
والبصيرة ، باق حيثما أنا ، أعبر حوافه ، واجتاز المجرات والسدم والثقوب
السوداء ، اقطع المسافات التى تفنى دهورا ، يلوح لى كوكبنا الشمسى ، أرى
توابعه متعامدة عليه ، أميز زحل بحلقاته الغبارية ، والزهرة لسطوعها ،
وعطارد الملتب ، ودرة المجموعة ، أرضنا التى منها.جئنا وإليها سنرجع ،
تواجه الشمس. بنصفها الذى فيه قارتنا الافريقية ، وبحرنا الأبيض ،
والأحمر ، والقارة الأوروبية ، اشعتها توشك على ملامسة أرض مصر بينا
تهب ريح شمالية ، ونيزك هائل قادم من بعد سحيق يتفتت على حافة غلاف
أمتنا الأرض الجوى ، عرفت ها هنا أن ألفا وثلاثمائة وستين عاما قد انقضت
على استشهاد من قطر حبه فى نخاعى ، مولائى الحسين ، وأن عشر سنوات
وشهراً واحداً ، قد انقضت على رحيل من صارت أيامه حلما ، جمال عبد
الناصر ، فى هذا اليوم بقى للشمس مرات شروق توازى المشارق التى تمت ،
أى انصف عمر كوكبنا تماما ، هنا ما ألقى فى معارفى ولا تسألونى الشرح أو
الزيادة فاللم صعب ، والخطب وعر ، هذا يوم تعارفنا على تسميته بالاثنين ،
الثانى من السبعة ، يوافق السابع والعشرين من أكتوبر ، ألف وتسعمائة وثمانين
طبقا للتقويم الميلادى ، إذن .. هنا ما كان حيثما فى غيبنا ، «وما تدري نفس

ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ، اعبر شوارع القاهرة ، أصل إلى هذه المنطقة من الحى السكنى الجديد الذى شيده عبد الناصر للمعسرين ، وكان ذلك آخر ما شرع فيه لنا نحن رقيقو الحال ، رحم الله نصير المهضومين ، ولعن ربى الظالم ، الوضع ، الذى اعقبه ، وساحك الله يا جمال لأنك اخترته وسلمته الأمانة فخاها ، وحفظت عنده الوديعة قنبا ، وبددها ، وأعسر مصائر الكثرة ، ساحك الله ، وليس هذا بمقام مناسب لأفضى إليك عتابي .

دخلت شقتنا ، أنفاس النيام تدفقا ، ولجت الحجرة التى تقع فى مواجهة المدخل ، هذا أبى يفتح عينيه بعد نوم دام سبعا وسبعين دقيقة منذ أن صلى الفجر واغنى ، هذا وجهه ذو الغربة والتعب ، لكم بدا لى نحيفا ، لكم ثقل على المقام ها هنا ، مع أن ما اطالعه ذروة الكرم الذى اسبغه سادنى على ، فلا تمزيق وتفريق اعضابى ويقالى فى الوقت نفسه حيا ، ولا سريانى عبر المجرات وخروجى من الكون كله ، ولا نفاذى عبر الحجب الزمنية ، ولا تواجد صورتين ، أصلية تسعى فيما لم يره بشر ، وصورة باقية بينكم تقوم بكل ما كان مفروضا أن أؤديه وأتمه حتى سقوط ورقتى من شجرة الكون ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، فى وجه أبى الذى أطالعه عند آخر شروق عليه ، رأيت ما مضى من عمرى ، وجهه لمولاي الحسين فقد كانت أول صورة وردت على خاطره الرأس الشريف ، المقصورة الفضية ، وزخارف الحشب ، والممر القصير المؤدى إلى حجرة المخلفات النبوية ، والثريا الضخمة الكريستالية المغطاة نهارا بقمش أحمر ، تلك صور تبعث حنيننا فى القلب الهرم ، أرى وهنه وخفقه ، لو أن الإقامة دامت على مقربة من الحبيب ، لصلى الفجر كل ليلة هناك .، لكن المسافة الآن بعيدة ، من مدينة نصر إلى

الحسين ، يتبسم خاطره ، في أوائل الحرب ، عام أربعين أو واحد وأربعين ، لا يذكر تماما قال له الحاج عبده مدير فندق الكلوب المصرى ، ادفع جنيها يا أحمد واشتر ألف متر من أرض الدراسة ، ضحك يومها ، قال : اهنا معقول ، حتى لو معى جنيه أرميه فى الجبل ، ثم لماذا ابتعد عن الحسين هذا البعد كله ؟ ، كانت الدراسة آخر حد العمار بينها وبين الضريح الغالى مسيرة خمس دقائق فقط ، لم يدر أن الزمن سينأى به بعيدا ، بعيدا ، حتى يكون فى حاجة إلى ساعة ونصف ركوبا ليصل إلى المسجد ، لم يكن يعلم ، « يوم يتذكر الإنسان ما سعى » ، اتابع شروق الشمس والمقام يتقل على ، اعرف أن شمس اليوم التالى ستطلع على أبى متمددا فوق السرير هذا ، لكنه سيكون جسدا هامدا ساكنا فى انتظار المواراة ، لكم اثقل على لأننى فى هذا المقام بين بين وليس بين ، فقد جتته والوعى مكتمل ، عالم بما سيكون ، ملم بما سيقع ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وهذا لم يتفق لإنسان مخلوق غيرى ، إذ جمعت زمانين متباعدين ، فأنا معه ولست معه ، أتى لى أن انبته ؟ أن أخبره ؟ أتى لى ومشيئى ليست بيدي ، نشاء ويشاء ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، يبدو وكأنه يشعر باقتراب النبأ العظيم ، الذى نحن فيه مختلفون ، كأن قلبه الصابر ، الجلد ، لم يضمن عليه ، فأنبأه بالإشارة إلى ما سيتم ؟ ، ليس عند هذا الشروق وحده ، لكن من وقت ليس بقريب ، وإلا فإذا تعنى زيارته للبلدة ، وطوافه بالمواضع الأثيرة كلها ، ومصافحته لمن بقوا من الزمن العتيق ، والابناء الذين يضطر إلى الاستفسار عنهم ، من هم ومن آباؤهم ؟ حتى الحرم دخل علين وسلم ، وزيارته الموقى الراقدين فى الصحراء خارج زمام البلدة ، وقراءته الفاتحة عند قبر أبيه وأمه ، تلك زيارة لم نخبرنا بها ، ولم يطلعنا عليها ، إنما علمت بها فى حياتى الدنيوية عندما ذهبت إلى جهينة أول مرة بعد

سفره الأبدى ، اخبرونى بطوافه وسلامه على الناس ، وجلوسه عند الجسر وحيدا ، أية صور وردت على خاطره ؟ ، وأية احاسيس ارجفت عينيه المقطبتين ؟ ، هذا من أجلّ أسرار ذلك المقام ، هذا ما لن أعرفه قط ، لا أنا ولا غيرى ، قد ولى أبدا ، «يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى» .

اخبرتنى امرأة خالى : جاء أبوك وقعد معنا واطال النظر إلينا ، وعندما انصرف كان يحذف فى مشيه إلى الوراء ، قلت لحالك فى الليل وخالك يشهد ، هذا رجل موشك على الرحيل ، أحمد الغيطانى لن يتم هذه السنة ، فلما أخبرتني بذلك استعدت نظراته الهادئة تجاهى عند انفرادنا فى الشرفة ، باسم الحضور ، وديع الوجود ، طالب القرب ممن أحب قبل بدء البعاد ، أما عيناه فشفقتا عن حزن اسيان ، وبعثت فى نفسى ما تبعته هذه الأيام الوداعة بطيئة المضى من رقة مرهفة وحنين وأسى ، «فبأى آلاء ربكما تكذبان ، سنفرغ لكم أيها الثقلان» ، اخبرتنى عمى ، أخت أبى غير الشقيقة ، أنه جاءها وقضى عندها ليلة ، رأت هدمومه متسخة ، فغسلتها له ، وقال لها : نفسى أموت فى جهينة فلا أسبب تعباً لأولادى ، من اجراءات دفنى ، ومصاريف جنازتى ، فقالت له ، تف ما قلته يا شيخ ، قال الله ولا فألك ، ثم قالت عمى : ما انقطع توصلوه أنتم ، بارك ربى فيكم ، «لا يسأم الإنسان من دعاء الخير» ، ها هو أبى يقوم فيمشى من الغرفة إلى دورة المياه ، إذ يفتح الصنبور ، يتدفق الماء محدثا صوتا مرتفعا ، يحفف اندفاعه حتى لا يزعج اخوتى النائمين ، كذا أمى ، غير أن أمى التى تفتح عينها عند استيقاظ أحدنا ، كانت تمضى إلى المطبخ ، أحمد يجب شرب كوب من الشاى الساخن قبل نزوله اليومى ، كانت تردد فى تلك الأيام : الرجل كبير والمشوار بعيد ، صعب عليه ، يحفف أبى رذاذ الماء ، يرتدى جلبابا من الكستور ومعطفا خفيفا وجوربا بنيا ، وحذاء قديما لكنه

متأسك الهيئة ، إنها الملابس التي سترقد فيها عند عودته المتأخرة ، لن يجعلها بنفسه ، بل سيتزعمونها عنه ، وسيتمدد عاريا في انتظار الكفن ، لكن مالى اتعجل ؟ « وكان الإنسان عجولا » .

أرقب خطاه التي وهن العمر منها ، عند منعطف السلم قرب الطابق الأول ترد صورتى على خاطره ، « ياترى أنت فىن يا جمال يا ولدى ؟ » يدعو الله أن يرجعنى بالسلامة ، لما اطلعت على حنينه هذا ارتاح فؤادى ، وتمنيت لو هدا قلبى ، لكن أنى لى قلبي ؟ ليس معى ، ربما تلك نعمة على ، فلو معى لا نفطر ، « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأياها الإنسان ما غرك بربك الكريم » ، يبدأ سعى أبى الأخير ، لم تعد أمدى إلى مرقدها على غير عاداتها ، تفتح باب الشرفة حذرة حتى لا توقظ اخوتى فى هذه الساعة المبكرة ، تطل ، يمضى وقت حتى يخرج أبى من باب البيت ، يمشى ممبلا إلى الإمام ، يعقد يديه إلى الخلف ، أراه من نقطة مرتفعة ، أعلى من كل البيوت ولم أدر الغرض من ذلك ، عند نهاية الطريق يتوقف لحظات ، يحول بالبصر حوله ، يحدق فى الطريق المقابل كأنه ينتظر ظهور شخص ما ، يواصل سعيه ، لم ينتظر طويلا ، تجيء مركبة النقل العام ، يجلس فى المقاعد الخلفية ، هكذا اعتاد مع أن أجرة الركوب موحدة ، والركاب قليلون فالوقت مبكر ، كانوا ستة رجال ، وامرأة عجوزاً ، عاملا فى مصنع نسيج يدوى اسمه رزق ، ومفتش قطارات اسمه ابراهيم ، وثالثا اسمه رجب لم أحط بمهته علماً ، ورابعا يعمل فراشا فى مدرسة خاصة لم اعلم عن اسمه شيئا ، وخامسا اسمه مسعد عامل تجليد ، وسادسا قصيراً ممتلئاً ، أما المرأة فاسمها سعدية ، تمضى إلى زيارة ابنتها المتزوجة والتي ستسافر بعد يومين مع زوجها المنقول إلى الصعيد ، سائق العربة شاب حديث العهد بالعمل ، انهى خدمته العسكرية ، أما المحصل قديم ، ومن قبل كان يعمل

بانما لأدوات الكتابة أمام مبنى محكمة عابدين .

هؤلاء هم من رأوا أبي في مطلع هذا النهار ، سابع وعشرين أكتوبر ، يرتاح لخط سير هذه المركبة ، تمر بالأزهر ، تتوقف ، يمكنه من نافلتها رؤية مسجد إمامه الحسين ، وقراءة الفاتحة ، ينظر فیری المئذنة السامقة ، وإياما نائيات ، ومقاهى مزدحمة بعد صلاة الجمعة ، واكتمال صحبه ، ورائحة شای معطر بالنعناع ، يمن إلى ابنه الأول خلف ، والثاني كمال الذى لم يكن يفارقه أينما ذهب ، يمن إلى ابنه الذى عاش وهذا أنا ، يقرن حنينه إلى شقيقى الراحلين بحنينه إلى ، ذلك أننى راحل أيضا ، ألت مسافرا ، بنظراته دعا أبى بالرحمة لمن رحلوا وبالسلمة للغائب ، وبالستر للجميع ، والرضا ، وراحة البال ، يتمم بشفتيه ، بسم الله الرحمن الرحيم « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين . تتعد المركبة وهو راض ، فقد ألقى السلام على من ضحى بنفسه شهيدا من أجل أمثاله ، هو الفقير ، اليتيم ، والأمر العجيب ، الذى حيرنى ، أن أبى كان ينظر إلى المراثيات بعينى انسان آخر سيعيش فى دنيا خلت منه ، مع أنه مؤمن بأن لكل أجل كتاب ، راض بما سيم به الأمر ، وقد كان أجله شقيا ، وأمره مرهقا ، والراحات انأى الأمور عنه ، غير أن تعب الدنيا يعقبه راحة الآخرة ، وفيما أوكل إليه لم يقصر ، وما قام به لم يهمل ، وما وصل إلى يده جاد به ، ولو ضن يوما فأنما على نفسه ، « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، أراة متحنيا ، متطلعا إلى الأرض ، وكلما دنت النهاية يزداد الإنسان اقترابا من الأرض « كما بدأكم تعودون » ، فيطول سجوده ، وتحنى قامته ، تقرب من التراب أكثر ، غريب أنه يفكر فى موته ، كيف سيتلقى من يعرفه خبر رحيله ، من فى البلدة ، خلف بك الحسينى الراقد منذ عام فى

فراشه ، تختلط عليه الرؤى ، وتتداخل عنده الأماكن ، وتضطرب الأزمنة ، لا يعود من معارفه القدامى إلا أنى ، الذى صان نسيم الود ، وحفظ جميل العهد ، لابد أن الرجل سيتألم لفراقه ، يفكر فى ابنه المسافر - أنا - ويود لو رآنى ، غريب أن ترد عليه مثل هذه الخواطر ، لكننى لماذا اتعجب وقد عرفت مثل ذلك ، ذلك أننى فى عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين الميلادى ، مررت بأشأم أيامى بعد ذهاب الجلف الجافى إلى ديار العدو منبسطا للصلح ، الجلف الذى تحكم فى مقادير هذه الديار غير يسير من الزمن ، ديارنا المحروسة بال البيت الكرام ، الباسطين عليها رعايتهم ، وحميتهم ، ولولا سيدى الحسين وأخته زينب والكرام الكاتبين والحفظة ، وأبناء السيل ، والفقراء المجاهدين ، لولا الأطفال الرضع ، والشيوخ الركع لصب علينا البلاء صبا ، لجرى لنا من النوازل ما يشيب له الجنين فى بطن أمه ، فى هذا العام اثقلنى وجوده ، وكان من اشق الأمور على أن يضمنى بلد واحد مع من كان مثله ، ومن افطع الدواهي على النفس البشرية أن تعيش فى ظل وضع يبدو من الصعب تبديله ، وهذا ما سأفصله تفصيلا إن مد خالقي فى أجل صورقى البشرية ، فى ليلة من ليالى هذا العام ، وأنا على شفا النوم ، انتهت بغتة ، فزعت لاهث الأنفاس ، مرتبك القلب ، تلين حولى الموجودات ، أما وجودى المادى فيهبوى فى قرار سحيق ، تلفت ، اليقين عندى أننى راحل بعد ثوان ، الموت سيتم فى اللحظات التالية ، سأغمض عيني ولن افتحها قط ، ماض إلى مجهول ، هرعت إلى الشرفة ، كدت اقفز موليا من هلاك مبین ، من لحظتى الآتية لا ريب فيها ، « إن الإنسان خلق هلوعا » ، ايقنت أننى مدرك حتى لو لجأت إلى حصون مستعصية أو بروج مشيدة ، ولولا امرأتى التى حاشتني لكنت تسيا منسيا ، مرت على الليلة بغیضة الوطأة وأنا هائم فى جلوسى ، منتظر حتى ، وفى صباح اليوم التالى قال الطيب لى ، إن القلب ليس به إلا العطب القديم ، لكنه ليس سبب

هذه العلة ، نصحنى النصح الجميل أن ألبأ إلى طيب يداوى النفوس ، وقد كنت فيما مضى من زمنى الجميل اسخرنى سريقتى ممن يذهبون إلى مثل هؤلاء ، وارى فى ذلك عين الميوعة ، ونقص الرجولة ، لكننى سميت بقدمى إلى صاحب لى منهم ، ويعد أن قصصت ما مر لى ، قال ما هذا إلا اكتاب عظيم ، فيما تلا ذلك من أيام كنت أسعى بين القوم ، أرى الموجودات بعين من سيعيشون بعدى ، أرى أصحابى وكأننى مدرك أنها المرة الأخيرة ، واتخيل من سترحم على ، فأرئى نفسى وأنا حى أرزق ، وأنهى وجودى وأنا شديد اسعى ، «كل من عليها فان» ، غير أن الفرق بينى وبين أبى ، أنه كلما فكر فى ذلك صاحبه سكينه ودعة ورضاء بالمقدر ، أما أنا فعانيت الاضطرب والحزن على الدنيا وكتمت ما عندى وأنا كظم .

عند هذا الحد من ذلك المقام ، انتهت إلى شرودى عن أبى .. انظر، فإذا به يحث الخطى فى ممر طويل بمبنى الوزارة ، انشغلت عنه بنفسى فضيحت مقداراً غير هين من الفرصة السانحة ، ولم أدر متى فارق العربة ، وأى الأشياء رآها ،

انشغلت عنه مع وعيى بأن كل ما يمر بى نفيس ، يظن الإنسان أنه فى الحاصل وهو فى الفاتت ، فلما تعظم نلمى خفت ان يلهينى عما تبقى لى فأجلته ، ان زمن الندم قادم ، يقف أبى عند المصعد الجانبى ، يتذكر أول يوم جاء فيه ، كأنه الأمس القريب ، «وتلك أيام نداولها بين الناس» ، جاء مشيا من عند الحسين ، كانت المنطقة المحيطة بوزارة الزراعة ارضا مزروعة والبيوت قليلة .

كان يمشى صامتا يحشى الكلام خوفا من خطأ غير مقصود قد يقطع رزقه ، يحجى كل موظف يمر به ، ولا يتظر رد التحية ، سنوات طويلة يكظم

ضيقه ، ولا يقدر على رد ملاحظة قاسية ، حتى جاء عبد الناصر ، وأبعد عن أمثاله تهديد انقطاع الرزق في أى لحظة ، والطرده إلى عرض الطريق لأى سبب واه ، لم يكن على نفسه يخشى ، إذ انه عرف الشقاء وقاسى البلى ، لكن هذه العائلة التى تعلق بعنقه ، جمال عبد الناصر آمنه من خوف ، وجعله لا يخشى رد اهانة ظالمة ، فله الرحمة ، ولذكراه البقاء ، حق له حب المستضعفين فى الأرض ، ومن قست عليهم تلك الحياة الدنيا ، له حسن العاقبة ، « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » ، ما أسرع مضى العمر ، سنينه توزعت على هذا المر الذى تصطف على جانبيه دواليب الأوراق ، وخزائن الملفات البالية ، يصل إلى حجرة السكرتارية الخاصة بقسم الشؤون القانونية ، يسلم ، تحيته عند من يعرفونه سلام ، وسلامه عند من عاشروه عمرا تحية ، ينحن على دفتر الحضور والانصراف ، على مهل يوقع اسمه ، يبدأ بالحاء ، يرجع إلى الألف ، يتمم بقية الحروف ، تلك ساعة وقفت عليها ، الثانية وسبع دقائق من ظهيرة الاثنين ، هكذا سد أبى الخانة ، أوضح بيانه ، أوفى تمامه ، ثم صافح وسلم ، خاصة ان كل الجالسين فى هذه الحجرة من الزملاء القدامى ، طول الرفقة اذاب الفارق ، فلا ينادونه إلا ، ياعم أحمد ، بينهم موظف اسمه عبد الرحمن ، اشترك معه فى قرض من البنك ، ضمن كل منها صاحبه ، أربعون جنيها قبضها أبى فى هذا اليوم ، لم أدر متى ؟ لم أر ذلك ، قبل خروجه من الوزارة ، دسها فى طيات ثيابه خوفا من النشل والنشالين ، هاهو يمر بالمكاتب المجاورة ، بعض الموظفين يللم أوراقه ، والبعض انصرف مبكرا ، يصافح ويظيل النظر ، حتى ظنه أحدهم واسمه مهدي أنه ينوى السفر فقال مستفسرا ، أنت على سفر ياعم أحمد ؟ فقال الوالد : السلام فى كل

وقت يابني ، يمر بالمقد ، المكان الذي قضى معظم أوقاته هنا فيه ، لو أعرف
 أى شيء فكر فيه أبى خلال هذه اللحظة بالذات ، لكن ذلك استغلق على ،
 إن الإنسان كان جهولا ، كذا ألمت بالفترة الواقعة بين لحظتي توقعه الحضور
 والانصراف في جملتها وليس في تفصيلها ، عرفت أنه جلس ، وشرب كوبا
 من الشاي ، وسأل بعض زملائه عما إذا كانوا يريدون ابلاغ رحيم أفندي
 شيئا ، ينوي زيارته ، الرجل مريض منذ ستة شهور ، والزمن وعمر ، لايسأل
 فيه إنسان على آخر إلا لمصلحة أو حاجة ، ولو ان رحيم أفندي بيده قدرة لما
 انقطع العواد عنه ، قبض أبى السلفة من الخزانة ، وصلى الظهر في مسجد
 الوزارة ، وبقى بعد انصراف المصلين ، فرأى مارأى ، وجال بخاطره ما
 جال ، وتذكر صورا شتى ، « فذكر إنما أنت مذكر » ، اتابع نزوله السلم ،
 الوئيد ، التمهّل ، واخشى ما أخشاه ان يفلت منى ذلك الحضور ، أغالب
 كمدى ، وأحوش دمعى ، فأنا أعلم ان هذا الدرج الذى يطأه أبى لن يلمسه
 مرة أخرى ، وان الوضع الذى تمسه يده من الحاجز الخشبي لن يلمسه ثانية ،
 وان ما يراه لن ينعكس مرة ثانية في مآقيه ، فالوداع ، الوداع ، والسلام ،
 السلام ، « يأبها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقه » ، إن ما يمر بي
 فادح عنى ، باهظ تحمله على ، مر على فؤادى ، لكننى أنا الذى سمعت ، أنا
 من طلبت . وقد عرفت الجهل فلم يرحنى ، وعرفت العلم فلم يرحمنى ،
 « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » ، يخرج أبى من باب المبنى ،
 عربة الوزير تنتظر ، الساعة الثانية والنصف وخمس دقائق ، والشمس في
 برج العقرب ، يتوقف قليلا كأنه ينتظر أمرا ، يتراجع ، يستدير ، ينظر إلى
 المبنى ، إلى الباب الذى خرج منه ولن يعود إليه ، إلى الحديقة المجاورة التى
 تمدد فوق حشائشها واغنى ، « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن

شيئا ؟، يعود يمشى ، ينظر للوجوه العابرة ، الواقفين على المحطة ، هذه بوابة المتحف الزراعى ، على وجهه ظل ابتسامة هادئة ، مسترجعة ، ابتسامة من أدرك فولى ، من اطلع على الحقيقة ، من أحس أنه أشرف أو كاد يصل ، وما عليه إلا البلاغ المبين ، يلمح امرأة شابة ، تمسك بيدها طفلة صغيرة ، يتسم لذكرى الأيام الرواحل ، عندما كان يصحب جمال وإسماعيل ، ثم نوال وعلى ، وامهم ، ينتظرون عودته داخل المتحف ، إذ ينتهى من توزيع الخطابات على أقسام الوزارة يسرع إليهم ، فيقابلون اللفظة باللفظة ، غير ان الزمن تبدل ، ولت الألفة وحلت الغربة ، وما من وقت يجمع ، كبر الأولاد وانشغلوا ، وما هو ذا جمال يرحل من بلد إلى بلد ، يا أيما ولت ليتك تعودى ، يتملى من المتحف ، وهذا الميدان المسكون بالذكريات ، فهل يدرى ؟، هل ظن انه الفراق ؟ هل حان التقاف الساق بالساق ، وانه لا مفر ، « إلى ربك يومئذ المساق » ، تحيء العربة المتجهة إلى الهرم ، مزدحمة ، الواقفون أكثر من القاعدين ، لا أمل عنده فى الجلوس ، الدنيا تغيرت ، فلا أحد يرحم شيخوخة ، وما من قاعد يقوم لامرأة حامل ، تغيرت الدنيا ، تغير الخلق ، كل شىء ببلد تبديلا ، الزمن زمن قسوة ، وجفوة ، وكل يقول ، نفسى أولا .

عندما نزل كان مرهقا ، يتحسس نقود السلفة بين طيات ثيابه ، من الخطر ان يمشى بمبلغ كهذا ، لكنه عزم ونوى زيارة رحيم افندى منذ أيام ، وما من داع للتأجيل ، ما من إنسان ضمن هذه الدنيا ، المبلغ سليم ، فهيشته لا تغرى النشالين ، ولكنهم نالوا منه منذ عام ، عندما اغنى داخل مسجد الإمام الحسين ، سرقوا حافظته ، لم يجزن على الجنهيات الخمسة ، ما آله فقدان ثلاث ورقات لم تفارق هذا الموضع القريب من قلبه ، شهادات

ميلاد ، خلف أول نصيبه في الدنيا من الذرية ، وكال ، ومحمد ، رحمهم الله ، ذهبوا إليه أطهارا بررة ، يخطو متمهلا ، فوق حجر ملقى يجلس ، يود لو يغفو ، بينا أنا في دهش ، لم أكن أعلم ان أبي يحفظ هذا العمر كله بشهادات ميلاد اشقائى الغارين ، لم يجزنا بذلك ، ولم يخطر ببالنا أن نستفسر ، حزن حزنا بليغا ، وعد فقدانه هذه الأوراق نذير شؤم ، العصر يمضى ، والنهار يغمق ، وضبابه تلف الرؤى ، أم ان العينين وهتا ، والنظر كل ، عصر خرفنى بارد ، واللحظة التى تمضى به الآن لا مقابل لها فى الغد ، « والعصر إن الإنسان لئى خسر » ، المغرب يدنو ، والليل يقبل ، « والضحى والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يملك بيتا قأوى » ، إن البيت بعيد ، والرجوع إليه رحلة طويلة ، لكم ود البقاء بجوار الحسين ، لو ان الأولاد انتقلوا إلى المسكن الأوسع وتركوه فى الشقة القديمة ، ايجارها زهيد ، لم يكن سيكلفه من أمره عسرا ، لكن هكذا شاء الحظ ، والظروف جبرت ، « ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ، أرى خطاه ، ولا أعرف الطريق الذى قطعه ، فلم أقدر على تحديد المكان بالدقة ، ولم احط به علما ، إنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، أرى جلوسه إلى زميله المريض الذى لم يعد أحد من الوزارة إلا أبى ، يتمدد فوق سرير قديم ، بينا الوالد يحكى ، ويقص ، ويضرب الأمثال ويستدعى العبر ، يبدو نشيطا ، يفيض حيوية ، يشير بأصبعه ، عند لحظة معينة يتوقف ليشير قائلا « شوف يا أستاذ .. » هذا ماعرفته من حركة شفثيه ، ولم أفهم كنه الباقى ، صوته لا يصلنى ، يفارق البيت والليل فى بدايته ، وآخر شמוש عمره غربت منذ

أربعين دقيقة ، والشمس القادمة لن تطلع عليه حيا ، الشفق في الأفق ذوى ، والحلقة نزلت ، والنجم إذا هوى ، « ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتأمرونه على ما يرى » ، « بازاع البصر وما طغى » ، « وان ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمانت وأحيا » ، إذن دخل الليل ، كأنى كنت غافلا فانتبهت ، وناسيا فتذكرت ، وغيا فعقلت ، الليل يبدأ ، ليل أليل ليس كمثل ليل ، عندما يذهب في طبقات الندى الفجرى سيكون أبى قد اكتمل ، وعندما يحىء ليل الغد سيكون هذا الحبيب السامى أمامى ملفوفاً ، كفته ، موسداً في حفرة لم يطأها قط بقدميه ، ولم يمر بها أبداً ، مهجوراً من كل الأحياء ، فبأى الحديدين ياحيى يا أبى سيبدأ البلى ؟ ، وهذه التذبة في ساقك اليمنى ، أستولى إلى أبد الأبدى ؟ ، هذا نذير من النذر الأولى ، « أزفت الآزفة » ، ليس لها من دون الله كاشفة ، أقن هذا الحديث تعجبون ، « هامو ذا يسمع ويرى وينوى ويخطو ويشرع ، الثانية تعلقو في أثر الثانية ، واللقيقة تجرى وراء اللقيقة ، والساعة تقفو اثر الساعة ، ولا راد ، لا مانع ، فهل يكون هذا ؟ هل يكون هذا ؟ كلا ثم كلا ، وماذا يبنى ان أفضل ؟ أنا مقطوع اليدين والقدمين ومترع القلب ، المعزول عن كل حى ، لكننى يا هذا الكنه الغامض لن استسلم لك ، يا من تثبت وتحصد ، تبنى وتهدم ، يا من تضحك وتبكى ، يا من تبعث اللون الأخضر وترسل إليه الذبول ، يا من تبدل ، يا من تغير ، إني مدرك جوهرك ، إني ساع إلى منازلك وأنا عاجز حسير ، لم أكن أدرى ان هذا عين الكفر بما أنا فيه ، إن الإنسان لربه لكنود ، وما بين على وضيق وما بين حنى وعظيم ألى وقرنى من التصريح بما حجبه ضاع منى أثر أبى ، فلما انتهت مرهق الفؤاد ، موجوع

الخطر ، سددت البصر كرتين فانقلب إلى خاسئا وهو حسير .

هاهو ذا في العباسية ، يتوقف أمام مصعد ، يدخل ، يحدق به بصري في هذا المكان الضيق ، لكم هو متعب ، لكم تثير عيائه حزني ، عينه اليمنى تطرف ، شفاته تتلامسان شأن من آمن ولم تسليما ، ههل يشعر ، هل أنبئ بشيء من الغيب ؟ ، ايدري في أي موضع ستكون رقدته عملا ، يدق باب إبراهيم أبو الفضل ، قريبه الذي لم ينقطع عنه طوال عمره ، هو من وجهاء جهينة وعضو عنها بالمجلس النيابي ، يفتح الباب رجل غريب ، السائق الذي عينوه له بعد ان أصبح عضوا ، أبي يسأل : « إبراهيم موجود ؟ » ، يقول السائق « من انت » ، يخطو أبي مجازا الباب ، « اوع يا أخي ، هذا ما يتقص » ، يقف إبراهيم عند مدخل إحدى الحجرات ، يخاطب السائق مبتسما ، « هذا بركتنا » ، يجلس أبي في المقعد الذي اعتاده عند مجيئه ، يقول إنه يعرف بعباد سفره إلى جهينة بعد غد ، يوم إبراهيم ، نعم ، هذا حقيق ، يقول أبي . إنه يود لو صحبه لكنه لا يستطيع الحصول على اجازة من العمل ، يقول إبراهيم ان من يسمع ذلك يظن ان العمل سيتوقف لو غبت عنه ، يضحك أبي ، يتوقف فجأة ، يسعل مرة واحدة ، انه سعاله الأول ، يظل كفه الأيمن مبسوطا حتى يصبح قادرا على مواصلة حديثه ، إذ يسترد قواه يقول إنه يمتنى لو طلب نقله إلى البادية ، انه يقضى فيها مائتي ، يتسائل إبراهيم ، ولم لا ؟ يقول أبي : أنا وأولادى على خلاف ، يقول إبراهيم ، والله معهم حق ، ماذا تبقى لك في البلدة يا أحمد ؟ حتى الذين كنت تعرفهم ماتوا ! ، يسكت أبي ، يرفع النظر مقارا لحظة ، كأنه يرى مالا يراه غيره ، هل يبدو له قبس من البناء الأعظم ؟ ، يهز رأسه ، يقول : صحيح لم يبد لي شيء في جهينة ، أرضى بعثا ونخلان ، لكنني ربيت رجلا ، يعود إلى

صمته ، يسعل ، إنها المرة الثانية ، يقول : يكفى ان كلا منهم ينفع نفسه ، أنا عملت ما على ، « إنما نطعمكم لوجه الله ، لانريد منكم جزاء ولا شكوراً » ، يتدفق عندى حزن ، تلك آية يرددها إذ نجيء سيرتنا ، كما ان ظلال العتاب الحزين لم تخف على ، يقول إبراهيم : الحمد لله ، أولادك كبروا وسيرتهم طيبة ، يرفع أبي يديه : والله دعوت لهم الليلة عند سيدنا الحسين ، إذن .. عرج أبي لزيارة الحبيب فى طريقه من الهرم إلى العباسية ، شرد منى ذلك ، ولكم اتنى لو اتنى شاهدت هذا اللقاء ، ووقفت عليه ، يمد أبي يده اليمنى بورقة نقدية ، يقول : اعطها لظريفة ، إنها أخت أبي غير الشقيقة ، والحديث عنها يطول ، يقول إبراهيم : خمسة؟ يا أحمد الدنيا غلاء ، خليها عشرة ، يقول أبي : والله لن ارد لك كلمة ، عشرة ، عشرة ، كان معى خمسة جنبيات لشراء جلباب شتوى ، خذها ، وربنا يعوضنى ، يقول إبراهيم : اختك وحيدة ومالها أحد غيرك ، ويبدو أن الحديث آذن بانتهاء ، نظرات أبي متعبة ، إني تواق إلى الراحة ، إلى اغفاءة ، ودفاء الغرفة يضاعف حاجته إلى الرقاد ، مازال الطريق طويلا حتى البيت ، إبراهيم لم يحول عينيه عن أبي ، لأول مرة يلحظ تضاؤل حجمه وضهور عينيه ، يقف أبي ضاماً شفتيه ، يدعو الله أن يوصل إبراهيم بالسلامة ، وعند انتهاء دعائه سعل مرات ثلاثاً ، « هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة » ، لو عندى القدرة فأحول بينه وبين الخروج من هنا البيت ، كأنى لو ابقيته هنا وحلت بينه وبين الموضع الذى قضى فيه فلن يقضى ! كأن مجرد تغيير المكان سيؤجل اللحظة المقدرة ، « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، عند هذا الحد من ذلك المقام وقع لى كشف ، فرأيت نفسى فى اللحظة عينها التى يخرج فيها من باب

العمارة ، أنا ألق باب الجراج الفسيح القائم تحت العمارة الضخمة التي يقطنها
 صحبي ، جراج متشعب كالمثاهة ، أخاف دخوله وحيدا ، لو هاجمني
 احدهم أنا الغريب ما هنا فلن املك لنفسي ضرا ولا نفعا ، هذه ليلتي الثانية
 في باريس الأوروبية ، لم أبال بمتابعة حالي ، ألا يكنى اني في حياتي الدنيوية
 لم اكن على قرب منه وهو يتأهب للرحيل ، فأنأى عنه في هذا المقام ، ألم
 اطلب من سادتي في الديووان ان يطلعوني على ما لم أراه واعاينته ، حتى إذا
 ماتحقق لي هذا انصرف عنه ، فلاحذرا ! هاهو ذا أبي يوشك أن يتم الدورة ،
 بدء الغيبة عتاء ، في لحظة كهذه يدب اليقين بلا جدوى رد المسافر عن
 قصده ، ينادى الراحلون : « ألم نكن معكم ، قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم
 أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرکم بالله
 الغرور » ، أبي يصعد السلم متمهلا ، يتوقف عند الطابق الأول ، يستأنف
 صعوده ، إنه متعب ، هذا لا ريب فيه ، حلق ياعيني ، وتمكن يا بصرى ،
 فتلك مرثيات لم اطلع عليها ولن .. يطرق أبي الباب براحة يده ، لم يكن
 يضغظ الجرس إلا عند قدومه لزيارتي بعد زواجي ، كان يضغظه ضغطا
 متواليا سريعا فأعرف أنه هو ، تفتح أمي ، تنظر إليه في عينيها تعب ونعاس ،
 أمي تجهل ما سيحيى به الليل الأليل هذا ، كذلك اشقائي ، كلهم لا يعرفون
 عداى مع أنى الجاهل الأتم ، يجتاز أبي الباب ، إنها المرة الأخيرة التي يخطو
 فيها عبره بقدميه ، لن يمضى إلا أقل القليل من الزمن الدنيوى ويجتازه إلى
 الخارج ، لكن على غير ما اعتدناه على غير ما ألفنا ، أبي ، لا يدخل إلى
 الحجرة مباشرة ، يجلس فوق نفس المقعد الذى قعدت فوفه يوم ان جثت
 مسلما ومصافحا قبل سفري ، يستريح ، إني الآن قادر على رؤيته من جميع
 جهاته ، لم أعد مقيدا بمدى أوجد ، إني أرى وجهه وعنقه في آن واحد ،

«كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون» ، يحيى إسماعيل أخى ، يسلم عليه ، يلحظ إرهاب آية البادى ، غير ان هذا الضنى كان من سمات اعتدناها ، يسأله ، تعشيت ؟ ، يقول أبى : لا .. لكن نفسى مسلوذة عن الأكل ، ينظر إسماعيل إلى أمى : هات مع الشاى جاتوه لأبى ، إسماعيل اشترى قبل عودته المسائية حلوى افرنجية من حى مصر الجديدة القريب ، يحتسى أبى من كوب الشاى ، يقضم قطعة .. هنا آخر ما نزل إلى معدته من طعام الدنيا ، «كل نفس ذائقة الموت» ، لم أدر كم من الوقت بقى فى الصلاة ، إذ جرى لى فى هذا المقام ما ترددت طويلا قبل تدوينه ، لكننى عزمت أمرى وتوكلت على الله ، إذ تحللت وجود أبى المادى ، ولجت عروقه وسريت فى شرايبته وشعيراته الدقيقة ، واجتزت مسام الجلد الذى تلقى الشمس والبرد ، وأفرز العرق ، والكدد ، سبحت فى الدماء الناهبة إلى القلب ، والدماء الآتية منه ، جث القلب الطيب الذى حنا على ورق لى من ناحية البطين الأيسر ، فسكنت غرفه ، وعشت آخر نبضه ، ورأيت الجهة التى ستبدأ منها العلة المفاجئة ، واشهدت دفقة الدم التى ستكون آخر الدم العابر للقلب الذى خفق من أجل وبسببى وأنا غى لا أدرى ، سحت داخل الأوصال والنبضات السياحة الكبرى ، زرت المكان القصى اللدفين الذى كمنت فيه قبل ان يشيعنى أبى إلى رحم أمى ، مكنت مقدارا بين الصلب والترائب ، وعندما خرجت مع النظرة الواهة التى انفرجت عنها جفون أبى ، كان يرقد فوق أرض العرقة ، إنها البقعة عينها التى أرتبها لحظة ميلاد أبى ، كانت وقتئذ صحراء خاوية شمال القاهرة ، لم أدر عندئذ المغزى ، «يومئذ يتذكر الإنسان وأتى له الذكرى» ، لم أدر اتنى أرى الموضوع الأول ، والموضع الأخير ، الأرض التى شهلت الوصول ، والأرض التى سيتم منها

الإياب ، ولكل منا موضعان ، أو بقعتان ، أو مكانان ، يحصران المضمون ،
ويحددان أول وآخر ، وبداية ومنتهى ، الأرض الأولى معلومة ، والثانية
مجهولة ، « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ، ما بين الاثنين يتحدد مدى
السفر ، ومقدار الرحلة ، وبعد المدى ، يفتح أبى عينيه فأخرج ، أصبح من
الناظرين ، الهواء عنده شحيح ، على صدره ثقل ، يحملق إلى السقف ، لم
أعرف ما يراه ، لم أدر ما يحول بخاطره ، وبدعا من هذه اللحظة وحتى اكتمال
الواقعة التى ليس لها من دون الله كاشفة ، لن أعرف أبدا ما فكر فيه ، هنا
سر لن أصل إليه وأمر عليه حجاب لن ينكشف لى ابدا ، أما ما فاتنى فقد
ألمت ببعضه ، إذ أن عينيه غقتا هونا من الوقت ، ثم استيقظ على سعال
عظيم ، حاول جهده أن يكتمه ، حاول ان يوقفه ، كان مشفقا على أخى
إسماعيل المضطر إلى الذهاب مبكرا إلى عمله فى الجيش ، خشى أن يقلقه ،
لكنه كلما حاول ، وجاهد فى خفضه أو تخفيفه ، ترايد ، حتى أن أمى اصغت
قلقة ، ولما اتصل ، قامت إليه ، وازعجها مرأى الوجه الهادئ ، المحتمن ،
المستسلم ، الطيب ، الساكن ، « أتندا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » ،
ازعجها مرأى ملامحه المنبئة بالوصول ، بتعب الرحيل الذى كان ، بإتمام
الأمر ، ما أخافها ، هنا الاستسلام ، هنا الألم ، أبى الذى عاش عمره
جلودا على المرض ، لم يذهب إلى الأطباء إلا قسرا ، تغم كل التعابير فيما علنا
الافصاح بالانتهاء ، « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى
أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر
يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » ، تتسارع انفاس أمى ،
تعد كويبا من الحلبة الساخنة عليه يهدئ آلام الصدر ، هذا السعال الغريب ،
لكم سعل أبى ، لكم وضع أوراق الصحف القديمة على صدره ، لكم

غلت له أوراق الجواقة ، لكن سعاله لم يكن يسفر إلا في أيام البرد الشديد ،
وعقب النوبة يقول : آه ياأنا يا بوى ، لكنه الليلة لاينطق عن الهوى ، فالستر
واللطف والرحمة يامن ستحي العظام وهى رميم ، أى سعال هذا ؟ يغيب ،
يهداً ، يخفت ، يتحول إلى حشرجة متقطعة ، تصنى أمى ، اصنى أنا فى
غربتى ، غير قادر على المواجهة ، تلك الحشرجة ما يخيف ويرعب ، تسرع
حاملة كوب الحلبة الساخن ..

- قم يا أحمد .. ستخفف هذه عنك ..

غير أنه ينظر من بعد سحيق وهو قريب ، يهز الرأس منه ..

- لا يا أم جمال .. خلاص ..

ادنو واقرب ، انظر لعل وعسى ، لا اتحقق إلا من المغادرة ، من
الغوث ، من الاقلاع ، فإذا التفت الساق بالساق ، وكان إلى ربك المساق ،
لم اسمع إلا النفس الأخير فى تمدده ، فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر
الإنسان ما سعى ، لا يرفع أبى يدا ، لا يشير بأصبع ، حان ليديه ان تتمددا ،
ولقدميه أن تُضمأ ، وللاستسلام ان يرسو فى الحدقتين ، والخوف الإنسانى من
رحلة مجهولة ستبدأ ، لم ينبئ إنسان قط بمراحلها ، ودروبها ، ومحطاتها ،
فإلى ربك الرجعى ، هذه لحظة لم اقف عليها قط ، محتواها مجهول ، فلا بوح
ولا نطق ، ولا تصريح ولا تلويح ، ولا رمز ولا افصاح ولا اشارة ولا
كشف ، ولا عبارة ولا لفظ ، ولا حرف ولا كرامة من تلك الكرامات ..
آخر ماتسمع أمى ..

- خلاص ..

يسقط الكوب الساخن من يد أمى .. يقول أبى واهن القوى :

- ساحموني بقى ..

أجبر في منفاى ..

- أبوياء ، على أى شىء نسامحك ، سامعنا أنت ، اغفر لنا أنت ..
وكان جمعيرى بمثابة ادراك الحاصل فى الفانت ، لم أدر أننى ثقبت فراغ
المسافات ، فأيقظت نفسى من رقدتى فى باريس الأوروبية ، فجرى لى حال
يصعب وصفه أو ايراده أو تفصيله أو بسطه أو الحديث عنه أو نقله ، عرف
سريقظى الهلعى ، وانكراش نفسى وفرعة روحى ، أنا من ايقظت أنا ، وأنا
من ايقظت أنا فى اللحظة عينها التى يخرج فيها أبى من الكون المعروف لنا ،
« والشمس تجرى لمستقرها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل
حتى عاد كالعرجون القديم » ، فىا دهر ارحم ، يادهر لانسجل ، إنى
اعرفك ، إنى مدركك أنت من نهوى عن الاستسار عنك ، أواجه أبى
برأسى المقطوع فىنباى بعينه ، وفى بقمه ، وخطباته بخلجاتى ، لكنه ماض
وانا باقى ، عيناه ناحيتى ، كأنه يغالب شيتا مجهولا ، لا يراه إلا هو ،
لايلمحه إلا هو ، فهل أدرك وضعى ، هل تداخل زمنه بزمنى ، هل رآنى ؟
ما من جواب قط ، « بجم يتساءلون؟ عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه
مختلفون ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون » ، يتفص رأسه مرة ، ثم مرة ،
انتفاضة واهنة مركزها الذقن . هنا يخرج أبى خروجا لا دخول بعله ، يتمدد
جسده مطيعا لكل من يشاء ان يقليه ، اسمع صوته من بعيد كما جاعنى فى
بداية تجلياتى : « لانتخف ولاتحزن ، كان موتى مريحا ، انتهى كل شىء فى سبع
دقائق » .

غير اننى عند هذا الحد من ذلك المقام كنت انزف ، ومن بين نزف يقينى
بالحقائق الأزلية ، كنت على شفا حفرة ، أمى توقظ أخى .
- قم ، يا إسماعيل الحقنى ، أبوك خلصان ..

يبرع ، ينظر ، يحس النبض ، القدم العارية التي سعت وكادت ، برودة لم يعرفها قط ، أما الجسد الذي احتوانا فقد تقلص حجمه وتضاءل ، انكش أمام الهول الأكبر ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق .
يجرى إسماعيل باتجاه الجهات الأربع ، الأصلية والفرعية ، إلى نقطة الاسعاف القريبة ، ييئء رجل غريب لم ير أبى أبدا ، لا يعرف عنه شيئا ، فحص واصفى ونظر ، أنظر معه ، أتساءل في منفاى عن لحظات أبى الأولى هذه ، أول اقلاعه صوب الأزل ، اين موقعها من اللحظات التالية ، أئمة فارق بينها وبين لحظات ستجىء بعد عام ، بعد عامين ، بعد مائة عام من زمنا الدنيوى؟ ، لن تمضى ساعات إلا ويبدأ البلى ، اليدان اللتان اشارتا وطبطبتا وحتتا على ، والفم والقلب والعينان ، أيزول هذا كله ؟ ايفنى كأنه لم يكن ؟ ايفلق الدرب ، ايتثر الفلك ، هل ييث زمانه بئا حتى يصير كالعهن المنفوش ، فيا دهر ارحم ، يادهر غير ما عرفناه ، يادهر ما أنت ؟ ، ها هو ذا أخى يجار ، إلى من ؟ إلى الطابق الأعلى حيث جيراننا الطيبون ، إلى البيت الجاور حيث يسكن صاحبى فى الطريق يوسف القعيد ، إلى بيت قريب حيث يقيم ابن من أبناء بلدتنا اسمه مدحت عاصم ، إلى إبراهيم أبو الفضل فى العباسية .

– أهذا معقول ؟ كان عندى أول الليل ..

إلى مصر القديمة ، إلى اقاربنا وأهالى بلدتنا ، من أوصاهم أبى أن يدفن فى مقبرتهم ، ليس لنا مدفن ، وكما افصحت ليس عن اهمال ، لكن عن قلة حيلة ، وضيق ذات يد ، ييئء الحاج عوض ، الحاج يونس ، أخوه محمد أحمد على ، عبد العال ، وجمع أحبوا أبى وأحبهم ، يدخلون ، أولهم محمد أحمد ، يكشف وجه الحبيب :

- السلام عليكم يا أحمد ..

يخاطبه باللسان البشرى :

- لا تخف يا أحمد لا تخف أبدا ، أهلك جاءوا إليك ، كلهم معك
وحولك .

يلتفت إلى الواقفين :

- بصوا ، إنه يضحك ، طول عمره كان يغالب الهم بالضحك ، وهو
الآن يضحك ، أمثل هذا بخشي عليه ؟ .

.. أرى زملاء أخى إسماعيل ، جاءوا فى الزى العسكري ، كلهم لم يلتق
بهم أبى ، لم يعرفهم ، يحملونه ، يتبادلونه ، ما أنا إلا مجرد ناظر إليه ، غير قادر
على المشاركة ، على حمل أبى ، فأى ضيق يمكن أن يتزل بى أكثر من ذلك ؟ ،
وكما نزل مصر أول مرة وكان مقصده ضريح سيدنا الحسين ، مضوا به إليه
ليكون آخر مكان يبلغ فراغه قبل الرقدة العظمى ، وضعوا الصندوق الذى يحوى
ما يحوى ، ولوا الوجوه تجاه المسجد الحرام ، بسطوا الأيدي ، واطرقوا بالنظر
الخاشع ، يقول المصلى على الميت ، « هذه ايدينا قد رفعناها إليك فى كل
حال ، ليس فيها شىء ولا تملك شيئا » ، احلق فى فضاء المسجد غير قادر على
السجود ، فأعضائى نائية عنى ، اسجد بفؤادى ورموشى ، اسمع شيخى الأكبر
يهمس لى :

- « الجسم خلق من تراب ، وعاد بالموت إلى أصله ، فلا فرق بينه ، فى
حال انفصاله وبيروزه ، كونه على وجه الأرض أو حصوله تحت التراب ، فهو
منها » .

أراه يقف فى المسافة التى تفصل المصلين عن النعش ، هم لا يرونه ، أشهد
جمعا يحيط به ، يرتدون الثياب البيض التى لم تعرفها ابرة خياط ، اعرف منهم

جمال عبد الناصر ، والحر الرياحى من قاتل مع سيدى الحسين ، أما الآخرون فأجهلهم الجهل الأتم ، وهذه مسألة دقيقة عظيمة فى طريق أهل الله ، ماتحصل إلا لأفراد يعز وجودهم ، كلهم اطرقوا خاشعين ، « والضحى والليل إذا سجدى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى » ، لما فرغوا من الصلاة رأيت غرباء من دنباى لا يعرفون اسمه حتى ، أنا الوحيد المتقى ، أنا الوحيد بمنزل ، الوحيد بمنأى ، جمال عبد الناصر فى ثوبه الأبيض يبكى ، أطوف حول دليلى وشيخى الأكبر ، يشارك فى حمل أبى ولا يراه أحد ، لما واجهته ، لما رأى ملاحمى ، نهزنى بالنظر ، لم أخش ، لم أهرب ، صرخت : - « امض بي إلى الزمن ، اصحبنى إلى الدهر » .

يبدو شيخى فرعا لا دهشا ، ألمح القوم يخرجون بأبى من المسجد ، اهم باللحاق به ، غير أنه قذف بي إلى حجب سحيقة ، نأيت النأى الأعظم ، ف « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد ، أيجب أن لن يقدر عليه أحد » . أفقت من غشيتى ، فإذا بي مائل فى الديوان ، بلا دليل ، متبوذ فأنا سقيم .

* * *

منتهى..

الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

.. جىء بي إلى الديوان ، لم أدر ، هل أنا راجع أم ماض قلما في الطريق
نقول إن الشمس عادت إلى الشروق ، وما عندها رجوع ، بل ساعة في
طريق ، غير ان الدنيا التي تواجهها ليست دنيا الأمس ، كل يوم في شأن ،
أمثل بين أيدي سادتي والحيرة قد زعزعت سوارى اليقين ، على بصرى غشاوة ،
وفي فكري اضطراب ، وفي علمي جمرة شبة ، جئت متقلا بالتساؤلات ،
وليس مجرد سؤال ثالث تبقى لي ، ونهيت عنه ، هذا التبدل والتغير والقوت
الموجع ، أتى قاب قوسين أو أدنى من المعنى ، لم أخش البوح حتى وان خالفت
تحذير مولاي ..

- « يا جمال ، ألم أنك ؟ »

أشخص بكل ، اسمع ولا أرى ، إذن ، ضُربَ حجاب ، أقول :

- « بلى » .

- « لماذا تطرقت إلى ما يجب الحذر منه ؟ » .

كدت أهم بالجواب ، غير انني اسمع مولاي الحسن ..

- « ألم تطلب رؤية مالم تره ؟ » .

أقول :

- « بلى »

تسألني الطاهرة رئيسة الديوان :

- « ألم تر؟ »

أجيب :

- « نعم » .

ثم قلت :

- « أفضتم علىّ ، واسبغتم فازددت حيرة » .

ثم أقول :

- « لماذا الذهب والقوت ، لماذا النسيان ، ومن يحو الأيام العالية منا ؟ ،

من يسط ظلاله فيهت ما ظننا انه لن يهت أبدا ؟ » .

تقول سيدتي النورانية :

- « بدأت بالتساؤل ، وكنا تنتهى .. » .

لا استطيع الكتان فأصرخ :

- « انه الدهر ، الأزل ، انه الوقت ، انه الزمن ، إنها اللحظة ، تعددت

الأسماء والمسمى واحد... » .

يقول سيدى الحسين :

- « يا مسكين ، ادركت المرض ولم تدرك الجوهر .. »

اسمع رئيسة الديوان تنطق الكلم الموجه :

- « يا جمال ، هذا فراق بيننا وبينك .. » .

يقع الهت فلم انطق ، وان رددت في خاطرى « والله إني ليحزنتى ذلك » ،

لم أدر ما أنا صائر إليه ، فزادت على الحيرة المضمومة ، أرعيني ذلك ، سمعت

الهاتف الذى نادانى أول مرة :

- « اصغ » .

رئيسة الديوان تخاطبني ، صوتها بعيد ، لكنني لا أخطئُ الشبه بينه وبين صوت أمي :

- « ستقاسي فراقا جديدا ، لن تعود إلى عالمك الأرضي الذي ولدت فيه ونشأت ومنه جئت ، لقد صرت سقيا ، وبعد تصرحك وتلويحك لن تصلح للاقامة هناك ، ستحل مكانك صورتك البشرية ، جوهرك ومعناك سيمضي إلى الجهة التي قلمت منها هذه الصورة ، ستصبح حارسا أبديا من حراس اللوح المرصود ، أما وجودك الحسي فسيتفرق بددا . »

إذن ، وقع الحكم ، وحكم القضاء ، وددت لو احظى بطلقة من أحبابي الذين استوطنوا قلبي ، مولاي وسيدى الحسين ، أبي ، أمي ، عيالي ، عبد الناصر وصحبه ، رفاق الذين بقوا على عهدى ، غير أن سادتي شاءوا أن ابتدد غريبا ، وحيدا ، نائيا عن الكون كله ، ولما انتهت مخاطبة رئيسة الديوان ، حننت إلى أمي الحنين كله ، فتوجهت بصمتي إلى مولاي ضياء قلبي ليطمئني قبل أفول .. وقبل أن يرتد إليّ طرفي سمعته ينيثني :

- « .. اعلم يا جمال أن والدتك فارقت الحياة الدنيا ، وأنتك ودعتها بصورتك البشرية ، وصلت عليها في ضريح السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها ، لهذا تجلي لك الضريح في مقام الأعتاب وحاولنا تنبيهك ، وإنما شئت أن اخبرك لأنك صدقت وإن اخطأت .. »

لم تتح الفرصة لأبدي رد فعل ازاء التبا العظيم ، ولا لتسليد أسلتي ، متى ، وكيف ، لم اعلم أبدا ، في التوالج لسانی ، رأيت سائر أعضاء التي تفرقت عنى تسعى أمامي ، فذراعى اليمنى تودع اليسرى ، وقدمى تلامس قدمى ، وقلبي يسلم على كبدي ، وكبدي تنظر إلى كليتي النظرة الأخيرة ، كلنا رتئى وعروقي ومسام جلدي ، وشعري ، كل شعرة تودع الأخرى ، فارق

لسانى حلقى ، ثم بدأ كل شيء يعود إلى صورته الأولى ، يتجزأ إلى ذرات تتفرق ، تتباعد ، تتوزع إلى أرجاء الكون فلا تجتمع منى ذرتان في مكان واحد ، لم تعد لي كينونة مادية ، فلا أنا شرقي ، ولا أنا غربي ، ولا أنا بحري ، ولا أنا قبلي ، ولا أنا من العنصر الأرضي ، ولا الطبيعة ، ولا أسكن فلكا ، لم أعد من تراب ، ولا من ماء مهين ، ولا من هواء ، ولا من مارج من نار ، لا فصلى ولا كلى ، أما جوهرى اللامرئى بالنظر فيبدأ الرحيل إلى مستقره ومأواه حارسا على اللوح المحفوظ المرصود ، المدون به كل ما كان وسيكون ، محل صورتي البشرية الساعية في الحياة الدنيا حتى سقوط ورقتي من شجرة الخلق ، ويمحى اسمي من اللوح الذى سأصير رسدا من أرصاده ، القائم عليه ، فأين أنا يا أحبائى ؟ ، لا أنا حى ، ولا أنا ميت ، لا أنا قريب ولا أنا بعيد ، لا أنا راحل ولا أنا ماكث ، وهنا سر عظيم اكشف عنه وأجهر ، فسبحان من له الدوام .

جئت الديوان مكتملا وأفارقه بددا ، موزعا على الكون كله ، ما يدرك منه وما لا يدرك

عند هذا الحد اضطر إلى الكتان ، وأنهى السفر الثانى من كتاب التجليات ، دونه الفقير إلى أحبائه ، الغريب الخائر في دنياه ، المنقذ إليها ، صورة جمال بن أحمد الغيطانى ، غفر خالقي لصاحبها الذنب والتقصير ، والأفعال التى لن يشفع لها إلا الجهل وحسن التوايا ، وسامحونى يا طلاب نسيى لو كنت أطلت ، أو أوجزت وما فصلت ، فالأمر ليس بيدي منى شيء ، واقرئوا اصلى الذى هو صاحب هذه التجليات السلام ، لو كان حيا بوغيه ، أو اطلبوا الرحمة وهدوء المستقر والمأوى لذراته الموزعة في الكون بددا ، وسلام عليه يوم ولد ، ورحمة له يوم تسقط ورقته ويمحى اسمه ورسمه ، وشفاة له يوم

يبعث حيا ، كان الفراغ من هذا السفر المبارك يوم الأحد ، تاسع عشر ربيع
الثاني ، عام الف وأربعمائة وأربعة هجرى ، الموافق الثاني والعشرين من يناير
عام الف وتسعمائة وأربعة وثمانين ميلادى ، ويعقبه سفر ثالث ، بإذن الواحد ،
الأحد ، الذى كل يوم هو فى شأن .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

السفر الثالث

« إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ »

(قرآن کریم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

* * إنه مفتحي * *

أما وقد بحث بقيس من مكتمى ، فإني على شفا المكاشفة بجل ما أخفيته ،
إذ جاء الإذن عند هذا التقييد ، فسبحان من فسر لي دلالات أسماي ، وبين لي
من سأكونه ، وفي أى حيز ستم الكينونة ، البدء والتمام ، التقص والأقول ، لن
أداری أبدا ما أمرت بفضه والتصريح به ، حتى الدقائق التي سترجف قلبي أو
تنبه غوافل قواذي ، من صريح عبارة أو غامض إشارة أو ثانيا لحظة مارقة ،
ومالا أعرف كنه .

سأفضي ، سأصرح ، إلا إذا ورد التشبيه بخلاف ذلك ، ما أنا إلا غريب ،
والغريب عابر غير مقيم ، هذا الكون مغاى ودار هجرتي يا صبحي ، مقامي لم
يعد به منذ أمد سحيق ، أوفيت ملق فأنا عتيق ، سعي وعر ، محلي ناء ،
ماجت إلا امتتالا لأمر ، لم يكن يوسعي إلا الإذعان بعد تكائف غيوم حظي
وسوء بجنّي ، إنما أنا غريب ، مستوحش من الإلف ، والألفة في غير الوطن
وحشة : وما هذه الدنيا بدياري .

جىء بي إليها فأنا وديعة ، ويوما لا بد أن ترد ، وكثرت أسفاري فأنا
راحل ، وطال خروجي .. فأنا مهاجر ، زهدت فلم أملك ، وجفت ضلوعي
المضاجع فأنا أرق .

لم تلهني تجارة ولا بيع ، فأنا زاهد ، ظاهري مغبوط .. أما داخلي فمشوش ،
عندي شغل قلب ، ذوارق قلب لما سيحل بي عند كل خطوة ، أصير إلى شخص
أجهله ، وهذا لب اغترابي وعين افتراقى عنى ، ذلك أننى شغلت أعز موضع ،
إذ كنت من الحافين ، المهومين ، المحيطين باللوح المحفوظ ، واللوح أمره جلال ،
لا يمكن إدراكه بالخيالة ، أو تعيينه بوصف ، فن الاستحالات وصف مقامى
القريب منه ، فظلال المعانى المجردة لاتقال ، لو قيلت لدخلت فى المحسوس
فالعبارات من المواد ، عندئذ تتنى صفات المعانى .

المحاولة عسيرة ، إذن .. فلا أقصر خشية العجز والتطويل ، اللوح ياصحب
ليس بوسع كائن النظر فيه ، أنفاس الخلائق محصاة ، معدودة به ، كنا الأسماء
والأفعال ، والإنس ، والطير ، والجماد ، والحجرات ، والسدم ، ومواضع
لاتدرك بالحواس ، وماشجرة الكون التى أطلع عليها من هو أصلى فى هذه الدنيا
إلا طرح من طروحاته ، وما الديوان ذاته إلا تفصيل من مجمله ، ذلك أن
الديوان اختص بالعالم الأرضى ، أما اللوح فوسعه ما كان ، وما سيكون وما هو
كائن ، مبسوط لمن بيده الأمر ، من يبدأ ويعيد وينهى ، من ينشر ويطوى ،
من يبدل الحال ، له الدوام كله ، أعاننى وأبدنى على ما ابتليت به ، عسانى بهذا
الإفصاح ألا أكون قد تجاوزت ما قدر لى وما حدد ، وما قدومى إلا عقاب .
لن أفيض عن وجودى الأول النابى ، ما يمكننى قوله إننى كنت قد بما من
أهل الجهاد ، ناشرا للبارق ، حسبى وكفى ! الخوض هنا خطر ، لو فتحت فيه
سثور فتن فعذرا ..

أقول يا بنى الأكرمين إننى قضيت حولا لا يمكننى تعيين مقداره ، يطونى
زمان وما من زمان ، أقطع المراحل ولا مكان ، وإنى مطلعكم على حكاية شائعة
بين القوم ، من فهم باطنها أدرك ما أقول ، تنوع الحس وتضاعف السنين فى

الزمن اليسير ، وجود الكثير في القليل ، إنها حكاية الجوهري ..
يقال إنه خرج بالعجين من بيته إلى القرن وعليه جنبابة ، فجاء إلى الشاطئ
يقتسل بماء النيل ، فرأى في الماء مثلاً يرى النائم ، كأنه في بغداد وقد تزوج وأقام
مع امرأته ست سنين وأولدها أولادا ، ثم نزل يوماً ليستحم في دجلة ، وفي الماء
رد إلى نفسه ، خرج من نهر النيل ، لبس ثيابه قاصداً القرن ، أخذ الخبز وجاء
إلى بيته ، أخبر أهله بما أبصره ، وبعد أشهر جاءت تلك المرأة التي رأى أنه
تزوجها في الواقعة تسأل عن داره ، فلما اجتمعت به عرفها ، وعرف الأولاد وما
أنكرهم ، قيل لها : متى تزوج ؟ قالت : منذ ست سنين ، وهؤلاء أولاده
منى ..

لعل يذكرك هذه الحكاية أكون قد قرئت ، لكننى ، لماذا أشط ؟! لماذا
أتأى ؟ لكم في معراج المصطفى ما فيه الكفاية في هذا الباب ، أعنى بعد
المسافات مع الزمن القليل ، لذا يبدو لى وقتى الذى قضيته حافاً باللوح المحفوظ
كمروق ظل طائر فزع على وريقة شجر خريفية ، إني منقلب إلى من أجهل ،
من لا أعرف ، من لم أكنه ، من عرف في دنياه باسم جمال بن أحمد
الفيطاني ، إني هو وما أنا هو ! ، فالطف يامن إليه مسعاى ، إني ممثل ،
مطيع ، لكننى مستفسر من حين إلى حين ، فلماذا أعاقب على هذه الصورة ؟
لماذا أغرب عن ذاتى ؟ لماذا تسكن روجى دار غيرى ؟ لماذا عوقبت هكذا ؟ .
الآن ثمالة إنسانية لازمتنى في طوافى باللوح المحفوظ حتى حركت عندى
المخاطر : ماذا يحتوى ؟ لماذا نبتى في منأى عنه ؟ لماذا تطوف بما نجهد ؟ بأى لغة
يتم المحر والإثبات ؟ أية علامة ؟ ، أعرف المضمون في جملته ، ما كان
وما سيكون .. لكن دون التفاصيل سراويل وعواتى .

وقع المحظور مع بدء التساؤل ، لم أكنم .. فحق على ماجزى . لم أخف فتزل

بي منزل ، لم أقع فحاق بي ذلك ، بدأ إقصائي ، وكان الديوان المهيم على العالم الأرضي أول محطتي ، مثلت أمامه صاغرا ، لم أبصر رئيسه المباركة ، ولاعضويه النورانيين ، جرت المخاطبة عبر الحجية ، بالصمت .. فلم أنكر ، ولم أجادل ، ولم أطلب الرق المتي ، تلك أمور لا محمل لها ، بان لي أول عقابي ، أن أرجع إلى أصل البشرى ، لكن ليس إلى كينونتي الأولى ، ليس إلى زمني .. فذاك انقضى ، نزلت بي عقوبة النقي ، والنقي عامة انقطاع قسرى عن الأوطان ، ومحال التكوين ، وديار الألفة ، والإنسان في متناه ضعيف حتى وإن أحاطته عزوة ولة ، فالألفة في غير الوطن استيحاش .

والمعجب أن أصل ملاق نفس مصيري بعد أن دنا من إدراك ما يبداً وينهى ما يجمع ويفرق ، أما نفاذ عقوبتي فلتساؤلي وفضولي ، تحيرت فأبصرت ، وأبصرت فتحيرت ، وصلت فانفصلت ، عرفت المراد فضل عنى الفؤاد ، عساي ألا أتبرم ، أظهرني فأخفاني ! أدناني فنفاني ! ، والمعرفة لا طول لها ولا عرض ولا مقبر ، لاني سنن ولاني فرض ، راهبها راغبها وراغبها راهبها ، صهرت بغصة ، عوقبت بمفارقة المحل الأسمى إلى الأدنى ، أما عقاب من ساحل محله ، وألبس وجوده وكينونته البشرية ، ففارقة دنياه ومألوفاته ، تبدد ذراته ، لالتقي منها ذرتان أبدا . أما أنا فلم أضل الهدى ، أطلعونى على كل ما مر أصلى به ، منذ صرخته الأولى حتى تدريته ، صار موروثه ميراثي ، وسابقه عندي ، ولاحقه لاحق ، حتى تبده ، إني متقبل ، راض ، أفارق مركز الديوان بعد مثولي وامثالتي .

قبل ولوجي الحياة الإنسانية كان لا بد من مروري عبر الحجب . وهنا أكتشف عن نطيفة مخفية ، فهناك سبعون ألف حجاب تحول بين دنيا الحس وبين المطلق ، الذي كنت فيه ومنه ، تكتمل الكينونة بالمرور عبر هذه الحجب التي

نصفها نوراني ، ونصفها الخارجي ظلماني ، كلما اجتازت حجابا نورانيا فقدت صفة من صفات المطلق ، وكلما عبرت حجابا ظلمانيا اتصفت صفة حسية ، لذا قال بعض الكُمل إن الطفل يولد باكيا لتذكر الروح موطنها القديم ، وعند تمام اليقظة والإفاقة ينسى الإنسان بوعيه ما كان عليه ، عدا لحظات الحنين الغامض الملتزم المحير يا صاحب ، إنما يسرى متمهلا ، قويا في وهنه ، وعندى كلام يطول عن هذا الحنين سأفصله في سفر آخر لنا من هذه التجليات المباركة .

ومذهبي في هذا التدوين هو الاقتصاد ، والاقتصار جهد الطاقة .. فإن الأمر كبير ، والفروع تكاد لا تنحصر ، ليس بوسعي ذكرها أيضا ، لأن النفوس تنكر ما لا تعرفه ، وتدفع ما لم تألفه ، لولا ذلك لفصلت وعددت ولأخبرت .
إني مطلقكم على تنف من ذلك .. فأول حجاب عرفته .. الفوت ، والثاني الندم ، والثالث حجاب ذكر فإنما أنت مذكر ، والرابع حجاب وكما نسيت اليوم تنسى ، أما أشد الحجب علىّ فحجاب العصر إن الإنسان لفي خسر ، ثم جرت حجب السبب والطلب والمطرب والحزن والأسى والصفاء والرفق والصدق والعتق والتسويح والترويح والتسنى والعجز والقوة والفوت والإدراك والشهود والوجود والعدم والكد والرّد والامتداد والطوى والامتداد والجمع والانفراد والوصل والقطع والطرّد والحد والانقياد والمراد والحضور والغيابة والإحاطة والتدبير والتحير والتفكر والتصدير والتغير والرعاية والهداية والرفض والبداية والنهاية . وكان آخر ماجزته حجابا وعرا هو الفوت الذى لحقني منه أثر بليغ ، وهو أيضا حجاب من نعمه تنكسه .

هكذا تم تأهبي ، ألقى في معارفي أنني مفارق إلى دنيا الحس التي عرفتها في قديمي قبل تحوّل إلى ظل في الصورة ، وصدى للون من ألوان المنظومة ، عند هذا الحد ، ظهر عندى مهيب راسخ ، أول من أرى وأسمع ، خاطبني بلسان

شفوق ، وهذا جل ما يحتاج إليه من يتزل أول محلة في الغربة فيروده اطمئنان إلى حين ، قال لي مانصه : « يايتيا قبل أن تولد ، أنت راجع ولست براجع إلى دنيا تقطعت بك أسبابها ونسيت أعمالها ، يا ولدى .. أعلم أنك ماض إلى رحيل دائم ، فما من إقامة أبدا ، امض .. إنما أنت لخبار .. أتساءل .. وهذا أول نطقي ..

أنت من ؟

لم يجبني ، إنما استمر ..

« أعلم أن ذلك مجاهد من عاشوا الزمن الوعر سيتجلى لك عند استبهاام أمرك ، وانسداد جهاتك ، وانقطاع سبلك ، سيأخذ بيدك ويقل عثارك ، اتبعه ، جادله بالتي هي أحسن ، إن وقع الخلف معه ، فهو من غرسوا راياتهم في الحقبة .. لكن احذر أن تسميه ، لاتفصح عن هويته فيما ستدونه . ومن أنت ؟

يفيب عني ، مع أني آنت منه ودا ، حتى تمنيت لو آتى من رفته بقبس تعينتي في أوقات الجفوة ، ألقى في معارف أن دليلى هذا سيبدو لي عند الضرورة ، وأن أمره عند القوم عظيم ، منهم المطالب بدمه ، ومنهم الباذل دمه من أجله ، ولو ظهر في مجال المراثيات لوقع اضطراب ، وقامت هوجات ، فسبحان من أخفى سره عن قوم ، واطلع عليه آخزين .

عند هذا الحد انتهيت إلى منابع قوس قزح ، مجمع ألوان الطيف كلها ، قسامتها ودرجاتها وظلال كل منها على الآخر ، مالا يدرك بالنظر ، ما يعجز عن احتوائه البصر ، أودع ما كان ، أتأهب لاستقبال ما يكون ، حسي ! سأطلع شيئا فشيئا على موارد صاحبي ومنابعه وما سيتول إليه ، أرى ماعاشه وأستعيد بالمشاهدة ما أقل من عمره ، ما انقضى من مدته ، أعيش ما كان ينبغي له أن

يعشه ، إذن . تكتمل عندى أمور ثلاثة اقترانها وعمر ، القرنة والحجبة ودوام
الغربة ، فنعلم أجر الساعين المكدين .

إني وجل ، إني خائف ، ألمس بقدمي بداية قوس قزح ، عليه سيكون
نزولي ومعراجي إلى الدنيا ، من لب مجمع ألوان الكون يبدو لي شيخ صيغ
حضوره من الأبيض الأشهب ، والأبيض الساطع والأبيض الكابي ،
ودرجات أخرى لايسعني تعيينها أو تدقيقها لضيق اللفظ والعبارة ، غير أن
تباين الدرجات مكنتني من رؤية ملاحظه ، يتسم ..

« صحتك السلامة .. » .

تأخذني هيئته ، أحرار .. كيف أمكن لي إدراك ابتسامته مع أنه ملثم؟!
« كيف لاقيت بيرقنا في الجهاد ، علامتنا وصارى سفينة حظنا ؟ » .
يتكالب الغموض على ..

« ألم تتعرف إليه .. مولانا الإمام على بن أبي طالب » .

تلقي في معارفي جملة من الشروحات تجعلني دهشا ، أهو بذاته ؟ .

« نعم .. وسوف تراه أخرى ، لكن قبل خروجك من هذه الدنيا ، عندما
يحين ويدنو أجلك البشري ، ستشهد احتضارا وعرا ولكن قصير الأمد ،
سيقطع إمامنا ومرشدنا الحجب والمسافات ويحيثك ليساعدك على إتمام
دورتك ، وإنهاء مدتك وإسبال جفنيك إلى الأبد »

يدركني أسى إنساني على نهايتي التي لا أدري متى ستحين؟ فأرثي ذاتي لحظة
ميلادي ، وأبكي على رحيلتي قبل بدء سفري .

« وإنك لخائف ، والخائف مرحوم ، أبدا ، لذا أمرني إمامنا أن أصلي بك

صلاة الخوف فتأهب .. » .

أولى وجهي ، أتبعه ، أقتدى بما يفعله ، يؤمنى ، أبدا صلاتي ، خوف مما

أنا مقدم عليه ، مما أنا مسوق إليه ، خوفاً أن أكون غيري ، اكتساء ملامح من أجهله ، خوفاً مفارقة اللاتهام إلى الموقوت ، المطلق إلى المقيد المعلوم إلى المبهم ، صبح الأزل إلى حيرة الطلب ، الوصول إلى التشتت ، فأى أمر أنا ملاقيه ؟ كنت آمنا لا يروعي ما أجهله ، لا آسوعلى ماضٍ مستحيل استعادته ، لا أخشى داء يدهمني فجأة ، لا أتواري من حر ، ولا أتدثر من برد ، لأعاني الحسد والبغضاء وقساوة القلوب ، وقلة الرحمة ، لا أعاني الطعن واللعن والسعي والغيبة والنيمة ، والزور والبهتان والكذب والرياء ، أخطر تشتت الشمل والبعد عن الأهل وهجرة الإخوان ، وبغض الإلف ، وتشتت الأصحاب والوحدة والوحشة وتحرك أوجاع القلب ومرارة النفس وقنامة الأوقات إذ يدرك الإنسان أنه بمفرده أضعف من أن يبذل وضعا ثقيلا ، أخاف سوء المقلب واستعصاء الغرض ، أن يمسي لغوب ، فأرحم ، وطمئن يامغير يامبذل ، يامن بيده كل شيء وإليه ينتهي كل شيء ومنه يبدأ كل شيء .
تنتهي صلاة الخوف ، يختنى الشيخ عنى فلا أعلم من أمتي ، فاتنى السؤال ، أقف وحيدا عند بداية قوس قزح ، أخطو تجاه واقعي الجديد المحدث ، أولى الوجه إلى دنيا انقطع عهدى بها ، فسبحان محيي العظام وهى رميم .
أجتاز الغمام هابطا بلين ليس فيه مشقة ، أشم المطر والقطر قبل تكونه . من غمام إلى غمام أدنو ، لم يدركنى نصب ، تحرك عندى خفي الأمل ، هل العقوبة موقوتة ، لعلى منقلب يوما من حيث جئت ، الرحمة تلفنى ، وكرم يسلمنى إلى كريم ، بالعصبة ليست ماحقة وإنما ماحية ، والحو لا يبنى ، أما الحق فلا يبقى أثرا أبدا ، هذا معلوم ، أحاذر أن أحيد عن ألوان الطيف ، أجيء إلى الدنيا إثر غيث غزير ، أستعيد بوعى الآفل القديم رائحة المطر وامتزاجه بالتراب ، وبقاء قطرات منه عالقة بالأغصان ، لو أن ذلك باق لم يندثر ! ، أخرج من غمام

مختلف ألوانه ، تتسع حدقتي إذ أرى مهبطى .
مدينة فاس ، أرض مخضرة ، وجبل ضام ، وبيوت شهباء ، وطرفات
كالمانى كل منها مؤد إلى الآخر ، هذا مهبطى إذن ! تشب عندى شهوات
انقطع عهدى بها ، أبداً بتشم المكان ، تطيع روائحه عندى ، وهذا من
خصائص الخفية ، فكما ألحت عند تدوين معراج أصلى - الذى سيبدأ بعد
قليل - أن عندى وثيق صلة بالروائح ، فإنا من مكان طرفته ، ومامن امرأة
صحبتها ، ومامن حدث جرى .. إلا كان ماختلف من روائح عندى مدخلا
لذكرهم ، اتبه إلى ما أنا فيه ، إني أقف على جبل صخرى يشرف على فاس ،
أرى شيخا مهيبا ، واثق الحضور ، ملامحه هرمة وخطاه شابه ..

«مرحبا بك فى الدار التى خرجت منها ..» .

يبدو وكأنه يتدارك أمرا كان يجب البدء به .

«ألم يصحبك السيد؟» .

«من؟» .

«ألم يأت معك إلى المدينة التى ولد بها؟» .

«من؟» .

«من ودعك عند بدء قوس قرح ، المجاهد ، صاحب اللثام ، لماذا لم

يصحبك .. أم أن الأوان لم يمن بعد!»

تغشانى اللحظات الغروية .

«من هو.. ما اسمه؟ فاتنى السؤال» .

يحينى معاتبا :

«أجهلت ذلك؟، السيد أحمد البدوى ، كان بودنا الاجتماع به» .

يشير فأنو ، وأنا مأخوذ بضوء مصباح بدأ يلمع فوق بيت يتوسط الجهة

الشمالية من مدينة فاس ، هذه أول خطاى ، هون على يامن لا أول له ولا آخر ..

« ليس لك معرفة بما ستره ، لكنك ستلقى المعرفة لحظة وقوع عينيك على الشيء بنفس القدر الذى كان سلفك ملما به ، فإذا كان مطلعاً عليه جاز لك العلم ، وإذا كان جاهلاً لم يبذل الجهد لمعرفة أو لم تتح له الفرصة فلن تدركه ولن تفهمه إلا إذا أبديت المجاهدة لاكتساب ما كان ممكناً له تحصيله . اعلم أنك ستقف على ما يمر به أثناء معرجه فتكون كأنك معه وأنت لاتصحبه ، أما هو فلن يقف على ماستشهده أثناء إتمامك مدته فافهم ! » .

أصغى هيبا ، أتوق ، ماذا سألقى ؟ فضولى يبدد بعضاً من وجلى ، قربنى من أمور شتى فقدت منى بحكم المدة واتساع النقلة ، من ذلك قدرتى على الصحبة ، والإسراع بالنجوى ، واستعادي لذة النكاح والنشوة والصبوة ، كذا الحنين ، واكتشافى أرضاً أطؤها أول مرة ..

« إنه هو ، يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد .. » .

تلى على مارقرقى ، فاحتويت فاس العتيقة بالنظر ، نضابحة بالقديم ، سيالة العبق ، فضفاضة الأريج ، فى المركز مسجد بنته العبدة المؤمنة زينب الفهرية ، أما المدينة والمسجد فلم أسمع بهما فى زمنى الأول المندثر ، هذا كون مغاير ، للبداية شدة ، خاصة إذا لم تتحدد المدة ، ولم توطر الفترة ، سأكون من أجهل ، وأنادى باسم من لا أعرف ، أعايش قوما على أنهم جاعتى وماهم ناسى ، أنطق بلسانهم ، أجارى وأخفى ، فى الصبر ، ولى السكينة ، ولى الامتثال بالأمر ، هذا دركى ، وهذا حظى من انقطاعى عنى وفقدانى مترلتى ، حتى ملاهى لاخيار لى فيها ، لاعلم لى بها .

الآن لا يمكنني الاستدلال على ذاتي ، ربما ظننت أنني أتبع نفسي بينما أقفو
أثر غيري ، يبسط الشيخ المهيب راحته ، يطيب خاطري بالنظر فأهدأ ، يلمس
على شعري ، يرت كفتي ، يوليني ظهره ، أتبعه ، اجتاز واجتزت ، مرق
ومرقت ، عبر ناتيئ الصخر وعبرت ، فضاءات البيوت ، والدروب والزنقات
والجدران الصماء الملساء التي تتخللها أبواب خشبية ضئيلة المساحة ، ثرية
الزخرف ، يتوقف عند مبنى كبير حديث البناء ، معهد لتلقى العلم ، ألحظ الخلق
الذين سأسعى بينهم ، وإن علمت أن مقامي ليس هنا ، مازلت محجوبا لا
أبين ، كنا شيخى ، صعد سلما وصعدت ، مشى ومشيت ، يقترب ، أقترب ،
يلج قاعة فسيحة فأتبعه ، طاولة يضاوية حولها جمع وصحبة ، ألح بينها شيخا
من أدلة أصلى ، كنيته العالم واسمه محمود ، أتجاوزه بصري إلى من سأكونه ،
من سأسعى بدلا منه ، بمؤخرة رأسه صلح سار ومشيب مبكر ، من عجب أنني
شغلت بأمور تبدو ضئيلة ، وتغافلت عن ملات كبرى ، غير أن مابدأت أشرع به
غامض ، عسر على شرحه ، صعب توصيله ، كيف أفيض وأسترسل في شرح
مالم يقع إلا عندي ، مالم يتفق إلا لى ، إذن .. لاتقارنوا ، فامن وضع يشبه
وضعى ، أما الآن فلا فرار ، سد الباب وبعدت الشقة واستفحل الأمر ..
أخطو تجاهى .

امض إلى ، اقترب منى .

يأمرنى الشيخ الجليل بالنظر ، فأقترب لأجوز في الوجود الحسى للمائل
أمامى ، لى ، لمن دعى جمال ، أرتديه كما يرتدى الكساء بينما يجلع عنى ومنى كما
ينتزع الرداء عن صاحبه ، أراى فيه ويرانى نائبا عنه وكلانا واحد ، أنا هو وأنا
لست هو ، غير أنني كنت أدرك جانبا من أصل القضية ، أما هو فالأمر عنده
مبهم ، مستغلق عليه بالكلية ، فمن أنا الآن ؟ من أنا من ؟ .

أنا هنا أم هناك؟ أنا موجود أم معدوم؟ أنا راحل أم مقيم؟ أنا شيء أم لا شيء؟

يتم انخلاعه منى في وقت نفاذى فيه ، يرانى فيهت وأراه فأدرك ، ألقاه وأودعه في آن معا ، أندمج به وأنفصل ، ألقاه وأفترق ، فنعم أجر الساعين ، يبدأ نأيه ، يعبر الصالة ملييا نداء الشيخ الجليل ، وانى راغب في تفصيل هذا الحال ، لكن ينعنى خوف إملالكم ، ونفور طبعكم وتعجبكم مما لا قبل لكم به ، فأعطف العنان صوب الاختصار ، غير أن أحوال أصلى في هذه اللحظة فصلناها في موضع آخر ، فليرجع من يشاء لمطالعة خاتمة مقام الاغتراب ، لعل فيه شفاء للغيل ، أما الآن فيبنى وبينى بعد بعيد ، يصبح في الشيخ قبل تواريه عنى ..

« سلم لى على دليلك عندما تلقاه ، بلغه السلام الجميل .. »
أقول :

« سلام ممن ؟ » .

يلتفت محمود العالم الجالس بجوارى دهشا ، إذن .. صار صوتى مسموعا فلأحذر ، فلألزم السكينة ، فلأمتثل ، غاب عنى أصلى في هذه الحياة الدنيا ، تنبئ خطاه الوداعية بهم ثقيل ، آن لى أن أواجه حضورى ، فكأنى كأنه وكأنه كأنى ، سبحان من يخرج الأشياء من أضدادها ، يخرج الميت من الحى ، ويخرج الحى من الميت ، يخلق من الشجر الأخضر نارا ، يحنى الأمور في أندادها .
إنى مقبل على رؤية ماضى وماسيىء في آن واحد ، سأنتقل في الظاهر وأثبت ، سأدخل بلادا لم أرها وأقاليم لم أفكر يوما في طرق بواباتها ، سأضطجع في مواضع لم تدر بخلدى أبدا سأوزع في أرجائها مقادير من عمرى لن أستردّها أبدا سأسعى وأرترق وأنفق وأفق ، وألقى وأنكح من لا أعرفهن الآن ، وأتوه في

ديار لم يختر عندي أنى بالغها أبدا .
سأفض سر الحرف العربي ، أتبع أصابع أبي إذ تشير في بطنه إليه فأعرف
أشكاله قبل تعلمي الدروس الأولى ، وهنا أمرى عجب ، سأرحل إلى عوالم
شتى وأنا مجاور لجدران الأزهر العتيقة النازة بمندثر الأزمنة ، أنكب على
السطور ، لا أتبع خطة ، لا يوجهني دليل ، لا يؤمنى مرشد ، توازنى الشمس
بمدد من ضوءها يرشد عيني في تحولاته المتعاقبة على مهل ، حتى إذا غربت وتم
الغسق ، أنظر مجيء من يشعل فوانيس الغاز ، أتم ما بدأتها بينا بائع الكتب يففو
ويبقى موجهها نظرى إلى الطريقة المثلى للإمساك بالكتاب حتى لا يبلى ، حتى إذا
فرغت أعطيه ماتيسر من ملبات ، ثم أمضى إلى البيت راحلا في الوقت ذاته إلى
دنى شتى ، سأقرأ في قاعات متباعدة ، هنا ، هناك ، في الثبات والحركة ، في
أغوار الفضاء الفسيح ، في أعماق الموج السحيق إذ يضمنى مركب الغوص لأيام
معدودات ، لن يفارق يميني كتاب أبدا ، طمأنيتي وعين أنسى ، في إقامتي
وغربتي ، لا استثنى إلا أيام السجن ، فترة قهرى ، عندما باعدوا ما بيني وبين ما
اعتدت ، مامن كراس سأقف عليه إلا وألزمه ، سير الأولين ، المغازى
والمعاناة ، الفروق بين الفرق ، تصانيف المذاهب اللوحات ، المنمنمات ، في
الأغلب الأعم أنهل وأطرح جانبا مما آخذ ، وقد أحصل بينا ينقص منى بعض
ما اكتسبت ..

مامن أهل مجاهدة أو كفاح إلا مخالطهم ، أمتح جل ما أستطيع بقدر
ماتمدنى الطاقة ، حتى إذا استشعرت مالا يلامم دخائلى ، مايتناقض مع استمرار
أمرى ، أبلدى الإشارة ثم أفصح عن المعنى ، عندئذ يختلف القصد ، تتباعد
السبل ، غير أنى لم أبغض شيوخى قط ، كنا زملاء الجهاد حتى وإن حادت
عن غاياتها الأيام ، إنى أطوى ولا أنشر ، وأردد ، رحم الله من علمنى حرفا ،

ومن وقف إلى جوارى لحظة إطلاقي سهما ، أو مصارعتي عادية رمانى بها الدهر ، أو عند فضي مغاليق عبارة ..

ومن عجب أنى سأسمى بأسماء تخالف ما اختاره لى الوالد الكريم ، فمن ذلك كمال ، وخالد ، وفريد ، وابن إياس ، والجهننى ، ومحبي الدين ، وغير ذلك كثير ..

كذا سأوسم بصفات شتى ، شاطر وخائب ، مقدم وفزع ، تلميذ وقارئ وأستاذ ورسام وصانع ، موظف ومسافر ومجاهد ومتقاعس ، خطيب وصامت ، رقيق وجاف ، عالم بدقائق لاحصر لها ، جاهل بأمر جمعة بعضها يسير هين ، صاحب وخصم ، قريب بعيد متباعد ، شجاع فى حرب عشتها وشاهدتها حتى أنى لم أحب الموت والردى من أجل أهلى وناسى ، جبان حريص فى حروب أخرى أشهدت جانبا منها نائية عن موطنى ، مخلص بلا حد لمن وفى وجاوب ، منقلب ، صارم على من خان الأمانة وبدد الوديعة ، مانح فى فيض ، ضان فى عسر ، لن يفوتنى شىء خلال السعى والطواف واتخاذ الوجهة إلا استوعبت منه مقدارا ، من ذلك كظمى الغيظ ، وابدأى الشكوى أو كتمانها ، كذا بوحى وثورنى وغليانى وكنمى فورة أنفاسى ، وهذا أعظم ما ضررتى ولحققتى ، لكننى فجأة أصرخ وأجعر عندما يتنى الحل وتنفذ الطاقة وتنب القدرة ، صليت ، ركعت ، تهجدت ، قبلت أيدى مشايخ أجلاء ، وقسس ، وقامصة ، خطبت على منابر عتيقة ، وفى خلاء فسيح ، أملت جمعا .

حدث أثناء سعى من أجل رزقى وتكسب معاشى أن وصلت قرية صغيرة شرق النيل ، وشرقه قفر ناء فى صعيد مصر الحمية ، حان وقت صلاة الجمعة ، علم الجمع أن الشيخ به مرض ، التفتوا إلىّ ، قالوا .. أنت من أهل العلم .. بفضل ، هكذا قت خطيبا وركعت إماما ، اتخذت موضعا فى صفوف

الكنايس ، تجولت في معابد الأقدمين ، أطرقت رهبة وخشوعا لمن نحتوا
أعمدتها وخطوا الأشكال على جدرانها ولونوا رسومها ، وتسلفت صخرا وعرا
لألقى نظرة إلى بقايا طفل قدموه قربانا في الزمن العتيق ، ولجت معابد يتسمى
ناسها إلى ملل شتى ، تحدثت وأفضت وفصلت إلى جموع أجهلها ، تلعثت
مرتبكا في حضرة من أهوى ، أفضيت وناجيت وتأملت وبحت في خلواتي ،
هذا طبع غلب على ، إذ أنى شسور دائما على مافات ، ماتبدد ، نازف أبدا
على مافقدته ، ماذرته الأيام بلا رجعة ، حتى في أوقات طمأنيتي ولحظات
استكانتى وراحة بالى أصغى إلى ديب خفى لايبين ، أدركه بقلبي ، لا قبل لى
بمنه ، بإيقافه ، بتأجيل سريانه ، بتخفيف ماسميليى به ، وهذا لب
عجزى ، دائما لا أعرف الكنه ولا أفض السر إلا بعد القوت ، أغفو عندما
يتاح لى ، وأهمل عندما يتيسر لى الأمر ، وأذنو من حافة اليأس والجنون إذ
يستعصى على .. وتفصيل ذلك عظيم ..

تصدت لقوى لا قبل لمحيلة بتصور عنفوانها ، وشروورها ، وقدرتها على
إلحاق الضيم والأذى ، وحلت بي المزيمة في مواجهة لحظة غروبية ، أو عند
هبوب نسمة خفية لاتفصح عن وجهتها في ساعة عصر بالتحديد ، وكدت أجنو
أمام نظرة مخلوق ضعيف لايمكنه التعبير ، كما يسح دمعى لرؤية طاعن في السن
.. لايقدر ، أما ما أرجفنى .. فإطراقة امرأة عجوز عابرة مجهولة عندى أحيت لى
سعى أمى وكدها .

تشاجرت واشتبكت ، نيجوت بالصدفة ، مرقت مراوغا الموت ، عشت زما
كان ينبغى أن أفقد فيه ، رأيت بعينى مروق الشظايا عبر أجساد الخلائق ، عبرت
الخلجان ، متفرجا ، مسافرا ، مهاجما عدو بنى قومي في وكره وقصدت
مهاجمته في وكر يتمكن منه ..

ابتسمت من القلب ، ومن وراء حجب ، أومات صدقا ، وحننت ، ألبت وألبت ، نزلت بين الأجلة ، رافقت الجهال ، نلت رفعه وعكنتى ذلة ، ودبر فى قتلى غير مرة ، صارعت ، هادنت ، رابطت ، قررت ، جاورت ، سلكت ، تقلدت الأوسمة ، عريت ، افتقرت ، أثريت ، اقترضت ، أحببت ، عشقت ، ثم انقلبت كارها لمن همت به ، كاتبتى قوم من كل فج ، أنجزت القليل الأقل ، وعجزت عن الوصول إلى ما أرغب وأنشد فى الكثير .. الكثير ، رصدت خطواتى ، رفعت بصمات صوتى ، فتحت لى ملفات واضابير شتى فى جهات لاحصر لها ، وكتبت فى آلاف التقارير ، وارتزق من متابعتى العسس ، روقيت سكناتى ، وتويعت حركاتى ، سوئلت عن أسفارى ، من قابلت ؟ من صافحت ؟ من تبادلت معه النجوى ؟ من أفضيت إليه بسرى . وطولبت باسترجاع ماتفوهته وماقلته ، صفعت على وجهى ، على قفاى ، ألهبوا أطرافى وهددونى بإدخال العصى فى دبرى ، أفضوا مضجعى وألقوا ليلى ، سودوا لحظات من زمنى واعتموا بعضا من نهاراتى التى لن ترجع ، سبى ضابط غنيت ولعن أُمى الكريمة التى لم يرها ولم يعرفها ولم تلحق به مهانة ، لم أجه فى العلن ، إنما واجهته بنظرانى ، هو مدجج ، وخلقى ثلاثة جلادين ، جاوبته بعينى الأسير الأعزل بالغل الكظيم ، أن يسب أسر أسيره فإنما ذاته يعنى ، ومايقوله يرجع عليه ، لم ولن أنسى ذكره أُمى وسبه لها عصر يوم أجهل ملامحه من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وستة وستين فى زنزارة التحقيق بسجن القلعة ، هذا ثار لايبلى ، إنى والله لمتعبه ، إنى لمقتف أثره حتى آخذ بثأرى وأنفض ماضيايقنى أعواما ، هذا ما أثقل كاهل أصلى زمنا مديدا ، وهذا ماورثته عنه ، وإنى لمطلعكم على الغنيت يوم القصاص ، لن أصفح الصفح الجميل عن الباغى الجهول .

لكم عانى جمال هذا الذى أنا صورته - إني لأشهد له بالمثابرة ، وصون النفس عند الأذى ، فله ولى الرحمة وطيب العقبي ، إني حال محله ، متقن ما أفتنه ، التأمل والحنين والأسى على ما فات وإدراك الألوان وتوليد اللون من اللون والزخرف من الزخرف ، وإبقاء الخط بلا نهاية وملايته ومسارته ، وهذا وعر ، الخوض فيه غير مأمون .

اهترجواى لمراى ظل لظل ، وامترج لون بلون ، كدت أبيض عمالا أدرية عند رؤية ملامح لوحة عتيقة على جدار صالة محملية ، داخل بناء قديم فى مدينة حدودية ، هدنى التوق إلى وريقات خضر بللها المطر الرذاذى فى ضاحية لم يطل مكثى بها ، ولن أطأها أبدا . هالنى ترقرق ضوء على مياه تجرى تحت جسر خشبي ، وبعث عندى عزف موسيقى نحاسية - صباح عطلة فى ميدان غتيق صغير مبلط بمجاراة - رقرقة وسلاما ودعة فأنست فأمنت فهدأت ، فتبدد خوفى من المجهول لكن إلى حين وحننت إلى أرض لم أرها ومروج من ضوء لم توجد حقاً ، فحق على إغماض عيني والغوص عندى ، أما الهت فتزل على لما واجهت نبتا أخضر شق طريق الوجود عبر صخر أجرد قاس .

غانقت الشفق ، والليل وماوسق ، وخضعت للضحى ، وركضت برجلى لما شقق الفجر ودنا ولاحت ليال عشر .

فارقت المقاهى فى اللحظات الأخيرة لإغلاقها ، توسدت أبسطة المساجد ، افترشت باحاتها لندرة مأوى وفقدان مضجع ، سحت فى البرارى ، أوغلت فى المناجم ، تجاوزت المدى فى الصحارى ، وأغرقتنى النجوم فى ليالى القفر ، نمت فى الخنادق الرطبة ، وعلى مقربة من مياه القناة زمن الحرب ، وفوق قم مغطاة بالثلوج الأعوام كلها ، نمت فوق بلاط قصور تنمى من شادوها ، وأسرة وثيرة ، ودعت الصحب والأحبة حتى المقابر ، نأيت عن الموت زمنا ونأى

عنى ، ثم داهنى ، دنا منى ودنوت منه ، فبدأ زمن احتضارى قبل تمام المدة ، وترددت حشرجتى سنوات طويلة قبل انتهاء الفترة ، جاهدت وأخلصت المحاولة غير أنى لم أدرك الكنه ولم أسير أغوار اللب ، فلوجودى الصبر والجهرى السكينة ، ولكنونى الدفين الحفظ وسلامة الصون واستحالة الفض عانيت بغض الإخوان ، والبغى ، وقساوة القلوب علىّ ، وشح الرحمة ، وشدة الغلظة ، والفظاظة ، والطنن واللعن ، كذا الخنداع والغدر ، والحيانة والسعى ، والتميمة ، والزور والبهتان ، والكذب والمداهنة ، والنفاق والرياء ، وتشئت الشمل ، وتفرق الجمع ، وقطيعه الإخوان ، ومفارقة الإلف ، وخراب العامر ، ونأى الديار ، وحزن الوحشة ، وغم الوحدة ، وبؤس الانقطاع عن الغير ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب .. إن هذا وربى لكثير ، ان هذا وربى لطام ..

غير أنى ذقت طلاوة النشوة ، ولمست جوهر الجدوة ، تسلفت جبالا كردية ، وتمددت على شواطئ مغربية ، وطئت مواضع كنت أول من يدوسها منذ تكون الكوكب . تمهلت خطاى فى أزقة البوسنة والأناضول والأطراف الآسيوية ، خشعت فى ظلال مآذن استامبول ، أدركت بشارات الأبدية إذ تأملت سعف نخيل الواحات فى ثباته وعدم ميله مع الهوى أو الغرض ، ارتويت من آبار نادرة ، أنفقت جزءا من عمرى فى المدن الآسيوية ، تمهل خطوى فى المدن الأوروبية ، جزت الأحراش الأفريقية ، تحملت برد الأصقاع السيبيرية ، استغرقتى تدخين النرجيلة فى مقاهى البصرة العتيقة ، وهذا المقهى الدمشق فوق جبل قاسيون ، دثرتى ظلال الأسواق المراكشية ، وانتشيت فى مواجهة العمارة اليمنية ، كدت أهلك حزنا على نسمة ولت ، كوانى شوق إلى صدى آذان سمعته فى صبأى ، إلى لحظة ذرفها وقتى ، وصبوت حتى كدت أنوح لسماع رفة

بمامة ، رثيت لتبخر الندى بعد تعلقه يائسا بأطراف الوريقات النباتية ، خشعت
لامتداد الظل .

إني ياكرام راحل ، إني ساع ، مهاجر ، مدبر ، في فقد دائم ، لايطمئنني
وصول ، ولايسعني إقلاع ، لايهنني حين مادمت عاجزا عن استعادة شيء
مما راح ، خاصة تلك السمات التي هبت ولم تعد .

فيا من إليه منتهى ، يامن به ثقى ، يامن سيقطنني قبل أن أبلغه ، قبل أن
أدركه ، يامن تعلق به رجائي ، يامدى سؤلى ، إني متأهب ، لى المسعى وعندك
المقر والمنتهى ، يادهر أن ليس للإنسان إلا ماسعى ، أما إذا استعصى على فهم
هذا التراث كله ، أو التفريق أو التمييز عند اشتداد التنوع والكثرة ، فعندك المحط
وشرف الغاية ، ومنى تجدد المحاولة .

عند هذا الحد .. انتهى الإشراف الخاطف ، بعد أن أخلذني مما حولي
وسلبني منى ، مع أنى قادم إلى هذا الكون لتوى ، وعلى إخفاء دهشتي مما يمر بي
أو يعرض لى ، على استناف ماكان عليه سلقى ، من اكتسيت بجسد يماثل
جسده ، كذا ملاحظه ، حتى أن صاحبا له من أبناء هذه البلاد دنا منى ، مال
على ، لم يلحظ التغير والتبدل ، لم يتببه إلى أنى قادم لتوى إلى هذا الكون ..
قال إن جميع أعضاء الندوة النقاشية مدعوون إلى العشاء عند نائب برلمانى ،
أجيبه بنفس نبرة جمال ، نفس القدر والمعنى ، أعود لأصغى ، أبدى الود
للود ، أنصرف مع جمع أجهل معظمه .

الليل فى أوله ، نجومه قصبية ، الملح بيت النائب ، قاعة منمنمة فسيحة
ونقوش توظف الرؤية ، وعبق نبات يننع الفراغ ويلطف الهواء ، أعرفه من زمنى
الأول وعندى منه بقايا عبق لا يروح ، يدخل أربعة رجال أشداء يحملون صينية
فضية مطعمة بعروق ذهبية ، أنظر إلى أغطية رءوسهم الحمراء ، أرى والد

جمال - والدى - يمسك علبه ورقية يحتفظ داخلها بطربوش له به عناية ، يمسح
قماشه الخشن ، يسوى الخيوط السوداء الحريرية المتدلية منه ، تلك رؤية عينها
أصل ، ولحاح بقيت معه كان لا بد أن يذكرها في هذا الموضوع ، فلما لاحت
عندى دقت في الملامح ، المرة الأولى التي أرى فيها الوالد الراحل ، غير أنني لم
ألمح إلا الهيئة العامة ، الحدود الخارجية لوجوده الحسى ، رافق ذلك هبوب
حزن ناقب ، يصعب على تحمله ، ليس معه إلا النوم ، والميل ، وضم ذاتي إلى
ذاتي ، هذا مقبلي ومفتحي الكأبي ، إني شعبي ، إني كمد ، إني مقرور .. إني
ظالمى إلى روح وريحان وجنة نعم .

يبدأ المنشد المغربي ، هذا شعر ملحن ، الجوقة تردد أنغاماً أسبانية ، فيعمق
شجوى ، أتمائيل ، ليس من طرب كصحي أولئك ، إنما من تعب وضنى ،
يتدفق النغم ، يتقلب ، يستجيب البعض ، يدقون الطارات ، تتأيل قاماتهم في
رقص خشوني ، تتصادم الأصداء ، تتصارع النغبات ، تفرع الطارات ، يهزنى
ذلك غير إني لا أشارك ، أبقى مقعياً ، مسدلاً على ملامحي ابتساماً لاجدورها
ولاصدى داخل ، فحالى كما قيل فى المعنى :

لايؤنسك أن ترائى ضاحكا

كم ضحكة فيها عبوس كامن

مندمج فى الظاهر ، قصى فى الباطن ، حان ، مترقب ، داخل فى قبض ،
أمرى فى عزلة ، مغبوط الواجحة ، مشوش الجواهر ، إني دهش ، أحمل العمر
المنقضى لجمال ولم أعشه ، اسمه اسمى وتراثه ترائى ، ومحتته محنتى ، فاتفقتى
النذر ، إذن .. مالى كأنى مبتوت ، منقطع عما قبلى ، وحيد وأنا فى جمع
وصحبة وغناء وأنس ورجع أندلسى بعيد وشجا .

يدخل أربعة من خدم الدار ، يمدون الشراشف ، يميل صاحب من

طنجة ، ينصحنى ألا أشيع من الطبق الأول مها بدا مغريا ، بعدد المفارش
ستكون الأطباق ، أحصاها فإذا بها أربعة ، يغمز ، يكرر النصح وهو لا يدرى
من أمرى شيئا ، لا يعلم أن هذا أول زاد فى الحياة الدنيا ، تستمر الموسيقى فتهدد
أساى ، تخفف من فرعى ، ورجفتى ، وعند انتقال النغم من مقام إلى مقام
يجيئنى الأمركى أولى البصر تجاه باب القاعة المحفوف بتقوش جصية رهيبة
تتخللها مربعات صغيرة من خزف لامع ، أصفر وأحمر وأزرق وأخضر ، نعم
عمل الصانعين ، لماذا دعانى الداعى ؟ لا يلتفت غيرى إلى الباب ، لا يشخص
إلاى ، غير أنها عندما لاحت وبدت ، عندما ظهرت ، عندما تم اجتيازها
الفراغ ، شخصوا أجمعين ، لم يتوقع ظهورها إلا أنا ، لم يتأهب لها سواى ، نعم
عقبى الدار ، يرون فيها الأنثى المبهرة ، قوية الانبعاث والحضور ، نافذة
النظرات ، هكذا نظروا ، هكذا فكروا ، غير أننى لم أبح ، لم أفش ، لم أفض
المغاليق ، فلن يصدقنى صاحب ، ولجت المكان فنشرت حضورها محتويا كل
حضور ، خطت حتى حطت فوق مقعد دائرى صغير بلا مسند فى صدارة
القاعة ، لم ألحظه إلا بعد استقرارها واستوائها ، أطلت عبر مشارف وجنتيها ،
مالت إلى الأمام فال مكنونى ، ليس إلى نقطة محددة تنظر ، ليس إلى شخص
بعينه ، ردتى عيناها من مكانى السحيق ، لى فيها حظ وهوى ، محلها الزمن
العتيق ، تنظر إلى اللب والجوهر ، إلى الوجود ذاته ، تبسط يديها ، كل أصبع
تلامس الأخرى . تدسها بين ركبتيها المسدل عليها حرير أخضر به مس من
ذهب وفضة ، تطلعت ثم تولت جهتى ، من شاء فلينظر ، من شاء فليطرق ،
أما أنا فلا خيار ، امتثلت ، استسلمت لعينيها النضاحتين بالهوى والسر ، لونهما
غير يقينى ، حدقتها مرفأ للكافة ، شفناها ذواتا ارتقاب ، وجودها واتق ، فى
كل لحظة ييدى جديدا كان مستترا ، يفصح عن خبيثة مستعصية ، يتطلع إليها

الجميع حتى وإن تباعدوا عنها ، ينظرون دائما كما تطلعوا أول مرة ، تحل العيون عنها ثم تعود إليها ، فنها الألفة ، ولها المودة ولي الترقق وشغل قلب ، استوثقت ماخسته قبل ظهورها ، كدت أنفلت وأتخذ طريق في الوجود سرى ، أوشتكت على الإنشاء لكننى غالبت فكتمت فكظمت ، هى من زمنى الأول الراحل القافل فلا أمل فى عودة ، جاءت تؤنس وحشة بدايتى ، تذب عنى القفر ، لحظات معدودات تتجلى فيها ، تنبئ بقرها منى ، تدفع براحة أعطافها إلى حاسة شمى فأتهدهد ، فى الظاهر تحي الضيوف ، وفى الحقيقة تشد أزرى وتقوى أمرى ، فإن قلمت إنها من هذا العالم صدقتم ، وإن قلمت إنها ليست منه صدقتم ، وإن قلمت إنها تعرفنى صدقتم ، وإن قلمت إنها تجهلنى صدقتم ، وإن قلمت إنها زائلة فأنتم على حق ، هى الأصل والظل معا .. هى نعم ولا ، هى الصوت والصدى ، أما إذا تعذر العلم فاحكموا بغلبة الظن ، غير أنى لن أبوح أبدا ، لو أفصحت لثارت شواغب لم أتبأ بعد لملاقاتها ، إنى شاخص وندى الوجد يقطر على . راحل إلى طاقى النور والحياة ، إلى عينها ، ألم ماينها ، أطوف بأهدابها وأسعى ، أقبل ماين شعرها وبشرتها ..

تحول البصر إلى ، فأمتثل وأتأهب ..

« أخاف عماء البصيرة » .

تجيبنى باللحظ ، بالنظر ..

« أخشى الجهل الأتم » .

تلمح إلى سبل العلم .

« أخاف العجز »

تنهينى إلى القدرة .

« ماذا عن الصمم ؟ » .

تكشف لى الدرب الذى تسلكه الهمسة ، ومستقر الصوت ، ومصير
الصدى ..

« إني مقر بخلوى من الجواب » .

تسبى إلى جوهر الخطاب ،

« وماذا عن التيه ؟ » .

تشير إلى الدروب المؤدية .

أنا الآن بلا تاريخ أعرفه ، اسمى جمال ، رسمه رسمى ولست هو .. تشير
بتلبية العلامة ، بالرحيل ، بعدم الاستيطان ، فالتجدد فى الاغتراب ، عندئذ
يلتم الشمل ..

وكيف أختار ؟ .

تدلنى على المعنى ، الاختيار هو الإنسان ..

أصرح بحجوز ، من العنة ، تنكحنى برضاب فرجها على ملاً فأطيب فانتشر
فأجوز ، أدرك الهوية ، عندئذ للمت شواردها ، عرفت فيها قيسا من كل أنثى
مرت بجمال ومر بها ، إطرافها المحبوبة قديمة مضت بها السيل ، وميل جسمها
منه فيض أمومى أغدق عليه من أعز الخلق وأقربين إليه ، أما لحظتها فلبنية
رقيقة حنت عليه وورقت له وبعثت فيه نشورا ، غير أن الأسباب باعدت ما بينه
وبينها ، ضمة شفتيها فيها ملمح من أنثى رآها صدقة فى حديقة ورغيا لكنه لم
ينل ، ما أعظم الرغبة عنده ، وما أقل تحقق الغرض ، أما دعيتها واستقرارها
فلحظة سكونية لطفلة هيفاء رقيقة حركت عنده مشاعر أبوية .

هل أنا ملاقيها مرة أخرى ؟ لا أعرف حتى اسم صاحب الدار ، إنما أنا

ضيف ضمن ضيوف كثر .

تقوم فجأة .

يقوم معها شهيقي ، تنهض فينهض قلبي ، تمهد لغيتها ، لاحتفائها من

جمال النظر، غير أنها رعت الوداد في الوضع الذي جلت به وأينعته ، في وقوفها تحية وإيماءة مع أنها لم تبد علامة . عند مرورها بقربى ، لحظة نفاذ عطرها إلى حواس أنثى ، لحظة إشرافى على ضواحي عيبرها ، تلك اللحظة تيقنى من الهوية واستقرار حالى ، عند مرورها تسقط في حجرى وريقة صغيرة ، مضمومة ، كأنها رمتها في بئر قلبى ، أقبض عليها بيدي ، لم يلحظ أحدهم ، يتم خروجها ، يكتمل خروجى من الجبر إلى الاختيار ، من الحجر إلى السراح ، من الضيق إلى السعة ، فكان انتظام حالى بعد مثولى في حضرة امرأة ، كما كان محل تكوفى رحم امرأة ، وما سبيل ريق مطلع امرأة ، وما سيخفف جهامة أيامى رحيق أنثى ، ومن يجدد دخائلى حضور امرأة ، ومن سيؤرقنى امرأة .

يرتفع النغم الأندلسى ارتفاعا وهاجا ، دافقا ، مهدا للغية ، كأن لاتصرفها مقاما بعينه خصت به هى ، نغم يدركه هؤلاء العجايز المعمرون ؟ عازف الكمان حاد الملامح ، عازف القانون راسخ المقر ، عازف العود الحنى ، الضام ، الرعوم ، ضابط الايقاع المتأيل ، الطرب ، أما خامسهم المنشد البدين المسك بطلبة صغيرة ، دقيقة ، مزخرقة بدقيق الصدف الآسيوى والعاج الأفريقى فلا بد أنه عالم بالسر إذ تطلع إلى ، أنامله تلمس حواف الطلبة بحكم العادة لا يستخرج أنغاما ، حسب ذلك وكفى ، أتتحرك ، يتقلقل مجلسى حتى أندس بين الصحب الجلوس ، ملاصق لهم غير أنى ناء ، وكثيرا مايكون الاغتراب فى الاقتراب ، أبسط الورقة والعيون كلها نائية ، أقرأ ماخط بالقلم الكبير ..

« ياجمال قم إلى أوانك ، اسع إلى حيث لا أين ، امض إلى الأحوال ، ستواجد بها فى وقت واحد على اختلافها ، فإقامة وسعى إلى أنيتك وإطالة على ماضيك .. اشرع فالمدى واسع والمجاز وعمر .. » .

العجيب أن هذه السطور تقرأ من كل ناحية على السواء ، كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها ، فعلمت أن في الأمر سراجللا ، أمثل على الفور ، أعتذر للإخوان متعللا بقصر وقت نومي ، بتعبى ونصبى ، استجابوا لى ، أسف صاحب الدار إذ أنصرف قبل أن أذوق طعامه ، آثرت الانصراف بمفردى رافضا أى صحبة ، مع أنى مغترب حتى القرار ولا علم لى بالطريق .

عند المنعطف توقفت ، استدرت ، ودعت البيت بينا قلبى يحدثنى أننى لن ألج بابه أبدا . وأننى مادخلته إلا لأراها ، لأتلقى الأمر والبشارة ، أى حيز يشغله وجودها الآن ؟ إلى أى الجهات تسدد البصر ؟ منى لها السلام ، لها التفرق والوداد ، ولدهرى العتيق الحنين الممض ، فما كان منه لن يرجع أبدا ، أنا ذوابته ، المحكوم عليه بالنفى ، بالسعى بين خلق لا تربطنى بهم صلة ، إنى قابل ، إنى ماض إلى ماكان ، البرد يثقلنى فالشقاء مكتمل ، أحرق فى الليل ، لم أر ليلة كهذه قط ، أكثر نجومها ذوات أذنان ، كأنها نيران عساكر فى حرب ، حيثما وليت بصرى أراها ممتلئة من ذوات الأذنان تلك ، أكثرها إلى جهة الشرق ، ثم صار الجو كله يشتعل فلا يطرف نظرى طرفة إلا يرى عددا لا ينضب ، قلت ماهذا إلا لأمر جلال سيكون ؟ .

لم يعد الوجود خاويا ، أما داخلى فتمتلئ برسوخ صارح حرك على غوامض الأحاسيس ، أنادى من حيث لا أعلم ..

« ادخل .. إن لك فى اليباب سبحا طويلا .. » .

فبدأت !

* * *

حَالُ الْوَدَادِ

«قُلْ لَا آهَانَكُم عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»

(قرآن کریم)

• أعر الآثار المندثرة لاسيما عند فقدان الأمل من لقاء ، ومن لم يرحل
والحنين ملء قواده ، لم يدرك كيف تفتت الأكباد ، إني مواجه في حال الوداد
لحظات منقضية لها الخير المحض ، والعطف والرحمة والرحب ولين الجانب
والشفقة والمداومة ، فيه بعض من طفولة أصلى وقبس من شوارده ، عند
ولوجي سأفقد ظلي ، هذا نذير ، يقابله حال الوداع عند أقصى الطرف الآخر في
ترتيب الأحوال ، لن أطلع إلا على ما بقى معه هو . فلو أنه نسي موقفا ، أو فنيته
في خزانة حواسه رائحة ، أو تاه إيقاع صوت ، أو بلى سرور لحظة فإني غير
مطلع ، المتعلم عنده مفقود مني ، كذا عرفت أنني سألزم حدا لا أخطئه ، فإذا
شرعت في تجاوزه أفلت مني كل نيا ، فاتفق النذر ، فتول عنهم يوم يدع
الداعي إلى شيء نكر ، أتأهب ، وهنا قرئ في مسامعي ..
معي .

تأبى الأمور وأنت منتبه لها
وإذا مضت فكأنها أحلام
مازلت أنتظر الإشارة ، ثم ثل في مسامعي مانصه ..

تلقين

إنك ماض إلى الأيام المولية .. إلى بدايتك ، فهل أنت ملم بمعناك كطفل في اللسان العربي الذى ستصوغ منه خواطرك ومعانيك ؟ .
أبدى النى .

أصغ أذن ، سترى أصلك طفلا ، وطفل يعنى البنان الرخص ، والطفل هو الصغير من كل شىء ، وهو السحاب الصغار الذى لا يصمد أمام هبوب الرياح ، ويعنى أيضا الحاجة ، ياغريبا لم يزل وسيظل . أعلم أن الطفل كلمة تعنى حالة الشمس عند غروبها ، تعنى أيضا الليل ، يقال طفلت الشمس أى همت بالغروب ، وأتيته طفلا أى ممسيا ، وأتيته طفلا أى بعد طلوع الشمس ، طفل تعنى أيضا دقيق الندى المتكون فى الفجر الباكر على رقيق الأزهار . هل أدركت ؟ .

أومئ ...

إذن .. أدكر مايناسب هذا التلقين .

أقول بعضا مما يلقي فى معارفى .

الأول والآخر معا ، البداية هى النهاية ..

دنوت ، لكن هذا ليس بكاف ..

أتلو متمهلا وسكون يهدتى :

« ومن نعمه ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ؟ »

يصيح بى الهاتف :

جز إلى حال الوداد .

رفائق

أول ما أراه ، أول ماتقع عليه عيناي ، أول ماينطبع في مخيلتي ، أول مايتلقاني ، ضريح السيد والمولى ، الحبيب الحسين ، مشواه القاهري ، أراه في أطواره المختلفة منذ بدء تشييده ، أرقب ظلال الغروب على الباب الأخضر في الزمن الفاطمي ، أود لو نفضت كثيف الغبار المتراكم على الأفريز الخارجي للنافذة القبلية في الحقبة الأيوبية . أشفق على البناء من شرخ يسرى خفية في مرحلة مملوكية ، تلك مثذنة سامقة تقوم ، وهذا مظلوم يطوف بالضريح راجيا الإنصاف وحسن الملاذ ، امرأة تقبل العتبة المؤدية ، الأمير المهيب عبد الرحمن كتحلدا يتقدم جمعا من قوم مهيبين ، يخفرون موضع المقام للتأكد .. فقد وقع خلاف ، أحقا دفن الرأس الشريف هنا ؟ ، أتمنى لو أبلغهم ما أعرف ، غير أني أردد ، وماذا يعني التأكد ؟ لكم المعنى وصدق الرمز ، هذا حضور المسجد كما رآه الوالد أول مرة ، مضمخ بعبق العشرينيات ، فلكل حقبة أريجها ، وسماتها . ذلك لون الكساء الأخضر كما رأيته في صباى ، رائحة أعرفها ، تنبعث من الحصر ، من الأبسطة الحمراء ، من أخشاب السقف ، من هدوء الضوء المتمهل ، من زوايا ما بين المنبر والجدار المكسو بالرخام ، من آثار السجود والتضرع واللجوء ، رائحة هي مجمع لروائح شتى ، لاتغيب عنى إلا لترجع ، إذ تنبعث عندى يتفض زمن بأتمه وتتضح قسامات ومعالم دنيا وتفصيل واقع ، حق قول جمال إن عنده بالروائح وثيق صلة .

أقف متطلعا ، رأسي إلى أعلى فما أواجهه شامخ ، ضريح الحبيب هو البؤرة والمركز ، منه ينبعث المعنى ، ومن جواره تتشعب الطرقات ، أراه من كافة جهاته في وقت واحد ، أنفذ حتى جذور البناء الضاربة في عمق الأرض ،

أتبينها ، أتفحصها ، أشفق لما آلت إليه من بلى ، غيرانه باق ، كل ما حوله تهدم وقام غيره ، إلا هو ، البيوت ناحية الغرب زالت ، وتلك العمارة الحديدية لن تدوم أبدا ، أما المعنى فلا يفنى ، بعد اكتمال النظرة ودقة الملاحظة ، أشد الرحال إلى الحارة التي احتوت طفولتي ، لم أولد بها ، إنما بها وعيت ، أجيء إليها من النواحي الأربع ، من كافة المنافذ والشوارع التي يجب اجتيازها ، من شارع أم الغلام ، من طريق المشهد الحسيني ، من حارة الوطاويط ، من درب قرمز ، من ميدان بيت القاضي ، هذه الواجهات لطالما انعكست في بؤبؤ عيني ، وهذا المقهى لطالما ملأ سمعي ضجيجيه ، أما دكان « العسال » فكم توهجت لحظات الصبا بما يعلقه من لعب في الأعياد ، منه أصداء الألوان الزاهية ، ومذاق الحلوى ، ورائحة السجائر المتبقية في صناديق الورق المقوى ، كان أصلى يعيد تشكيلها فيخلق منها بيوتا وعربات وأشكالاً شتى . أمر بالمقهى المجاور ، أبوابه المرتفعة ، ساحته الفسيحة ، مناظرة رخامية ، فتاجين قهوة ، نراجيل فارسية ، مقاعد خشبية محفور على كل منها « عفيفي » اسم صاحبه ، ونوافذ عالية للتهوية وجلسوس شتى .

هذا ضريح سيدى مرزوق ، أحد تلاميذ المجاهد ، من ولد بمدينة فاس كما جنتها أول مرة في غربتي المقدرة ، من جاور بمكة وتعلم بالعراق ، وصد فتنة فاطمة بنت برى ، ثم جاهد بمصر حتى قضى بها ، إنه سيدى أحمد البدوى وأمره ذائع معروف .

عند المنحنى أتمهل ، عند اللافته الزرقاء ذات الحروف البيضاء أتوقف

« درب الطبلاوى »

أمضى ، البيوت متجاورة ، هذا قديم وذاك أحدث ، بيت تبرز جدرانها نوافذ وشرفات واجهاتها من خشب مشغول ، من هذه الواجهات صيغت صور

شتى فى وعى أصلى ، وأثار اهتزاز ستارة مسدلة على إحدى نوافذها أخیلة
وصورا ، أمام بعضها خفق قلبه وهولتقى بمحبوبة تعلق بها من تلك الناحية ، عند
هذه الخطوة قرر ، وعند هذا التمهّل انثنى ، وهنا أسرع ، أول ما يعبره عند
خروجه إلى سفر ، وآخر ما يراه بعد إياب ، وذات صباح لم يكتمل نوره ، تساءل
لحظة خروجه من السراح إلى القيد محاطا بالعسس ، محروسا بهذا الضابط
الغيتى ، مقيدا ، « هل سأراها مرة أخرى » وعندما دنا الحين فارقها إلى مأوى
آخر ، فبدأ معه حنين المقترّب ، ليس إلى مكان بعينه ، ولكن إلى عمر بأكمّله ،
وأيام مستحيل كرها ، وضئى ، جاءها وقتا بعد وقت ، متحسرا ، ليس على
أزمنة ولّت وانقضت وانقطعت ، ولكن على أمكنة يعزّ قصدها ، فلا البيت الذى
أقام به يقصده ، ولا الأم التى كانت تتهلّل لرؤيته منتظرة ، ولا الوعد بالراحة بعد
عناء يوم طويل ، العودة إلى المكان لا تعنى استرجاع الزمان ، مامن زمان بعينه إلا
بالمكان ذاته وتبن أقاموا فيه ، شريطة انعدام التغير ، وهذا عين المستحيل ، لن
تخلف المحاولة إلا حسرات .

هنا يتشعب الدرب إلى شعبين ، فواحد إلى حيث أقام حولا بعد حول ، أما
الثانى فيؤدى إلى ماعرف بين أبناء الناحية بالخرابة ، مع أن المكان مسكون ، ثمّة
بيوت قديمة تحيط قصرًا مهجورا تتردد حوله أقاويل شتى ، منها أن أحد ملوك
المحروسة ولد به ، وأنه ظل عامرا سنوات طويلة بسكنى أمراء صالوا وجالوا
وامتطوا صهوات العاديات صبحا فاللوريات قلحا ، ثم أحلق بهم الدهر فولوا
مدبرين ، عارف بالتاريخ يقول إنه استخدم فى زمن آخر مقرا لضيوف حكام
مصر ، من هنا سمى « المسافرخانه » كما عرف بين القوم ، وإنى لمحدثكم عن هذا
كله بما تيسر أن سنحت الفرصة وسمح الأذن . أما الآن فأمرى فى عجلة ،
عندى شوق إلى هذه الغرفة التى آوت أصلى زمنا ، فيها صباه الذى ولى بددا ،

آمل الوقوف عليه لأعرفه فأعرف نفسي ، فعمدرة لو اختلط الأمر قدرا يسيرا ، عند هذا الحد ينعطف الشعب الأيمن فجأة ، هذه منازل ثلاثة ، رقم (١) طوابقه خمسة يعرف بيت الشيخ حسين آخر من امتلكه ، هنا تقع رؤية خاطفة ، هذا سلم يحده سور من حديد مفرغ ، فوق الدرجة الأخيرة يقف الشيخ حسين ، قصيرا ، بدينا ، يطالب بأجرة الغرفة المتراكمة . أما المخاطب فوالد أصلى ، غير أنني لم أره ، كأن السلم معلق في فراغ ، يبدأ من لامكان ويؤدى إلى لاشيء .

تلك هى الصورة الوحيدة المتبقية فى وعى أصلى عن مالك البيت ، آراها معزولة عما قبلها ، عما بعدها ، وما أشرب ماسأطلع عليه ، فكثيرا ما سأرى اللحظات متباعدة . إلى الجهة البحرية بيتان متلاصقان ، لا يعلو أحدهما عن الآخر ، طلاؤهما أصفر ، نوافذهما متشابهة ، المصاريع خضراء ، إلى الشرق سور من طوب لبن ، إنه الحد الخلقى لفناء قديم ، مدخله من ناحية شارع قصر الشوق ، يصل البيت رقم (١) - مرامى وغايتى - بالبيتين الآخرين ، العطفة مغلقة لا تؤدى إلى حارة أخرى طريق مسدود ، أضنى ذلك هدوءا وسكينة ، فالغرباء لا يعبرون ولا يدخلون ، لا يبدو فى الأغلب الأعم إلا سكانها ومن لهم صلة ، أما الباعة الجائلون فأمرهم معروف ، عم محمد بائع الصحف . وساعى البريد ، ورجل مغربى ، يفتح الكتاب لينبئ بالجهول بجيء مرة واحدة فى السنة قبل خروج الحجيج قاصدين مكة ، أما القادمون من الريف للاحتفال بمولد سيدنا الحسين ، ومولد سيدى مرزوق الذى يعقبه ، فلهم ترتيب ، وأمرهم معروف ، يفترشون أرض الحارة ، يسطون الحُصر ويرتبون الأمتعة ومواقد الغاز ويصفون الأكواب والنرجيلات ، هنا يكشف الغريب بسهولة ، ظهور ملامح غير مألوفة توحى بالاستفسار عن الهوية والمقصد . رقم (١) يقوم

إلى جهة الشرق ، فوق جزء من الموضع الذى أقيم فوقه بيت باجنيد الكبير زمنا ، هنا وقفت على أمور تخص نشأتى الأولى ، إذ أشهدت المكان فى الحقب السحيقة ، قبل ظهور اليابسة والماء والطير والشجر والتراب - ولا يمكن للتراب أن يحىء إلا بعد اكتمال قدم - والأكمة والأحراش ، كذا الإنسان على الدوام ، رأيتته بجرا قبل أن يصير يابسة ، فالشئء يحوى ضده ، والشئء ينقلب إلى نقيضه ، فلا يدوم حال أبدا . تعاقبت الرؤى فرأيت الظلال كلها ولم أر أصولها ، رأيت الحشائش التى نمت ثم ديست ثم استقامت ثم ذوت ، رأيت النقاط التى تكسرت عندها الرياح وحادت ، أشهدت ما لا حصر له ، ولأن مذهبي فى هذا التدوين هو الاقتصار والاختصار ، لذا اكتفى بما عرفته قبل دق أساسات البيت مباشرة .

هذا بيت باجنيد الكبير ، سور محيط ، وأشجار نادرة ، كل منها لا تشبه الأخرى ، ونباتات صبار من بقاع شتى تثير عجب الناظرين ، وأخرى يعد نموها فى هذا المناخ قدرة وابتكارا ، هذا بناء من طابقين يقوم فى عمق الحديقة لا يلوح منه جزء لعابرى الطريق ، مما قيل أن قاطنه لو أغلق الباب دون الخلق لاكتفى سنة كاملة ، فثمة بئر مياه عذبة لذة للشاربين ، وطاحونة ، ومخزن للمؤونة ، قسم من الحديقة يزرع خضرا ، ومقبرة مكللة بالألواح الرخام .

هاهوذا باجنيد الكبير ، عجوز ، نحيل ، يرتدى عباءة بنية اللون . منذ وفاة ولديه لا يدخل على أحد ولا يزوره إنسان ، يخرج صباح كل يوم ، يجلس أمام البيت فوق تنوء حجرى ، يستند إلى عصاه ، يمد البصر ، يضيق حدقيه عند مرور أى إنسان أمامه ، كان الدرب وقتئذ يفضى إلى ناحية قصر الشوق ، يطيل التدقيق ثم يبتنى ، يتمم بصوت يمكن سماعه ..

« لا .. ليس هو .. » .

وعندما غاب لم يلحظ أحد فى البداية ، نما الهيش فى أحواض الزهور ،

سكنت الطوايط قم الأشجار ، ترددت صرخاتها القصيرة الثاقبة في الليل ، مالت شجرة السرو الكبيرة ، قال أهل الدرب إن نفرا من الجن نزلوا فيه ، قبل اكتمال القرن بعامين ، ظهر غريب راح يدخل ويخرج ، قيل إنه يمت إلى الأسرة بصلة .. باع الأرض بما عليها من نباتات نادرة ، وأعمدة مرمرية ونقوش فسيفسائية وأسقف خشبية ملونة ، وأحواض ومرابا ضخمة مذهبة الأطر وأثاث نادر عميق ، اشترى التجار البيت وماحواه وماتبقى منه بثمان نجس ، وتوزعت التحف والأشياء النادرة على جهات شتى ، منها ما استقر خارج البلاد ، وجاء عمال الهدم فأزالوا ماتبقى ، وردموا قنوات المياه ، فكان الأشواق لم تتردد يوما بين جنبات ها هنا ، وكان الأرض لم تدب فوقها قدم ، ولم يودع قوم بعضهم بعضا عند سفر ، كأن ما كان لم يكن . فكان الحال كما قيل :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتعوا بالأهل والأولاد
فإذا النعيم وكل ما يلهي به يوما يصير إلى بلى ونفاد
شخص مجهول رجا مصلحة التنظيم إطلاق اسم باجنيد على هذه العطفة
المتوارية المنسية . تردد أنه رشا أحد الموظفين فوَقعت الاستجابة ، فوق الأرض
قامت البيوت الثلاثة ، وسدت العطفة فلم يعد الطريق سالكا يفضى .

أرى تعاقب السكان ، مجيء وذهاب ، إقامة وبدء اغتراب ، أرى نعشا
مفتوحا يحف به عدد من الناس ، ينتظرون نزول قوم بجثمان ميت لم أعرف هويته
ولم أعرف هؤلاء ، ولم أدر لماذا أشهدت هذه اللحظة ، وماذا يعنى ذلك ؟ ،
أصل إلى هذه الحجرة فوق السطح ، آخر من ترها ، واستظل بسقفها بائع
عطور جوال يطوف يومه حول ضريح سيدنا ومولانا ، بعد ذهابه بقيت زما
خالية ، الشيخ حسين أوصى بعض السماسرة وأصحاب المقاهى وعلق لافتة عند
دكان العسال ، ولم يجيء أحد ، في صباح جمعة باكر جاء إلى الحجرة ، فتح

النافذة والباب ، تلا آيات كريمة ، وأشعل بنجورا تيمنا وتفاؤلا ، في صباح الجمعة التالي أخبرته ابنة أم هدهد المريضة عن نفر صالحين يرغبون في استئجار المكان ، قبل على الفور واستشيرا خيرا .

هاهى ذى من كانت أما لأصلى ، من حملته وهنا على وهن ، وحنث وقلقت ورعت . تدخل الحجرة بقدمها اليمنى ، هنا سيكون مأواها ومعاشها وستمضى أيامها ، الضوء شرح صدرها ، والهواء يسر أمرها ، أما السماء فقريبة صافية منبسطة ، هذه أمى كما قضى الأمر ، ملامحها مستكنة ، صبورة ، لاتنبئ عا مضى منها وما سيجىء ، اقتربت فلت فحننت فحنيت لو باستطاعتى تخفيف هذا الشرود الحزين فى عينها ، حضورها أمومى ، يضى على دعة حتى أتى استدعيت بالخاطر أمى فى زمنى العتيق ، كدت أتلى منه وأتممكن ، غير أنه أقصى عنى ، هذا غير مسموح به ، إنها تتأمل الغرفة راضية ، تتجه إلى النافذة لترى ماستقع عليه عيناها زمتا لايعلمه إلا رازق الطير . أمامها فراغ ، كل الأسطح منخفضة ، لايمكن التلصص من قريب أو بعيد . النفس يسرى مرتاحا عندها ، انقضت العتمة ، والرطوبة ، والخوف الليلي عند تأخر أحمد ، غير أنها تذكر أم هدهد فتأسو ، فراقها يعز عليها ويصعب ، جارة طيبة ، رعتها وشالت عنها الهم أيام مرضها ورقادها ، هى الغربية التى لا يطل عليها من الأقارب أحد ، رعى الله ابنتها ، وقفها إلى زوج صالح ، وأبعد عنها أولاد الحرام ، خاصة أنها تخرج إلى العمل . وتخالط القبيح والحسن ، عند خروجها بصحبة أحمد لزيارة مثنوى الحبيب شهيد كربلاء ، ستطلب العروج على أم هدهد ، إنها وحيدة ، بمفردها هنا ، بعزل ، مامن قريب قريب إلا الشيخ قيصى ، امرأته الطيبة ، غير أن بيتها ناء ، هناك أقارب يسكنون قرب القلعة لكنها لاترغب زيارتهم ، للنساء فضول عظيم ، يسألن ، يدققن ، يستفسرن

عن مآكلها ، عن مرقدها ، عن مدخرها ، يبدن الرثاء وفي أعماقهن الشبابة ، لأنها ستورهن فلا بد من رد الزيارة ، لوجئنا لن نجد مقعدا أو حشية ليجلسن عليها .

إنها تقعد فوق الحصيرة المطوية ، لم تفردا بعد ، على حجرها كمال شقيق أصلى ، لا أتمكن من رؤيته ، إذ أن جمال لم يحتفظ بملاحه ، أرى أطفالا كثيرين في وجه واحد ، أرى أخيلة ، ملامح شفقية ، غروية . لانفصح عن قسبات ، خليطا من رؤى بعيدة وأوصافا ترامت إلى سمعه في مراحل مختلفة من العمر ، رحل كمال عن الدنيا وأصلى دون الثالثة ، يمر الطفل بعامة الأول والثاني والثالث ، بدون أن تعلق بوعيه شاردة ، أو محسوسات تدع أثرا ، ربما بقيت ظلال باهتة ، ربما يترسب عند القاع البعيد ملمح ، أو يخفق نبض واهن مشيرا إلى ذكرى ، قيل عند أهل العلم والدراية إن هذه الفترة تدع آثارا غير هينة ، وأن شأنها جلال ، فيما بعد كان أصلى ينظر إلى ولديه مليا عند مرورهما بتلك السن ، يقول لحاظه ، هذا عمر لن يخلف عندهما شيء ، ربما تبدو الأطياف في الأحلام أو الهلوسات ، أو عند الغفو وعبور الحد الممتع ، ما بين النوم واليقظة ، لم حدد أصلى الفترة بسنوات ثلاث ؟ ربما لأن أقدم صورته ترجع إلى عمره وقتئذ . إذن .. ما أقدم صوري ومكنوني ؟ إلى أى حقب تمت ؟ هذا ما لن أقدر على البوح به ، فما بين جهلى وقلة حيلتي يتأجج ضيقى وتُسقى غربتي من معين لم يكن في خطتي أو حسابي .

أرى كمال في جملمته ، ملفوفا بنحرق سود ، تخشى الأم عليه شر العين ، أبيض الوجه ، مكتمل الصحة ، مع أنه لم يذق الشمس طويلا ، أما حليب ثديها فكان شاحبا شحيحا ، خاصة عند مرضها ، كان جميلا ، متوردا ، حتى أنها أخبرت القوم أنها رزقت بنتا وسمته اسم أنثى راح منى ، حتى امرأة الحال

وأقرب الأقرين لم يعرفوا أنه ذكر ، كانت خشيتها العظمى أن يقرب كمال ، أن ينطفئ نجمه ، أن تسقط ورقته كما هوت ورقة خلف ، خلف أول فرحة بكر لم تم ، له الرحمة يوم التناد ، مضى طفلا ، له الجنان والعفو من السؤال والاستفسار عن الذنب ، هاهي ذى تضم كمال ، تقبله ، أحلق وقد شب عندى فضول محوره ، ما الباعث على هذه القبلة بالذات ؟ تلك القبلة المفاجئة ؟ ماموقعها من الزمن ؟ كيف تلقاها كمال ، أهو حنان دافق ، أم خشية مفاجئة ، أم روح وربحان وجنة نعم ؟ .

هنا مالن ألقى الإجابة عليه ، حتى وإن حرك عندى هفو الوداد ونسيمه ، هنا أنبت أنتى لن ألقى أخى كمال إلا فى هذا الحال ، فعظم انتباهى ، هاهي ذى الأم فى زمن متقدم ، بعد أن نال منها طول السفر ، وصعوبة الرحلة ، وتكأ كؤ الظروف ، وسكنها المرض ، تقعد فوق حشية وأصلى متمدد ، مصغ ، هنا حديثها قبل نومه الأصيلى ، تقول إن كمال كان بهجة للناظرين ، وأنه كان واعيا ، يردد مايسمعه بدون تعلم الصغار ، وأنها خلال صحبتها له لم تشعر أبدا أنها برفقة صغير لم يتجاوز سن الفطام إلا بشهور قليلة ، كثيرا ما حبا واقترب منها فى صمتها وطبطن عليها ، قرب وجهه من وجهها ، كأنه يدرك من شفيف أفكارها وخبيء خواطرها ما يعجز عنه الكبار ، بعد غروب أخيه خلف كان يدور بعينه باحثا عنه ، ثم يتطلع إليها صامتا لا ينطق ، مترقق العينين ، انقبض قلبها ، لم يستفسر بلسانه غير أن تساؤله الصامت كان أنفذ ، تستمر الأم فى حديثها الأصيلى ، تحدث جمال الذى يغالب الإغفاءة ، فيبدو ما أشهده آخر علامات دالة على صبح الوجود ، قبل دنو ليل العدم ..

النكس

حدثت الأم بنبرة باك ، مخفية أوجاعا قديمة ، قالت :
« عاش كمال سنة بصحبتك ، دائما كان يحنو عليك ويبتسم في وجهك ، لم يظهر غيرة الصغير من شقيقه أبدا ، حتى أني كنت أخرج إلى السطح تاركة إياكما معا ، مطمئنة ، آمنة ، أرجع ألقاه يهز شخصيخة من الخوص اشتراها أبوك من جوار مقام سيدنا ومولانا .. » .

تصمت لحظات .

« كمال كان وش موت من يومه .. » .

تطول إطرافتها حتى ليخفت صوتها ، فيسرى عند جمال قلق ، يتبته ..
« مالك يا أمي ؟ » .

تحرك رأسها من يمين إلى شمال ، بين بين ، تدع له حديث الفهم ، فإن شاء أدرك ، وإن شاء انتفى ، أما إذا تلاقى ماعنده بما عندها فسيجد للكلام سبلا وطرائق .

« أعنلك جوى تكمينه ؟ » .

تطرق ، ثم ترفع عينين ممتلئين ..

« سامح الله من كان السبب .. » .

قالت :

كان أبوه ينجبه حبا جبا ، فيصحبه حيثما ولى وجهه ، صوب معارفه وأقاربه ، إلى من يحىء من البلدة ، إلى المقهى ، إلى دكان الحاج الصاوى ، للطواف حول ضريح الحسين ، تماما كما حرص على رفقتهما وابتها صغار ، وفي يوم اثنين خرج حاملا كمال على باطه ، خرج إلى بيت البك ، قال إنه سيعرج

على جزار في شارع الحسينية ، أوصاه بذلك .
الحق يا جمال أنتي لم أكن أرضى بصحبة أحدكم لأبيكم عند ذهابه إلى هذا
البيت ، فالرجل متقلب المزاج ، يبدي الود حيناً ، وينقلب في لحظة ، ولم
أحب لأحدكم رؤية أبيه في لحظة هوان لا يقدر فيها على رد الأذى ، لكنني
كنته ، ليتني أفضيت ، ليتني صرحت ، حدثني أبوكم فقال إنه مشى بصحبة
كمال ، يحمله معظم الوقت ، ويشجعه على المشي إلى جواره بعض الوقت ،
عند الخرنفش شرب عصير السوييا ، وعند سوق الليمون أشار كمال إلى بائع
بطاطا فاشترى له قطعة بليمين رشها البائع بالملح ، وأوقفه عندما هم بنز
الشطة الحمراء ، قال إن الولد صغير لا يحتمل ، وبعد اجتيازهما باب الفتوح
تطلع كمال ناحية المقابر لمواجهة لباب النصر، مد يده الصغرى إلى ذقن أبيه
موجها بصره إلى هناك ، ولم يتبّه أحمد إلى ذلك إلا بعد وقوع الواقعة .
قالت الأم :

إن كمال لم يحول وجهه عن الناحية الشرقية إلا بعد قطعها مسافة في حارة
الحسينية ، لم يتوقفا طويلاً أمام الجزار ، أحمد أخرج منديلاً كبيراً لف فيه ورقة
اللحم ، ثم رفع كمال ، يحمله فوق ذراعه اليمنى ، ولفافة اللحم في يده
اليسرى ، وصلا إلى ميدان الظاهر وصعدا السلم القديم ، البيت عتيق فسيح ،
وارتفاع طابق منه يوازي طابقين من البناء الحديث ، إنها ليست المرة الأولى التي
يمضي إلى البك بصحبة أحد ولديه ، فكأنه بصحبة ضناه يقول بدون نطق :
انظر .. لأنك أجريت رزق وتسيبت في معاشي صرت أبا ، وأباً لطفل نجيب ،
لم يكن يتجاوز الصالة ، لو بيده شيء يدخل المطبخ ليضعه فوق منضدة أو
داخل صوان ، ولكنه لا يفارق أناكهم وإذا جلس فإن مكانه قرب الباب
لم يكن ممكناً لخلف أو كمال وأنت من بعدهما الحبو فوق بلاط المسكن أو

أبسطته ، كذا المشى ، أما مخالطة أبناء البك فأمر مكروه عندهم ، ولعلك تذكره عندما صحبت أباك وأنت ابن السابعة ورأيت ابن البك الأكبر يلعب بسيارة صغيرة تدور وتلف ، بقيت أنت بمنأى ، تتطلع ولا تقترب ، تنظر ولا تشارك ، أعود إلى هذا اليوم ، الاثنين ، فأقول إن أحمد ضغط الجرس ، بعد لحظات أصغى إلى خطو يقترب ، إنه البك نفسه ، يسد الباب ، مرتديا الروب ، بدون نظارته ، هل كان متكدرا من أمر لا ذنب لنا فيه؟ ربما ، هل كان على خلاف مع امرأته؟ ربما ، هل كان بحاجة إلى النوم؟ ربما ، أيا كانت الأسباب يا ولدى ، فلاحق له أبدا فيما بدر منه ، لا عذر له ، قال بجفوة .. ماذا تريد؟ .

فقرّب أبوك كمال من صدره ، ومد يده بمنديل اللحم ، تناوله خلف بك ورماه فأصاب كمال الذى انتفض ثلاثا ، قذف في قلبيهما الرعب خاصة مع تلفظه بما لم ينسه ابني قط .

غر من وشى .. تضع اللحم في مندليك؟

رجع أحمد إلى البيت حسيرا ، واجبا ، يكابد قهرا هائلا ، عبثا حاولت أن أعرف منه ، أن أفهم ، أن أدرك ، غير أنه صمت عنى مدة ليست قصيرة ، مع أن صميم طبعه الإفضاء والبوح ، أما كمال فبدأ ميل شمس ، وغروب نجمة منذ ذلك اليوم ، لم أدر بما جرى إلا بعد أن بلغت من العمر باجمال أربع سنوات ، بعد أن استرد خالقنا أخاك بثلاث سنوات ، بدأ مرض كمال ، في الليل ياكبدي ينتفض ثلاثا ، وخلال رقدته يرتجف ، يزلزل جسده ثلاثا ، وفي ذروة مرضه وذبوله يتصل نومه ساعة ، يقوم مفزوعا ، باكيا ، يدفع يديه مالا أراه ، لم ينفع حجاب الشيخ عطيه ، أو التلاوة في أذنه ، صارت دمه أغزر . ونكسه تعس مستمر ، ثم ظهرت الحمرة ، جعلت خصيتيه في لون الطماطم ،

عرفنا الطريق إلى طيبة شابة ابنة أناس طيبين في ميدان بيت القاضي ، قلت لها :
اعمل معروفا وداويه بالحكيمة ، ياطيبة ماعندى غيره ، كمال هو روحى ،
وأنسى ، فى الليل يصرخ « حوشى يا أمى » ، فلا أعرف أى أمر أحوش ؟ وأى
خطر خفى أذفع ؟ ما يراه هو لا أراه أنا ، تتابعت أيامه حتى جاء الأربعاء ، وقت
آذان الظهر ، أثناء عودتنا إلى البيت ، عند مرورنا أمام فرن الحاج نصيف ،
تقل رأسه على باطى ومال ، عرفت أن الأجل تم وأن القضاء حسم فسابت
ركبتى ، قعدت فوق حجر غليظ وورقته كخيطة ملوى ، رخو ، وتلك علامات
أعرفها ، عندما أسلم المرحوم خلف الأمانة قبله ، نزت دمعى على ضناى الغالى ، لم
أطلق البيت بعده ، كنت أهج على رأسى مصطحبة أباك ، أزور أهل البيت ،
وأنذر للأولياء كى تبقى لى أنت . لو عاش كمال لكان يكبرك الآن بعامين وشهور ..

تصمت ، أرى الوسن مبددا من عيني أصلى ، يكفكف عنها باللفظ دمعاً
لا يفصح عن نفسه ولا يبين ، ثم يتساءل دهشاً :
« لكن أبى ظل يتردد عليه .. » .

تقول متحسرة :

« كان رزقه بيده ، ولم يشأ أن تعيشوا ماعاشه هو .. » .
يوشك أن يصيح « أمى » ، غير أننى أرى لحظة أخرى ، هذا أصلى يجلس
إلى أبيه ، أى أبى ، هذا زمن متقدم ، أى وقت هذا ؟ ربما المرة الأخيرة التى
زار فيها الأب ابته ، هذا بيت جمال بعد زواجه ، بعد أن صار أباً ، اليوم
أربعاء ، والساعة أصيلية أيضاً ، هذا أنا ، عندى ود تجاه الوالد الكريم ، أما
وجهى فذو ارتقاب ، يحدث الثقة ، الصاحب الأمين فيقول :
« والله يا جمال أنا طول عمرى شقى .. » .

تلك عبارته ، دائماً يرددها ، غير أنه يلفظها فى شجى من شفتين مزوموتين

فكانه يصرح بها لأول مرة ، أحاول أن أقف عينا على مسرى الحديث ، على وجهته ، أحاول التعرف على نقطة بدئه ، لكنني لا أقدر ، فيا أصلى البائس لماذا لم تمن ؟ لماذا لم تحفظ مع أن العهد قريب ، والمزار غير بعيد .
أصنى فقط إلى الوالد ، يقول :

« .. كنا في محطة مصر ، خلف بك يقف مع أشخاص مسافرين جاء ليودعهم ، كنت بصحبته ، طلب مني أن أجيء فجئت ، وقفت على بعد منهم تأدبا وتحاشيا ، كنت صامتا ، لا يكلمني أحد ولا أتحدث إلى أحد ، وحيدا ، منتظرا ، فجأة .. لمحت إليك يفارق صحبه متجها نحوي ، مشهرا عصاه ، ظنته يسعى في إثر شخص ورائي ، وأنه سيتجاوزني ، التفت لأرى من ؟ لكن العصا نزلت على جسدي ، على جسmy أنا ، سبني ، رفعت اليدين أحوش البلاء عني ، ف وقعت بين ألمين ، الضرب وألم المفاجأة ..

يصنى أصلى دهشا ، هاهوذا الوالد يفصح عن مكنون سير مما عنده ، أمر من مغاليقه ، لم ييج به أبدا ، ينطقه في سر ، كأنه يزجحه عن صدره مع دنو الختام ، أليست آخر زيارة يقوم بها إلى بيت ابنه الأكبر وبعدها لن يدخله أبدا ، ولن يسمى إليه قط ، نظره متجه إلى بعيد ، يتجاوز الأطر المكانية ، يتصل بهذه اللحظة المولية ، يقص ماجرى بها ، يتفحصها ، يبدى الأسى والدهشة بعد كر الأعوام وتبدل الأحوال ، واختلاف العلاقة ، إنه متأهب لقص المزيد ، وربما لاسترجاع لحظة أخرى ، أو لحظات ، غير أن أصلى الغبي ينطق ، يا أصلى الأحمق اسكت يامن قديري أن أكون أنت ، أن أكونه ، لماذا تكلمت ؟ لماذا استعدت من سريانه ؟ يا أناني ، يامغلق على نفسه ، يامقطع الوصل ، ياخرب الجسور ، لماذا نطقت ، لماذا تكلمت ؟ ، يتساءل البائس الذي هو أنا :

« بدون سبب ؟ » .

يجيب الوالد مترعاً من بعيدة الذى كان ..

« بدون سبب يا ولدى .. »

فى صوته أنه ، وفى نبره شكوى ، كأن ماجرى وقع منذ لحظات مع أن عشرات الأعوام انقضت ، والبك يرقد عليلاً تختلط عليه الأمكنة وتتداخل فى وعيه الأزمنة ، لا يغادر فراشه أبداً ومامن صاحب يمضى إليه إلا الوالد ، صار الأمر بينهما صحبة وصلة ، حتى أنه إذا غاب عنه يوماً أو يومين ، يرسل من يتصل به ، ويستفسر عنه بل ويعتب عليه ، قبل بدء رقاذه وعمجزة كان الوالد يمضى إليه ، مع بدء الليل يبدأ حديث البك ، يذكر أياماً نائية ، وجاها كان يرقل فيه ، ومنازل فسيحة ، حلقاتها لا تمجد جرى فيها ولها ، وهدايا ثمينة تلقاها ، وحلوى خاصة يفضلها كانت تخبئه من نابولى ، البيت القديم بارد ، لفراغه وقع وصدى ، ولأثائه العناقة ، ولضوء ثرياته النحاسية قدم الزوايا المنسية والنواصي التي لا تؤدى إلى شيء ، أما أصوات الطريق فتجىء كأنها تمت إلى عالم آخر ، يصغى الوالد ، يضيق حلقته ، وفى أيام أخرى يتكلم هو وينصت البك ، يتحدث عن بلاد نزلها أول الليل فلاقى فيها كراماً وترحيباً ، ومقامه صفتق روادها عند ظهوره يطلبون له الشاى أو القهوة بدون أن يعرفه أحد ، وطرق مهجورة اضطر إلى اجتيازها حتى لا يتزل الليل عليه فى الفلاة فيخرج له الضبع أو يتفرد به الذئب ، يتحدث عن حروب دارت منذ عشرات السنين بين العائلات الكبيرة ، لاتزال آثارها باقية ، عن زمن صال وجال فيه فرسان كرام لم يعرف مثلهم فيما بعد ، يقول ، راح هذا كله ، نعم .. راح ، فى أيام الجمع ، قبل الصلاة بساعتين ، تلك الأيام التي كل فيها بصر البك وخطت نور عينيه ، يمضى إليه الوالد ، فيصحبه مشياً عبر شارع الحسينية ، ثم شارع

المز ، حتى ضريح المنجب النجيب شهيد كربلاء ، حدث الوالد فقال :
كان يمشى متمهلاً ، لا أراكم الله مكروها ، يسأل عن كل شارع ،
ويستفسر عن بقاء العلامات ، وعن مبان لم تكن قد اكتملت قبل ذهاب
بصره ، أحيانا يتوقف ، ويطلب أن نمضي عبر باب النصر بدلا من باب
الفتوح ، فأقول له ، إني أتشاءم من باب النصر ، لقربه من المقابر ، ثم إن
شارع المعز أقرب ، فيأبى ويصر ، وعندئذ أتوقف محتجا ، هنا يصبح أقرب إلى
طفل ، يوشك على النهبة إذ يقول معايبا ، طيب يا أحمد .. لأنى عميت
تتحكم في ؟ ، فلا يطاوعنى قلبي وأمضى به كيفما شاء وإن كرهت ذلك .. .
هاهوذا الوالد يجلس القرفصاء في الشقة ، يلامس رأسه بأطراف يده ،
إنها الأيام التي ضاقت فيها عيناه ، وخف لون سوادهما حتى أصبح رماديا ،
وتباطأ خطوه ، ومال جذعه ، إنها أيام الغروب التي لم تتبه إلى دنوها يا أصلي
النجي ! ، كيف أرضى بترائك ؟ كيف أقبل ما أودعنتى إياه ؟ ولولا أنى مجبور ،
مضطر ، لوليت الوجه ، وأوغلت نأيا عنك وبعدا ، يامتاعس ، يامتأخر ،
يامن تدع الأوان يفوت ثم تدب نفسك ، عشت لاهيا ، متشاغلا عن أقرب
الأقربين ، تعبت في خراء أيامك ، ومع ذلك فإنك وثاب ! .

يمد الأب يده بورقة مطوية ، أود لو أقول له ، وفر على نفسك ، لاترجو
جمال زيارة الرجل في مرضه ، لاتخبره باسم المستشفى أو عنوان الطريق ،
والطابق ورقم الغرفة ، فلن يذهب ، ولن يراعى لك خاطر ، ولن يجامل ،
لكنه بعد اقلاعلك وتمام غيابك يا كريم ، ياجاهد ، سوف يسعى لزيارة البك ،
فلن يحده واعيا ، سيلقاه بقايا ، وسيكذب عليه ولن يخبره أنك مضيت إلى
الأبد ، لأن الأهل رجوه أن يخفوا عنه النبأ ، فلو علم لصار الأمر عسرا ،
لوقعت صدمة على البك الذي يطوى ماضيه تحته ، إلى جواره سيجلس ،

يصنى إلى الكلمات المتبادعه ، وكلما قال الرجل : أحمد تأخر على ، أحمد لايسأل عني ، صار أصلي في محنة ، وحاش دمعاً ، دمعك متأخر دائماً يا أصلي البائس ، وندمك بعد فوات الأوان يا أحمق ، فانتبه إذا جاز لك الانتباه ..
أتأهب لإبداء اللوم ، وإظهار النفرة من كتب عليّ أن أكونه ، غير أنني أنهى عن ذلك ، فلا أخوض ، إنما أرجئ ما أبطنه إلى مدى حتى تتم أموري .
يستغرقني الآن وجه الوالد الذي كتم ماجرى أعواماً عديدة ، ثم أفضى إلى ابنه في لحظة أصيلية دانية من الغسق ، وأثناء زيارة قدر لها أن تكون الأخيرة ، كأنما أراد أن يفسر أمراً مبهما ، أو يخفف عن دخائله حملاً ، هذا تفسيري وفهمي ومقدار إدراكي ، وما من مجال الآن عندي إلا لتساؤل ، لماذا أفضى بما أفضى ؟ لماذا في هذه اللحظة بالذات ؟ لو أن أصلي بذل القليل ، لومد جسر الوصل لحظات لأدرك ولعرفت ، لكنه ترك عندي ما استعصى عليّ .. ، أسمع صوت الوالد :

« شوف يا ولدي .. الذي أمن الفقير على رزقه ، الذي صان كرامته ، جال عبد الناصر .. ولو لم يفعل إلا ذلك لكفاه .. » .
تغم الرؤيا عندي ، تلك مدينة صغيرة لا أعرف كنهها ، لم أطرق دروبها ، أرى الأمر ، الوالد غائب عن البيت ، إحدى مرات غضبه وهجرانه إلى حيث لاندرى ، مضت فترة والخبر منقطع والأثر مفقود . لكنني ساع في أثره ، أرى بعض الأقارب . الحاج أبو الغيط ، الحاج عوض ، الشيخ عبد اللطيف . وكلما مررت بواحد منهم أبدى اللوم وأعرض عني .
« لماذا تغضبون أباكم ؟ » .

« هل تعرفون كم شقي بسبيكم ؟ » .
يتقبض قلبي ، أوشك على إبداء العبارة ، مالي أنا بما جفاه غيري ، لماذا

أحاسب على ما لم أرتكبه ، إنما أنا وافد ، عابر ، أنا لم أكنه ، فكيف أحل هذه القضية ؟ غير أنني أكنم أمرى ، أرى الوالد فأكف ، أراه عاريا كما ولدته أمه ، جسده يلمع ، تعلق به قطرات ، أسأله عن أحواله في غربته الأبدية ، يقول إنه بئير . استفسر ، أهوراض عمن أنجب .. - أقصد - عنا ؟ يومئذ ، لا ينطق ، أسأله عن هذه المياه ، فيقول مبتسما :

« أنا ملتحف بالنيل .. ألا ترى ؟ » .

أدرك أنه يتوشح بماء النيل من المنع إلى المصب ، وهذا عجيب ، أتأهب لاستئناف المخاطبة غير أن وجوده بدأ يتميع وصورته تنأى عني ، عندئذ أسمع صوت الأم :

« اسمع يا جمال ، ماراح من الزمان راح بحاله ، وأورث ما أورث ، وما نحن فيه فتحت سلطانه ، ومالم يأتنا فلا حكم لنا فيه .. » .
ينغم ما أراه ، فأمضى في الحال صعدا

* * *

لاتحسبونى ، غنيا عن مودتكم
إني إليكم وإن أيسرت مفتقد

* * *

أرى الأم في صمتها ، هل ورث أصلى رغبة في السكوت عنها ؟ لست أدري ، غير أن هذا الطبع صار طبيعى بحكم الوضع وجوهر المهمة ، أنا مثله ولست مثله ، وكان ظاهره غامما وداخله صحوا ، لا كسوف عنده ، لا تحجب

رؤاه غمامات . تلك أم أصلى تطيل النظر إلى فراغ الغرفة ، ساعة في إثر الأخرى ، تنتظر أحمد ، تستند إلى قفة تحوى الثياب مضمومة ، ملمومة ، منذ قليل جمعت الغسيل ، طبقته ورتبته ، بجوارها موقد غازى ، حالته المستديرة متروعة عنه ، أتطلع إلى انتظارها . إلى قعدتها فأحن وأحزن ، أحن من حيث أتى غريب عائد ، منى ، وتلك حالة أمومية ، فكل أم بها أعنى ، والأمومة حنو ، والحنو عطف ، وأنا وحيد ، بمعزل عن دهرى ، منى ، فدائما أطلب الوداد وأسعى ، وأحزن من حيث أتى جمال فتلك لحظات أراها وأطوف بمشارفها وليس لى من الأمر شيء ، بل إني مدرك ابتلاى بالفرقة .

أراها تخرج إلى السطح ، ترى أفق الدنيا ، المباني البعيدة المرتفعة ، الأطراف ، الحدود ، لانهائية الفراغ ، أصوات المدينة المندغمة الغامضة ، في نقطة مايسعى أحمد ، يجرى على رزقه ، هذا ألق النهار عند اشتداد القيث ، وحومان أسراب الطير ، ورمادية الأيام الشتوية ، سحب فوقه سحب ، وقوس قزح واضح بعد انتهاء المطر ، وشقق وغسق والليل وماوسق . في النهار ضوء وأنس وعزلة ، تدخل وتخرج من الغرفة ، تنشر ثوبا على جبل الغسيل ، تتوقف فجأة تنظر إلى جهة من هذه الجهات التي لا تتبدل ، ترى .. أى منها يؤدي إلى جهينة ؟ ، إلى تجاور النخيل ورسوخ الجنوع ودوران الساقية ، ولملمس الطحين ، ورائحة الفرن بعد الخبز ، ولملمس اللوم الجاف ، وصوت نزول القمح إذ يتدقق من فتحة الصومعة السفلى ، ومذاق الخبز بعد نضجه وغمسه في اللبن الرائب ، وصوت سعف النخيل ، ودقق النقط الأولى من اللبن في الوعاء الفخارى ، أى جهة أى ؟ .

في هذه اللحظة بعينها ، كيف تتحرك الأم ؟ أين ، إلى أى جهة ؟ ومحمد « شقيقها » في أى سوق يتسبب ؟ ، الإثنين سوق نزة ، الأربعاء سوق جهينة ،

السبت سوق الطليحات ، وهذا أبعد مسافة وأتأى ، في الأحد ربما يمضي إلى طهطا ، والثلاثاء قد يذهب إلى سوق سوهاج الكبير ، أى جهة تودى ؟ في الليل يوحش السطح ، تغلق الباب وتعد خلفه لو تأخر أحمد ، تصفى إلى الهمة ، ومرور الرياح ، وماترى أنه غريب لم تألفه ، عبر النافذة تبدو أضواء المدينة ، حمراء زرقاء ، بعضها يطفأ ويضاء بانتظام ، هذا الضوء الدائرى فوق عمارة غمرة المرتفعة ، قال أحمد إنه قريب من بيت البك ، إلى هذه الجهة ذهب كمال ، منها بدأ نزوله ، بدأ غروب حظه .

في الليل تتوقع الأذى ، لا تقدر على الخروج وحيدة إلى دورة المياه ، إنها منفصلة ، عندما جاءت كان بابها محطاً ، مباح داخلها للنظر ، ولأن تكاليف باب خشبي جديد لا يقدر عليه أحمد . ولأن الساكن يجب أن يقوم بإصلاح ماتلف ، اكتفى بإسدال جوال سميك من الخيش ليفصل وليحدد ويوحش البصر عن العورة الخروج إليها في الليل أو عند الفجر فيه محاذير ، ظلام الدورة ، احتمال اختباء دابة مؤذية ، أو تطفل متسلل غريب ، إذ يتأخر أحمد لا يمكنها الخروج ، في الليل العميق لو اضطرتها الحاجة فإنه يصحبها ، ويقف منتظراً فراغها ، بينما البرد صرصر ، برغم هذا كله يهون ماتلقاه ، في بيت أم همدد كانت دورة المياه معتمة في نهاية الفناء ، منعزلة عن الغرفة ، يمكن لأى عابر غريب أن يندس ، وبرغم خوفها إلا أنها كانت راضية هناك ، فالدورة تخصها ، لم تنأ بعد أيام تلطمها على بيوت الأقارب وأهالى البلدة ، أورثتها مواجه شتى ، ليتها لا ترجع ، ليتها لا تعود ، إنها تقعد أمام الحجر قرب السلم ، الضوء لا يمكننى تمديد انتباهه ، لا أدري إلى أى وقت من النهار ، ترقب زحف طفل صغير ، يجبو ، يرتدى جلبابا بنى اللون ، يتلى من عنقه خيط يحمل حجابا يحوى التعاويذ والأدعية المنجية ، من ؟ من الطفل ؟ أهو كمال ؟ أين

أصلى إذن؟ أقصد.. أين أنا؟ أأكون هنا أنا؟ مامن علامة دلت ، الملامح
لأورشلى ، فستان مابين ملامح تحمل أزمته ، وملامح لم تزال بعد غضة .
الأم وحيدة ، مامن جليس ، مامن محاور ، الأب لم يرجع بعد .. إذن ،
الوقت قبل العصر ، ربما تأخر عن مواعده ، لكنها فى انتظار عودته بالغذاء ،
مامن طعام فى البيت ، فقط رغيف من بقايا الإفطار وقطعة جبن حالوم
وبصلات ، أما آخر ماتبقى من البلح الذى أرسلته والدمتها فقد نفذ منذ أيام ،
حتى لو امتلأ الماعون بالطعام لا يمكنها أن تأكل قبل رجوعه ، أن تأكل بمفردها
فهذا مالم تعتده بعد ، أما إذا عاط صغيرها جوعا فتغلى ماتبقى من شأى
الصباح ، تبل فيه كسرة خبز ، إنها منتظرة ، صابرة ، ساهمة ، أى صور تعبر
ذهنها فى هذا اللحظة؟ ، أى شرودها؟ هذا مالم أحط به علما ، هذا مافات
أوانه ، هذا مالن يستفسر عنه أحد ، مالايعنى أحدا . مع أنه من أجل
المكنون ، تلفها الوحدة ويتغلدها الصبر ، الأب حذرهما من الاختلاط بنساء
البيت ، ألا تدخل عليهن ويدخلن عليها ، قال إن الاختصار عبادة ، قالت
له ، لو زارتها الست نعيمة امرأة عبده الحلاق سوف تستضيفها ، وتجلس
إليها ، وتقدم واجب الضيف ، إنها صاحبة أم هدهد ، إنها السبب فى سكانهم
هنا ، هاهى ذى الأم تمسك قشة نجيلية ، تحط بها خطوطا نجيلية فى تراب يكسو
بلاطات السطح ، أنها ترقب ظل الجدار الطويل المواجه للغرفة ، إذ يصل إلى
الصف الثالث من البلاط تكون عودة أحمد قد دنت ، إذن .. أمكننى تحديد
الوقت ، غير أننى انقلبت خاسئا وأنا حسير ، فما أطلع عليه ليس وقتا بعينه ، إنما
وقت فى جوهره ، يجتوى أوقاتا متباعدة ، هنا ألمت بالمرات التى زحف فيها
هذا الظل ، منذ تكونه وبدئه أول مرة مع إتمام جدار الغرفة الذى هو سبب
ظهور صورته ، رأيت حدوده وحوافه وسرعته صيفا وشتاء ، نفذت إلى لب

صلته بجرم كوكب الشمس ، كذا انمحاه عند زوال الغرفة وتهدمها ، أو تحوله
إلى أشكال أخرى ، عرفت أن بقاء في هذا الكون كبقاء هذا الفيء ، وأن
معاشي في تلك الدنيا كحلول هذه النسمة التي خففت القيظ عن وجه أمي ،
إنما أنا عابر ، مارق ، دائما في الفات ، محروم من الحاصل ، وهنا انتهت إلى
أن حال الوداد بأقل ، إلى انه يولى ، وأنتى أسرى على مهل إلى حال الوحدة ،
وأن اغترابى يتصل ، فوددت لودام الحال حتى أنتبه إلى مالم أنتبه إليه ، وحتى
آخذ مما لم آخذ منه ، وأذوق مالم أتذوقه ، وأعرف مالم أعرفه ، غير أن الأوان
فات ، والحيز انقضى ، وليس لى إلا السعى .

* * *

حَالُ الضُّوْتِ

«وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَاوِمَةً
وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»

(قرآن کریم)

.. إنه السطح ، أتوقف لأتملى ، يمتد من المشرق إلى المغرب ، حدوده ثلاثة ، حد جهة طلوع الشمس ، وآخر جهة مغربها ، وثالث شمالي ، أما الرابع فموصول بالغرفة ، لاسقف أو غطاء يحجبه عن السماء ، في الركن القصي الأيمن عمود خشبي نحيل ، يواجهه في الركن الأيسر عمود توأم ، يصلها سلك نحيل ينحدر عبر المنور ، إنه هوالي المذبايع الوحيد في البيت ، تمتلكه الست وجيدة امرأة عم أحمد عمر التاجر ، أحيانا يصل سمع الأم غناء أو أطياف موسيقى ، أنغام شجية نائية تعمق الوحدة ، تقوى الحنين والتوق ، أدنو منها ، لاظل لي فوجودي هنا لايتسمى إلى عالم الحس ، تلك أم أصلي ، الذي تلممت خلاياه وارتوت منها وعاشت بها ، عرف حنوها ورقتها وخوفها وإشفاقها كأمر مفروغ منه ، لم يتبه إليه إلا بعد وصول القوات ، أنظر إليها في قعدتها الظهيرية هذه ، الآن تنكفي الضجة ، تلملم داخل البيوت ، عودة الرجال اقترت ، كذا رجوع الأولاد من مدارسهم ، ياسلام .. متى يكبر جمال ويذهب لتلقى العلم ، تنتظر عودته ، وتجلس على مقربة منه أثناء مراجعته الدرس ، تبتسم ، إن ما تأمله هو الباعث على هذه الانفراجة في ملاحظها ، إذن .. تتعجل الزمن ، تود لو يكبر أصلي ويدب ويسعى ، هذا ما لم يقف عليه أبدا ، تلفها ساعة الظهيرة القاسية

التي يتصاعد معها الانتظار ، يبلغ ذروته إذا امتدت ظلال السور وتناولت حتى تغطي الربع البحرى من السطح ، إن اقتراب العصر ينبئ بالوحشة والقفور ، وهنا سمعت صوتا :

« كان انتظار أمى مثل انتظارها .. » .

التفت متعجبا ، هذا .. دليلى ، مديد ، تدور عليه الهية وكأنها الرحي حين تدور على قطبها ، طلب منى ألا أدون اسمه ، فحوته بعد أن كتبه ، لنا شكرنى على ذلك ، وقد خشيت وابتهجت ، أما خشيتى فلظهوره المفاجئ عندى ، وأما ابتهاجى فلوجوده قربى ، وأيضا لأنه دليلى ، ولأن الحوار سيتصل بنا ، مع أن أصلى لم يره إلا من بعيد ، حالت بينه وبينى الحواجز ، فسبحان مغير الأحوال ، اثنتست به لأنه يخاطبنى ، ليس بلهجة الأمر ، أو التصح ، لكن بلهجة من يقضى بسريرته إلى خله وصفيه ، يواصل حديثه إلى بينا الأم فى وحدتها لاتدرى من أمرنا شيئا .

« حلت فى الشقوة بعد فقدى أمى » .

استفسر بالنظر :

« لم أر لحظة رحيلها ، كنت بعيدا أطلب العلم ، وعندما رجعت إلى البيت ولم أجدها ناء قلبي بأول حمل ثقيل .. » .

يحدث نفسه :

« كان هجاج روحى بعد فقدها عظيما مزوعا .. » .

أقول بلسان أصلى :

« إنما أنا مثلك .. » .

يقول :

« كلما رأيت أما أتوسم حضورها ، أهفو فلا ألقى إلا قيسا ، وعندما صار

الأمر إليّ لم يكن يفجر حنيني وضيقي إلا اطلعى على شقاء أم .. .
ثم يقول :
« كان بودى أن أدفع الشقاء عنهن أجمعين ولكن الأمر خرج عن
طوعي .. » .
أصبح :
« يا محاصراً كنت ، ومحاصراً لم يزل .. زدنى .. » .
يقول :
« مازال البون شاسعاً .. » .
أقول :
« ألم تخلف لنا رفيق السوء ..؟ » .
يسط أصابعه محذراً بلين :
« لاتلمح إليّ ، ولاتذكر مايدل علىّ .. » .
أقول بلوم لاينجني :
« ساعحك الله .. » .
يشير إلى الأم :
« لاتدع لحظة تفلت ، ماتظنه باقيا لن يدوم .. » .
حرك كلامه هذا شجني وأجج حنيني ، وصير ريح ودادي إلى عندي ،
غلب على حالي من حيث أتى جمال ، فكان حالي مثل غريب يتحدث أمامي
عن محبوب غال ، فينبعث هذا المحبوب ماثلاً بالنخيل وكأني أعرفه مرة ، جرى
مثل ذلك لأصل مرارا . حدث أنه كان في زيارة البلدة التي أول ما لامست
أرضها رأسه ، في دكان القهوة والشاي قعد ، جاء الأقارب والصحب ، جاء
الشيخ عبد اللطيف ، سأله عن أبيه ، ثم مال قائلاً : خذوا بالكم من أيكم ،

تطلع إليه مستفسرا بصمته . قال : أبوكم تقدم في العمر ، ثم قال : أنتم لاتعرفون مقدار عمره ثم قال : أنا تجاوزت السبعين بعامين .. هل تعرف أن أباك شالتي وأنا ابن عشرة وعدى بي حفيرة المياه قبل البلدة ، ثم قال : ظننت أن الهرم لن يدركه أبدا لحيويته ونشاطه حتى رأيتك السنة الماضية ، سكت لحظة ، ثم رفع أصبعه : لاياجمال أبوك تعب ، والكبر بان في عينيه .

هنا اجتاحت أصلى حنين وشوق وشفقة ، حتى ود رؤية والده للتومع أن المسافة نائية ، قويت عليه الرغبة في القرب حتى شجبا ، فحاش الدمع عن الطفر من مقلتيه غصبا ، أضمر النية على ضمه عند رؤيته ، على بته رقيق اللفظ ، أن يهون عليه مايلقيه ، أن يرفق به ، أن يصنى إليه مطولا .

أقول أنا المأمور بأن يكون غيره ، أقول وعندى مس من غضب : وهل أنت في حاجة إلى من ينهك ياكليل البصر؟ ألا تعيش معه ؟ أليس أصلك وأنت فرعه ، أم أن الجذع لايرى جذره . والخصن لاينظر إلى منبته . أهى طبيعة إنسانية ؟ هل نسيت أنا ما يكون عليه البشر؟ والله لو أن الأمر كذلك فلا بد أن الموضوع فيه نقص ، هل تعرفون ماكان من أمره بعد وصوله إلى البيت ورؤيته أباه ؟ لقد أرجأ وأجل . إن هذا مقيت عندى ، مغاير لحصالي العتيقة التي كنت عليها ، أنتبه إلى دليلي في تلك الأحوال ، يغلق حنوه على أم أصلى .

حدثني فيما بعد ، قال : لم أنس أبدا نظرات من حنت على ، خاصة عند الرحيل أو الوصول ، كذا دخولها الليلي على ليطمئن بالها ، ودعاؤها الصامت لي أثناء غيابي في القاهرة أطلب العلم ، وقعودها صامتا أثناء تناول الطعام . تغلق على ودا ، ورجاء وخوفا لايفصح عنه ، وحنان ، ووصايا ، تثقل المعاني ، تتدافع ، فلا تلفظ ، غير أن جوهرها يصل . كل المراد يصل ويبلغ ، فبرق ما بي ، حتى يستعصي مايبنتنا على النطق . عندما أطلعني على ذلك قلت :

كأنك تكفى عني ، كأنك أتى . هذا حال أصلى ، وما كان بينه وبين أمه ، عند سفره لم يكن يقبلها ولم تكن تقبله ، غير أنها بالنظر تودعه كل ما عندها ، يقول دلئلي :

« لاتفارقها في وحدتك ، الزم هذه القعدة .

إن ماتراد لن يدوم .. » .

ينهنى إلى ما طمس عليّ ، ألتفت ، غير أنه يلمس يدي ، يقول ونظره

غريب :

« وصالح نفسك ، ولا تفصل بينك وبين أصلك .. » .

ثم يقول بعد لحظة صمت :

« كل ماسعى إليه تسعى إليه ، وكل مانأى عنه ستأى عنه .. » .

هنا لزمتم صمتي ..

فصل ..

عمر الله قلوبكم بالصبر الجميل يا أعزائي ، اعلّموا أن عهد أصلى بهذه القعدة الأمومية قديم ، إنها تاريخ ، إنها أطوار ، إنها حالات ، إنها علامات في طريق ، وارتباط وثيق بأنغام مندثرة ، ودرجات من الضوء متعاقبة ، ودفقات شعورية ، وتدايعات ، وصور ، وأصول ، وفروع ، وندى ، وشوق ، وغيوث هواطل .

اعلموا أن الجلوس لا يكون إلا لانتظار ، انتظار قدوم ، أو إقلاع ، أو انتظار للفراغ من تعب ونصب ، أقدم موروث أصلى وأعتق ما يعلق بذكرته قعدة أمه تلك ، وسعيها في البيت ، يذكر حركتها اللدوب منذ صحوها ، لكل حاجته ، ولليوم الجديد تدبير يجب أن تعد له . الظروف عسرة ، والزاد

شحيح ، بعد سعيها مابين الغرفة والسطح تبدأ قعدتها . تصفو وحدها ، فوق مشية قديمة أو مكنسة من لوف النخيل البني اللون ، تطوى ساقها ، وهذا وضع يستلزم ميلا خفيفا إلى الأمام ، ميلا ينتهى بإطراقة رأسها ، تنظر إلى مايصعب تحديده ، تحلق إلى بلاط السلم ، درجاته ، إلى السور ، إلى عمامات عابرة ، إلى حدأة محلقة ، غير أنها تنظر إلى ماوراء هذا كله . إلى مايستحيل تعيينه ، في عينها معان غير مقيمة ، عابرة ، فيها الوداعة والرقائق الوعر اجتماعها ، وظل عتاب على أمر مجهول .

هذه نظرات أوغلت في حشا أصلى وتمكنت ، وحركت عليه - عند استعادتها- هبوب الحنين، حار دائما في استكاتها تلك، في هجومها إلى ذاتها الساعات الطوال ، عمرها كله تستيقظ قبل الجميع ، تماما كأماها التي لم ترها نائمة قط ، ردد جمال دائما، إنه لم يرها مغمضة العينين أبدا، حتى بعد اتساع المسكن ، وانفراده بفرقة ، فإذا كانت مستغرقة في الحجره المجاورة وفتح هو عينيه تستيقظ لتوها وتحدث سعة ، أو تلفظ كلمة تنادى بها نفسها « يا بوبا » أو « يا أنا » ، وهى تنبئ من سكتوا رحمها وتكونوا فيه أنها منتبهة ، مستيقظة ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

أول ماتعنى به في يومها أن توقد نارا ، صوت دفعها الكباس أول مايسمع ، تعد الشاى بسرعة ، وقت الأب ضيق ، أقل هفوة ستفقد مصدر رزقة ، وقد عاش زمنا لايعبأ ، أما بعد مجيئها إلى مصر ، بعد مجيء خلف ابنها البكر ثم كمال ، ثم جمال ، جمال من حلت في كينونته ، أصبح الأمر خلاف الأمر ، إنه مرغم على المسائرة ، على الخضوع والمسائرة ، استمر ذلك حتى زمن ابن عبد الناصر الذى آمن المهضومين ، وحمى لقمة العيش ، الوالد يشرب كوب الشاى ، يلف ماتبقى من خبز ، وقطعة جبن ، أو جلوى طحينية ،

ماتيسر ، لا وقت للإفطار في البيت ، يحرص على التزول مبكرا ، يمر بضريرح الشهيد ، فإذا سمح الوقت ركع وصلى وطلب الصفح الجميل ، أما إذا ضاق تلا الفاتحة وأضر العذر وطلب الاستجابة ، يبدأ المشي من ميدان الحسين إلى الدق ، يوفر ثمن تذكرة الترام ، بعد انصرافه تقوم إلى البيت تكس ما تجمع من غبار ، بعد استيقاظ الصغار ترتب الفراش ، حشية كانت فوق الأرض ، أو سريرا أو أسرة ، تملأ صفيحة مياه نحوطا وحذرا من انقطاع المياه ، السطح مرتفع ، عندما يفتح الجيران صنابيرهم تشع ، تصفر المواسير الرمادية ، إذ تفرغ وتطمئن إلى أنها لم تسه عن شيء ، تغير جلبابها ، تعصب رأسها بمنديل أبيض حف بدوائر زرقاء ، عندئذ تبدأ خلوتها تلك .

في جهينة كانت تقعد تنتظر أخبار أحمد ، بعد عقد قراتها تبدل حالها ، أصبحت ضيفة ، والضيف لابد أن يرحل ، وإلا صار بقاؤه ثقيلًا ، تسأل نفسها دائما ، متى سيجيء؟ متى سيصحيا إلى بيتها؟ . أما قعدتها في بيت الشيخ قيصي فانتظارا لعودته ، ولحشيتها وحجلها من الحركة في بيت لا تعرف من حجراته إلا ركنا قصيا استضافها الطيبون فيه . في غرفة « حوش قلم » مضت عليها ساعات بطيء انقضاؤها ، هنا فوق السطح تشم الهواء ، تغمرها الشمس في الشتاء ، في الصيف تعبر النسبات السطح الفسيح فتطيب القعدة مع أحمد ، أحيانا تمدد الولد فوق وسادة وتجلس بعد أن تدلك جلدته بقر البطيخ ومعالجة لحمو النيل ، ترقب كل ظل يتحرك حول وليدها خوفا من شر العقرب ودابة الأرض .

أقول أنا صورة جمال الراحل ، المبلد ، الموزع ، إن هذا السطح موقوت ، سيوزل يوما ، فما ثمة بناء يبقى أبدا ، حتى مانظنه متجاوزا للدهور ، فالأمر نسبي ، والأجل مقدر ، هذا الفراغ الذي يشغله وجودها الحسي سيصير معلقا ،

أو يشغله جزء من بناء آخر يقوم ثم يندثر. أرى الأثر الحقى الذى لا يمكن لعين تطلع عليه أو ترقبه، أرى لحظة يندثر فيها مالا يمكن رؤيته، الزمن ذاته، فيولى الباطن بعد زوال الظاهر بثلاثى كل ماخلفته قعدة الأم ، كما تبددت بقايا من أمت إليهم ، من أمضيت معهم مدة وجودى الأول ، مامن أحد فى غربتى هذه يمكنه الإشارة إلى حيث كانوا ، وسعوا ، وأقاموا ، نسى أمرهم بالكلية .

عند هذا الحد أقف على دافع من دوافع هجاج أصلى ، أراد المسكين أن يدرك مالا يدرك، أن يلحق مالا يمكن اللحاق به، حتى إذا أوشك على إدراك الكنه ، ولس مشارف الجواهر ، صدر الأمر ونزلت به وبى العقوبة ، تبدد وذرى ، إنى مشفق عليه ، متفهم لحاله حتى وددت لو مثل أمامى فأحاوره ويحاورنى ، مع أنه أنا وأنا هو ، فما أصعب ألا يكون الإنسان ذاته ، لكننى مالى دهش ؟ ألا ينطق الإنسان جميع الأسماء علما اسمه هو فإنه ينادى به ؟!

أطيل النظر ، أتعلق بذلك الفراغ الذى كانت تشغله ، هنا أصغت إلى أصوات شتى ، سقوط وعاء .. اصطفاق باب ، نداء بائع ، نفث من محاورة ، أصداء مهمة ، ولأنها تناغى طفلا لا يقدر على النطق . فليس أمامها إلا أن تصفى ، من حركة الظل فوق البلاط المربع يمكنها أن تعرف موعد اقتراب بائع البصل ، أو من يدعو إلى مبادلة الملابس القديمة بالأواني الزجاجية والأوعية ، مع كل نداء تذكر أن البيت بحاجة إلى شىء من هذا ، تنقص أكواب ، يراد الشاى تقشر طلاؤه ، الثوم قارب على النفاد وشهور تقصه من الأسواق تدنو ، لكن .. القدرة متعلمة ، والحمد لصاحب الحمد أن لديهم مايسد الأفواه ويخرس جوع البطن ، أمها لاتدعها ، مع كل قادم إلى القاهرة يمت إليهم بصلة ترسل علة سمن ، أو جوال طحين ، وحمامات ، أو أوزة مذبوحة ، وماتيسر من البليح والأرغفة ، حتى لو قبضت على نفود وقاض القرش عن حاجتها ، كيف

ستزل الطوابق الخمسة ، لم تكن قد عرفت زمن البيع والشراء بعد ، لن يطول بها الأمد ، فسعيها أوانه قريب ، هذا ما أحطت به علما .

إنها الآن وحيدة .. مرات قليلة نزلت فيها الدرج بمفردها ، فقط عرجت على شقة نعيمة المرضة صاحبة ابنة أم هدهد ، لا بد أن تمر بشقة السيدة فوقية ، تبادلها التحية ولا تخالطها ، تعتذر بحجج شتى حتى لا تلبى دعوتها لشرب كوب شاي عندها . قال أحمد إنها عملت راقصة ، وأن رجلا أغرابا يزورونها ، وأنها ادخرت أربعائة جنيه من المال الحرام . وأنها تقرض النساء بالفايضا ، إن تجنّبها أفضل ، إذ تراها ، تأخذها رغبة ، تتذكر مجيء الغوازي إلى جهينة ، اللاتي يغوين الرجال ، ويحظفن الصغار ، البيوت تغلق أبوابها عند وصولهن ، والأولاد لا يسمح لهم الأهل بالخروج حتى ابتعادهن . لن تختلط بفوقية ، أما صعود نساء البيت إلى السطح فأمر تم حسمه ، بعد سكنهم بأيام معدودات ، طلعت ثريا ابنة ساكن الطابق الأول تحمل سجادة قديمة لنشرها فوق جدران السطح . أحمد غضب ، رمى السجادة فوق السلم . زعق معلنا أن السطح من حق ساكنه لا غير ، ولن يصعد إليه غريب ، خرجت السيدة وجيدة وصاحت مهددة ، متوعدة ، وسمعتها الأم تقول إنها قريبة لوزير المهوين في حكومة الوفد ، جاوبها أحمد بقوله إنه لا يهيمه تهديدها وأن وزيرها هذا لا يضر ولا ينفع . تهددته وتوعدته . وأكدت أنها ستقطع عيشه من وزارة الزراعة ، فسخر قائلا إنه قطع رجلها بالفعل من السطح ، أرجف الأمر الأم ، حاولت تهدئه رجلها وتهوين الأمر ، أن تعود به إلى الغرفة ، غير أنه طمأنها ، إنه يعرف ناس مصر ، لومسكت أول مرة سيطلقون إلى السطح في كل حين ، يكذبون عليهم عيشهم ، ويحرقون عوراتهم ، بعد حين استقر الأمر ، وخلال الأيام التالية التقى أحمد بزوج السيدة وجيدة ، وتعاتبا ، عرف أنه من طهطا ، البلدة

المجاورة للبهينة ، أى صدقة طيبة ، غير أن الأصول أصول ، واستقر الأمر ..
لكن إلى حين ، وهل يدوم شيء أبداً ؟.

إنها تصفى إلى نغمت سبحات مصدرها مذياع السيدة وجيدة ، تدركها في مجملها ، تعرف الآن بعد طول مدة أن لكل فترة من النهار موسيقاها وأغانيا في الصباح النهارى ، مع خروج الخلق ، إلى أرزاقهم ، يتموج صوت أم كلثوم فضائيا كونيا كترقرق الضوء على أطراف مذهبة ، تنشد لصباح الخير ، تمنى النفس بقاء الحبيب باكر ، أغنيتان ترددتا على البعد ، لونتنا بداية النهارات ، وورقرقتا أيامها ، وقد انتقل ذلك إلى أصلى ، بقى معه هذا التأثير ، أهو موروث أوكسبي ؟ لا أقدر على الجزم . على التحديد . لكننى لملم بأصباح شتى عاشها في موطنه ، وفي مدن غربة . ومنها حدائق تعد من علامات هذا الكوكب ، غير أن النهار لم يكن ليشرق في صبح نفسه ، إلا عند سماع هاتين الأغنيتين ، وأضاف إليهما صوت مغنية عرفها صبيا ثم فتيا ، قدّ صوتها من ضوء سلسبيلي نجومى ، ليلى مراد ، إذ يستمع إليها يمشى في الأرض مرحا ويسطها كل البسط ، ليلى مراد عرفتها الأم في لحظات الظهيرة ، قبل النغم الذى يسبق نشرة الأخبار والمبشر بقرب انتهاء وحدتها بعد عودة أحمد ، في بيت الشيخ قبيصى كانوا يفتحون المذياع الذى يتصدر صالة البيت ذات ظهيرة نائية ، ظهيرة يوم لا يمكن تعيينه الآن عندى أو عندها ، أصغت إلى نغم شجى لغ في قلبها فس الجانب الغائم من شفاف القلب ، صوت يعنى كأنه الالتفاتة الحسرى المصاحبة لبدء الرحيل ، أو الحسرة المصاحبة لظلمة القلب عند الإيغال في البعد ..

على بلد المحبوب ودينسى

زاد وجدى والبعد كاوينى

مس الغناء أغوار روحها وأقسى لحظات غربتها ، كأنها التقت بيوم تاه منها

عند منبع الغسق ، كأنها لمحت عزيزا ، غائبا عند حد الأفق فهيمت لتدركه لكن أعجزها الأمر فبمقدار قربها يكون ابتعاده ، كأن أشواقها ترحم الفراغ الفاصل بينها وبين جهينة ، رفيف لا يرى ، وترجيح لا يدرك بالحس لم تلقه من قبل إلا عند إصغائها زمن طفولتها إلى مديح والدها لخير البرية ، سيد ولد آدم ، رد الله غربة أيها وأمن رحلته ، تطيل الإصغاء إلى كل نغم قادم من بعيد ، علها تنقضي شواردها ، بعد إصغائها خشيت ألا نسمعها مرة ثانية ، أوحشت أيامها التالية بدونها ، تباعد الأمر ، حتى دنت منها لحظة أثناء عبورها الطريق المؤدى إلى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، لم تدر مصدر انبعاثها أو المديح الذى يبثها ، أو الفونوغراف الذى يردددها ، هكذا جاءت إلى سمعها عبر النواصي والمنحنيات القديمة والمقاهى العامرة التى تمد الخطى أمامها اتقاء لنظرات الجالسين ، ودت لو تطلب من أحمد التمهّل ، لكن كيف تطلب ذلك؟ أتقف بين الراح والغادى لتستمع إلى أغنية؟ أرهفت السمع بينا النغمت تسلسل منها وتنبأ ، وكلمها وهنت تمكنت من خباياها ، هنا فوق السطح تستعيدوها ، تتمم بها خفوتها وبجاهرة ، غناؤها لا يبدأ إلا إذا تمت وحدتها وابتعد الشريك ، هنا النغم صاحبها إلى آخر الحد المقدر لها ، فسبحان من له اللوام ، إذ أنطلقت فيها هذه الأنغام ما يصعب على اللسان النطق به ، وولدت عندها معانى لا يمكن التعبير عنها أو تعيين آثارها . كلنا أحييت أوقاتا مواتا ، وسقت لحظات جفت ونضبت .

أقول أنا صورة جمال ابنها وقد اطلعت منها على دمع جرى ، إذ تشدها مستعيدة أيامها الغوارب - أقول : يا من نظمت لك المنة ، يا من شدوت فأثرت الراسيات الكوامن ، يا من أبدعتم هذه الأنغام ، لكم السلام من شقوق ، مبلد ، أتوب عنه ، ولد هذه البنية التى أراها فى زمن فتوتها ،

وخضرة غضاضتها ، هذه الأغنية سلوتها . وباعثة حينها جيئا كانت أو تولت ، إلى جهة ذات الورد والنخيل والظلال والطفولة الضائعة ، عند هذا الموضع ، قرب حافة السلم ، تشعر أنها نائية ، أنها قصة عن البيت القديم . عن روائح شتى تنفجر عند لحظة غير متوقعة ، أو عند انحناء النغم إلى منرج يتصل فيه الحنين بالحنن العميق ، تلك رائحة الأرغفة بعد تحمرها في الشمس ، وهذه أطياف من رائحة اللوم العتيق ، والقمح في صوامع الطين ، والروث الذي جف ، والبوص ، كذا وقود القرن ، واللبن الرائب في أواني الفخارية ، والطمطم المترعة لتوها من جذورها ذات القشرة الصلبة الناعمة ، رائحة ثياب أمها ، غير حضورها ، عند حافة السلم تلك تستعيد إيقاع اليوم في جهة ، تقرن ما يجري هنا بما يقع هناك ، تصنى إلى آذان الظهر ينبعث من فوق المآذن القرية القصية ، ترى أمها تجلس أمام القرن ، شقيقها في السوق ، اقتراب الليل وتعلم الأحباب ، والأصوات المسائية الغامضة .

هذه القعدة يا إخواني تتر باللمحظات المولية ، تترف توقا إلى الأيام الغارية ، ماحير أصلى تبدل مشاعرها في السنين التالية ، كان يشب عنده حين إلى جهة فيعلن عزمه السفر ، عندئذ تقطب ملاحظها ، تلوح بيدها «لاتروح ولا تيجيء... ماذا يعجبك في جهة؟» . ماذا بدد أو أفتي؟ أهو رحيل أمها عن دنيانا؟ أضيقتها بفضول النساء؟ أم أنه جفاء يخفى رقة لا يمكنها الإعلان عنها ، أم خوفها على أصلى من الحسد؟ هذا ما حير أصلى زما ، غير أنه لم يشرع في التقصى إلا بعد قوات الألوان وانتهاء الأجل ، فخذوا العبرة ، لا ترجئوا ولا تتعاسوا ! . كم وددت أن أفيض وأفضل ، لكن هذا ليس بالأوان المناسب ، ذلك أتى مشغول بقعدتها تلك ، بانفرادها ، بوحدتها ، وقد عرفت قعدت أطول في خريفها وقرب شتائها الذي لم يدم

طويلا ، بعد بدء تساقط زهراتها وشح فروعها وانعدام ثمارها ، من ذلك انتظارها الطويل بعد أسرجال - أسرى - وسجنه - سجنى - وإنى والله لمحمدكم عنه

بدء الغمة

هذا مكان آخر ، مسكن مختلف فى الحارة ذاتها ، فالزمن متقدم عن الوصل السابق ، حجرتان ضيقتان يصلها ممر صغير يؤدي إلى دورة مياه وزاوية صغيرة فيها الموقد وآنية المطبخ . الأم تنام فى الممر ويجوارها الابنة ، من هى شقيقتي فى هذا الوجود ، أصلى ينام فوق سرير خشبي عتيق إلى جواره منضدة من خشب رقيق ، مثقلة بكعب شتى ، منذ أيام مضت هو فى كرب ، إذ اعتقل صاحب له كان فى ذلك الحين عنده بمثابة الشيخ لمريده ، كان هاديا له ومرشدا ودليلا أثناء خروجه من زمن جاهليته ، اسمه صلاح ، إلا أن أمرهما لم يتصل شأن أمور شتى لا تتم وأحوال تنقضى وطرق تكون صالحة للسبير ثم تصبح غير معبدة ، صار الود إلى جفوة ، ولو أن مخلوقا اطلع على حزن أصلى وروعه وآله عند تلقيه نبأ صاحبه لما ظن أن الصلة ستخرب يوما ، لكنه الإنسان ، كل يوم فى شأن ، وهذا أمر يطول شرحه وتفصيله فلنتنن عنه خشية التيه والضلالة عما نحن فيه . أما الآن فإني مراقب لهدوء البيت الليلي ، أنفاس النيام مسموعة ، كم الوقت ؟ ربما الثالثة والنصف أو الرابعة ، تتردد طرقات بغضبة ، صداها أمر ، ثقيل ، مقتحم ، لا يرتدع ، الأم فى الصالة تقف متسعة العينين ، بها رنجفة ، هذا قدر لم تعد له العدة ، يخرج الأب من الغرفة الأخرى ..

« من ؟ » .

فيجيبه مداهم الليل والدعة ، مفرق الجماعة ، مبدد الألفة ، يلفظ اسمه مقرونا برتبة الرائد ، وإني لمسائل هنا كما يتساءل أصلى ، لماذا يقومون بذلك في عمق الليل دائما؟ أيستعصى عليهم ذلك نهارا، إلا أنهم يزرعون الخوف ويثبثونه فيقلب عليهم بعض منه ، أيمشونه وهو أعزل وحيد في مواجهة هذا البنيان كله من ترتيب وتدريب وتلقى محاضرات وتعليقات ورصد وتراكم خبرة فوق خبرة . لماذا يجيئون دائما في الليل ، لماذا النصف الثاني منه دائما ؟ .

حينئذ ذلك ، لما فزع أصلى فزعت ، ولما انتبه انتهت ، ولما نظر إلى أبيه الحائر نظرت ، ولما أصغى إلى أمه تقول «لا تفتح» أصغيت ، أجمت بمثل ما أجاب ، «لا يا أمي» . جمال ما هو إلا أنا ، والقبض عليه قبض على ، محنته هنا محنتي ، لذا فتحت الباب عندما فتحه هو ، رأيت كما رأى ضابطا يرتدى ملابس مدنية ، وهذا أدعى للخشية والحذر وراءه ثلاثة جنود ثيابهم أيضا عادية ، أو ما لأحدهم كى يبق أمام الباب ، اتجه الآخر إلى الغرفة التي كان يأوى إليها الوالد والشقيق الأصغر على ، أما الثالث فتبعه ، داخل الحجره على يقف صامتا ، كاتما رجفة قلبه ، تلك لحظة ستعمل عملها فيما بعد وتترك جراحا وندوبا صعب اندمالها ، ليته نطق ، ليته بكى ، إنما بقى جامدا ، شاخصا ، يرقب المخبر إذ يقلب الوسادة ينش الأغطية ، مكان رقاد الأب منخفض يشع دفأ جسده ، المخبر ينتهك موضع الرقده ، يلج الضابط عمق البيت ، لا يصبح للجدران معنى ، تفقد الأبواب دلالاتها ووظائفها، وتنبش الأسرار التي تنطوى عليها الأدراج، يتبدد الستر، لم يفث الأم أن تلف ابنتها بملاءة السرير فجلباها قصير منحسر وذراعها عاريتان ، يتجه الضابط إلى صوان قديم متين اشتراه أصلى من صاحب له ودفع ثمنا له أربعة جنيهات ، صف فيه كتبه وأوراقه ، يرعى الضابط بكل ما تعهده أصلى ورعاه وسفح البصر على أوراقه وسطوره ،

يدوسه بجذاء بنى اللون ، مدبب المقدمة ، يكومه ، يبدو جمال متضابقا ،
يستدعى إلى وعيه نصيحة مجرب قديم ممن عرفهم إذ قال على مسمع منه يوما ،
لا تحف لا تجبن وجادله ولا تسكت عما يفعل . يلفظ عبارة سمع نصها من
صاحب مر بمثل ما يمر به .

«إبنى أحتج ..»

ثم قال ما لم يسمع أن غيره قاله :

«إنك تتلف أوراقى وكتبى ..» .

أرقب أصلى ، الحق أنه غير هباب ، غير وجل ، عجيب أمره - أى أمرى -
إذ عاش أياما طويلة يرتجف كلما تخيل هذه اللحظات ، يحار .. كيف سيقابلها ،
كيف سيتصرف إزاءها ؟ كيف سيواجه وطأتها ، غير أنه الآن وقد حل بها وحلت
به راسخ لا يميل ولا يخشى ، حريص ألا ينحنى ، متأهب ، مستنفر لرد الإهانة ،
ألا يضطرب أمام أمه وأبيه وأخته . حتى إذا انقطع عهده بهم ، وحالت بينهم
وبينه الأسوار والأبواب المغالِق ، أو انقضى أجله تحت وطأة تعذيب أو نتيجة
قصد مبيت ، ذكروه ذكرا جميلا ، وحق لهم التباهى بآخر صورة رأوه عليها وهو
يتأهب للذهاب إلى المجهول ، عندئذ لن نخجلهم سيرته ، سيقولون إنه لم يهن ولم
ينثن ، وأنه مضى رجلا .

ما زال الضابط يتتق بعض الكتب والأوراق ، كل ما هو مخطوط .

«هذه مذكراتى الشخصية .. لماذا تأخذها؟» .

يتطلع إليه وعلى ملامحه سخرية المقتدر ..

«تمحركاتك وأفكارك ..» .

يكظم بغضه ، يقهر ضيقه ، هذه الكراسى ذات الغلاف الأحمر تحوى
المكون الذى تصور أن مخلوقا لن يفرضه ، اللحظات التى رأى فيها سعاد ، أو

أصغى إلى صوتها ، ما تردد في خاطره ، كذلك صورة عثر عليها في مجلة أجنبية لفنائة تشبها إلى حد كبير ، فقصها ، واحتفظ بها بين دفتي هذه الكراسية ، في أيامه التالية ، في سجنه الانفرادى بالقلمة ، في سرحاته ، في سفراته إلى المدن القصية ، في لحظات تواجده بين جمع وصحبة ، يضيّق حقًا كلما تذكر أن عيوننا غريبة تفرست سطوره ؛ أطلعت على خباياها ، ما سطره ، بعد سنوات عديدة لم يكف عن التساؤل ، أين مستقرها ، إلام آلت ؟ ، ليس دفتر خواطره فقط إنما مراسلات الصحب ، وكافة ما التقط له من صور حتى هذا العمر الطفولة ، المدرسة ، الرحلات إلى الأماكن الحلوية مع الصحب ، صور الزملاء المهداة في نهاية الأعوام الدراسية ، يمسكها الضابط ويلقى بها إلى ما يعتبره مضيّبات ذات شأن خطير ، إنه لا يضيّع صورًا إنما يبدد لحظات أمكن تثبيت ملاحظها ، من الصبا المزهرى ، من بداية غضاضته ، يعقل الأزمنة الآمنة واللحظات المؤدية ، والمشاعر التي كان يمكن أن تولد عند الانفراد والنظر إلى هذه الرسوم ، يبدد تاريخًا بأكمله إلى الأبد ، فما أخذه لا يمكن استعادته .

حدث بعد أن نقلوا أصلى إلى سجن القلعة ، وصار اسمه رقمًا ، إذ يدخل عليه الحارس وهو مخبر يرتدى أيضا الملابس المدنية ، يصبح به :

«خذ يا أربعة وثلاثين ..» ، «تعال يا أربعة وثلاثين» ، قضى شهرا وعدة من أيام أخر ينادى كرقم مجردا من كل هوية ، كانوا يخرجونه مرتين ، في الصباح ، وفي المساء نقضاء حاجته ، ومرة عند نهاية كل أسبوع إلى حمام قديم ، أنابيب المياه المؤدية إليه تمر بفرن عجيب ، وعندما تزعوا العصابة السوداء عن عينيه رأى مخبرا غامق السمرة يمسك بعضا في يد ، ويتناول أوراقا وكتبا بيده الأخرى يطعم بها النيران التي تتر وتضطرم ، أوراق وكتب لمح بعضا من

عناوينها ، مضبوطات تم اعتقالها ، هذه لحظة بقيت عنده حية شائكة حتى بدء
مراحجه من فاس المغربية ، وانتقلت إلى بحكم الورث ، فأنا وارث لها وشاع
بها ، ومن جزئياتها هذا الخلاف ، «الأمالي» للقالي ، لحظة تناوله وتطويعه إلى
اللهب ، لا بد أنهم طوحوا بكراسه هكذا ، بعد إشباعها فضولا وفحصا ، كان
أصلي ضنينا بكل ما خطت يده . لا يفرط فيه إلا لأمر قسرى ، ولكن في هذه
الليلة تبدد ما تبدد ، فيا أيها الإنسان ما أظلمك ، ما أضلك ، لقد حفر هذا
في نفس أصلي آثارا شتى ، فما من سطور كتبها فيما بعد إلا ظن أن غريبا
سيقتصبها قسرا ، وما من كتابة شرع فيها إلا ظن أنها لن تكتمل ، وما من رقم
هاتف دونه إلا ظن أنه مساعل عنه يوما ، وما من خطاب وصله إلا خمن أنه
قُرئ قلبه ، هذا كله صار عندي ، صعب على تحمله ، فإلى أنوه ، وماذا جنيت
حتى يحل بي ذلك ؟ أقول هذا وأنا أعطف على أصلي ، مشفق عليه ، أدرك
كم عانى ، وكم أخنى ؟ ، هذا حق .

إني محقق ، محيط بهذا الضابط إذ يفرز ويتفحص مكنون الصوان ،
حقدى يتأجج ، لكم وددت الاطلاع على الصور القديمة لأرى ملامح أصلي
في الأزمنة المولية ، ملامحه أى ملامحى ، وقفته بفناء مدرسة عبد الرحمن كتحلدا
الابتدائية ، مدرسة محمد على ، مدرسة السلحدار ، في حدائق الحيوانات ،
القناطر الحيرية ، مقابر الأقصر ، وادى الملوك ، الملكات ، قبة سيدى أبو الهواء
في أسوان ، تلك الوقفة عند دير الأنبا سمعان ، وهذا التسلق للمرتفع الصخرى
المؤدى إلى مدينة هابو ، أما الصورة التى تسجل وقفته بجوار أمه وأبيه وأخوته
الثلاثة في حديقة الحيرية فثأنها فريد ، لا أعرف صورة للأم قبل هذه السن ، لم
يحدث في طفولتها أو فتوتها أن وقفت أمام آلة تصوير حتى هذه اللحظة ، من
ذلك اليوم المجهول في شهر يوليو عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين . كيف

كانت ملاحظها قبل هذا التاريخ؟ ، هنا ما لا يمكن معرفته ، ما لا أقدر وما لم يقدر أصل الإطلاع عليه . كيف كانت تبدو عند هذه الفترة ؟ كيف كانت ترى قبلها ؟ . يعرف قسما من ذلك بعض ممن عايشوها وعرفوها في الطفولة وزمن الصبا ، لكن .. أنى لهم الذكرى وقد أوغلت الأعمار في التقدم ، وبعضها يدنو من الخط الأخير لحظة تدويني هنا ، مها بلغت الرؤية ، ودقة الوصف ، وقدرة اللفظ ، بحال .. فما تبقى في خزانة كل قواد سره لاسر غيره ، فوداعا ملامح الأم التي غيبها الزمن ، طواها ، وداعا هذه الصورة التي لاقت حضفا على يدي هنا الضابط ، فبدها وضعيها وهو جاهل بما بدد ، بما ضيع ، لعنه الله في حله وترحاله ، ومرّر عليه لقمته ، وأوجع قلبه كما أوجع قلبي ، وأورثه الحسرة على موروثه وصوره التي كانت ، رحل أصلى وهو غير مسامح ، كاظم سخطه ، وأنى غير مغتر ما كان منه أبدا ، أضاع ملامح الغالية ، شوهت ملامحه وطمست في الدنيا والآخرة ، في الحضور والغياب ، كان يمكن لى التطلع في خلواتى إلى هذه الصورة ، فأرى الكريمة ، الصبورة ، فأطلع على ما كانت عليه قبل تسعة وعشرين عاما من سفرها الأبدى ، سفرها الذى حضرته وشهدته ، واكتويت به ، وعند تمامه جرى صلحى على نفسى والتامى بأصلى كان يمكن أن أرى ملامح الأب ، وطفولة الأخوة ، وتقاسيم ، وتعابير ونظرات شتى يا حزنى .. فبى هذا كله وتبدد ، ليس عندى إلا صور قليلة ، متناثرة ، متباعدة للوالد قبل تمامه ، كنا الوالدة

حدث يا صحبى الأعراب عنى ، يا من لن تدركوا أصلى قط ، يا من لن تسبروا أغوارى أنا ، ولن تطلعوا على المنابع التي جثت منها ، حدث بعد رحيل الكرم ، أن اصطحب أصلى شقيقه إسماعيل إلى وزارة الزراعة ، ولبنائها عنده مترلة ومعزة ، فن كدح الوالد فيه ، ومن نزه العرق في جنباته ، ومن كتمانها

فهره إزاء عسف رؤسائه ، من احتماله الضيم وبذله رحيق العمر وخلاصته بين جدرانته ، من كده هنا أمكنه تقويمها وتجنبيها ما أشقاه وكدره وحد من آماله وأن يحصل ما فاته ، ذهباً معاً لترتيب إجراءات صرف معاشه ، عند اقترابها من الممر الذي كان الوالد الكريم يقضى فيه جل أوقاته ، إختلج أصلى وطحا قلبه ، جاء إليه من زاملوا الراحل عمراً لتعزيتته ، ثم جاء موظف قديم بملف ضخيم ، أوراق متراكمة لكل منها مناسبة ولحظة زمنية . قلب وتحمسر ، لمح صورة صغيرة ، حال لونها وأصفر ، ترجع إلى عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، عام مجيء الشقيق إسماعيل إلى هذه الحياة الدنيا هذا وجه الأب ، إنه دهش ، متطر شيئاً ما . تعب ، حنين حزن لا يطل من العينين إنما يحيط بها ، كدم عمره لحظة التقاطها ؟ لم يكن له تاريخ ميلاد معروف أو محدد تاريخ مجيئه إلى الدنيا مجهول ، أما تاريخ خروجه منها فثابت مدون ! .

في هذا العام النائي أحالوه إلى طبيب حكومي لتحديد عمره حتى يمكن تدوينه في تلك الأوراق الرسمية ، أصغى الطبيب إلى القلب فلقه عفا ، سليماً ، تفحص ونظر ، ثم حدد وقطع ، إنه في الثلاثين ، وطبقاً لروايات القوم من أهل جهينة ، خاصة المعمرين منهم ، فإن الوالد في هذه السنة تجاوز الخمسين وربما أكثر ، ما وثقت منه أن الطبيب لم ينظر إلى ما يحف العينين ، لو أنه رأى تلك الظلال الحفية ، لو أنه رأى عمر هذا الحنين الضارب في الحدقتين ، إلى هذا المعنى الذي لا يمكن اكتماله إلا بعد الخمسين أو الستين وربما السبعين ، بعد قطع شوط ومقدار في الرحلة ، لو أنه رأى هذا ، لو أنه دقق ولحظ لكان أنهى خدمته ، تلك الظلال أنبأتني مع أن أصلى لم يلحظها في صغرى ، إذ لها عنها ، كان غيباً لا يعي ، وعلى عينيه غشاوة فلم ير أعلى الصورة ختم دائري بلغتين ، عربية وإنجليزية ، حكمدارية القاهرة ، وأسفلها خط مشوش كتب بمداد

قديم ، ورقم ليس له تفسير ، خمسة وخمسون ألفا ومائة وتسعة وخمسون
 ماذا يعنى هذا؟ ، إلى أى شىء يشير؟ ما موقعه فى الأصابير ، حيرنى ذلك
 كما حير أصلى ، أوضح لى يا إمامى الحسين ، يا شيخى محبى الدين ، يا دليلى ،
 يا غامض ، يا من تظهر وتغيب ، يا من أمرتى ألا أسميك ، حزنى ناطق ولسانى
 صموت ، أوضحوا لى ، دلونى ، ماذا يعنى الرقم؟ وما علاقته بنظرة العينين ،
 ومعنى التأهب للسؤال فى عينيه ، وما هذه الغيمة على الوجه ، الغيمة التى تحس
 ولا ترى ، هل تبدلت برحيل صاحبها إلى الأبد؟ أى الصور كانت تفارق تخيلته
 عند التقاطها ، وأى الصور كانت تفارقها ، فى أى المواضع جلس عند
 التقاطها؟ ومن واجهة ، وتطلع إليه ، وطلب منه أن يعدل الوضع ، لماذا يبدو
 كأنه على وشك مخاطبتي؟ لماذا يوحى برسالة لم تتم أو بإشارة مهمة يستعصى
 إدراك فجواها ، لماذا يغمض على الأمر؟! أعاود النظر والتمعن ، هل أنبئ
 وقت التقاطها أنه سيظل يوما بعد رحيله عبرها ، وأن من أنجبه سيتأمل ويأسو
 الورقة مقسمة إلى خانات ، خصصت كل منها لبصمة من بصبات
 أصابعه ، تلك أصابع يده اليمنى ، وتلك أصابع يده اليسرى . انحناءات
 الخطوط وتجاعيدها ودواثرها ، ما انفرد به ، تلك علامات أصابعه التى دب
 إليها البلى ، التى ما بقيت ، التى فنيت ، التى لن تقع عين عليه أبدا ، ولن
 يحتويها نظر ، الصورة مثبتة فوق الركن الأيمن للورقة ، رجا أصلى الموظف أن
 يسمح لى بها ، ولأنه أدرك ، ولأنه قدر ، سحبها من الملف وأعطائها لى ،
 فيالندرة ما تبقى من هذا الجهاد كله ، وبالشح ما وصلنى من العمر الطويل
 والكد ، فيا مجهولا يترصدنى ، ما الذى سيتبقى منى ، ومنذا سيتطلع إلى رسمى؟
 إلى ظلى بعد اندثارى؟ ومن سيخلو إلى نفسه ويتطلع إلى صورى التى ستمسى
 قديمة بالية؟ من سيجيء ومن سيتذكر نبرة صوتى؟ .

لك السلام يا أصلي ، يا من رحلت دون أن تبكيك عين ، أو ترثيك
دمعة ، أو يدري بمعراجك أحد ، حتى الأقربون الأقربون لا يعلمون أنني لست
أنت. وأنتي آخر غيرك مكلف بإتمام ما كان منك ، غير أنني محب لما يبق عنك
مشفق ، حان عليك ، وأنتي مفض إليك بما قد يبعث راحة عندك إن أدركته
يوما ، ذلك أنني بعد استيعابي لما قام به هذا الضابط الجهول ، الغيت ،
خشيت على صورة والدك الذي هو جدري في هذا الوجود الأعم . فأنا في
نظرهم أنت ، وملفاتك عندهم إنما هي ملفات ، مفتوحة أبدا ، ربما داهموني ،
ربما خربوا ، ربما عاثوا فسادا في تاريخي ، لذا سارعت إلى صاحب حميم
اختص بالتصوير وفنه ، هو صاحبك لا يدرك كنهى ، ويظن أنك أنى ، سألته
استساخ صورة الوالد وأن يكبر حجمها فاستجاب ولي ، شيعت منها نسخا إلى
جهات شتى لأحفظها وأدارها خوفا من الملامة ، أما الصورة الأصل والورقة
التي تحمل بصمات الأصابع فقد صنتها في قرار مكين ، أعلم أن هذا يرضيك ،
يهدي ذراتك في منفاها ويخفف اغترابك فلا تبتس ولا تحزن إن شرقت أنت
وغربت أنا ، فما عندك ورثته ، وما كتبه أكون ، يا صاحبي المسكين الذي ضيع
ما ضيع ، وأقنى ما أقنى ، أعرفك أنني ألمت بهذه اللحظات الأصلية ،
عندما دخل الوالد بيتك آخر مرة . وشكا إليك تلميحاً لا تصرحاً بعضاً مما
كابده ، دار بمخلك لحظتها أن تأتي بجاز تسجيل الأصوات وتدون ما يقول ،
لكلك أجلت وأرجأت ، ثم سافرت وعدت ، فإذا بالفرصة قد ولت ، فزادت
عليك الحسرات .

أقول لك يا أصلي البائس إنني نويت الحذر ، وتبيه النفس إلى تدارك الأمر ،
نويت أن أجلس يوما إلى الوالدة ، وأن أستنطقها الماضي الغالي ، أسجل ما تقول
فأصون الذكرى ، ولأنني ورثت عنك ما ورثت ، رحلت أرجى العزم ، وفي كل

زيارة أقرر إنعام النية في اليوم التالي .. حتى وقعت المباغثة يوم السبت ، وليس الآن مناسباً لتدوينه ، فهذا الحال ليس حاله ، وليس محله ، أكتفي بالقول ، إنني صنت صوت من أنجبتك ، ولكن رغما عني ، كيف جرى ذلك ؟ لا بد من تفصيل ولو يسير ..

الأمر دورى

.. على غير العادة ، وبدون انتظار أو توقع ، رن جرس الهاتف رنيناً متصلاً دعواً في بيتك - بيتي - بعد منتصف ليلة الأحد ، أول ليلة تحل بالدنيا وقد خلعت من الأم ، إذ انتهى سعيها وتم سفرها ، أول ليلة تقضيها في المثوى ، لم تكن ملاحظتها قد تبددت بعد وإن شأهت ، لم يكن قد تم فناؤها عن فناؤها بعد ، ولم تكن أنت في البيت ، أقصد نفسي ، إذ كنت على مقربة من الشقيقة نوال والشقيق على .. الصغيرين اللذين قدر لهما مشاهدة انتزاع الوالدين من هذه الحياة الدنيا ، أصغت رفيقة عمرك - عمرى - إلى رنين الهاتف ، وعندما فوجئت بصوت إسماعيل الأخ الذى سافر منذ شهور ثلاثة لطلب العلم وبقى له مثلها ، اضطربت وحارت لكنها أملت بالزمام ونطقت «أهلاً» . استفسر عن جبال ، فقالت إنه لم يعد بعد . أبدى تعجباً ، ليست عادته التأخر .. ماذا جرى ؟ ، قالت إنه يودع صاحباً له . وذكرت إسماً ، وعندما أنهى المكالمة تنفست وتعجبت ، لماذا يتصل في هذه الليلة ، الأمر صدفة ؟ أم أنه الإحساس الذى لا يدرك ولا يبين ؟ . كان إسماعيل قد رتب مع صاحبنا في الطريق ، يوسف الذى يسكن على مقربة من الوالدة ترتيباً مفصلاً أن يتحدث إليها مرة كل أسبوعين ، يصفى إلى صوتها فيهدأ باله ، ويستفسر عن نسبة السكر في الدم

لطمئن ، كذا عن الضغط في الأوردة ، ولما أقلعت الكريمة فجأة نشبت الحيرة عندي . هل أخبره فتقلب أحواله وهو في هذا البعد السحيق ، حيث الوقع هناك أنكى وأوعر؟ أم أكتم عنه؟ وكيف أبرر غيابها عنه ، كيف يكون التصرف؟.

كان قد تبقى أسبوع على اتصاله ، وخلالها بسطت الأمر وأفصحت عنه للناس الطيبين ، أهل الوداد الذين ترددوا عصر كل يوم . يواسون ، ويقدمون الغزاء ، ويتلون الذكر الحكيم ، فريق منهم قال إن الصلح منج ، وفريق آخر قال إن الأمر لتقيل على الأخ التالي المغترب إلى سحين ، وما بين هذا وذاك حرت ، فاذا أفعل؟،

بعض الصحب قالوا بكتابة خطاب ، ولكن إخباره في الهاتف فظيع ، فاللمة مخلوذة . والعبارة عاجزة ، مع مرور ليلة إثر أخرى ملت إلى ضرورة الكتمان ولو إلى حين . لكن .. ماذا عن اتصاله؟ ، قلت لصاحبنا في الطريق يوسف ولامرأته ولعماله ، إن ميعاده معلوم ، ورنين الهاتف له علامة ، فلا تجيوا ، وبالفعل أصفوا طويلا إلى الرنين حتى صمت ، مرت دقائق ثم عاود الكرة ، لكن لم يجبه أحد ، فانتقل إلى الهاتف عندي . بذلت الجهد لكي أبدو عاديا ، سألتني ملهوقا ، لماذا لا يجيب يوسف؟ ، فقلت إنه ربما خرج ، غير أنه ذكرني بتحديد الموعد قبل أسبوعين ، اكتسى صوتي جدية مشوية بتجههم ، قلت إن خلافا وقع بيني وبين صاحبنا يوسف ، ونسبت إليه فرية لم يأتها ، وقلن إنني طلبت من الوالدة ألا تذهب إليه ، ألا تتردد على بيته ، وأبدت الوعد بالبحث عن هاتف قريب من البيت يمكنها أن تتحدث عبره ، بدا حائرا حتى أنني أشفقت عليه ، وصباح اليوم التالي أخبرني من أتق به أنه كتب في مفكرته أرقام ثلاثة هواتف ممن كان يجاورهم أثناء تأدية الفريضة في المسجد القريب ، ومنهم إمام

المسجد نفسه ، سميت إليهم ، رجوتهم ألا يخبروه بالرحيل الأبدى ، أبدى الإمام ترددا ، وقال إن هذا كذب يعاقب الخالق عليه ، فوضعت الأمر بين يديه فلبى وقال إنه سيطلب المغفرة ، وكان ما توقعته ، إلا أن شبهة لم تسرب إليه ، وخلال مرات اتصاله بي ، كنت أبلغه تحيات الكريمة ، وأنقل إليها رغبتها في شيء ما ، آله تخفف عنها عبئا متزليا ، أو قطعة قماش ذات لون معين تحبه شقيقتنا وتخجل من طلبها ، وخلال هذا كله حرت في أمر همني وأقضى ، ذلك أنه قبل سفرها مر بها زميل دراسة مسافر ليلحق به ، وأبدى النية لحمل ما تريد أن ترسله إليه ، وطلب شريطا مسجلا ليسمع إسماعيل صوتها باستمرار ، أخبرتني بذلك . فقلت لها إنني سوف أحضر في المرة القادمة شريطا ، وكأنها كانت تدرك دائي وبلائي ، إذ قالت بلهجة من يدرك أن الوعود قد لا تتحقق ، « لا يا عيني .. اشترينا شريطا وسجلناه .. » ، ما عذبتني أنني كنت أود أن أطلب من إسماعيل الحفاظ عليه ، إذ يحتوي أثرا غاليا من الكريمة الراحلة .

فيما بعد أخبرني شقيقك وشقيقي ، أن الهواجس كانت قد نالت منه وتمكنت ، وأنه عندما أوغلت الشكوك في قلبه حفظ هذا الشريط على مقربة منه ، وإذا خرج يضعه في الجيب الملاصق لقلبه ، وعندما نزل من الطائرة تحسسه ، وعندما حانت لحظة فراقه الأرض الغريبة قبل سماعه الهاتف وبكى طويلا ، فنها سمع صوت أمه الذي كان حسه الخفي ينبئه أنه لن يصغى إليه أبدا ، هذا الشريط يا أصلي المسكين عندي نسخة منه ، ولكنني حتى زمان تدويني هذا لم أجرو على سماعه ، لم أقدر على الإصغاء إليه ، هذا فوق احتمال وخارج طاقتي ، أما إذا شاء الدهر وعدت مرة ثانية فستلقاه ، نسخة في درج مكتبك ، ونسخة في مكان لن أبوح به ، ذلك أنني أحشى ضياعه وبقده على أيدي القوى الشريرة التي لها الهيمنة والقدرة على اقتحام البيوت والتيل من

الأمر عميقة الخصوصية كما جرى لك مع هذا الضابط ، أما ما عقلته فنقي
الطمأنينة البحتة .. ذلك أن الأمر دورى !.

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة »

(قرآن كريم)

ها هو ذا الضابط ، يجرب ولا يضبط ، يفسد ولا يتفحص ، فإذا
قابه كتاب من جزءين سطا على أحدهما وترك الآخر ، حتى الورق الأبيض .
لماذا الورق الأبيض ؟.

يرفع وجهه ساخرا ، متمكنا ، مدعوما بقدرات لا ترى ..

لطباعة المنشورات طبعا ..

يقول أصلى :

إنه ورق الكتابة .. وليس للطباعة ..

يبدى تجهما :

هل ستعلمنا شغلنا ؟!

حاشا يا غشوم ، كلا يا وطأة القيظ ، أبدا يا طول المرض ، يا جدوية
الزمن ، يا مفرق الأحبة ، مصادره الورق أثارته حتى أصلى ، انشغل به حتى
أنه رآه في منام أيام سجنه الانفرادى ، رأى كتبه مصفوفة ليس كما رتبها
وفهرسها ، تتوسطها رزم الورق ، شقيقته الصغرى غلفت الكتب وكتبت اسمه
على قدر طاقتها في ذلك الوقت أثناء غيابه القسرى ، أما الوالدة المألوفة فرتبت
ونفضت الغبار مرارا ، كانت تدرى وتعلم أنه قتر على نفسه ليقتنيها وليصونها ،
وأنه من أجل ذلك عاش في كبد ، وهنا رحلت بالنظر إلى لحظات شتى ، أول

عهد أصلى بالكتابة ، إنه يجلس إلى الطبلية المستديرة ، فوقها كراساته ومداده
وقلمه ، خشبية ، قصيرة القوائم رافقتهم زمنا ، في آونة الطعام يتنظمون حولها ،
في الليل يسمح سطحها ، أو يفرش صحيفة قديمة ، يبدأ انكبابه ، إنه يتترع
ورقة أو ورقتين من كراسات المدرسة ، يصوغ كلماته وما يراه وما يفيض به ،
تقعد الوالدة أمامه ، لا تنطق ، لا تتكلم ، هكذا اعتادت حتى يفرغ ويقوم
ليتمدد ثم يرحل عبر نومه عندئذ تغمض عينيها ، إذا غلبها إعيائها وتعب النهار
الطويل في قعدتها هذه ترفع رأسها بغتة ، مبتسمة ، تلفظ كلمة ، تسأله إذا
كان بحاجة إلى شيء ما ، فيقول مشفقا :

قومي نامي يا أمي ..

تقول مبتسمة - والله حيرتني ، هذه الابتسامة حتى لا أدري كيف اقترب
منها ، ومن أي جهة أنظر إليها ، فلكم أسررتي وداعتها ، ومالت بي لرقتها - .
أظنني نائمة .. أنا صاحبة ..

يقول في لحظة أخرى ..

أنا في حاجة إلى ورقتين أو ثلاث يا أمي .
تقول :

والله يا بنى الفلوس شحيحة عندي إلا ما ترك أبوك لحاجة البيت ..
بصمت ، وتصمت ، عنده حاجة للورق ، ورق الكراسات لا يصلح ،
يريد أن يقدم ما كتبه إلى الجهة المعنية في أحسن صورة . آخر القعدة الليلية ،
قبل عودة الأب من مسجد الإمام الحسين ، تقول :
« اسمع يا جمال .. » .

إني مصغ .. فتلك عبارتها عندما تقرر أمرا ، أراها تدس يدها في صدرها
تخرج منديلها المصروع على دراهم معدودات ..

«خذ قرشين ..» .

ثم تقول :

«اشتر ما تحتاج إليه» .

ثم تقول :

«لا تحزن أبدا ..» .

ثم تقول وفيضها الأمومي يتدى .. ثم يقطر ثم يغمر ..

«أنا سأدبر حالي ..» .

يتطلع صامتا ، ماذا بوسعها أن يقول ؟ حتى وإن لم ينطق .. فإنه يدرك وصول ما يريد. الإفصاح عنه إليها ، وأن مكنونه الذي لم يفيض به في رتبة متباعدة الحس عندها تقتر على نفسها ، تدخر من قوت البيت ، لا تخبر الأب فحاله ضحك ، ما يعنيه انتهاء أصلى من دراسته ، أما ما يخرج عن كتب المدرسة ، وما يقتضيه نجاح آخر العام فأموز كلها معطلة يجب تلافيها ، ترقب الأم انحناءه ، والضوء الأصفر الباهت ، لا تدرى ما يحطه قلمه فوق هذا الورق ، إنما هي راضية لأنه ساكن ، أورتته هذه الأوقات قلقا ممضا خفيا ، أطلعت عليه وكابدته ، ألا يجد ما يحط عليه سطوره ، أن يقتقر يوما إلى الورق ، قلق مشأه حقب العسر والمشقة ، ضاعف منه وأججه سطو هذا الضابط على أول أربع رزم يدخرها ، ثلاث أعطاها له زميل يعمل على الطباعة في ديوان المؤسسة ، والرابعة جاء بها الوالد من موظف بالوزارة ، قلقه وخوفه من نفاذ الورق الأبيض لم يفارقه منذ ذلك الحين حتى بدء معارجه ، واغترابه عن الحياة الدنيا ، له حسن السعي ، ولي الصبر على ما أرى ، وما أعين .

قلت راجعا إلى تلك اللحظة التي بدأ معها التخرف في أغوار الأم ، عندما وقف الضابط ، وخطب أصلى ..

«تجهز فستحىء معنا...» .

حتى نطقه ، تعلقت آمال الأم بانصرافه ، فليأخذوا ما شاءوا من كتب وأوراق ، من محتويات حتى ، ألم يتترع ملاعق لسريرين وكوم عليها رحيق عصور خلت وخالصة أزمنة من شعر وقصة وفكر ، ليأخذوا ما نهبوا ، ولكن . جمال ؟! ، أن يخرج بصحبتهم من هذا الباب ؟ من يديرها متى يكون دخوله إذا عاد ؟ تراءى أمامها ظلام ما بعده ظلام ، وآبار جافة ، وطرق لا يدوسها أحد ، وصخور تتر حرارة القيط ، آلام لا تطاق يحض منها من حنت عليه ، ومن رعته ، خلع أظافر ، وكوى باطن قدم ومالا يطيقه بشر . في المطبخ انحنى على الضنبور الوحيد يقتسل قبل أن يولى وجهه شطر المجهول . يلمح أباه يرنو إليه ، غير مدرك ، غير مصدق بعد لما يجرى ، فتلك لحظات لم يعد لها عدة ، يهمس بسرعة .. «إذهب إلى أمين عز الدين وأطلعه على ما جرى ...» . أمين هذا صاحب ممن عرفهم أصلى أول عمره ، رجل طيب ، فيه قبول وله مقدرة ، وعلى يديه تم جريان أول رزق لأصلى ، إذ تسبب في إلحاقه بوظيفة وإنهاء فترة بطالته التي دامت عامين من الضنى ، استمرت صلتها مع تقلب الأحوال . ولهذا تفصيل طويل يصعب شرحه الآن ، وسوف يرد في الحلال المناسب والظرف المواتى فلكل نبأ مستقر .

أما الآن فإني ذاكر لكم لطيفة ، ذلك أن الرجل كان في ذلك الوقت ذا مهابة ، وله شأن في التنظيم السياسى ، ويجمع بجمال عبد الناصر . يصغى إليه ويحاوره في زمن لم يره أصلى في الصور أو المواكب ، لما سمع الوالد اسمه تبدد بعض من حيرته ، فحتى اللحظة لم يكن يدرى إلى من سيسعى ؟ فكل الأقارب ، والمعارف ، وأبناء البلدة يقصر نفوذهم عن هذا الملم . في أول النهار واليوم أحد ، مشى حائرا مأخوذا حتى وصل إلى وسط

المدينة ، توقف أمام باب المقر ، ولما سأل من يقف بالباب تطلع إليه في شك وريبة ، أفضى إليهم بالسبب ، عندئذ أخبروه بما حيره ، أمين عز الدين معتقل منذ ليلة أمس ، ربما في نفس اللحظة التي انتزعوا فيها ابنه ، كان المكلف بالباب رجلا من القوم ، لما رأى جزع الأب وملاحمه المكدودة المرهقة بثقل سنين طوال ، رق له ، أشفق ، دعاه إلى الجلوس واستفسر منه عما أتاه ولده ، أى جناية ؟ هل أخطأ في حق الوضع القائم ، لم يجب أبى إنما صمت ، ليس عن كتمان ، وإنما عن حيرة ، وإنى والله مثله ، وحيرتى من حيرته ، فكل ما اطلع عليه يخفى ، ويلزمنى ، وقد جئت إلى هذا الكون الغريب منفيا فإذا بي أواجه ما لم يخطر ببالي ، وما يبدو معه كل ما قاسيته في زمنى القديم يسيرا .. هينا ، أتطلع حولى ، على ألح دليلي في هذه الأحوال ، أليس هو سيد الوقت ؟ لماذا لا يشرح لى ، لماذا لا يفسر لى ؟ غير أن نظرى لم يقع عليه ، ظهوره ليس رهن مشيتى ، من هنا أضمرت العتاب والنية على الاستفسار . اثنتى إلى هذه اللحظة من فجر الأحد ، تاسع أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، ينظر الضابط إلى ملاءات السرير الثلاث وقد انتفخت بالكتب والأوراق والمواد والمعانى ، عقد أطرافها فصارت بقجا ضخمة ، ينحنى الأب ، يحمل أضخمها وأثقلها بعد أن يمسك طرف جلبابه بين أسنانه ، تبدو ساقاه النجيلتان الصليبتان وقد توترتا ، تماما كما رأهما أصلى في المواقف . عندما حمل أجولة البذور ، يحمل المخبر واحدة ، وأصلى الثالثة ، وهذا مما أثار ضيقه فيما بعد ، وعده تنازلا في حق نفسه ، غير أنه علل الأمر ويرره بعدم الرغبة في تأجيج مشاكل قد يكون لها انعكاسها المزعج على الوالد والوالدة والشقيقتين . عند نزوله أولى درجات السلم صاحت الأم :

«يا كسرى ..»

تلك صبيحة أرجفتني ، فعندما تلفظها المرأة الكئوم ، فذلك يعني أن الأمر بلغ مداه واشتد ، إن ما يخشاه المرء قد وقع ولا راد له ، فيها الجزع المقطر ، والأسى عينه ، وأصل الخوف القديم ، وقد سمعت نساء يطلقن هذه الصبيحة في زمني الأول ، تتغير اللغات وتبديل اللهجات غير أن اللب الإنساني واحد ، تنزل الأم درجتين غير أن الضابط يشير بيده ..

«ارجعى .. وإلا أخذناك معه ..» .

تلوح بيدها غير عابثة ، مثالة ..

«خلوني معه ..» .

اختفوا عند منحنى السلم ، تنزل حافية ، لم تثبت إلا عندما استلدار جمال وطلب منها أن تبقى ، تتابع خطوطهم فوق هذا الجزء من الحارة ، راجية ألا تقضى اللحظات ، أن يقع أمر مفاجئ يبدد هنا كله فتراه يرجع متمهلا ، يجتاز الباب ، يتجدد فوق السرير ، تتردد أنفاسه هادئة ، يتبدد ما جرى كله ، يتلاشى الفزع وينتهي الفقد ، غير أنهم اختفوا عند المنحنى ؛ ويبلوغ جمال هذه الناصية يتم وقت انتزاعه ، ويبدأ زمن غيابه . وهذا أقسى ما مر بها . وأشد ما عانت حتى هذه الفترة .

والمعروف المقطوع به أن الخوف على الحى الغائب أمر وأقسى من الحزن على الميت ، فالأيس من اللقاء تعقبه راحة ، وخروج الميت لا ترجى معه رجعة ، أما الغائب ، المغترب قسرا ، فنار الحسرة عليه لا تنهد ، والأمل في عودته لا يقطع . يقترب منها الابن الأصغر مرجوحا فزعا ، أما نوال فتحاول أن تكون صاحبة المؤنسة ، للحظات القفر هذه ، يطرق الباب ، يتوافد الجيران ، عطيات ، وزوجها ، أم سهير ، سعدية من البيت المقابل ، يوسف صانع العماثيل الخشبية ، تسامل أم سهير :

وَألم يكن ممكنا أن تدفعوا للضابط جنيتها خمسة ويتغافل عنه ؟ .
تخيل الأم سريان ابنها عبر طرقات المدينة الآن ، أى الشوارع يسلك ؟ أى
النواصي تتوارى عن عينيه ؟ فى أى الأماكن سيأوى ، وتحت أى سقف سينزل
عليه الليل ؟ . كيف سيفق الخبر على أخيه إسماعيل الذى يقضى الآن أول أيام
دراسته بالكلية العسكرية ؟ هل سيلحقه أذى هو الآخر ؟ .
يرجع أحمد فيصف العربة الرمادية التى كانت تنتظر عند مدخل الحارة ،
أمام مسجد سيدى مرزوق ، يصف ثبات جمال وانعدام خوفه ..
تقول سعدية :

«جمال جدد وأمير.. فى حاله ..» .

تكره الأم إيقاع هذه الكلمات ، فيها رثاء والمرثية للميت ، فأل سبى .
تقول وبلهجتها حدة :

«أخذوه لأنه يكتب عن الغلابة ..» .

ثم تن مضطرة ، فتساءل :

«أين أنت الآن يا كبدى ؟» .

فى هذا الموضع ، بجوار صوان الكتب قعدت أوقانا ثقيلة ، فى لحظات
بعينها تقف أمام الرفوف ، تنفض عنها الغبار ، وتمسك بعض الكتب تقلب
أوراقها ، ليتها تعرف القراءة ، ليتها تقدر على فك السطور ، منذ أمد ليس
بعيد ، أحاط بها جمال وإسماعيل ، وقالوا إنها سيعلمانها سر الحرف ، بدأ معا ،
وكانت تأنس إلى لحظات حفها بها وتحرص عليها أكثر من حرصها على تمييز
الألف من الباء ليت ذلك دام ، ليتها استمر ، لا تدرك الآن لماذا توقف عزمها ؟
لا تتذكر . أرسلت نوال وعلى لشراء ورق تغليف ، طلبت منها تجليد
بعضها ، وكتابة اسمه ، تماما كما يفعل حتى لا تنقطع عادة ، ولا تنتهى خصلة ،

فكبرارها حتى بدونه بشرى برجوعه ، أراها تقبل الصفحات ، تدعو بقصر
الغنية ، بجوار الصوان أمضت أوقاتا طويلة ، فما بعد قالت لأصلي :
« هذا المكان أكل من جسمي حتا ، وأخذ من عمري مقادارا .. » .
ما بين الشرفة وهذا الركن تنتقل وتسمى ، تنتظر عودة أحمد ، بعد ترده
على التنظيم السياسي ، لقاءاته بأمين عز الدين الذي لم يستمر سجنه طويلا ،
زياراته لبعض أسر من عرفوا جمال وكانوا صحبه في السكة الوعرة بعد أن عرف
الطريق إليهم إلى بيوتهم ، حتى إذا رجع تستجوبه طويلا ، تستنطقه
التفاصيل ، المساعي التي تمت ، وما استجد ، وتلك التي يؤمل منها . تطلب
صحبه ، تمضي معه أحيانا ، تنتظره عند ركن قصي حتى يعود من زيارته
للمقر ، تطوف بضريح الإمام الحسين ، ترجو سيد الشهداء أن يخفف الغيمة ،
أن يرد الغربة ، هذا يوم أراها فيه وحيدة ، تجلس في الصالة الضيقة مندمج
وجودها المادى بغبرة المساء الرمادية ، والليل الشتوى سريع القدوم ، ورائحة
البرد ، أين على ، أين نوال ؟ لم ألتق جوايا . شافيا ، الباب يطرق ، وافد
غريب ، هكذا تنبئ طرقاته ، ماذا يجئى المجهول ؟ الستر ، الستر ، ترى
شابة لا تعرفها ..

- خير ..

- أنا امرأة صاحبه الأبندى .

- الشاعر؟

تومئ مبتسمة ، تجلس عند طرف السرير ، الأم في مواجهتها ، تصفى :
« جمال بخير .. إنه في طرة .. » .

- اللبان ؟

- لا . في المعتقل مع صحبه ..

تقول إن زيارة المعتقلين سياسيا محظورة ، إنه بيعت سلامه ، تقول صاحبة

الصاحب :

- ابنك رجل ..

لا تريد أو تنقص ، غير أن الأم تفهم الإشارة وتدرك كنه العبارة ، ذهب جمال رجلا وسيرجع رجلا ، يمكنه النظر في وجوه القوم ، لا ينجله شيء ، برغم كل شيء احتمال ولم يبيع ، وهنا أقول أنا صورة نجال بن أحمد الغيطاني إنني اطلعت على ما لم يتطرق به أصلي ، رغم إيلاام جسده ، تعذيب روحه ، والضغط لقهره ، ما الذي أخفاه ؟ ، ما الذي كتمه ؟ ، وقفت عليه كله ، هنا ما لن أقوله قط ، لم يلفظ به أصلي رغم الحيس الانفرادى ، الإقلاق الليلي ، وغمر المضجع بالماء لاستحالة الرقاد ، وعصب العينين والإرغام على الجرى مع ملاومة الصفع والركل ، لن أذكر شيئا فالإذن لم يصدر ، والإشارة لم تلح ، والأمر فيه خطر ، فليفهم الفطن ما يشاء ، ولينعم من أراد النظر فيما أقول ، ولكن .. لا تظنوا بي السوء لأن إنشاء ما لم يطلب مني كفر ! .
غير أني سأقص عليكم تفصيل أمر من أغرب ما ورثته عن أصلي

«وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ...»

(قرآن کریم)

.. بدأ الأمر في اليوم السابع عشر لحبسه بمعزل عن الخلق في سجن القلعة القديم ، المغرب انقضى والوقت بين بين ، فتحت البوابة الخارجية ، ثم البوابة الداخلية المصمتة عدا فتحة صغيرة قرب نهايتها ، مسدل عليها من الخارج غطاء متحرك ، أصلى يرى ثلاثة مخبرين أشداء ، واحدا منهم تقدم داخل الزنزانة .
« قم يا أربعة وثلاثين .. » .

إذن .. دنا الوقت .. ستقع المواجهة ، مما حيرنى في هذا الحال أنه بقدر ما شعر به من خوف ، بقدر ما ارتاح ، الآن انتظار البلاء أشد من وقوعه ؟ ربما .. ، لوى أحدهم ذراعه ، أحاط آخر عينيه بعصابة سوداء فغابت عنه المرثيات ، والجهات ، نزلت العصا الرفيعة على إبتيه ..
« إجر .. إجر .. » .

يتعثر ، يسقط ، يدفعونه باتجاه جدار ليصطدم فجأة به ، أمسك أحدهم بذراعه ، يصعد درجات سلم حجري مرتفع ، ويتركونه يقف لحظات في فراغ سحيق ، قد تجيء الضربة من أى جهة ، يدفعه أحدهم فجأة ..
« إجر .. » .

يعدو حتى يصطدم بجأز ما فينقلب إلى الناحية الأخرى ، بينما يعدو إلى

يمينه من يحمل عصا ، وإلى يساره من يحمل سوطا ، يلهبان به جسده . كم دام ذلك ؟ لا يدري . ولا أعلم ، فالوقت ملغى ، هنا ، يوقفونه فجأة ، يقودون خطواته ، يدرك أنه يتوقف داخل مكان مغلق ، أداروه حول نفسه عدة مرات . يكفون .. فيتوقف ، إنه يفكر .. كيف ستقضي هذه اللحظات ، بعد انقضائها تمضي عليه الدقائق العسرة ، يصغى .. إنها خطوات خفاف ، يتوقف أحدهم أمامه ، يصغى إلى تردد أنفاسه ، يوشك أن يسمع دقات قلبه ، ينوب سمعه عن حواسه كلها ، فيصبح السمع بصرا ولمسا ورصدا للمجهول .
كم مضى ؟ لا يمكنه التحديد .

فجأة .. تهوى كف غليظة على صدغه فيميل جسده كله ، يتعد ، صفع يميل به إلى الجهة الأخرى ، غير أن الميل الثالث أقل ، إذ استجمع قواه ليقاوم ، وبعد توقفه عن العدو وتوالى الصفع صار ثابتا ، وجهه انتفخ ، إنتابه سخونة .. أما خيط الدم الدافئ الذى سرى من جانب الفم الأيمن حتى الفك فلم يشعر به إلا بعد توقف الكف الغشوم . هنا أقول إن أصلى لم ينطق عن ألم ، لم يفصح عن آهة ، إنما واجه جلاده بملامحه .. بعاه المؤقت ، فى خزانة أسراره الدفينة أجداد فى الصعيد الجنوبي قُطعت أطرافهم وسملت عيونهم ولم ينطقوا كلمة واحدة فيها نجاتهم .

فلما كان المجلود الضحية غير قادر على الرد .. فليحرم جلاده سماع الأنة أو صرير الغصة .

يكف الصفع فجأة ، تمضى اللحظات المثقلة ، يرصد الأنفاس التى تزايد إيقاعها ، إلى رائحة العطر ، لم يصغ إلى خطوات أخرى ، يتبدد الصمت فجأة ..

« ما هذا .. ؟ من قال لكم اضربوه .. من أمر؟؟ » .

تمتد يد ، ترتع عنه العصاة ، اضطر إلى إغماض عينيه وفتحها بسرعة عند انتقاله من الظلمة إلى ضوء الظهيرة ، يرتدى الواقف أمامه قيصا وبنطلونا رماديا ، يميل إلى امتلاء ، أملس البشرة ، أسود الشعر ، قمحي اللون ، يضمر مالا يظهر ..

«أسف يا جمال .. إنه خطأ ..» .

يشير إلى مقعد بدون مسند وسط الحجرة تماما في مواجهة مكتب .

«تفضل .. اجلس ، أنا الرائد منير ..» .

يمضي إلى خلف المكتب ، يواجهه ، يتطلع إليه لحظات ..

«سيبوا لك ألما .. انس ذلك .. تلدخن ؟» .

يمد علبه سجائر خضراء الغلاف ، أجنبية في وقت ندرت فيه السجائر غربية النوع ، لم يكن أصلي قد عرف التدخين بعد ، إنها جزء من الخطوة ، فالسجائر مصادرة منذ دخولهم إلى هنا ، وظهورها فجأة قد يميل بمن اعتادها ، وعند لحظة معينة يمكن الإلقاء بها أرضا . يهز رأسه نفيا مؤكدا أنه لا يدخن ، يشعر بوقع أقدام خلفه ، يلتفت بسرعة ، إنهم ثلاثة يحملون عصيا غليظة .
«انتبه هنا ..» .

تلاشى لهجة الود المصطنع ، يأمر ألا يلتفت .. غير أنه يعاود اللين ، فأوان

الشدة لم يمن بعد ، يرفع النظر إلى الثلاثة ..

«لن يمد أحدكم يده عليه ..» .

أمر بالنقى يجرى تهديدا ، وإشارة إلى إمكانية ، وقوفهم يقلقه ، يمكن للعصا أن تهوى في أى لحظة . يبدى الضابط ودا مصطنعا ، كأنه لم يصنعه ، لم ينهره ، يبلأ المحاورة ، يسأل عن أشخاص بعينهم ، كيف عرفهم ، ومتى التقى بهم ، يستفسر عن اجتماعات عقدت . وجلسات تمت ، وجوارات إنتهت ،

يجب أصلى إجابات مبتسرة ، مختصرة ، أعد للأمر عدته ، ورتب وتوقع ،
أيديوم الأمر طويلا ؟ تراجع إلى الوراء قليلا .

«أنت لن يتفع معك الذوق .»

ثم يقول :

«أنت ابن قحبة ..» .

يسبه بذكر فرج أمه ، يتطلع أصلى بلامح خلت من التعابير تماما ، كأنه قد
من حجر عدا رفة في بؤبؤ العينين ، رفة فيها الرد وإن لم يبلغ جلاده ، تحوى
الحق والكظم الأشد .

الصفح أفسى ، العصى أسرع ، الجرى أطول ، الجهات تحتلط ، السواد
يقع ، الضوء يبرق ، عندما ألقوا به في الزنزانة لم يقدر على الرقاد لتورم جسده ،
غير أنه لم يعبأ ، لم يتوجع ، إنه ما بين شعورين .. الأول عابر مضمونه الراحة
لانهاء ما توقعه ، ولتحمله الأذى كاملا بدون أن ينطلق إلا ما أراد النطق به ،
أما الآخر فقيم ، نفذ إلى لبه ، دفع إليه بالضيق ، بالحنجل ، بالرغبة في التوارى
عن الخلق ، سب الرائد هذه لأمه ، وذكره فرجها ، ما ذنب أمه ، انقهر لأنه
لم يرد غيبتها ، لم يدفع عنها . لم يقارع السب بسب مماثل . أمضى السجن كله ،
استرد حرته ، تقلبت به الأحوال وتغيرت الظروف ، ارتحل ورجع وطرق
دروبا شتى ، وبقي عنده سباب هذا الجلاد كدمة لا تشفى ، ونذبة في روحه
لا تذبل ، غير أنه أضمر في روحه أمرا ، أن يرد الإهانة يوما وإن طال المدى ،
راح يتحين الأوان المواتى يتبع أخبار هذا الضابط قدر الطاقة ، ترقبه من رتبة
إلى رتبة . خروجه من الشرطة السياسية ، عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف .
انشغل بكيفة رد الإهانة ، هل يدخل عليه فجأة ويسبه بنفس الألفاظ ؟
هل يستظره في مكان ما ؟ هل يتصل به هاتفيا ؟ ، آخر ما عرفه عنه قبل بدء

معراجه من فاس المباركة أنه تولى قيادة شرطة جامعة من جامعات العلم ، بدأ سفره اللاتهاى وغله لم يبرد .، وقراره مستعر . انتقل هذا بتمامه عندى فصار إلى ما كان عنده ، وإنى لمتبج أخباره حتى وقت تدوينى هذا ، إنه يتولى الآن الشرطة النهريّة أحيانا تطل على صورته من الصحف ، انتزعها ، أحفظ بها ، أدقق فيها

حدث أننى كنت مسافراً إلى مدينة قصية ، رحى أدير المؤشربحثا عن إذاعة القاهرة . فإذا به يتحدث عن جهود الشرطة النهريّة ، الصوت نفسه الذى سب أصلى بذكر فرج أمه ، الأم التى لا يعرفها ، لم يرها . لم يلتق بها ، الأم التى لم يفض إليها أصلى بما جرى ، بما تفوه به ، وفى يوم من أيامى فى هذه الحياة الدنيا رجع ابن أصلى محمد من المدرسة ، وأنا أبوه فى نظره وفى نظرى وفى نظر الحق ، محمد لم يلحظ غياب أبىه ، كذا امرأتى لم تلحظ حلول الصورة مكان الأصل ، واحتواء الظل للمصدر ، والتفاف الفرع حتى تغطية الجذع . وإن كانت تتطلع إلى أحيانا ساهمة ، متعجبة ، وتتساءل : مالى أراك شاردا .. مالك بعيد عنا ؟ ، عندئذ أبدى أعذارا شتى ، غير أننى لا أضطرب ولا يهن قلبى ، من المحال أن تدرك ما تبدل وما تغير إلا إذا نزلت المشيئة ، وهذا خارج طوعى ، ليس بيدي ولا بيدها . ابنة أصلى الصغيرة أيضا لم تلحظ ، أنى لها ذلك وقد عت على أول ما وعت ، غير أننى أسترب أحيانا إذ تجفل منى وتخشى ، الأم لم ترنى إلا ابنا الأكبر ، امتدادها وتمام عمرها ، أما نظراتها الصامتة الممتدة تجهاى فلم أدر ولم أحط علما ، أمى امتداد لعادة أم أمر مستجد ؟ ، يجرىنى هذا كله ، ويأخذنى أحيانا ، لكننى لا أنحى باللائمة على نفسى أبدا ، ذلك أنى أخفيت وكتمت قدر الطاقة :

أعود إلى ما بدأته فأقول : ذلك المبنى المطل على النيل ؟ قال نعم ، قلت :

هل التقييم بقائدها؟ قال : نعم قلت : أهو فحى البشرية ممتلى؟ قال :
نعم . قلت : أهو أسود الشعر؟ قال : نعم . قلت : هل اسمه منير؟ قال :
لا أعلم . أطرقت لحظة فتساءل محمد : هل تعرفه؟ ، أو مات ، نعم ، ولم أزد
حرفا ، انسحب إلى صمته . أمه تؤكد أنه أصبح صموتا ، كتوما خلال الحقبة
الأخيرة وأنه لم يكن أبدا هكذا . تحدد بدء الفترة بما يوازى ويتفق مع مجيء
ذائق إلى هذا الكون وبدء إسراء أبيه ، أصغى لأصمت وأخفى عجبى ، ضمته
وحنوت عليه ، هذا ما كان سيصدر عن أصلى فى هذا المحل ، شفقة وحنو
وازدراء لمجرد تصوره لقاء بهذا الجلاد وهو لا يدرى أنه صافع والده وسابه
ومعذبه ، فما أعجب تدبير الشريعة فى هذا العالم ، إني لست متخاذلا ، فما
اعتزته أصلى ونواه أنا مكلف به والطاعة واجبة مسبقا . وعندما يأذن الإذن
سأنبئكم بما أدبت حتى أحمو ما لحقنى ، وإن كنتم فى ريب مما سأفعله ، فإننى
أعدكم وعدا لا خلف فيه ، فلا تكوص ، وإني لنأجزه ، خاصة أن أصلى
حاسب نفسه طويلا ، شعر بالتحجل كثيرا ، فلطالما تساءل ، لماذا لم يرد الإهانة
فى حينها؟ ، علل الأمر بقله الحيلة ، وشحوب التجربة ، وصغر السن ، لكن لم
يخفف عنه ، ولا عنى . لم يقنعنى أيضا أطلت الفكر وتمعت . أهو الخوف من
تضاعف الألم لتوقع الضرب الأشد وربما الفتك ؟ لكن الخوف نتاج وليس
أصلا ، ما تمكنت من إدراكه ، مالم يعه أصلى ، حال الوحدة

فى مقام القرى من هذه التجليات المباركة ذكرت ما نصه ، أن الإنسان
جبل على الرفقة والصحبة والأنس ، فالوحدة تجعل الإنسان ضعيفا خاصة إذا
واجه عدوا غشوما بلا صحب . أدرك الجلادون ذلك ، وعوه تماما . فرضوا
الإبتطاع القسرى على من سيتم سؤاله ، هذا ما فعلوه مع أصلى وصحبه وغيرهم
مما لا حصر لهم ، ألقوا بهم فى الزنازين المصمتة ، مزدوجة الأبواب ، منعوا كل

إشارة أو خبر ، حتى أن ملامح الأيام اختلطت .. فلاسبت ولا أحد ، ولا اثنين ولا ثلاثاء . ولا أربعاء ولا خميس ، أما الجمعة فلا يبين ، ما من علامة تحدد ، وما من حدث يميز ، وما من صدى في النفس للحظة خاصة . مثل الغروب أو الشروق أو ميل الشمس عن منتصف السماء أو امتداد الظل أو سبوح الغيوم ، ما من مسافة تقطع ، ما من وافد مأمول أو سفر يرجى أو مهمة تنجز ، تنعدم الحركة فيتفتى الزمن ، يتشابه الوقت ويتشابه يتلاشى ، ولولا أن زنازين القلعة مشيدة فوق سطح مرتفع لما أدرك الأسير المعزول الضعيف تعاقب الليل والنهار . فما من رحيل إلا عبر الذات . والسفر على وجه العموم فيه نصب ، مبنى على شظف العيش والمحن والبلايا . ينعدم فيه الأمان ، فما يمر به الإنسان اليوم سيتغير غدا ، وما يراه هنا ، سيرى غيره هناك . وأهل كل محلة يخالف أهل المحلة الأخرى ، هذا عن السفر في عمومه ، أما أوعره وأصعبه فما كان رحيلاً في الرحيل ، وحركة في انعدام حركة ، لا محط مأمول ، ولا نقطة للبلوغ ترجى ، إنه الهيام على حافة الموت حاول أن يحدد ، بدأ يخفر صباح كل يوم خطاً بظفره على الجدار خطاً خفيفاً .. لو رصد لأوقعوا به الكدر الأشد .

في البدء فكر في الاحتفاظ ببذور الزيتون الأسود ، طعامه الليلي الذي لم يغيره ، غير أنهم أعدوا لكل أمر عدته ، الحارس يطالبه بالبذور عقب طعامه ، حتى لا يستبقها ويصفها فتسلي روحه ، الويل لو كانت ناقصة ، ليت الأمر كف عند ذلك إذ حدث أكثر من مرة أن فتح الباب ، يظهر ثلاثة ، لا يجيئون فرادى أبداً ، دائماً اثنان أو ثلاثة ، لا يدخلون ، إذا أرادوا خروجه أشاروا إليه أن يتقدم ، كأنهم يخشون أمراً مع أن العسف بجانبهم ، إنه خوف الجلال من ضحيته ، خوف صعب إدراكه وقد عرفته ونفذت إليه ، وهذا يطول شرحه فلترجته ، يمسك أحدهم دلوا يدلق ما فيه من ماء فوق الأرض

العارية الخشنة ، يضطر المحبوس إلى الوقوف ساعة إثر ساعة ، ثم يأخذه النصب فيقي ، وربما يضطر إلى الوقوف ليلاً ثم نهاراً إذا استطاع ، لكن من يقدر ؟ .
 بعد وصوله إلى الحبس ، في بداية الليل الثالث والشوارع نائية قصية رغم قرمها . انفجرت صرخة ناقبة ، ممتدة ، متلوية ، قادمة من الحشا ، من أزمته الممجية ، من زحف مغولى ، تنفذ إلى المكنون الإنسانى ، قام واقفاً ، من كل صوب تأتبه ، حروف مدموعة ، مختلطة أطرافها ، جعير يصهر المكان ، ينكس المآذن العتيقة ، ويظلم المحارب ، يذرى الصور والأحاسيس ، عدا ما يحتويه من ألم يلغى الألم ، إنه المنتهى ، تراجع فى الحيز الضيق ، الصراخ مخلق به ، محيط .. كأن فى حركته اللغاة محاولة للتوارى من صراخ لا محالة مدركه ، لحظات صمت بغيض ، ينفجر الألم متدفقا فلايد أن سلكا محميا أو مشحونا بالطاقة يلسع خصية أو يخترق دبرا . يتواصل حتى تشح القدرة فينقلب عواء جريحا آيسا من كل منقذ أو انفراجة . وجه أصلى متقلص ، متصلب النظرات ، هذا أصعب ما واجهه .. تتضح كلمات بين الصراخ الطويل ، صوت هادئ ، محذر ، منذر ، متدد ، مقتدر ..

« قل ولا تتكر .. » .

تمضى الليلة ، بطيء سريانها ، ثقيل وقعها ، خطو الحراس فوق الزنازين ، يتعمدون وطء فتحات التهوية المغطاة بقطع مستديرة من الصفيح المثقوب ، يتوالى الصلدى كأنهم يدهسون مناماته ، بعد مضى أيام قدم محاييس جدد ، كيف أدرك وصولهم وهو محاصر ، مقيد ، مقطوع الصلة بما حوله ؟ أقول إنه أتقن إرهاف السمع والنظر عبر الفتحة الدائرية الضيقة .. إذ عرف كيف يزحزح غطاءها الخارجى المتحرك بأصبعه الوسطى من الداخل ، ورؤيته العابرين المارقين، كما أمكنه التمييز بين أصوات المكان الثابتة من حركة معتادة وسريان

هواء أو أصوات غامضة بين الأصوات الطارئة المفاجئة .

من هم ؟ من جاءوا بهم ؟ يتوقع رؤية البعض . وأحيانا يختلط الأمر عليه ، كما جرى له عندما رأى من خيل إليه أنه شقيقة إسماعيل ، حدث ذات ظهيرة أثناء اختلاسه النظر أن لمح فتى يرتدى قميصا غامقا ، ملاحظه ليست بنائية عنه . إسماعيل .. ربما ، لم يتأكد ، هل جاءوا به ؟ لكن ما لإسماعيل وما هو فيه ؟ ارتجف ، سمع عن احضارهم الشقيقات والزوجات واغتصابهن غيلة وعنوة على مرأى ومسمع ، يمر به خاطر عجيب ، من يقوم بالاغتصاب هذا ؟ كيف لا ينجل من عربه ، كيف تواتيه المقدرة في حضور جمع ، أحقا هو أخوه ؟ لكم سبب إضطرابا للأسرة البسيطة ، مرت به أيام سود ، يدنو محاذرا من الباب ، يحاول النفاذ عبر الفتحة ، أهو أم لا ؟ حتى جرى ما لم يتوقعه ، عند توزيع الغذاء في يوم لا يدري موقعه ، فتح الباب ، رأى الحارس ، وراءه هذا الفتى يحمل طاولة من الصاج عليها أطباق الفول وأرغفة الخبز ، لم ينظر إلى الخبز ، إلى الطعام ، إنما سدد النظر إلى عيني الفتى مباشرة ، لقاء للحظي مارق .. خاطف ، غير أنه كشف ماكشف .

معنى بأنه يتركز في هذا اللقاء اللحظي حيث لا حديث ممكن ، لا محاورة ، وما من استفسار يعقبه مجاوبة ، يتصل الإنسان بالإنسان عبر اللبح الخاطف ، فيث ويناجى ، ويجهر ويسر . بعد إغلاق الزنزانة أنس بنظرة الفتى ، أنس بها لأنه أول اتصال إنساني منذ ولوجه الحبس ، كذلك اطمأن إلى أنه ليس إسماعيل ، وفي الليل انشغل بها ورأى فيها ما لم يره في ضوء النهار ، رأى أنه مليمومة ، وشكوى : لا تدرى ما فعلوه بي ! ، ورأى ألما : لا تدرى كم تعذبت . فيها استفسار ، من أنت ؟ من أين جئت ؟ كيف قيدوك ؟ كل المطالب الأربعة هل وكيف وماذا وأين ؟ ، لا يدري كيف تلقى نظره إليه ؟ لماذا كلفوه بنقل الطعام ؟

أهو مرضى عنه؟ هل أقر بما أرادوه منه؟ ثم كفاؤه بالتقل وبذل الجهود؟ لا يدري. لم يره مرة أخرى، لم تقع عيناه عليه مرة ثانية، حتى شك في أن ما مر به حقيقة، ملاحظه لم تغب عنه أبدا.. بقيت معه وانتقلت عندي، ما يعينني تلك القسمات لحظة تبادل النظر الخاطف اللحظي، لا يهمني إذا تقدم مني الآن شخص ما وقال إنه هو من واجهني ذلك اليوم التالي، العسر. هل فهمتم عنى - بصركم خالتي - بعضا من السر؟.

أقول إن تطلع المقيد المحاصر إلى مثله مع منع الوصل أشق لحظات الوحدة كإسالة الماء على مرأى ممن يموت ظنما وتلك درجة يندر وقوعها أو تصورها. إذا أردنا التنبيه لعلنا يجهل أكثر الخلق بها، إنها لاتشبه النظرة العابرة المتبادلة بين شخصين يمضى كل منهما في اتجاه مغاير للآخر، لكن وفق مشيئته وإرادته، لا يعوق خطاه قسر، فالزم واتبه يا من تتطلع إلى الفهم والإدراك، واعلم أن الكينونة الإنسانية بقدر اضطرابها بقدر قدرتها. إذا تعطلت تنهض بقية الحواس للمساندة والملد.

انظر إلى الأعمى، ألا تراه.. يسمع مالا يسمعه المبصرون؟.

مع مضي المدة أصبح يدرك من إيقاع فتح الزنزانة المراد، فإذا أدير المفتاح في القفل مرات متواصلة متعاقبة عرف أنهم يقتعلون أحدهم إلى التحقيق، من قوة الصوت أو وهنه يمكن له تحديد مقدار بعده عن زنزانه. أما معرفته اليمين أو الشمال فأمرها سهل.

تلك الليلة أدرك أن جددا قدما، سمع الحارس يقول آمرا ناهيا:

«اسمك منذ الآن أربعة وعشرون ..» .

من صاحب الإجابة؟ اجتهد أن يعرف لكنه لم يفلح، في الليلة التالية إنفجر جعير فطيع، هنا أساءل.. هل رأى أصلى نفسه في الزنزانة؟ كلا بالطبع

لم تقع عليه سوى نظرات الحارس المتلصصة المنتهكة وحدة المحاييس .. أنا رأيته في حال القبوع والتلملم . منطويا ، مزرودا في الحيز الضيق القصي ، رأيته مرتين ، الأولى عند سماعه صراخ الألم في هذه المرة ، مدركا المغزى ، إذ يتعمدون تعذيب أحدهم أمام مكبر للصوت عند وصول مساجين جدد لبث الخشية ، للتلويح بالأمر العظيم المنتظر وقوعه ، أما المرة الثانية ففي ليلة باردة من ليالى حبسه الانفرادى بعد تناوله حبات الزيتون الأسود ، ونصف رغيف يابس ، رقد مقاربا ما بين مقدمة ركبتيه وصدرة فكأنه يتخذ وضعه داخل رحم الكريمة الحانية رغبة في الولوج إليه مرة أخرى بعدا ونأيا من قساوات هذا العالم .

كان قد تقلب عدة مرات حتى يمكنه اتخاذ الوضع الملائم لتحاشي ضوء المصابيح الكهربائي الذي يدركه أينما ولى أو المنح في هذا الحيز المحدود ، فجأة .. دوى الرعد ، أول رعد شتوي .. ثم نزل سكون يبده انهيار عظيم ، تساقط حجارة ، ما هذا ؟ أينهار السجن أم يهدمون الجدران فوقهم ليعلنوا نفاذ القضاء والقدر ؟ أم حجارة من سجيل ؟ يتوالى التراطم وما من عاصم ، يتراجع إلى الركن ، أقصى ما يمكن أن يبلغه وآخر ما يمكنه اللجوء إليه ، تتداخل أصابع يديه يغمض عينيه .. ينتظر الموت !

في هذا الوضع رأيته وتأملته ودرت حوله ، ينطق الذعر لأنه وقع في الوحدة ، ما أشأم الوضع عند دنو الإنسان من النهاية وهو بمفرده ، ما من معين أو سند أو مودع أو مشفق أو ملثاع ، والمعروف أن من يرحل غربيا يمضي وعنده حشرات ، يعظم الأسى عليه ، فما البال والحصار قائم ، والإبعاد عن الأهل والصحب جبرى .

لا أدري متى وعى أصلى حقيقة ما جرى ، أفي الليلة ذاتها أم التالية ،

ما ظنه تساقط حجارة أو بدء انهيار سقف ليس إلا تزول البرد ، وظهوره في مصر نادر يؤرخ به ، ومنذ تلك وحتى أوان تدويني هذا لم يتزل ولم يسمع به إنسان من أهل البركلهم ، اصطلمت كراته بالجدران ، بأبواب الزنازين الحديدية ، غير أن ما ضاعف الصوت وضخم الصدى .. سقوط الكريات فوق دوائر الصفيح التي تغطي فتحات التهوية . غير المألوف بشئ الرعب لانتفاء التجربة .

هكذا رأيت أصلي ، مرعوبا شأن الإنسان إزاء ما لم يحط به علما ، وقد عرفت النوم في أماكن شتى ، لكل موضع أصواته كما ألحت ، منها ما يسهل معرفته ، ومنها المهم الغامض الذي يستعصى على التفسير ، لم أر أصلي إلا مصغيا ، مضموبا ، الحق أتى ضقت منه ولم أرض عنه ، صحيح أنه لم يهن ولم يفش مكائمه ، صحيح أنه من الطبيعي في حال وحدته أن يقعي ، أن يللم أطرافه ، أن يضيق ما يشغله من مساحة ، أن يبكي حتى وهو في منأى عن جلاديه ، ولكنني لا أفهم اعتصامه بالصمت عند مواجهة أسريه ، فالعذاب واقع ، واقع ، والألم لا مهرب منه ، لماذا يصمت الإنسان إزاء ما يتق من وقوعه ؟.

أذكر مقام الضنا فأردد مرة أخرى ، لماذا رضى الجلد العجوز بحمل جثث أحفاده ؟ لماذا استجاب لقتله ؟ أظن أنهم سيقون عليه ؟ أظن أن الدقائق التي تسبق قتله ستمتد دهرا ، لماذا صمت جمال في مواجهة الضابط عندما سب أمه ؟ أختشى مضاعفة الضرب ، ولو .. لكن أثره سيندر ، أما الألم النفسي فلا يمحي ، يبقى في غور عميق ، دفين ، وهذا ما عانى منه وشقى به ، ثم انتقل ذلك إليّ ، لكنني لو رددت الإهانة بعد هذه السنوات كلها فهل يشقى الغليل ؟ لن يمحي هذا إلا شيء من أشياء .. أما الرد في عين الوقت فهو الشاق ، لن

أحيد عن قناعتي وخواطري بإمكان القصاص بعد طول مدة ، غير أنني أحاور النفس ضاربا المثل بما فعله إبراهيم ، وهو واحد من صحبه الذين سبقوه ، حدث أن ضابطا شابا أخضر العينين ، أجرد البشرة ، مليح التقاطيع ، اعتاد فتح الأبواب فجأة ليردعهم منتهاك هجعاتهم كذا التلصص على النيام العزل ، أو اصطناع اللطف في البداية مع إبداء الرقة في المحاوره ، ثم ينقض فجأة مسددا السباب أو الضرب بالعصا ، يحميه في تجواله دائما حارسان غليظان مظهرهما يصدع القلوب الجامدة ، وأحيانا يجرد من ألفت بهم المقادير ، يقيم كما ولدتهم أمهاتهم ، يضربهم على ما بين أفضاذهم ، لن أطيل وسأمضى متجاوزا عن ذكر الكثير فهذا مخجل .

ظهر يوم اقتحم زنزانه إبراهيم ، أمر بإخراجه ، وطلب منه أن يقول بصوت مرتفع «أنا امرأة» فأبى إبراهيم ذلك . عندئذ أشار إلى رجله ، فطرحوه أرضا ، قيدوا ساقيه ، لجلد باطن القدمين ، وقبل أن يهوى بعصاه ، قال إبراهيم هادئا :

«ماذا تريد مني ؟...» .

ثم جاوب نفسه :

«تعذبي .. إهانتى .. لا .. أنا سوف أريحك تماما ..» .

رفع رأسه عن الأرض ، هوى مصطدما بالحجارة العتيقة ، وكان صدى غربيا مفرعا ، في المرة الأولى فوجئ الضابط .. غير أنه قهقه ظنا منه أن في الأمر تهويشا غير أن المرة الثانية كان لها وجه أشد فصمت ، وفي الثالثة أصغى من في الزنازين إلى ما يجري ، صمتوا صمتا يفوق سكون وحدتهم ، حتى النائمين عن الوضع أرفهوا سمعهم ، حياة على وشك أن تمضى ، شؤم مخلق ، دان ، ينبئ بطبيعته حتى لمن هم خارج دائرة النظر ، مع ارتفاع الرأى تمهيدا

للهدئة الرابعة يصبح الضابط ملون العينين ، « حوشوه المجنون .. » .

انقضا ، رفعا مهقدا والدم غامق ، أيقنت خوف الضابط ، نزواته تتجاوز
خطا محمدا له ، وكل شيء هنا بقدر ، حتى كوب الماء الذى يتسلل به الحارس
عنه الفجر إلى الزنازين المثلل فيها من علقوا عرايا مجردين من كل شيء ، ممنوع
عنهم الطعام والماء ، مشخنين بجراح شتى ، لو أن جمال أقدم وأنى فعلا يشبه
ما فعله إبراهيم لرتق فتقا ومنع جزحا ، غير أنه كظم خوفا وخشية ، علمت هنا
أن الكتمان أورثه ما شيب سالفه ، بسببه طق أول بياض فى شعره ، كثيرا
ما حيره ذلك وتساءل عند النظر فى المرآة ، متى ولأى سبب ؟ أهى لىالى الوحدة
فى إقليم المنيا عندما نقلوه قسرا ؟ أهى لحظات غضب أبه وانصرافه طافشا ،
هاثما ، وخروجه للبحث عنه ؟ ولهذا أمر يطول شرحه ، أهى أوقات غامضة
يصعب تحديدها ، عكته خفية وأورثته شيئا ثم وهنا يصعب رصده الآن ؟ لظالما
فكر وقدر ، رغبة فى تعيين لحظة انسلاخ اللون الأبيض من الأسود ، فلما كان
الليل أصلا والنهار منفجر منه ، لذا كان الشيب تابعا .

ألا يولد الأطفال سود الشعر ومع مراحل السفر وتقدم العمر يبدأ التحول ،
أصل الألوان الأبيض ، والأسود وما عداها برازخ تولد من امتزاجها ، فيظهر
من ذلك الحمرة والخضرة والغبرة إلى غير ذلك من الألوان ، من هنا كان
الأسود كظلام الليل ، والليل ستر وغطاء ، فإذا جاء الصبح تكشف شمس
الحقيقة ما ستره الدجى ، ففوق الشيب انكشاف ، والبصر والفكر لا يدرك كنه
المكشوف عنها لذا لم يستطع أصلى التحديد ، ولأنى عابر ، ولأنى غير مستوطن ..
فقد أحطت علما ببعض وليس بكل .

وقفت على الشعيرات التى انكشفت بعد سماع العذاب .. وليل سقوط
البرد ، ولحظات وحشة الننى ، وهنا حديث يطول لو فصلته لخرجت عن

قصدي ، أما الآن فأقول : إن كتابه لم يرقى ، وحذره لم يرضني ، وصمته في مواجهة من سبه باعد ما بيني وبينه قدرا ليس بالهين ، مع التنبيه على أن موقفي هذا مخالف لما أنا مأمور به ومكلف ، إنما أنا مأمور بإطاعة الأفعال والتزام الجانب قدر الطاقة ، وقد أطلت ذكر ما عانيت ، وإن كان جل ما دونت لا يساوي إلا مقدار ما التقطه الطائر بمنقاره من البحر العميق .. فعندي من الكتاب كثير.

حدث في صباح خريف أن مررت بالقلعة ، لم يكن قد مضى على زمن طويل في هذا الكون بعد بدء معراج أصلي. رحلت أعابن مبانها ، تجولت في زواياها ، وألقيت النظر مرارا على مدخل السجن الجهم .. بعد فراغي من الطواف بظلال مسجد الناصر محمد بن قلاوون عليه الرحمة وطيب الهجعة ، خرجت منه وعندي مالا أقدر على ذكره وإلا انكشف بعض المستور وبان ما ينسب بالهوية ، مرة أخرى رمقت المدخل المؤدى إلى السجن ، لسنوات شغل أصلي بمحاولة تحديد موضعه من القلعة وأستدل بعلامات من فترة حبسه. منها موقع المتذنتين عند ذهابه وعودته من دورة المياه ، واتجاه الأصوات ، وقراءة التواريخ المثبتة الدالة ، غير أنه لم ير مدخله كما رأيت ، إذ جاءوا به في عتمة الليل من سجن طرة القديم. وعند مطلع الطريق المؤدى إلى جبل المقطم .. تطلع إلى صحبه ، إلى صبرى ، إلى عبدالرحمن ، إلى كمال ، إلى سيد ، وتبادل معهم حديثا غير منطوق ، ثم حوّل البصر إلى الطريق .. استوعب التفاصيل التي لا تلفت الانتباه في الأوقات العارية ، هذا المقهى ورواده ، وتلك البضاعة المصفوفة أمام البقالة ، رأى سائق نقل عجوزا يغطى رأسه بطاقيّة من الصوف ، رأى خلدشا عميقا في سور العربية ، وسيافور الخط الحديدي المهمل حولي ينسب بمروق قطار لن يجيء أبدا ، وضوء بعيد يلمع أعلى الجبل ، تساءل : هل سيقدر له أن يرى ما يراه مرة أخرى؟.

عندما أنزلوه في الضوء الكابى الذى يعتم المدخل الضيق ، وقف قريبا من ضابط الحراسة الذى أخرج خطابا رسميا دونت به الأسماء ، وتعليقات تنص وتشدد على نقلهم من طرة إلى معتقل القلعة تحت الحراسة المشددة .
مشددة؟! دارى ابتسامة وأخفى ضحكة ، الوقت ليلى ، أما زمنى أنا فهارى .
توقفت متطلعا وعندى من الفضول قدر عظيم ، مقدار من عمر أصلى قضى هنا ، فماذا تبقى منه وأين ولّى ذلك؟ لو يمت وجهى شطر اللامكان هل أبلغه ، إني مردد عين ما أقض مضجع أصلى قبل بدء معراجه ، واكتمال تأيه
كم تعاقبوا على هذه الزنزانة؟ كم قضوا فيها؟ وأى آلام تتر بها جدرانها الصفراوية ، الكنه مستهيم ، وما مضى انقضى ولم ينقض ، انتهى ولم ينته ،
فماذا يمكن توقعه؟ أرثى لى وأشفق علىّ ، أصلى لم يوجهه استرجاع الأيام العجاف ، أو إلغاء اسمه ، والصفع والركل ، وتجريده مما يغطى سواته ، أبدا ،
إنما ما عقد المرارة فى أغواره ، ظلال أصوات مجهولة المصدر ، وظلال رؤى ، وصوصة عصفور لم يره كان يجيء فى ميعاد معلوم .. ظهيرة كل يوم ويقف على باب الزنزانة الخارجى ، يؤنسه ثم يتخذ طريقه فى الفضاء سرايا ،
والمعلوم أن أقصى المنافى والحجوس ما قام فى قلب العمار ، وأصعب الوحيدة ما تمت واكتملت فى قلب الزحام . وحبس القلعة المقيت كان قريبا قصيا ،
سهل الوصول .. وعرا الاقتراب ، الطرقات مؤدية ، لكن حيلت دونه ، البيوت قريبة لكنها لا تتواصل معه ، فهو فى موقع الغرب النافر .
مسجد محمد على قريب مطل عليه بمئذنتين من أربع ، تجيء الرحلات المدرسية صباحا فتسرى حيوية فى الفراغ المحيط اللامرئى ، يتنادرن ، يرحون ،
عند انصرافهم تبعد ، تضمحل ، فيقع خواء وأشدّه ما يعقب الونسة ، كالفقد بعد غياب الإلف وقد يما قيل : ليس أطول من يوم الفراق ، الأبواب لا تؤدى

إلى معلوم إنما الأبواب هنا تؤدي إلى أبواب ، والفتح في الوقت عينه إغلاق
والقفل إلى قفل ، والقيد ينفي السراح ، والضيق يؤدي إلى انفراج ، ولكن هنا
المكان ينفي المكان ، فالزمان مندغم ، الأصوات تنقلب معانيها بمجرد وصولها إلى
فراغه ، تصبح مهمومة ، تشير ولا تدل ، تنبئ ولا تفسر ، تفصح عن جمع
وليس عن وتر ، كل صوت يحوى صداه ، أصل وظل معا ، لا يبرز بينها
فيغيان ، يطغى الحس الغروبي ويفيض . لكم أشعره ضجيجهم أنه بعيد ،
معزول ، محاصر ، هذه الأصداء المهمة من أشد ما نكل به ، كذا نداء تردد مرة
واحدة ، شلخص يدعو شخصا أو يتحداه أو يدعوهُ إلى نزال ما ، نداء بدد وحدة
عصر غميق ، وإغفاء كالإغماء ، مرة واحدة ، لم يتكرر ، كذا ضجيج مطلع
النهار ، تدفق العربات في طريق صلاح سالم القريب ، الأصوات لم تبدد وحدته
القسرية إنما حددت معالمها ، مع مجيء العصر تبتس اللحظات ، يثق من
استحالة حدوث شيء حتى صباح اليوم التالي .

مع مطلع النهار يسرى هسيس أمل .. فالضباط المحققون الآن في مكاتهم ،
والأوراق تتداولها الأيدي ، والافراج لا يتم إلا نهارا في الأغلب الأعم ،
التحقيق يجري ليلا ، كذا الترحيل من سجن إلى سجن ، أما العصر فما أهمده
وأثقله على الغريب ، المحاصر ، في معتقل طرة القريب من حدود الصحراء ، في
ساعة بعينها عند عمق الليل وبعد انتصافه بساعتين ، آخر قطار قادم من حلوان أو
متجه إليها ، يطلق صفيرا يضفي على الليل عمقا وبعدا بعد البعد وانقطاع صلة ،
تلك أصوات آلمته . لم يرتعب لاحتمال عودته ، إنما يرتجف لاحتمال تقييده
واصفائه إلى مشتملات الدنيا مرموزة في أصوات وشظايا أصداء ، إني مرجئ
حديثي عن الرؤى ، فن لا كشف له لا يثبت ولا يقدر ، إنما ذكرت بعضها من
بعض لا أريد أن أثقل ، فما أنا إلا ضيف ، والضيف ينبغي أن يبقى خفيفا فلا

يل مضيفه ، ولأني ضيف فأنا مرتحل ، غارب ، ولو أقت لما صحت لى الضيافة ، إنما سأصير أهلا ، وهذا عين الاستحالة عندى . أنا عابر ، ماض دائما وأبدا ، فالشوق ملازمنى ، والفقد من سيائى ، عند تأهبي للنقلة من طور إلى طور لمحت دليلى ، أقبلت نحوه ولكننى لاحظت أنه بمقدار اقترابى منه يكون ابتعاده عنى ، شغلنى ذلك ، غير أننى انتهت عندما نطق ..

« أبلك جوى تكتمه ؟ » .

أقول :

« عندى منك .. » .

متطلع هو ناحيتى لكنه ناء . ما أوسع الشقة ، كأن أصلى لم يعرفه ولم يشهد أيامه ، كأن ما يفصله عنه أمد مسحوق وليس سنين معدودة ، بصمت ولا أكف :

« ألم يحر ذلك فى زمانك ؟ .. » .

ثم أقول :

« ألم يؤد ذلك إلى زمن الانكسار ؟؟ » .

أشير بأصبعى إلى اللاجئة ، أرى فى عينيه عتابا ولوما ، يقول :

« ليس الأمر كما تظن .. » .

ثم يقول :

« إنه قديم وسيطول .. » .

أتأهب للمجادلة .. غير أنه يشير محذرا :

« انتبه .. فإعرض لك لن تلمحه ثانية أبدا .. » .

أرد إلى السطح فإذا بى غير مقيم .

« هذا ما كنتم به توعدون »

(قرآن كريم)

فضاء بلا حد ، وجهات صعب الوصول إلى بداياتها ، سماء تمت إلى زمن
انقضى ، أما الأرض وما عليها فن زمن مغاير ، أما الأم القاعدة أمام باب
الغرفة فتمضي في زمن ثالث يصعب على تحديده ، الملح أطراف شجرة باسقة ،
منمنمة ، تمتد إلى زمن سحيق أنأى من الأزمنة الأخرى الثلاثة ، غير أنني لم
أحط علما بالبعد ، صوب مستقبل أم إلى ماض ؟ كل فرع ينتهي بشمرة من نوع
مغاير لما انبثت بقية الفروع ، كل ورقة خضراء نضرة أو صفراء جافة تمت إلى
وقت مغاير . فكيف جرى الائتلاف ؟ وكيف اقترن البعيد بالقرب ؟ تتجاوز
الأزمة ، تتداخل ظلال من عصور مختلفة ، وهذا من أعجب رؤاى منذ بدء
سفرى وإتمام إقلاعى ، أما أنا فعندى زمنى ، أحتويه ومحتونى ، يبيلنى
وينشئنى ، أنا منه وهو منى ، بدأ معى وكان قبلى ، يندثر برحلى ويبقى بعدى ،
أنتبه إلى دليلى ، يقف عند نقطة من الفراغ أعلى منى ، كأنه يقف عند قة درج
غير مرئى ، أسأل بالنظر من بعيد ..

« أين أنت الآن ؟ » .

يجاوبنى بالنظر :

« محاصر .. » .

« أى حصار . فلکم حاصرت وحوصرت .. »

« حصار الحرب .. » .

« وماذا عنك ؟ » .

« آخر من يأكل ، وآخر من ينام ، وأول من يستيقظ .. »

يغيب صوته عنى مقدار لحظات ، ثم يجيئنى ..

« القصف شديد والمدد منقطع .. » .

أقول ملما :

« كان الأجدى أن تحكم الحصار على من عادوك وهم كثر .. » .

« لكنهم يقولون بقسوتى .. » .

« هذا صحيح ولكن على من اتبعوك .. » .

يقول وصوته واهن :

« هذا تقدير .. »

أكف حتى لا أحدد ولا أعين ، أرسو عند لحظة من أقدم اللحظات التي بقيت مصونة في وعى أصلى ، وقد عاينها في بدء أسفاره ليلة من ليالى الحقبة المندثرة ، أشعر بوجود دليلى في موضع لا أقدر على تحديده . أو رؤيته بإمكانية بصرى ، المدينة معتمة ، ليل الحرب يضح ، نجومه أغزر ، أما ضباب الهجرة فسَرمَدى غميق ، أكاد أشغل بما أنا فيه محاولا النفاذ إلى المغزى وتوسم علامة ، ما هى كينونتى وماهيتى ؟ كذا مقارنة السماء التي داومت التطلع إليها في زمنى الأول مجتهدا في تتبع نجومها وتقصى مصائر شهبها وتجديد مسارات رواجمها وتأثير بعضها في بعض ، هنا وجب تنبيه ، لم أكن علما بالنجوم في نشأتى الأولى ، لكننى كنت منشغلا بها ، ولأنتى ممنوع من التصريح لذا أكتنى بالتلميح ، فلاطو سرى في قرار مكين .

قال واحد من الأجلة .. كل من أخفى السر سرعان ما يفوز بمراة ، عندما تخفى الحبة في الأرض فإن سرها يجعل البستان مخضرا ، إذا لم يكن الذهب والفضة مخفين فكيف ينضجان في أغوار المناجم ، إذن .. اجتهدوا في فهم ما

أقول ، وتفحصوا ما أرمز إليه من إشارات ، ولا تظنوا بي السوء ، أعوذ بالله أن
أكون من الجاهلين المتعالمين ! .

من أجلها تركى القرار وخفضه
وتجشمى ما لم أكن أتجشم
ولقد كتمت غداة بانة حاجة
في الصدر لم يعلم لها متكلم

لا أعرف اسم النهار السابق ولا الغد اللاحق ، أصلى لم يع ذلك ، ولم
يحفظ بما يدلّه ، وأنا مقيد بعلومه حتى عن ذاته ، فبئس المصير ! ، إنه العام
الثامن والأربعون ، منه تبقت أول علامة في طريق سفره ومشقته ، والسفر هو
الظهور ، سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال لما فيه من تعب ،
وطريق أصلى وعمر ، قبل هذه اللحظة أحاطه غمام فكأنه لم يكن ولم يغشه ولم يمر
به ، لذلك كان دائم التطلع إلى ابنه وهو ابن عام أو عامين ، يقول لنفسه ، إن
ما يراه محمد الآن لن يبقى معه ، سينساه ، سيمحى منه ، سيتلاشى من رصيد
وعيه تماما ، فهو يعيشه ولا يعيشه .

في أول الطريق يكون الطفل متلقيا ، حتى إذا قطع في السفر مدى ، ربما
عامين أو ثلاثة فيستعيد شيئا أو ملمحا مما استقر عنده ، وكلما أوغل وبعُد ..
تزايد تراثه ، حتى إذا قرب تمامه ودنا اكتماله وقرب الحط انكفأ على قدميه ..
فيرى عندئذ ما لم يره من قبل لحظة وقوعه ، ويعلم ما لم يعلمه في الحين عينه .
إنها اللحظة الأنأى ، الأبعد ، هذا ظني ، الأب مستيقظ والأم قاعدة ، يبدو
أنها حامل ، لم أتحقق ، لم أتأكد ، طفل فوق السرير الحديدي أسود الطلاء ،

طفل واحد ، فقد رحل كمال ومن قبله خلف ، لما حسن العقبى يوم التناد ،
من ؟ إنه أنا من ناحية ، وأصلى من ناحية أخرى ، يقوم الأب بمنجها إلى
الباب ، يشد المزلاج الخشبي ، تقول : إلى أين يا أحمد ؟ تخالف خروجه إلى
السطح ، منذ أيام سمعت امرأة تحكى عن حادثة جرت بالعطوف ، إذ خرج
رجل حلاق إلى الشرفة بعد إطلاق صفارة الإنذار ، وفجأة شقت شظية ساخنة
طريقها إلى رقبته ، ذبحته من الوريد إلى الوريد ، ذبح الشاة ، أخطر ما في هذه
الغارات تلك الشظايا الضالة المندفعة كالمصير ، خطر يقرها منه ، ماذا كان
يمكنها أن تفعل بدونه في تلك الليالي العاصفة بالموت ؟ .

تستعيد الآن ليالي الحرب الكبرى ، عندما كان الألمان يغيرون كل ليلة على
مصر ، كان السكان يتزلون إلى الطوابق الأرضية ، يفتشون الأرض أمام
الغرفة ، في الظلام تحمك الأيدي مصادفة ، إحدى الليالي لجأ جماعة من بيت
قديم مجاور إلى الفناء ، اضطروا إلى فتح الباب للدخول بعض الجيران الأقربين إلى
الغرفة ، أم هددوا وابتها غير أن رجلا أو صبيبا - لا تدرى ولا تعرف كيف
دخل - اقترب منها هامسا « أنت عطية ؟ » ، ارتجفت خوفا ، « أحمد ..
أحمد » أجابها غير بعيد متسائلا مستفسرا ، غير أنها قالت ، « لا شيء .. لا
شيء » تخشى غضبه ، وقد يتطور الأمر إلى ما تكره وتبغض ، لذا كتمت
والكتمان طبع غلب عليها وطمع ، فكتم أخفت ، وأضمرت ، وصانت ، إذا
ناعت بحمل أو تعاطفت أثقالها ، ربما تبدو منها كلمة أو آهة أو إيماءة . لكن في
الأغلب الأعم نظرة دالة ، أعمق تعبيراً وأمضى تأثيراً .

عيناها اتصلتا بشفتيها دائما ، فنظرة العكارة يصحبها زم ، أما السرور فله
الانفراج والوسع ، صلة بين ممكن وواجب ، بين ضرورى ومحتمل ، غير أن ثمة
لحظات استعصت على فهم أصلى ، ولم يلق لها تفسيراً ، تضيق ملاحظها فجأة ،

تفضى في ندرة ، « إنى في ضيق » تخرج إلى الشرفة ، أو تقوم لتروح وتبجي ، تبدو وكأنها على وشك انهيار غرب ، يتطلع أصلى صامتا ، لا يلح ولا يحاول النفاذ ، يعرف أنها لن تفضى ولو بشذر ، ما الذى أقلقها ؟ ما الذى جعلها تنتفض فجأة ؟ هذا ما لن ألقى الإجابة عليه ، فقد أتمت رحيلها بعد معراج أصلى ، وقدر لى أن أعايشه وأشهده ، وهذا حديث له تفصيل وموضع . فكم من المكتآت ذهبت بصحبتها ولن تنكشف أبدا ، تلك كوة أغلقت ، ونبع اندثر ، ونسيم لن يهب أبدا . وأيام زالت ، فلها الرحمة ، وطيب المثوى ، وحسن العقبى إن كانت هناك عقبى ، وأطلب الرحمة بالأخص لصوتها لحظة لفظها كلمة « باولدى .. » ، فلم أشهد فى قديمى أو محدثى صوتا أوقى قدرة على تحمیل نقطة واحدة بشتى المعانى والعبر مثلها ، هذا مترسب فى خاطرى وفى دمی ، صعب شرحه ، غامض نبره ، فليس الذى يجرى من العين ماؤها ، ولكنها نفس تذوب وتقطر ، يثقلنى استعادة ملاحظها الهادئة ، تثير عندى أحاسيس شتى ، هى محل تكوين أصلى ، وأول موطن له ، وآخر محل آمن ، احتواه وضمه حتى سواه كائنا يسعى ، أخرج من الغرفة إلى السطح ، غير عابئ بالشظايا ، فأنا مضاف إلى هذه اللحظات ، لست منها .

يقف الأب أمام الحجرة ، سماء مزدحمة بالنجوم ، لم يرها هكذا أبدا حتى فى أيام هجائه بالحقول ، ومييته قرب الطريق الوعرة فى خلاء قفر ، تبدأ انفجارات متباعدة ، ينشطر ظلام الأفق ببرق لاهب ، صيحات من ناحية قصر الشوق تأمر بإطفاء الضوء ، يقولون إن الطيار يرى لهيب عود الثقاب ، الأب يتململ بتأثير غامض ، خفى ، ليس بتأثير الحرب ، يوشك على الصباح « من هنا ؟ » كأنه يصغى بشكل غامض إلى صدی وجودى ونفاذى إلى هذا الزمن ، أضواء الكشافات تشق سواد الليل كنصال كونية ، تسمح الظلمة إذ تمر

بها ، خلال بريقها تبدو أطراف من المدينة ، ملمومة ، متضامة ، متحفزة ،
متأهبة لصد أذى ، تتجمع حزم الضوء المستطيلة عند نقطة بعينها ، هدير يعقبه
آخر ، ضوء ثم صوت ، برق بعده رعد ، يعلو صوت من الحارة آمرًا سكان
الطوابق العليا بالتزول ، المكوث خطر .

يرجع الأب إلى الغرفة ، يوقن أن غريبا في السطح ، ربما أنس وربما روح
هائمة ، لا يفصح خوفا على امرأته الحامل ، الولد مستيقظ ، منكمش بجوار
أمه ، لا يبكي ، هذا الصبي ما هو إلاي ، أنا ، أتطلع إليه في الغبشة ، أى
علاقة بين هذه الكينونة وبنى ؟ ، بين الملامح التي أراها وتلك التي ستغير
وتتبدل ، بين هذا الحيز المكاني الذي يشغله الآن ، والأماكن التي سيرحل إليها
ويشغلها ويطأها بقدميه هاتين ؟ .

بين الصور التي تشغل ذهنه الآن هو المتلقى لا غير وبين الأفكار الهواجم
والبواهد والواردات التي ستقلل سكينته ؟ ما سر العلاقة ؟ ما الفرق بين الإنسان
في محط السفر هذا والمحط الذي يليه ونقطة التوقف النهائية ولحظة الوصول التي
تندم الأمكنة والأزمنة بعدها ؟ هل يقع التغير والتبدل ، أم أنه الإنسان هو هو
عينه ؟ إني من الحيرة والله لفي حيرة ، فتي ألقى الإجابة ؟

يتردد نداء « المهجرسى » ، إنه باشجاويش في المديرية ، يحض الأب على
التزول ، تنقطع خواطري ويسكن عندئذ ميدى ، أنتبه حتى لا يفوتني من الأمر
شيء ، الليلة ليست مثل الليالي السابقة ، بيت انهار في العطوف ، وآخر
اشتعلت فيه النيران قرب الكفر ، الخطر قريب ، البيت كله عند أحمد عمر ،
لو أن الأمر يحض الأب لما نزل درجة واحدة ، ألم يمنع ابنه عمر من الصعود إلى
السطح لنشر الأبسطة القديمة في الشمس ؟ صحيح أن صلحا تم فيما بعد ،
عندما توسط بينهما حسن أفندى . تساءل ضاحكا : ألا تعرف أن أحمد عمر

من طهطا ؟ فأقسم الأب أنه لا يعلم ولا يدري ، من أى بيت فى طهطا ، قال أحمد عمر إيه من بيت الذهبى ، قال الأب ، أتعرف فلانا ؟ فيقول الرجل نعم أعرفه ، عندئذ يذكر الأب طرفا من السيرة ، بمن تزوج من أنجب حتى تعجب أحمد عمر وقال إن الغيطانى يعرف عائلتى أحسن منى ، صحيح أن الود اتصل ، ولكنه لم يقبل بصعود أحد إلى السطح فكيف يتزل الآن ويدخل شقته مع امرأته وابنه ليحتموا داخلها ؟ الهجرسى يلح ، الأمر خطر ، الهجرسى عنده ولدان ، شافى وشعراوى ، هما الآن يجاهدان متطوعين فى فلسطين . إنه عالم بمخاطر هذه الغارات وأهوالها ..

« لا بد من التزول .. » .

ينظر إلى جمال ، إلى ..

« هل أحمله ؟ » .

تقول الأم :

« إنه .. يقدر على المشى .. » .

لحظة تجاوزهم الباب ، بالضبط تلك اللحظة ، لحظة رؤيته النجوم والأضواء الكاشفة ، لحظة لسع البرد للوجنتين ، وسماع صفارات نائية منبعثة من أماكن شتى بالمدينة ، ورنين جرس سرعان ما كف ، فيا هذه الموجودات من عابرة ومقيمة ، قدر لك أن تبقى حية فى هذه الذاكرة التى سنطفئ عند حد بعينه ، قدر لك أن تكونى أول وعيه عندما يتذكر قديمة ، أما ما سبقك فتوارى ، اندثر داخله ، فكيف حاله لو وعى وأدرك أنها ستبقى معه أبدا ، وأنه سوف يستعيدهما فى بقاع شتى ، وأزمنة مختلفة ، لكن أتى له ذلك .. خلق الإنسان جهولا ، وإنما العلم كسبي ، حتى ما أظنه باقيا لا يبقى ، إنما تومض اللحظة عند استعادتها لا غير ، ثم تنطفى . ويوما ما ستعم الذاكرة ،

تنطفئ ، فأى الصور الأخيرة ستراعى قبل الإغاضة الكبرى ؟ أى اللحظات
أى ؟ .

أتبع الناظرين . أراهم فى شقة أحمد عمر ، إنها المرة الأولى التى يشهد فيها
أصلى مسكنا من داخله فى هذا البيت ، إلى اليمين غرفة فسيحة خصصت
للنساء . أما الصلاة فالرجال يصطفون حولها قعودا ، تبدو الوجوه نائية بملاحمها
فى ضوء المصباح الذى غطى بورق أزرق شفاف ، أصلى يؤثر الانضمام إلى
الرجال ، يلتصق بالأب ، يصغى إلى أحاديث شتى ، تتداخل مخارج
الحروف ، تتوه الجلسة فى أخرى ، أرى ليالى عدة فى حيز واحد ، يتحدث
المجربى عن ولديه .. شعراوى لم تصل أخبار منه ، أما شافعى فأرسل خطابا ،
إنه فى الجدل ، يخبر عن دبابه اسمها الثمر ، ومدفع يشطرها نصفين ، وعن شبان
عرب تفند ذخيرتهم فيلقون أجسادهم على الحديد المدجج ، ونساء اليهود
يحاربن كالرجال ، أطرف بعينى ، هذه آرائك مفروشة بقماش ملون ، رائحة
مبيد حشرى ، الباب المؤدى إلى الشرفة مغلق ، مسدلة ستائره ، لكم أتمنى
الخروج إلى الشرفة ، أرى الليل ، السماء الملتهبة ، والمدينة التى تتخفى
صفارات الأمان ، طويلة ، ممتدة ، مع أن الأمان فى السفر قليل والمخاطر
غالبية ، تتبدل المرثيات ، أوقن أننى مقبل على أمر سيثير دهشتى ويزلزل ما أيقنت
منه دهرا ، أرى امرأة بدينة . لا تساعدننى الرؤى وطبيعة الضوء على التيقن من
ملاحمها ، إنها مريضة ، تلازم فراشها ، والأم تزورها ، تصحب أصلى معها ،
أتوقف ، أدقق ، من أى منظور أتطلع إلى هذا الرقاد ؟ هل أنا واقف .. هل أنا
قاعد .. هل أنا محمول ؟ لم أدر . من أى زاوية أنظر ؟ لم أحط علما ، هنا
أتوقف فقد لزم التنبيه ، ثم التعديل ، إذ عاش أصلى على يقين أن أول الصور
الباقية فى ذهنه ، أول ما لم يدركه المحو ، أول ما استعصى على التوارى ، تلك

اللحظة التي أفضت فيها وتكرر ذكرها ، لحظة خروجه بصحبة أبيه وأمه ، ليلة هذه الغارة ، لكن مهلا ، إن ما تكشف لي مغاير لما استقر عليه وعيه منذ أمد ، لماذا؟ لأن هذه المريضة الراقدة هي نعيمة ، امرأة ييومي الحلاق ، المريضة ، صاحبة أم هدهد ، إنها تقطن شقة الطابق الثالث التي سكنها المهجرسي وأولاده بعدها ، أما هي فانتقلت إلى بيت آخر في ميدان بيت القاضي ، لم تكن نعيمة من سكان البيت في ليالي الحرب من أجل فلسطين ، إذن .. ما موقع هذه اللحظة؟ من أي جهة تطلع أصلى إلى المريضة؟ كم عمره وقتئذ؟ أم أن الرؤيا نتاج أحاديث جرت على مسمع منه ومرأى؟ لا ألقى الجواب ، تعز العلامات وتندر الإشارات عند هذه النقطة من الطريق ، لماذا تبقى لحظة دون أخرى؟. ما طبيعة العناصر التي أبقت هذه حية ، وجبت ماعداها؟ أتكنم في التلقي؟ أم في المصدر ، أم ترتبط بمحدود الامكان الإنساني؟ أكاد أضل ، خاصة أن المعالم منظمسة ، لكم أنوء بعجزى وهمى إذ يغمض الأمر ويعسر ، لكم كنت في وجودى العتيق أكثر قدرة ، حتى دليل غائب عني ، عزيز المشاهدة ولولا أنى مأمور مكلف لانصرفت وما أتممت .

وأذكر أيام الحمى ثم أتثنى
على كبدي خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجه
عليك ولكن خل عينيك تدمعا

عند هذا الحد لاح ما يخفف عني ، ويطرى قلبي ، أليس اليسر يعقب العسر ، وبعد الليل انبلاج فجر؟ ، والتخفيف عني يكون بظهور امرأة ، إما في دائرة بصرى ، أو في أيامى ، هكذا رأيت بنية باسقة ، لوجودها رحيق وأزيز ،

أدرك أنها ظهرت لمؤانستي وإن كانت لا تخصني ، رأيتها من موقع اللحظة المنشرة فرغبتها وأججت عندي شهوة مندثرة ، فأحيت أرضاً من بعد جذب فانتعش أمرى ، كنت عند العام الثامن والأربعين ، هذا موقعي في السفر حيث اللحظة التي أطلت المكث عندها ، لم تكن قد ولدت بعد ، وهذا غريب .. غير أن ما عجل ظهورها ضيق وحيرتي ، خاصة أنني ما زلت في أول المسعى ، وموقع ذلك في الترتيب بعيد ، لكن عجل بظهورها للتخفيف ، وهذا من مظاهر اللين والرحمة بي ، هاهي ذى تمثل أمامي ، منفجرة الحضور ، قبل أن تولد ، قبل أن تتكون في رحم أمها ، فكأنني أشتى العدم ، وأعشق المحال ، ولكن هذا ما تقرر لي ، وقد حاولت التقريب جهد الطاقة ، فن لم يدرك ومن لم يفهم فالذنب ذنبه لا ذنبي ..

﴿ وأما من جاعك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهي ﴾

(قرآن كريم)

.. ها هو ذا أصلي ، أراه مكتملاً ، يقف في مطار بأرض غربية ، يتحدث إلى امرأة عجوز تتكلم اللسان العربي بصعوبة ، إلى جوارها يقف رجل أحمر الشعر يمسك قبعته بين يديه ، يوميئ برأسه وإن بدا عليه أنه يفكر في شيء ما ، مخالف ، مغاير لما يدور حوله الحديث ، أحرار ، ما العلاقة بين وجود أصلي في هذا المكان وبين البنية الهيفاء التي رأيت من جمالها بشارة وقبسا ، غير أن قلقي لم يعجل أمراً ، فكل شيء يمضي بقدر ، أرى البعض يمشي ، والبعض يقعد ، شابة تقرأ كتاباً في لغة لا ألقه منها حرفاً . وبائعة جميلة ترتدي ثوباً بنا قائماً تقف خلف صوان عرض نظيف ، به أكواب

عصير ، وأطباق الطعام الجاهز السريع ، وقطع حلوى ، ورائحة طيبة منبثة في فضاء المكان ، أسمع صوتا بلسان غير مبين يتردد عبر مكبر الصوت ، فيتأهب قوم كانوا جالسين ، إذن .. هذا تنبيه بإقلاع وشيك ، أكاد أشرد ، غير أن هاتفا خفيا يردني إلى أصلى .. أرى عينيه تتطلعان ونظره مستفرا ، أتبعه فأراها هي .. هي ، القامة الاسبانية والشعر الصفصافي المنسدل يوطر الملامح ويحدددها ، أراها الآن أوضح وأقرب ، تتلفت حولها ، ثم تحسم أمرها فتجلس في مواجهته تماما ، وعندما تطلعت إليه نفذ وجودها إليه ، فامتزج عبرها بشنايه ، وتغلغت في أعضائه فانفضض ميله وتفتحت عنده طرائق ، واتقدت رغبته ، وتكأكات الأمنيات على خواطره .

يعاود النظر فتتعاتق عيونها ، يتأكد من وقوع الأمر ، يود لو أنه بمفرده ، لو انصرف الجالسون معه ، تقوم واقفة فينفض معها صدى قلبه ، ينتفض داخله ومظهره ثابت ، يتحرك ما في أعماقه ويسكن خارجه ، فأى جهد ، أى عناء ، تغيب تاركة حقيبتها فوق المقعد الجلدي الوثير الذي مازال يحتفظ بحمارة ملمسها ، لا يطول غيابها ، ترجع فكأنه يراها من جديد ، ينهر بطولها المتناسق ، قامة دالة مفصلة ، قدت من استواء واستدارة ، هذا السريان الخفي ، ينبعث من جسدها فكأنها تمشي فوق الماء ولا تبتل ، أو تخطو في الفراغ ولا تطأ اليابسة ، كأن داخلها وتر مشدود يوشك أن يرمى ولكنه لا يرمى : كأنها تطاول شيئا خفيا يخلق على مقربة ، تجتهد في الابتعاد عن جذرها إلى أطراف لا يمكن رصدها ، دعاه صحبه إلى صالة الطعام .. تبعهم صاغرا وعنده تشب حسرة ، غير أنها بعد لحظات ولجت فراغ المطعم ، واجهته من المنضدة المقابلة ، أيقن أن في الأمر قدرا وتدبيرا ، وأن في أفق الجهول بشارة ، اتصل النظر ، وعبر ما عبر ، فما أعجب الأمر الخلقى وأندره ، فيه ما

يصعب الإفصاح عنه ، أو تفسيره .

بنظراتها حركت أوضاعا ، وبعثت عنده خدرا ، وأورقت فيه المنى ، فما أحلى ، وما أجمل وجود الأني في هذا الكون ، بها يبدأ الكمال ، وتستمر الديمومة ، ويقع اللطف ، وتتشي الراحة ، وتتولد الطاقة ، وينفجر الانبعاث ، ألم يقل الهادي الأكبر الشيخ محيي الدين أنها محل التكوين ، بقدر تأجج رغبة أصلى واتقادها فإن اشتعالها يصاحبه حزن ، لا يغيب عنه أبدا ، إن ما بدأ سينتهي ، قد تصرف بعد لحظات ، حتى اللحظة لا يدري عن وجهتها شيئا ، غير أن أساه هذا لا يتعلق بهذه البنية تحديدا إنما هو طبع جبل عليه ، وعنصر من خصائصه ، لحظة تقيله الثغر العذب الريان ، وإيلاج لسانه متحسسا فم المحبوبة من باطن ، إنما يفكر في عظام الجمجمة الخاوية التي سيؤول إليها هذا المصير ، والعدم الذي سيخلف الروتق الدافق ، وعظام الساعد الملتف المعانق والترقوتين خلف النهدين ، والحوض الذي يكتمل عنده الاتحاد ويتم إيلاج الكل في الكل ، وهيكل هذا الخصر إذ يعثر عليه يوما بعيدا منفصلا عن تاريخه الحى ، وكل ما مر به ، وما تردد عبره ، وما شدا حوله حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ، أما الزمن فغالبا مبدد ، مهلك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وعندما أوشك أصلى على الفهم وإدراك الكنه .. تبدد .. ونقى إلى أرجاء الكون ، لا تجتمع منه ذرتان في موضع واحد ، ورثت عنه كافة عذابات ، هو الذى لم يستكن أبدا ، ولم يرتج باله أبدا ، ولو قر قراره لحظة لظن أنه الأبد الصامت .

ها هو ذا منعقد الجبين ، ساهم ، لا يدري من بقره ، من يفكر فيه ، ترى .. من هى تلك الحسناء الباسقة التى تنأى بعدا عن الثرى منبتها

ومشاها؟ ، عند كل خطوة منها. تبدو كأنها ستشب ، ستقلع ، تمضي عبر الفراغ كطير نادر ، فما لب القصة ؟ .

يرتفع نداؤه .. اقترب وقت الرحيل وتحدد ، يودع رفاقه ، يضطر إلى التحول بعينه عنها ، تغيب عنه ، تشب عنده حسرات ، يتجه بطيئا ، متقلبا صوب باب الخروج ، طاوور ممتد ، بوابات التفتيش منتصبة ، أين؟ لا يراها ، تعبر العربة ساحة المطار ، الممرات ممتدة . لماذا تبدو الأرض هنا كأنها على عتبة السماء مباشرة؟ ، لماذا ينأى الأفق بعد غيابها عن بصره ، تتوقف العربة .. يخلق .

تقف عند عتبة السلم .

تنتظر دورها في الصعود ، تقصد البلد الذي يسعى إليه ، هي بعينها ، تستدير قليلا فتواجهه وعندها ابتسامة ، تقف بكينونتها الفارحة .. كالحقائق الأزلية ، كالمشرق والمغرب ، لا أقول كالشروق أو الغروب لأنها غير ثابتين ، غير دائمين ، فلها أجل ، يبصرها بالتوالي ، مرة غير مصدق ، فلكثرة ما رغب ولم ينل ، لطول ما تمنى ولم يصل ، ولشدة الإخفاق الذي أصبح تراثا مكتملا .

لم يتصور قط أن الأمور ستمضي هكذا ، طبيعة ، هيئة ، تلتفت ، يلتقي بها بالنظر ، خلصة فيها الاستفسار الأتم ، وغمامات بعيدة مسكونة بالطل والوعد بغيث منهر ، ستضمها الطائرة معا ، غير أن مخاوف تتجدد ، في أى مكان سيكون مستقرها ومرساها ، ستشغل أى حيز ، ستجلس إلى جوار من؟ ستسبقه إلى الدخول ، هل سيجد المقعد المجاور خاليا؟ كيف يمكنه الاقتراب منها؟ غير أن جراءة تواتيه لا يعرفها في أرض موطنه ، وانى لمسائل ، لماذا لا تبدد حواجه الحفية إلا في أرض غربة؟ لماذا لا يتحرك إلا في أرض غربية

ودار سفر . مع أن الغريب ضعيف ، ربما لأنه ناء ، قصى عن البنية المعتادة . والستارة القمعية والعيون التي تعرفه ؟ .

إنه يلج الطائرة وأمره في ثبات وحاله مترقب ، يقطع الممر الضيق بين المقاعد ، متمهلا ، محدقا ، متجاهلا المقاعد الخالية المتاحة له الجلوس فيها ، ها هي ذى إلى جوار النافذة المستديرة ، تضع حقيبتها فوق المقعد المجاور ، لتمنع جلوس أى شخص آخر . هذا جلي إذ تتطلع مرحة ، مبتسمة ، يومى ، فتومى ، يحبها تحية من كتب له وقدر عليه أن يقابلها منذ مولدها ، تحية القادم من بعد سحق لبتقاطع وقته بوقتها ، وفي الحيز المحدد ليلتقيا ويتجاوزا ، كل شيء بقدر .

اعلموا أن اللقاء أثناء السفر له خصوصية لأن في الأمر قدرا من الغربة . إذ أن الغرب للغريب معاضد ، وعند الانتقال تدنو الأخطار ويمكن اللامتوقع ، المجهول ، خاصة إذا أسرعت الوسيلة وضاعت المساحة ، يقول القائل لنفسه : ربما ألقى حتى كذا جارى الذى لا أعرفه ، فيبدأ عندئذ الاقتراب ، ويدنو الفرد من الفرد .

أول ما وصله منها رائحتها ، انبعاث وجودها ، عبيرها الأنثوى ، إشاراتها الخفية إلى العالم الخارجى ، لحظة استنشاقه لها بقيت عنده حتى بدء معراجه ، وذهاب مدته ، ثم انتقلت عندى ، لكل أنثى أريجها ، اعتاد الاحتفاظ فى خزائنه حتى إذا انقضى العهد وتمت العلاقة استعادها مرات ومرات ، لا تن مع مضى المدة ، ولا تحب رائحة أخرى ، وفى الأغلب الأعم تكون مفتوح الذكري إلى طرائق وسبل لا حصر لها .

يمد يده ، تلتقى أصابعه القادمة من بعيد بأصابعها ، يسرى إليها وتسرى إليه فيخفق قلبه ويدب عنده انتشاء ، لم ينش ظهور أمره ، لم ينجل ، تقرب

وجها منه ، تشير إلى صدرها ، تقول بلسان عربي غير مبين : « أنا » ، توقف ، لم تكلم ، تفتح حقيبتها ، تخرج دفترا صغيرا ، بنى اللون ، لا مذهب الحواف ، تقلب صفحات ، تشير إلى سطر يحمل اسما وعنوانا ورقم هاتف ، تقول بفرنسية : « صاحبي » ، لا تعرف من الإنجليزية التي يلم بجانب منها إلا كلمات معدودات ، أما حصيلتها من العربية فنادرة ، علمها صاحبها أسماء الأعضاء الجنسية ومواضع الشهرة في اللغة الدارجة .

في الطائرة عرف أنها تقصد البلد الذي يسافر إليه في أجازة مدتها أربعة أيام ، تلك عين المدة التي سيقضيها ، لن تزيد أو تنقص ، عندما جاءت المضيقة بالطعام قدم إليها الصينية المغطاة بورق شفاف ، ساعدها في ترتيب الملقحة والسهكين ، يبدى ودا ، يظهر عناية ، تقول ممتنة : « شكرا » . لم ينظر إليها أثناء تناولها الشطائر ، كما خشى أن تبدر منه علامة نهم غير مستحبة .. فراح يقضم قطعاً صغيرة يمضغها بتأن ، يجتلس النظر إلى من يمكن لهم رؤيته . هل يرقبه أحد؟ هل ينظر إليه أحد؟ أبدا ، الكل لاه .

تطلع عبر النافذة ، غيوم وكون رمادي ، تنقلص ملاحظها ، تقول ما يعنى رداءة الطقس ، هكذا قدر ، وحتى إقلاع أصلى من فاس المباركة لم يدر ولم يقدر على إدراك كيف اتصل حوارهما رغم شحة اللفظ ، وندرة اللغة ، لو طلب منه استعادة اللحظات بعد انقضائها وشرح هوية التواصل لما استطاع . ولكل أمره .

إسمها الزياييث : تعمل في متجر يبيع الأدوات الكهربائية ، على وشك التخرج في إحدى مدارس اللغة ، تنوى الالتحاق بمكتب للسياحة ، حيث الوضعية أفضل ، إنها من الريف ، أمها تعيش في قرية صغيرة يمر بها نهر صغير صافية مياهه ، تشى بما يستقر في قاعه من حصى ، القرية قرب الحدود

الجنوبية لكنها جاءت إلى العاصمة تستأجر غرفة صغيرة ، ضيقة جدا مع امرأة عجوز ، تدخر مالا كل سنة لترحل إلى بلد غريب ، إنها تقصد هذا البلد أول مرة ، لا تعرف صاحبا أو صاحبة هناك ، أما جمال فاض للمشاركة في مؤتمر ، البعض ينتظره في المطار ، أحدهم يرفع لافتة كتب عليها اسمه ، يتقدم نحوه مبتسما غير غافل عن موضعها في الطابور المصطف أمام مكتب الجوازات ، يقدم جواز سفره . إلى مستقبله ، يسأله عن محل إقامته ، يطلب منه التمهّل لحظة ، يخط عنوان الفندق وعنوانه ، يفترقان ، كل إلى سبيله .

طوال ليله الأول يتساءل ، هل سيراه مرة أخرى ؟ لو أنه في إجازة لما فارقتها غير أنه اضطر ، عندما أغفى ، أثناء اجتيازه البرزخ الفاصل بين اليقظة والنوم ، استعاد رآحتها ، وحضورها الهامس ، وملمس شعرها السيلك الناعم المنسدل ، عندما مال عليها وفكر أن يلثم وجنتها . تردد ، ليه فعل ، غمره حضورها الأنثوى فبدد تعبها وانتزع من تحوم النوم إلى أنون الرغبة واليقظة .

في وحدته هذه ، حام حولها ، جردها ، قبلها ، مرغ رأسه على نهدبها ، حاد بها ، ضمها وهي نائية حتى كفى ذاته بذاته ، هذا لم يرضنى ، لم أتقبله منه ، لم يكفنى ، وهنا دهشت لما وقفت على المرات التي اعتصر فيها خياله وأرهقه مستدعيًا سابقين عاريتين أو مطلع فخذين المحسر عنها ثوب ، أو مرأى جارة شابة ناهدة الصدر . عصر كل يوم تخرج إلى النافذة ، تنحنى مطلة ، ذراعاها سحيتان ، ومفرق نهدبها باد ، ثوبها يتوارى في مفرق ردفها ، فيتحدد الأمر وتبرز التقاسيم ، يشعل هذا فيه حمى ويبعث هذيانا ، بناجيبها عبر النافذة بداية بالكلام الرقيق ثم يثنى بما يمكن التفوه به عند المضاجعة ، حتى أنه ليخور ويزوم ويطلق صرخات بدائية وحتى تقييدى هذا لم تعلم الجارة بما فعله بها ، كان إذا يلقاها في الطريق يومئ محبيا فتبادلته ، ضقت بذلك ، تراث طويل من نكح اليد ، وارضاء الذات بالذات ،

وعندما ضاجع أول انثى بعد الثانية والعشرين لم تكن تخصه ، إنما أجرت فرجها وأحضانها لقاء قدر معلوم !. أتعجب من ظروف تؤدي إلى هدر الإمكانيات ، وتؤدي إلى فساد البنية .

في نشأتى الأولى لم أعرف هذا الحرمان والتصحّر ، وبرغم سخطى ، إلا أننى أشققت على أصلى البائس ، ورثيت لضياح عمره الغض بدون ارتواء ، اطلعت على ليال عدة لا حصر لها . يغمض فيها عينيه ودماغه كوعاء لماء يغلى ، والرؤى الشهوانية تعصف به وتبليه ، كأنه ارتد إلى أيامه النائية تلك في هذه الليلة ، لا أدرى كيف نام ؟ ، لكننى رأيت لحظة استيقاظه ، يفتح النافذة ، إنه قريب من الطريق ، الأرصفة رمادية ، المتزل المقابل مغلق النوافذ ، ثلاث شجرات .. لخصرة أوراقها يريق وزهء ، امرأة شابة تمشى مسرعة ، تميل إلى أمام ، لسبب ما ، ربما يكمن في لون الضوء ، في طريقة مشى المرأة ، ربما بتأثير الشجرات ، أو الستائر المسدلة خلف النوافذ الزجاجية . لسبب يستعصى على الإدراك ، فاجأته وحده وأدرك بجدّة أنه غريب ، مرقت فتاة أخرى تضم كتباً ، من ؟ من أين جاءت ؟ إلى أين مقصدها ؟ لن تقع عيناه عليها مرة أخرى ، هذا مؤكد . إنه يتساءل - وإبنى قلق معه - هل ستجىء ؟ هل ستبقى ؟ .

ها هو ذا في مطعم الفندق ، يجلس إلى ثلاثة من صحبه سبقوه في السفر ، يقضم كعكة مستديرة ، من المدخل الرئيسى للقاعة تهل ، تبدو ، تجىء ، تسرى غير المناصد إليه ، صوبه مباشرة كأنها تعرف موقعه ، يعتذر لصحبه ، يقول أحدهم وهو عجوز أشيب « مرحى بالشباب » ، يسألها : « هل تناولت إفتارها ؟ » . تنق ، تلفظ « لا » كالشكوى ، إذ فرغا من الشاى بالحليب ، انصرفا ، خط اعتذارا ، لن يحضر الجلسة الافتتاحية

ليحدث ما يحدث ، أعجبني منه ذلك ، يمضى بجوارها ، أولى خطواته في العاصمة التي كادت تمحى في الحرب العالمية ، الحرب التي ولد ليلة توقفها ، أول أيام السلام ، وإن خلت حياته منه ، عرف التاريخ والمصادقة على حين فجأة .

ولذلك قصة

إذ اعتاد التردد على متجر قريب من البيت يبيع الورق القديم ، صاحبه جنوبي من قرية مجاورة لجهينة ، يقلب الصحف والمجلات القديمة ، أحيانا يعثر على ثمين الكتب مقابل قروش زهيدة ، في إحدى المرات رأى عددا من صحيفة الأهرام ، عددا نحيفا من أربع صفحات ، استسلام ألمانيا وانتهاء الحرب في أوروبا ، في صدر الصفحة رسم لامرأة تمسك سيفاً بيد وغصنا للزيتون بيد أخرى ، وصورة لجنرال ألماني يوقع وثيقة في مدرسة مهجورة قيل إنها بنيت من طوب أحمر اللون ، التاريخ ، التاسع من مايو عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ، سألت الأم : هل ولدت يوم الأربعاء ؟ قالت : في الفجر

فيما بعد تساءل : لماذا معظم حالات الولادة فجرا ، كذا الموت . احتفظ بالعدد سنوات طويلا ، فقد منه ولم يدر أين ؟ ، إنه بحث الخطى بجوارها ، تبدو عليمة بالمدينة على الرغم أنها رحلتها الأولى ، ينظر إلى المباني متقاربة العمر ، مدينة بُنيت بعد دمار ، قامت عماراتها وشقت طرقاتها في زمن واحد ، كيف كانت تبدو أثناء الغارات ، وعند الاجتياح ، كيف حالها صبيحة يوم مولده ؟ ..

عند ناصية رأى لوحة سوداء ، عليها أسماء بالقلم الغريب ، أمامها باقة زهور نضرة ، لا يخلو شارع من لوحة مماثلة ، يتوقف ، تنظر إليه دهشة ،

يتطلع إلى الأسماء ، التاريخ يعرفه ، قبل مولده بعامين ، يستغرقه الأمر وهذا عجيب ، فكأن خياله لم يلتب بمرأى من تقف الآن ، يتبها إليها ، يتسم ، يرفع يدها إلى شفثيه ، يقبل شفثيا الورديتين فيتمكن من رأتحتها وملمس ضواحيها ، يتحسس شعرها برقة مبديا الحنان ، بينا الرغبة تشب عنده وثيدة ، في عربة الأجرة أبرزت عنوانا ، استأجرت غرفة عند عائلة ، هنا أرخص من فندق ، تبسم ربة البيت ، بدينة إلى حد ما ، ثوبها أزرق ، لا يفهم لغتها ، غير أن ملاحظتها تفيض بالود ، مسكن غير فسيح ، ثلاث حجرات لا غير ، الطابق أرضي ، عبر النافذة يرى ساحة فسيحة تمتد بين أربعة بيوت ضخمة ، طفلان يجلسان على درج عند الناحية الأخرى ، تومئ ربة البيت ، تغلق الباب ، إنها الآن منفردان ، متواجهان يقتربان فيدنو كوكب من كوكب ، تصارع الجاذبيتان ، تتسارع أنفاسه ، تمسك طرف قيصها تروم قلعه ، غير أنه يمسك يديها ، فلتكف ، بيديه هو ، على مهل ، ليس أعظم لذة من البداية ، بداية السفر ، بداية الحب ، بداية الأمر .. أى أمر .

لم ينس قط لحظة تلاقى جسديهما ، إغماضها العينين ، ضمها شفثيا وإغلاقتها منافذها لحظة أسر كل منها للآخر ، تفجر البداية من سحيق الجرة ، يتجاوزان أفلاكا لم ترصد ، ويلسعان شهباً ، يستقران قدرا لا يمكن تحديده في روض منمنم ، عندما دنت من الذرى ، زلزل زلزالها ، بدأ ارتجافها ، منها انبعثت دوامتها ، فكانت هي المركز ومحيط الدائرة والقرار المكين ، شرقت وغربت في نفس الاتجاه ، طلعت ونزلت في حركة واحدة فتخفت من أحالها ورمت أنقالها ، محققة لحظة الدمج الإنسانية ، أدتهه ذلك فنظر ، فحذق ، فتمكن ، فأحاط بها من كافة جهاتها . هذا ما حيرني منه .

في قمة نشوته لا يتشى ، إنما يعي بحدة ، لا يغيب ، إنما يحضر ، هنا تذكر بنية فنية لا تزال بعد في أول طريق التجربة ، عرفها زمانا بعينه وكأن لها عنده شأن ، بمجرد ملامسة مشارف عالمها انتابها ما يشبه الفواق ، تتابع خروج أنفاسها في شهقات سريعة ، متلاحقة حتى ظن بالأمر سوءا ، وعندما فتحت عينها حدثت فيه : كان مرتكزا إلى ركبتيه مدقعا بصره في ملاحظها ، متفحصا ذروتها ، متعته في إدراكه أنه فاعل ذلك ، للحظة بدت صامتا كأنها فوجئت به ، ثم تغيرت ملاحظها ، انقلبت إلى خوف ثم رعب ، صرخت مولية وجهها بعيدا عنه « ماما .. ياماما » ، ارتلّت بكامل أنوثتها المتفجرة إلى طفولة مرعوبة ، لم يقلح انحناءه عليها ، وهددته إياها ، وتقيله شعرها وعقها ، وضمه لها ، ورققه بها ، وحتى تمام ملتها وافتراقها ، ومضى كل منها إلى سبيل .

لم تفصح له عما أخافها منه ، لم تصرح .. مع أنه عرفها وعرفته مرات بعد فرقتها تلك ، ها هي ذى اليزايث تتطلع إليه ، يلثم صدرها ، مازال متمكنا منها ، غير مفارقها ، يرفع يده المتدللية المستسلمة ، يقربها من شفثيه ، ابتسامتها تحوى وهناً كأم فرغت لتوها من ولادة فبدا عليها نصب العناء ورضى من أعطى الحياة الدنيا مددا .

في عينها الواسعتين ، الغريبتين وسن مزهري ، مخملي ، في نظراتها طل ، والطل هو أول نشء المطر ، إذ أنه ضعيف ، أما هو فقد اطلعت على مادار عنده ، يقول لنفسه إن في عناق الرجل بالأنثى ذروة الحياة وتجدها ، وفيه الموت أيضا ، فبعد تشيع النواة إلى الأعماق ، يحىء الهمود والسكون ، بل قد تنشأ الرغبة في المفارقة ، ينسحب منها ، يتمدد إلى جوارها ، يفرد ذراعه لتوسدها ، لم يتأ عنها ، لم يولها ظهره ، قديما نصحه خبير مجرب ألا يفعل ،

تضيق المرأة بانفصال سريع يعقب اتصالا وثيقا ، إنما يؤثرن الود والهددة ، هذا حسن منه غير أنه مختلف ، لذا لا يدوم ، سرعان ما يتململ ويتابه ضجر ممض ويخلق الحجاج للانصراف ، وإذا سأل سائل ، ماذا عن لور التي لا يرغب فراقها والابتعاد عنها ؟ الوحيدة التي احتضنتها وأغمض عينيه مستغرقا في نوم كالقטיפه ، مع أن عاداته التوحد عند النوم ، أقول إنه عايش ذلك في نشأته البديلة ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى المقامات ، إذ فصلنا الأمر وجليناه في مقام الاغتراب ، إنه الآن صامت ، هي ساكنة ، غير أنها تفيض رضا ، أما سكينتها فلا تعكرها شائبة ، صمتها رضائي ، يشعر أنها وحيدة تماما ، لم تصرح له ، لكن في رقدتها قضية ، يلمح نهديها المرشحين كالجهير بالسر ، وحلمتها المرعرتين وأخمص بطنها المنخفض ، يولى وجهه صوب السقف الأبيض المنخفض ، تلك الأنفاس ستكف يوما ، وهيكمل هذا القوام سيتمدد عندئذ في حفرة قصية بعيدة عن الموضع الذي سيحتويه هو ، قد يعثرون على عظام ساعد منه ، أو قطعة من ترقوته ، أو ينظرونه مكتملا ، متصلا ، فمن أين للرأى المتفحص العلم أن هذا التحد بذاك يوما ، وأن نشوة انبعثت هنا والتقت بنشوة هناك ، من أين لهم إدراك ما مر به من دقائق ، من استجابات وغير ذلك ، حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ومذلة ، هذا حق .

مصغ هو إلى أنفاسها ، كأنها لو تركته ستبقى أبدا ، يقوم جالسا في الفراش ، يلمح أطفالا يلعبون في الساحة ، يتقاذفون كرة لا يراها ، ضوء حليبي اللون ينبئ ببرودة سارية ، يتنبه إلى اقترابها منه ، عارية ، فارحة ، تشير بيدها وملامح وجهها بما يعنى استمتاعها ورضاها ، ثم تشير إليه ، تلمس صدره بطرف أصبعها ، تسأل .. وأنت ؟ ، فيكون جوابه انحناءا وتقبيلًا ،

نقطة الوصول والاتحاد ، تبسم ، تبدى سرورا ومرحا ، غير أنه راغب في الانصراف الآن ، يود الانفراد ، الجلوس داخل مقهى ورؤية المارة من وراء زجاج ، أو التيه في شوارع المدينة على غير هدى ، حتى إذا تعقد أمره يركب عربة أجرة مبرزا عنوان الفندق .

هذا دأبه عند نزول مدينة لم يطأها من قبل ، يشير إلى ساعته ، إلى جهة ما ، يجب الانصراف ، تومئ مجيبة ، يرتدى ملابسه بسرعة ، يمسك حافظة نقوده ، يبدو عليها انزعاج ، ماذا سيفعل ؟ ، كلا .. إنه يود تقديم مقدار من المال يسير إلى صاحبة البيت مقابل تردده ، إنها تفهم ، تضع الورقات المالية الثلاث تحت لفافة بسكويت ، تودعه ، يؤكد لها أنه سيجيء في الغد ، بعد انتهاء جلسات المؤتمر ، تقريبا .. في الثالثة ، تقبله ، تقول إنه رقيق ، ومعان أخرى لم يدركها بالدقة وان عنت الشاء والود ، ينصرف ، تودعه ربة البيت مبتسمة ، مرحبة ، يجتاز المرر والمدخل الرئيسي ، يتنبه إلى العلامات التي تمكنه من العودة ، المباني متشابهة ، يتحسس الورقة التي خط عليها العنوان ، عند المنحنى راقه الشجر الأخضر ، وتأمل بلاط الطريق القديم فحن ، هنا محطة للانتظار ، هذا المنحنى من زمن ما قبل الحرب ، أخطأته البلايا ، بيوت ضاحية ، طابق أو طابقان سقوف القرميد المحدبة

فيما بعد استعاد وقفته تلك طويلا ، كذا مدخل الضاحية ، وبيوتها القديمة المتضامة ، وعمارتها الحديثة الشاهقة لحظة عبوره الحسر الحديدى فوق النهر هب عليه حنين ، لماذا فارقتها هذه السرعة ؟ لماذا وأيامها معدودات ؟ ضايقه أنها بدت مصدقة لما قاله ، لكل ما يقوله ، لماذا ادعى كذبا أنه ماض إلى المؤتمر ؟ لماذا فارقتها وحيدة في تلك الغرفة الضيقة ؟ لم يعر حتى سؤالها ، كيف ستقضى ليلتها ؟ عجبت من أمر صاحبي هذا ، كلما مضيت قدما في

هذا الحال يبدو لي منه ما يحيرني ، ما يثير عجبى !
أعرف بكينونتى الأولى أن الحيرة تلزم الهوى ، وكل من يتصف بالهوى
والليل يتصف بها ، غير أن ما يلوح لي منه ليس حيرة وليس هوى ، أخشى
أن نكون ضلدين فيستحيل اجتماعنا ، هنا يقضى ويرمى في شتات ما له
نظام ، عند محطة لا يعلم اسمها أو موضعها ، يغادر العربة ، يشئى راجعا ،
تستقبله ربة البيت باسمه ، تتقبل منه باقة الزهور بود وترحاب ، للزهور شأن
عظيم هنا . تشير إلى الغرفة ، يدفع الباب ، يتوقف ، مستفرقة في نعاس ،
متكومة في الفراش ، ملمومة ، تلامس مقلمتا ركبتيها صدرها ، تنشأ عنده
شفقة ، ويبدأ رثاء ، وحدة مكتملة ، مقطوعة عن الصلة ، والإنسان يبدو
ضعيفا في نومه ، مستسلا ، ألم يقل الشيخ الأكبر أن النوم هو الموت
الأصغر ، تفتح عينها متمهلة ، كأنها أمضت لحظات حتى تبيتته ، أى
مفاجأة ؟ تلثم وجنته البيني مرتين ، ثم اليسرى ، تشب فرحة ، تدعوه
للجلوس .

الساحة خلت من صيحات الأطفال ، من الأصداء ، من اللعب ، هذا
أوان العصر ، فكأن المكان بدل تبديلا ، موحش ، والفراغ مشحون بنذر
شئ ما ، غامض الكئنه ، ربما بواده الليل المقرب ، ربما تأثير النهار المولى ،
لأنه استمر في طريقه لكان متمددا في الفتلق الآن ، يبدأ اغفاءة العصر التي
اعتادها منذ القدم ، لو اتصل نهاره كله يقضى ليلا ضنكا ، مرهقا ، وهذا
مغاير لما جبلت عليه في نشأتى الأولى ، يضيق بالبقاء ، لكن كيف سيبدو في
نظرها لو أنه انصرف الآن ، الحق أن عجبى يعظم واستكاري يدب ، يقترح
تناول الطعام في الخارج ، توافق بلا تردد .
عصر اليوم التالى جاءها .. إنها مستظرة ، ترد إليه الوريقات المالية ، أبت

رية البيت أن تتقاضى أجرا مقابل تردده ، هذا العصر بدر منه ما فاجأه هو ذاته ، مع اليزايث يمتاز حواجز عتيقة طال نصبا ، ولأنه سلك طريقها بالأمس فقد بات عارفا لما يبعض علاماته ، أما هي فكانت تقترح عليه مسارات وعبور دروب شتى ، وورود منابع سخية لم ينهل منها قبل الآن .

بعد فراغها كان يأتيه من عالم أنفاسها التحية والأخبار المطمئنة ، اقترح أن يجرجا معا ، أشارت إلى ما بين ثديها تكفى عن هويتها «أنا» ، تدعوه إلى العشاء ، تبسم ، كيف يمكن أن يخطر لها ذلك ، هو الداعى ، أبدا ، تشير بيدها إلى أعلى ، مطعم للسّمك فوق الجبال القريبة من المدينة ، الطريق إليه بديع ، ليتها يقطعانه قبل الغروب ، تتوزع قرى صغيرة على السفح ، لا تبدو للناظر الطرق الفرعية المؤدية ، فكأنها مقطعة عن الاتصال ، كل قائمة بذاتها ، عوالم متباعدة ، قصى كل منها عن الآخر ، منزل على الطريق ، وحيد ، خشبي ، أمامه تخطو امرأة عجوز متمهلة تحمل سلة ، ترتدى معظفا وتحيط رأسها بطرحة قائمة ، يتابعها أثناء حركة السيارة حتى أنه يستدير إلى الخلف حتى لا تغيب عن بصره ، بينا المنزل ينأى والمرأة تتوارى ، تتطلع إليه صاحبه دهشة ، ما الذى يدعو إلى التحديق ؟ لا يبدو إشارة تشرح ، أو حتى إيماء تفسر ، أما أنا فتساءلت أيضا عن الدافع ، انشغلت به غير أننى لم أقف على التفسير ، وإن شككت هذه الرؤية العابرة فى ترائه علامة ، إنها يغادران العربة عند محطة قرب منحنى ، للصمت الجبلى هية ورسوخ ، طريق ترائي مهدته الأقدام وتوالى السنين ، يمر بغابة تتحدر أشجارها وحشائشها وزهورها ، يتنوع الضوء من بقعة إلى أخرى ، يعبق الفراغ برائحة رطوبية ، رائحة نباتات خضراء شتى ، ندية فاستعيد وجلا قديما كان ممكنا ألا يبعث أبدا لولا إياي وحلولي عند أصلى هذا .

هنا يبدو المكان لناظري غريبا ، كأنى فى وقت ، ونظرى يقع عليه فى وقت آخر ، كأنى يقظ وأراه ، فالأرض مترققة ، موجة إثر موجة ، والأشجار من ظلال وأصداء ضوء ، والأصل أشرف من الظل ، لأن الظل تابع ، وقد يوجد الإنسان أو الشىء بلا ظل ، لكن لا يمتد الظل إلا فى أثر أصل ، وربما يكن هذا وراء حتى الذى يهب فجأة على جمال ، فلواه هو لما جئت أنا ، ولولا معراجة لما كان نزولى ، ولولا ذهابه لما صار إيابى ، وما تم من أفعاله لا حيلة لى فيها ، ولا قدرة على تبديلها ، أما ما تبقى فمحكوم بما انقضى من المدة .

ها هو ذا يظهر فجأة ، عاريا تماما كالحقيقة الناصعة ، على وجهه تعابير لم أطلع عليها أبدا فكأن كل ما مر به من أحاسيس ومشاعر شتى ورفائق لا تبين وتجل عن الإفصاح . كأن كل ما تردد داخله أخذ أقصى مداه فلم يعد هناك مزيد ، تضيق قسباته بما يعتمل داخله فيصرخ ويطلق أصواتا غريبة كالطبيعة عندما تستعصى على الفهم .

أرى صاحبه تعدو أمامه ، تمد ذراعها فى اتجاه ذراعيه ، كأنها يتعلقان بخيوط لا يمكن للرائى إدراكه ، أرى إدراكه لها ، تقلبها فوق الحشائش الخضرة ، تنفذ إليه رائحة الأرض الخصبة والندى المتكون على الأوراق والمختلط بالتراب المبتل ، والثمار المتساقطة التى لا تمتد إليها يد فيتغير لونها ، يبرغ رأسه على صدرها ، بسرعة خاطفة يلثم حلمتها ، يتقلب فوق ذراعها الممتد ، ينتقل إلى الأرض فيستمر وكأنه لن يتوقف أبدا ، يزق ، يجمر ، تبدو منه أمور يخيل للناظر من بعيد أنها متنافرة ، تسرب إليه رائحة اليزابيت فمترج بعبير الزرع والبلل ورائحة الطير الساكن ، يذوب هذا كله فى رائحة ما لا يمكن إدراكه بالنظر ، يعتبر هذا دليلا على سلامة مشروعه ، وعلامة على صحة

وجوده ، وبرهانا على حقيقته واتساق نظامه ، انه يتدرج مبتعدا عنها ، ملتصقا بالأرض ، متشربا ذراتها .

عند حد بعينه يبدأ غوصه وتواريه مع كل دورة يدورها ، حتى يغيب عنى تماما ، بينما تقف صاحبه متطلعة ، متجردة ، مثال على النشأة الكالية ، متممة لما حولها من عناصر ، مستوعبة وملخصة لها . أعجب فوق عجبى ، فن لى بالإيضاحات المكونة ؟ ، ما أطلع عليه من تراث يمت الآن إلى ، غير أن علمى به شاحب ، وعندى منه شبهة ، فجل من أوضح الأمر وكفى الإنسان مشقة السؤال ، غريب أصلى فكأنه جمع الفوق والتحت معا ، فلا جهات له أو عنده ، إنه ينبوع أمامى أراه ثانية فكأنه لم يغيب عنى أبدا ، يجلس إلى صاحبه هذه فى مطعم السلمك النائى .

يرهف أذنيه لخطى مجهولة تدنو وتبتعد .. إنه يجاهد لرصد مرور الوقت ، ليس فى تغير المظاهر وانتقالها من طور إلى طور ، من ليل إلى نهار ، ومن نهار إلى ليل ، ولكن الوقت السارى ذاته ، تبسم ، يبدو أنها تستفسر ، هل أعجبه الطعام ؟ يشير إلى المرق الأصفر المزرق الطعم ، أسمه يقول : من أجل هذا المرق سيجىء مرة أخرى إلى البلد . يطلب مقدارا آخر ، ينهم حتى يشرع فى شرب كوب منه بلا خبز ، توقفه ، فى المرق زيد ودسمه شديد ، هذا ضار ، أما النيذ الوردى المتلج فاجتاز به المدى وطفا ورقق من قسوة الموجودات وكشف عن قيس مما يحتنى خلف الأشياء مما يصعب إدراكه بالبصيرة الإنسانية ، هذا حاله ، يأكل المتاح له ، لا يأنف ولا يمتنع ، حتى إذا واجه الطعام المتقن تمهل وتقصى وتمعن ، فكأنه اعتاد ذلك وجبل عليه ، إن قلبه يخفق ، وهلمه يشب خوفا على اللحظة أن تتقضى ، فيرفع الصوت بغناء شجى راجيا تمهلها ، ومضيا هونا ، تلك اللحظة بالذات ، اللحظة

الاستثنائية ، غير المدرجة في الخطة ، غير أن الحال لا يدوم ، الوقت حاد ، وقانونه الأبدى القوت ، وفهمه مستعص على الكافة .
أراه يمشى في طريق عريض تحفه مبان شاهقة تحجب المدى الأتم والأفق الأوفى ، هي إلى جواره ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، منذ قليل انحدا ، تضاماً ، تمددت فوقه بعد هموده ، قبلته ، ناغته بلفظ مجهول عنده وإن ألمح إلى مدلوله ، رأى عينها تترقرقان ، فوقع به كمد ، قدمت إليه صورتها ، خطت عنوانها وعنوانه .

الآن يقترب افتراقها ، سترحل بعد ساعة ، هي في اليوم التالي ، بالأمس عقد النية على اصطحابها حتى المطار ، أما الآن فيود الانفراد ، الفندق قريب ، يبدى أسفا واعتذارا ، المؤتمر ! ، لقد نسي جلسة ما بعد الظهر ، آهتها حسرى ، تقبله دامعة ، ملامحها أصدق منه ، يتمنى انتهاء اللحظة ، غير أنه يبدى الجزع عند الافتراق ، راغب هو في ولوج غرفته ، في اغلاق بابه ، أن يغفو اغفاءة الظهيرة ، ولكم ضيبت منه هذه الإغفاءة ، ولهذا تفصيل وشرح سيأتي في موضعه .

تراجع بظهرها متطلعة ، ملوحة ، معلنة بدء الهبوط ، تلثم يدها تجاهه ، تصطدم بفتاة مسرعة ، تنتبه ، تولى وجهها شطر السفر ، حتى المنحنى التفتت خمس مرات ، ولوحت خمس مرات ، دارت عند الناصية ، والنواصي تحجب الرؤية ، وتضع الحد بين الجمع والفصل ، ولما اختفت نزلت به سكية ، والسكينة جمود ، وهي مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه ، وما لم يتم ذلك فالسكينة لا تصبح ، وكما خبرها العرفاء ، أصحاب الطريق ، هي الأمر الذى تسكن إليه النفس لما وعدت به ، أو لما عرفت منه ، وسميت سكية لأنها إذا حصلت قطعت عنه وجود الهبوب إلى غير ما

سكنت إليه النفس ، ومنه سمي السكن سكيناً لأن صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه ، وهذا اللفظ كما أوضح الشيخ الأكبر محيي الدين مشتق من السكن وهو الثبوت ضد الحركة ، فالحركة نقلة ، والسكينة تعطي الثبوت على ما سكنت إليه النفس ، ولو سكنت إلى الحركة فليس ذلك حقيقتها ، ولا يكون ذلك إلا عن مطالعة أو مشاهدة .

هذا ما جللاه الشيخ وأوضحه ، غير أن سكيناً أصلي غريبة ، هي ليست نهاية أو استقرار أمر ، إنما بداية فورة ، وعتبة مؤدية ، ليست بداية طمأنينة .. ولكن نهاية ، إنها أشبه بصمت المخزون المفجوع قبل تفجر حزنه في صراخ أو نواح ما بعده بعد ، فهي إذن إلى البهت أقرب ، إنها لحظة الصمت الذي يسبق الدوى ، أو سكون ما قبل الزلزلة .

بعد اختفائها ، وإدراكه فجأة انقطاعها ، تنفذ برودة إلى صميم نغمه ، يمر به كثيرون لكنه لا يرى أحداً ، فارقت .. إنه المعنى الوحيد الذي ظن وعم وطم داخله ، يتساءل بصوت مرتفع غير عابئ بمن حوله ، كيف ضاق بها ؟ كيف ألتمس الحجة ليعتذر عن آخر وقت متاح للرفقة ، للصحبة ، للقرني ، كيف ؟؟ .

يعدو منقلبا إلى حيث ولت ، اختفت ، موجودة وغير موجودة ، راحت وراح الوقت الذي حقق فيه ما حقق واتحد وانطلق ، كأن الوقت لم يكن ، يرقب الوجوه ، نساء ، فتيات كثيرات ، لكن ملاحظتها ناشئة ، بينه وبينهن هوة سحيقة .. يجول الطرقات ، يلج باب الفندق عند الغروب ، في حلقه مرارة ، وفي صدره وحشة ، أما روحه .. ففي خلاء ، بمخيلته حاول أن يعيش وقتها ، سفرها ، اجتيازها البوابات ، وصولها ، إذ يستعيد لحظة دخوله غرفتها ورؤيتها متكومة ، متوحدة ، منفردة ، يسب ذاته ، يضيق بما سلك

في هذه الليلة حكى لصحبه عنها ، داعبه البعض ، وأصغى إليه الآخرون
وفى عيونهم حسد ورغبة ، وقبل مغادرته البلد خط بطاقة إليها ، شيعها
صندوق البريد في المطار ، وما بين يوم وصوله ونهاية الأسبوع الأول ، خط
كل يوم خطابا أودع سطره ماتيسر من كلمات أجنبية يتقنها ، مشى أمام
المتاجر هونا ، يتوقف عند كل شيء انثوى فينوي شراءه وإرساله إليها ، فإذا
رأى ثوبا مليحا تخيلها فيه ، وإذا ملح حقيية أودعها يدها ، وإذا عين قرطا
ذهيبا استدعى إلى ذهنه أذنها الرقيقة التي يشف تكوينها عن الشعيرات حاملة
الدم داخلها ، بل إنه مضى إلى مكتب البريد واستفسر عن ارسال الطرود
وأسعار الرسوم ، ومقادير الأوزان .

في المقهى حدث الصبح عن وقته معها ، وأثناء حكيه لا يصدق ما مر
به ، كأنه يقص عن شخص آخر ، فيعيد الرواية ممعنا في ذكر التفاصيل ،
كأنه يود أن يصدق نفسه قبل أن يصدقه الآخرون ، وعندما تسلم أول خطاب
منها مشى في الأرض فرحا وبسطها كل البسط ، ولما قرأ أنها ستعلم العربية
حتى تكذب إليه ، وأنها سوف تنتظره بصبر ، دمعت عيناه تأثرا ، وهجم عليه
حنين طاغ ، فاستعاد ملاحظها عند بلوغ وهجها اكتماله ، كان ملتاعا بالفقد ،
فلما رأيت حسرتة واطلعت على دقائق كلومه ، واستوثقت صدق أوجاعه ،
وقع عندى النفور منه ، فتمنيت لو أخلعه عنى ، وأن أطرده منى ، أن أهج
منه فلا يكون لنا اجتماع قط

لماذا لا يكون إدراكه للأمر إلا بعد القوت ؟ ، لماذا يصل إلى مشارف
الجفوة ، حتى إذا مرقت منه اللحظة وصارت إلى عدم محض عاط واستغفر
وسعى وتأثر ، تمتت الفراق ، أن أمضى إلى حالى ، وأن أدعه ، فهذا طبع
مغاير لما جبلت عليه ، مخالف لميراثى ، لكن إلام يصير الأمر لو انفضت

الصحة ، وما قديمى إلى هذه الحياة الدنيا ، وما نزولى ، إلا لأكون هو ، وهذا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، وعر شرحه .

لم أدر أن ما يتظرنى فى هذا الحال أفدح ، وأن ما سيقبلى على أصعب ، إذ ألمت بما تعاقب عليه خلال ثلاث سنوات أرضية من مشاعر ورؤى تخص هذه البنية ، وما عنده تجاهها ، قرأت الصفحات المتبادلة ، تابعت فى الوقت عينه جهودها ودأبها لتعلم اللسان العربى ، حتى رأيت منها خطابا وصله خطته هى بالفصحى من الكلمات ، أكبرت عزمها ، وقلدت جهودها .. كفاحها تقصيت جهده ، وادخاره المال حتى يتم سفره وسعيه إليها ، حتى تلك اللحظة ، وأصبح إقلاعه إليها وشيكا ، ميعاد الطائرة لم يتغير ، أما المطار الذى نزله وكان نقطة عبور فقد صار هدفا له هذه المرة ، إنه يتأمل الطريق المؤدى إلى المدينة ، يراه لأول مرة ، وما أمتع إحساسه وتلقيه لأرض يطؤها أول مرة .

اليوم سبت ، تبدأ العجلة الأسبوعية ، يرن الهاتف فى مكتبها وما من عجيب .. اذن .. فليستظر حتى صباح الغد ، الوقت الآن متأخر والليل يدنو . يخشى أن يفضل ، يؤثر البقاء بمفرده ، ناء بالوحشة ، لا يعرف أى إنسان فى هذه المدينة عداها ، يشتد وطء الغربة ، عرف مثل هذه الدرجة من بغض الانفراد عندما اغترب عن أهله أول مرة لما أصدروا أمرا بنقله من عمله فى القاهرة إلى المنيا بوسط الصعيد ، وألزموه التنفيذ فى أربع وعشرين ساعة ، وهذا أمر يطول شرحه ، وله موضعه ، يتضاعف إحساسه أنه منبوذ ، بعيد عن من يعرفهم ، عن الألف والإيلاف ، زحام الناس فى الطرقات ، وأصوات حديثهم فى الفندق لا تريده إلا شجنا وحسرة وإحساسا بالغربة .

فى الصباح الباكر كتب العنوان على مطروف خطاب ، حتى يوحى لمن

يسأله أنه يحمل رسالة يريد توصيلها ، بدأ يستقصي ويستفسر ، ركب الترام العتيق البطيء حتى يدخر ما لديه وهو قليل ، مشى مسافة يتابع أرقام البيوت ، المنازل قديمة ، متساوية الارتفاع ، جهمة الواجهات ، مغلقة النوافذ ، يعلو بوابات بعضها تماثيل وزخارف جصية ، يتوقف أمام مدخل فسيح يحمل رقما ، الثامن والثلاثين ، إلى هنا كانت تصل رسائله ، امرأة تمسك مكنسة ، تومئ مجيبة ، تشير بيدها ما يعنى طول القامة ، الطابق أرضى ، مصعد عتيق معطل ، تراكم عليه غبار كثيف ، أنا فى لفة وتوق حتى أرى ما يكون من أمره عند اللقاء ، تفتح الباب صبية فى العاشرة ، اليزابيث غير موجودة ، ذهبت إلى المتحف ، ستجىء بعد ساعة ، يعود ليضى الهونيا فى الطرقات المشتتة المتقاطعة القريبة ، يجهد لتثبيت علامات فى ذاكرته حتى لا يضل عودته ، مثل هذه اللافتة الزرقاء ، والصيدلية عند الناصية ، يطرُق الباب مرة أخرى .

الساعة الآن ، الواحدة والرابع ، على مهل تبدو ، فى ضوء المدخل الواهن مبتسمة ، مرحة ، هى ، هى ، قدر لعينه أن تقع عليها مرة أخرى ، الثياب مختلفة ، أما أنفها فيبدو أطول قليلا ، لا يتقدم ، لا ينطق ، تقول بلسان عربى ذى عوج « تفضل » .

فى كينونتها دعوة ، تبدو منبسطة كمروج أخضر ، هادئة كالحظة وصول ، يدخل ، يعبر صالة تعبق بالقدم والبعد عن ضوء الشمس ، غرفتها قرب المدخل ، ضيقة ، أريكة النوم لا تدع إلا فراغا محدودا لا يتيح الحركة ، حقيبة يطل منها ثوب ، مظاريف خطابات ، طوايع بلدان مختلفة ، قعدا متجاورين ، لا يتكلم ، يهدئ رفيف قلبه ، تقبله ، تقول إن خطابه وصلها صباح أمس ، يقول دهشا إنه أرسله منذ شهر أو أكثر ، ياطول المدة ،

يتطلع إليها ، كأنها تدرك مقدار اشتياقه فتضك قبيصها ، تريح تنورتها إلى أسفل ، يضطرب أمره ، فاللهفة تشغل الملهوف ، غير أنها تضم رأسه إلى صدرها العارى ، يبدأ عنده سرور إذ يستعيد عبرها الذى لم يكن إلا مجرد ذكرى غير متيقن من تنسمة مرة أخرى ، تقول إنها آسفة ، لن تستقبله فى البيت إذ أن صاحبه تأبى وتمنع تردد أى صاحب ، يقول : لكن فى هذه البلاد يحق للإبنة أن تصطحب صديقها على مرأى ومسمع من والديها ، تقول إن هذا صحيح ، ولكن لهذه العجوز طباعها وقد اشترطت عليها ذلك ، عند استئجار الغرفة ، تقول إنها ستجىء إليه ، ما من مشكلة فى الفندق ، يسألها : هل تناولت طعامها ؟ تومئ ، يقول إنه جائع ، سيمضى إلى أى مطعم ، يصمت ثم يسألها عن صاحبها العربى ، وكأنه باستفساره نكأ جرحا ، إذ اعتمت عينها الواسعتان فجأة ويدت عكارتها ، وحاولت جاهدة أن تحوش دمعها أطل ، قالت إنه رحل منذ شهر واحد ، أتم دراسته انتهت فترته ، يطفى حزنها على ملامحها ، تقول إنها عرفا بعضها منذ أربع سنوات ، رعت شئونه ، إذا دعا صحبه أعدت هى المأكول والمشروب ، فى كل أحد يخرجان معا ، وأحيانا تقضى الليل معه ، تساعده فى نسخ أوراقه ، تقول متحسرة ، إنه منذ رحيله لا تدرى ما تفعل ، ما من صاحب لها فى هذه المدينة ، إنها من الريف ، الحياة فى قريتها رتيبة ، ظنت العاصمة تضج بالحوية ، لكن الوقت ثقيل ، والناس متباعدون ، والرفقة ضرورة ، أيام الأجازة تخشاها ، تمضى بدون أن تخاطب إنسانا ، وعندما تضغط عليها الوحدة تولشك أحيانا على الصراخ ، لكن من سيحنو ، من سيدرى بحالها ، الناس بمعزل عن بعضهم البعض ، وكل منهم يتأى عن الآخر ، يتساءل ، لماذا لم تسع إلى صاحب آخر؟ لماذا لا تتزوج؟ تقول دهشة ، الأمر ليس

سهلا ، أما الزواج فصعب ، ولا بد من وفاق ومدة وترتيب .

استكرت منه هذا السؤال ، استفسار غريب ، كنا ضقت بما يبدأ عنده الآن ، إنه يراجع نفسه ، بل .. يلومها ، أمن أجل هذه اللحظات أمضى ثلاث سنوات من اللفة والتأجج والكد وتفصيل الخطة كى يراها مرة أخرى ، كم من اللحظات خيل إليه أن ماضى بينهما لم يتحقق فى عالم الواقع ، إنما خيال مر به ، أو رواية أصغى إليها من صاحب له ، ها هى ذى الآن أمامه ، عارية ، ضعيفة ، مهجورة فى هذه الحجرة التى لا منافذ لها ، أما حديثها إليه فشكوى إلى ذاتها ، كأنها لا تسعى إلى المجاورة ، إنما إلى من يصغى إليها ، تفض حملا طال عليها ثقله ، تبكى صاحبها الراحل بعد ترحيبها بقدمه ، بل إن حسرتها على من رحل تفوق فرحها بمن جاء ، يبدأ تحامله عليها ، يسيئ الفهم ، يقصر عن الإدراك ، والمعروف أن كل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب ، وفراقه تكون محبته معلولة ، أتمنى لو سعى فى هذه اللحظة إلى سد جسور الوصل ، فاقترب منها ، وكشف شجوها ، ولثم شعرها ، وحنا ، وترفق ، وددت لو أنه أصغى ، لو حاول ملازمة الجرح ، ربما تفتحت له طرائق لم يدر بجلده أبدا وجودها ، ربما تغير الترتيب ، غير أنه لزم الصمت ، صار فى شرق وهى فى غرب ، والشرق فى محل والغرب فى محل ، لذا لا يجتمعان ، لأنها تقيضان .

لم أدرك كيف فارقها ، أراه فى طرقات المدينة بمفرده ، فى المقاهى ، فى مطعم هنا وآخر هناك ، فى محال الوجبات السريعة ، الغريب أنه يخلق فى وجوه القتيات وهو ظامئ ، لكنه لا يتحدث إلى أحد ، يحصى الأيام المتبقية على رحيل الطائرة التى تقلع كل أسبوع إلى موطنه ، لحظة دخوله الفندق يتسلم رسالة جاءت ، سعت إليه ، الرقة متاحة ، ويومه كله يدور فى

الطرقات قاطعا ممرات الحدائق العامة متأملا الغراء عنه ، حيث لا صلة ولا جسر ممتد فما أعجب أمرك أيها الإنسان ، إذا كان الإعراض عن المحالسة يورث موت القلب ، فكيف يكون الإعراض عن الإلف .

يلوم نفسه لأنه شغل بها ، لأنه لم يعدها مغامرة عابرة ، ورؤيا مارقة من رؤى السفر ، كان يجب أن تنقضى مع تمام وقتها ، يمضي نومه معها ، ثقيلًا ، بلا أحلام ، كاره نافر من المدينة الغريبة عنه ، غير أنه استيقظ صباح اليوم السابق على سفره تماما وقد انقلب حاله ، لم يستطع أن يتذكر تفاصيل حلم غامض عاشه وصحا متأثرا به ، حلم محوره هي ، لكن أين رآها ؟ .. في أى حالة ؟ لم يتبين ذلك ، هرع إلى الطريق ليلحق بها قبل خروجها ، الوقت باكر ، والصبح مندى .. هذا ضباب الغربة ، كل ماض في طريقه ، مشغول بأمره ، يفيض أمره حتى يحدث نفسه بصوت مرتفع ، غير عابئ بالناظرين ، «لكم أنا أحمر ، غبي ، كيف ضيعت هذه الأيام الثمينة كيف بددت ما بددت ؟» .

عند ناصية الطريق يجرى ورائحة بن قوية منبعثة من مقهى قريب ، زحام تحت مظلة المحطة ، يتمهل حتى يتفحص القادمين الواقفين لا .. ليست بينهم ، هذا ما تراه صباح كل يوم عند خروجها ، يتخيلها إذ تخرج وحيدة ، مسرعة ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، تخرج إلى يوم من أيامها المكرورة .. العادة ، المصعد ما زال جاثما ، طفل صغير يحمل حقيبة ممتلئة بكتب وكراسات . فوق ظهره ، يتردد زنين الجرس ، الرطوبة عميقة والضوء غميق في هذه الساعة المبكرة ، وحركة الطريق تبدو نائية مع قربها ، بعد فترة يفتح الباب ، العجوز تبدو غاضبة ، مزمومة الشفتين ، يلفظ اسمها «اليزايث» ، مستفسرا عنها بنظراته وملاحظه ، تقول باختصار كالبتز « ماتت .. » .

تغلق الباب ، لم تتح الفرصة لكلمة ، أو التفوه بحرف ، أراه ثابتا ، غابت اللحظة وما تحوى وبقي المعنى ، انمحت الصورة وانطمس الظل ، أنا لم أدر ، هل أشفق عليه بأم ألعنه في وقفته الجامدة هذه ، أم أويحه لو أتيج لي ذلك ، تابعت خطوه المتعثر ، وكذبت أريك لثقله الذى حط عليه وداومه ، أليس حمله حملي ؟ لم يصلق المرأة ، غير أن إحدى زميلاتها أخبرته عبر الهاتف أنها انتحرت ليلة الثلاثاء ، أول أمس. أى بعد ساعات من مجيئها إلى القنلق .

عند هذا الحد أبيت الاستمرار في المشاهدة ، ورجوت من بيده الأمر تقلب الحال علىّ ، أشهدت هذه البنية تخفيفا وتيسيرا لأمرى ، غير أن ما عاينته انقلب علىّ ، فزادنى كمدًا . أيتها النفس أجملى جزعا ، إن الذى تخفنين قد وقعا ، بأى شىء أدرك هذا وأعقله ؟ ، العقل ، القلب ، إذا سمينا العقل قلبا ، فذلك ليس العقل ، وإذا اعتبرنا الروح قلبا فذلك ليس القلب ، وإذا قيل إن العلم قلب ، فهو ليس بالقلب ، اذن .. لا توجد منه إلا العبارة ، فباذا أعقل واستوعب ؟ .

تغمرنى الرغبة أن أطلع على طقولتى ، أن أصير أولا ، لا أعى قديمى لأنه ما من قدم يمكن الرعى به بعد ، لا أنشغل بالخطر المحتمل ، غى لا أعى الجفوة وقسوتها ، لكن أنى لى ذلك وأنا مثقل بماضى ، وحاضر غيرى ، وماض يخصنى ويخص غيرى ، ومستقبل أنا جاهل به ، فحظ المشاهدة ما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من ذلك كله ، وما فهمت فهو أمانة ، وإن كان البنيان على اليقين أحوط ، ذلك أن مذهبي في كل ما أورده أنى لا أقصد لذة بعينها دون غيرها ، مما يدل على معناها إلا المعنى ، ولا أزيد حرفا إلا المعنى فما في كلامى

بالنظر إلى قصدى حشو وإن تخيله النظر ، فالغلط عنده لا فى قصدى ! .

بلى ، ولكن

.. ثم أتى وجدت نفسى فى زمن لا يمكن تعيينه ، رأيت دليلى ، فهممت نحوه ، لكننى لم أتقدم ولم انتقل . فعرفت أتى معاين فقط ، رأيت يقف بساحة الجامع الأزهر ، وسط الصحن المكشوف ، تحنو عليه مثذنة قايتباى ، ومثذنة الغورى ذات الرأسين ، والبواثك كلها ، وعلى مرمى النظر داخل الجزء القديم المغطى ، لمحت المحراب ، والمنبر الذى أعلن منه الجهاد عام الحرب التى شهد أصلى أيامها ولم يعيش وقائعها ، إنه يرتدى لباسا أبيض ، والناس يهرعون إليه ، يدخلون ويبايعونه فلما خفوا ، أتانى الأمر فتقدمت نحوه ، وأخذ ييدى ، قال لى :

« أتعرف من ينادى كما أنادى ؟ » .

أبدى الغفلة ، وقلة الفهم .. يقول :

« ابن أحمد الغيطانى ، من هو أنت .. » .

أقول :

« نعم .. » .

يقول :

« إنا أمرناه بأمر ، قتل له ، يا جبال ، انهض لما أمرك به دليلك .. » .

أقول :

« لكنه راحل .. » .

يقول :

«ألست مقيا فيه ؟» .

أجيب :

«بلى»

يقول :

«إذن ، لا تحد عن الحطة» .

نصير بمفردنا ، إنها المرة الأولى التي تخلو فيها ساحة الجامع الأزهر من كل مخلوق منذ أن خط بنيانه ، يتسم ، يبدو رقيقا كالحظة ميلاد الندى الفجرى ، رأيت طلائه التي صارت قديمة ، وقوفه في الشرفات متطلعا إلى حشود جمّة ، انتظام الخلق على جانبي طريقه ، واختفاء النواصي بالكثافة البشرية ، إذ يهل ينبثق من الجموع تهليل وتكبير ، هذا الانبثاق أين ولى؟ هذا الغرس أين راح؟ ، أكف ولا أبيض حتى لا أكشف ما طلب منى ألا يهتك سره .

يقول :

«بلغ الرسالة ولا تحد ..» .

أستفسر معاتبا :

«لماذا فسوت؟» .

يجيبني :

«ما كان كان ..» .

أهم لأستأنف المجادلة ، لكنه يقول بنبر فيه عتاب وتحذير :

«من دليل من؟» .

أنته إلى تجرؤى ، وإبدائى عزم القناعة ، تلك خاصية لم تكن بنفس القدر عند سلقى . فعندما أتبع سيد الشهداء ، ومن بعده سيد العارفين الإمام

الأكبر، لم يبدر منه إلا التساؤل، وخشية التابع من المتبوع الذى هو أعلى منه مرتبة ، وليس له أن يسأل عما يظهر منهم أو يعرض لهم ، فإعندهم ، وما ظهر منهم يخضعهم . وليس له أن يدخل فيه ، غير أن حالى مختلف ، إني قادر على المجادلة ، وإبداء الحججة ، ذلك أمرى ، ربما تعلق التصرف بالمرتبة ، فليسيد الشهداء السبق المطلق والمرتلة الأعلى ، يليه الشيخ الأكبر ، ثم .. دليلى هذا ، تفاوتوا ، لكن جمع بينهم طريق الجهاد الأعظم ، وقد ثبتوا فيه وتمكنوا .

هنا .. عند هذا الحد من ذلك التقييد خرج الأمر عن طوعى ، وبدأت أتلقى ما يلى علىّ ، فأكتبه بلا مجادلة ، وكان الأمر كذلك .

« .. لما كانت الأمور مقسمة إلى مراتب ودرجات - أنظر إلى تركيب العالم - لذلك كان المسبب والسبب . من هنا كانت هذه اللحظات المارقات الأولى . المتبقية فى وعى سلقى وأصلى ، السابقة كل ما عداها لذا كانت لها الأولوية والسبق ، ولأنها مرتبطة بهذا السطح كانت أقرب إلى السماء ، إلى الأفق النائى ، وقد فرغت من تأمل لحظة موقعها هذه الليلة من ليالى حرب فلسطين ، ولحظة أخرى لم أدققها ولم أتمكن منها ، وإني لماض الآن إلى لحظة متبقية ، ما قبلها وما بعدها مطموس الملامح ، لكننى على قدر طاقتى واجتهادى سأحاول ، فذلك شرع لى ، حتى وإن كللت ، فكل مذكور من الناس إذا ما فقدوه ، صار فى حكم حديث حفظوه فنسوه ، هذا أصل ومنطلق ! .

إني ملازم الآن هذا السطح ، غير بارحه ، أحيانا أراه بعينى سلقى ، وهو طفل بعد ، إذا به فسيح ، يقطعه فى خطى عديدة متتابعة رأسه لا يبلغ سوره ، لا يرى ما وراءه ، أراه أحيانا بعد بلوغه العمر الأشد ، فإذا به ضيق

يمكن قطعه في ثلاث خطوات ، وإذا به رث ، بال ، تمخل الشقوق
حجارته ، طلاؤه تقشر ، وذرات الرمل تفككت ، انكشفت جذوع الخشب
العتيقة التي تصلب البيت ، تاهبت للتزلو إلى الطوابق السفلى ، لأرى جيران
العمر الأول ، لكنني تذكرت الأمر ، ان أئزم الحطلة ، فخرجت إلى تلك
اللحظة ، إنها بين بين ، لا شتوية غائمة ، ولا صيفية حارة ، ولا خريفية
تميل طوراً إلى صيف وتارة إلى شتاء ، أرجح خريفيتها ، والخريف في موطن
أصلي فيه حنية على الخلق ، تهب نسائمه رقيقة لطيفة فتبعث مكنون
الذكريات ، يخطب بها الود ، وتميل عندها القلوب على بعضها ، إذن ..
استصتت هذه اللحظات على الفناء .

اعلموا أنه ما من زمان يذكر أو يستعاد إلا ومكان ملازمه ، فلا بد من
مكان يحتوى الزمان ، ولا بد من زمان يوجد فيه المكان ، وإلا كان الهباء ،
وإلا صار العدم هنا مقطوع به ، فانتبهوا إلى ما أحفيتها بين سطوري ، فكثير
أشير إليه ولا أسطه .

تلك إذن الغرفة ، الباب مغلق ، رائحة الجير قوية ، لم يخف بعد ، لذا حذر
الأب من الالتصاق به ، أو الاستناد إلى الجدار ، خاطب بذلك الأم والطفل
الذي هو أصلي ، أو بمعنى آخر أنا ، الوجود لأربعة ، الرابع إسماعيل ، عمره
أربعة أو خمسة شهور ، إنه العام الثامن والأربعون من هذا القرن الذي ولد
أصلي قرب منتهى نصفه الأول ، ولا أدري الآن هل أنا متمه أم لا ، فلا
علم عندي بما قدر له أن يسعاه ، لا تدري نفس ماذا تكسب غدا ، ولا
تدري نفس بأى أرض تموت ؟ .

لون الطلاء قريب من زرقة سماء صافية بلا كدر ، هذا لون مالت إليه
الأم وازتاحت إليه ، الشريط المستطيل المخاضى للأرض ، أزرق غامق ، هذا

عصر ، الضوء واهن ، والأصوات ضعيفة ، الأب يمسك أحد أعمدة السرير الحديدية ، هاهو ذا أصلى ، من هو أنا . مرتديا جلبابا أبيض تتخلله خيوط بنية اللون ، خط عريض وخط نحيل ، يبدو أن أصلى حاول المساعدة ، لكن الأب أبعده ونحاه ، تلك ملامحه بعد إقصائه ، خشية عليه من سقوط عارضة السرير فيمسه أذى ، الأب والأم ينصبان السرير ، أربعة أعمدة سوداء اللون ، كل منها ينتهى بغطاء مخروطى الشكل ، نحاسى أصفر ، فى ركن الحجره ثياب مكمومة بترتيب ، إنها فراش لإسماعيل ، لا يتقلب ، إنما يحرك يديه وساقيه ، ملفوف فى رداء أسود ، عيناه واسعتان ، تتعلقان للحظات بالسقف ، تستديران حولها ، تتحولان إلى نظرة جانبية ، أى شىء يرى ؟ وكيف يرى ما يرى ؟ ، هنا مالا يمكن معرفته أبدا ، لا أرى الأخر الأكبر كمال لأنه لأنه رحل ، وهنا ورد على قوله تعالى ، « وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية .. » .

وكان ذلك إيذانا بسامعى صوت الأم ، أصغيت وأنا أنظر إلى أصل نفسى : لاتنس كمال أخاك ، اطلب له الرحمة ، وقرأ الفاتحة : اللهم ارحم الراحل الصغير الذى لا أعرف ملامحه ، ولا أذكر طرائق لعبه ومرحه ، وكيفية تعلقه بأمه وأبيه ، يقف أصلى ممسكا بشىء لا أتبينه .. لا أعرفه ، غر ، لا يدري أحوال أمه وأبيه ، أو طول حزنهما على فراق شقيقة كمال ، وأوجاعها لرحيله المباحث ، غير مطلع على مكثات الأب المنحجوبة عن أقرب الأقربين ، أنا جاهل بنظرة إلى الدنيا فى تلك الحقبة عموما وهذه اللحظة خصوصا ، فما أقرب الصلة وما أبعد الشقة ، ما أمتن الجسر وأعظم الهوة .

السرير مكتمل ، متين ، مرتفع ، الأم تعلق الستارة الدائرية المسدلة على جوانب السرير من أعلى ، أتأمل الشقيق البوضيع ، أطلع على سبب لفه فى

هذه الخرق السود ورسم دوائر من البن الغامق على جبينه ، ووجنتيه ، وتفصيل ذلك حين جاء إسماعيل بعد سنة من رحيل كمال ، عندما وصل الخطاب من البلدة تسلمه الأب لحظة ظهيرة ، عبد المقصود أفندى قرأه له ، عنه هذه المقصورة في مدخل فندق الكلوب أصغى إلى النبأ ، اتجه إلى ضريح الحبيب ، وبين الركعة الأولى والثانية عزم وتوكل ونوى تسمية المولود الجديد : إسماعيل ، إذ ترددت في وعيه ترتيل كريم ، أصغى إليه والظلال خاشعة والحضور خفيف والقلب حسير .

« يا أبت افعل ما تؤمر... » .

« وفديناه بذيح عظيم... » .

بعد فراغه من صلاته ، وخلوه إلى وحدته ، تمنع في مجيء إسماعيل ، في مغزى الأخذ والعطاء ، استعاد ماوراه الشيخ عبد اللطيف في البلدة ، بعد أن انجبت هاجر إسماعيل كان بهما ظمأ شديد ، حرك قدميه كسائر الأطفال ، ضرب كعبه الأيمن الأرض فتضجر نبع مبارك ، إنه بئر زمزم ، جعلنا الله من الموعودين ، المصطفين ، الشارين منه ، المرتوين من سلسيل مائه . في فراغ المسجد المغمور بالظلال ، المبتل بالسكينة .

في هذه اللحظة قرر اسم المولود ، مجيء إسماعيل ذكره بميلاد المرحوم كمال رحل صغيراً فله طيب المثوى ، معنى من السؤال والحساب ، يطلب له الرحمة ويتلو الفاتحة على روحه ، فسبحان من أعطى ، وسبحان من استرد ، إنه يسامح من قلب صاف ، مندى ، غير قادر على احتواء الضغينة ، كما أن اليقين غير محدد ، هل يجزم أن صده عند باب البك كان سبياً في فقدان الولد ؟ صحيح أن لكل شيء سبياً ولكن الأعمال والآجال مقدره ، بهذا آمن وسلم .

في البلدة تطلب الأم من الجدة ألا تخبر بحقيقة المولود ، ترجوها إخفاء أنه ذكر ، أن تخبر عنه أنه أنثى ، واسمها فاطمة ، يكنى حرقة قلبها مرتين ، مرة على خلف ، ومرة على كمال .

هكذا ألبيت إسماعيل رداء أنثى ، ولم تناده أمام الأعراب إلا بفاطمة ، على وحتيته ، وضعت دوائر البن المحروق لتخفى ملامحه التي بدت جميلة ، لم تكف بذلك .. إنما زارت الشيخ أبو درية الرجل المبارك ، صاحب واللها ، النبي ، الموقن بعودته ، طلبت منه أن يعد حجبا يقي ابنتها شر العيون ومحبيه من سوء الواردات ، طلب الشيخ مرارة حمامة بيضاء خالية من أى لون كدر ، وقطعة من سعف نخلة أنثى ، أته بما طلب ، أعطاهما حجبا مثلثا طلب منها أن تعلقه إلى صدره عند موضع القلب ، ألا يفارقه أبدا ، أن تحقيه تحت جلبابه بشرط ألا تقع عليه عينا امرأة أبدا ، خاصة إذا كانت ثيبا ، عندما جاءت به إلى مصر ، أخضت عن العيون ، لم تكف عن تلطيخ وجهه بالبن خشية الحاسدين ، وشرار الخلق أجمعين .

أرى لحظة منشرة ، الأب متمدد ، عن يمينه أصلى ، وإلى يساره إسماعيل ، يقول أصلى : لماذا لم تسمنى باسم أحد الأنبياء كما سميت أخى إسماعيل ؟ ، يقول الأب : سميتك اسم أحد المجاهدين ، جمال الدين الأفغانى ، يتساءل أصلى : أهو نبي ؟ ، يجيب الكرم ، المغترب إلى الأبد ، « إنه مجاهد كبير .. » ، فيمتعض أصلى ويتروى حاسدا شقيقه على اسمه .
عند هذا الحد تجلت لى الأم ، وادعة الملامح ، عليها سدول حزين ، عاتبة المظهر :

« أذكر شيئا عن أخيك كمال .. » .

أنطلع إليها حائرا ، فلما عون ناضب ، وما من صور متبقية ، تقول :

« هذا أو ان مناسب ، بعد ذلك لن تذكره أبدا » .
أدقق البصر ، إني راغب في إرضائها ، ألا ترتد عنى خائبة لأنتى لم ألب
رجاءها ، أدركت أنها لم تعرف إلى حقيقتى ، لم تدرك جذر هويتى ، إن
المائل أمامها صورة ولدها ، لم تعرف أنتى مكلف ، مأمور بإتمام مدته حتى
يقضى الله أمرا .

تقول بأسى :

« يعنى ما من ذكر لكمال ، ما من شىء عنه » .

أقابلها بصمت .

تقول وعتابها أشد :

« نسيته كما نسيت سورة يس ... » .

فوجئت ، كأنها ضبطنى لحظة ارتكاب جرم ، كأنها فتحت الباب ورأتنى
عندما كنت أنكح يدى تهديئة لجوى شهوتى واتقاد مراهقتى مع انعدام
الوليف ، وهذا أشد ما كنت أخشاه واحتاط حتى لا يقع ، غمرنى خجل ،
وحيرة ، آن لى أن أقر ، أن اعترف بالنسيان ، باكتماله عندى ، ذلك أنى بعد
رحيلها الذى قدر لى أن أشهده ، فى أيام المرارة التالية والأحزان عفية بعد .
قال أخى على الأصغر إنه رأى الأم فى الحلم ، جاءته بادية الشجن ،
وطلبت منه إبلاغ جمال رسالة منها ، أن يقرأ من أجلها سورة يس مساء كل
خميس ، أفضى إلى على بذلك فكذت أنوح لولا حرصى إبداء الجلد أمام
الأشقاء ، وعندما خلوت إلى نفسى بكيت ، فأحيانا يكون طلب الأحبة
المغترين عنا هينا ، ميسورا ، بسيطا حتى ليثير الشفقة وغوامض الأحاسيس
الأسيانة مع سرعة البت فى التلبية مساء كل خميس وقبل شروعى فى النوم
أبدأ التلاوة ، داومت على ذلك عاما وشهورا ثلاثة ، لم أتقاعس حتى مع

سفرى ورحيلى خارج الديار . ثم بدأ الوهن يدركنى ويتمكن منى ، فكننت أقبل على التلاوة كفرض أنا مكلف به وليس كتلبية شأن الفترة السابقة ثم اكتشفت صباح يوم جمعة أنى نسيت ، فالتمت لنفسى أعذارا ، اضطربت المواظبة ، حتى جرى انقطاعى ، ولم يعد تبنى النسيان يوخز ضميرى ، ويؤنب داخلى .

اعلموا وفقكم الخالق ، البارئ ، الأعز ، أن الإنسان حينما ولى وجهه صاحب فوت ، لأن الأمر لا يتناهى ، وكل منكم فى القائن المستأنف ، أما الماضى فلا يرجع إذ لو عاد لتكرر ولا تكرر فى الوجود أصلا ، لذا يتبدل كل شىء ، يتغير ، ويصير المحدث قدما ، ويلف النسيان كل شىء ، ليست المعانى والصور والحالات وكل مالا يدرك بالحواس فحسب ، إنما الموجودات المادية ، ما يعرف منها ومالا يعرف ، تفضل الملامح فى الملامح ، حتى يصير التعرف إلى أصل الثمرة أمرا مستعصيا .

هل يقدر أحدكم على تحديد شكل الشجرة من رؤية الثمرة معزولة عنها بعد قطافها؟ ، هذا صعب الثمر فى الفروع مخالف للأصول مع أنه كامن آت من الجذور المتوارية ، والثمر ذاته يجب أن يحف ويضمم وأن يتلاشى متى تؤخذ منه البذور ، الفروع لا تثمر إلا إذا بعدت عن الجذور ، وفى طرحها تتغير الملامح وتندثر وان ظل جوهرها خفيا ، المصاحب لهذا كله النسيان ، وما كان عزيزا يهون ، وإلا فهل مرور عام واحد على رحيل الكرم المجاهد يماثل الثانى أو الثالث ؟ فادفن ما عندك ، إن مالا يدفن لا ينبت ! . عند دنو اليوم الذى به تكتمل السنة الأولى ، ألم يطابق اللحظة على اللحظة ؟ ألم يسع فى الصباح الحار إلى المثوى والمرقد ؟ أما فى الرابعة فقد تباعدت الرؤى ، ودنا الفراق من النواصي .

في العام الأول مضى أصل لزيارة المثوى ، غير عابئ بصهد الطريق ، وقر
الناحية ، وقسوة الشمس ، لكنه في الرابع تقاعس ، تكاسل ، ولم يقم بالزيارة
إلا بعد يومين من تمام الذكرى ، هذا ما جرى .. ما كان ، أما أحلامه التي هي
رؤاى .. فلم يعد الوالد يطرقها إلا للاما ، وكأن المغرب الكرم يشعر بلبيب
النسيان فينأى بنفسه حتى عن الدنو عند الغفوة ..

منذ يومين طبقا لميقات هذه الدنيا التي سميت دنيا لدنوها وسرعة زوالها ،
كنت مجتمعا بالأشقاء ، قال إسماعيل إنه إذ يتذكر أباه الآن فيخيل إليه أن البون
شاسع ، وأن الزمن الفاضل سحيق ، كأن أربعين عاما انقضت وليس أربعة ،
أمنت الشقيقة ، قالت إنها لا تراه إلا نادرا ، وإذا زارها في الحلم يقوم بينها
حاجز غير مرئى ، حدثوني وهم مجهولون كنهى ، ولا يعلمون أن شقيقهم غرب
وأقصى .

أصغيت كما كان يصغى ، حتى شرود عينيه صاحبنى ، غير أن ما ألتى في
معارف لم أصرح لهم به ، لم أكشف عنه ، أخبرني دليلي ، أن الإنسان إذا تم
رحل ، وأنه كالراحلة يمر بمحطات ، واحدة إثر الأخرى ، لكل منها مقدار من
الصعب أن نحسبه بقياسات هذه الدنيا ، كما أنها تختلف من إنسان إلى آخر طبقا
للاستعدادات وإمكانات القبول العرفانية ، والقدرة على ثبات المدرك ،
وطول الصون ، ظن أصلى أن أساه سيترف أبدا ، غير أن طوارق شتى نالت
منه ، من مرض ، وغدر صحاب ، وعسر حال ، وقلة مال ، ومضايقة
عسس ، ويزوغ ملذات .

مما عرفته أن المراحل تكون أربعا أو خمسا ، لكنها لا تريد على سبع أبدا ،
وعند بلوغ الأخيرة تنخ الناقه وتبرك الراحلة ، ولا يكون لها قيام صوب الاتجاه
عينه ، قد يوازي ذلك في دنيا الحس اختفاء آخر إنسان في عالم الحس يكتشف

في وعيه عبارة أو ذكرى أو لحظة تتعلق بمن وُفي وتم، عندما أتساءل- ومن طبعي ألا أكنم أبدا- حتى وإن أودى ذلك بي . ألم أطرد من مقام عزتي لأجىء غريبا لأصير من أجهل ، لأكتشف نفسي خطوة إثر خطوة بعد أن كان الأمر يملء يدي ، وجلّه معي ، أتساءل الآن فأقول : ما حكم الإنسان الذي يسمى ، ألا ينحدر من جذع لا يدرى عن جذره شيئا ، لم يرها ولم يطلع عليها ، ثم ما حكم هؤلاء الذين لاتنقى عنهم العيون ولا تنام ؟ لا تساهم الأفتدة ، وقد عرفت بعضه منهم ، إما بالقرنى أو المصاحبة ، ومنهم ، مولانا سيد الشهداء ، وشيخنا إمام العارفين محيي الدين ، كنا نصير المستضعفين جمال بن عبد الناصر .

هنا يتلى في مسامعي وفي قلبي :

« يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .. » .

هذا خوف الزمان .

« وهنا أصغيت إلى من يشلني بعضا مما فاض به مولانا جلال الدين الرومي ، وهذا ما ناسب حالي ، استسمحكم واستأذنكم في ذكر بعضها تبركا وترينا لهذا التلويح ..

استمع إلى الناي كيف يحكى
ويشكو آلام الفراق
منذ أن اجتروني من منابع القصب
بكي الرجال والنساء من تصبيري
أريد صدرا ممزقا من لوعة الفراق
حتى أبسة ألم المهجر والاشتياق
كل من وقع بعيدا عن أصله

يطلب أيام وصله
لقد نحت في كل ناد
وأصبحت قرين التعساء والسعداء
ظن كل واحد أنه صار صديقي
بيد أنه لم يقف على ما يكنه قلبي

عند هذا الحد تجلي لي دليلي .. قال لي :
« عد إلى ما أنت فيه ، أقصد حال الجهات الأربع .. » .
ثم قال لي :

« إن ما شاهدت وما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما
لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من هذا كله ، أما ما فهمته فهو أمانة يجب أن
تؤديها .. » .
ثم قال :
« إسمع .. » .
ولم يكن بوسعي إلا أن ألي ..

* * *

حَالُ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ

«يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى»

(قرآن کریم)

قبل إيغالى فى هذا الحال . تجب الإشارة إلى أن حال القوت مازال غالباً ، مسيطراً ، إنه فى موقع المجرة بالنسبة لشموسها ، أو الشمس التى تأسر كواكبها وتشدهم فى دوران أبدى إليها . لنا لزم التنويه ، أقف فوق السطح ، الممتد ، المغطى بالصهد فى الصيف ، المنبسط العائم فى الحريف والشتاء ، سماء رمادية ، غمامات قصبية ، حلدة مخلقة تحين الفرصة للانتفاض فوق دجاجة شاردة ، أو قطة وليدة ، أو جيفة ملقاة ، من هنا تلوح الجهات والمشارف ، الأزمنة والأمكنة ، إليه تترامى أصلاء الأنعام ، وضجيج المدينة ، تبرز أغنية لا أدرى مصدرها ، أدركها فى مجملها ، حروف الكلمات مطموسة لها بزوغ إشراقى ، الشمس تطل دامية ، وتنتهى فى الغرب قانية ، فما أقرب البداية إلى النهاية ، فسلام من أصلى الغائب ومنى إلى هذه النجمة الأولى الوافدة ، النجمة التى تبدو فى الفضاء السحيق قبل كل النجوم ، التى تيمىء وحيدة فى سماء قاحلة ، حتى إذا بدأ قلوب الأخرىبات أصبح من الصعب تمييزها وكشفها ، وعند الرحيل تبقى بمفردها ، بلا أنيس .

فيا أول البادين ، وآخر الراحلين ، لك الإيماء ، وتحمية عابر غير مقيم ، غالب عليه حال القوت ، مامن أنيس له أو صاحب ، مفرد مثلك ، لك

ناصر البريق ، وطيب المهجوع ، والصبر على المصير المعلق ، والدوام للألق المنفرد ، إذ يتم الظلام تحيىء النجوم ، فرادى وجماعات وعناقيد ، تقول الأم ، هذه أرواح الصالحين البررة ، أما الشهاب المارق فروح تهوى ، إنسان أوفى وأنجز فرضه ورحل ، لكل منا نجمة ، ثابت مادام يسعى ، يبدأ أفوله مع ديب الوهن ، إذ يتم الأجل يهوى إشارة إلى سقوط ورقته من شجرة الخلق التي وقف عندها أملى وأطلع على بعض منها قبل سلوكه مقامات الطريق ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ماكذب الفؤاد ما رأى .. » « مازاغ البصر وماطغى » بل صدرى ماتلى عندى ، فأدرت النظر ، وثبت البصر

فى فضاء المدينة الليلي تيرق لافتات إعلانية متباعدة ، أوضحها لافتة دائرية ، ألوانها زرقاء وحمراء وبيضاء ، أعلى عمارة ناحية غمرة ، يقول الأب إنها قريبة من بيت خلف بك ، أرى أصلى إلى جوار أبيه ، يحمله حتى يشرف ويرى ، الأفق ناء ، وهيب يرتعالى متصاعد ، ودخان أسود سائل صاعد ، يقول : هذه نيران ناحية الأوبرا ، يشير إلى لهب آخر : هذا قرب الظاهر ، يدرك أصلى خوف غامض ، هل تطولهم النيران التي تبدو بعيدة ، يقول الأب : البلد يحترق .

فى السماء الغروبية حامت طائرة غربية المنظر ، تحالف الطائرات التي اعتاد أن يرقها طوال النهار ، طائرة بلا جناحين ، بطيئة كجراة ، فوقها مروحة تدور كمرآح السقف ، يقول الأب بغموض : طائرة غربية .. إذن ، يمكنى تحديد اليوم ، السادس والعشرين من يناير ، عام ألف وتسعمائة واثنين

وخمسين ، هذا ظلام مكتمل ، يعبر أصلى السطح صيبا بصحبة أبيه ، يؤنسه حتى يقضى حاجته في دورة المياه المعزولة ، المنفصلة ، البعيدة عن الغرفة ، عبر المسافة القصيرة يرقب السماء وجلا ، ماذا تحق العتمة ، وهذا الفضاء العجيب ؟.

أتلقت فأرى الناحية الأخرى أبنية قديمة ، خرابة ، يبدو سقف المسافرخانة العتيق ، وهذا السقف البارز الأحدث الذي يعلوها ، حذرته الأم من الذهاب إلى هذه الجهة ، قالت إن غولة تأكل الأطفال تسكن هناك ، لطالما حذق من وراء السور ، متخيلا امرأة يكسو الشعر جسدها ، بارزة الأنياب ، متحفرة لاختطاف أى طفل تطوله ، هاهو ذا يمر أمام دكان صغير يبيع اللبن ، مجاور لمدرسة عبد الرحمن كتحذا ، أول معهد تلقى فيه العلم ، يرتدى جلبابا وصندلا بنيا ، إنه صغير ، تلك ملامحه في طفولته وقد ولت إلى أبد ، أحتفظ سنين ببعض من صور تسجلها ، تلمح إلى ماكان ، غير أن هذا الضابط الغتيت بدد مايدد ، لعنه الخالق .

هاهو ذا يمشى وحيدا ، يرتدى جلبابا ، يتطلع إلى مبنى من أربعة أو خمسة طوابق تحته علاّف ، يبيع الفول والقمح والذرة واللويا والتمس الجاف ، بجواره محل لتجليد الكتب ، في مواجهته رفاعى السباك . لم يره إلا منحنيا على موقد غازى . أصابع يديه مكسوتان دائما بهباب أسود ، يمر ويتثنى عند المنحنى ، يبتلس النظر إلى البيت القديم ، يتمم « بسم الله الرحمن الرحيم » ، يمد الخطى ، إن مايثير خوفه « غية » حمام من صفيح وخشب ، يؤدى إليها سد نحيل ، لا يذكر من قال إنها مهجورة ، وأن عفريتتا يسكنها ، يجرى ، يجرى ، لا يهدأ له قلب حتى يصل إلى مدخل الحارة .

أمام موضع آخر يجب الحذر منه ليلا ، ثمة عفريت من شرار الجن يادو

للمنفرد المتأخر وقد يسد عليه الطريق بحاجز غير مرئى ، تماما كما جرى مع حسن أفندى على ، فوق السطح يقف الأب ، ولولا خشيتى الاطالة لوضعت فصلا مطولا فى هذه الوقفة ، تناولتها فى ذاتها وميقاتها ، فيما تراه عيناه فى الظاهر ، ماتراه فى الباطن ، ما يمر بجأطره من شوارد ، فالحال عسرة والزاد صعب ، لولا ماترسله الجلدة من دقيق وسكر وسمن وبلح مجفف وملوخية وارغفة وأوزة مذبوحة لبان الجوع وألح .

فى هذه الفترة يقرب أصلى من العمر الذى يجب أن يلتحق فيه بالمدرسة ، أبناء البلدة يهزون رعوسهم ويقولون إن هذا قصر نظر فالتعليم له مضاريف ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها لماذا لا يلحقه بورشة ليتعلم حرفة يمكنه بعد اتقانها أن يساعده ، لم يجهم الأب إلا غاضبا ، ما مر به لن يسمح لمثله أن ينال من أولاده ، أبدا لو أن أجل أبيه امتد ، لو أن أمه لم تقتل ، لعرف الطريق إلى سر الحروف ، لتجنب الشقاء العظيم الذى حل به .

صباح يوم مجهول اسمه الآن ، وفى ساعة مندثرة ، انطوت فى المجهول ، مضى إلى مدرسة عبد الرحمن كتحلدا ، التقى بإبراهيم أفندى ، رجل يرتدى جلبابا فوقه جاكته من الصوف ، وغطاء رأس أحمر - طربوش - وعلى جبهته آثار وشم عتيق ، أصغى إلى الوالد الكرم ، إبراهيم أفندى من المصلين دائما فى مسجد الحسين ، وكثيرا ماتجاورا ، وتضافحا عقب انتهاء الفرض ، أوضح المطلوب ، بين القصد ، الأوراق وكيفية تقديمها والتاريخ الذى يجب ألا يتجاوزه ، أما مقدار الرسوم فجنينه واحد ، جنينه لا غير لكنه مشكلة وقتئذ ، توفيره صعب ، وأن يفيض عن الحاجة ليس بالأمر الهين ، واقتراضه عسر ، أما إيجار نصف القدان فإزال متبقيا عليه ستة شهور حتى يبدأ محاولات الحصول عليه . قال إبراهيم أفندى : يمكنك أن تكتب شهادة فقر ، غير أنه أبى ، هذا

نذير سبى ، أن يبدأ رحلة ابنه بورقة استجداء وطلب اعفاء ، إنه يتطير من ذلك ..

عند ذلك الحد تجلى ذليلي ، قال آمرا :

« لا ثبت ... » .

ثم قال لى :

« لا تكن كالماء الراكد ، فإن ثباته يجعله نتنا ... » .

ثم قال :

« كن سيالا كجريان الماء الذى لا يثبت على شئ » إلا زمن مروره عليه ... » .

فوليت الوجه .

الجهة الجنوبية

.. يختلف الضلع الجنوبي من السطح عن الجهات الأخرى ، ذلك أن الغرفة تقوم فى هذه الناحية ، إلى جوارها دورة المياه فتلك مسافة ملغاة من السور ، يتبقى جزء صغير لا يتجاوز طوله مترين ، يشكل ما يشبه الشرفة مع ضلع السور الشرقى ، من هذه المسافة القصيرة يؤدي الفراغ إلى الأفق ، أفق مغاير ، مختلف عن الغربى ، ذلك أنك أينما وليت النظر فثمة مآذن رمادية ، تحدد وتؤشر الطريق المؤدى إلى أعلى عليين ، عند حد الأفق تقوم مآذن مهيبية ، ظلال أبدية ، تصل السفلى بالعلو ، تنتهى بجواسق وأهله ، وقرب منتصفها الأعلى أعمدة نحيلة يتخللها الضوء ، فتبدو الفراغات محددة ، يقول الأب ، إنها مآذن الرفاعى والسلطان حسن ، ولأن أصلى كان غرا بعد لا يعى ، ظن وجود صلة مابين هذه المآذن وعم رفاعى السباك العجوز .

عند نقطة أخرى من عمره المبكر ظن صلة أخرى بالرفاعي الذي يستدعونه ليخرج الثعابين من جحورها ، أو يمشى فوق جمرات الفحم المتقدة ، ويتلع الأمواس ، وقطع الزجاج ، وحتى وصوله إلى سنّ متقدمة لا يذكر مسجد الرفاعي إلا وتتموج في ذهنه صور مضيية قديمة لم رفاعى ، ومما يناسب ذلك نادرة لأبس من ذكرها ، فعندما كان إسماعيل ابن عامين أو ثلاثة ، أصغى كثيرا إلى الوالد الكرم إذ يذكر اسم النحاس باشا ، وعند خروجه من حارة الطبلاوى ومروره أمام دكان مبيض أوعية نحاسية قرب مدخل الحارة ، إذ يرى الرجل يستند إلى الجدار يدور داعكا الوعاء بقدميه ، يقول لنفسه : إذن .. هذا هو النحاس باشا ! .

هذا حال الطفل ، الغر ، الذى تختلط عناصر العالم عنده ، من واقعية وغيبية ، وقصية ودانية ، ذلك عين حال من دنا وقارب على اختتام الطريق ، بداية الدائرة هى نهايتها ، غير أنى لا أقول بالكلل أو بتشابه الأحوال ، فكل إنسان كون بمفرده .

حدث يا كرام أن أصلى سعى بعد هجرة الوالد الهجرة الكبرى إلى عزيز أحبه وظل على صلة دامت عمرا به ، فهو سبب جريان رزقه ، وقد مر ذكره ، فى تلك الأيام . كان احتراق قلبه متقددا ، فى أوجه ، ولهيبه فى اتقاده ، ونار حسرته حامية ، كان يحيل إليه ، بل يكاد يوقن أنها لن تحبوا أبدا ، كان يمضى إلى من عرفهم الراحل فينسلم ويهديهم التحية الطيبة ، ويجلس فى نفس الموضع الذى كان يقعد فيه الوالد ، ينحى عين انحناءته ، ويشير اشارته ويتحدث بأيقاعه ، بل يسلك نفس الطرقات التى اعتاد المرور بها وخلت منه إلى الأبد .

يمر أمام مبنى وزارة الزراعة فيلمع ، ويرنو إلى المعابر والمفارق والنواصى التى وطأتها القدمان اللتان لم تتركا أثرا بعد ، ويردد : يا حسرة على ما فرطت ، ليتنى

زرته يوم أن تكاسلت ، يوم أن تقاعست ، من بين الذين مضى إليهم هذا متمهلا ، وتفحص الجدران التي وقعت عليها العينان اللتان انطفأتا ، لن ينعكس فيها شيء بعد ، إذ ولج غرفة الرجل المريض شم رائحة بول ، لم يفارق الفراش منذ شهر ، بجوار السرير رأى أنبوبة التبول المعوجة ، كان نحىلا ، مترجرج النظر .

قال أصلى مخاطبا المريض : أبى يسلم عليك ، قال الهرم الذى أقمى وحط رحله : أحمد لايسأل عنى .. حتى هو؟ قال أصلى مغالبا جواه : برد أزمه الفراش . قال الرجل محذقا فيما لايرى ، ولايبين : أحمد لم يستسلم لمرض أبدا لم يقعه إعياء .. هل استسلم للكبر؟ قال إنه يود رؤيته ، يود الاستماع إلى حكاياته ، ولو سمح الزمن بصحبته إلى ضريح سيدنا الحسين لصلاة الجمعة ، ياسلام .. هذا عين المنى ، قال إن جلسة ما بعد صلاة الجمعة عند الصاوى تبدو كحلم عصى الآن ، لم يتخلف عنها أبدا .. أبدا . ومنها تعرف إلى الأب ، ثم قال : إن هذه الجدران منذ أن تبذلت تغير كل شيء . طعم الأيام ، ولون الغروب ، ومذاق طلعة النهار ، وهناك وهن الجسر ، قال إنه يريد الخروج من هذه القرية الضيقة إلى العالم الفسيح ، يريد العودة إلى السقف الذى أظله فى مصر ، حار أصلى ، عن أى قرية يتحدث؟ . مال الابن الأكبر هامسا ، إن الأماكن تختلط على أبيه ، والأزمته تتداخل عنده فجأة كذا الأسماء ، شخص واحد لم يغب عن باله ، لم يأفل أبدا فى وعيه ، هو أحمد الغيطانى .

وانصرف أصلى إلى الشوارع موجوعا ، لو أن الوالد قام بهذه الزيارة لأدركه حزن وأسى ، أهذا ما انتهى إليه الرجل الذى كان سببا فى جريان رزقه ، الذى اقترب منه ونأى ، الذى أحبه وأبغضه ، كان الوالد يردد دائما أن البك لو رحل فلن يطول به المقام ، قديما بدأ أمرهما والبون شاسع بينهما ، ولولا مشاعر شتى

ودقائق تستعصى على التفسير المتاحة ولكنه الإنساني لانتهى أمرهما منذ أمد بعيد .

بعد أن عمل الأب في وزارة الزراعة وتقلب بين أقسامها ، استقر في قسم الشئون القانونية ، كان البك وقتئذ ذا حول وهيبة ، والوالد عاملا أمره ضعيف ، يمكن لأى موظف أن ينهى خدمته ، أن يقطع رزقه بجرة قلم ، لكم كظم في نفسه وحاش روحه عن ابداء انفعال خشية أن يلحقه أذى ، غير أن مايجب تشييته والتدقيق عليه أنه لم يأت مايعتبره لكرامته ، أو حاطا لقدره في نظر نفسه وربما هذا ما جعله يلزم عمله كعتال زمتا ليس بالقليل ، يحمل أجولة البذرة فبرغم الجهد الجثائي الشاق ، إلا أن عمله هذا جنبه التعرض لمطالب الموظفين الصغيرة .

أبدا .. لم يتمكن منه الاحساس بالضعفة ، لم يأت ماينقص من قدره في حق ذاته . ايضاح الأمر هنا دقيق ، صعب ، لكن .. ربما انضح بضرب المثال . إذ اعتاد بعض من زاملوه أن يمشوا إلى بيوت من يرأسونهم لقضاء الحوائج ، وأداء الخدمة أما هو فتجنب ذلك ، تحاشاه قدر الطاقة ، إذن لماذا كان يتردد على بيت البك ؟

أقول أنا الفقير إلى المساعدة لمواجهة هذا الكون الغامض علىّ ، أن خطاه لم تقده بتأثير ضعة أو عن خضوع وامثال ، إنما بتأثير شعور متصل بضرورة رد الجميل والمودة والرغبة في القربي ، هنا لا بد من الاشارة إلى نقطة دقيقة حرج أمرها ، ذلك أن البك كان بمثابة الحامى له من مضايقات الموظفين . كان الوالد في مواجهة مضايقاتهم ، واستهانتهم بشأنه ضعيفا ، أى غضب أو اضطهاد يعصف به ، يهدده ، كانت صلته بخلف بك سندا ومعونة ، واستمر الأمر بعد انتقاله إلى العمل كقاض من القضاة .

هل أدركتم ماردده الوالد دائما، لو أن ابن عبد الناصر لم يفعل إلا حياية الضعيف في مواجهة القوى لكفاه وحسبه ، غير أنى أعود إلى الزمن القديم ، أكرر الحيرة ، لماذا استمر في التردد على البيت ؟ لماذا .. حتى بعد وفاة ابنه الأصغر كمال ، مع اصرار الأم على أن المقابلة السيئة هي السبب في رجفة الولد ، وخضته لماذا ، هل يستوى البحران ، هل يلتقى الجمعان ؟ ، هنا تجلت لى الأم غاضبة ، تلك هيئتها التي عرفها أصلى ، إذ يعتم وجهها ، وتبدى ضيقها الذى اعتادت أن تكظمه عنه .. قالت :

« كف عن ذلك ، أنت تخوض في سيرة أيبك .. » .

شغلت عن سؤاها بتأملها ، هي الغاربة ، الراحلة ، التي يطويها الوقت بأسرع مما قدرت ، قالت :

« هذه فضائح .. لماذا تجرنا بين الناس ؟ » .

ثم قالت مؤنية :

« ألا تعرف ظروف أيبك ، أبوك كانت ظروفه وعرة ، صعبة ..

ثم قالت :

« طول عمره شقى ، وبسردك هذا تزيد شقاء .. » .

مسافة تفصلنى عنها ، وثمة حاجز غير مرئى يقوم بينى وبينها ، وعندما انتهى التجلى الخاطف ، المارق ، حرت ، كيف لم أدقق أكثر ، في أى عمر بدت ، وأى ثياب ارتدت ؟ ، هذا فوت آخر ، نزل بي سكون ، وصمت ، وحيرة ، وددت ألا أعصى لها أمرا ، خاطبنى العقل أن أكف ، غير أن الحيرة لم تهدأ . ماذا عن تأثير هذا الموقف الذى أفضى به الأب إلى ابنه بعد ما يقرب من أربعين عاما على وقوعه ، في آخر زيارة قام بها إلى بيته ، بلدا وكأنه يقصن ماجرى أول مرة ، ماسمه أصلى في هذا اليوم لم يبيل في خاطره حتى بدأ معراجه .

قال الأب : إنه كان بصحبة البك في محطة مصر ، كان يقف على بعد منه ، كان البك يتحدث إلى ثلاثة من صحبه جاء يودعهم ، فحأة التفت ناحيته ، اتجه إليه رافعا عصاه ذات المقبض العاجي المفضض ، انبال عليه ضربا على مرأى من الناس . هكذا بدون سبب ؟. أجل .. بدون سبب ، قال الأب حائرا ، في صوته دهشة كأن ماجرى وقع منذ لحظات قصار : وأنا لا أعرف السبب حتى الآن ! ثم قال : لم يد منى أى تصرف يدفعه إلى ذلك ! ، صمت ، جلسا متواجهين ، يتقلها عصر خريفى ، ويلوح زمن آفل على مقربة ، وغربة يتأجج اشتدادها ، ليست الواقعة الوحيدة التي حيرته ، ماذا عن هذا اليوم التائى ؟ .

حدث ذات غروب مقض أن رجع إلى البيت مهموما ، ليس من عادته إخفاء منغصاته حتى إذا لزم الصمت في البداية . ألحت الأم فتكلم ، قال إن امرأة البك سألته بلهجة ذات معنى لاينحى ولايقب ، هل رأى الملاحق القضية ؟ ، ست من الفضة الخالصة ، كانت فوق المضدة الرئيسية ، قال : ألم تسألى الطباخ ؟ قالت : إنما أسألك أنت . صمت ، لم يفصل الأمر ، إنما انقطع عن البيت عاما ، اتصل به البك في الوزارة ، أوصى الصاوى الخياط ، لكن الأب لم يصغ ، لم يلب ، أبدا .. لم تكن صلة بين تابع ومتبوع ، بين سيد وخدام . بالأخص في المراحل الأخيرة من الرحلة ، كثيرا ماردد ، هذه السيدة لن تفهمنى . لن تعرف دوافعى لزيارة البك ، أبدا لن تفهم .

بعد انتقال البك من الوزارة ، بعد أن أصبح قاضيا ، لم ينقطع عنه ، كان يزوره : ويصحه إلى صلاة الجمعة ، إلى ضريح الإمام الشهيد ، إلا أنه يعود أحيانا غاضبا ، حزينا ، يقول : إنه لن يذهب إليه أبدا ، تسأل الأم وتستفسر ، غير أنه لا يوضح ، وبعد لحظات قصار. تعلن ارتياحها . لم تنس

ماجرى لكحال ابنا ، لم يوضح الوالد بواعث كمده ، غير أن أصلى ألم بشذرات ، أحيانا تطلب منه الزوجة شراء أرغفة أو قضاء حاجة من السوق ، ينصرف وعنده ضيق ، غير أن القطيعة لم تدم ، يتصل به البك أو يسعى هو إليه ، وإذ يطلب منه البك أن يمر بالكواء ليأتى من عنده بياقات قصانه لا يعد ذلك حطا من شأنه ، فى سننى الطفولة اعتاد أن يصحب عياله معه أينما ولى وجهه ، بقى فى وعى أصلى محل الكواء قرب ميدان الإسماعيلية ، وكان ضيقا ، تنبعث منه رائحة بخار ، وهج فاش ساخن ، تؤدى إليه درجات ثلاث ، كواء تخصص فى تنظيف ياقات السادة ، بيضاء ، صلبة ، تثبت إلى القمصان بزراير صغيرة لاترى ، لم يبد الأب تدمرا ، لم يفصح عن شعور يشى بوقع الاهانة .. لماذا؟ هذا ماحير أصلى ، أخلو الخطاب من نبرة السيد؟ ، إذن .. هل استشعرها فى الزوجة؟ ، ربما .. مامن يقين قاطع ، مامن نبأ دال ، غير أن ماعينه أصلى وخبره عن قرب ، بروز الندية فى أمر العلاقة ، بتأثير دوام العشرة؟ ، ربما ، أم أن ذلك نتيجة لهذا الحقى الذى لايرد ولايبين إلا بغتة؟ الذى يقبل ويدبر ، يكشف ويحجب ما تعارفنا عليه أنه الوقت ، الزمن ، الدهر؟ ربما . مع العلم أن هذه التسميات كلها لا تحيط به ، هل قربها وساوى بينها هذا القاهر؟ ، بما .

عندما طال المرض بالرجل سعى إلى الموظفين القدامى بقسم الشؤون القانونية ، حدثهم عن إعياء البك الذى عرفوه وعملوا معه ، قال لبعضهم إن السؤال عنه فيه ثواب وأجر عند من يحتسب الأجر ، إنه وحيد فى رقدته ، ذكرهم برقم هاتفه ، بعد أيام قال لامرأته .. دنيا موحشة ، تصورى .. لم يسأل عنه أحد ، لم يتخلف عنه بعد بدء مرضه .
قبل بدء رقادده كلّ بصره نور عينيه ، اعتاد أن يمضى إليه صباح الجمعة ،

يصحبه ، يمسك ذراعه ، ينيبه إلى المنحنيات .. إلى انتهاء الأرصفة .. إلى حفر الطريق . إلى العوائق .. إلى موضع مناسب لانتظار عربة أجرة ، يترقق قلبه إذ يرى الرجل الذى كان عزيز الجانب ، مهابته تملأ العيون ، منيعا ، لايلين لسلطان عند نظره قضايا الخلق ، وله فى ذلك حوادث شتى .

هذا الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، يلين له ، طوع يده ، يرتجف عند أقل بادرة لايتوقعها أو صوت مفاجئ ، الرجل الصارم ، من عرف بقوة حضوره ، عند اعتلائه منصة القضاء ، يبدو كطفل أسلم القياد ، هذا مما أوجع الوالد ، يخبره ويطلعه بين الحين والآخر على الشوارع التى يمران بها ، قد يتوقف البك ، يسأل عن معلم معين ، أباق كما هو ؟ أحيانا يقول ، لماذا جئت بي إلى هذا الشارع ، أريد أن أمشى فى طريق آخر . يقول الأب : لكن هذا أقرب ، عندئذ يغضب ، يتوقف وقد يأبى الاستمرار .

مرة طلب منه أن يعود إلى البيت ، نبه الوالد إلى أن صلاة الجمعة ستفوتهما ، لكن الرجل أصر ، راح يحدث نفسه بصوت مرتفع ، رثى حاله وتمكن العجز منه وقلة حيلته مع ضعف بصره ، قال إن أحمد يتحكم فيه ، يملئ عليه ارادته ، أغضب ذلك الوالد ، كيف يخطر له مثل ذلك ؟ ، انصرف مضمرا النية على بدء القطيعة ، البك صار عصبيا ، لايطيق جدلا ، أما هو فصحته لم تعد تقوى ، حتى أنه لم يعد قادرا على المشى مسافات بعيدة ، وانتقال المسكن من الجبالية إلى تلك الضاحية نأى به عن عادة الزمن القديم ، لكم مشى ، من جهينة إلى طهطا ، من قرية إلى قرية ، من مدينة إلى مدينة ، من الجبالية ، من مسجد الإمام الشهيد إلى وزارة الزراعة بالدق ، لكم سعى ، حفظ ملامح الدروب والعطفات والنواصي واللافئات وخصائص المكان وتوالى الحارات ، كان يستيقظ مبكرا ، يصل ويغضى ماشيا ، هكذا يدخر مليات

التذكرة ، مالدیه يكفيه بالكاد ، ومايدخره يحتاج إليه البيت ، لم يقلل هدوءه
بأله ، ولم يبدد يسر أحواله إلا خلو البيت من زاد قليل .
مما أحطت به أن ظروفًا عسرة مرت به ، جعلته يرتاد منها شاقة .. صعبة ،
خاصة بعد مجيء الأولاد وتقدمهم في التعليم ، وتزايد الحاجات ، لم يقل لهم
أبدا إنه كان ينتهي من عمله في الوزارة ليبدأ جهدا شاقا في مخزن للقصبة ناحية
أمبابه . يكسر العيلان ، يعدها للعصير ، لم يفض إلى الأم بذهابه إلى مرسى
للقوارب القادمة من الجنوب محملة بالأحجار البيضاء المقطوعة من الجبل ، لم
يقبل إنه حمل الأحجار على كتفيه ، يفرغ القوارب مقابل قروش قليلة ، لم
يحدث عن هذا . لجأ إلى أماكن نائية في المدينة حتى لايلمحه أحد الجيران أو
المعارف ردد بينه وبين نفسه ، العمل ليس عيبا ، ولكنني لا أريد أن أكسر
نفس الأولاد .

لم يطلق أبدا مجرد تخيل أنه سيضطر إلى اخراج جمال أو إسماعيل من المدرسة
بسبب ضيق ذات يده . بذل أقصى مايمكن لقواه الجثمانية أن تبذله ، غير أنه لم
يبن ذاته أبدا ، هذا مايتجنبه ، مدافع عن نفسه حتى لايدنونه أو يقع فيه ، ولو
أنه أعطى الوسيلة الأفضل للقصر ، لانتعاس ، لكن شاء عسر الحال إلا أن
يلازمه ، ان يحرم تحصيل العلم ، فلم يعد يوسع إلا بذل الطاقة وتقديم القدرة
المتاحة ليوفر مايكفي الأود ، أفهم ذلك وأجله ، غير أن كنه الصلة بينه وبين
البك مما لاأقدر على الوصول إلى لبه وجوهره الدفين حتى وقت تدويني هذا .
لم ينس أصلى تعابير وجهه الأسيانة ، وحزنه البادى عندما دخل إلى البيت
عصريوم بعيد ، حط قاعدا ، ينوء بالهم ، قال إن البك تلقى خطابا رسميا بإنهاء
خدمته ، آله لهجة الرسالة الجافة الموحشة ، الخالية من عبارة شكر أو مجاملة أو
إيماء حتى إلى سنوات العمل الطويلة ، الحافلة بخدمة الدولة ، قال إن انتهاء

الخلعة نذير يلدنو الأجل ، بلنا مكشبا ، كايا ، وخلال الأيام التالية تردد كثيرا على البك . يقول البك مخاطبا صحبه : إن أحمد من محاسيب سيدنا الحسين ، وأنه من زمرة سيد الشهداء ، قال هنا كأنه لملم بما جرى في الأسفار والمواقف من هذه التجليات المباركة ، لكن أتى له ذلك ؟ .

قبل عام من بدء الرحلة الكبرى ، جلس الوالد في الشقة صامتا ، قال بعد حين : أما من وقت عنك لتزور خلف بك ؟ ، تسأل جمال : أعلنت إليه ؟ قال بأسى : الرجل مريض ، أجرى عملية جراحية بعد انجاس بوله ، دس يده في صدره ، أخرج أوراقا شتى وقصاصات ، اختار منها واحدة ، فردها ، مدها إليه ، هنا عنوان المستشفى ، ورقم الغرفة ، تناول أصلى القصاصه ، قرأها ، زدها ، كان مشغولا بمواقيت عدة .

فيها بعد تمنى لو أنه زار الرجل ، كان الوالد يسر بصحبة ابنه في كبره كما سر بذلك في صغره ، لكن في العمر المتأخر لم يكن الأمر بيده ، هنا من مساوي أصلى التي لن أسلمحه عليها ، ولن أتقبلها منه ، لو أنه بذلك الجهد السير ، لو قفل وقت جلوسه بالمقهى ، لو خصص الزمن البسيط لبعث سرورا وراحة عند من جاء به إلى الحياة الدنيا ، وان كان هنا قيس يسير من حسن الأفعال يخفف مرة عرج أصلى على الوزارة لسبب غير واضح عندى الآن ، اتجه إلى المر حيث المقعد الذى أمضى عليه الأب أوقاتا طويلة ، صحبه إلى الموظفين ، تبعه ، قلمه فرحا ، عند تزولها الدرج رجاه أن يعرج على فلان ، فلم يعص له طلبا ، في المر توقف فجأة ، نادى على أحد المرعين ، صافحه ثم التفت إلى أصلى . قال : جمال ابني .

في ليلة أخرى كان جمال في طريقه من مكان إلى مكان ، فارق عربة صاحبه ، ثم عرس قريب ، لم يكن قد قرر الذهاب ، غير أن وصوله إلى شارع

قريب من مقر العرس دفعه إلى المضي ، إنها ابنة إبراهيم أبو الفضل آخر من زاره
الوالد.ليلة بدء الرحلة والهجرة الكبرى ، دخل أصلى صالة النادي ، رأى جمعا
جله قادم من جهينة والنواحي القريبة للتهنئة والحجامة ، عندما نظر إلى
العروس ، استعاد ليلة مولية ، قصة ، صحبه أبوه لزيارة إبراهيم في بيته
بالعباسية ، جلسا ، دخل عليها طفل صغير ، بدا غاضبا ، طبط عليه والده
وحنا ، بعد خروجه قال : الولد يغار من أخته ولا بد من معاملته بالحسنى
والرقة ، وأوما الأب. مؤمنا ، هذه العروس المكتملة ، ناهدة الثديين كانت ابنة
أيام لاغير في هذه الليلة النائية ، عندما أنجبت امرأة أصلى ابنتها ، قصد متجرا
بيع اللعب ، اشترى طائرة صغيرة وعلبة ألوان ، قدمها إلى محمد ولده ابن
السنوات الأربع وقتئذ قال له : انظر ما أحضرت لك اختك . غير أن نظرات
الصغير بقيت سابحة في الفراغ ولم يبد عليه أنه اقتنع .

عندما خلا بامرأته ورفيقه سفره - التي أصبحت امرأتى وصاحبة فترقى التي
قدر على أن أقضيها بدلا منه - قال : انتهى الولد يغار من أخته ولا بد من
معاملته بالحسنى ، لسبب بعيد . تذكر لهجة إبراهيم أبو الفضل زمان ، قالت
امراته مستنكرة : طبعا إنه محمد ، ثم كررت ، إنه محمد ، إنه محمد .

دخل الأب إلى صالة الفرح مبتسما ، هذا حاله إذ يلقى نفسه بين جمع
وصحبة ، غير أنه لم يركز النظر ، لم يسدد البصر تجاه ابنه ، لم يلمح عنده السرور
القديم بمجيء ولده ، بظهوره في مكان يود أن يصحبه فيه . ولّى هذا فلم يعد
يؤثر فيه لاحظ أصلى ذلك فتأسى ، كما لاحظ نحوه ونقصان وزنه ، وترنح
مشيه وهذا مستحدث غير معهود عنه ، تزايد أساه حتى غمقت مداخلة
واعتمت مشاركته . التفت إبراهيم إلى المدعوين . قال بصوت مرتفع : هذا
بركتنا ، قعد ، غير ملتفت إلى ابنه ، كأن حضوره عارض ، استثنائى لا يعنيه ،

راح يسأل المحيطين ، خاصة القادمين من النواحي النائية ، يستفسر عن رجال ،
عن مصائر ، لكنه كلما ذكر اسما يقول أحدهم : تعيش أنت . فجأة صاح أحد
المدعوين : اسمع يا عم أحمد ، أرح نفسك ، كل من تعرفهم ماتوا ! .
عندئذ لزم الوالد الصمت ، وبقى في شroud ونظره ساع يمر عبر الفراغات
التي تهطل الحضور ، وعند الانصراف سلم شاردا ، صحبه أصلى ، مشى إلى
جواره في الشوارع الهادئة ، المدثرة بظلال وأضواء متداخلة ، يتقدمها ظلها
حيناً ويتراجع حيناً ، لا يتبعها ، إنما يتقاد إلى مصدر الضوء الذي هو موجد
وباعثة فجأة قال الوالد الكريم : تغير الزمن .. وتغيرت الدنيا . وكأن أصلى
بوغت باللفظ يتلو اللفظ ، حدث الوالد نفسه ، فلو أن ابنه لا يصحبه لقال ما
قال ، يستوى وجوده أو انعدام رفقته ، والحق أن الوالد لم يبدأ الانقطاع عن
الرفقة ، فعندما كان الأمر بيده لم يقصر أبدا ، إنما حافظ وصان ، وسعى ،
وعندما خرج النظام عن طوعه ، واتخذ كل سبيله في الحياة سرى ، سعى ، غير
أن ذلك لم يدم ، أصلى هو الذى بدأ الفرقة ، والفرقة مضادة للرفقة ، قال سيد
الخلق ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، فالعالم من علم الرفق والرفيق
والرفوق ، فما من إنسان إلا وهو رقيق مرفوق به فهو مملوك من وجه .. مالك من
وجه .

عند ناصية مؤدية إلى طريقين متباعدين لن يلتقيا أبدا ، توقف الوالد
فجأة ، مد يده فى وقفته المفاجئة رغبة فى التأى ، وسعى إلى الانفراد ،
تصرف لم يكن ممكنا أن يأتيه أبدا فى الزمن القديم ، الحق أن أصلى كان فى
هذه اللحظة راغبا فى الصحبة ، وكعادته عن اللحظات المؤدية إلى الفراق
تنتفض كل المشاعر المؤجلة ، ود أن يخطو إلى جواره ، أن يصغى ، غير أن
الوالد أدار ظهره ، قال إنه سيركب من هنا ، لم يتذكر العبارة فيما بعد إلا

واستدارة ظهر والده ملازمة لها ، وبعد وقت معلوم إذ يستعيد اللحظات لا يرى
أباه إلا موليا عنه في هذا الطريق . قال كلاما يرجوه فيه أن يخطو متمهلا ، أن
يتبه عند تزوله في ملبية نصر .

بعد يومين أثناء زيارته للبيت حكى لأمه عن العرس .. عن ابنة إبراهيم التي
عدها طفلة ، عن مرور الأيام .. عن ضيقه من ذلك الغشم الذي خاطب
الوالد قائلا إن كل من يعرفهم ماتوا . دهش عندما أخبرته أمه أن الوالد لم يرجع
إلى البيت ، أنه قضى هذه الليلة عند صاحب له في الهرم ، أصغى ثم صمت ،
لم يجبره حتى بمقصده ، فأى أبواب أوصلت ؟ .. وأى حواجز أسدلت ؟ ،
يستعيد الخطوات المتعددة ، الخطى المثقلة البطيئة ، يسعى صوب ليل أليل ،
أمضى عمره ساعيا إلى كل الجهات ، فلم يدع جهة إلا يم وجهه شطرها على
قلميه ، ليس للإنسان إلا ماسعى .

كل إنسان يبدأ رحلته ، يقطع منها المراحل وهو لا يدري ، يمشى حيناً ، يبحر أو
يطير ، يشرف أو يغرب ، لكن المدى واحد ، والسعي جوهره لا يتغير ، الحثيث أو
التمهل ، ومع انقضاء كل مرحلة ينتهى شوط لا يتكرر ، فالطريق ممتد وان دار ،
مستقيم وإن تشعب وتفرعت منه الدروب ، والوالد الكرم من قلة قليلة قطعه كله
مشيا على قلمين ، بلا دابة ، بلا واحة ، بلا مركبة ، وعندما بدأ الهجرة الكبرى
سعى واقفا ، لم تختلط عليه الرؤى ، أبدا لم يرقد حتى يعافه أهله إنما أتم سعيه وأن
سعيه لسوف يُرى . صحيح أنه وهن .. لكنه لم يقعد . صحيح أن بصره ضعف ..
لكنه لم يكمل صحيح أن مشاعر من الزمن الأول اتناثته ، ألم يقل للأم مرة : تهتمين
بالأولاد ولا تهتمين بي . لكن مهلا .. حتى لا أنساق فيما أوغل فيه أصلى ، يجب ألا
يقب عني أن جبال غمري وإن كتته ، فالخمر ، الخمر .

ماقاله لها طرح ظروف لا يد له فيها ، كثيرا مارآه أصلى مهموما ، محمقا إلى

السقف ، ربما تبدر منه ضحكة مفاجئة ، يظل الباعث خفيا ، ربما خاطب الصمت متأوها « ياسلام » « آه يابوى » فما الذى أضحك ؟ وما الذى أبكى ؟ وما الذى أنطق ؟ وما الذى طاف بالحدقتين عند تواربها عن العيون ؟ إن الصور المستعادة جالت ومرت في أوقات الانفراد وثوء الوحشة وهجرة الصحبة ؟ إن هذا ما لم يعلمه أصلى ولن ألم به ولن أقف على شيء منه ، ليس لنا إلا التساؤل والفضول اللامجدى ، لكم أشفق هو على خلف بك . في التجول الذى لاراد له ولا مانع للوقت كان يعي دنو الرحلة من نهايتها ، ينقطع عنه غاضبا ، لكنه بعد ليلة أو ليلتين يلوم نفسه ، يقول : كان لا بد أن أكون أكثر صبرا ، وعندما قال ما قاله كان يجب ألا أرد . فالرجل صار عاجزا ، يجب احتمال . ثم يقول مخففا عن نفسه لكننى تقدمت في العمر.. لم أعد مثل الزمن الأول .

في صباح أحد الأيام مضى إلى عمله عاقدا النية على مكالمة الرجل والحديث إليه مستفسرا عن أحواله ، عندما وصل إلى مبنى الوزارة قالوا له ، خلف بك يرجوك الاتصال به . لم يسع إلى هاتف . إنما مضى إلى البيت قبل أن يتم يومه ، قال أصلى مداعبا : عدت إليه مرة أخرى ، قال الوالد مهونا ، مفسرا ، إنه سبب جريان رزقى يا جمال .

كان الوالد الكريم يحتفظ بأغراضه وحاجياته في قفة من خوص مجدول يتناولها من حين إلى حين ، يفردھا ، ينفض التراب عنها ، في حافظة عتيقة قصاصة من مجلة « المصور » ، حوار مع قاضى الخليفة وصورة له إذ يعلو المنصة متشحا بشریط أخضر ذى نجوم فضية ثلاث . كان يطلب من أصلى أن يقرأه ، ويبدو أنه حفظ عباراته ، حتى أنه كان يردد من ذاكرته بعضا مما قاله البك في هذا الحوار . احتفظ بشال حريرى مطرز أهدها البك إليه إثر عودته من

الحجاز مطرودا لأنه وقف ضد من أراد إنزال ظلم في غير ذى وجه ، هكذا روى الوالد وهذا مقاله .

مرة واحدة أحاط عنقه بهذا الشال الحريرى ومضى إلى مكان ما ، في مناسبة لم يدبر عنها أصلى شيئا ، كذلك أنا .. غير أن مالم ينسه جمال أبدا من امر هذه العلاقة لحظات بقيت حية واضحة إذ حدث أن مرض الوالد ورقد أياما ، مرة من المرات القلائل التي اضطر فيها إلى ملازمة فراشه ، في مساء مكتمل ، طرق باب البيت ، إنها المرة الأولى والأخيرة التي زار فيها الأسرة ، بدا الوالد نحجولا ، لا يدري مايفعل ، حتى أنه أنهى الرقاد وقام مغالبا إعياءه وأبلى فائض الترحيب ، وعند تأهبه للانصراف .. هنا نودى على ، أرى الأم في نفس موضعها الذي تجلت لى فيه ، ملاحظها لوم وغضب صريح ، صارم ، غير ذى عوج ..

« جمال » .

ما تزال تظنتى ولدها ، لا تدري في دار هجرتها انى لست هو وإن كنت هو ، فسبحان من أطلع بعض قومه على أسرار ، وأخفاها عن آخرين .. امثلت وأجبت بالنظر ..

« يا جمال ، تعلم أن هذا يضايق والدك ، فابق شيئا مكمنا .. اصغ إلى مرة وأطع .. » .

كذت أسألها عن الوالد ، لماذا لم يتجل لى ؟ لماذا لم يأمرنى هو؟ ، كما استوقفتى كلماتها أن أصغى لها مرة ، ألم يطعها أصلى أبدا ؟ هل خالفها بحيث لم يعد تقبل لمزيد؟ . هذه المرة كان صوتها مؤثرا ، وفيه نبرة لا ترد ، فسكت ولم أتم ، وعلى مهل عاودت التحديق إلى الجهة الجنوبية ..

« فهل ترى لهم من باقية »

(قرآن كريم)

.. تلك مآذن أفق الجنوبي ، لكل منها حضور ألقى ظلا في قلب أصلي ،
منها السامق ، مآذن مسجد محمد على التحيلة ، المهيمنة عند الحد ، ومآذن
السلطان حسن والرفاعي المتقاربة المهيبة ، مآذن قصيرة غير أنها تعلو على البيوت
المجاورة ، تعلن عن مئادى أحباب مجهولين ، أو جند مجاهدين ، أو أغراب من
أهل الطائفة قضاها هنا ، قم بعضها مدبب ، والآخر مستدير ، وكلها حافة ،
متحلقة بالثلثنة الأوضح . الأول ، الألفظ ، الأقرب إلى الأفئدة ، الطالعة
دائما ، مستمرة الصعود في ثباتها ، إنها القائمة على مئوى الضريح القاهري
لناصر المستضعفين ، لمن حيل بينه وبين الماء قفضى ظمأ ، الإمام الحسين ،
مثلثة يراها أول النهار وحتى غروبه ، في ليالي رمضان يتقلد خصرها بطوق من
ضوء أخضر ، في ظهيرة حادة يتطلع جنوبا ، في شرقة المثلثة اللاترية يرى شيئا
يبدو ضئيلا فلا يحظر بياله أن الحجم يتضائل بسبب البعد ، يرى يديه إذ
ترتفعان لتلامسا أذنيه ، لا يصل الأذان متصلا إلى سمعه إنما متقطعا .. فلماذا ؟ ،
مسافة منبسطة ، لا يفصلها بناء أو حاجز ، يدور المؤذن حول المثلثة ، ظهيرة
بعينها بقيت في وعيه ، استعادها مرات شتى ، فما الذى حدد ، وما الذى ميز ،
هنا مجهول عندي ، صعب الوقوف على أصله .

فيما تلا ذلك من سنوات علقوا مكبرات صوت ، اختفى الشيخ ، كثيرا ما
أضفى أوقات الأصائل والمغارب قاعدا في مقهى مواجه للمسجد ، مشرف على
الميدان متبجج لحركة البشر وما يطرأ عليها من تغيير وتبدل ، حتى إذا حان أوآن
الغيب ، ارتفع صوت المؤذن عبر مكبر الصوت ، يصغى صامتا حتى وإن كان

في صحبة إلى الابتهالات المتصاعدة إلى السماء التي يتكدر ضوءها بسرعة .
ألطف بنا يامولانا فيما جرت به المقادير ، عبارة تذكره بلحظة الظهيرة النائية ،
المنقضية إلى أبد . فما أصل العلاقة ؟ . أما المثلثة فبقيت سامقة ، مزروعة في
بؤرة قلب الأب ومن بعده ابنه ، جذورها الخفية ضاربة في صندوق فؤاد أصلي
كذا فوادى ، هذا الضريح القاهري أداوم العروج عليه والتوجه إليه ، أتبرك
وأتملمس وألم عتبات مؤدية إلى قبلة لم يرغب عنها الأب إلا بالرحيل الأتم ، أنتسم
أيام الصبا المولية ، ورفات العمر الجميل .

اعلموا يا صحب أن أصلي أينما ولى وجهه فلا بد أن يرى الضريح وأينما حط
رئحله لا بد أن يطوف به ، إما بالحس عن قرب ، أو بالحنى والخيال عن بعد ،
هذا واقع لا بد من اقراره ، والتنبيه عليه ، والأشارة إليه ، فالحسين حوى الأيام
الغالية ، وما الصبا إلا جزء من سيرته ، أما ما فاض به قلب الأب وما توجه به إلى
المرقد فلم يفن ولم يتبدد .

اعلموا أن الطريق من حارة الطبلاوى إلى المرقد عزيز ، طريق جنوبي ،
وسالكة من بعدى لن يقف أبدا عن ماتركه من أثر وعلامات ، لذلك الحلم جل
جهدى حتى أنوه وأنبه إلى ما كان ، طريق قصير ، تمضى عبر شارع بيت
المال .. ثم حارة الوطاويط ، يوما ما كانت مسقوفة ، يقولون أنها كانت
مسكونة بعفريت من شرار الجن ، يظهر قرب الفجر في هيئة رجل يرتدى عباءة
وطربوشا تركيا ، يستوقف المارة ، يستفسر عن سكة مؤدية إلى العطوف ، وإذا
بهم المار بالإجابة يولى ظهره .. عندئذ يرى الناظر نصفه الأسفل جسم ماعز ، له
حوافر وأظلاف بدلا من الساقين الآدميتين ، هنا تقع الرجفة ، ويضل العقل
وتفسد المهمة ، تنسد الجهات ، ينعدم الخرج .

عند الخروج من الحارة يلوح الضريح القاهري ، عبارة شاهقة عدها الوالد

دليلا وعلامة على فساد الأحوال . إذ حكى فقال يوما أن تاجرا أجنبيا بنى عمارة على مقربة من المسجد الأزهر غير أنها بقيت ثلاثة أعوام خالية لا يقترب منها طالب سكن أو باحث عن مأوى مع رخص إيجارها وسعة غرفها ، لماذا ؟ . لأن التاجر الأجنبي شيدها من خمسة طوابق فارتفع بها عن المسجد ، خاف الناس سكنها أو العيش فيها ، ثم عمرت ببعضهم ، صار ما كان غير مألوف في زمن . عاديا في زمن آخر ، حتى أن شخصا واحدا لم يستنكر ولم يلاحظ حتى تجاوز هذه البناية لسطح الضريح الحبيب ومطاولتها لمثنته ، ومن يدريك بما سيقع في الأزمنة الأخرى ؟ . أو في الزمن القادم ، فالزمن واحد والأفعال متغيرة ، وإن كان الأمر غير يقيني ، فالبنيان هنا على الحيرة أحوط .

بالقرب من العمارة مقهى المجاذيب ، بعد صلاة الجمعة وخروج القوم يقف ثلاثة رجال فوق رءوسهم العمام . عازف كمان ، وعازف ناي ، وضارب بالدف ، بجوارهم نساء ثلاث مكحولات الأعين ، أوسطهن بدينة ، أسنانها ذهبية ، تنشد المدائح ، صوتها قوى فيه شرخ لايبين ، كان أصلى يخافهن أثناء مروره بصحبة الوالدين ، قالت الأم : إن مثل هؤلاء يتظاهرون بالغناء لكنهن يسعين إلى خطف الأطفال ، مثل الغوازي في جهينة ، يتزلن إلى الأسواق ، يرقصن ويعملن على إغواء الرجال ، وبعد انصرافهن ورحيلهن قد تكشف أم اختفاء ابنا ، يصحبن الأولاد إلى بعيد ليتعلموا السرقة وملاعبة القرود ، لهذا خافهن أصلى ، وكره الجلوس في هذا المقهى حتى بعد تقدم العمر به ، بعد استقلال أمره وسعيه منفردا .

على مقربة ، وفي نفس الموضع يظهر رجل قصير ، متسخ الثياب ، جلبابه أصفر ، تتخلله خطوط باهته ، حافي القدمين ، ذو لحية أحيانا يرتدى طاقة قصيرة ومرات يظهر هاتش الشعر ، وإذا ما ابتسم يبدو مكان أسنانه الفراغ ،

سمع أصلى شذرات شتى عن عم أحمد العضاض هنا ، بعضها من الوالد ،
والآخر من المقهى أو من الصاوى الخياط .

قالوا إنه كان ثريا عفا ، وتحت إمرته عالم ، وعنده ذهب وفضة ونحاس
وزاد كثير ، وذات ليلة كان نائما فتحرك سقف البيت قليلا كأنما أحد يمشى فوق
السطح ، فنادى من هنا ؟ ، فجأوبه صوت غريب عنه : صديق فقدت بعيرا
أبحث عنه فوق السطح . فصاح : يا جاهل أتبحث عن بعير فوق السطح ؟ ،
قال له الصوت : وأنت يا غافل تنام في ثياب حريرية ، وعلى سرير من الذهب
بينما تثار الحسين قائم ودمه لم يجف بعد كل هذه الدهور ! فوقعت الهيبة في نفسه
واندلعت فيه جمرة ، فأرقه النوم ، ولما طلع الصبح ذهب إلى محل عمله ، ولم
يمض وقت طويل حتى دخل عليه رجل مهيب لم يقدر أحد من الخدم أو الحشم
على منعه ، تقدم منه وحلق فيه فقال له :

ماذا تريد ؟ .

قال : أريد أن أتزل في هذا المحل .

قال :

يا مجنون ليس هنا لك وإنما هو محل .

قال : لمن كان قبلك ؟ .

قال : كان لأبي .

قال :

وقبل ذلك ؟ .

قال :

ملكا لفلان

قال : أوليس هذا المحل ما يتزل به أحد ويغادره الآخر ؟ .. قال هذا

واختفى ، فازدادت حرقة قلبه ، وعند العصر سمع مناديا يناديه : قم إلى سيدك الحسين والزم ! . فنادى خلمه وقال : أعدوا لى الزاد ، ركب دابته ، أمن وأوغل فى البرية فسمع مناديا يصيح به : امض إلى إمامنا الحسين والزم ! وبعد مرحلة سمع نفس الصوت من قريوس سرجه ، فأيقن أن الكشف قد وقع ، رمى كل ما عنده . ما كان خارجه أو داخله ، وراء ظهره ، ولى وجهه صوب الضريح القاهرى الشريف ، ومنذ أربعين عاما يطوف به ، ينام عند عتبة بابه ، يقتسل بمائه ، يستظل فى المهجير بسقفه وظله ورطوبة أرجائه ، قد يغيب قليلا فلا يتبته أحد ، لا يسأل عنه أحد ، لكنه عند ظهوره بمدخل دكان صامتا أو مبتسما ثلبي حاجته على الفور ، حتى لو وقف بمدخل محل الأسطى سيد الحلاق ، كان إذ يرى الوالد يتسم مرجبا ، يضحك بصوت مرتفع ، وإذا لمع ولديه معه يتظاهر أنه يود تقييلها أو عضها ، ولأن لحيته طويلة ، ولأن موضع أسنانه المخلوعة يبدو فارغا ، ولأن عينيه محمقتان دائما إلى ما يتجاوز الواقع أمامه ، خافا منه وسعيا إلى الاحتماء بوالدهما .

فيما بعد ، بعد تقدم عمر أصلى ، وسعيه منفردا فى طريق المشهد الحسينى ، كان يلمح به بجوار إحدى بوابات المسجد ، أو ماشيا على مهل ممعنا فى الهرم ، تلتقى نظراتهما فلا يعرفه ولا يذكر ولا يتقدم لمازحته ، أما أصلى فيرثى ويشفق على زمن منقضى وليس على شخص بعينه . فى أيام شيخوخته تلك ، بعد نحول جسمه ، وتضاؤل حجمه وتباطؤ خطوه شوهه مرات عديدة يقف تحت المئذنة ، يطلق زعقات هائلة لا تتناسب مع حجمه وإيقاله فى العمر ، ينظر إليه العابرون أو المقيمون ولا يتطرقون عن الهوى ، إنما هو وجد وجوى .

انتابنى فضول ، أن ألم بأحواله ، أن أحيط بما مضى منه فى تفصيله وليس فى جملمته إذ عرفت فى زمنى القديم مثله ، فهل من المعقول عندى أن يكون

هو هو؟ وما دلالة ذلك؟ ماذا يعنى؟ لم يظهر دليلى رغم تأجج حيرتى ولم أعرف مايشنى غلىلى ، كم رغبت التحقق من لب الأمر ، لكن دليلى لم يتح لى ، إنما سرى عندى أمره أن أتابع النظر ، ألا أقف فى رحلى ، فرأيت دكان الأسطى سيد ، حلاق قديم هنا ، دكانه ضيق لاجود له الآن وقت تقييدى هذا ، لم يخلق الأب فى البيت أبدا ، كان يصحب ولديه وهما صغيرين يافعين ، الأسطى سيد قصير أشيب الشعر ، شاربه على هيئة بصمة ، يبدو متأففا دائما ، يتحرك على مهل ، يرتدى معطفا نظيفا ناصعا ، يجلس الأب فوق المقعد الضخم المتحرك ، يجلس جمال وإسماعيل فوق مقعدين دائريين صغيرين ، فى كل مرة يحدروا الأسطى من التحرك حتى لايتسببا فى اتساخ أو كسر شىء ، يسحب فوطه من صوان نحيل أبيض ، مطبقة بعناية ، ينبعث منها عطر خفيف ، يفردها ثمهلا ، ينفضها فى الهواء حتى تحدث مايشبه الفرقة ، يعود متخللا ستارة الخرز الملون اللدى يفصل فراع الدكان عن الخارج ، فى زاوية المحل تحت الحوض علة دائرية من الصفيح خصصها للبصاق ، مغطاة ، علة أخرى لأعقاب السجائر ، من الجدار يبرز حامل متحرك مستطيل من الخيزران فوقه صحيفة مفرودة ليقراها من يشاء بدون أن يثنى الجريدة ، مرة حاول أصلى أن يقرأها ، نهره قائلا « بستمزقها » . توارى عندئذ خجلا وعنده ضيق منه .

اهانه ، لايعرف عنه حبه للقراءة ، وحرصه على الجرائد والمجلات ، بقى معى خنجل اللحظة وضيقة من الرجل حتى اقلاعه من فاس المباركة أورثنى اياها . كثيرا مالام نفسه لأنه لم يرد عليه وقتئذ ، نعم ، إنه صغير ، لم يدخل المدرسة بعد ، لكنه أوعى من تمرىق ما يصل إلى يديه ، لم يدخل المدرسة بعد لكنه يقرأ ، يفضى مغاليق الحروف ، كيف ؟ الأمر فى حاجة إلى تفسير حتى لو سبق ذكره .

أرى صباح يوم عطلة ، يوم جمعة ، أو عدة أصباح متبجة ، متلاخلة ، من الوعر استعادة خصوصية كل منها ، مع أن جلها من ترائى ، وأنا- عبر أصلى- من عاشها لاغيرى . هكنا تلخص الأيام في يوم ، كل في واحد وهذا يتبقى إلا بعضه ، لا يستمر العدد إنما يبقى المعنى ، نستعيد مشهدنا يحوى ماعناه فأتبه يالاه ! ، يامن تبدد مايربك من أزمة ويقاع ، حاول أن تعرف أى لحظة من زمنك المتقضى ستبقى ولاتمحى من ذاكرتك الزاهة ، هأنذا قد نهت فاجعلوا بالكم لما أشرت إليه وسطته ، فالتاس جلهم عنه في عماية ! .

ما أهبج صباح الجمعة بعد الاستحمام ، يتم التضام ، التقارب ، نكمل فالأب حاضر، هذا يوم عطلة، إذا تيسر الأمر تقلى الأم فطائر أو زلاية، تروينا سكية فالطوارق الدواهم نائيات ، قرب العاشرة يصبح عم محمد بائع الصحف ، فلاح من ريف قصي ، يرتلى صديرية بلدية ، وطاقية من لباد جلبابه قصير ، حافى القلمين ، تحت إبطه حافظة من ورق مقوى تبرز منها حواف الصحف ، صوته قوى ، يتزل الأب الطوايق الخمسة ، يرجع بالأهرام أو المصرى ، يتردد صوت عم محمد مبتعلا ، كان جورالا ، لامقر يعرف له ، حتى اتخذ محلا له في دكان منحوت تحت مسجد عتيق . حتى المشتري منه مضطر إلى الانحناء ليخطبه، أما الداخلى فلايد أن يتزل خمس درجات ليصل إلى أرض الدكان ، فوق منضدة خشية صف الصحف وصندوق سجائر وعلب حلوى .

أثناء تجواله تقف امرأته ، بيضاء ، مستديرة الوجه حلوة التقاطيع ، أحيانا تظهر شقيقتها ، سمراء ، واسعة العينين ، صوتها مرتفع ، جرىء ، وقد تواتل الأيام ، كل منها يقفو أثر الآخر ، وسمع أصلى برحيل عم محمد رحيلأبديا ، حزن حزنا عابرا غير مقيم ، في المحل يرى امرأته وحزن يعقد حاجبها ، وبوجهها

أسى ، على باطها طفلة صغيرة ، أحيانا تقف شقيقتها .
بعد زمن طويل ، قال حسن صاحب أصلى منذ طفولته الأولى إن سهرة
تنتظرهما ، صديق له ترك له مفتاح بيته ، وأن امرأتين على ميعاد ، صالة البيت
فسيحة والأثاث وثير ، وأثناء الأنتظار الممل قال حسن ناصحا : عليك
بالملاطفة ولا تكن جها ، لكنه عندما رأهما تلجان البيت وقع عنده كدر عظيم
الأولى قصيرة صامته ، والثانية طويلة عابثة ، مناغشة ، الأولى يجهلها ، أما الثانية
فهى أنوار بعينها شقيقة امرأة عم محمد ، فما أغرب الرحلة لمن لم يقف على
مراحلها ! .

هاهو ذا الأب يتمدد فوق حصيرة مفروشة قبل السرير ، يستند برأسه إلى
الجدار ، على مهل ، بتأن ، بصوت مرتفع يقرأ العناوين الرئيسية ، أصلى يتابع
إشارة أصبعه إلى الحروف ، من التؤدة تعرف على الكاف والنون والميم والحاء ،
والواو ، وأمة الحروف كلها ، أتقن القراءة قبل أوان المدرسة ، فن أبيه الأسمى
تعلم وفك المغلق ، فسبحان من يجلو السر ويشئ بالسبب .

يفرغ الأب ، تتمكن منه روح مرح ، يقوم جالسا ، يفرد الجريدة ، يبدأ فى
قراءة نص وهمى لاستقالة يرفعها إلى وزير الزراعة ، يرجوه قبول استقالته لأنه غير
راض عن الأحوال ، يتلو أخبارا قصارا عن مقابلاته ، أو سفره ، أو عودته من
رحلة رسمية . يصغى أصلى وأشقائه ، بينا تنشط الأم ، ترتب جوانب البيت ،
يطلب منها القعود فتومئ . راضية مرضية هذا زمن أمن تبدد ، احتملته
السافيات الذاريات التى لاتبقى ، هل قصد الأب تعليم ولده القراءة ؟ لايمكن
القطع أو الجزم ، غير أن الموثوق به عندى ، عزم هذا الرجل المجاهد الذى عرف
النوب السود ولم ينش عزمه عن تعليم أبنائه ، وتجنبيهم مارآه وعابنه واكتوى
بجمره ، كذا البعد بهم عن الذلة ، وقد كان حرصه شديدا وجهده عظيما ، حتى

أنه لم يناههم عن الويلات فحسب ، إنما نأى بهم عنه هو ، كيف جرى ذلك ؟
كيف حادت عن قصدها الأحلام ، هذا من أجل المكتبات وأدقها وسأفصح
عنها في الحين الموأى ، كل شيء بقدر .

أما ماضيق أصلى في هذا العمر النأى فزهو الأسطى سيد ، صحيح أنه لم
يتم السادسة بعد ، لكنه يشعر أن انتماءه إلى الطفولة بالقامة والملامح ، أنه
متجاوز كينونته ، وهذا حاله الذى لازمه في مختلف أطواره ، لم يعيش لحظة في
لحظتها أبدا ، ولا فترة في فترتها أبدا ، شاخ في عنفوان شبابه وناء بهموم عظام
قبل أن يتم العشرين . بدأ زمن اختصاره في الثلاثين ، وسعى متسكفا طفولته
الأولى وهو يخوض صوب الخمسين ، حتى إذا ماولى الشفق ، وبدأ اكتمال
العسق والليل وماوسق ، انتبه متأخرا إلى لب القضية ، إلى أن الباب يفتح من
جهة واحدة ، خروج لاغير ، من باب إلى آخر ولاعودة أبدا ، طريق للمضى
إلى الأمام فقط ، لاعودة ولا استعادة فيه ، ولانكوص على عقبين ، « يومئذ
يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول باليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لايعذب
عذابه أحد ، ولايوثق وثاقه أحد » ، فياحسرة على ما فرط من ذاته ، في حق
من اكتملت لهم القرى ، وياحسرتى أنا المعنى وغير المعنى على ما فرطت في زمنى
العتيق ، هذا حالى أنا أيضا ، كأنه أنا وكأنى هو ، كفانى .. فما أقدر على
التلميح بمزيد ! .

هاهوذا أصلى في ضيق ، كيف ينهاه الرجل عن متابعة القراءة في الصحيفة
المفرودة فوق الحامل الخيزرانى . لم يأنس للبقاء عنده ، كان يراقبه ، سنه
للموسى على سير الجلد المثبت في الجدار ، نفضه غبارا غير منظور عن المقاعد
بمنشة ذات مقبض عاجى ، تمهله في اغلاق علبة البودرة ، اعادتها إلى نفس
موضعها ، حركته الباعثة على الضحك عندما يبدأ تنعيم البشرة بالخطى المزدوج

يمسك بطرفيه . يشته بأسنانه . يقترب حتى يوشك على الملامسة ثم يتراجع ،
يتعد ، يقترب ، موسعا الخيط ، مضيقا اياه ، ليشترع ماتبقى من جذور
الشعيرات . يغالب أصلى نفسه حتى لا يضحك ، تردد الأم دائما ، الضحك
بدون سبب قلة أدب . بعد الخيط يمسك قطعة شبه دائرية ، يدلك الوجه
الناعم ثم يرش العطر من بخاخة مستودعها مطاطي ، لا يسمح للزبون بالمغادرة
إلا بعد انتزاعه القوطة ، ثم يمسك مرآة يرفعها ليرى ، المحلوق قفاه ومؤخرة رأسه ،
ثم يضييق عينيه متأملا الوجه ، إذا لم يرض تماما يبدأ من جديد .

الأسطى سيد يخلق للبك ، لبعض الوجهاء ممن اعتادوا التردد على ضريح
الحبيب القاهرى ، يتقاضى من زبائنه ما يوافق مقدرتهم ، لا ينظر ولا يمحصى
ما يقدم إليه : وما عرف عنه أنه يخلق بالبخان لبعض طلبة الأزهر وشيوخه
والمجاورين الفقراء فيه ، لم يكن مزينا للشعر فحسب إنما يداوى بعض الجروح ،
ويدلى بوصفات علاجية لمن يسعى إليه ، ولا يجرى عمليات الختان إلا في أيام
الاحتفال بمولد سيد الشهداء أجمعين ، يقف بيابه جمع من قصاده ، جلهم
قادمون من ريف البلاد ، يحملون أبناءهم إليه تبركا ، لكنه لا يسمح بلخولهم
إلى محله الضيق جماعة خشية اتساخ البلاط ، أو يزحزح مقعدا أو وعاء عن
موضعه ، أصلى ممن خنتوا على يديه ، كذلك إسماعيل وعلى .

أرى الأب يحمل أصلى ، يعده بالترمة والحلوى ، يقعده في حجرة ، ياعد
ما بين ساقيه ، هذا قضيب صغير رخو ، فأين منه تلك القروج التي استضافته
وحنث عليه وقبضته هونا إن في شرق أو في غرب !

ذكرت بالأخص تلك البنية الأجنبية عنه التي لم تكن قد جاءت بعد إلى
الدنيا ، أعض شفتى ألما إذ أرى الأسطى سيد يدس آلة نجيحة حادة ، يدفع
القضيب إلى الخلف ، يبرز جلد الغلقة مفرغا بينا يشرع الموسيقى .

أدهش ، أتعجب ، إذ أتى خنت أيضا في خلق الأول ، يعرفون هذه العادة أيضا ؟ عرفت اتنى لم أنظر إلى نفسى حتى وقت تلونى هذا ، حتى حسبتى كهؤلاء المخاربين الذين كنا نأسرهم ونكشف متعجبين أنهم ليسوا بمختونين ، لم أر إلا انفراج ساقى أصلى ، ومشى متباعد الساقين ، والربط ، الطلى مبللا بالأحمر والأصفر ، ورائحة المطهر القوية. أدق النظر لأطلع أكثره لكننى ألح دفوقا وبيارق وجموعا ترتدى اليياض وعمامات خضراء ، ورجلا طويل الشعر يدور بسرعة ناشرا حوله رداءه المستدير ، وحصانا يتهادى على مهل ، راكبه شيخ مهيب يخفضن طفلا صغيرا أجهله ، أرى من يمشى على رجلين ، ومن يمشى على بطنه ومن يمشى على أربع .. أرى رجلا نحيل جدا يحمل بتوازن عجيب على طرف أنفه عصا ملونة تنتهى بقفل فى حجم طربوش كبير مصمت تتلنى منه شرابيب ملونة . فما أغرب ذلك عندى !.

أرى الأسطى سيد الحلاق ، إنه هرم ، نحيل ، مكوم أمام محله فوق مقعد بلون مسند ، ياقه قيصه مسودة ، فى عينيه قلى ، أين ستارة الخرز الملونة ؟ .. أين صندوق الأدوية والأرطقة والمطهرات ؟ ، المرأة صدئة ، شقت صفاءها خيوط متعرجة ، لماذا لاتدور مروحة السقف ؟ كيف يطوف بها الذباب ؟ أين بلاطات القيشانى المترعة تاركة فراغا كثيرا نسج فيه العنكبوت ؟ .

الرجل مطأطأ ، يمر به أصلى ، يتمهل أمامه ، لايدو عليه أنه لحظه ، إنه موجود لكنه راحل ، قريب غير أنه بعيد ، هذا حاله منذ أن صمقت الكهراء وحيدته ، فيا عبئا رزيا ثقيلًا خفف الوطأ ، خلق الإنسان ضعيفا ، والفجر وليالى عشر والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، إن أسى رقراقا يقد على ، ترونه هينا وأراه بغيضا ، فلما نال منى الأسى هب على عقب مشروب أدمته وكنا هام به أصلى ولم يقنتع بغيره ، وكان هذا الهبوب بلا لريق وتطرية لأحزان قلبى

بحوار الأسطى سيد محل تخصص فيه ، رخام واجهته قديم ، يفيض بعبير
الخروب ، برائحة ماء الورد . وقد بغضت ماء الورد لسبب سيرد ذكره في حال
الوداع ، مشروب غامق اللون ، سلسبيلي ، في سطل من نحاس مختوم بخاتم
داثري من قصدير ، إلى الروح يسعى ، جمع فأوفى ، ومن عبيره السكرى
تبعث لحظات مارات كان الأمل في تذكرها أو استعادتها نائيا قصيا ، أقسم
بخالقي القادر على كل شيء ، إنه لولا الخشية والملامة وتقول الناس علىّ
لأفردت له فضلا ، أحاول فيه النفاذ إلى جوهر الشراب . وماسبه هواى ،
وماقبله في بالى ، غير أنتى أكتفى بالتصريح عن عشقى له . وسعبي إليه مادمت
حيا ، وإن كان الفيض الذى يأتيني من هذا الدكان لا مثيل له ولا تكرار ،
والأمر ليس مصادفة ، إذ أحبيته في زمنى العتيق بما يماثل تعلقى به في خلقى
الثانى .

أيمكننى التوقف والنظر إلى هذا المحل قليلا ، فلن يدوم أمره طويلا ؟؟
يحيئى الإذن من دليلى ، مما أوجب الأمتنان والتحية ، أعرف أنه مثلى من
المحين لهذا الشراب ، ألم أقل إن الأمر ليس مصادفة ؟؟ بل إني مطلعكم على
ما هو أكثر ، فجمال بن عبد الناصر ، من ناصر الأب حيا ، ومن ناصر الوالد
راحلا ، غائبا ، توقف مرارا عند الموضع عينه ، لفترة غير قصيرة أقام في حارة
خميس العدى ، ناحية الخرنفش ، القريب من ضريح الحبيب ، نزل عند
عمه خليل ، طابت له الإقامة في البعد اثر رحيل الكاملة أمه . وزواج أبيه ، في
هذا الموضع أمضى لياليه ، غالب السهاد ليستوعب ما يدرس ، وكان قاسيا على
ذاته ، إذا أوشتك النوم على التمكن منه قام إلى الماء البارد ليغمر وجهه ، أو
نزل إلى الشارع ليمنى قليلا أو كثيرا ثم يرجع يقظان نشطا . وهكذا قد يصل
يومين ببعضها لا يعرف نوما .

فوق هذه الأرض مشى ، فى نفس الأسواق سعى ، وعلى جدران المباني
وقعت عيناه ، أحب الناحية وما فيها حبا جما ، وبعد تمام الأمر له لم يركع لصلاة
العبدین إلا فى الضريح القاهرى . هذا سبب لم أعلمه من قبل ، رآه أصلى عفا
يركب عربة مكشوفة بعد أداء الصلاة على مقربة من ضريح الحبيب ، رآه يخرج
صباح عيد والنهار معتم بعد فلايد أنه شتاء ، المصاييح ما تزال مضاءة ،
والخراس كثيرون ، لمح هامته المكتمل شيها ، ومن الجمع صاح رجل يرتدى
جلبايا وطاقية « اعطونا سلاحا » .

وثق أصلى أن النداء وصل إلى أذن ابن عبد الناصر ، من أطلق
الصيحة ؟ هذا مالن يعرفه أبدا ، كما أنه لن يطلع على ماهدهد ابن عبد
الناصر وجعله يمضى القهقرى إلى زمن ناء قبل سماعه صيحة الرجل ، استعداد
للحظة مارقة رحلته القديمة من خميس العلس إلى هذا الميدان ، زمان ! .
يخرج من الحارة ، يرتدى الحلة والطربوش ، باسق القامة ، إذ يسرع الخطى
يميل إلى الأمام قليلا ، يعبر قبو قرمز الممتد تحت مسجد الأمير متقال ، قبو
كان أصلى وأطفال الحارة يرهبون المرور فيه نهارا ، سمع من أيه يوما أن
شخصا مذبوحا اعترضه فى عز الظهيرة ، يتزف دما ، عدا خلفه محاولا نيله ،
وعندما اجتاز الأب ظلمة القبو التفت فرآه خاليا ، لا أثر لأحد ، ولادماء
حتى ، قال إن مانجاء ، أنه ذكر اسم الله وتلا فاتحة الكتاب ، لولا ذلك
لجرى ماجرى .

ابن عبد الناصر يتم عبور القبو ، ثم ميدان بيت القاضى ، تلك
الموجودات رسخت عنده لكثرة ما انطبعت فى وعيه ، شجرة خضراء مباركة
تتوسط الميدان حتى وقت تدوينى هذا ، وحوض للماء مستطيل تشرب منه
البغال والحمير والخيول والدواب على الدوام ، مبنى الشرطة ، مقعد القاضى

ماماى ، مدخل حارة الصالحية ، مدخل مدرسة خان جعفر ، السيل الرقيق
المواجه الذى لم يعد يقدم للعابرين مايروى ظمأ المشتاق ، ومدخل فندق
الكلوب العصرى ، وبنات للحمة الرأس ، ومجلات متجاورة تعرض لوازم
الحلاقين ، ثم مسج متدلية ، وطواق مزركشة وشيلان حريرية ، وعصى
خيزرانية ، ونراجيل ، وحقائب مختلفة أحجامها وأشكالها ، وزجاجات صغيرة
للطور البلدية ، وعلب دقيقة تحتوى على العنبر .

يتوقف أمام محل الخروب ، رائحته تلون الظلال الرطبة فتجعل المكان
وارقا ، فى المواجهة تلاجة خشبية ، الجدران مبطنة بالأواح من معدن ، بحوار
المنضبة الرخامية القديمة التى امتلأ سطحها بجزر صغيرة لكثرة ما سال فوقها
من ماء يوجد مستقر الخروب ومستودعه ، يقف أمام الدكان ، تلامس قدماه
مواضع وطئها أصلى وأبوه وإخوته فيما بعد .

الأرض هى هى ، لا تتغير ولا تتبدل ، لا تريد أو تنقص ، إنها الموجود
الوحيد الذى لا يبلى من المواد إلى ملئ بعينه ، لا ترحل ولا تستقل فى
الظاهر ، أما سعيها فحنفى ، غير مدرك بالحواس ، كل شىء يتقلب ، يتبدل
يتغير ، عداه هو ، الذى يبلى هنا كله ويتغير هنا كله .

يقف رجل يرتدى جلبابا فوقه سترة من جوخ أخضر ، لا يُرى إلا على
هذه الهيئة ، مطرق الرأس بملاصحه جدية واعتزاز شأن من يدرك قيمة
ما يفعل ، وهذا تعبير رآه أصلى على وجه الحضرى الحلونى ، الذى عرفه القوم
واقفا يبيع البسيوس فى صينية أمام حمام النحاسين بشارع المعز ، حتى اشتهر
أمره ، وتيسر ، فاتخذ له محلا قرب الجامع الأزهر ، ثم توسع فكسا الجدران
رخاما ، وأضاء الواجهة بالأحمر والأزرق ، وأصبح لا يرتدى إلا جلبابا
أبيض ، نظيفا ، ولا يظهر إلا لاما ، لينظر برضا إلى صوائى الكنافة والبقالوة

والروائي ، ثم يومي لهذا أو ذاك ويحتج عن العيون .

التعبير عنه كان يرى في عيني مصطفي النقاش ، ينحني على صينية النحاس يحضر الخطوط المتشعبة المتعرجة ، المتلاقية ، المتفرقة ، يدق مطرقة النحيلة ، وقد يطول انحناءه ساعة أو ساعتين ثم يرفع رأسه والرضا ملء عينيه يتأمل ما أبدع ، يدبر الصينية بمنة ويسرة ، هكذا ينظر بائع الخروب إلى مشروبه وقد يرفع السطل في الهواء قليلا قبل أن يقدمه ، يضع الزبون نصف القرش فوق الرخام ، أرقب رشفات ابن عبد الناصر ، طلبة من الأزهر ، شيوخ كمل ، منهم فاقد البصر ، والنحيل الهزيل ، وعظيم البطن ، منهم من يرفع الرأس إلى أعلى ، منهم من يرشف بصوت مرتفع ، وآخر يحسو في صمته ، وإذا يفرغ يدعو لصاحب المحل ، يرجو له الستر ودوام الفتح في الطريق ، غرت حب ابن عبد الناصر لهذا المشروب ، وعرف عنه القوم تفضيله للجبن الأبيض ، حتى أنه كان يصحبه أينما ولى وجهه ، لم يستهوه أبدا فاخر الطعام ، شأن كبار القوم من أصحاب السفر ، إذ كان أشد ما ينحشاه اتباع الهوى ، وهذا درس عظيم ، راق ، وعاه أصلى وتمثله . فالإنسان ساع في هذه الحياة الدنيا ، التي يعرفها مثل ، ومن هم على شاكلكي بأنها طريق ، أوله اقلاع وشروع ، وآخره هجرة عظمي ونخم حقبة ، والمسافر يجب عليه التزود بأقل الزاد ، فإذا ركن إلى دعة بعض الوقت وجاءه طيب الطعام أكله وشكر خالقه ، وإذا يستأنف رحيله فلا ينتظر مثيلا لما أطمع في نقطة تالية ، لو تحقق ذلك صار الأمر عادة ، والعادة عبودية ، وهذا ملمح أعجبي ورضيت عنه إذ لقيته عند أصبلي ، أمضى رحلته حتى اسرته من فاس المباركة يأكل ما يلقاه أمامه ، لا ينفر ، لا يتأفف ، سواء في حال عسره أو يسره ، خشى الارتباط بعادة ، لأن ما يتوافر له ساعة ، قد يفترقه ساعة أخرى ، عندئذ

يحمل نفسه ما لا طاقة له به ، وهذا لب سلوك أكابر القوم المسافرين ،
المغتربين أبدا ، ولنا في سيرهم أسوة حسنة .

قال الشيخ الأكبر محيي الدين : إنا قوم سفر نقطع المناهل بالأنفاس رحلة
الشتاء والصيف لنطعم من جوع ونأمن من خوف ، لأنه ما زاد على وقايتك فما
هو لك ، وما ليس لك لا تحمل ثقله فتتعب ، وهذا ما كان عليه جمال بن
عبد الناصر كان بعض المقرين يحاولون تعريفه بنفيس الزاد ، فيذكرون أطعمة
بعينها ، فيصدهم صدا لينا حازما ، وأحيانا صارما ، رادعا .

حدث أن جاءهم أحدهم يوما بتفاح ، وتلك ثمرة ديارها بعيدة عن مصر ،
أبدى ضيقا وغضبا ، ومما جرى على لسانه : كيف أطعم ما لا يأكله عامة
ناسي ، قال ذلك عند مرحلة من الطريق كان فيها إذا اشار لأحد لبي ، وإذا
طلب استجيب له .

أبين ذلك من خليفة السوء الذي كان يطعم فيتمطى ، ويلقى إلى الكلاب
ما عثر على القوم ، ويرسل في طلب اللذائذ من كل فج ، ويسعى إلى المتعة في
المتعة ، هذا يا صحبي عين العبودية ، فالحرية الحققة ألا يكون بقلب الإنسان
رق لشيء من الأعراض البادية لا عاجل دنيا ولا حاصل هوى ولا سؤال
ولا قصد ولا إرب ولا حظ ، كذا لا يجري عليه سلطان المكونات .

لم يتعلق أصلى ولا والده ولا جمال بن عبد الناصر بشيء ، أحبوا شراب
الخروب ، نعم ، الشاي المعطر بالتنعاع ، نعم ، لكن إذا انقضت أيام طوال برن
توافر شيء من هذا أو ذاك لا يتبدل الأمر عندهم أو يتغير ، إذا حان وقت الطعام
لا يسألون ولا يردون ما قدم إليهم ، إن أعجبهم تدقوا ، وأن نفروا لم يردوه ،
لم يمتنعوا إلا عما قضت به الضرورة ، وهذا من أجل خصائص السفر والشيم الواجبة
للصبر على مشاق الطريق ، وهذه أمور لا يعلمها إلا قلّة .

دليلي يومئذ إلى ، إذن .. أطلت الرقعة ، أعزم أمرى ، أقطع المسافة من محل الخروب إلى الدكان المجاور ، جدارهما واحد ، لكن هذا اقتضى منى مشقة ، خطوة مكانية ... هنا صحيح ، لكننى أسافر بقلبي ، والسفر نوعان ، الأول حسي ، بالبدن ، وهو الانتقال من بقعة إلى بقعة ، ومن لحظة إلى لحظة ، وسفر بالقلب ، وهو الارتقاء من صفة إلى صفة .

قال لى دليلي :

«اجتهد أن تكون دائما راحلا بين منزلتين ...» .

وقد لييت قبل أن أنادى ، فما أنا إلا راحل أبدا ، ضعيف ، أستير زمن ، طارئ حشا ، خائف من سوء المقلب ، لا أتقيد بمحدود فى سفرى هذا ، قد أعبى المحيط الأعظم قبل أن يرتد طرفى الى ، أو اختراق الجبل بدون حاجة إلى الدوران حوله ، وربما ألقى العسر فى الانتقال من موضع إلى موضع مجاور ، هذا عين لحالى عندما دنوت من محل الحاج الهوارى ، إنه كان تاجرا للأثاث غامضا ، إذا تكلم فإنه يهيمهم ، وإذا نظر يبدو مسدل الجفنين ، أراه كما تبقى فى وعى أصلى ، رب قوم عاشرناهم ، دنونا منهم ودنوا منا ، وكان لنا معهم وقفات ومعاملات ، إذ تباعد السنون ما بيننا وبينهم ، وإذا نستعيدهم فلا نرى منهم إلا وضعا معينا أو تعبيرا خاصا ، لذلك لا أرى الحاج الهوارى واقفا إلا عند مدخل ، يرتدى معطفا كاكى اللون ، تحته جلباب ، يغطى رأسه بطربوش أحمر ، متطلعا دائما إلى مثنوى سيد الشهداء ، نظرة يامدد الأجرة .

الدكان داخله معتم ، إذ يمتد تحت ثلاثة مبان ، ينحني إلى الداخل ، لا يمكن رؤية آخر ، الأثاث مكدس ، مرايا تحتونها أطر مزخرفة من نحاس ، وآخر من حديد .

للحاج أبناء ثلاثة ، أكبرهم لا يبدى ودا ، عنده سن ذهبية ، الثانى

زامل أصلى فى الدراسة زما ، أما الثالث فلا ألمح منه إلا ظلا ، لا أتمكن من ملامحه أبدا ، ثلاثتهم لا يلفظون إلا همهمة ، أبوهم يبيع الوالد الكرم سريرا من الحديد أسود الطلاء ، السرير الذى رأيت الأب ينصبه ، أول سرير ينام فوقه كذا أمى ، لكنها أفراداه لأصلى وشقيقه اسماعيل ، ولن رحل طفلا - محمد - له الرحمة وطيب المثوى إلى جانب شقيقه خلف وكال ، فوق الأرض تجاورا وأغمضا عيونهما .

هذا السرير رقد فوقه أصلى مريضا ، بعد أن أدركته الحصبة ألبيسته الأم ثيابا حمراء ، وحاشت عنه الزيارة ، لذكرى هذا المرض تنميل ورعشات ، وقلق أمومى فى العينين الحائيتين ، وحزن أبوى مكتم وتساؤل وجل قديم لم ينطق به اللسان أبدا هل يلحق جمال بخلف وكال ؟ ، كلا .. وربى هذا كثير ، ثقيل .

للحبيب ، الأمير ، الشهيد ، الحسين ، نذرت الأم الفول الثابت ، وأضمر الأب النية لإطعام مساكين ، يخاف ولايبدى إشارة ، بعد العودة من جهينة ، بعد بدء مرض محمد ، بعد أن قال الشيخ عطية أن نجمة يهوى ، وأن شمس الجمعة إذا طلعت عليه سيعمر طويلا ، بعد منتصف الجمعة . أغمض محمد الصغير عينيه ، بدا جسده مرتجفا ، صار أمره إلى حشرجة عاتية ، ناغته الأم كأنه يتأهب لنوم ، نوم طويل ، لا تعقبه صحوة ، نادته بالكلم المرقق ، قالت له أن الملائكة والصدىقين يحفون بك الآن ويطوفون ، غير أن ضعفها فأض وطغى ، فقالت متوسلة ، راجية ، آملة ، دانية ، « رب .. لا تعذبه » ، ثم قالت ، « رب .. سبه لى » . ودمعت عيناها مع أن البكاء بحضرة مريض عندها شؤم ونذير .

عند هذه اللحظة رأيت ما لم تره هى ، ما لم تحط به خبرا ، ما لم يعه أصلى ،

رأيت أنا والدما، الشيخ على باشا المداح، الذى خرج من جبهة منذ سنوات بعيدة مليا نداء الجمال الغريب، ولج نافذة الغرفة المغلقة كان يرتدى اللباس الأبيض ذاته الذى خرج به من داره، اقترب منها، تطلع إليها، فاض حنوه، غير أنها لم تره، دنا من السرير، فتح محمد الصغير عينيه، تطلع ناحية جده، وعلى وجهه لاحت بشارة ابتسامة، ظنت الأم أنه الفرج بعد الضيق، غير أنه تعلق بصره بجده الذى جاء يساعده ساعة احتضاره، ليعجل بجائمة الترع حتى لا يطول الأمد، مد يده فمسح جبينه وحتى أطراف قدميه، عندئذ فارق محمد محمدا، غاب الجلد واتضح الحد، أى الفرق بين ماكان وما يكون فسبحان من كشف بعض السر لقوم وأخفاه عن آخرين.

أدركت الأم أن الساق التفت بالساق وأنه الفراق، فهوى رأسها مستندا إلى ذراعها، اهتز جسدها هزات متعاقبة، فلما رأيت ظهرها المنحنى، رأيت انحناءة ابتها نوال عندما تشبث بجوار السرير يوما في مكان بعيد عن هذا تخنى وجهها باكية، بالضبط هكذا، تماما كما أرى، أصابعها تشبث بجسد الوالدة، رافضة فراقه والنأى عنه، فما أعجب اللحظة إذ تقترن باللحظة، غير أن نوال لم تكن ملمة بنهر الأسى والأحزان الذى تدفق عبر كينونة أمها قبل أن تولى وجهها شطر الأبدية.. صوب العدم!

لكن مالى أتعجل؟ هذا له أوانه، وتأثيره عندي، فصبيرا. كرهت الأم السرير الحديدى الأسود، فارقتة إلى الأرض، أبت أن ينام فوقه جمال أو اسماعيل بعد خلو البيت من محمد، محمد هذا الذى التقيته في مقام الضنا ولكن في خلقه الآخر، فمن شاء الاستزادة فعليه مطالعة ما أثبتناه هناك!

ألحت الوالدة، كما أبدت تشاؤمها من الهوارى، فسعى الأب إلى تاجر أثاث آخر لكنه ليس من أهل الناحية الجنوبية، إنه الحاج فؤاد، اختار

للأب سريرا من خشب ، أعيد تجديده بإتقان ، حدث وقتئذ أن وصل إيجار الأرض المتأخر كما زاد راتبه خمسة قروش ، فعزم وتوكل ..

اصطحب الأم وابنيه إلى الحاج فؤاد ، اختارا صوانا خشبيا تتوسطه مرآة بلجيكية الأصل ، هاهى ذى الأم تفرد ثيابها فى القسم الأوسط ، إنها فرحة ، آن لجلايبها وقصانها الداخلىة وفستانها الأسود الوحيد وبقية ملابسها أن تفرد ، أن تفارق القفة والحقيية ، غير أن نظرها يشرد ، فى عز فرحتها بالصوان. تنظر إلى جلايب ولديها. لو أن محمدا لم يرحل ، لصار له ركن هنا وشغلت هدومه حيزا ، لصار عنده الآن خمسة أعوام ، هذا نصيبه من الدنيا ، لو أن خلف وكال .. تستدير إلى النافذة فلا أدرى وجهة عينها ، أجهل المدى الذى سافرت إليه بنظراتها .

أطيل النظر إلى الجهة الجنوبية ، أرى محل الهوارى مغلقا ، ومحل الحروب ، جف منه العبير وفارقه الطل ، هذا زمن متقدم ، فلا تمهل ، خاصة أن محل الصاوى الخياط عند الجهة الجنوبية ، وقد ورد ذكره فى المواقف ، كان مقرا لخلف بك بعد صلاة الجمعة ، كيف بدا الأمر ، كيف نشأت العلاقة ؟ هذا ما لم يتح لى الوقوف عليه .

إنه يقعد عند الطرف القصى للمصطبة الأمامية ، أمامه منضدة قصيرة القوائم ، فوقها الأقمشة والخيوط والابر ، أصبغة مغطاة بالكستبان ، ساق ممدودة وساق مثنية ، وعند طرف أنفه يرتكز المعلن . وحركة يده المسككة بالإبرة ذات الفتلة لا تتوقف . أما القماش فيسوط على ركبتيه ، يصغى الأب إليه بعد انصراف البك ، يتحدث دائما عن أيامه التى قضأها فى استامبول ، وعندما استدعوه ليقتص قفاطين السلطان ، دخل القصر الكبير وخصصوا له غرفة وخدماء ، رأى السلطان عبدالمجيد بعينه ، صافحه ، سأله عن أحوال

مصر ، أجا به بما يليق . دار حوله ، لاس جسده ، حفظ مقاساته ، لم يكن في حاجة إلى تدوين مما أدهش المحيطين به ، أكرموه للغاية ، الافطار اليومي لم يخل من القشدة وعسل النحل المصنق والفطائر تترسمنا ، أما الغذاء ففيه كل ما تشتهي الأنفس ، وفي العصر لايد من نزهة بحرية في القرن الذهبي ، ثم صلاة العشاء في مسجد السلطان أحمد ، يوجه كلامه بداية إلى الأب ، وسرعان ما يتجاوز به نظراته ، فيحلق إلى جهات مجهولة يذكر شيئا ما عن دخان نرجيلة عطرى ، ومآذن نحيلة ، وقباب ، والخليج المغطى بقوارب وسفن شتى ، ومرتفات ، وأشجار متعاقبة أغصانها ، ونساء جميلات يرتدين الحرير الشفاف ، تبدو قعدته السكونية مشحونة بالرغبة في الافلاج ، أما ارتفاع كفيه ونفوس عروق رقبته فيومثان إلى ضجيج الجسد المجهض ورغباته التي لم تلب ، وخلال هذا كله لا تكف أصابعه عن غرز الإبرة وشد الخيط ، بعد حين يقول عند الوصول والعودة إلى محذته .

« رفضت البقاء قرب السلطان ، وعدت لأجاور ابن بنت رسولنا الكرم .. » يرفع الأب يديه :

« الفاتحة لإماننا وسيدنا .. » .

يسط كفيه ، يتلو فاتحة الكتاب ، يمسح الوجه ، وموضع القلب .
يقول الصاوى بصوت خافت :

« الحيرة فيما اختاره الله ، بعد عودتى خلعوا السلطان » .

يقف الأب ، يقول إن الأوان حان لذهابه ، يقول الصاوى إنه لو بقي لفتكوا به يقول الأب إنه لايد من ذهابه إلى فندق الكلوب ليلحق ببعض أبناء البلدة ، يطلب الصاوى بقاءه قليلا ، يتناول من تحت الطاولة قصيرة القوائم علة معدنية في حجم عقلة الأصبع ، إنه متخصص في تركيبة للسعوط

لا يتقنها إلا هو ، لخلق بك علة أسبوعية يمضى بها الأب إليه ، يعود الصاوى ليثبت فيه النظر ، « اقعده يا أحمد » ، لكن الوالد يكون قد مضى وغاب عنه ، غير أنه يستمر في وصف بيوت استامبول والقباب المتجاورة ، والموسيقى الشجية التي تسمع من بعيد ، وآذان الفجر ينبعث من المآذن النحيلة المشرفة على البوسفور الجميل .

تلك بوابة الفندق ، فسيحة ، تؤدي إلى ساحة مستطيلة تطل عليها نوافذ المبنى وشرفاته ، في ليالى الصيف ، في نهارات الشتاء المشمسة تصطف المناضد ، إلى الجانب الغربى شرفة متسعة تؤدي إليها ثلاث درجات قيل على مسمع من أصلى ، لا يعرف من القائل أو متى ؟ إن هذه الشرفة شهدت أول عرض سينمائي في مصر- عام ألف وتسعمائة وعشرة ميلادية ، كان رواده من عمد البلاد ومشايخها واثرياء الريف ، وأجانب قادمين من أصقاع شتى ، جل القوم من الأحبة المرادين الذين قصدوا الإقامة على مقربة من الضريح القاهرى ، ولحرص بعضهم على صلاة الفروض الخمسة حاضرة ، واصغاء إلى أدعية الفجر التي تتردد عبر صمت الليل النهائى ، بناء الفندق إلى يمين الداخل ، أربعة طوابق ، شرفات الغرف مسورة بمحديد مزخرف ، في نهاية الفناء المكشوف يقوم بناء مطبعة الحلبي العتيقة التي تمت إلى القرن الماضى .
فندق عتيق ، إذا سددت إليه البصر الحسى أو العقلى أو القلبى فلا أراه إلا ساعة ظهيرة ، ويوم الجمعة ، وبالتحديد بعد صلاة الجمعة ، بعد أن يتفرق الجمع الذى انتظم صفا ، صفا ، بعد انصراف جلهم ، وتفرق آخرين في المقاهى والدكاكين والمتاجر والوكالات المحيطة بالمرقد . يمضى بعضهم إلى الفندق ، يقصده الأب بعد جلسة دكان الصاوى ، بعد انصراف خلف بك هنا يلتقى بأبناء جهينة القادمين إلى المدينة ، أراه مقبلا ، أصلى إلى يمينه

وإسماعيل إلى يساره ، محب لصحبتها ، يقول للأُم دائما : «حتى يروا الناس ويشوفوا الدنيا» .

الحاج عبده النوبي مدير الفندق ، جاد الملامح ، لباسه جلباب صيفا فوقه معطف شتاء ، وطربوش لا يميل ، لم أره مبتسما أبدا ، يميل إلى الأمام وكأنه على وشك أن يهمس ، محلق ، مزمووم الشفتين تشابك أصابع يديه . إنه مهمت جلا بحرب مستعرة في بلد اسمه كوريا ، بجواره راديو ضخم الحجم ، تتوسط واجهته لمبة صغيرة تضيء لونا أخضر إذا اتضح الأمر ، يعرف مواعيد نشرات الأخبار ، وأصوات المذيعين ، كذلك الألحان المميزة

ظهر الجمعة يجير القوم بأهم ما أصغى إليه طوال أسبوع ولى ، يقص ما سمع من أنباء ، يخلطهم عن مسار الحرب ، يذكر أسماء المواضع والبلاد ، والقادة ، يقول إن جمعا من المحاربين قصدوا الهجوم على القوات الأمريكية ، اعترضهم مجرى مالى متدفق التيار كانوا بحاجة إلى جسر يعبرون عليه ، فما كان من الجماعة إلا أنهم ألقوا أنفسهم في النهر ، تكلموا فوق بعضهم البعض حتى وصلوا الضفتين يجسر من الجثث وعبر من تبق ، يصغى الأب ، أصلى يستمع منبها ، مجهلا نفسه في تخيل هذا البلد النائي .

عبد المقصود أفندى ، عمر الخادم التحيل جلا ، الطويل جلا ، يتوقف عن خلمة الزبائن ، الكل يستمعون ، يقول الحاج عبده إن القائد الأمريكي لو تدخل بالطيران لحسم الموقف ، لكنه لم يفعل ، ثم يقول مؤكدا أنه عندما أصغى إلى عنوان النبأ استج مقلما ما أقدم عليه قائد الكوريين ، ولحظة اصغائه إلى التفاصيل صحت توقعاته ، قال الأب للأُم إن الحاج عبده كان يتابع معارك الحرب العالمية ويعرف أدق التفاصيل ، وكذلك حرب فلسطين ،

وأنه يقضى أياما متتالية متكديرا حزينا لأن النتائج لم تتطابق مع توقعاته وما أشار به ، وكثيرا ما شوهد غضبان آسفا لأن الوسيلة معدومة في توصيل نصابه إلى القادرة ، خاصة حرب فلسطين . يردد الحاج عبده أنه معجب بالكوريين ، أنه اختار الانحياز إليهم فخواطره معهم ، لأنهم يحاربون في بلدهم ، يكرر مرات هجوم حشودهم غير عابئين بالنيران والهلاك ، ثم يردد :

« لن نهزم إسرائيل إلا بهذه الطريقة .. » .

يومئ عمر مؤمنا ، ينطق بعد طول صمت :

« صحيح .. مضبوط .. » .

إنه نوبى أيضا ، يشتري الطعام للتزلاء ، والصحف ، ويقضى الحاجات ، جبهته مستطيلة تؤدي إلى رأس أصلع تماما تنفر منه عروق خضر ، على جانبيه بقايا وشم جاء به من البلدة ، لكن بعد عمله في الفندق ، وتندر الزملاء به ، عاجله بماء النار عند الأسطى سيد ، احتمل جلدا ، حتى إذا انتهى الأمر أبدي الأسطى دهشة وتعجبا ، إذ أن عتاة الرجال وجبابرتهم يصرخون لحظة ملامسة الحمض جلودهم ، غيز أن عمر لم يلفظ آهة ، لم يعض شفته العليا أو السفلى ، لم تتلصق ملامحه ، لم يغمض عينيه ، إنما حملق في المرأة كأنه يرقب شخصا آخر لا علاقة له به . .

إذ يبدأ الحاج عبده حديثه عن الحرب ، يترك عمر ما يشغله ، يجيء ليحلق ويصنى ، وإذا تصادف عودته من مطعم حاملا صينية عليها أطباق ساخنة يقف ولا يتحرك ، وعندما يصنى يزداد اتساع عينيه ، بدوى فيها بريقها الغريب . ربما يهز رأسه مرة أو مرتين أو يعلق بكلمة « صحيح » أو « تمام » ، أحيانا إذ يفقد الحاج عبده زبائنه يدعو عمر إلى الاقتراب منه ، لا يجلس . في حضرته أبدا ، يبقى واقفا ، مصغيا مما يضطر الحاج إلى رفع رأسه

وعينه ، يستمع إلى المواقع التي احتلت وتلك التي يجب تدميرها ، وأخرى كان من الممكن اجتياحها ولم يتم ذلك ، إلى خطط كان يجب تنفيذها ولم توضع أصلا .

عمر من أحباب الإمام الحسين ، يؤدي الفروض في مواقيتها داخل المسجد ، إنه يمسح الميضأة ، ودورة المياة مرتين في الأسبوع ، نذر قديم قطعه على نفسه ، يشهد المصلين والزوار أن الميضأة تبدو أنظف صباحى الثلاثاء والجمعة ، يفعل هذا راضيا ، ويرغم صمته الذى يستغرق أسابيع ، وهدوئه وصبره على الشدائد والأعمال الصعبة ، فإنه يشتعل كحريق وتتوتر عروقه وتتصلب يده ، يقذف بأى شىء فى متناوله إذا سب شخصن أمه مهما كان مركزه أو وضعه .

بعض خبثاء الناحية يثرونه من بعيد ، يزعمون بسبها ثم يعدون جريا ، عندئذ يزعم زعيقا هائلا يبلغ منه المارة بقره ، يبدو خروج هذا الصوت غربيا من جسده النحيل ، حتى إذا عجز عن اللحاق بخصومه يقعى جالسا فوق الرصيف ، يغمض عينه ، يرفع وجهه مثملا فتبرز حنجرتة ككرة صغيرة داخل حلقومه ، يضرب صدره بقبضتيه ، مطلقا جعيرا يخشاة الكبير قبل الصغير ، ولم يعرف سبب ذلك ! .

أراه فى جلبابه الأبيض النظيف ، يمشى حاملا طبقا من الفول ، يعبر ميدان بيت القاضى ، يتحدث إلى الأب ، واضح جلى أنه يكن له الود ، لكن عن أى أمر يتحدثان ؟ عن أى أمر ، لم أصغ ، لم يوضح هذا لى ، حتى حركة الشفاه لم أرها ، لم يتحدث أصلى إلى عمر غير مرة ، التقي به فى شارع المشهد الحسينى ، كان ذلك بعد مرور سنين ، بعد طى السجل للكتب ، بعد شقاق وقع ، إثره هجر الأب البيت غاضبا ، لم يدر له أحد مستقرا أو

مقاما ، هاهوذا عمر يحيى من ناحية الميدان ، يحمل دورقا مليئا باللبن ، رأسه مرفوع ، يميل إلى الخلف ..

« صباح الخير يا عم عمر .. »

ينظر إليه ، لا يتكلم ..

« ألم تر أباي ، ألم يحيى إلى الفتلق ؟ »

تتفرج شفاته ، لثته حمراء كالدم ، أسنانه ناصعة ، غاضب ، عدائى اللهجة .

« امش .. »

يرتبك أصلى ، يهدد عمر ، يستنكر ، يلوم ..

« تفضيون أباكم الطيب .. »

يولى ظهره ، صار أصلى يتجنبه خشية ، إذا رآه حاد عن طريقه ، فيما بعد كثيرا ما استعاد يوم الجمعة لا ينسى ، بعد أن خطب نصير المستضعفين فوق منبر الأزهر ، ورج صوته قلوب الخلق عندما أعلن الجهاد ، « ستماتل .. ستماتل .. ستماتل » . أنبا القوم أنه باق بينهم ، كذا أولاده ، وصحبه ، وأنه سيلقى ما يلقونه ، ضج القوم ، ودمع بعضهم ، وهتف آخرون ، وانبتق حضور المسجد العتيق ، فتلك لحظات لن تنسى إلى أمد طويل .

بعد انصرافه ، بعد اظهار البيعة له ، عاد أصلى إلى ميدان المشهد الحسينى ويده صحيفة «الأخبار» ، طواها على عنوان أحمر يقول : إن بورسعيد دفعت ضريبة الدم ، رأى الميدان غاصا بقوم من كل فج ، يرتدون ثيابهم المدنية ، جلايب وطواق ومعاطف وشباب مُعدّ ، متأهب للموت ، كل يسك بتدقية ، يتشدون «الله أكبر» قبل انطلاقتهم إلى جهة ما ، وعلى مقربة عربات نقل عسكرية ضخمة ، غمامات فى فضاء الميدان ، يوم خريفى .

يقف أصلى ، دماؤه متدفقة ، حارة ، رغبة ، قصوى في المشاركة ، ألا يكون غيره قريبا وهو بعيد . إنه يلمح في نهاية أحد الصفوف عمر النبي طويلا ، فارها ، نحىلا ، يقبض بيده ماسورة بندقية «لى انغليده» ، طلاؤها بنى ، ماسورتها سوداء ، عيناه متجهتان إلى أمام ، طويل ، أطول من أى مرة رآه فيها، هذه لحظات بقيت معه، استعادها في نواح شتى، وظروف مختلفة، وأوقات متباعدة ، وفي الأعم ، الأغلب ، بدون ترتيب .

لم ير عمر بعد ذلك ، غاب تماما ، وقيل إنه ذهب إلى الجبهة وهناك قُعد ، وقيل إنه قتل في غارة ، ولأنه لا أهل له ، ولا يعلم أحد شيئا عن أقرائه أو من يمتون إليه بصلة ، دفن في مقابر الشهداء بالاسماعيلية بلا علامة تدل عليه ، قيل غير ذلك ، إنه شوهد في بورسعيد يمشى بجوار امرأة بيضاء وطفلين ، لكن لم يثبت صحة ذلك ، أما المقطوع به ، فعدم رؤية أصلى له حتى اسرته من فاس المباركة ، وفي السنوات العشر الأخيرة السابقة على قدومى إلى هذا الكون وحلولى محله لم يذكر عمر النبي كثيرا ، يجهل البواعث التى تبعث به إلى ذاكرته ، ولكن إذ يبرق اسمه ، يتذكر وقفته أثناء حديث الحاج عبده ، ونظرتة إمساكه بالبندقية ، وسرعان ما ينساه ، يغيب عنه ، كذلك نسى عبد المقصود أفندى ، أنه كان كاتباً للفندق ، وحافظاً لأوراقه ، استعاده دائما في وضعين لا ثالث لهما ، إما جالسا في مقصورة جدرانها نصف خشبية نصف زجاجية ، أو منحنى إلى الأمام يتحدث إلى واقف أمام المقصورة من خلال فتحة مستطيلة ، ضيقة ، بجواره لوحة تليفونات الفندق ، صندوق بنى الألوان ، يبرز منه مفاتيح ، وسماعة معلقة خلف خزنة حديدية ضخمة ، مقبضها دائرى ، محفور عليها كتابة بارزة بحروف لاتينية ، لفتحها صرير ، فيها التقود والايصالات وأمانات التزلاء وأوراق قديعة وبقايا

ثمينة نسيها التزلاء محفوظة تخفي لحظة قد تجميء يسأل فيها صاحب حاجة عن حاجته ، في الخزانة أيضا أسرار منسية وأخرى لا يعلمها إلا هو ، إنه يمول المكالمات إلى الغرف ، كما يحسب ويدون الطلبات التي ترسل من مقهى الفندق ، الشاي ، القهوة ، المياه الغازية ، كما يسجل الطعام الذي يجميء به عمر من المطاعم القريبة ، يكتب الأرقام في دفاتر مقمسة إلى جداول وخانات ، إنه يستلم الخطابات من وإلى الفندق ، ومفاتيح الغرف عند انصراف التزلاء ، كما أنه يراقب الصاعدين .. فالسلم يبدأ عند نهاية المقصورة كما يرد على تساؤلات الأعراب .. إنه بدين ، يرتدى حلة كاملة صيفا وشتاء يبرز تحت السترة الخارجية صديري أفرنجى تتدلى منه سلسلة ساعة ، ينام في حجرة صغيرة بابها قصير مجاور للمكتب مباشرة .

أرى الأب يقترب منه يوما ، ما من أحد يقف قريبا أو يمكنه الاصغاء ، ينحني الأب انحناء من ينوى السؤال ، وللسؤال ذلة أيا كان موقف السائل ، إنه يطلب خمسة قروش ، هذا يوم من أيام الضنك ، لأدري موقعه أو علامة تحدده ، عبد المقصود أقرضه مرات ، يدعو له «رينا يقويك يا أحمد ويقدرك على تربية الأولاد» ، يعود إلى صمته ، إلى مراقبة السلم ، لم يره أصلى إلا جالسا ، لحظة انتقاله إلى غرفة النوم الضيقة لم يشهدا أبدا ، كما أنه لم يره خارج الفندق أبدا ، وكان يثق بشكل ما ولسبب ما أن الرجل ينام مرتديا حلته كاملة .

أرى الفندق من جهات شتى ، المبنى من الخارج ، شرفاته ، نوافذه المستطيلة أراه من الداخل ، أمشى في ممر طويل على جانبيه غرف ، هاهذا أصلى يصحب أباه لزيارة شيخ من البلدة ، جاء إلى هنا بعد عملية جراحية في قصر العينين ليتبرك بقرب الحبيب وليتم الشفاء ، ألمح مدخل المطبعة ، رجلا قصيرا أكرت الشعر

يدخلها ، أرى صناديق مليئة بزجاجات المياه الغازية الفارغة ، المواسير السوداء ملتصقة بخلفية المبنى .

أرى الأسرة كلها مصطفة كأن الجدران التي تفصلها قد زالت ، يتعاقب القوم عليها ، كل من أغفى ، أو نام ، أو دهمه كابوس مروع ، كل من حملق إلى السقف المرتفع المطلئ بالقدم ، كل من نكح أو نكحت أو نكح داخل هذه الغرف ، الطلاء يتجدد ، يغمق ، يتسخ ، يتقشر ، يتساقط ، الشروخ تتسع يوماً بعد الآخر .

أرى التبدل ، التغيير عبر سنوات شتى ، أما جلسة عبد الرسول الهندي فلازمت الموضع عينه ، حتى قدماه لم تطأ إلا المواضع التي اعتاد وطأها عند مشيه ، إنه أسمر ، ناعم الشعر ، يميل إلى بدانة ، مستدير الوجه ، بارز الوجنتين ، صديري أفرنجى فوق قيص ، بنظولون بنى ، صندل غريب يبدو أنه من بجلد حيوان مجهول غير مألوف في هذه البلاد ، نظارة معدنية الاطار ، على وجهه طيف ابتسامة لا يغيب أبداً أثناء حديثه أو صمته ، إنه نزيل قديم ، لا يدري أحد مقدار المدة التي قضاها في الفندق ، لم يبدل غرفته ، وعندما أجروا اصلاحات منذ سنوات وتقرر اغلاق المبنى والتوقف عن استقبال التزلاء لمدة أسبوعين ، رجا الحاج عبده أن يأوى مع عمر في الطابق الأول ، استجاب الحاج له ولم يناقش الأمر ، ما عرف عنه انتاؤه لطائفة تعيش في الهند ، يعتبر أفرادها أنفسهم من سلالة السيدة فاطمة والدة الحسن والحسين عليها السلام ، يجولون إليه مبالغ على فترات متباعدة يعرف الجميع موعد وصول الحوالة عند ذهابه باتجاه الموسكى حيث فرع البنك ، لا يدري أحد ما يقوم به ، أو سربقائه ، لكنه يقضى وقته كله على مرأى من الجميع ، جالسا فوق مقعد من الحديد قرب مدخل الفندق ، يقرأ كتباً باللغة الأردنية ،

يتحدث العربية بلغة تثير فضول أصلى ، أحيانا يقعد بين الزائنين ، يحتلم الحوار ، لا يتوجه إليه إنسان بكلمة ، ينسى وجوده تماما ، لا يدري به إنسان ، حضوره كالظل العابر ، إذ ينصرف أو يتململ أو يبذل وضع جلسته لا يلاحظ أحد ، غير أنه أحيانا يصمت المتناقشون ، أو تبدأ هذه اللحظات التي تتخلل الحوارات ، عندئذ يتبته الكل إليه يبرز حضوره فجأة مدببا ، تقيلا ، فيتجسون منه خيفة ، يبدأ انصرافهم

أرى الأب يجلس إلى جوار عبد الرسول عند مدخل الفندق ، يتحاوران ، يتهاसान أحيانا ، تتعاقب التعبيرات على وجه أبي ، يبسط يده أحيانا ، أو يشير بأصبعه إلى الجهات ، ينظر إليه عبد الرسول بود ، مرات عديدة صاح الحاج عبده مداعبا : ماذا يقول لك وماذا تقول له يا أحمد ؟ يضحك أبي ضحكة خاصة مؤداها ومعناها أنه لن يفضى ولن يجيب ، «حقا .. ماذا يقولان ؟»

أهم بالاقتراب لكنها يوليان متراجعان أو ابتعد أنا ، أوقن أن ما بينها جللا ، غير أنه ما من علامة تشقى الغليل ، وهذا بين أمور شتى حيرتني حتى زمن تقيلدى هنا

رأيت في باحة الفندق ممن لا حصر لهم ، لم أدقق ملاحظهم جيلا ، لم أعن بالاستفسار ، لم أضمر سؤال دليلى عنهم ، وجوه عديدة ذهبت عن حفظي .. إلا عبد الرسول هنا بقي في ذكرى ، ربما يرجع هنا إلى جلسته ، إلى صمته ، إلى حيرتي تجاه ما دار بينه وبين الأب ، لكن وددت أن أسطر عنه ما أعرف ، غير أنني بلغت هنا الموضع من الكتاب وما بي طرف عنه ولا معي ذهن . ذلك أتى أجهله .

أراه في صمته يوم قدوم هذا الفتى الجميل ، على وجنتيه وفوق شفثيه يرى في الضوء زغب أشقر ، يقعد في الصالون الداخلى يحدق فيه الحاج عبده ، وعمر ، وجلوس آخرين ، أما عبد الرسول فيتطلع إليه حانيا ، ودودا ، وطيف ابتسامة مشرف من بعيد ، جاء الفتى الليلة الماضية بصحبة شاب يكبره سنا ، هيئة الشاب ومنظره لم تطمئن عبد المقصود أفندى ، يبدو أن الغرب لم تكن عنده احاطة بتقاليد الفندق القديم ، استفسر عبد المقصود أفندى عن الفتى ، عن درجة قرابته ، أهو شقيقه ؟ ابن أخته أو أخوه ؟ أى قرابة تربطها ؟ ، لما أبدى اضطرابا نظر عبد المقصود إلى الفتى ، أمره أن يجلس في الصالون الداخلى ، أن ينتظر .. أطاع الولد ، مضى إلى الأريكة الرئيسية .

عندما رآه عبد الرسول يقترب منه وقع أمر محير ، إذ اضطرب حاله فجأة ، وصار وجهه في لون الليمونة الجافة ، ثم تداخلت أعضاؤه ، وبقى قابعا ينظر ولم يدر أحد سبب ذلك ، أما الشاب فبدا مرتبكا ، حريصا على تخليص نفسه أكثر من حرصه الدفاع عن الفتى ، زعق عبد المقصود لاعنا أولئك الذين يريدون تلويث الفندق حسن السمعة ، القريب من الضريح الطاهر ، فليقل لهم من يعلم أن هذا المبنى كان مقر الوجهاء ، ومشايخ البلاد وفرسانها ، وأن التاجر الذى كان يريد أن يعلن عن مائة أحواله كان يقول بضم ملىان ، أنا أنزل بالكلوب ، وأن العروس التى يتباهى بها أهلها كانوا يشترطون على عريسها أن يقضى شهر العسل أو جزءا منه في الكلوب ، ماذا جرى ؟ أى زمن أغبر هذا ؟ من أى مصيبة جاء مثل هؤلاء ؟ ، أمثالهم لا ينفع معهم إلا البوليس . استدار إلى لوحة التليفونات ، لكنه عندما عاد لينظر إلى الشاب لم يجده أمامه ، أختفى .

أسمع الحاج عبده يقول إن الفتى هارب من أسرته ، وإن جاء من الجنوب ، وأن الشاب اصطاده وغواه ، وكان سيفسده لولا أن عبد المقصود أفندى تدارك الأمر ، أرقب العيون المحلقة ، يتخيلون ما كان سيصير إليه الولد الآن لو أنه صعد إلى الغرفة ، ربما اشتهاه أحدهم سرا ، أما عبد الرسول فانسحب مضطربا ، لم يره أحد عند انصرافه الأخير ، عبد المقصود طمأن الحاج عبده أن حسابه مدفوع حتى نهاية العام ، وأنه لم يستدن من أحد ، أما حاجاته فمحفوظة في الخزانة الحديدية حتى يعود أو يظهر من يمت له بصلة ، لماذا اختفى عبد الرسول بعد ظهور الفتى ؟ لم يعرف أحد ، لماذا غافلهم الفتى واختفى ؟ ، أسمع الأب يقول : إنه غافل الناس ومضى ، ثم يقول محدثا الأم : الولد يبدو فاسدا بطبعه ، تقول أُمى : ربنا يستر على أولادنا وأولاد الناس الطيبين .

تلك الوجوه عديلة ، تتابع ، بعضها يتهمل ، بعضها يبرق ، تتخلط الملامح ، تذوب في غسق خريفى ، تتبدل وجوه أخرى ، تطوف الضريح القاهرى للحسين الشهيد ، رجل ينحنى مقبلا العتبة الرخامية المؤدية ، آخر يلثم نحاس المقصورة المشابك ، عجوز ترجو طلة من الحبيب ، أخرى تتوح بالنظر الصامت ، طفل يروم شم العبير الحقيقى ، ونشال يسعى فى الزحام إلى ما يمتلكه الخلق ، تطوف الدنيا بمن فيها حول الضريح والمثوى ، فانصف ياسيد شباب أهل الجنة ، ياخير الأدلة .

تخرج من الباب الجنوبي ، عقود الخرز الملون ، الطواق ملونة ، والبخور يبنى اللون ، عليه المستكة واللبان الجاوى والعصى المعلقة ، والطارات والطبول والشارات ، ومجنوب يلوح بسيف خشبي مرسلا الاشارات المهمة ، وربما عبرا عن قصد ، أو مقصضا عن نوايا ، أو منبثا بأمر لم تلح طلاعتها بعد ، أو

مستغيثا من دواه لا يرى نذرها إلا هو ، أما الباب الأخضر فقابع تحت قاعدة
المثدنة الأصلية ، مظلل ، عميق ، شق الجدار غمق لونه ، صار ملمسه
صخريا ، ردت الأحجار إلى حالتها الأولى ، إنه الموضع الذى حطت فيه رأس
الحبيب الشهيد بعد أن طارت أربعين يوما من الموضع الذى اجتزت فيه إلى مصر
المحروسة . وهذه واقعة شغلت أصلى زمتا . أجهد الخيال فى تصور أم الغلام الفقيرة
التي اقتدت الرأس الشريف برأس ابنتها ، وقد أشار إلى هذه الواقعة فى قصة
عنوانها « أيام الرعب » تضمنها كتابه الأول « أوراق شاب عاش منذ ألف عام »
فن أراد الاستزادة عليه مطالعتها هناك ، فخططنا هنا الاختصار فى التقيد قدر
الطاقة .

أرى أصلى يمر بصحبة أمه وأبيه وأخيه أمام المارشال على ، معروف ، أمره
ذائع فى الناحية ، تناقل أخباره الناس ، بادله أصلى التحية مرارا ، تلك دكة
مرتفعة مفروشة بسجادة من بخارى ، لونها أحمر يا قوتى ، يرتدى حلة عسكرية
تمت إلى جيش مجهول ، على جانبي كتفيه رمانتان حريريتان ، أما صديريته
فتمتلة بالأوسمة والنياشين وأغطية زجاجات مياه غازية وخمور ، يتلى من
حزامه سيف فى غمد جلدى محلى بنقوش عربية من جانب ، أما الجانب الآخر
فكتب عليه « سيف الله الغالب ، عل بن أبى طالب » حذاءه جلدى طويل ،
يرز منه مهازان من حديد ، يتفض واقفا ، مشلودا ، يرد التحية بأحسن
منها ، يغطى رأسه بطاقيّة من فرو عليها شارات وعلامات .. قيل إنها تخص
قائدا كبيرا بالجيش الأفغانى القديم

فيما بعد أصغى جمال إلى من يقارن بين المارشال على وشبه الجلف الجانق
- لعنه الله - به ، غير أنه استنكر ذلك واستكبر ، عارض القائلين ، جمال رأى
الجلف عن قرب ، فى احتفالات عديدة ، فى المراحل الأخيرة لمناورات الجند ،

يأمرني :

«امض إلى الجهة الشرقية» .

أرجوه :

«انى مصنع ، مطيع ، لكن اسمح لى بطة .. وتدوين قصير...» .

يقول :

«إذن .. اسرع وأوجز...» .

أرى ظلال عودتها عبر هذه الجهة ، لسميها جوهر عابر خلف آثار لا يمكن للرائى إدراكها بعد خلو كون المحسوسات منها ، بعد تمامها مضت شقيقى نوال بصحبة على أنخى لزيارة الحسين ، ثم شقا هذه الجهة ، من ضريح الحبيب ، وحتى ميدان باب الشعرية ، كل موضع هنا له عندهما معنى وترجيح ، عادت نوال لتقول : كل من عرفناهم ما زالوا يعيشون ، فلماذا أبى وأمى؟! ، أصغيت ولم أقدر على رد الجواب أو التعليق ، كما أتى لم أستطع الادلاء بشيء عن هذه الظلال الساعية المتبقية ، فاما من ظل إلا وله صدى ، لكنها أمور إلى الادراك الحقيقى أقرب ، فلا حواس تطلها ، وفوق كل ذى علم علم .

أرى صدى عودتها بعد زيارة الطيب وأصلى بصحبتها ، تمشى هادئة ، مصغية غير جزعة إلى ما جرت به المقادير ، أما أصلى فهموم مرتجف خوفا من احتمال ثبوت الداء الحبيث .

ها هو ذا يعود مبتهجا ، على وجهه علامات البشرى ، أرى ظلال سعيها وجهادها ، إلى عيادات الأطباء تصحب عليها الأصغر ، إلى المثوى الطاهر لترفع دعاء بفك أسر رجال بعد بدء سجنه وتقييد حريره ، لعن الله الضالمين . هذه فترة مغايرة ، خروجه من المدرسة ، فسحة مقدارها نصف ساعة ،

كان الميدان أقصى حدود العالم عنده ، ثم امتد حتى أرضفة الأزهر ، وعبر الكتب القديمة تمدد كونه ، توالدت مجراته ، واتسعت الأصقاع ، يمسك كتابا لا غلاف له فيقرأ ، رواية يجهل مؤلفها ، يلتم الصفحة أثر الصفحة ، خرج عنفرده أكثر مما ينبغي ، فالأخطار محدقة ، بلا حصر

تلك ظلاله عند عبوره الميدان إلى الترام ، إلى العباسية ، ثلاث سنوات يدرس المنمنات وفن نسج الأبسطة ، كم زمتنا استغرقه عبوره تلك الجهات مرارا ، كم عدد الخطى ، كم تنوع الخواطر والصور ، كل خطوة في عمره ترددت أصداؤها عنده أثناء عبوره تلك الجهة ، انتقاله من مهنة إلى مهنة ، من طور إلى طور ، اكتسابه المعرفة ، عودته بالنبا اليقين ، بالشك .. كم تغير حاله لرؤية محبوبة ، وكم انتشى لمواتاة فكرية ، وكم توجهت اشراقا ، مباغته ، مفاجئة ، كذا كل من ارتبط به ، من ذوى قرابة أو صحبة

فيا تلك الجهة التي منك البدء .. ويا هذا الطريق الذي انطبع موجوداتك ، ما يحف بجانيك ، وما يسعى فوقك ، في أحداق الأحبة ويا هذه الأرض التي لم تتغير؟ ولم تتبدل .. أين راحت هذه الظلال الكوائف؟ ومن يدرك سعى الأحبة وخواطرهم ، تلك التي ولت وانمحت ، وتلك التي توارت ، وتلك التي أقامت
يا مرنى دليلى :

«عجل فالوقت محدود .»

أبدأ على الفور تدويني ، وإن لم أرتو من الطلعة ..
«تلك وجوه رأيتها ، وبعضها رآني ، كل منها أودع عندي أثرا ، بعضها أدركت أصحابها وعرفتهم ، والآخر أجهله ، ولما كان الإنسان نسخة جامعة ، لذا كان عندي منها مقدر ونسبة ، فإذا قدر لي رؤية كل منها منفردة ،

إذ رافق المقاتلين سنين عددا من عمره ، ودون أخبار ذلك في صفحات شتى ،
ولهذا موضعه الآتى لكن في غير هذا السفر .

أقول إن الجلف كان مغرما بتزيين حلته العسكرية ، وأضاف إلى نفسه ما لا
يجتئ له ، فارتدى وشاح القضاء الأخضر ، علق الأنواط والأوسمة أبدى
التكلف ، تصنع الهيبة ، سخر الخلق منه ، تندرأوا عليه ، لم يقنع أحدا أبدا ، مع
أنه قصد بث الهيبة وترسيخ المكآنة .

قال جمال - أصلى - إن المارشال كان من مباهج صبانأ ، أما الجلف فلم
يكن إلا كابوسا .. مدعيا .. كاذبا .. جلابا لكل سوء ربما كان لدى المارشال
أمر جمة لم يفصح عنها ، حسبي ذلك وكفى

إني عائد إلى حارة الوطاويط ، أتجاوز المنحنى ، أرى الرجل الضرير ،
مدكوك البدن ، يرتدى جلبابا تحته جلباب ، لا بيدل .. لا يقير في الصيف ،
رقيقته قصيرة ، رأسه مستدير ، شعره قصير أما عيناه فظلمتان ، متجهتان دائما إلى
أعلى ، يدها تريان ، تتفحصان ، تمددان المعالم ، لم يدل مخلوق باسمه ، لم يتناول
طعامه أبدا على مرأى من أحد .

الشيخ دياب الصعيلدى تاجر الورق أخبر عنه فقال : إنه كان مقبما في بلد
قصى بالريف ، عندما جاءه الهاتف يوما ، أمره بالتهوض لتوه .. بالمضى إلى
سيدنا الحسين ، ألا يعمل إلا بصناعة المفاتيح ، فلما حاروا اضطرب وردد بينه
وبين نفسه ، خلقتهم مبصرين ، وخلقتنى ضريرا ، كرر الهاتف أمره فقام من
ساعته قاصدا الضريح ، ولزم هذه الحارة المأدأة ، حيث لا تمر عجلات أو
دواب ، ولا تنأى عن المثوى والمرقد ، بجواره صندوق من حديد ، حوله
سلاسل تتظم بها عشرات المفاتيح ، مفاتيح حقائب صغيرة ، أبواب ، مفاتيح
ضخمة لأقفال لم يعد لها وجود ، أخرى تمت إلى عصور بعيدة ، مفاتيح

دقيقة، صغيرة لعلب حلى أو ماشابه، إنه غليظ اليدين حتى ليظن الرائي أن
بهما ، يسك المفتاح المطلوب صنع مثل له ، يتحسس انحناءاته، استداراته،
أسنان المفتاح تذكره بالمفاتيح المنتظمة حول الحلقة ، فإذا تضمنت ماشابه
أمسك الحلقة ، هزها مرتين ويسحب المفتاح المائل بدون عناء أو حيرة . أما إذا
لم يكن لدية قليلاً يلاه العمل ، لا يغير من وضعه ، لا يغير اتجاه عينيه إلى
أعلى ، يصف أمامه مباد شتى ، مبرد نحيل ، آخر عريض : ثالث كالأبرة ،
يتناول كلا بترتيب ، في دقائق يفرغ !

قال الشيخ دياب إنه معمر ، أدرك هوجة عراقى وأن منظره لا يوحى أبداً
بحقيقة عمره ، يحفظ القرآن ، ويتمن القراءات السبع ، صوته يسمع عند باب
النصر إذا رتل القرآن عند الفجر ، وتلك مسافة نائية ، لكن لأمر غير معروف
كف ، لا يتسم ، غير أنه رثى مرتين ييكى ، ينهمر الدمع من فجوتى عينيه
الخرتين ، وكان ذلك إثر زيارتين لرجل هندي يقم في فندق الكلوب ، ولم
يعرف أحد ما جرى بينهما

يتجلى دليلى هنا

«ولن تعرف أنت ..»

أقول :

«لماذا يامن تغيب عنى ..!»

يخبرنى :

«ليس كل ما يراه المرء يدركه ..»

ثم يقول :

«اعلم أن الجهة الجنوبية عزيزة ، غالية ، فيها ولد أصلك ، وإليها رحل

لكن لا تظن أنك باق فيها أبداً ..»

فسأقول : أنا معك بكلتي ، ليس عندي غيرك ، وإني لصادق ، فإن من أثر
فيك ومربك فإنه يعطيك من الأسرار والخواص بعضها مما عنده ، لذا كان
اهتمامي ، وهذا يسرى على من جرى لقاؤهم صدفة ، فما البال بمن عايشناهم
وكانوا إلينا أقرب من جبل الوريد ؟» .

الجهة الشرقية
وَيُكَلِّمُ بِوَجْهِهِ مَوْلَاهَا.

(قرآن كرم)

.. الشرق مطلق ، والغرب مطلق ، أما الجنوب والشمال فنسيان . نقول
الشرق لطلوع الشمس منه ، كذا الغرب لغيابها عنده ، أما ما هو جنوبي عندي
قد يكون شماليا عند غيري .

للشرق الطلوع ، ومسرى الدفء ، والانتظار ، تلد الشمس منها وإلى
ديانا تجيء كل يوم ، عندها يلوح الطريق إلى الأذني والطريق إلى الأعلى ، إلى
المكانة الزلني ، إلى المستوى الأزهي ، إلى الدرورة الأسمى ، إلى حيث الأشياء التي
لا تقال ، ولا يصرح بإدراكها بشر ، إليها وليت وجهي .

هكذا أدت ظهري لفراغ السطح ، واستقبلت الأفق الممتد حيث تلوح
تلال المقطم ، والمآذن مجهولة الهوية عندي ، والقباب المتباعدة وأبراج الحمام ،
والسطح المجاور ، الحلق أنها سطحان : الأول منخفض ، والآخر في نفس
المستوى ، المنخفض بيت محمود اللبان ، أسرة كل أبنائها بيض البشرة ،
مستديرو الوجوة ثقبوا الأوزان ، أطولهم متساوية ، أشهرهم فتى أخرس ، كان
يطل من نافذة البيت المفتوحة ، المطلة على حارة الطبلابوي ويطلق زعقات غير
مفهومة ، النساء يتطلعن إليه عابثات ، ملوحات بأيديهن ، ولأنه لا يمكنه
التزول إلى الحارة .. فدخل البيت من ناحية قصر الشوق ، لذا تجرأ عليه

الصبية ، نادوه بقبيح الألفاظ ، لوحوا له بفاحش الحركات ، جاوبهم بمثلها
وبصرخات متتابعة تزايد حتى تشبه العواء ، عندئذ يدرك الصغار خوفا غامضا
فيختبئون بعيدا ، ثم يقطع حسهم من الطريق .

يعود إلى صمته ، تبقى اطلالته الثقيلة مهيمنة ، غامضة إن الليل يعقب
النهار ، والعممة تذيب ملامح الجهة الشرقية ، غير أنني أبصر فأرى ، هؤلاء
رجال سمر الوجوه ، كلويات ضخمة للاضاءة ، أوعية نحاسية ، ينشطون ،
يقطعون كميات كبيرة من البصل ، ذبائح كاملة ، مرق حمرة داكنة تصل
رائحته إلى أنقى ، أصابع كفته ضخمة وحلوى مستديرة ، بيضاء ترخرج عند
حملها ، تقول الأم : ألامية ، تلتفت إلى ، تطلب مني الدخول ، شفقة على
من رؤية طعام لا قبل لنا به ، إنه عرس ، عرس من ؟ لا أدري ، لكنه من
الأفراح التي تحدث الناس عنها زمنا طويلا ، هذا ما قاله الأب ، غير أنه قال
أين هذا من الفرح الذي أقامته عائلة صبح منذ خمسة عشر عاما ، غنى عبد
الوهاب ثلاث ليال ، و بقيت الموائد منصوبة أسبوعا تقدم الطعام لكل عابر أو
غريب أو زائر

أبدأ بالطللة ، فأقول إن هذه الجهة عندي هي المؤدية ، فلكي يخرج الأب
إلى عمله يتجه إليها ، ولكي يتم الذهاب من الضيق أى الحارة إلى السعة حيث
الميدان فلا بد من سلوكها ، إنها جهة الذهاب ، منها يكون الرواح ، المحي منها
أيضا ، لكنها ارتبطت عند أصلى بالسعى ، بالشرع ، بالاقلاع

أرى ظلال أبي في شارع المشهد الحسيني ، عند سفره ، عند عودته
مصطحبا جلتى أو خالى بعد وصولها من البلدة ، عند خروجه لتدبير قروش قليلة
ليتم بها القوت ، أرى ظلال خروج الأم ، تصحب الأب لزيارة ضريح
الحبيب أو تتوجه إلى مشوى شقيقته السيدة زينب ، أو السيدة نفيسة ، سيدى

زين العابدين ، ذلك هو الوقت الذى تبدل فيه واقعها اليومى وتشم الهواء ،
وتعطر أنفها وروحها بعبق الأولياء وآل البيت الكرام ، أراها عند خروجها
لزياره أقارب يسكنون قرب القلعة أو مصر القديمة ، أرى ظلها ، تسعى
بمفردها بعد أن عرفت المسالك والدروب ، وانتفت عنها الحشية ، تعبر الميدان
فشارع الأزهر حتى مدخل الباطنية لتشتري من جزاريبيع اللحم بسعر أقل ، أما
الخضر فتأتى بها من بائعة جنوية تقعد فى حارة أم الغلام ، تتعاطف معها وتحن
عليها لسبب غامض ، ربما قرب الشبه بينها وبين والدتها النائية عنها .

أرى فتاة سمراء ، طويلة ، واسعة العينين ، ترتدى جلبابا منقوشا بورود
كبيرة ، لم يكن أصلى على نقة من اسمها ، لكنه لسبب ما ايقن أنها فاطمة ، غير
أنه كان يرهب مظهرها ، كان يحشاها ، وكلما ظهرت فوق السطح المجاور تراجع
حتى يخفى عن نظرها ، سمع الأم تقول مرة - وياها تعنى - مسكينة .. حظها
وحشر ، تزوجت عبده الساعاى لكنها طلقت بعد أيام ثلاثة ، تقول الأم :
يبدو أنه ليس رجلا !! لماذا كان يخاف فاطمة ؟ ، لا يدري ، وان حاولت من
جانبي أن أعلل ، هذا السطح كان من النادر ظهور إنسان فوقه ، كان بلا سور
يحيطه أو يحده ، الحركة فوقه خطر ، وزمان قيل إن لصا مشى فوقه ليلا فسقط
عند الحافة ، كان جاهلا به ، ربما عد ظهور فاطمة خرقا للعادة

مرة واحدة أرى الأم تتخطى سور السطح ، تعبر إلى هذا البيت لترور امرأة
كانت تحيط لها جلبابا ، امرأة لها علاقة بفاطمة هذه ، هل عبرت الأم أم لا ؟ ،
ما من شيء يقينى ، فالرؤى عائمة ، والذاكرة التى ورثتها وانتقلت محتوياتها
عندى مثقلة ، مرهقة بما هو كثير ، ما أتق منه أن أبو غزالة جاء من هنا
السطح تحطى السور ، وقف يتحدث إلى الأب ، راح أصلى يرقبه من
مسافة ، نحيل ، طويل ، رأسه مستطيل ، شفتاه غليظتان ، السفلى تبدو كأنها

مقلوبة إلى الخارج ، إلى أسفل ، عيناه مستطيلتان أيضا ، أصلع ، أضفى ذلك عليه حضورا غريبا ، لاشك أنه أثار رهبة أصلى .

جاء أبو غزالة وتحدث إلى الأب حول تركيب مصباح كهربائى فى العرفة ، وقتئذ كان متخصصا فى سرقة التيار الكهربائى من مصادره الحكومية ومن وسائل أخرى لم يفصح عنها ، يمد سلكا يجتهد فى إخفائه حتى لا تقع عليه العيون ، ينتهى فى المكان المتفق على إضاءته أو مد التيار إليه ، كانت الأم تضىء مع اقتراب الليل مصباحا غازيا ، نوره ضعيف ، مجهد للعيون ، غير أن الأب وأبو غزالة لم يتفقا ، لم يتوصلا إلى سعر يرضى الطرفين ، سعر لتركيب المصباح ، وآخر لضمان استمراره بتقاضاه أول كل شهر .

عبر أبو غزالة السور عائدا من حيث أتى ، لم يظهر فوق السطح ، غير أن أصلى رآه مرات شتى عبر السنوات التالية ، رآه يعبر شارع الجالية حاملا فوق كتفه أجرة قديمة ، فارغة من الخيش ، يسعى من جهة إلى جهة ، مرة أخرى رآه صباح عيد الأضحى يحول الحارات ممسكا سكيننا وسيخا حديديا قصيرا ، كان ينادى معلنا استعداداه للذبح الأضحى مقابل الحصول على فرائها ، ثم رآه عصر يوم يقعد مهموما عند المدخل الشمالى لضريح الإمام الشهيد ، وفى كل هذه المرات كان يتجاوز الحاضر إلى هذه اللحظة المقضية ، المنذرثة ، لحظة وقوفه فوق السطح ، حواراه مع الأب ، مهتته الغريبة وقتئذ ، بعد أن رآه فى التليفزيون لم تقع عيناه عليه أبدا .

حدث أن مضى أصلى للفرجة على أول قصة كتبها عند تحويلها إلى تمثيلية ، وكان عنوانها «أيام الرعب» وعند جلوسه للراحة فوجئ بأبى غزالة يمر أمامه ، كان يظهر لمدة ثانية أو أقل ، يعبر طريقا صغيرا ، ضيقا ، لا يغير من تعابير وجهه أو نظرة عينيه ، تثير هيئته الغامضة تلك الخوف فى قلب شاب مطارد، بعد

التصوير فوجئ أصلى به يقترب منه ، يقول متوددا ، ألسنت أنت فلان ابن فلان ؟ فيومئى أصلى ، عندئذ رجاه أبو غزالة أن يتحدث إلى المخرج حتى يستعين به فى تمثيلات أخرى ، قال شاكيا : تصورا يا جمال بك أنتى أجمى مرة واحدة فى الشهر مقابل جنبيين .. ، ثم صمت ، واستدار مبتعدا ، لم يره بعد ذلك أبدا ، لافى حوارى الجمالية أو غيرها .

إلى الشرق يقوم بيت أحمر الطلاء ، ثلاثة طوابق ، إنه بيت الدواياتى الحانوتى ، قال الأب يوما إنه من يجهز موتى قصر الشوق والكفر ، للموت خشية ، إذ تقع عيناه على البيت يحمد نظره بسرعة ، يظن أن الدواياتى يحتفظ بالموتى فى بيته ، لو كشف هذا الجدار لرأى أكداسا مخيفة ، مفرعة ، كثيرا ما استلقى الأب على ظهره فى ساعات صفوه ، يقص القصص ، يذكر النوادر والأخبار ، مما قاله عصر يوم مجهول ، إن ملاك الموت عزرائيل كان يجيء ظاهرا لمن سيقبض روحه ، وأن ظهوره يثير فرجة ورجفة ، وظل الحال على ما هو عليه حتى أسرى بأشرف الخلق أجمعين ، فرجا الخالق - بين مارجا - ألا يظهر ملاك الموت عزرائيل إلا لمن دنا أجله لا غير ، ألا يراه المحيطون به ، فاستجاب البارى لحبيبه وصفيه . قال الأب إن عزرائيل يمر بكل بيت أو مكان فيه بشر خمس مرات يوميا ، يراجع المصائر .

أرى عروق الخشب التى تسند الأسقف فى بيت الدواياتى بارزة نهاياتها من خلال الجدران ، لذا أمكن تحديد الطوابق ، أين تبدأ ؟ أين تنتهى ؟ ، على الرغم من خلو الجدار الخلقى من النوافذ ، أولى وجهى بسرعة ، إننى لا أولى وجهى إلا حينئذ مد أصلى النظر . غير أن ما أثار حنينى من حيث أنى أصل وصورة معا ، وقفة الأم عند هذه الجهة ، إذ تفرغ من قضاء حاجة البيت ، تفرغ إلى وقتها وتلج صمتها ، تنفرد بعنصر وحدتها ، تمشى بجوار السور ، يدها

بلا... أثناء الحركة ، تغطي رأسها بطرحة بيضاء ، في الموضع عينه تتوقف ، تنظر إلى الشرق البعيد ، إلى الأفق الذى تجهل ما فيه ، تعرف أن اتجاه قبلة الصلاة قريب من اتجاه جهينة فتحدت مشاعرها بالحنين إلى البلدة ، إلى أمها ، إلى شقيقها الوحيد ، إلى الموضع الذى غاب منه أبوها ، أما التطلع إلى الجهة الشرقية فيحرك عندها أحاسيس كامنة لا يمكنها تحديدها أو تعيينها .

تنظر إلى البيوت المنخفضة .. إلى غسيل منشور ، إلى امرأة تخرج من غرفة فوق سطح ، إلى طفل يومئ ، إلى أطراف شجرة بازغة بين البيوت ، إلى غيات الحمام . هذه الجهة مزروعة بغيات الحمام ، إنها تعرف كل غية وما تحوى من كثافة الأسراب المنطلقة منها ، إنها تركز على غية بعينها ، قائمة على أربعة أعمدة نحيلة جدا كما تبدو من هنا .

في لحظات معينة يحول ضوء دون رؤية ملاحظها ، تبدو الغية كصندوق ضخم معلق في الفراغ ، في العصر ترى سلما خشبيا يسند ، يبدأ شاب في صعوده متمهلا بطيئا ، تتخلله نقلات حادة ، مع توالى الأيام تدرك أنه قعيد ، مشلول الساق ، ترق لحاله ، وإذ يستوى جالسا داخل الغية يبدأ التلويح برأياته الحمراء ، إن صفيره منغم ، خص به سره فاعتاد عليه الحمام يليه حتى لو نأى وابتعد ، تتابع ارتفاعه الذى يبدو لانهايتا حتى نقطة قصية ، ثم ارتداده السريع ، دوراته المفاجئة ، اقترابه من أسطح البيوت ، اختفاؤه خلف مبنى مرتفع ناحية الجبل ، يمد الشاب الراية الحمراء ملوحا ، يتصل صفيره مناديا ، يظهر السرب مرة أخرى ، إنها ترقب اقتراب الأسراب من بعضها ، تتلامس حمامات هذا بذلك ، إذا انتقل بعضها من سرب إلى سرب حتى ذلك لصاحب الغية ، لا حرج ولا شكوى ، أو عتب ، تدعو الأم ألا ينقص طائر واحد من طيور هذا الشاب المقعد الذى تشفق عليه عبر الفراغات الفاصلة ، ترق لحاله

من بعيد ، إذ يقرب المغيّب ويتزل رداء رقيق من ضوء رمادى مضمفيا على زرقة السماء فراغا غير مرئى ولا نهائية موحشة تنبئ بالليل القادم ، هنا يدركها شجى ، تفتقد الأسراب المحمومة تهمس :

« مع السلامة يا حام الغيئة ، أشوفك تانى .. » .

تتداعى إليها بمامة الظهيرة التى تجيئها عند انفرادها بجالها ، وهذه حامة ادركها أصلى ، وأثارت عنده الكوامن ، وقد جرى ذلك فى مقام الحزن ، ودون بلسان أصلى ، له الرجعى ، ولى العودة إلى ما كنت عليه ، فالزمن ليس زمنى ، والموجودات لا تخصنى ، والصحب غير صحبى ، الغربة محيطة والوحدة جائئة ، إلا أنى لا أخفى ميلا بدأ عندى ، ميل يخضنى تجاه أم أصلى كنا أياه ، يمكننى تحديد لحظة بدته ، تجاه الأب ، إنها لحظة من لحظات عودته إلى البيت ، يحمل قرطاسا فيه طعام ، وأرغفة خبز ، رأيت فى خطوه ، ملامحه ، حدود هيئته ، الأب ، الأب الذى يسمى ، أما ميلى تجاه الأم فبدأ مع وقفها هذه متطلعة إلى الجهة الشرقية .

تمكن منى فيض عينها من حنين وتوق وقدرة على مغالبة الظروف ومعان لا يسغنى الافصاح عنها لأنها من المجردات لنا .. لا تقال ، لو قيلت لدخلت فى المواد كما سبق أن صرحت .

فيا من تنظر أو تتطلع أو تولى وجهك إلى جهة مشرق الشمس ، حد الطلوع ومنبته ، يا من يقدر لك الوقوف عند هذه النقطة المادية التى مصيرها إلى زوال ، ليتك تدرك معنى وديمومة وعمق ورقة وحنو هذه الطلوات الأمومية التى حركت عندى الميل ، وأينعت أحاسيس البنوة لهذه الأم ، وإن لم تبدد غربتى ، ليتك .. غيرك أيها الناظر لن تقف أبدا على هذا المعنى الحنون من تلك الحدقتين السمحتين الإنسانيّتين ، لم تفيضا بكراهية مخلوق ، أقول هذا عن ثقة تملأ قلبى

هاتان عينان ولتا إلى مجهول ، انطفأتا ، انقضتا ، قفلت صاحبتهما عن الحياة الدنيا ، موقن أنا أنه لن يعرفها أحد ، أن مصيرها إلى نحو أتم عند من خرجوا من رحمها ، فالأحفاد أنى لهم أن يدركوا هذه الطلة الغروية وماحوت أو تلك الحففة القلبية لحظة ظهور يمام الظهيرة ، أو هذه القعدة التي أفضت عندها .

الحق أن أم أصلى هذه كانت بداية صلحي مع العالم الأرضي الذي جثته غضبا ، محكوما بقدر مسبق لن أتعجل ، يقول الخالق البارئ : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » أما الآن فإني أؤمن النظر إلى الشرق ، أرى مطلع الشمس ، وظلال القبور عند سفح الجبل ، وأضرحه قايتباي وبرقوق وبرزباي والخلفاء ، فسبحان من جمع بين الموت والميلاد في جهة واحدة .

صحراء قايتباي عند أصلى في سنتيه الأولى تعني الأبدية ، حافة المعمور ، الرمال ، الوحشة ، قبور الراحلين وخلايا الدراويش ، لكم حملت إلى المئذنة النحيلة الرشيقة كأنثى ، الضاربة في الفراغ بهلال يعلو جوسقا دائريا ، يتساءل : ماذا هناك ؟ ماذا في قايتباي ؟ .

عصر يوم بعيد صحب الأب جمال وشقيقه اسماعيل ، إنه احتفال رسمي بالمولد النبوي ، في صحراء الدراسة تقيم كل وزارة سرادقا كبيرا ، مهيبا ، إنه سرادق وزارة الزراعة ، مقاعد مذهبة ، مقاعد من الخيزران ، مقاعد مرتفعة تنصدر الواجهة ، مذهبة ، مكسوة بقطيفة خضراء .

عند المدخل أوعية ضخمة من نحاس ، حولها طاسات ، رجال سود يتدون قفاطين بيضاء ، حول خصورهم أحزمة عريضة خضراء ، يقدمون بصير الليمون للوافدين ، نصفي إلى التلاوة خاشعين ، نتطلع مبهورين إلى عربة

مطهمة تجرهما خيول ستة ، لقد وصل عظيم ، أرى دخانا يتصاعد عصر كل يوم ، كثيفا ، سائلا ، يبقى لحظات عالقا ثم يتبدد . أرى طائرة منخفضة تبنى ، من الشرق إلى الغرب ، عند حد معين فوق صحراء العباسية ترزع خلفها على خط مستقيم تقفا صغيرة ، تتفخ أثناء نزولها حتى يكتمل تفتيحها ، تغيب بعد لحظات ، استفسر أصلى ، ممن ؟ لا أدري ، لكنه علم أنهم جنود مظلات . هنا تجلى لي ابن عبد الناصر ، كان ميتسا ، ودودا ، شرعت في عناقه غير أني أحجمت ، نظرت إلى ، عرفت أن هذه اللحظة بالذات شهدها هو ، رأيتها أنا من فوق السطح ، ورآها هو من فوق منصة خشبية أرضية ، إنها الدفعة الأولى من جنود جلد ، قوة جليدة قلدر لأصلى بعد سنوات عديدة أن يصحب فضيلا منهم ، أن يطير معهم صوب منطقة من سماء الصحراء الغربية ، أن يرى لحظة فتح الباب الخلفي للطائرة ، واختفاء الجند واحدا إثر الآخر في الفراغ المعتم ، بما أدهشني أن هذه اللحظة لم ترد على ذهن أصلى عند صعوده الطائرة مع الرجال أو عند بدء تحليقها ، فما أعجب ذلك ! .

حدث صاحبه الشهيد يوما فقال : بعد قفزي بالمظلة أول مرة ، واثرتزولي إلى شوارع المدينة مشيت وانقا ، وعندى رغبة الجاهرة بما قت به ، وعندى ثقة لاحد لها ، أرى صدر الشهيد سليما لم يمسه أذى ، أته الشظية من خلف ، نفذت إلى القلب عبر الضلوع من الظهر ، أمضى ، أطوى مسافات متناحرة ، بلوح لي هذا الملعب ، وتلك المناسبة ، افتتاح نادى الجالية الرياضى ، ساحة مفروشة بالرمال ، خطوط بالجير تحدد وتؤطر ، مدرجات تردهم بالخلق ، الونات مثبتة إلى الأرض ، منصة بعيدة عن موضعنا ، محاطة بمحاشر السراقات ، لافتات معلقة لا يمكننى قراءة العبارات ، الملى بعيد غير أنى أرى ضباطا يصلون فيلوى تصفيق ، وترتفع هتافات ، ابن عبد الناصر يتوسط

الداخلين ، يقول أحد الجالسين بجوارى :

«سيزرعون تلال الدراسة أشجاراً...» .

استعيد وقفة روحية جارتنا إذ تتابع طائرات حلقة ظهر الثالث والعشرين
من يوليو ، تقول ،

«الجيش سيرخص الأسعار ، ويجعل ركوب الترام بالمجان !» .

يعدو الفرسان من أول الملعب إلى آخره ، يميلون بأجسادهم حتى أظن أنهم
على وشك السقوط ، يفرقون البالونات المثبتة إلى الأرض ، يقف ابن عبد
الناصر ، يعلو صوته ، إنه اطويل ، باسق ، أسمعه يتحدث لكن من زمن آخر ،
ليس من هذه المناسبة ، إنما من لحظات شتى ، متباعدة ، متفرقة ، الوقفة في
مكان ، والصوت آت من زمان مغاير ، فصل لى بين ما لا يفصل ، فما أجل
ذلك ، يغمرق انفعال وتأخفنى رعيدات ، أين دلى ومرشدى ، إنما أنا في
حاجة إلى شرح وتفصيل ، أين ابن عبد الناصر الذى تجلى لى منذ لحظات
هينة ، لم يجينى مرشدى ، إنما بدأ تردد واهن بعيد يتلوفى مسامعى شعرا نظمه ابن
جاهين الشاعر ، فأصغيت :

وقف الشريط فى وضع ثابت
دلوقت نقدر نفحص المنظر
مفئش ولا تفصيلة غابت
وكل شىء بيقول ويبعب
من غير كلام ولا صوت
أول ما ضغط الموت
بخفة وجبروت فى يوم؟

على زر في الملكوت
وقف الشريط في وضع ثابت

* * *

دلوقت نقدر نفحص الصورة
انظر تلاقى الراية منشورة
متمزعة لكن ما زالت فوق
بتصارع الريح اللي مسعورة
وانظر تلاقى جمال
رافعها باستيسال
ونزيف عرق سيال على القورة
وف عنفوان النضال
وقف الشريط في وضع ثابت

* * *

لم ارتو، لم أهدأ ، فزادنى ..
وحشتنا نظرة عيونك للبلد يا جمال
والخزم والعزم فيها وحها المكنون
وحشتنا عبسة جبينك وأنت بتفكر
ونبرتك وأنت بتعلمنا وتفسر
بسمه الود لما تواجه الملايين
وقبضة اليد لما تدق ع المنبر

* * *

قبضتى أنا تلق ، يدى تلوح ، إنه يتكلم محنتدا ، بينا ملاحى أنا هى التى
تعبر ، تصفيق يقاطعه بين حين وحين ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض وطاقيه
بيضاء يقف قريبا ، لا أسمع ما يقول ، فنظرى محلق بلحظة مغايرة حط
عندها رحله ، أتزود بمعارف شتى ، تلك مكتبة ضخمة ، جدرانها مرتفعة
مغطاة بالكتب ، مجلدات مختلفة أشكالها وأحجامها ، أصلى يقف فى القاعة
الفسيحة وحيدا ، يقلب صحفا عتيقة ، يتوقف عند عنوان رئيسى مأخوذ عن
خطاب ألقاه ابن عبد الناصر فى افتتاح نادى الجالية الرياضى ، إنه يتمعن ،
يدقق ، يحاول استعادة الملامح والمعانى ، يحدق فى صور الاحتفال ،
المدرجات المزدحمة ، لا تبدو الملامح فيها ، سمى هنا ، ملامح الوالد
واسماعيل منبته ، غير أنها مندغمة ، تائهة فى المنظر

عند هذا الحد شعرت بظل على مقربة منى ، تجاه الحد الشرقى ، تلاشت
جدران المكتبة وتبددت المجلدات ، ها هو ذا ابن عبد الناصر ، اتطلع إليه
وأنا مليم ، كمن اشتاق زمنا لرؤية من أحب ، حتى إذا لقيه أمامه فجأة بدون
تمهيد ، لزم السكينة ، نزل عليه صمت ، أخفى أثار الشوق .

تعلم أصلى من أمه ألا يظهر عواطفه ، ألا يبوح بها سهلة ، كلما بعدت البذرة
فى عمق التربة ، ازدادت متانة الجذع ، وندرت الشجرة ، غير أنى لم أسكت عن
شجى وتأثر ، إنما لعتاب أيضا أضمرته فى قرارى ، ألم يسجن أصلى فى زمنه ؟ ،
ألم يوقع قرار فصله بنفسه ، ولم يكن وقتئذ إلا موظفا صغيرا ، وعندما اطلع الوالد
الكريم على امضائه غشى عليه ، أيقن أن جرم ولده شنيع ، ثم .. من أين له
بتوقيع مماثل يعيده إلى مصدر رزقه ؟ .

أتطلع إليه :

« انظر من ذرف الدمع عليك ، انظر . من حفظ عهدك ؟ »

« يقول متأسيا :

« لم تجل النية من فتق ، وكان الرق عين الفتق ... »
لا يكف :

« من بددت شملهم ، عانوا من أجلك ما عانوا بعلك . »
يقول :

« الرضا بالحال عين الموت »

لاح عنده غم ، لم أعبا ، إنما تأهبت كي أوصل بينا يميل بوجهه إلى ،
تلك فترة ظلما استعادها أصلى بعد غيبته ، وهنا ، في هذه اللحظة التي
يصعب تعيينها أوتيت من حيث لا أدري بكتاب قيل لي إن الراحل ابن عبد
الناصر ألفه في البرزخ الأبدي بعد غيابه النهائي عن العيون ، وأن في هذا
الكتاب شرحا وتفصيلا ووصية ، وتفسيرا لأمر جمعة طال غموضها ،
وتماذى إبهامها ، أما لغته ورموزه ومعانيه فلا يدركها إلا من قطع مسافة
شاسعة في الطريق .

قيل لي : فض الكتاب واقراه بعد فراغك مما أنت فيه ، ولا تصرح
بمضمونه إلا بعد إذن ، لا تسرف .. لا تفرط ، لا تبدل القول . قيل لي ،
أيها النائي ، المغترب ، لا تنس ذاتك ، انتبه إلى غيك ، اذ كلت تتناول
على من تعلق به أبوك وأمثاله من المستضعفين ، في محاورتك معه غلظة ، هل
تجرات على من تجلى لك من السادة . المجاهدين مثلما تجرات عليه ؟ هل
خطبتهم بمثل ما خطبته ؟ انتبه ولا تغفل .

قيل لي : لا لترعم أنك في الأسفار والمواقف والمقامات كنت شخصا
وأنت الآن في الأحوال شخص آخر .

قيل لي : ما أنت إلا واحد . واصغ إلى هذه المروية ..

قيل لى : إن رجلا حلف الأيمان المغلظة ان العارف بالله الطشطوشى بات
عنده ليلة كنا ، فحلف صاحب له أنه بات عنده نفس الليلة فاختلفا ،
فاحتكما إلى صديق ثالث ، قال لهما ، الشيخ لم يبت عندك أو عنده ، لكنه بات
عندى فى هذه الليلة ، وأقسم ، فأرسلوا إلى الشيخ الطشطوشى ليعرفوا الحقيقة .
.. ، وليعلموا من حنث فى يمينه ؟ فقال :

ولو أن أربعة قالوا أنتى بت عندهم لصلقوا كلهم .. فما حنث واحد
منهم قط .

قيل لى : كن حثما ، اغمض ..

قيل لى : اعمل الصعبة الجميلة ، واطهر الود ..

قيل لى : الطريق وعر ، والمفازة موحشة ..

قيل لى : ما تجزع منه اليوم ، قد تأنس به غدا ..

قلت : إني معه بقلبي ، ولكن للمحاسبة أوان ..

قلت : كيف أصبر على ما أمر أصلى وأرسي كدوراته .. ؟

قلت : من يعيد مسلوبات أصلى ، من صور وكرامات وأيام سخاطة ؟

قلت : من وأد الأحلام الكبرى ؟

قيل لى : لا تكن جهولا ، تعلم أن الظرف غلب ، وأن الأمر نقد ، وأنه
واجه ما لا طاقة له به ..

قلت : لو أن البنية سليمة .

قيل لى : لو أن .. تفتح عمل المساوى فانتبه .

قيل لى : إن زمتك محيط بك ، ومن أحاط بك فقد أطبق عليك .

قيل لى : ليس لك منفذ مع وجود الاحاطة ..

قيل لى : لا تنس أن الإنسان حيثما كان ما يزال صاحب فوت ، لأ

الأمر لا يتناهى وما تذكره عن خلقك الأول في الفاتح المستأنف ، والفاتح
في الماضي ، فإنه لا يرجع ، إذا لو رجع لتكرر .. وما في الوجود تكرر
أصلا ، وأنت لا يستعاد لك ما انقضى ، إنما تسرى سريان الماء في الماء ،
واللون في المتلون ، فاطلع على ما أنت كائن ..

قيل لى : اعلم أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء .
قيل لى : أنت وأصلك شيء واحد ، والشيء لا يضاف إلى نفسه ، لأن
الإضافة لا تكون إلا بين مضاف ومضاف إليه ، فمالك نضيق ؟ ، مالك
تتملح ؟ .

قيل لى : إن العالم مربوط ببعضه البعض ، فلم تنبت سنبلة إلا عن زارع
وأرض ومطر . عند هذا الحد ، أشهرت المجادلة ، أبطلت الانصياح ، أبطلت
المطوعة ، فنشأ خطر ، إذ تهدد مضى واستمرارى ، والكف سكون ،
والسكون موت ، وهنا أطل على في سماء رحلى ، نجم هذا الوجود وسر
أنسه ، بهى الطلعة ، سيد شباب الأولى والآخرة ، من اغتيل بعد ظمأ ،
صاحب الولاية على بحق وجودى القديم ، وبؤرة وجودى المحدث ، أطل
فأملت خيرا ، وحلق عندى ففهمت أمورا جملة ليست مباحة ولا ينبغي
تدوينها ، مصانة في المحظورات ، المحجوبات ، يكف فلا أكف ، يبطل
اللقاء فلا أنه التلقى ، يرد على سؤاله بدون نطق :

« إلى متى التوقف والرحيل مستمر .. » .

أقول :

« يا نور الأحبة ، يا من ظننت أن عهدى انقطع به ، يا حسنى ، من
رحل تمشى به السفينة وهو قاعد .. » .
يبتسم ، يترقق ما بخاطرى وهو جليل ، يقول لى :

جهاتك أصلك ، فارحل ... »
أشير إلى مطلع الشمس ، أقول :
« لم أتم بعد ... » .
يز رأسه يمينا وشمالا ، أقول :
« سمعا وطاعة ... »

أمضى مستعينا بالله من الضلال ، أسأله الحياطة ، واطابة أختبارى !

الجهة الشمالية

.. جثتها وأنا حي ، خجل ، مع أن ظهور الحبيب نداني ، غير أنني استكثرته
عليّ ، والمعروف أنه لا عذاب على النفوس أعظم من الحياء حتى يود صاحبه
ان لم يكن شيئا ، كما قالت الكاملة ، المكلمة « يا ليتني مت قبل هنا ، وكنت
نسيا منسيا » .

قال من يديه أمرى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وإنتى لأحمدته
وأصبح بفضلته إذ جعلني من أدنى القليلين الذين يعلمون .. هذا في قديمي ،
وأبدى العذر إذ أقول : إنتى حتى لحظة استقبالى هذه الجهة لم أتوحد ، لم
أصبح أنا هو . فجمال الذى جثت بيديلا له عنده خلجات أجهلها وأحاسيس
لم تراودنى أبدا ، وتجهم في غير محله أنا في غنى عنه ، ورضا زائد عن الحد
أستنكره ، وخطايا لا ذنب لى في تحمل تبعاتها ، واختيارات لم أشرع في
التوجه إليها ، ومعارك لا أرغب في خوضها .

صحيح أن ميلا هفا عليّ إلى الأم مبعثه انسانية حضورها ، وشفافية
وجودها ، وغربتها في هذا الكون ، وتحملها المقادير بجلد ، كذا حنين الأب

جهاده القديم والحديث ، لكننى لست ابنيها ، ما أنا إلا قائم بأمره ، أنا لست
مور ، لست على نفسى بمسيطر . أما الصحبة والرفقة فليست خياراى ، من
شرط الصحبة الموافقة ، وأنا لست على وفاق ، قيل لى ، الرضا بالحال عين
الموت ، وانى يا سادة ، يا أياما لم أعشها وينبغى لى أن أشهدا ، يا لىالى قدر
لى أن أستظل بنجومها ، يا أفلاكا قدر لى أن أدور وتدور بى ، يا أفقا أضنانى
الوقوف عند حده أو على مرأى منه ، إنى غير قانع ، غير مقتنع ، أقول هذا وحبك
يا حسينى أدثره ولو عندى خصاصة ..

أتطلع إلى الجهة الشمالية حيث تلوح طرق شتى ، من جهات أدنى إلى جهات
أعلى ، من مكانة زلنى إلى مستوى أزهى ، إلى حيث ما لا يقال ، لم أرفى البداية
شيئا ، لم تلح لى شذرة ، ثم أدركت الأمر ، فثمة ما تبقى لى رؤيته من الجهة
الشرقية ، لكننى لن أراه كما ينبغى لى رؤيته ، فالأعلى سأراها أسافل ، والأول
آخرا ، هذا فناء نخرب ، قام فوقه قديما بيت جميل وسط حديقة فيها بئر عذبة لذة
للشاريين ، نوافذه من دقيق الخشب المشغول المبطن بزجاج ملون ، أقام به شيخ
جليل من مشايخ الأزهر ، تبرك به أهالى قصر الشوق وتيمنوا ، تحدث الأب
عنه ، عن بلدته فى أقصى الصعيد ، عن وقفاته وبما روى عنه أنه قدم للمحاكمة
إثر انكسار هوجة عراقى ونخمود حركته ونفيه غريبا عن موطنه ، قدم الشيخ إلى
المحاكمة ، وعندما دخل على قضائه بسط هيئته حتى على أسريه الانجليز ، ولما
سأله القاضى البريطانى :

« هل وقعت عريضة تطالب فيها بعزل الخديو؟ » .

تطلع إليه القوم ، ما الذى يمكن أن يجيب به شيخ هرم عجوز ، خاصة
بعد تساقط من هم أشد منه بعد انكسار عراقى تلك الكسرة المهولة . نزل
صمت مهيب ، قال الشيخ :

« لا .. لم أوقع ... » .

إجابة منتظرة من المتعلمين ، المحمّلين ، غير أنه لم يكن قد أتم كلامه .
قال مواصلا ما بدأه :
« لكنني لو أحضرتكم الآن عريضة تطالب بحلّعه ما ترددت . سأوقعها
فورا ... » .

نزل على القاعة بهت . كان الأب يردد عبارة الشيخ الأخيرة بطرق شتى
حتى أنه كان يعتدل لينطقها إذا كان متمددا ، أو يقف منتصبا ، ليقولها إذا
كان قاعدا . أحيانا وأثناء مشيه يتوقف فجأة ، يمد يده ، يلفظ العبارة بصوت
منغم مرتفع ، هذا من طبعه ، أصغى إليه جمال مرارا ، يصف خروج الشيخ
منقيا إلى الصعيد ، وداع أبناء الناحية له ، لم يدخل بيته مرة ثانية ، بقي في إقليم
المنيا حتى وافته منيته ، خرب البيت ، نبت الهيش والأذى في حدائقه ،
مالت جدرانها ، هبط سقفه ، وفي زمن أصلي لم يكن قد تبقى منه إلا بقايا
أعمدة رخامية مصفوفة ، وشجرة عتيقة قرب فوهة البئر التي ردمت ، غير أنه
بعدها يقرب من مائة عام على وقفته تلك ، حصل تدبير وتم نقل جثمانه .
أعيد دفنه عند الناحية الشرقية من ضريح مولانا الحسين ، صار بي الأكرمين
لا يذكرون اسمه إلا مقرونا بسيدى ، أدرك الأب ذلك ، وتزود منه ، طاف
بالمثوى ، ناجى سيدى حسن العدوى برقيق اللفظ ، لظالما أطل على بقايا
البيت من فوق السطح ، يقول لمن أنجب : هنا عاش عظيم : ثم يردد
العبارة ، وكأن الشيخ ينطقها في ساحة المحكمة . إنني أرى الساحة المسورة
مقلوبة ، الباب إلى الغرب مع أن موضعه في الشرق .

هذا عم رضوان السباك ، يتردد هنا بين حين وحين ، يفتح حجرة بنيت
من فلق النخيل ، يقضى وقتا ثم ينصرف ، أراه منقلبا رأسه تلامس الأرض ،

لدماء تخطوان في فراغ ، بقدر الخطو يكون السعي لسبب ما سماه الأب « عم
أونه » يلفظ الاسم ثم يضحك ، اعتاد تسمية البعض بأسماء من عنده ،
نطقها غريب ومدلوها عجيب .

أرى « أونه » بوضوح أتم ، كأنه يتطلع عبر فراغ نقي شفاف ، يقول الأب
مشيرا إليه ، هو الذي سيصنع لكما الدراجتين ، كثيرا ما تحدث عن عجلتين
ينوى شراءهما واحدة للجمال ، وأخرى لاسماعيل ، يسأل أصلى عن عجلته ،
كيف هي ؟ ، يقول الأب « كبيرة » يعاود الاستفسار « أكبر من عجلة
اسماعيل .. » ، يومئ الأب ولا يصرح . يسأل ، مالونها ؟ ، يقول الأب ،
حمراء يغضب أصلى ، « وعجلة اسماعيل أيضا حمراء ؟ » ، يقول الأب
« عجلة اسماعيل زرقاء » ، عندئذ يبكي اسماعيل ، « أريد عجلة حمراء » ،
يصر أصلى اصرارا غثيتا لا يرضيني « كلا .. زرقاء » ، ثم أراه طفلا بعد
فأتغاضى وأتجاوز . يصبح الأب عبر السور ، « يا أونه خلص لنا العجلتين »
يرفع الرجل وجهه ، لا يبدو غاضبا ، بل باسماء ، « العجل ؟ حاضر . » .

أرى في الخرابة التي كانت يوما حديقة وممتزها لأهل البيت ثلاثة رجال
يحيئون بفرس حمراء اللون ، وثلاثة آخرين يأتون بحصان أسود فاره الرقبة ،
أرى هذا كله مقلوبا ، يقف عم أونه مشرفا وناصحا ، ثمة اشارات وأصوات
من الرجال الثلاثة ، الحصان الأسود يلتحم بمؤخرة الفرس يشب بقائمه
الأمامين راسما خطوطا غير مرئية في الفضاء ، يهتر جسده ، يتلفت ، يعاود
الوثبة ، ترتجف قوائمه ، ينفض رأسه يمينا وشمالا ، يتطاير عرف رقبته ، يبدو
مزهوا ، مختالا ، مجيدا ، يقترب من الفرس يسمح بطنها برأسه ، ثم يرفع
رأسه في سهيل قوى ، فرح .

يغيب هذا كله ، غير أن هذا الفناء يدع عندي أثرا ، وروائح وأمورا

سنتي ، أرى وجها بلا ملامح ، أرى عينين سوداوين ، أرى فمًا تبرز منه أسنان ذهبية فيثير ذلك خوفا غامضا عندي ، من هذا الثثار المتباعد يبرز صوت مذياع متحمس ، إنه مذياع الست وجيدة الوحيد في البيت قبل شراء الست روحية لجهاز آخر فيما بعد ، المذياع يعلن بحماس عن خطاب ، يردد اسما .. سوكارنو ، أصغى إلى لغة لا أفهمها ، تصفيق ، غير أنه منبثق من لحظات أخرى ، هذا زمن يمكنني تحديد عمر أصلى عنده ، التاسعة من عمره ، أما الوقت فغروبي ، يتدفق صوت ابن عبد الناصر غاضبا ، تتضح ملامح هرج بعد طلقات الرصاص ، يختلط صياح خلق ..

«كلكم جمال عبد الناصر..» .

«ليثبت كل منكم في مكانه ..»

«كلكم جمال عبد الناصر ..» .

يفارق أصلى السور .

«الحق يا أمي .. الحق .. ضربوا جمال عبد الناصر ..» .

يسأل اسماعيل :

«كيف .. كيف؟» .

«ضربوه بالرصاص ..» .

تقول الأم متأسية :

«عيني عليك يا هند .. سيأخذون زوجها الآن ..» .

تعني بذلك أحمد الهجرسي ساكن الطابق الثالث ، سبق سجنه عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ، قضى شهورا وأفرجوا عنه لكنهم يسعون إليه ، يسجنونه ، كلما وقع اضطراب ، أو اختلت الأمور .

حدث أيها الإخوان عند اجتياز أصلى مدخل المعتقل عام ألف وتسعمائة

وستة وستين ، أن نظر إلى المرر المؤدى إلى الفناء ، رأى عم الهجرسى ، فى ثياب تشبه قماش أجولة الطحين ، أو ما الرجل مشجعا - محببا ، فكر أصلى « إذا خرج قبلى يمكنه إخبار أمى وأبى بمكانى وبحالى » ، ثم فكر ، « وإذا خرجت قبله فسأخبر امرأته وأولاده .. » ، غاب الهجرسى لحظات ، رجع ويده نصف قطعة جبن مطبوخ قدر الأصبع الصغيرة مغطاة بورق معدنى ، رماها ناحيته ، تلقفها أصلى متعجبا ، « ما هذا ؟ » ، أكلف نفسه مشقة من أجل قطعة صغيرة كهذه ؟ . بعد أيام قليلة أدرك أن قطعة كهذه تعد من نفائس الطعام هنا « ما أغرب ذلك ! .

عند هذا الحد بدأت أطوى الجهة الشرقية طيا ، يمر أمامى ما يصعب تفسيره من ملغزات ، وما يمكن الإشارة إلى قبس من كنهه ، فمن ذلك وقفة بجوار الأب فى شارع عريض ، عربات عسكرية تمضى متتابعة ، ضباط يرفعون أيديهم بالتحية ، لمن ؟ لا أدرى ، ها هو ذا الأب يمضى وحيدا ، مسرعا ، بمشيته ميل ، عند حدود خلاء فسيح لا يصحبه أحد ، لا يؤنسه أحد ، تبدو ملاحة متعبة كأن مشيه بدأ منذ دهر ، أرق وأشفق ، هذه قمة مثذنة أى مثذنة ؟ ، الأزهر ؟ المؤيد ؟ القلعة ؟ أم الرفاعى ؟ .

أرى حشدا من الخلق ، وجودهم متميع ، كأنهم قدورا من سائل مجهول الهوية ، عربات يركبها جنود مسلحون ثم عربة لونها أحمر ، لا يركب مثلها إلا الملك ، إنه فاروق ، الملك الذى يتساءل الأطفال عنه فى الحارة . أيقضى حاجته كبقية الناس ؟ أى طعام يتناوله ؟ ما مدى قوته ؟ وإذا صار ابن جوريون قائد إسرائيل فمن الغالب ؟ فاروق طبعاً ، يقول طفل إنه ضخم ، قوى ، يمكنه أن يسحق الآخر فى ثوان ، يتساءل آخر ، لماذا هزمنا فى الحرب ؟ ، يتساءل طفل ، ومن قال أنا هزمنا ؟ . يقول عجوز يجلس على

مقره عن الحاج عبده مدير الكلوب ، إن فاروق يشرب صباح كل يوم كوما
من خلاصة مخاصى القروء ، وما من امرأة تطيقه ، تغيب الأصوات ، تهليل
جامعى ، لحظات نشوة فى ذكر دينى ، جمع من الناس ، لغاتهم غامضة
أرى طريقا ممتدا مدثرا بالظلال فى نهايته مسجد عتيق ، يظهر رجال
يتمددون بجوار بعضهم البعض فوق الأرض ، يمسك كل منهم سيفا مشهرا ،
حد السيف يلامس الصدور ، عيونهم محمقة ، فيها انتظار واستسلام ، يظهر
جواد أبيض ، يمتطيه شيخ مغربى ، عباءته بيضاء ، متوشح بجزام أخضر ،
يقترّب على مهل شديد ، يدوس أول المستلقين ، لا يمضى مسرعا ، إنما بطيئا
يتلفت حوله ، رأس الحصان يتبعه أينما نظر ، عندما يتوسط الطابور يبدأ رقصه
غريبة ، يتواكب الحصان فوق السيوف المسلولة ، يتابع يشبه خروج البخار
المتابع من قاطرة تتأهب للانطلاق ، الصوت يخرج من صدور الرجال .
يتبدل الوقت ، هذا جمع من الناس يلوحون ، يرفعون أحدهم فوق
الأكتاف ، يده ممتدة ، يقول شيئا يردده الخلق ، الأب يتعد بولديه ، بنأى
بها ، يقول « هذه مظاهره » ، أرى حداة تحوم ، تقترّب ، يظهر عدد منها
على ارتفاع قصى ، نقط سوداء تسيح متمهلة ، للسماء لمعة وحدة ، هذه
ظهيرة نائية . بعيدة جدا ، تنتمى إلى ماضٍ سحيق ، تحدى الأم وعصابة
رأسها تغطى جبهتها حتى حافة الحاجبين :

« نجوم فوق شيء ميت » .

ثم تقول :

« لو أنها ترى كتاكيت طليقة »

يسأل جمال :

« هل ترى من هذا العلو؟ » .

تقول :

«إنها ترى سعى الخمل .» .

أحيانا تستقر الحدأة فوق هوائى المدياع ، يطيل التحديق إلى عينيها
الصفراوين ، المتقار المديب ، تقول الأم :
«إنها مؤذية» .

يولى ذلك . تولى الظهيرة ، انتظارات الأم ، سكوناتها ، اطرافاتها ، تنأى
إلى الأبد أى فرصة أو إمكانية للاطلاع على قبس مما دار فى ذهنها أو عبر
مخيلتها . وحرك تداعياتها ، يستحيل هذا كله إلى عدم محض ، أتم ، فسبحان
من يجيى العظام وهى رميم .

يولى الصمت وضجيج المدينة المدغم وبقايا الأصوات النائية ، من ذلك
صفارة الظهيرة المخطوطة ، الطويلة المنطلقة لحظة انعدام الظل ، يحل
اللاشئ فى اللاشئ ، تتحول حجارة المآذن والمباني السامقة إلى ابخرة
نعاسية شفيفة الآن أدرك أن عهدى بالجهة الشرقية قد انقضى ، وأنتى شأن
من يركب قطارا بدأ يتحرك متمهلا ، تتراجع مباني المحطة من أرصفة
وحجرات انتظار ومقاعد ومودعين ومقبلين ومتسكعين ، تتزايد السرعة
فتتقارب الخطوط وتدوب الفواصل ، تنطمس المعالم ، إذا دقق الراكب
أرهق البصر وكلّ النظر فيودع المرء أرضا قد لا يبلغها مرة أخرى ، وقوما ربما
لن يراهم ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض
تموت ؟

أرأنى كل يوم فى نتقاص

ولا يبقى مع النقصان شئ

بدأ ولوجى إلى هذه الجهة وأنا أرى أصلى طفلا يعي ، كنت محملا .

مثقلا بما أشهدته، مع أنى لم الملح إلا شظايا مارقة، ونثار عمر ظن أصلى يوما أنه مكتمل دائما، لن يبدأ أبدا، لم يتصور أنه سيسعى جاهدا يوما ليتلمس بعضا من سر لحظة، أو استجلاء غوامض موقف عاشه بملء الحس ونفاذ البصيرة، ثم على مهل عجيب لا يرصد ولا يلحظ، نال منه القادر على كل شيء فطمسه، كأنه تلك العملة المصبوبة من فضة أو نحاس أو حديد، ومع انتقالها وتداولها وطول حفظها تبهت وتملس ويغم المعدن، تتغير ملامحه بدون صهر، إنما بتأثير ملامسة خفيفة تعقبها أخرى، لا يمكن تحديد اللحظة التي وقع فيها التغير أو التحول، هل يمكن لمخلوق تحديد اللحظة التي تم فيها مشيب شعرة من رأسه أو لحيته؟.

أصلى أدرك جوهر الحقي الذي لا يرى، من يدلنا دون أن ندرى، يغير قسماتنا بغير أعلامنا، أدرك أصلى أنه محيط بنا، متغلغل فينا كطمع الثمرة في الثمرة، كاللون في المتلون، كالاسم في المسمى به، فإذا توجه النظر فإليه، وأن تم السمع فنه، وإن اكتمل العقل فعنه، وإن سعى الفكر ففيه وإن هاج الشوق فإليه، «إن ما توعدون لواقع».

هب على نسيم بلبل روحى، لا عجب، أليست الجهة شمالية؟ مصدر اللطائف والنسائم الرقيقة، قصدت التوجه إلى هذه الجهة فعبرت عرض السطح، لا شيء يتخلل السور الشمالى، لا غرفة أخرى، ولا دورة مياه. ولا منور، مصمت، غير منقوص، أتم، فوقه كان جبال يدفع العربة الصغيرة التي اعتاد الأب شراءها أيام الأعياد يمشى رافعا يده ممسكا بها، يديرها، يجاذر ألا تقع، وراء السور فراغ يؤدي إلى الحارة مباشرة مع اقتراب العيدين الأكبر والأصغر يصحب الوالد الكرم ولديه إلى الموسكى، يقفا حائرين، زائعي البصر، نغمرهما روائح شتى، البالونات،

الطلاء الحديث ، صناديق الورق المقوى ، قش توضع فيه الأوعية القابا، للكسر، ألوان اللعب مبهجة براقه، أثناء العودة لا يطبق أصلى صبرا، يحاول فتح العلبة، يقول الأب ناصحا «انتظر» ، عربية زرقاء يجلس داخلها سائق صامت أبدا ، يوقن إنه يتحرك ، يفارق السيارة أثناء الليل ، قبل اغفائه ينصت ، ربما يستمع إلى خطاه ، عربية ترام ، من كل نافذة يبرز وجه راكب ، غير أن لون العربية أحمر أما ترام الأزهر فأصفر ، وقد حيره هذا زمنا ، وشغل من ذهنه وقتا ليس هينا ، اسماعيل يختار لعبة مختلفة ، جمال يتقرب منه ، يتودد إليه يطلب منه مشاركته اللعب ، يقترح المبادلة ، العربية مقابل الدبابة ، يستدير مرة أخرى ، يقترح ضم هذه إلى تلك ، يقدمها اسماعيل طائعا ، إنه يلبي ما يطلبه يقلد ما يفعله ، يتشبه به ، حتى إذا تم الأمر وحاز اللعبتين انفرد بهما ، لا يعباً ببيكاء أخيه .

هنا أمعت النظر في أصل هذا، إنه طفل مازال، ولكن تبدر منه قسوة تجاه شقيقه ، لا أذكر أنني كنت على شيء من هذه القسوة في خلقى الأول ، بل إنني دفعت الكدورات عن أشقائى، أما جمال هذا فلنكم يبدو مأوى ومجمعا للمتناقضات ، وملتقى للمتباينات ، يتحايل حتى يستأثر بحاجات أخيه ، وإذا بكى اسماعيل لا يعباً ، غير أنه عند نزوله الحارة للعب يتذكر شقيقه ، فيود لو عاد إليه مسرعا ، يدركه ندم ، يقول لنفسه ، ليتنى لم أضايقه ، أنه صغير ، يرتجف خوفا من احتمال اصطدام اسماعيل بشيء صلب أثناء جريه ، أو تدرجه فوق درجات السلم ، يعد النفس ألا يضايقه ، أن يترك لعبه ، ألا يحاول الاستئثار بها مرة أخرى ، حتى إذا عاد إلى السطح ، ودخل الغرفة ، ورأى اسماعيل ، عاد سيرته الأولى .

منذ البكورة وأصلى دائما في الفوت، عنده القسوة، وعنده المنه، وأشد

ما يظهر منه بهذا الخصوص ما يبين عند المضاجعة ، لكم يبدو رقيقا ، عيس الشفتين مسا ، ويلامس النظر بالنظر ، ويمر بأطراف الشعر ، وعند لحظة بعينها قد ينشب أظافره في كفي المحبوبة فتملت منها آهة ، أو يتشبث بالشعر فيشده ، أدركت لور ذلك في خلقه البديل ، قالت له ، «أنت توجعني» ، ثم قالت في لحظة الاسترخاء ، « بقدر ما فيك من رقة ، بقدر ما عندك من عنف ..» ، يحيرني أنا من حلات محله ، أى يحير ذاته بذاته ، فما أتعسه ما أبأسه .

كدت أعلن الضيق وأجهر بالأسى على ما آل إليه حالى ، غيرأتى ذكرت مولانا الأقدس ، وتجليه لى بعد غياب ، فخجلت وكتمت ، وحدثت البصر إلى هذه الجهة ، وقد اختصت بعارثتها بالنساء ، لذلك هى الأرق ، الألف ، الألف .

اعلموا أن هذا السطح هو الأعلى ، ليس في حارة الطبلاوى ، إنما في ناحية قصر الشوق أمامي بيتان متلاصقان ، متشابهان ، سبقت الإشارة إليهما ، الأول يعرف بيت «خضر» ساكن الطابق الأول ، عنده دكان لتصليح موافد الغاز وفيه مآرب أخرى ، المجاور له يعرف بيت القيومي ، نسبة إلى عائلة قيل إن أصلهم من ناحية القيوم ، نوافدهم لم تر مفتوحة إلا نادرا ، وعلى أوقات متباعدة ، ثم عرف فيما بعد بيت الكودية ، بعد أن نزلت به عائلة سودانية تخصص أفرادها في إقامة واحياء حفلات الزار ، قيل إن بابي المترلين شخص واحد . ثم بيع أحدهما إلى تاجر ، والثاني إلى آخر . قيل امعان النظر لابد من ذكر القوائم الخشبية المثبتة إلى السور ، فن ذلك القائمان التحيلان الخالصان بهوائى مذياع أحمد عمرو ، وقائمان آخران أغلظ وأخشن . الأول في الزاوية اليمنى ، والثاني في اليسرى ، قرب منتصف كل منهما عارضة خشبية تثبتها ، إليها يشد حبل الغسيل ، فوق العارضتين يشب

أصلى ، ينظر إلى ما وراء السور ، إلى الأسطح المجاورة ، يتطلع إلى أفق الدنيا ، إلى الخيالات النائية ، إلى الصور الباهتة ، يرمق «صفاء» . تطلع إلى سطح بيت خضر عصرا ، دائما بمفردها ، تسقى الدجاج والبط والأوز في عشة الصفيح ، أو تلم الغسيل الذى جف ، تبدو مرتدية جلبابها ، بلا أكمام فهى عارية الذراعين ، أحيانا تظل من السور المواجه ، تميل ، ينحسر ثوبها حتى يتعرى باطن الفخذين ، هذا ما ثبت منها فى وضع أصلى ، تلك الانحناءة ، امتداد ذراعها إلى الحبل ، هذا أمر لا يخلص أصلى وحده ، إذ نرى شخصا مدة من الزمن ، فإذا تقدم الرحيل بنا ، ذلك رجوع بعيد ، إذا استعاده وعينا الحفيظ ، لا تذكره إلا فى وضع معين ، أو عبارة واحدة تنبئ من كل ما لفظه ، لا ينطبق هذا على الأعراب وحدهم ، بل يشمل ذلك الأقرين ، تبصره لما تبقى من الذكرى .

انظروا الى مثلا ، إذ عرفت ما لم يدركه غيرى ، خلق أول منقضى تماما ، وخلق ثان مفروض على ، مكلف به ، وإذ أستعيد واحدا ممن عرفت ، أو قريبا ممن أحببت ، فلا أراه إلا فى وضع بعينه ، لا أعى من لفظه إلا جملة . إنى لمخبركم الآن بواقعة أرجأت تدوينها حتى الآن ، إذ حدث بعد نزولى مباشرة مدينة فاسن المباركة ، وبعد مضى وقت يسير على ، مع أول خطورى فى الطريق ، أن تمنيت من سادة الديوان زيارة البيت لأتبرك ولأتمكن ولأستوتق ، فاستجابوا لى ، على أن يلزمنى دليلى ومرشدى ، الفارق بيننا أنه مستتر ، أما أنا فباد إذ أن ظهوره بين القوم وفى هذا الحين بالذات سيثير فتنة ولجاجا ، كفاهم ما هم فيه .

أثناء طوافى بالكعبة رأيت رجلا يتخذ وضعا معينا ، إذ كان يقف منحنيا إلى الأمام قليلا ، وفى عينيه تساؤل قديم ، لمت نظرى وضعه ، فلما دقت

النظر وتحققت تبين لي أنه جد من جدودي الأقدمين ، سمى لي نفسه ، سأله عن زمان مدته ، فقال لي ، منذ سبعين ألف سنة ، سأله عن آدم أبو البشر ، فقال لي ، عن أى آدم الأقرب أو آدم الأبعد ؟ ، فقلت : اباك أعنى ، قال لي ، لا أعلم للعالم حدا نقف عنده لأنه ما يزال خالقا ، وما يزال دنيا وآخرة والأجال في المخلوق بانتهاء المدد لا في الخلق ، فالخلق يتجدد مع الأنفاس ، فاستفسرت لماذا يتخذ هذا الوضع ، لم هذه الوقفة ؟ ، يقول لي : لأن هذه الوقفة يذكرني بها جل أحفادي ، ولو أنك ممن رأوني حيا أسعى لما ذكرتني إلا بها ، لذا أتخذها دوما كلما تجليت لأحدكم ، ثم قال : إني مفارقتك إلى لقيا لن تتم ، عندئذ أختني من محيط نظري ، غاب عن ادراك بصري ، وبقيت في الطواف ، لكنني .. لماذا أثقل ، وأذكر لكم الملهزات ؟ إني لمسائل ..
وهنا رأيت دليلى .

« أنت تغرب .. » .

أستفسر :

« أليس ذلك عين الطريق ؟ » .

يامرنى :

« الزم الخطوة .. »

أجادله :

« إني مدون ما يتراءى لي » .

يقول :

« أرجى ذلك .. » .

استفسر :

« إلى متى ؟ » .

يقول :

«إلى أن يشاء صاحب الأمر كله ..» .

أمثل ، أزم الجهة الشمالية ، أضمر مانويت ، لم أحد ، التحذير قاس ، وأنا أجهل العاقبة ، أعاود النظر ، ها هي ذى صفاء ، تمشى ، تتوقف ، تضرب الأرض بمقلمة حذائها ، تطوف عند أصلى عواطف مهمة ورؤى ، يرغب البقاء متابعا ومحققا ، لو تأخر ظهورها يشد البصر عند مدخل السطح ، تدركه وحشة ، يثقله فقد ، تجيء ، تطل تجاه الناحية الغربية ، تشير بيدها ، فى البدء تلويحاتها خجلى ، حية ، تحاذر أن يراها أحد ، ترقبني ، تعرف اننى متطلع ، شاخص ، غير أنها تبتسم ، أو تحيد البصر عنى ، ثم ترجعه تجاهى فجأة ، أخجل ، ثم أتابع النظر ، اشاراتها أكثر جرأة ، إلى موضع الساعة حول المعصم ، أصابعها ترسم أرقاما ومعانى ، ترفع باقة أناملها إلى فها ، تقبلها ، تشيع قلبتها عبر الفراغ ، لمن ؟ لا يرى أصلى أحدا فى مدى رؤيته ، البيوت فى هذه الجهة منخفضة ، تبدو الحجرات المنعزلة فوق الأسطح ، إحداها قريبة ، نافذتها دائرية ، حيره ذلك ، لماذا النافذة دائرية ؟ تمشى صفاء مطرقة .

لا يدري أصلى متى ظهر محمد أبو رأسين ، شاب طويل ، عريض الصدر ، متفخه ، لذلك يبدو مائلا إلى الخلف فى وقوفه أو مشيه ، أخته زكية طويلة جدا ، الغريب أن أمها قصيرة ، نحيلة ، أما والدهما فلم يره أحد ولم يعرفه أحد ، يبدو أنه يعيش فى مكان ناء ، إن محمدا ضخم الرأس ، ناتئ الجبهة ، عريضها ، عيناه واسعتان ، يقال فى الحارة إنه تراهن على جر عربة بأسنانه ، وقد فعل ، قيل إنه مدرس ، وأنه يرفع الأثقال بنادى الجبالية الجديد ، متى ظهر محمد هذا فوق السطح المجاور لصفاء ، والذى يمكن

اعتباره امتدادا لسطحها عدا سور نجيل عرضه طوية واحدة يفصلها .
 في البداية كان يقف عند أقصى السور بقامته الفارحة ، موليا وجهه شطر
 الجهة الشرقية ، موليا صفاء ظهره ، بينما تلملم غسيلها متمهلة ، أو تعلق
 الملابس إلى الحبال ، إيماءة تقابلها إيماءة يوما بعد يوم يقتربان ، يعقد يديه أمام
 صدره ، تضربه بقبضتها ، لا يرد ، إنما ينتسم ، مرة تالية يمسك معصمها ،
 يشدها ، تلتفت حولها ، عبتا تحاول تخليص نفسها ، تشير ناحية البيوت ، إلى
 الفضاء فوقها ، غير أنه يجذبها على مهل ، أصلى يثنى ركبتيه حتى لا يرى ، يدرك
 أن ما يشهد يستوجب احتفاءه ، يتواريان خلف الغسيل ، ينحني ناحيتها ،
 الضوء الرمادى يغمق ، تتحول البيوت إلى ظلال ، تسمع الملامح ، تتداخل
 الفواصل ، يتردد صوت مناديا صفاء . ترد بصوت متخمر ، متخثر ، الأم تنادى
 على أصلى أيضا وكأن النداء جالب للنداء ، تطلب منه أن يعود إلى الغرفة ، الليل
 مكتمل ، تخشى عليه مما يدب فوق السطح ، مرة قتلت عقربا ، ومرة رأت ثعبانا
 طوله أكثر من متر ، البيوت عتيقة ، والشقوق عديدة ، والخطر كامن ، يجب
 أصلى « حاضر » ، غير أنه يحدق ، عله يفسر الملامح ، ما يجري في العتمة .

بعد حين . يسمع أطيظ شبشب صفاء تنزل السلم متمهلة ، مودعة
 الفراغ منها أثرا ، بينما يتردد صفير محمد أبو رأسين ، إنه يتجه إلى السور المظل
 على ساحة عم «أونة» ، لا يكف عن صفير مبهج ، منغم ، يوقن أصلى أن
 صفاء فارقت ، فيتردد عن السور وبصدره أثر حز لانكفائه زمنا .

عصر يوم آخر ، لم أحدهه ، وإن أيقنت أنه خريفى ، ها هي ذى صفاء
 على مرأى من أصلى تعاقب أبو رأسين ، إنها أقصر ، تقف بين ركبتيه ، إنه
 يجلس فوق السور غير عائى ، هي لا تعبأ ، لا تبالي ، لا تلتفت حولها
 خائفة

هذا مغيب يوم آخر ، أصلى يلعب عند نهاية السطح ، غير أنه مصغ
إليها ، الحارة تتكلم عن صفاء ، تقول الأم : « دم يكسر رقبتها .. إنها
فاجرة » ، يقول الأب : « إنه ينام معها لكنه يحفظها بكرا » ، ثم يقول « كثير
من بنات مصر يفعلن هذا » ، تقول الأم : ماذا يتبقى بعد أن تتعري البنت
وتشلع سرواها يقول الأب : « تربية ناقصة » ، ثم يقول : « أهلها يحاولون
لها بأية طريقة » ، أترجع إلى الوراء قليلا ، تلك خلوة كلامية يتحدثان فيها ،
صوتها هادئ ، والتوتر ناء ، والهلم بعيد ، أما اللحظة فدفثرة بظلال العصر
الرمادية ، ورائحة الغسيل المنشور ولم يجف بعد ، أصوات الطريق بعيدة ،
وضجة المدينة نائية ، باهتة .

تلك أيام تالية ، السطح يخلو من صفاء ، لا تظهر أبدا ، امرأة عجوز
تطلع لتسقى اللدجاج وتطعم الأوزة وتقضي الحوايج ، ها هو ذا أصلى في
الحارة ، يرى شابا أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، شعيرات رموشه خفيفة جدا ،
لا يقدر على التحديق في الضوء الطبيعي ، يسمون أمثاله عدو الشمس ، إنه
فتحي الكهريائي ، قال قائل من الجيران : « أراد أبوها أن يستر عليها ، زوجها
إلى فتحي ، هذا » ، صفاء تعبر الحارة ، إنها منتفخة البطن ، تمشي مطرقة ،
نحل جسمها ، تهدل صدرها ، مال بعد نهوض ، كف ثدياها عن النفور
الأشد ، إنها فوق السطح ، تقعد في الشمس ، على حجرها رضيع ، تخرج
ثديها الأيمن ، رخوا ، مستطيلا كشمامة ، إنها وحيدة ، تحملق في الفراغ ،
تحط التراب بأصبعها ، قد تتطلع أحيانا إلى السطح الآخر ، لكنه تطلع
عابر ، غير متأن ، ماذا يعبر خاطرها والسطح خال ؟ .

هذا أصلى يمشي وراء محمد أبو رأسين في حارة الوطاويط ، إنه بصحبة
زميل له لا يسمع من حوارهما إلا عبارة واحدة .. « مجهد أكثر .. » ، لم يدر

أى شيء مجهد ، ماذا يقصد ، غير أن ما يمثل في وعيه أن هذا الضخم عائق صفاء ، وشدها إليه وأقعدها فوق حجره ، أحاط بنهارها ، وعجل بدنو عصرها ، إن صفاء تدخل الحرارة الآن تحمل على يكفها طفلا لا يمكنه المشى ، تمسك بيدها آخر يمشى ، تلتقى عيناها بنظر أصلى ، تجهله ، ربما لا تذكر أنها لوحث له .. لم تخرج لسانها يوما له معاتبة ، يمشى أمامها فتحي عدو الشمس ، امرأة البنان تقول عنها : «سبحان من هدها كانت فائزة» .

يدرك جوهر المعنى ؛ يستعيد حركتها فوق السطح ، مشيا ، استدراتها المفاجئة مفرودة الذراعين ، انحناءها فوق السور ، هذا كله راح أوانه ، لكنه أودع عنده أثرا ، فلم ير صببية ترتدى فستانا ينتمى إلى اللون الأصفر ودرجاته إلا طفت صفاء إلى وعيه ، ولم ير شعرا ذهبيا هفهافا إلا استعاد خصلاتها أو استرخاء ضفيرتها الغليظة ، ولا يسمع نداء أنثويا متأججا متلهفا إلا أصغى إلى بقايا صوت صفاء النائي إذ ترد على أمها التي تتعجل نزولها ، ولم ير راقصة منتشية مزهوة إلا استعاد دورانها فوق السطح وامتداد ذراعها كأن كل عضو منها يبغى المضي إلى الطريق ، أما طيورها التي أطعمتها الحب فقد ذهبت ، خلعت عشة السطح منها ، مالت جدرانها وانكشف داخلها ، وعاء مستدير معدنى بقي .

أودع هذا كله عنده حزنا فريدا ، صار جزءا من أحزانه الكامنة التي لازمته أو صاحبه ، حزن شجي كالهواء الذى يعقب المطر ، كعلامات دالة على أنواع قادمة ، وحيث أن النظر أحاط بصفاء ، فإني محدثكم عن الحمراء صحيح أن موقعها بعيد ، غير أنني أعد بالاختصار قدر الطاقة ، ذلك أن الأسرة اعتادت قضاء الصيف في جهينة ، استمر الحال على ذلك ، حتى عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، يصحبهم الأب ، يقضى أياما معدودات

يطوف خلالها بالأقارب والصحب ، يسلم ويطمئن ويستفسر ، ثم يعود إلى مقر عمله ، في نهاية الصيف يهيء إلى جهينة ليصحب الزوجة والأولاد كان جمال قد قطع من الطريق ست أو سبع سنوات ، هنا لن يمكنني تحديد ما لم يقدر على تعيينه هو ، فالحمراء أول من تعلق بها قلبه ، أول أنثى حركت مشاعر كانت في هذا الزمن غامضة ، غضة ، الحمراء فتاة من الحد الشبالي لبيت خاله ، تمت إليه بصلة قرابة ، تهيء للسلام ، تقضى وقتا في البيت تساعد امرأة الخال في قضاء بعض الشئون ، هي ممشوقة ، فارهة العنق ، حريرية الشعر ، للمامحها صدى في النفس وترجيع ، ابتسامتها مضيئة يتمنى المرء دوامها ، أما عيناها فكأنها حفتا بترديد ضوئى غير مرئى ، منها نفوح خميرة الأنثى ، إذ تبدو يتبعها أصلى ، لا يجيد بوجهه عن عيناها تداعبه ، يقول لها : تتزوجينى يا حمراء ؟ ، تضحك أمه وتضحك جدته نجمة وتضحك الدودة التي نلقته على يديها عند مجيئه إلى الدنيا تقول : « كل هذا يطلع منك يا ابن الغيطانى .. » تضحك الجارات ، يضحك الوقت ، تقول نجمة : « الحمراء ستتزوج ولد الحويج » ، عندئذ يجر أصلى ببكاء ، يضرب الأرض بقدميه ، تميل الحمراء عليه ، تغمره رائحتها الخملية ، تقول له ، « لن أتزوج غيرك يا جمال »

إذ تنصرف من البيت ، يتسع المكان ، يشعر بفراغ .. كأن قبضة لامرئية انتزعت قلبه ، ثم قفلت السنون يجر بعضها بعضا حتى شد أصلى رحله إلى جهينة بعد تمام طريق الأب وبدء هجرته العظمى إلى الحق .

في صحن بيت الخال الذى بدا ضيقا قعد فوق الدكة بالمدخل ، جاء جمع للسلام عليه ، ولنطق عبارات العزاء ، كان خاله الذى قارب بصره على الكف يعرفه بهم ، ويذكر الاسم متبوعا بالقرابة ، جاءت امرأة بيضاء ، نحيلة

تنحني شعرها بطرحة سوداء ، لم تنصرف ، إنما قعدت في مواجهة جبال ، تنظر وتبتسم ، ترفع الملامح المثقلة بالفضون وتبتسم ، قالت امرأة الخال : ألا تعرفها ؟... إنها الحمراء ؟ لم يبد عليه رد فعل يشي بأنه استعاد ، ملاحظه بقيت جامدة ، كررت امرأة الخال : «إنها الحمراء»

حدق بعينين جامدتين ، عندما قامت الحمراء صافحته ، فوجئ ببحسونة يدها ، تقدمت جلدها وتشقق ، قالت امرأة الخال : «مسكينة .. بعد أنجابها خمسة طلقها زوجها وتزوج أخرى من طهطا» ، لم يجب أصلي ، تذكرها ليلا ، ما بين اليقظة والنوم ، اتبه مستعيذا هيئتها في القديم الآفل ، وفي المحدث ، تأسى ، وتعجب ، فتقلقل نومه ، تمنى لو يراها مرة أخرى ، لكنها في النهار التالي لم تأت ، وكان عليه أن يفارق ليلحق قطار الثالثة ، فسبحان المبدل ، المغير ، مقلب الأحوال واليسر ، من أدرك أصلي كنهه بعد اجتياره مقام الجوى فحكم عليه بالتذرية في فضاءات الكون ، فمن يرده إلى ميعاد ؟ ذلك رجع بعيد ، صعب ، مستحيل الشروع فيه ، أو الخوض ، لذا أنا محدثكم عن علياء .

هذا صباح ناء ، يقف أصلي فوق أرض عطفة باجنيد ، لهذه الفترة من النهار طابع ولامح ، لاضجة تسمع إلا صياح الأطفال ، إذ يجرون ، يتنادون ، نوافذ معظمها مفتوح ، الأغطية معرضة للهواء ، مبسوطة عند الحافات ، وقت التنظيف وترتيب الحاجات ، قد يسمع سقوط آنية ، أو خبطات تنفض التراب عن وسادة أو حشية ، بعد قليل سيبدأ دخول الباعة ولحيثهم ترتيب ، اقتضته الحاجة فهو غير مقصود في ذاته ، أول القادمين باعة الخضر ، باعة البصل والثوم والحبوب من فول وقمح وذرة ، أما بائع السمك فلا يجيء إلا ظهرا ، باعة البطاطا المشوية وحلاوة رمان والفطائر يهلون

عصرا، ألحظ ما لم يتبته إليه أصلى ، إنه لاه ، سادر فى غيه ، حدود دنياه هذه الحارة ، الاحساس بالبعد ، بالنأى عن موطن الألفة ، يبدأ عند فرن الحجاج ناصيف الذى يقع على مسيرة ثلاثين خطوة من البيت وعنده تنحنى الحارة ، مع انقضاء الأوقات وسعى الدهر تطول المسافة وتمتد وتعظم حتى تتراعى إلى أطراف الكوكب الأرضى ، لهذا تفسير ربما أتيت به ، لكن فيما بعد .

هذا صباح بعيد ، أصلى لا يعبا بتحديد الوقت ، ليومه علامات بهت بعدتد وتلاشت ضمن ما تبدد من مكنونه الدفين ، من ذلك مجىء النهار وغروبه ، وخروج الوالد إلى سعيه كارها ثم عودته ، وفراغ الوالدة من تنظيف البيت وترتيب الفراش ، وبدء قعدتها أمام الغرفة ، كذا وقت النزول إلى الحارة للعب ، ها هو ذا أصلى يقف مرتديا جلبابه وصندله الجلدى ، لم تسمح له الوالدة بالنزول حافيا قط ، تخشى شظية مدسوسة أو ذنب عقرب ، أن ينتظر من يماثله عمرا ليلعب معه ، ها هى ذى علياء تقبل ، نحيلة ، سمراء ، طولها يماثل طوله ، كذا نحافتها ، غير أن بشرتها شاحبة ، إنها واسعة العينين ، ناعمة شعر الرأس .

تقول : « تعال نلعب سنات » ، تمسك يده ، يتبعها صامتا ، لعبها مرات ولكن فى جمع ، يجلس كل صبى وصبية فوق بسطة من السلم ، يرصان علب السجائر الفارغة ، وصندوقا أو اثنين من الصفيح ، تصبح هذه اللعبة سريرا ، والأخرى صوانا ، أما الابنة أو الابن فعروس محشوة بالقش !
يحدث أن تطلب منه رفيقته زيارة الأقارب ، فلا يكلفها الأمر بعدا أو مشقة ، ما عليها إلا الصعود بضع درجات أو النزول ، لم يلعب إلا جماعة ، أما الآن فهو بمفرده ، شعور غامض يبدأ عنده لحظة اجتياز البوابة ، رائحة

تراب مغطى بالظل زما طويلا ، رائحة أخرى لا يدرك كنهها ، ربما بقايا ميبد
حشرى ، أو آثار عطن ، باب الشقة مغلق ، أم علياء تخرج فى هذا الوقت ،
يقال إنها تعمل دلالة ، تبيع بضائع فى حوار بعيدة ، منذ زمن توفى والد
علياء ، ثم تزوج أحد أقاربه أمها ، هذا رجل لا تقع عليه العين إلا نادرا ،
يخرج مبكرا ويعود فى غميق الليل ، لم يره أصلى أبدا .

علياء تفتش الأرض تحت السلم الذى يرتفع درجة ، درجة ، مؤديا إلى
الطابق الثانى حيث يسكن محمد أبو رأسين ، يذكره فيستعيد صفاء وفردا
ذراعيه ومشيا فى الأرض مرحة على أطراف أصابعها واقترابها من محمد
وعناقها والدهشة والوجل والنظرة المحتلسة ، علياء تدنونه ، تمسح شعر رأسه
بيادها فعلا بفعل دون أن يفقه قولها ، يميل إليه ، تسند رأسها إلى صدره ،
تنظر إليه بعيني طفلة صغيرة وتعبير أنثى مستوية. مستعار من بعيد .

حرت فيما أطلع عليه .. هل رأت عيني أمها عند المضاجعة ؟ تقبله ،
تهمس «تعال نعمل زى ماما وزوجها» ، لا تنتظر رد فعله ، إنما تمدد ،
تراب ناعم ، آثار بلاط مخلوع ، طلاء أصفر قديم ، تشلح جلبابها ، تريح
سروالها تباعد ساقها فيواجه فرجا ، صغيرا ، دقيقا ، أملس ، شقه كخط
قصير ، إنه الأول الذى يراه ، لم يسمع أبدا من محبته ، تشده إليها ، «يا لله
يا حبيبي» يخلع عنه سرواله ، تخفضه ، تهزه ، ترفعه ، تخفضه ، ولأنه جاهل
للفعل فإنه يهز جسده يمتة ويسرة كأنه يتأرجح ، وهذا مهم ، ذلك أن رد
فعله جاء تلقائيا ، ثم فكرة مسبقة عنده ، من أين واته فى هذه السن
المبكرة ؟ ، لم أقف على المصادر ولم أعرفها ، إنما المقصود من وقوفى بهذا المحط
أمر واحد لاغير ، اطلاقى على هذا الفرج الأول ، فيما بعد رأى فروجا
عديدة .

عند هذا الحد نهيت عن الاستمرار ، فهمت أن الأمر ليس مشابها لما كان في دهري الأول ، وأن تفصيلي مثل هذه الأمور قد يثير لجاجا ونفورا ، وربما سبب لي نصبا ، فامتعت ممتعضا ، فقد وددت صادقا أن أفضى إليكم بسيرة كل فرج ولجه أصلى أو لاسه كذا وصفه ، غير أنني أعتذر . لذا أكف مكتفيا بذكري هذا الفرج الذي صار إلى عدم عدا طيف ملاحظه التي بقيت عند مخيلة أصلى ، فقد فني منذ زمن ، كيف جرى ذلك ؟ ، هذا ما أذكره في عجالة ، بعد اجتيازها الصبا ، صارت فارغة ، لا تتلفت حولها أثناء مشيها ، يراها ، تلتقي عيناهما ، فكأنها لا تعرفه . يفكر ، تتجاهلني ، ويوما ما اطلعت على ما تخفيه الآن .

عصر يوم سرت ضجة تنذر بشؤم ، خرج إلى الشرفة ، أطلت الأم ، الكل مطل ، منتظر ، يعبر الحارة ضابط . وراءه ثلاثة من جنود الشرطة .
ماذا جرى ؟ .

علياء ماتت .

كيف ؟ .

من قول هنا ، ولفظ هناك ، تجسد المصير وبان المنتهى ، عادت الأم من إحدى خرجاتها ، وجدت ابنتها متمددة فوق السرير الحديدى وسلك الكهراء مقطوع يلامس رأسها ، قال قائل : إنها اغتصبت قبل موتها ، وأكد آخر أن التشريح أثبت أنها امرأة مكتملة وليست عذراء ، وقيل بوجود علاقة بين البنت وزوج أمها ، وأن الأم قتلت ابنتها بهذه الطريقة المتقنة ، رابع قال إن زوج أمها حاول اغتصابها ولما قاومته خشى الفضيحة فكهرها ، تعددت الأقاويل ، وغزرت الريبة حول الأم ؛ لم يرق لها أحد ، ولم يشفع لخزنها أحد . ولم يرث لارتدائها السواد أحد ، لم يمر شهر إلا رحلت .

عند خروج العربة التي يجرها بغل محملة بأثاث البيت رمت أم زهرة وراءها قلة من فمخار تناثرت شظاياها إظهارا لفرحة أهل الحارة بمخلصهم من المرأة التي تسترت على قاتل ابنتها ، أعوذ بالله من الخوض في سيرة الخلق ، غير أن ثمة ما يجب ذكره .. إذ حدث بعد عامين من موت علياء أن روت امرأة دلالة من ناحية بعيدة أثناء زيارتها للحارة ما جرى بعد خروج أم علياء وزوجها ، إذ يبدو أن بعضهم أرسل إلى الشرطة أو إلى جهة ما مطالبا بإعادة الكشف على الميتة ، وقيل إنه أخ لها غير شقيقين يقيم في بلد بعيد ولم يرها أبدا وحدث بالفعل أن أعيد الفحص ، فتبين أن علياء رحلت مقتولة ، قبض على زوج الأم ، واعترف ، ما شغل أهل الحارة ، كيف تتكشف حقيقة كهذه بعد عامين ، وهل يقدر الطب على ذلك ؟ ، إنني أحقد عبر حجب الجهة الشمالية لعلى أرى ما تبقى من أطراف هذه البنية ، لكنني لم أبصر ، فالحجابات كثيرة ، لذا فارقت متجها إلى ذلك اليوم الذي عرف فيه أصلى سناء ! .

تلك حافظة سوداء صغيرة ، قفلها معدني أبيض ، ملقاة أمام عتبة مسجد سيدى مرزوق ، يقف مترددا ، تطل منها أطراف أوراق مالية ، خمسة ، عشرة قروش ، يتلفت حوله ، لا أحد . ينحنى مادا يده إلى صندله البني ، يتظاهر بتعديل رباطه ، تقبض يده الكيس ، يقف ، يدمسه في جيب جلبابه ، يمضى متمهلا ، ابتسم لذلك ، أعجب لحيطته وحذرم ، ابتسم لذلك ، يمشى متمهلا حتى دكان محمد بائع الصحف ، الدكان تحت مسجد الأمير الجليلي ، ثلاثة محال متجاورات .. الأول لبائع فحم ، والثاني لتاجر أدوات المقاهي .. نرجليات ، أكواب زجاجية وفناجين خزفية ، أتعجب لموقعهم تحت المسجد ، لو أني أحطت علما بالفوت الذي تحولت فيه الخانات الثلاثة إلى دكاكين ، لكن هنا ليس ميسورا الآن ، إنى مقيد في رحلي

هنا ، هاهوذا يمضى وجلا ، فى جيبه مبلغ من المال لم يمسك بمثله أبداً ،
حائر.. لا يدرى كيف ينفقه .

منذ لحظات اشترى خمس حبات حلوى على هيئة ثمار الفراولة ، تراها
فتحسبها حقيقية انتزعت لتوها من أصلها الذى هو فرع ، أكل اثنتين خلصة
واحتفظ بثلاث ، يتمنى أن يبقى لشقيقه واحدة ولأمه أخرى ، لكنها
ستسأل : من أين له بالمال ؟ أو .. من قدمها إليه ؟ ، ستغضب لأن المال
حرام ، كان يجب ألا يأخذها ، كما أنها حذرته مرارا من الاستجابة لأى
غريب ، أو قبوله شيئا ممن لا يعرفه ، أو الأكل عند الجارات إذا دعتته إلى
طعام ، أما تحذيرها إياه من الغرباء فخشيتها العجز الرّحل ، الذين يجوبون
البلاد وأعينهم على الصغار .

فى جهة إذ يسمعون بقرب العجر أو الغوازى أو الحلب كما يعرفون ،
يغلقون الأبواب ، يمتنعون الصغار من الخروج إلى الباحات ، تحشى عليه
لصوص الأطفال المتشربين فى المدن ، أنبأتها أم هدهد أنهم يأسرون
الأطفال ، يعذبونهم يعلمونهم السرقة والميل ، والغواية تعنى أن يستدرجه ذكر
أكبر منه فيتلفه . ويفسد كينونته الناموسية الطبيعية ، كانت تلوح له بذلك ولا
تصرح ، قبل نزوله الحارة تقول بصوت هادئ ، مبتدئة بمأثورها « جمال
يا ولدى » ، ثم تذكر فى لين تحذيرها ، مخافة أن يستميله شاذ أو عابث ،
تحذره من الانحاء ، وركوب أى طفل صغير أو كبير فوق ظهره أثناء اللعب ،
تقول وقد اكتست ملامحها جدية وصرامة إن هذا من أقيح الأفعال ، أنه
رجل ، والرجل يجب ألا ينحنى أبداً ، تنبه إلى ضرورة ابقاء جلبابه مسدلا .
تلقى إليه القول مبديّة اللامبالاة أحيانا ، كأنها تحكى أمرا هينا ، غير ذى
أهمية ، كثيرا ما يكون ذلك فى قعدة الظهيرة بعد فراغها من أمور البيت ،

وبدء انتظارها اليومى ، تقول ماتصمر ، بينا معراجها الداخلى على أشده ،
«إبنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر» .

أما تحذيرها له ألا يأكل عند امرأة غريبة ، فلأن الإنسان يجب أن تكون
عنده عزة نفس ، فإذا لقي نفسه جائعا والمقام غير مناسب ، ومن غير المناسب
الجهل بصاحب الطعام ، يجب أن يكبح جوعه ، وألا يمد يده إلا إلى صحن
يألف صاحبه . ويكون قادرا على ردّ مقابل لما أكل ، تلك أصول وجذور
وعلامات يجب عدم الحيدة عنها ، فنعنم عقبي الدار .

يمثل أصلى ، حتى إذا قرصه الجوع أثناء اللعب ، يهرع إلى منتصف السلم
مناديا : ماما .. أنا جائع ، ابعنى لى رغيغ ، فإذا دعتة إلى الصعود ليأخذ
ما طلب ، عنى ذلك أنها لن تستقيه وستسمح له بالعودة ، يعرف أنها
لا تقول شيئا وتفعل ما يغيره ، فإذا دعتة إلى الصعود ثم العودة للعب
صدق ، وأمثلة ؛ إذا أرادت منعه تعلقه فى غير ذى عوج ، أدرك من قديمه
لا تموه ولا تستدرج ، لا تلفظ قولاً له أصل وظل إنما صورته فى أصله ، هذا
حالها ، وقد بقيت عليه وثبتت .

ينادى جمال :

« ابعنى لى رغيغ .. » .

تلك بارقة ، جملته ، لم يدرك ناطقها أنها ستصير علامة دالة وإشارة إلى
ومتكأ على .. ، وأن ألفاظا قالها طفل لا يعى ، ستقلب دهرًا عتيقا وتبعث زمنا
آفلا ، وتبدد مغارة النسيان ، عبارة مندثرة الآن من عالم الممكنات ، قائلها
شب وأمعن المضى فى الطريق ، حتى أن ادراك كنه الصلة بين ما كان عليه
وقت نطقها وما أصبح عليه قبل معراجها يحتاج جهدا ومشقة ، عبارة تبدد
تأطقها فى فسحات الكون وذرى ، يصعب التنقيب عنها فى مترل الأصوات

الباقية ، أمر يحتاج إلى جهد جهيد ، أنا هو ، لكنني لم أفه بها ، لهذا كله
بناطنب في البيان اراحة لي قبل الآخرين ، وريا لظمئي قبل رى غيرى ، حق
على أفراد فصل بعد التماس الإذن ورجاء الإشارة

تفصيل

أقول كما قال القائل :

ديار بأكناف المغيب لسمع
وما أن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحيننا يرجع
فخاطبت منها طائرا متفردا
له شجن في القلب وهو مروع
أقلت على ماذا تلوح وتشتكى
فقال على دهر مضى ليس يرجع

يامن يتلقى عنى ، يامن لم ألتق به ولن .. يامن لن يدرك جوهرى
الأول ، تلك عبارة لا تعنى شيئا عند الجرم الأعظم ، ولكن لا تستخف ولا
تسخر ، فعند حين مقدر قد يتخلص ما عاشه الإنسان في تموجات عبارة ، أو
أفماء ، أو ظل لون كوفى ، هذه العبارة بدأت تلوح في أفق حنين الأم عند
عمر معلوم ، بعد أن شب وسعى مبتدئا حياته بعيدا عنها ، أراها تتحدث إلى

جارة قريبة لم أتبين ملامحها ، تقول وعلى وجهها ضياء ابتسامة :
« كان جمال يلعب النهار كله في الحارة ، حتى إذا تعب .. وقف فوق السلم
وصاح .. » .

هنا تتغير ملامح الوالدة الكريمة تغيرا طفيفا ، تبدأ محاولة ظاهرها محاكاة
صوت من سكن رحمها جنينا قبل أن يسعى ، وياطينها استعادة لحظة
مندثرة ، واحياء حقبة غائبة ، إنها تلفظ العبارة وعندها من الدهشة قدر غير
يسير ، جمال يسافر بمفرده ليسعى في بلاد نائية لم ولن تراها ، الدهشة تيمد
فتتحول إلى تأثر ، غير أنها تتقن الاحتفاظ بما تبطن فلا تظهره إلا فيما ندر ،
وهذا من أقوى وأجل خصالها ، لكم أخفت ، ولكم كتمت فما صرحت حتى
لا تقلق عزيزا ، أو تزعج غالبا بألم قد يشعر به .

هاهي ذى تقف بأحد الأسواق ، تحاطب الحاج فؤاد تاجر الأثاث
القديم ، في عينها نظرة حيرى ، تدرك أنها تبدى التعجب من أمور لا ينبغي
إظهار الدهشة من تحقق وقوعها ، تقول :

« جمال كبر الآن يا حاج ، الأيام فاتت بسرعة ، والله كأنى أراه البارحة
عندما .. » .

ثم تذكر الموقف ، وتتلو العبارة ..

تلك قعدتها في صلاة البيت الذى خرجت منه إلى الأبد ، المقعد بعينه .
الفراغ الذى تنظر إليه ، تعبره بعينها ، فيها أصداء سفر ، وآثار رحلة
منهكة ، هي مجهدة ، يتقل دماغها ، تتوالى الأفكار ، تنقلب صورا ولحظات
متداخلة بما حوت ، توشك أن تعفو ، تهن رقبته . تكاد ذقها أن تلامس
صدرها ..

« يا ماما .. ابعتى لى رغيف .. » .

تتبه ، يتوالى شهيقها وزفيرها ، ناداها بالحس ، أصغت ، تستعيد واقعها
إذ تم يقظتها ، يستجيب صدرها بتنهيدة خافتة ، مثقلة ، كأنها غمامة ، خفيفة
ناثية ، مقبلية ، تسوقها رياح ، منندرة بسحب تتبعها مسحة ..

ها هي ذى فى صالة البيت ، بعد نقله الكتب إلى بيته الجديد ، بعد فراغ
رفوف المكتبة ، تصغى إلى صدى صوت الجدة «الدودة» إذ تقول : «مبروك
يا بختيه جاءك ولد» ، تصغى إلى الصرخة الأولى ، كان جمال صامتا لا يجب
الكبار أن يعاملوه معاملة الصغار ، فى يوم بعيد رجع باكيا لأن الأسطى سيد
الحلاق نهره عن قراءة الجريدة خوفا من تمزقها ، ينغم وجهها ، تعلق متجاوزة
الفراغ الذى يشغله وجودها المادى ، تتجاوزه ، تموش ابتسامتها ، دمعتان
دننا من مشارف مقلتها ، تحاذر البكاء وجمال يستعد ليوم عرسه ، شؤم ينبغى
تجنبيه ، لا تدرى من قال يوما على مسمع منها إنه يخشى على أولاده من بعده
ثلاثا : جور السلطان ، وغلبة النسيان ، وافتقاد الحنين .

عندما اقترنت بأحمد ، كانت كالعدد الصحيح ، يتبدى من أقل
الكمية ، اثنان ، ثم يتزايد بلا نهاية ، جاء خلف ، وتذكره خالقه ، جاء كمال
وأوفى مدته طفلا ، جمال أول من عاش ، جاء اسماعيل ، وجاء محمد الذى
لم يتم ، وجاء من تجهل فقد أجهضت حملها ثلاث مرات ، وجاءت نوال ،
وجاء على ، وكل منهم واحد ، سيصير اثنين ، وفى عين الوقت الذى
سيترادون فيه ستقص هى ، سينأون عنها ، تصبح كأول الكسور ، تبدأ من
النصف ثم تمر فى التجزؤ بلا نهاية ، كلاهما من حيث الابتداء ذو نهاية ، ومن
حيث الانتهاء غير ذى نهاية ، الأصل واحد لكنه هنا يتكاثر وهنا يتجزأ ، والله يعلم
وأنتم لا تعلمون ، هاهى ذى أصابع يديها متشابكة ، مستغرقة فى جلستها الأمومية
كأنها على وشك أن تجنوم مع عدم وجود الحنى عليه ، فى عينيها دهشة وجل ، تقف

عند تحوم انهار حزين واستغراب للسهولة التي انقضت بها الأوقات ، ليسر الذي يتم به الفراق ، إلى ربك يومئذ المساق ، وهنا أكف عن الإطباب خوف الملل والنفور فأعطف صوب ما كنت عليه ! .

رجعى

إنه مدخل الدرب ، إنه ضريح سيدى الجاهد مرزوق ، تلميذ سيدى أحمد البدوى ، إنها ظلال المسجد العتيق تلزم مدخل الحارة ، روائح شتى ، مزيج من رائحة الجبر المنطقي ، والأصباغ المنبعثة من دكان عبد الحميد المبيض . هذه رائحة عطر غامض منبعث من نوافذ الضريح المبارك ، رائحة الظلال المستقرة منذ اكتمال البنيان ، رائحة قدم ، وبلاط مضلع يغطى أرضية الحارة ، وأخرى غامضة يصعب تحديد مصادرها ..

هنا .. تقف سناء ، أكبر منه بعامين أو ثلاثة ، لا أقف على تفاصيل الملامح ، غير أن ما يحف بها من بهاء أسنى لا يخطئه نظر ، لا تنجىء إلى الحارة إلا نادرا ، لا تلعب مع الأطفال ، لا تخالط كاميليا ، أو علياء ، أو عزة ، رآها مرتدية أثوابا عديدة ، غير أنها مثلت في وعيه دائما مرتدية فستانها الأخضر ، ذا الياقة المرتفعة ، تماما كما استقرت لور في لب حشاشة قلبه مرتدية دائما قيصها الأحمر النيذى الصوفى ، وبطلونها الأسود القطيبي المضلع .

إنه يقترب من سناء ، في جيبه تلك المحفظة ، لم أدر كيف اتصل حوارهما كيف بدأ؟ رأيتها يمسيان ، يقفان عند دكان عم حسن تحت المسجد القديم ، عم حسن يرتدى جلبابا ، وطاقيه لاتفارق رأسه صيفا أو شتاء ، دكانه منخفض عن الطريق ، جدران حجرية ، لا يبدو منه إلا رأسه وكشفا ، إذ يخاطب

الزبائن ويلبي حاجاتهم ، رائحة السجائر قوية ، كلنا التبغ والشوق ، أما الحلوى فستقرة داخل أوعية زجاجية منتفخة ، غير أن أهم ما اشتهر به ، بيعه أوراق اليناصيب ، وأن الكثيرين يتفاءلون به ، في ثلاثة أعوام متعاقبة فازت ثلاث ورقات باعها بالجائزة الكبرى في ياناصيب الاسعاف .

يمد أصلى يده إلى جيبيه ، لا يبرز المحفظة ذاتها ، ربما رأها صاحبها ، تصير فضيحة أمام سناء ، كما أنه ينشى العاقبة ، يتسم عم حسن فيلوح الفراغ في مقدمة فه الخالى من الأسنان ، قطعنا شيكولاته ، تتناول سناء إحداها ، لا تنظر إليه ، لا تلتفت ، تحتفظ بها دقائق ، قرب حارة الميضأة تبدأ فض الورقة ، فيبدأ يرقبها خلسة ، لن يأكل قبل أن تبدأ هي ، شفتاها ورديتان ، نديتان ، تقضم قطعة صغيرة ، يتوقفان أمام بائع اللجيات ، بقدر سروره يكون خجله ، يظن أن عيون الخالق كلها ترقبها ، مدركة هويتها .

قبل باب النصر توقفا ، لم يتجاوزاه ، هنا حد لم يبلغه ، كما أن شواهد القبور فوق المرتفع خارجه يمكن رؤيتها من موضعها ، خشية غامضة تثيرها هذه القبور عنده ، عندما صحب الوالد في عصار ولت إلى هذه الناحية ، وجلسا فوق السور الحجري الذى يحد الخندق العميق الممتد تحت حائط القاهرة القديم ، كان يحاذر ألا يقع نظره على الشواهد البادية فوق مرتفع من الأرض ، شعور غامض لم أدركه يغمره ، يقبضه إذ يقترب من القبور . في مرحلة متقدمة من طريقه غراه خوف من الموت ، عانى من حدة الادراك ، وخشية المجهول ، والحسرة على فوت كل ما هو بهيج ، فأعان الخالق من بدأ احتضاره في عز شبابه ، استمر سنين قبل تمام الأجل القدر ، وبارك ربى البرة الكمل الذين قطعوا الطريق كله وهم لا يهابون ، وأمضوا الوقت كله لا تلهيهم تجارة ، وقد كانت أمى وكان أبى من أهل ذلك في خلقى

الأول ، كذا أمى وأبى فى حلولى هذا ، لم يشطا ، لم ينأيا ، فسبحان من له الخلق والتبديل ، وبأخذ ويعطى لا معقب لحكمه وهو على كل شىء قدير هذه سناء تجلس أمام أصلى داخل دكان الفطير عند مدخل حارة الرشيدى تنظر إلى المارة ؟ ربما ، إلى الطريق ؟ ربما ، إلى الطبق ، جاتر ، غير أنها لا تنو إليه ، تمسك الشوكة فى يد ، والسكينة فى يد ، تمضغ على مهل ، حيره استخدامهما الشوكة ، يخشى مجاراتها فيرتبك ، أو يبدو منه ما لا يليق ، الفطيرة ساخنة ، يبرز منها حشو الكريمة البيضاء ومرنى حمراء ، غير أنه لا يقرها ، لو أنه بمفرده لتناولها بأصابعه ، لفها وقضمها ، يسأله الرجل : «لماذا لا تأكل ؟» يقول : «نفسى تعبت فجأة» ، يتساءل الرجل : «ألفها لك ؟» ، يتطلع إلى سناء ، يتمنى لو قال : نعم ، لكنه يخشى أن يبدو ذلك أمرا غير لائق ، يعضى ، هى إلى جواره ، لا تخاطبه ولا تجاوره ، فقط تسأله من حين إلى آخر ، «كم بقى معك ؟» .

يعبران حارة الدرب الأصفر إلى شارع المعز ، قريبا يسرى عنده ، فيه لذة ، شربا سويا ، أحب المشروب الأبيض السميك ولكن لم يرتق إلى مرتبة الخروب . ارتشفه متمهلا ، مضغ اللوز والبنلق وأحب ذرات القرفة ، حاذر ألا يصدر عن فمه صوت مفاجئ يبدو منكرا ، خاصة أن حسواتها مقتصدة ، إن وحشة مفاجئة تقسو عليه ، كيف يأكل شيئا لم تتذوقه أمه ! كيف يطعم ما لم يوضع أمام أبيه وشقيقه ! .

سناء تمشى الهويئا ، تتقدمه دائما بخطوة أو اثنتين ، كأنه لا يصحبها . ولا تصحبه ، مشيا عبر درب قرمز ، وعندما احتواهما برطوبته وظلاله المعتمة ازداد قريبا منها فعرف العبير الأثوى ذا الخصوصية ، وهذا عبير معين يقوى فى إناث دون غيرهن ، ويتعلم عند أخريات ، لا عجب ، فن الزهور ما كان متعة .

للنظر ، بدون عقب ، ومنها الفواح المسكر ، عرفها أصلى في قلة من إناث ألفهن ، وتمكنت حواسه منهن .

حدث فيما بعد أن صحب حسن صاحبه لزيارة معارف في ناحية الدرب الأحمر ، عندما فتح الباب ، بدت شابة خميرية ، طويلة الشعر ، معها ضبخ البيت كله رائحة الأنوثة تلك فياضة ، طاغية ، جسديها يشب داخل الثوب قلعا ، فائرا كالماء يغلي في قدر مكثوم ، يود لو أفلت ، لو عبر ، غير أن ما لفت انتباهه واستنفر حواسه قاطبة ، رائحتها الأنثوية ، وهذه الرائحة أو ذلك العبير من المسائل الدقيقة ، من الصعب الاحاطة بكنهها أو مصدرها ، أو التعبير عنها بمفردات الكلام ، عرفها في قلة ، كما صادفها في امرأة مضمومة ، مدملجة ، حنون ، تتبع الهوى في بيت قديم ناحية العباسية ، دهش وأدركه عجب ، إذ ظن الرائحة لا تبعث إلا عن كائن خص بوضع مكثون ، مستور ، فن أين لهذه المرأة بها والرجال يتبدلون عليها في اليوم الواحد مرات ، خاصة لما عرف عنها من رقة ، وعدوية مجاوية ، واحاطة بالموضوع ، ما شده إليها أنها كانت فواحة ، لها حضور ، وحنانها باد ، حتى أنني عاينت منه في هذه الجهة ما لم أره منه إلا في خلقه البديل ، عند مضاجعته لور ، إذ يدفس أنفه في ثنايا شعرها ، ويمرغ الوجه على النهدين ، ويتمنى التلاشى .

هذه الرائحة الأنثوية عرفها داخل هذا القبو العتيق الممتد كالمهبل ، لم يكن اقترابه من سناء بدافع شهوة تحركت ، إنما بتأثير جذب غامض مبعثه هذه الرائحة ، بعد اجتيازهما القبو يتنفس بعمق ، غير أن رائحة سناء يتبدد بعض منها ، القبو للملها وصانها .

لما خرجا إلى ميدان بيت القاضي التفتت إليه ، تستفسر بصوت حيادي ، كم تبقى معك ؟ ، يهز رأسه ، لا شيء ، تقول : هيا بنا ، غير أنني لم أتبعها ، لم

التفت إلى الجهة التي غربت عندها ، ذلك أننى رأيت لور ، هي بعينها ، بأطرافها ، بحضورها الباسق ، تقف تحت شجرة من بلاد شمالية ، أما الأرض المغروسة فيها فضمن إقليم جنوبي ، وأما فروعها فمتشرة في فراغ مدينة تقوم حيث لاجهة يمكن تعيينها ، لور ، ظل الندى ، وصدى الخاطرة ، هذا وقتها الأرق ، وتلك وقفها الشفيفة ، واطلاتها ذات السهوب .

هنا أكتشف عن خبيثي ، ذلك أن لور هذا اسم أمر صاحبي وأصلي بتسميتها به ، إذ أنه كلف بالستر على أمور بعينها ، من بينها اسم هذه البنية ، فكتمته في هذا التدوين ، أما اسمها الحقيقي فقد توزعت حروفه في ثنايا مقام الاغتراب ، وجرى التلميح إليه خفية ، فمن رغب التدقيق والتحقيق فليراجع ما تم تدوينه .
لور تقف بين عناصر متباعدة متقاربة ..

فماذا جاء بها إلى هذه الجهة؟

من أتى بها إلى الزمن المبكر؟

ظمئت إليها ولم أرتو ، تقف ولم أهدت ، فحننت إلى انتظارها قدومي ، وسنا عينها إذ ترانى ، لم أعد قادرا على تتبع البنت التي صحبت أصلى في هذا اليوم النائي ، أشرفت لور على الجهة كلها فلم يعد إلا هي ، وتبدد ماعداها ، وقد كنت أنوى الحديث عن عزة التي أصبحت راقصة فيما بعد ، وكاميليا التي اجتازت عمرها بدون رفيق ، وثريرا الجميلة الراسخة التي مضت إلى بلد بعيد ، وعن محاسن التي أنجبت أحد عشر ذكرا وانثيين ، كلهن لزمان هذه الجهة ، غير أن ظهور لور أبدل الخطة ، لم يعد إلا هي ، إنها الأصل ، غمرنى ما كان سيمر به أصلى ، ما أذهلنى أن الوقت انقضى ، وأننى مختم مشاهدتى هذه الجهة ، لا بد من الاقلاع ، ولأننى راحل ، ماض قسرا ، فقد أنشدت :

أقطع الليل كله باكتئاب

وزفير فما أكساد أنام
نحو قومي إذ فرقت بيتنا الدار
وحادت عن قصدها الأحلام

وأشدت :

كفى حزنا فراقهم وأنى
غريب لا أزار ولا أزور

وهنا سمعت من ينادى :

«الزم ولا تحدد..» .

أتطلع إليه كايا ، أدرك أن عهدى بهذه الجهة قد ولى ، وأننى ماض إلى
آخر الجهات المعلومة ومختمها ..

* * *

الجهة الغربية

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي فِي سَفَرِهَا »

(قرآن كريم)

.. جئتها يصحبنى دليلى ، رأيت درجات الشفق ، بدايات الليل ، قرب اكتمال الغروب ، هنا أطلعنى دليلى على عدة كتب تخص والدى ، كتاب يحصى أنفاسها ، يقرن كل نفس بموقفه ، وكتاب يحصى خطواتها ، ويحدد مواطني السعي ، وكتاب فيه كافة ما حلما به ، إن في يقظتها أو منامها ، وكتاب يلخص مشيرات أحزانها ، وملحق به فصل دون بواعث أفرانها ، وكتاب حوى تفصيل كل ما وقع عليه بصرهما . لم أقرأ إلا العناوين ، لم أحط بما دون ، لم أدر سبب اطلاعي على عناوين هذه الكتب دون الوقوف على تفاصيلها ، أو الإلمام بما احتوته ، ولئى فضولى إذ أطلعنى بسرعة على لحظات متباعدة ، متفرقة ، غير أننى أشهدتها متجاوزة ، كل منها تعقب الأخرى ، برغم انتماء هذه إلى حقبة وتلك إلى أخرى ، فما أبلغ النفار ، وأعمق التضاد !

رأيت فى لحظة حرقه أصلى على الفراق حتى ظننته يوشك أن يهلك ، فى لحظة أخرى يستعيد ما كان ثم ينسى ، فى الثالثة يسعى إلى المثوى ، حتى إذا دنا واستوى جالسا تذكر وسعى فبكى ، وفى الرابعة يمشى قاصدا زيارة المثوى غير أن فكره يسعى متطرقا إلى أمور شتى ، أدهشنى تفكيره فى مقدار الشقة التى ينوء بها إذ يمضى إلى مرقدهما ، تلك لحظة أخرى ، يهب عليه حزن مفاجئ فيطرق حتى يكاد يقعى ، أما هذه اللحظة فتمت إلى فجر عيد الأضحى ، إنه يستيقظ

مرهقا وإذا به يتشاب ويتمطى ، يقول إن القيط في الخارج لشديد ، ذهابه سيكلفه عسرا .

ها هو ذا يدخل البيت الذى عاش معها فيه ، الذى خرجا منه إلى الأبدية ، فلا تطوف به صورة ولا ترد عليه ذكرى ، ها هو ذا يمضى الأوجاع العتيقة ، والأزمة التى كانت مألوفة نائية ، يقسم برحمة أمه وأبيه ، القسم الذى تجنبه طويلا ، الذى عاف النطق به وخشى ، صار عنده مألوفا ، يقسم به صدقا وأحيانا كذبا ، فهل عاد كالعرجون القديم ؟ .

أسئال :

هل اكتمل الغروب .. هل دنت لحظة يبدو فيها ما كان كأنه لم يكن ؟ .
لا لإجابة من مرشدى ، إنما يتردد فى سمى قول قديم للأُم ، لم أدر متى قالته أو مناسبة قوله ، حتى أننى ظننت مصدره جهة الغروب ذاتها .

تقول متأسية :

«أصل الإنسان نساى يا ولى ..»

أستعيد من وجودى القديم ما حيرنى وأثار عندى ما أثار ، ذلك أن طريق اليومى كان يمر بموضع المقابر خارج المدينة ولسبع سنوات متصلة صباح كل ثلاثاء ، وأمام شاهد محدد ، أرى امرأة شابة وحيدة تحنو ، تذرف دموعا ، تنحنى فى مناجاة صامتة ، لا أدرى مما تقول شيئا ، ولم ينقطع عهدى بها إلا بعد نأبى عن هذا الطريق ، فما لأصلى تهت عنده الأصول ، ولم يتم من الأعوام إلا خمسة على رحيل الوالد الكريم .

يقولون إن الدنيا تشغل الإنسان حتى عن ذاته ! .

إنى غير مقتنع ، غير متقبل لما اطلمت عليه .

يحيى مرشدى إلى موضع غروب الشمس ، ما رآه أصلى من فوق السطح

عند تطلعه ، فن ذلك بؤرة المدينة ، مركزها ومبانيها ، مصدر الأصوات المتداخلة ، المندغمة ، أرى أفقا مشريا بحجرة ، خفيفة وردية ، غامقة ، ثم يا قوتية تتدرج إلى سواد ، في لحظات معينة بعد ميل الشمس يشف الفراغ ويخف ، فتصح الرؤية وتمتد ، يرى الأهرامات الثلاثة كالظلال عند حد الأفق ، لا يحول دون بصره حائل ، كثيرا ما توقف الوالد وحديق ، أمن البصر ، لا ينطلق ، لا أدري في أى الأمور فكر وتأمل ، ولى هذا تماما ، اندثر ..

يطلقنى دليلى على من جاء إلى هذا السطح وعبر ، فهذا رجل من جهينة ، خرج الوالد عند صلاة الفجر فلقبه بجوار ضريح الحبيب الحسين ، بدا متعبا ، ضائعا ، سكتة صعبة ، وماله قليل ، فأقسم الأب واصططحبه . الرجل ليس غريبا ، يمت بقرابة إلى الوالدين ، مد الأب جبلا في وسط الغرفة ، ثبت إليه ملاءة حجبت نصف المساحة ، أقام الرجل ليلتين ، فى الصباح يخرج مع الأب ، يفترقان عند الإمام الحسين ، يسعى كل منهما ، وفى المغرب يلتقيان ، ترقبها الأم أثناء العشاء ، بعد شرب أكواب الشاي الثقيلة ، يتمددان ، تنسحب إلى ما وراء الملاءة يتمدد أصلى بجوارها ، وصغير لا أتبين ملامحه ، فلا أدري ، أهو كمال أم اسماعيل .

الغرفة تفيض برائحة الضيف ، العرق الممتزج بنسيج الصوف ، يغيب الرجل ، غير أنه يتردد من حين إلى آخر ، شال عمامته أصبح نظيفا ، ملامحه أقل اجهادا ، عنده تجارة ، وشونة غلال ، ومال وخير وفير ، من المدينة تزوج بامرأة أخرى ، قاهرية ، بيضاء شعرها طويل ، مكشوف ، قال إن وجهها ذو فأل حسن عليه ، تباعدت زيارته ، ثم جاء زمن انقطع فيه عن الجبىء ، غير أن الوالد لم يكف عن زيارته ، وعندما علم بخبز المقبرة التى بناها قرب ضريح

الإمام الشافعي ، قال موصيا اياه : ادفني هناك . فليس لنا مأوى ، ضحك الرجل قائلا ، يا سلام يا أحمد .. أنت ستشيعنا كلنا ، وقد كان !. إذ مشى أبي في جنازته ، -وليلة العزاء وقف بجوار الأولاد يصافح من قدموا وهم كثير ، غير أن المقام لم يطل به ، بعد أربع سنوات أتم طريقه ، وبدأ هجرته الكبرى ووقد على مقربة من الرجل .

أشار دليلي إلى رجل بدين أصلع ، قال إن اسمه الطيب ، إنه يجلس فوق حشية أمام باب الحجرة ، أصلى يقعد إلى جانبه ، يتلقى درسا ، خشى الأب ألا ينجح في امتحان نهاية العام ، غير أن جمال رجا الوالد أن يدعه يتم دراسته بدون مساعدة ، لم يجئ الطيب إلا مرة واحدة ، إنها التي رأته فيها ، هل استجاب الوالد لرجاء الابن . أم أنه انقطع لسبب آخر؟. هذا ما لم أفق عليه ، غير أنني علمت متعجبا ، دهشا أن أصلى عاش حتى بدء اسرائه من مدينة فاس يذكر خطوط الرجل في كراسته . كذا توقيعه ، لا يقدر على استعادة وجهه ، أو ملامحه .. فما أعجب ذلك !.

نهني دليلي إلى عبد العال ، كان ينادى الوالدة قائلا : يا خالة . وهي ليست شقيقة أمه إنما تمت إليها بقرابة ، في ملاحظه شبه خفي منها ، إنه منتظم الزيارات ، لم يتقطع عن الحجىء إلى السطح ، أصلى يقعد بجواره ، يصنى مهورا إلى ما يرويم عن قوم يعيشون في الغابة ، يأكلون لحوم البشر بعد طهيهم أحياء ، إنه يشم رائحة عبد العال ، لماذا يوقن أن رائحتهم تشبه رائحته؟. بعد رحيل الوالد الكريم ، وذات يوم كان أصلى يهبط الدرج ، رأى عبد العال أمامه ، رأسه منحسف بين كتفيه ، هل صار أقصر؟ رجا ، قال إنه تردد على العمل مرات ولم يجده ، دعاه إلى مكتبه وأن بدا متعجلا ، وعندما خاطبه فوجئ به يقول له : يا ولد الخالة ، ثم بدأ يقول له ، سيادتك ، حضرتك ،

فتخرج أصلى من ذلك ، هو الذى كان يجلس إلى جواره طفلا غريبا يصنى إلى مروياته ، وما يقصه عليه من أنباء العالم الذى كان فسيحا بقدر وقتئذ ، رجاء عبد العال بحكم الصلة ، والأيام المتقضية ألا يهمل شأنه ، عنده من الأولاد خمسة ، والراتب شحيح ، والظروف معسرة ، لو لاحت أى فرصة للعمل ، للسفر.. لعله يعرف أحدا ذا صلة ! .

يطلعنى مرشدى على ابراهيم أبو الفضل ، إنه من الأقربين ، بمن راققوا الوالد آجالا ، لم أراه فى مقهى الفنتلى ، أو فى صلاة الجمعة ، أو فى لقائه الأسبوعى بالوالد أو فى بيته بالعباسية عند انجابه الابنة التى شهد أصلى زواجها بعد سنين طوال ، لا أراه عند عبوره ميدان الحسين ، لا أشهده مرتديا جلبابا بلديا ، يمضى فى القرية مرشحا نفسه ، ساعيا إلى أصوات الناخبين ، إلى جواره دائما الوالد ، إنما أراه عند عبور السطح منصرفا عقب افطار رمضان ، يجلس أصلى إلى جوار الأم وراء الباب ، يقول إبراهيم أبو الفضل : « تسلم يدك يأم جمال .. الكنافة حلوة جدا .. » .

حلوى الأم هذه لها شرح يطول ، إذ أنى ورثت عن أصلى تفضيله لها ، ودقة تذوقه لها ، ولأنى عشت رحيل الأم بدلا منه ، فقد افتقدت مذاقها ، صرت أبحث عنه بدون جدوى ، ولهذا تفصيل قادم ، أما إبراهيم هذا فعرفت برحيله المفاجئ ، اللباغت ، أفضى لى أحد أبناء البلدة بالنبا ، وعندما جلست إلى الأم وكان ذلك أول أيام عيد الفطر ، عندما صحبت امرأة أصلى وولديه الصغيرين ، أنا أبوهما ، رحمت أتطلع إلى وجه الأم الذى بدا منها ، متعبا ، يوشك أن يوفى المدة ، لكن من يدرى ومن يعلم ماذا سيصير غدا ؟ . رأيت تعبها بعد صيامها شهر رمضان كله ، فى زمنها هذا كنت أدنو منها ، معها وبها أوشك على مصالحة ذاتى على ذاتى ، كنت أرقب حمرة الغروب ، ولأعلم ، أرقب دنو الليل واكتاله قلت :

«البقاء في حياتك ..» .

«من ؟» .

«ابراهيم أبو الفضل ..» .

«ياه ..» .

متأملة بدت ، رجعتي المضي إلى أولاده ، ألا أهمل الغزاء ، الرجل كان عزيزا على الوالد ، غالبا عنده ، أطرقت ، رأيا كدرة ، ندمت على إخباري لها ، ما خفف عني أنتي لم أقدم إلا على ما يطابق جبلة أصلى وجوهه ، هنا أطلعتي مرشدي على كل من وفد إلى السطح ، أشار إليهم ، سماهم . أدركت أن أوانا انتهت ، أن ما يشبه الشفق يولي ، وأنتي أجتاز الحد الذي يبدأ بعده الغسق ، وأنتي مقدم على طور أعاني فيه ما أعاني ، ليس باعتباري بديلا للجمال ، أو صورة منه ، أو ظلاله ، ولكنني باعتباري أنا أنا ، عندئذ يتغير الحال ، وتلوح الحقائق ، فليس من تكلم عن نفسه كمن أخبر عن غيره ، ليست الثكلي كالثامنة المستأجرة ، وليس من شرب ماء بئر واحدة كمن شرب من آبار ، متى ستحقق ذلك ؟ مطلب هذا وعمر ، صعب ، ولكن مع تحول الأضواء إلى عتمة كابية ، مع قرب اكتمال الغروب ، ومضى الشمس بعيدا ، وحاجتي تزايد مع مجيء الليل إلى الرفقة ، تعمق وحلقتي ، أدركت بحس خفي أن ما ظننته بعيدا يدنو ، غير أن اكتمال الغروب يجب أن أشهده حتى أقف على بعض مما احتوته هذه الجهة .

أرى صاحب البيت ، قصير القامة ، ممتلئا ، الشيخ حسين ، يقف عند منتصف السطح ، إلى جواره رجلان ، أحدهما يرتدي جلبابا ، يشيران ، يقيسان ، وعند لحظة بعينها يخطو الشيخ لقيس السطح بخطواته بعد أن شمر جيبته قليلا ، الأب ، الأم ، مطرقان ، مهمومان ، أمر لم يعد له العدة ،

لا يقدران على منعه ، على رده ، شرع صاحب البيت فى بناء ثلاث حجرات من الخشب «البغدادلى» المطلق بالجبر والجص ، ستكون دورة المياه للجميع ، هذا ما لم يعد له العدة ، لم يتوقفاً حدوثه يوماً ، آن لفراغ السطح أن يتبدد ، وقعدة العصر ألا تتكرر ، والايجار مع النظر عبر السبل المؤدية إلى الأفق .

الشيخ حسين صاحب البيت ، متصرف فيه ، شاء بناء السطح وسيفعل ، إنه ليس مستأجراً يمكن منعه من الصعود، إن عهداً ينقضى، ستقوم جدران، مستد الجهة الشمالية ، لن يمكن القعاد فى شمس الشتاء ، أو الوقوف والتحديد الصامت إلى تلك الجهات ، سيجىء غرباء ، سيصفى كل منهم إلى قلبه فى فراشه سيسمع تردد أنفاسهم ، دورة المياه لن يلقاها متاحة عند الضرورة ، سيفرح رجل غريب ، فضولى ، متخيل ، ينتظر بينا امرأته تقضى حاجتها . منذ أعوام لم يرض بسكنى حجرة تشترك فى دورة مياه مع حجرات أخرى مع أن الحال كان معسراً ، ضنكا ، هل يقبل الآن وأطفاله أربعة والحال ميسور بعض الشيء ، واقع جثم عليه ، لا يمكنه دفعه ، لكن كيف الانتقال إلى مسكن آخر؟ العثور على إيجار زهيد مماثل مستحيل الآن ، أى الأمور تخفيها الأيام؟ ، لم يمض وقت طويل حتى ظهر البناعون جاءوا بألواح الخشب ، وأكياس الجبر ، وصفوا علماً شتى ، وصناديق ، بعضها صغير ، والبعض كبير ، أوصى امرأته ألا تخرج إلى السطح ، غرباء لا يعرفهم ، أوقات طويلة انقضت والباب مغلق ، لا تفتح إلا عند عودة جمال من المدرسة ، تبقى النافذة مفتوحة ، لولا صحة العيال ، وانشغالها بهم ، وهذه النافذة المطلة على البيوت ، لتشابهت الأوقات ، يسعى الأب ، لكن أين المأوى المناسب ؟. الأمر يحتاج إلى جهد وبذل مال .

أخيرا اكتملت الحجرات ، قامت فوق فراغ السطح ، سدت الجهات الأخرى ، من خلف الباب تصفى إلى قلوب المتخرجين ، يدخلون ، يتفقدون دورة المياه ، يسألون عن قاطنى هذه الحجرة فتسمع من يقول لهم ، أناس فى حالهم طيون .

فى احدى الليالى ترددت فوق السلم خطى ، اتجهت عبر السطح إلى جهة الغرف الجديدة ، أطل الأب مستطلعا ، رأى شابا ، إنه أسمر ، غزير الشعر ، ناعمه يحمل حقيبة ، قال إن اسمه عبد الهادى ، كاتب فى فرن أفرنجى ، قال إنه متزوج ، امرأته مقيمة فى قريتها بمديرية الشرقية وأن والدها اشترط عليه تهيئة مسكن مناسب حتى يسمح لابنته بالذهاب إلى مصر .

كان عبد الهادى يستيقظ مبكرا ، يسمع صوت قباقبه عند توجهه إلى دورة المياه ، ثم ينصرف ، لا يرجع إلا بعد العشاء ، الحق أنه فى حاله ، لم يبد منه ما يزعج ، لكن ضيق الأب لم يتبدد ، هذا لا يلبق ، لو أن الأمر وصل إلى البلدة لصارت جرسة ، ولد الغيطانى يسكن بجوار أعزب ، هذا ما سيقولونه ، الناس ألسنتهم طويلة .

فى ليلة طرق الباب ، فتح عبد الهادى بابه ، بدا مدغمس العينين ، يحمل لبة غاز ، رأى الأب طبقا به بقايا فول ، يجواره كسرة خبز ، واجهه الأب بعينين مزرورتين ، طلب منه أن يقسم أنه متزوج ، فأقسم ، تناول حافظته من جلبابه ، فرد ورقة مؤكدا أنها وثيقة زواجه ، قال إنه يدبر أمره ، بعد أيام سيشتري سريرا ودولابا ، ثم يسافر إلى البلدة ليعود بزوجه ، ابتسم وقال : يعنى يا عم أحمد .. هل أنا راض عن حياتى هذه ؟ قال الأب إنه مستعد كى يصحبه إلى تاجر أثاث قديم ، يعيد ترميمها وطلاءها ، ويبيعها بثمان بنجس .

فى اليوم التالى رجع ميكرا عن مواعده ساعتين ، مضى بصحبة الوالد إلى الحاج

فؤاد بشارع أمير الجيوش ، تم الأمر ، بدت الغرفة ضيقة بعد نصب السرير الخشبي .

مر أسبوع ، أسبوعان ، في كل عشية يستفسر الأب عن موعد وصول الزوجة ، حتى استيقظ صباح الجمعة ، قابل عبد الهادي خارجا من دورة المياه مبتلا ، نضرا ، قال مبتسما ، غامزا بعينه ، الجماعة وصلوا يا عم أحمد ! . في اليوم نفسه زارت الأم جاريتها الشابة التي وصلت ليلا ، لكم بدت حية ، هادئة ، إنها جميلة ، شعرها أسود غزير ، لوجهها شفافية كمقل العصافير ، ملاحظها متعة للناظرين ، قالت الأم : لو احتجت أى شيء ستجديني ، اتبعت قولها اقراضها طبقا من الصباح ، لم يكن لديها إلا طبق واحد ، ولما لاحظت أنها لا تمتلك طشتا لتغسل وتستحم فيه ، قالت إنها ستعيرها ما لديها عندما تطلبه .

في الليل قالت الأم : البنت هادئة ونحجول ، ثم قالت : غريبة ، ثم قالت : وأنا في مصر غريبة ، عادت الأم إلى قعدتها أمام الغرفة ، في مواجهتها تجلس هدى ، هدى تزور الأم ، تدخل عليها نهارا مرات ، عند اقتراب عودة الأب تدخل كل منها وتغيب عن نظر الأخرى ، تغيب المنغصات غير أن الأب لم يهدأ إنه يجد حرجا عند الخروج من دورة المياه ، لا يمكنه النظر في خط مستقيم ، كما أنه لم يقترب من عبد الهادي ، كهلذنت الأم من هدى ، ثم ما يفره منه ، يذكره بكثيرين من أبناء المدينة الذين تجنبهم ، ونأى عنهم ، ليت الأمر أقصر على عبد الهادي ! .

بعد زمن غير قصير بقيت فيه الغرفتان الأخريان خاليتين ، سكنتا في أسبوع واحد ، بل في يوم واحد ، استأجر الأولى رجل نقاش اسمه عيد ، جاء بزوجه وسبعة أطفال ، أما الأخرى فترها رجل عمجوز يبيع الروائح العطرية عند ضريح

الحبيب، وأحيانا داخله، إنه بمفرده، وقد جاء بعدد من الأجلة، وصناديق ورق مقوى، وزجاجات فارغة ضاقت بها الغرفة، وضع بعضها في فراغ السطح الضيق.

أصوات عيد وامراته وعياله تسمع حتى ساعة متأخرة من الليل، كما أنهم يشغلون دورة المياه أوقاتا طويلة، امرأته محبة للشجار، تحرشت بالأم مرات، غير أنها تجنبتها، أما هدى فلم تفلت منها، علا صوتها مهددة بضرب فرجها وقص شعرها، وعندما عاد عبد الهادي أول الليل كاد أن يطرح عيد أرضا، لولا تدخل الأرب ودعوته كلا منها أن يذكر ربه كثيرا، أن يهدئ حاله.

فوق السلم، قال المهجرسى للأب:

« لم يعد السطح مناسباً لك يا أحمد .. »

بعض زملائه من الساعة أخبروه عن مساكن مناسبة قرب الوزارة، أوفى الهرم، غير أنه أبي، لن ينأى عن ضريح الحبيب الحسين، قال إن روحه هناك.

أراه يقف في شرفة بيت، ينظر حوله متفحصا، ويبدو أن الأم بصحبته لكنني لم أتمكن من التدقيق.

مشاهد عديدة تتوالى، لا أتبين على وجه الدقة ما تحوى، تتداخل الحدود، وتذوب الملامح، أضطر إلى تقطيب عيني، أتبين جاهدا الأم، تلملم حاجاتها، الأب انتهى لتوه من فك السرير، والدولاب، العربية التي يجرها حمار هزيل تقف تحت في الحارة، إنها لحظات الانتقال من طور إلى طور، من حال إلى حال.

أعلم أن الأب أقدم على تأجير شقة صغيرة في عمارة حديثة، على ناصية الدرب الأصفر القريب، الأيثار خمسة جنبها وربع، أي ما يتجاوز نصف

راتبه الشهري بقروش ، غير أنه مضطر ، الأم تستعد لمفارقة السطح ، جزء من عمرها موزع هنا ، في هذه الغرفة جاءها المخاض ، فأرسلت جمال إلى أم حليلة الداية ، جاءت المرأة ، وضعت وعاء الماء فوق الموقد ، هكذا وفدت نوال إلى الدنيا ، نوال ابنتها الوحيدة ، مستودع سرها فيما بعد ، وأقرب الخلق منها ، لكم رغبت وتمنت من قبل أن تنجب ابنة ، فالابنة للأُم غير الابن ، في الغرفة أيضا جاء علي ، آخر من أنجبت ، بعده أجهضت مرتين ، ختمت بعلي ، عانت في ولادته وعانى معها ، عندما أطل على الوجود جزعت لمراى رأسه المستطيل ، فزعت أكثر لرجفاته المتتابعة ، حتى أنها أبدلت اسمه ثلاث مرات ، من محمود إلى إبراهيم إلى .. علي ، بعد أن سمته عليا زالت الرجفات فرضيت بالأمر ..

هنا فوق السطح ، في بقعة يقوم فوقها الآن جدران وسقف غرفة عبد المادى بكت أمها ، سحت دموعها حزنا وألما ، إنها ظهيرة نائية من ذلك العام فوجئت برجوع أحمد من عمله مبكرا على غير العادة ، بدا متثاقلا ، مهموما ، إنها تعرفه ، لا يمكنه إخفاء نأب عنها ، وعندما قعد في هذه البقعة بعينها ، جلست في مواجهته ، استفسرت ، مالك ؟. قال : لا شيء ، قالت : لكنك على غير عادتك ؟ ، قال : لا ، بعد صمت لحظات لفظت السؤال الذى خشيت اجابته ، هل هناك مكروه في البلدة ؟ ، تطلع إليها ، لا يقدر أن يخفى ، أخرج من صديريته خطابا ، قال : أنت مؤمنة يا أم جمال ، صرخت ملتاعة . أمى ؟ ، مد الخطاب إلى أصلى الذى وقف يرقب ما يكون ، بدأ يقرأ الخطاب المرسل من خاله ، يخبر عن مرض الجلدة عائشة مرضا طويلا ، وأنها طلبت مهم إخفاء ذلك عن ابنتها حتى لا تضطرب ولا تنخفض ، حتى اشتد الأمر وطلع لها خراج كبير في فخذها الأيسر ، فذهبوا بها إلى طهطا ، إلى أحسن طبيب في البندر

النائى ، قال إن الأوان تأخر ، وأن مرض السكر قديم ولم يعالج منذ بدئه ، عادوا بها إلى جهينة ، لم يطل الأمر ، إذ شاء القدير على كل شيء ألا يطيل عذابها .

قبل آذان الفجر استرد صاحب الأمانة وديعته ، فضت راضية مرضية ، لم تصرخ ، لم تلطم ، إنما انقضبت ملاحظها ، وضمر وجهها ، قالت بحس مكتوم وقعه أشد وأنكى من الزعيق والصراخ : آه يا أمى ، وبقيت فى بهت إلى ما بعد العصر ، حتى رجاها الوالد أن تبكى ، أن تلطم ، أن تشق ثيابها حتى ، وردد ما يمكن قوله عن قضاء الله ، والموت الحق على كل إنسان ، صحيح أن الفراق صعب ، لكنه قدر لا قبل لنا به ، ولا قدرة على رده ، ومن شاء غير ذلك يكون كافرا .

بقيت صامته ، التصق بها أصلى ، أدرك أن أمرا ثقيلا قد وقع ، وأنها المرة الأولى التى يواجه فيها مثل ذلك ، أيقن أنه لن يرى جدته مرة أخرى ، لن يستمع إليها أبدا ، وكما لزمته أمه الصمت ، سكت هو ، فى الليل بكى الأم ، اهتز جسدها وكان نشيجها خافتا ، مرا ، وفى الصباح بدت عيناها محقتان ، مغيومتان ، غير أنها أعدت الشاى ، وأصرت على ذهاب أحمد إلى شغله . فوق هذا السطح ، فى قعدتها وفى عمق وحدتها أغفت ، جاءها والدها فى المنام ، مرتديا البياض ، بدا كما هو ، تماما كيوم خروجه ملييا نداء الجمال ، لامس ذقنها بأطراف أصابعه ، طمأنها ، قال إن أمها فى أحسن حال ، وأوصاها ألا تبكى فالبكاء يؤلم الميت ، يؤذيه ، ويقلقل مضجعه الأبدى ، ولتقرأ لها فاتحة الكتاب الشريف ترحما عليها مساء كل جمعة ، لتذكرها بالخير أمام أولادها ، ولتذكر أن الدنيا لا تدوم ، قال ما قال ثم اختفى فى هذا الموضع قرب الجهة الشرقية كانت تجلس صباح يوم بعيد ترتق

ثوبا ، على مقربة منها اسماعيل وجمال يطل إلى الجهة الغربية ، عندما طنت حولها ذبابة غريبة ، زرقاء الجناحين كأنها صيغا من ضوء شفيف ، رفعت أصبعها ملامسة فيها محذرة ، يجب الصمت ، الكف عن النطق ، خشعت ، دارت الذبابة مرات حولها ، حطت على كتفها ، ثم ارتفعت مولية ، بقيت ساكنة تترقب فلما أيقنت من نأياها ، من ذهابها ، قالت : إنها روح جدتكما جاءت لتزورنا ! .

بالضبط كان ذلك في هذا الموضع ، إنها تنزل الدرج ، تحمل حقيبة ، تولى ظهرها لعمراً ، لن تصعبه مرة أخرى ، فلم تعد إلى السطح أبدا ولن تصافح جاريتها ، توغل في النزول ، منتقلة من طور إلى طور ، من زمن إلى زمن من مكان إلى آخر ، ومنذ هذه اللحظة رضيت ونفرت ابتعدت واقتربت ، تقلبت في أمور شتى ، تعاقبت عليها مشاعر لا حصر لها ، ونزلت مساكن شتى ، وكل سكن وعاء لزمن ، اكتسبت كافة ما مر به أصلي ، وهو غزير ، غريب . لكم كان بودى أن أطلعكم على المراحل كلها ، أن أقف بكم عند كل محط ومستقر ، لكن مع اكتمال الغروب ضاعت ملامح الجهة الغربية ، ونوديت أن أولى شطر مشارف المهجير الأعظم ، أمر صدر ، وكان على أن أمثل ، كما أنني نهيت عن التصريح ، وأن أبقى مادونته تحت عنوان «السراير والقول» مكتما ، أن أصونه حتى يحىء الإذن ويلوح التصريح ، فأظهره ، وأشهر تفاصيله ، وأنشر ماحواه من أحداث وأحوال متى تلوح البشارة ؟ هذا ما أجهله الآن ، وإن كنت ملما بأن على الإنسان أن يعلم الكثير حتى يدرك أنه لا يعلم ، أما الآن فإننى مأمور بالولوج إلى حال الوداع ، يتقدمنى مرشدى الذى نهيت عن التصريح بهويته ، والوداع حال عزيز ، وعر صعب الاقتراب منه كذا الخروج عنه ، قدم لى على ما عداه ، وعندى لاحت لى منه بشائر الهداية ، واقتربت الذات من

الذات ، فيه اتضحت نيتي ، وللنية في الأمور سلطان عظيم ، مثل المسافر الذي
يرد لمدينة ويبقى مدة ، فإنه لا يصير مقيماً ما لم ينو الإقامة ، وإذا نوى صار
مقيماً ، ومع ادراكى هذا عرفت أيضاً أن كل ما هو عابر لا يبقى ..

* * *

حَالُ الْوَدَاعِ

«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ»

(قرآن کریم)

.. صال على زمني ، وكرت أياي ، فاستدلت الأمور إلى أصولها ، ودنت
الغصون الأفاصي من جذوعها ، قال الشيخ الأكبر ، ما أن التقى طرفا الدائرة
حتى حدث المحيط . إذ يكتمل فإنما يدل على نقطة الدائرة التي أوجدها ،
فالمحيط يحفظ النقطة علما ، والنقطة تمفظه وجودا ، أمي كانت المحيط ، وأنا
بمترلة النقطة .. الإجابة فرع من السؤال ، والسؤال عويص ، منتهى الدائرة
نقطة بدتها ، ينطف الأول على الآخر ليتلاشى كل منهما ، فما حار أهل الحيرة
سدى ، أمر عظيم ، وخطب جسيم ، المشهد عام ، والوجود طام ، الحكم
نافذ ، أما اللحظة فحرجة .

هكذا ولجت الحال لحظة خروجي من باب البيت ، يرزؤني ثقل غير مرئي ،
قطعت الطريق الطويل غير مصدق ، عند دنوي تطلعت عبر النافذة إلى شرفة
صاحبي ، يوسف ، رأيته واقفا ، مرتديا حلته ، أم عياله ترتدى السواد ،
ياسواد لباب حظي ، هذا نهار المحنة لم يزل بعد في بدايته ، وقوفها علامة ،
طاف عندي خاطر ضعيف ، لعلها لم تتم بعد ، لعل الترع قائم ، وجهها مستسلم
هادئ ، طريح ، أنا الذي لم أعتد رؤيتها هاجمة ، لعل ظلال الأنفاس
باقية ، مترددة ، فيتاح تبادل عبارة ، أو مجاوبتها بنظرة ، ذاك حسبي ا .
يلقاني جار قريب ، أوأجهه منحنيا ، مثقلا بما لا يدرك ولا يرى ، بوصيفي

بالصبر والشدة ، أذن .. يترسخ اليقين ، أصعد السلم مستنلا إلى الجدار ، هذه الدرجات نزلتها منذ عشر ساعات ؛ عندما جثتها مصطحبا عيالي مودعا ، إذ يجب على الرحيل فجر اليوم التالي ، يصل إلى مسمعى بكاء مكوم ، نشيج متصل ، وبرغم اتشاحه بالجوى الملوع أتعرف على نجيب أختي ، تنادى أمانا أن تقوم ، أن تهض ، أن ترد عليها كما كانت ترد ، أمانا التي لم تتأخر عنا ، تسمى منا وإليتنا ، ترجوها ألا تطيل رقادها هذا ، لقد طلع النهار ، وهي لم تقابل النهار نائمة أبدا .

باب المسكن مفتوح ، كأنه لم يعلق أبدا ، مباح للموت ، أجتازه ، أعبره إلى داخل خلا منها ولم يخل بعد ، هي هنا وليست هنا ، وجود ولا وجود ، وهذا أشق ما يواجهه إنسان .

من عويل شقيقتي ، من قعدة جاررتنا فوق الأريكة داخل الغرفة التي بقيت تخصني حتى بعد انتقالى إلى بيتي الجديد ، تتمدد في الموضع عينه الذي أشغله كلما جثت ، فوق سريري ، أتجه إلى الشرقة ، أخشى لحظة المواجهة واليقين فأرجئها ، أميل إلى الجدار ، يهمس القوم ، تجلد ، أنت الأخ الأكبر ، أخوك مريض ، أما أختك فتوشك أن تنفطر ، إنها تقعى بجوار السرير ، تشب أظافرها في جلباب أمانا المهاجرة من هذا الكون ، نوال تأبى الحركة قيد أنملة منذ تمام الأمر وأنقضاء الأجل ، أما اسماعيل فيفصله عنا بباب شاسع ، أنه هناك ، انقضى على سفره أربعة شهور ، يطلب العلم في الطرف الآخر من المحيط الأعظم ، باق على عودته ثلاثة شهور ، جثت إليه مودعا ليلة سفره ، لقيته مضطربا ، يشكو وجع المعدة ، رأيت الأم معصوبة بحزن عتيق لا يبدو إلا في أوقات الشدة ، إنها ضنينة بأوجاعها .

قالت لى : إن اسماعيل مريض ، وأمامه سفر طويل ، تطلعت إليها ،

أدرت كم تعانى لتحجج ، والكتان خصلة قديمة معها ، منذ وحدتها فى
جهينة قبل أن يصحبها أبى إلى مصر ، فى تتبعها لأحوالنا ، واحتفاظها بأحزانها
لفراقنا ونأينا عنها ، وسكوتها عن فعالنا ، عدا إبدائها اللوم من بعيد ، وقعه على
أثقل من تصرحها ، قطعت رحلتها ساعة لأرضائنا ، وبث الطمأنينة عندنا ،
وذّب المكاره عنا ، وهنا أمر بطول شرحه ، غير أننى أكتفى بالإشارة ، ليس عن
ترفع إنما عن عجز .

فى ليالى سهري المنفضية ، المباداة ، أيام تحصيلى الدرس ، أو عند بدء
المجاهدة لأعلم مالم أعلم ، لم تكن تغفو أبدا ، تقعد على مقربة ، تشارك بالحضور
والصمت ، حتى إذا تمكن منها تعب ، ومال رأسها مثقلا ، مرغما ، فإنها تفيق
فجأة ، تفتح عينها دهشة ، تحملق مبتسمة ، تؤكد بلفظ موجز ، دال ، « أنا
صاحبة » ثم تأوى إلى سكون شديد ، على شفتها نبا بابتسامة ، فأى الصور أى
البواعث ، أى الصور والأفكار أى ؟ ، يا حرقرة السؤال الذى لن يلقى إجابة
أبدا .

قالت يوما لأم عيالى : عندما كنت أنه على جمال ولا يجيبنى ، أعرف أنه
مشغول ، مستغرق ، فلا أكرر النداء ، أما سعيها وكدها زمن العسر والمشقة ،
فلا يمكن الإحاطة به ، أمى التى قضت زمتا مددا تجهل الدروب والشوارع
وانعطافات النواصي ، لا تخرج إلا بصحبة أبى ، عرفت الطريق إلى عبد الهادى
البقال ، إلى باعة الخضر ، إلى جزار تخصص فى بيع لحم الأبل رخيص السعر ،
تلتف بملاءتها السوداء ، تلتف حولها حذرة ، تعبر مسرعة ، ساعة فى الزحام
ما أنا إلا امتدادها ، فأنا منها ، وهى منى ، ذلك حشر علينا يسير .

حدثنى الكاملة التى تم سعيها ، التى خلفت آثارا صعب على عيون الغرياء
تبينها ، حدثنى فقالت : « خرج أبوك يوما متعبا ، حاله ضنكا ، خفت عليه

وخشيت ، فسعت وراءه ، أدركته عند عبد المنعم البقال ، رأيته متهدل الأكتاف ، يرجوه أن يعطيه جينا ويضاً . أن يصبر عليه يومين .. فقط يومان ، يقول له البقال : أبدا لن أبيعك بقرش واحد ، صعب علىّ حال أهلك ، أعلم يا ولدى أن أوعر شيء عند المرأة أن ترى رجلها منكسرا ، أو مهانا ، شدّيت يده ، قلت بصوت مرتفع : تعال يا أحمد .. سيك منه ، يا جمال .. أبوكم ه ، أبوكم ذاق المر ، يومها قلت له أن يبيع السرير ، يمكننا النوم فوق الأرض ، لكن .. لا يمكن أن يقف هذا الموقف أبدا .

قبل سفر إسماعيل رصدت تشاؤمها ، لمحت وجلها ، حزنها الدفين ، لكم بذلت من جهد ، أشد ما تخشاه أن تطفر من عينيها عبرة عند سفر ابن ، هذا نذير تتجنبه ، ألم تودع أمها مبتسمة عند خروجها من جبهة إلى مصر ، مع أنها أخذت ما أخذت ، فكيف تدع إسماعيل ؟ كيف تتركه يرحل وآخر صورها عنده مبللة بالدمع ؟ ، سفره أرقها ، أعمّ خواطرها ، وألقى ظللا على توقعاتها ، وأعمت زمنها الخاص المستعاد بالخميلة ، غير أنها لم تبج .

قالت : أخوك مريض ، أنا قلقة عليه ، أمامه سفر طويل ، صحبته إلى طبيب ، كشف وفحص وأشار بعلاج يسير ، نصح بالسفر ، إنما الأمر اضطراب عصبي وله بالمعدة أعراض ، ودعت إسماعيل ليلة سفره ، وكما يحدث عند الفراق ، يكتشف الإنسان أنه لم يعرف عن كثير ، لم يفصح عن كنه مشاعره ، إن فرصا عديدة ضاعت ، يتمنى لو تأجل الأمر مقدارا هينا يعوض فيه ما فات ، تحل أحزان غامضة ، هذا حال وأنا الأخ الأكبر ، فما البال بحالها هي ، وإسماعيل منها بمنزلة الضياء من العينين ، فهو مؤنسها وصحبها بعد رواجي ، وبعد رحيل الوالد الكريم ، ما بال حالها هي المريضة بداء السكر منذ سبعة عشر عاما ، قبل سفره عانت ما عانت ، دارت بها الأرض ، راحت

تهوى في جب سحيق أسود ، حتى أيقنت أنه الضفاف الساق بالساق ، وأد
الفراق واقع .

كانت وحيدة في ذلك العصر ، تصادف مجيء الجارة الطيبة ، أم محمد ،
بعد افاقتها من غشيتها قصت ما جرى ، وما عن لها من رؤى ، طلبت منها أم
محمد أن تملد .. عصرت ليموتين ، قالت لما لايد من ذهابك إلى طيب كبير .
هنا لايد من وقفة . فهنا حد مسلط على* ، ذلك أتى دخلت عليها يوما ،
زيارة من الزيارات التي كان أصلى يقوم بها ، استقبلتني صامته ، لم تقل لي
ما بها ، كنت أجيئ - مثله - بادي التعب ، ما أرجوه أن أراها بغير ، فيسكن
قلبي ، ويهدأ بالي لراحتي ، وهذا عين الأناية ، ولب انفصالي عنها وعن ذاتي ،
لكنه طبع جبل عليه أصلى ، ليس مني ، لايمت إلى جوهرى العتيق ، وما أنا
إلا مأمور ، مكلف باتباع ما كان عليه أصلى ، ولو رمت إبدال أمر بأمر عسر
ذلك وصعب .

رأيتها ساهمة واجمة ، فلما استفسرت لم تجبني تصرحها ، لم تبادل بالافصاح ،
فن خصالها كتمان ما بها حتى الأوان المواقى ، لاتفاجئ عزيزا بنبا مزعج حال
دخوله عليها ، إنما تنتظر ، وشيئا فشيئا تبوح حلرة ، خشية منها وحرصا ، لم
يغب عنى يومئذ سكوتها ، وتشقق نظراتها ، إذن .. ثمة أمر تحجبه ، لم يرث
أصلى هذا عنها ، لم يتقل إليه ، إذ كان يبدى ما عنده حال رؤيته لها ، لا يبق
على أمر ولو لحظة ، لا يلفظه على حاله ، إنما يضخمه ، فتبدى الجزع
وتصغى ، تعطف وتحنو ، تبذل الجهد الأتم لتخفف وتضمد .

سددت إليها البصر أثناء تناولى طعامى ، لم تنثنى الى* ، لم تلتفت ، هى التي
تشبه بمجرد تطلعنى إليها حتى إذا كانت مولية الوجه والبصر بعيدا عنى ، خفت

فتساءلت ، التفتت اليّ ، قالت باختصار :

« ياريت تشوف لي دكتور كويس يا جمال .. »

قالت إن علاج المستشفى لم يعد كافيا ، لا تلقى الإهتمام ، سكتت مقدار لحظة ، قالت :

« والله ، افكرت نفسي راح أموت يوم الخميس ... »

قصت عليّ ما جرى ، غير أنها خفت الوقع ، انصرفت مهموما ، وعندما ابتعدت عن البيت استعدت عناقها لي ، ضممتها الأمومية ، مضيت إلى المقهى ، قلت لواحد من أقرب الخلق اليّ ما أخبرتني به ، حكيت عن لهجتها المختصرة الدالة ، المشوية بندير ، قال منها ، ناصحا :

« جمال .. لا تهمل أملك .. »

استفسرت عن اسم طيب كبير ، ذكر كل منهم اسما ، معددا فضائله ، بعد أيام ثلاثة جتتها ، لم أكن بعد قد اتصلت بالطيب ، حال دخولي عليها ، سألت :

« حجرت لي ؟ »

« أين ؟ »

قالت :

« عند طيب .. »

قلت :

« الليلة سوف .. »

قاطعتني معاتبة ، وفي الصوت مرارة :

« ألم أقل لك ، ألم أطلب منك ... »

هذا أقصى غضبها ، وأصعب عتابها ، تلك نخية أملها ، كل في ذروته ،

في أوجه ، وأنا بمتزلة البليد ، الصدى ، لماذا لم أفعل ؟ لماذا أجلت ؟ أو مثل ذلك يحتمل الإرجاء ؟ .

قالت بعد لحظات :

« على أية حال .. اسماعيل ذهب بي إلى طبيب في مصر الجديدة .. »
عندئذ مر بي ما كان سيشره أصلي ، راحة وانزياح ثقل لأن شقيقه قام بما
وجب عليه هو ، وإن بقيت خجلا ، أحميد بعيني وأناى بنظرانى .

فيا بعد قصت على بعضا من أبناء هذا الطبيب ، كيف يلقاها ؟ ترحيه بها ،
يثاره لها ، أمره بدخولها عليه فور وصولها ، كان يقول لها إنها تذكره بأمه ، ليس
في الهيئة ، لكن في الجوهر ، قبل سفر إسماعيل قالت لي إن الدوار البغيض فاجأها
أثناء تأهبها للصعود إلى العيادة ، تيمت أرضها ، واضطربت موجوداتها .

قال :

« والله يا جمال أنا خائفة .. »

فيا بعد ، فيما تلا اكتمال المحنة ، حدثتني شقيقتي ، وقد كانت أقربنا إلى
الكاملة ، أختي التي يتردد عويلها الآن في مسمى ، قالت : رأيت أمنا صباح
يوم بعيد ساهمة ، كمدة ، قلت : ماذا بك ؟ لم تفض إلى ، إنما هونت بإشارة
من يدها ، لاشيء ، غير أني ألححت ، فأفضت إلى بما أعمت وجودها ،
قالت إنها رأت المرحومة عائشة - قريبة لها - في المنام تبسم وتدعوها أن تجيء ،
أن تأتي ، ألا تهاب ، فخطت نحوها ، لامانع يوقفها أويردها . قلت لها ، دعك
يا أمي من الأحلام إنما هي هواجس ، ومادمت قد أفضيت بها ، فهذا يعنى
مساد أثرها ، تطلمت إلى ، لم تجب ، قالت نوال أختي : كانت نذرا تلوح
وبوارق تومض لكننا لم ننتبه ! .

عندما سافر إسماعيل لم تقل له أن قلبها ينبئها إنها لن تراه مرة أخرى ، وأنه

سيرجع فلن يلقاها ، إنها سترحل قبل عودته ، لم تصرح ، ولم يطلعها أنه أدرك
جواها ، فسبحان علام الغيوب ، ودعته بقلب منقطر ، وفؤاد ملتاغ ، غير أنها
كتمت فلم تبوح ، سلت إبتسامة من أغوارها لتواجهه بها ؛ يجب أن يتذكرها
مبتسمة ، إنه ماض إلى اغتراب ، ويا .. عالم متى يلتقي الحى بالحى ؟ فأى أرزاء
ناء بها قلبها أى ! .

ماذا رأيت من المراثيات عند خروجه ؟ كيف توالدت دقات قلبها ، كيف شعجا
فؤادها عندما وصل زميله ليصحبه إلى مطار الاقلاع ؟ كيف ترددت أنفاسها
عندما اختفت السيارة من مجال بصرها ، عندما غاب عنها اسماعيل ، عندما
غربت بالنسبة له وهى لم تزال به تسعى ، عندما انقلبت إلى عدم وهى بعد
باقية ، كيف ؟ ، هذا ما لن أعلمه أبدا ، هذا ما توارى ، ما انطبقت عليه
الغياهب ، بيانه مجهول ، غامض عندى ، مستعصى الكنه على ، وعر
الإدراك ، ذلك أنتى تقاعست ، فلم أودع اسماعيل ، تحججت برحيله مبكرا ،
ومتزل اقامتى البعيد .

فى اليوم نفسه جئت إليها ، أعرف قسوة نهارها ، فليس أطول ولا أثقل من
يوم الفراق ، بادرتنى باللوم على غير عاداتها :

« ليه ماجيتش الصبح لتسلم على اسماعيل ! »

تعثر نطقى ، قلت شيئا عن بعد المسافة ، وشيئا عن الوقت المبكر ، ثم
حدثت عن الحجرى ، فقلت : لا تحزننى على سفر اسماعيل ، تقبليه بقلب راض
سيرى الدنيا ، تعرفين أنه تعب ، مرهق ، وأن فرص سفره قليلة ، هذه الشهور
ستفرج عنه ، ادعى له بالسلامة . أومأت واجمة ، وعندما حان انصرافى قبلتها
بودعا ، إذ كنت على سفر فى اليوم التالى ، سفرى لأيام ، ورحيله لشهور ،
سفرى متكرر ، معتاد ، أما غربته فغير مألوفة لها ، ثم إنه هو المقيم بقربها ، خلا

علمها منا ، إسماعيل وأنا ، لا يمكنني معرفة كنه الأيام الأولى بعد أن خوى البيت ، بعد أن صار انتظارها عقيبا ، لا ينتهى بوصول من تحب ، الثالثة ظهرا تدنو ، وإسماعيل ناء ، الطريق قفر ، ممتد ، ولا أمل في ظهوره بين العابرين ، عيناها لن تقعا على من تبغى رؤيته وتمنى قربه .

حدثني أختي: بعد أن وقعت الواقعة ، كأنها تكلم نفسها ، أنها لمحت الغالية تفتح صوان الملابس يوما ، تقلب هدموم إسماعيل ، تنفض الغبار عنها ، تعدل وضعها ، تقربها من شفتيها ، تتحسس رائحتها بأنفها ، ثم تنفض عينيها ، تلف وجهها بقميصه ، تنسم رائحته ، فهل كانت تدرى أنها لن تراه ، وأنه لن يراها أبدا ؟ وأنها عندما ودعته صباح ذلك اليوم البعيد من شهر مارس أنها كانت تبدأ وداع الأقربين ؟ قالت نوال إنها كانت تنفض فراشه صباح كل يوم ، تنظف حاجاته ، ترتب كنبه ، وأوراقه ، وعلبه الصغيرة التي تحوى أسلاكها ومفاتيح دقاقا يستعين بها في عمله ، ومصباحا يدويا ، وزجاجة عطر ، وفرشاة حلاقة ، ومنفضة صغيرة من بلاستيك أعتاد.نش الذباب بها ، تنظف اطارات صورته ، كأنه سيرجع في موعده ، تماما .. في الثالثة ، أو الثالثة وبضع دقائق إن تأخر . في الليل تمر بفرشته تماما .. كما كانت تطمئن عليه بعد نومه واستغراقه أحيانا يعكم الفراغ قلبها فتولى داعية خالقها ، من بيده الأمر ، ألا يجرمها من طلته أبدا ، تتناول طعامها في الوقت الذي اعتادته في وجوده حوالى الرابعة بعد أن يكون قد فرغ هو ، وفي مطلع النهار تدلى السلة ليضع البائع الصحف التي اعتاد قراءتها ، أما أقسى أيامها فعطلات أيام الجمع الأسبوعية ، كان يتأخر في نومه ، لا توقظه مبكرا ، كانت تجد الوقت والفرصة لتتحدث إليه ، لتفضي هي وليصغى هو ، في هذه الأيام التي بدت لها باردة ، جوفاء ، تجلس في الصلاة صامتا ، راحلة بفكرها في ثباتها ، مطرقة ، وإذ يفيض بها الشجن ، وتشتد

عليها أنواء الوحشة ترفع رأسها متهددة متسائلة :

« يا ترى .. أنت فين يا اسماعيل يا ولدى ! »

فأى الصور؟ أى الأفكار؟ أى خلجات؟ أى أحاسيس؟ أى بوادى؟ أى
هواجم؟ أى شوق؟ أى توق؟ أى خوف؟ أى رجاء؟ أى مواقف متوالية
انبعثت فجأة ثم ولت؟ أى روائح عتيقة مرقت؟ أى خواطر لم تلفظ؟ وكم من
حال - أرخى عليه العدم سدوله - فاض به وضح هذا الجنان الذى سكن ،
الذى همد ، الذى بدأ اقلاعه صوب الفناء والأبد ، محتويا رحما كان محل
تكوينى ومبعث نشأى ، أول موطن لى ، لا يتقلب ، لا يتهدج ، لا يملك من
أمره شيئا ، موجود وغير موجود ، فما أمر اللحظة ، وما أوعر الخطوة؟ إني
مضطرب ، منقلب .. أقوم ، أنقل خطى بطيئة صعب جرها ، أولى وجهى تجاه
الحجرة ، على الأريكة تقعد جارتنا الجنوبية ، الطيبة ، بجوار السرير تقمى
نوال ، ربنا لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، أعوذ بك من
كآبة المنظر ، وسوء المنقلب ، وعناء السفر ، ربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به .
تقول الجارة :

« نوال تأبى الابتعاد عنها .. هذا حالها منذ الفجر .. »

أدنو ، اقترب ، ألمس كفها ، تقول الجارة :

« دعوه ينظر إليها .. »

ممدة هى ، مغطاة كلها بملاءة ثقيلة ، المرة الأولى التى أراك فيها نائمة
اقترب فلا تتبهين ، أدنو فلا تهضين وعلى وجهك ابتسامة تخففين بها عنى وزر
ازعاجك واغلاق نومك ، ازيج الملاءة ، أتطلع إلى العمر الذى تم ، إلى أصلى
الذى ذوى ، إلى جذرى الذى يبس وجف ، إلى أول المحط ومنتهاه إلى بداية
الدائرة وآخرها ، تغيرت ملامح كان عهدى بها طويلا ، غير التزع الشديد

القسمات ، هذا عناء ، هذه مجاهدة ، العينان مغلقتان إلى أبد آبد ، والفم مزمووم بعد أن حاول دفع مالا يمكن دفعه ، ونطق مالا يمكن نطقه ، اليد مثنية ، والزيد الأبيض لم يحف بعد عند الشفة السفلى ، فأى ألم اجتاح الكيان الذى لم يعش إلا ليحنو ، ولم يسع إلا ليشفق .

الوشم الباهت يتوسط الذقن ، أما الشعر فرمادى ، معظمه أشيب ، المرة الأولى التى أراه فيها هى آخر مرة ، دائبا كانت تغطى الرأس بعصابة ، لم أرها حاسرة قط إلا فى هذه اللحظات النهائية ، كنت مأخوذا عنى ، غير أن أشياء كثيرة انحسرت لا يسعنى إيرادها بتفاصيلها ، فى هذه اللحظة أدركت تمام الرحلة ، وانقضاء الشوط ، غير أن الأمر لم يكن عبثا ، لم يكن بددا ، إني أقف شاهدا على رقدة ما بعد المجاهدة التى أثمرت وأعطت ، وتفرغت فى الكون سبلا شتى .

عند هذه اللحظة تمت المصالحة ، تم الدمج ، تم الحلول فى الحلول ، لم يعد بإمكانى القول أنها أم أصلى ، إنها أمى أنا ، جمال أنا ، وأنا هو ، لم يعد فى ناحية وأنا فى ناحية ، أمامها تمت المصالحة ، هى التى ولت ، هى التى لم تعد تترى ، ولا تصغى إلى صاحب أو قريب حميم ، التقى المسعى بالسعى ، غير أن هذا تم بعد فوات الأوان ، وهنا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، صعب بيانه ، ربما أفضت فى شرحه إذا سمح الدهر وإذن لى بتدوين السرائر التى لم أفصح عنها والمحاطبات التى سكت عنها عمرا .

على مهل ، بدون قصد ملت على الجبين والوجه الذى تثاررت عليه بقع خضراء ، آثار الترع الوعر ، فاذا جنت ، وأى ذنب أتت حتى يكون تمامها مؤلما ، فظا ، قبلت الجبين الذى همدت حرارته ، وطويت ببصرى الملامح التى انطفت ، والوجه المكسود ، الذى تقلصت ملامحه ، بين السماء والطارق .

على مهل سحبت الملائة الثقيلة ، ورأيت العمر الذى ولى كشهاب ثاقب ،
قيظ يوليو يشتد ، والنهار يتقدم وثيدا ، بطيئا خرجت من الحجرة ، هنا فى هذا
المكان ، بجوار تلك المنضدة كانت تجلس منذ ساعات ، أو الليل الفائت عندما
جئتها لأسلم وأودع قبل سفر كان مقدرا له أن يبدأ بعد ساعات ، ومن عادق إذا
شرعت فى الرحيل ، إلى خارج الوطن أو داخله ، أن أجيء فأسلم ، وأودع ،
أتم ذلك فى اليوم الذى يسبق سفرى مباشرة ، فانظروا يا صاحب إلى التدبير
المحكم فى الكون ، ذلك أنتى قضيت يوم الجمعة بصحبة عيالى وأضمرت العزم
والنية على الذهاب إلى أمى غداة السبت للسلام ، قبل دنو الأصيل اتصل بي
صاحب لى من أرض الحجاز ، قال إنه فى زيارة عابرة وأنه ماض من بلد إلى
بلد ، يود لو رآنى ، حددنا للقاءنا موعدا قبل الغروب ، توجهت بالسؤال إلى
امراتى ، أن تصحبنى مع عيالى ، نمر بالصاحب ، لن أتأخر بصحبتة إلا دقائق
معلودات ، ثم نمضى إلى أمى ، أراها وترانى ، أودعها وتودعنى ، ثم ان
ذهابى إليها بصحبة محمد ابنى وماجدة ابنتى أحسن وقعا عندها من ذهابى
بمفردى غدا ، فلکم تحب رؤياهم ، وتحرص على إبقائهم .

منذ عشرة أيام - وقتئذ لم أكن أدرى أن العمر بقى منه عشرة لاغير - كان
من المفروض أن أصحبهم إليها ، غير أننى خرجت مبكرا بمفردى إلى اجتماع
يخص سفرى هذا ، مضيت وحيدا إليها ، ولما دخلت رأيتهما تجلس فوق
الأرض ، تعد باذنجانا أبيض محشوا يحبه ولدى حبا جما ويطلبه منها عند مجيئه
إليها ، تساءلت :

« آمال فىن الأولاد ؟ .. »

تضمن صوتها لوما ومرارة رحمت أبلدى أعذارا شتى ، دخلت الغرفة ،
لامست الموضع الذى تتمدد فوقه الآن ، جف قلبى فجأة ، سؤالها عنهم فيه

حدة لم أعتدها منها ، لوحت بيدها غاضبة ، نافثة آهة حزن ، لم تخف ، لم تدار ضيقها ، حتى إنها تبعتنى ، ولامتنى ، وأبدت الغضب ، مما دفع بالخرج والحيرة عندى ، فقلت مخاطبا شقيقى :

«يظهر أن أمى غاضبة على أكثر من أى مرة ، سأنصرف وأرجع بعد أن تهلمأ ...»

كنت ألوح بما لن تقبله ، بل أهدد بما أعلم ردة فعلها عليه ، بما لن ترضى به ، وكما توقعت ، عادت إليّ ، اقتربت منى ، وانخنت حتى كاد وجهها يلامس وجهى ..

«لما ترعل منى يا جمال يا ولدى .. كان نفسى أشوف ماجدة ومحمد .. أصلهم وحشونى ...» .

لماذا تكاسمت ، لماذا تقاعست عن صحبتها ، لماذا ؟ لماذا حلت بينها وبين أمر بسيط ، كان سيرضيها ، ويهدئ خاطرها ، لماذا ؟ هذا ما فات أوان استئذراكه ، ما لفت نظرى غضبها منى ذلك اليوم ، وأن تظهر ما أظهرت فهذا يعنى أن بداخلها أضعافا مضاعفة ، فأى الأمور وارتها ولم تعلنها أبدا ، هذا ما ضاع منى إلى أبد ا ، وسبحان من ألمنى صحبة ولدى مغرب هذه الجمعة ، أهو وحى خفى بحكم نشأتى القديمة ، أو بحكم طورى الجديد؟ ، لم تكن المصالحة قد تمت بعد ، فإلى أيها يمت الخاطر الطيب ، الذى جعلنى أصحب عائلتى ، وأمضى لأسلم وأودع وداعا لم أدر أنه الأخير ، عندما رأيتها تقف بالمدخل كان النظر القصير يكشف لى أن ما تبقى على سفرى ست وثلاثين ساعة ، ولكننى كنت جاهلا بالموضع الذى ستكون فيه مساء الغد ، ليت الإنسان يعلم بما ليس يدرى ، أنت بما عندها من مشروب طيب وفاكهة ، ولما أبدت زوجتى رغبتها فى شرب فتجان من القهوة ، أسرعته لها ، لم نتكلم إلا

قليلا ، طوال الوقت تسند اوجنتها إلى راحتها ، توزع النظر بيننا ، وأى نظر؟
أى نظر؟ كانت بالجانب الغربي وما كنا بالعلمين ، كان يدنو بها العمر ونحن
جهال لا نعي الإشارة التي تنطوى عليها هذه النظرة ، لم يتوقف الحاضر أمام
طبيعتها وكنهها وسرها اللذين ، والنبوءة ، والمعنى الذي يعز فهمه ، وإن أثار
عندي رجعا بعيدا وأصداء استعصى على تفسيرها ، أطالت التحديق شأن من
يتروذ بروى لن تقع عليها عينيه قط ، أو من توقن بإقلاع وشيك لا آيا من ولا
عودة فتسمى إلى التروذ قدر الاستطاعة بلامح الأحبة الأقرين ، تقف عند نهاية
عمر أشرف على الغمام ، غمرها الشوق ، فانبعثت ترنو إلى الأم ، حدثني امرأتى
فيما بعد فقالت : كلما تذكرت سلامها علينا بنظراتها ، وطواف عينها بنا
واحد ، واحدا ، تذكرني رجفة ، كيف لم ندرك ، كيف لم نفهم ؟ .

عند هذه النظرة وقفة ، واطلالة ، ومحاولة تلمس ، فالمانع عديدة وليست
مفردة ، أدق وأرق من أن تلمح ، مستعصية على الرصد ، غير أنني باذل جل
الجهد للمحاولة ، أقول إنها حوت الدعة والركة والسلام الأبدى ، سلام يحل
بمن يشعر أنه صار قاب قوسين أو أدنى ، فيها الوعي بالفراغ من أمر هذا الكون
المرثى ، فما من تبدل بعد ، ما من تغير ، ما من غضب آت ، أو ضغينة يجملها
المراء أو يضمها له غير مترصد ، سلام أبدى فيه بيان للناس ، هذا من
جانب ، ومن جانب آخر فيها الأسى على ما لم يتحقق ، والحسرة لفراق
الأحبة ، والقلق الممض على ما يستظرهم وخشية المجهول ! .

ربما يصح قولى هذا ، وقد لا يصح ، غير أن ما أقوله أنا جمال ابنتها ووالد
حفيدتها ، أن تلك النظرة استقرت عندي في قرار مكين ، اختصرت ما
عداها ، دخلت غرفة شقيقى الغائب ، قلت إني تعب ، قالت : لا تتعب
نفسك يا جمال ، وهون من الأمر ، ثم قالت : خذ بالك من نفسك ، لم أدر

أنها تقول آخر وصاياها ، أتى لى العلم ؟ عندما دنا الحين ، قلت إن طريقنا طويل ، والليل يوغل ، وأنا سنخرج على حسن صاحبي الذى جاء من بلاد نائية حيث يعمل ويقيم ، وأنا على سفر ، سأرجع فلا ألقاه ، ما من فرصة متاحة لرؤيته إلا الليلة ، ودعتنا ، صافحت وسلمت وعانقتنا ، ضممتها إلى ، حتى نفلت رائحة شعرها إلى أنفى ، قبلت رأسها ، حتى أنها قالت لشقيقى بعد انصرافى : « جمال سلم علىّ واحضنى بشدة .. أرجمه الله سالماً . لوحت لها من الطريق ، نفس الموضع الذى رأيت منه أبى من قبل ، تلك الجمعة الأخيرة ، عندما دارت العربة مبتعدة ، تذكرت فجأة دواء الضغط ، طال يحثى عنه حتى عثرت عليه فى الصيدلية القريبة من عملى ، دواء شحيح فى الأسواق ، قلت لزوجتى ارجعى ، نسيت الدواء معى ، وقفت تحت الشرفة ، صحت مناديا ، أطلت ، طلبت منها أن تدلى السلة لأضع فيها الدواء ، رأيت يديها مرفوعتين ممسكتين بالسلة ، صحت بعد أن وضعت الدواء :

« ارفعيها يا أمى .. »

جاءنى صوتها ..

« مع السلامة يا جمال .. »

ثم جاءنى مرة ثانية :

« مع السلامة .. »

ثم وصل سمعى لآخر مرة :

« مع السلامة يا جمال .. »

هذا آخر عهدى ، ومنقطى ، وبختم سماعى لصوتها .

ركبت العربة ، أتى لى أن أعرف أن شمس اليوم التالى لن تطلع عليها ، أتى لى النفاذ إلى ما ستجىء به الساعات القادمة ؟ . آه .. ليت الجاهل يعلم بما

ليس يدري . أنى لي ذلك ؟.

زرت صاحبي ، انصرفنا ، سلكتنا الطريق ، تمددت فوق الفراش متعبا ، على أن استيقظ مبكرا ، ثمة أمور يجب أن أقضيها في الغد ، رحت في النوم مقدار ساعة ، أو ساعتين ، صحوت على نداء زوجتي ، ما بين الإغفاء واليقظة سمعتها تقول إن بنتا اسمها منى تحدثت ، وقالت إن شقيقى على سوف يتصل ، تساءلت ، من منى هذه ؟ من ؟ غير أن توجست ، أدت قرص الهاتف ، أيقظت يوسف صاحبي ، من قدر له أن يشهد رحيل أبى ، تساءلت : أئمة أمر غير عادى في البيت ؟ قال إنه لا يدري ، طلب أن أمهله حتى يطل من الشرفة ، إذ يمكنه رؤية النوافذ الخلفية ، عاد ليخبرنى أن النور مضاء ، ثم قال إنه سيتزل إلى هناك ليستطلع الأمر ، وضعت الساعة وقد بدأ انحنائى ، رن الجرس ، جاعنى صوت شقيقى ، قال إن أمنا تعب ، وأن الطيب جاء ، وقال إن النبض ضعيف ، قلت : انقلوها إلى المستشفى القريب ، وإبنى لقادم . إذ صمت الليل في مسمعى ، قلت لامراتى : « أمى ماتت » ، ثم قلت « أمى ماتت » ، ما من خبير يقين ، لكن حدسى أكد لي وقوع الواقعة التى ليس لها كاشفة ، نطقت بدون حذر ، لم أتردد في التصريح بالموت .

في الطريق والفجر مقرب كنت أميل إلى الأمام ، كأنى أحاول تلمس مدى أوسع للرؤية ، ماذا جرى ؟ ، لماذا يكون موتنا دائما عند الفجر ، لماذا نفارق العالم فجأة ، هكذا رحل أبى ، وهكذا أمى ، عندما تسارعت أنفاسها ، وارتفع الشخير ذو النذير ، راحت تتطلع إلى نوال أختى وعلى أخى ، وجاراتنا اللاتي جئن في هذا المزيج الليلي ، تبسط يدها ، تصارع قوى غامضة ، لانراها ، لانعرف كنهها ، وعندما برز لسانها قليلا أمكنها التفوه بكلمتين ، « هاتوا لي جمال .. » ، ثم أغمضت العينين وانقلبت متمددة فوق السرير ،

وجيها إلى الجدار ، منية الرحلة ، محتمة السفر ، وإنا لمنقلبون كما انقلب .
هذا أنا أجزر خطاي ، الباب مازال مفتوحا ، المقاعد مضطربة ، فوق
أحدها طرحة أمي ، كل ما وضعته في مكانه حتى ليلة الأمس باق حتى تعلمه
الأيلى ويتروى فلا يراه إنسان أبدا ، صعدت السلم إلى مسكن الجارة حيث
الهاتف ، أدت القرص ، لابد من الاتصال بأقاربي الذين استضافوا جمان
والدى في مقبرتهم ، هاتف كبيرهم عوض لا يرد ، أدت رقما آخر لشقيقه
الأصغر الذى يسكن بعيدا عنه ، جاعنى صوته مثقلا بالنوم ، قال إن هاتف
الحاج عوض معطل ، فاعتذرت ، أدت قرص صاحب لى من الأقربين ساعيا
إلى المدد ، لكنه لم يجبنى ، نزلت الدرج .

تروح شقيقى ، تؤكد أنها نائمة ، وأنها سوف تجيبها ، وأن ماجرى
كابوس ، ملت عليها ، رجوتها أن تحافظ على أمانا ، أن تساعدنى حتى يكون
رجيلها كريما ، أن تدعها هادئة في رقدتها ، ثم تساءلت : هل تظنن أنها راضية
الآن عما فعلينه ؟ .. لا أظن ! ، بذلت المحاولة حتى فككت يدها عن ثوب
أمي ، ساعدتها على الانتقال إلى الحجرة الأخرى ، باكية نائمة ، والجارات
بصحبتها ، أغلقت الباب ، أمي وحيدة الآن ، كما ستكون بمفردها الليلة ، نائية
عنا ، مطوية طى السجل للكتب ، أما ما يجب مواصلته الآن فتجهيزها
للرحلة ، ومعاونتها على المضي إلى المثوى ، فن سيعينى ، من سيرعانى ؟ ،
وددت كشف وجهها ، ومخاطبتها ، تمنيت أن أقول لها ما لم أقله ، إن ابنتك -
الذى هو أصلى - رحل منذ زمن بعيد ، وأنتك عشت أملا غير قليل ، وأنت
ثكلى ، ولا تدرين ، لعلك تعلمين الآن ، لم تبيكه عند رجيله ، جثتك بدلا
عنه فلم تخاطبى إلا صورته ، ولم تخنى إلا على بديله ، كنت قريبة منى ، وكنت
ناثيا عنك .

جال هذا كاله بذهنى ، غير أنى لم ألفظ كلمة واحدة من مضمون المخاطر .
ذلك أنى أدركت برحيلها ما لم أدركه فى سعتها ، إذ صالحت ذاتى على ذاتى ،
وحللت فى الموضع الذى لا يمكن تحليده ، كى أكون ابنها ، لا يعذبني وعي
أنى لست هو ، ولا يضمنى انها أم غريبة عى ، ولى هذا كاله لكن بعد أن
اكتمل يتنى ، وانقضى الأوان المقدر ، ذلك هو الفتى الأعظم ، فمن
اغتراب إلى اغتراب ، ومن فقد إلى فقد ، ذاك أمرى !

أولى ظهري للبيت الذى سنخرج منه أمى بعد زمن قصير إلى أبد آبد ،
يرفقتنى صاحبي ، وجار طيب أتر ألا يفارقتنى ، سعينا إلى الأقباب ، من
استضافوا أبى فى رقادته الأخيرة ، صباح حار ، والطريق يمر قرب المرقد والخط
الأخير لرحلتها ، بعد قليل ستوارى الجاهدة فى هذه الجهة ولا يكون سعي إليها
من بعد إلا للجابهة الصمت ، والوقوف عند حافة العدم ، فمن الله العون
والعصمة ، فناء لا يجرى عليه التبديل ، وبقاء لا يقبل التغيير ، فلا الفانى يصير
باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقى يصير فانيا حتى يتم القرب !.

أطرق الأبواب المغلقة ، لا أعرف بيت الحاج عوض ، أقصد بيت شاب
أجهل درجة قرابتي منه ، تفتح الباب امرأته الشابة ، ترتدى ثياب النوم ،
مكشوفة الذراعين ، طاللة النهدين ، فتية ، عفية ، ملامحها ولهجتها تنبئ أنها
من البلدة ، كنا لهجتها ، قلت دامعا أن أمى رحلت ، وأنتى أريد الوصول إلى
بيت الحاج ، إنى أجهل الطريق إليه ، تبدى جزعا ، تطلب منى الدخول حتى
توقظ زوجها ، تولى ظهرها لنا ، أعجب وأخجل من تعلق نظرى برد فيها ! ،
ومنطوق جسدها ، أمازلت منفصلا ؟ غير أن واردا هب على فأدمانى ، إذ
ذكرت مجىء أمى من البلدة ، أيامها الأولى فى المدينة ، غير أنها بقيت غريبة ،
لا بيت لها ، ولت هذه الأيام ، قفل عليها ، كذا سعيها فى الأسواق ، ترى

أى يوم جاءت فيه من البلدة؟ أهو سبت كيوم رحيلها اذا؟ أم أحد، أو اثنين؟ أى يوم أى! أبى تُرحل يوم الثلاثاء، فى أى يوم سيكون محتسماً؟ لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، أمى ودعت أبى، وأنا أعيش وداعها، فن سيسى فى أثرى؟ من سيشيعنى، وأى لحظات دامعة سيدكرها ولدى أو ابنتى أو امرأتى إذا لم أقض غربا، وشهدوا ذهابى؟ وعلى أى مشهد سأغمض مقلتى إلى الأبد؟ أى موقف سيرق من الماضى بينا العتمة تهوى على؟

يحيىء الشاب إلى الصالة .

«البيقية فى حياتك ..»

صيغة العزاء، أصغى إليها دهشا، أمى التى كانت تسمى أنقلبت إلى ماض.
يتساءل :

«هل يمكننا أن نشرب شايا ..»

أومى شاكرا، يغيب عنا، يعود حليق الذقن، رائحة عطر تنبعث منه، يصحبنا إلى البيت القريب، نقف عند المدخل، أواجه ضوء النهار، أول.نهار يخلو من أمى، أتابع سعى الخلق، هذا حزنى المتعثر لا يدرى أى سبيل يسلك؟ نشيخ، نواح، أم عويل؟ ينزل الحاج عوض، وعنده شبه عظيم بأبى، يضافحنى، يطالبنى بالشدة والجلد، يقول:

«أدت رسالتها كاملة .. وتركتكم رجالا ..»

أدت رسالتها؟ كل من يخاطبني يذكر التهمة والنهاية، ومع كل ذكر كأنى أفيق على ما جرى، يحيىء.الحاج يونس، أرى أيام قدومه من جهينة، قبل استقرار أمره وتيسر حاله، قيام أمى عند الفجر لتعد الشاى، والافطار قبل خروجه بصحبة أبى ساعيا فى هذه الدنيا، يقول جارنا إنه سيمضى إلى مقر عمله

ليستأذن في الغياب ، يقول صاحبي إنه سيمر بمقر عمله وينبئهم بما جرى حتى يرتبوا أمورهم بدونه في هذا اليوم ، سيلحق بنا ، إنما هي مسافة الطريق لا غير أركب العربة ، بجوار الحاج يونس يممص شفثيه أسفا ..
« يا سلام على الدنيا ! » .

لماذا قال ما قال ، أى باعث ! أولى وجهه صوب الطريق ، ماذا يفعل اسماعيل الآن وما يفصلنا عنه ليل ونهار ، الوقت عنده الآن ما بعد منتصف الليل ، رحيلها عندنا فجرا ، وعنده غروب ، كيف يتلقى النبأ ؟ أم أبذل المحاولة لإخفاء الأمر عنه ! ، تقترب السيارة من المرقد والثوى ، هنا أبى ، لكم جاءت أمى زائرة ، كانت تقعد فوق الحصيرة ، صامئة ، متطلعة إلى ما تجهل ، تضع أمامها ما جاءت به فطائر ، وبلح ، وفاكهة تمد يدها إلى الصغار المتوافدين عليها ، ما أضحيق المسافة ، وما أسرع المدة بين غيابه وغيابها ، لم تكتمل ثلاث سنوات بعد ، فيما جزعى ، بعد كم سألحق بها ؟ ، هذا عبده ، من حمل أبى ونزل به الدرجات الحجرية ، ومدده ، وفك رباط كفته ، يميل دانيا من نافذة السيارة ، يعرفنى ، لكم صافحته ، لكم استفسرت منه عما يجرى للجثمان ، يقول الحاج عوض :

« افتح العين الجديدة .. »

يستفسر عبده كأنه يدرى :

- الحريمى ؟ .

تستدير العربة بطيئة ، الطريق غير ممهدة ، ترابية ، وعرة ، كل حركة تقربنى ، وكل سعى يدنبنى من لحظة آتية لا ريب فيها ، ما تزال شقيقى تناديا أن تقوم ، كعادتها التى لم تنقطع منذ مجيئنا إلى الدنيا ، أن تضع حدا لهذا الكابوس ، أن تسأل عما نحتاج إليه ؟ أن تسعى ، أن تودع ، أن تنتظر ، أن

تلقانا ، أن تجلس ، أن تنظر إلينا كما اعتادت ، لكن .. ما من مصغ ، ما من
مجيب ..

صرخات حادة ، متقطعة ، تدخل إلى الصالة امرأة لا أعرفها تحمل سلة من
خوص تحوى قاشا أبيض ، وآخر أخضر ، ترانى فتطلق صرختين ، هذا من
لوازم عملها عند حانوق الناحية ، ظهر شاب فى أعقابها ، يحمل خشبة قوائمها
مثنية ، طلب ازاحة المقاعدة من الغرفة التى تتمدد بها أمى ، يفتل النظام ،
ينتقى الاتساق ، يخرج الشاب من الغرفة ، ينظر إلى ، يقول :

« هل سنمشى بمجرد الانتهاء »

يشير إلى الغرفة ، أومئ مجيبا .. نعم ، يقول بلهجة فيها حدة :

« يعنى لن تقول لى إن أشخاصا سيجيئون .. ويجب الأنتظار .. »

تطلعت إليه صامتا ، غير قادر على الجادلة ، نهره جاورنا الذى وصل لتوه
مسكا بشهادة رسمية تثبت وفاة الكريمة ..

« خلاص يا أحيينا .. »

فى الغرفة أزيحت الكنبية ، والمقعد ، والبساط العتيق ، وطويت المضادة ،
أما خشبة الحانوق فنصبت ومدت ، تقول بيهة امرأة صاحبي إن المياه لم
تتقطع ، ولكن للحيطلة ملأت عدة أوعية ، أصغى إليها ، إلى أصداء شتى
قادمة من بقاع بعيدة وأزمنة مندثرة ، ثقل لسانى ، وعاد إلى وجومى ، أنترك
كأننى أخطو فى فراغ ، أروح وأجىء ، أصغى إلى نواح نوال ، اتخذ بعدا
غامضا ، كأنه قادم من بعيد ، اقترب من الغرفة ، بيهة وأم محمد جارتنا ،
وأستاذة جامعية تسكن فى الطابق الأخير ، والمرأة الحانوتية ، يتهبآن لأداء
الواجب الأخير ، وكلهن معرفة السنوات الأخيرة ، وإحداهن مجهولة لم ترها
أمى أبدا ، ولم تسمع بها ، وفى مثل هذا الوقت من الأمس المنقرض كانت

تسمى فى ناحية ، وأمى فى ناحية ، والآن قدرهما أن يلتقيا عند تحوم الأبد ،
كشفن الغطاء عن الكريمة ، التى نخم على جهادها ، وصبرها ، وصمتها ،
وزهدها ، وتجردها واختفائها الكرب عنن تحب ، وضعها لم يتبدل ولن ،
مستسلمة بعد غياب الروح الحساس .

ذهبت اللحظات وبقى المعنى ، غابت الصورة وثبت الظل ، فهل ثمة فارق
بين ما هى عليه الآن قبل أن يطويها المثوى ، وبين ما ستكون عليه بعد عام أو
عامين أو مائة ، أم أن الأمر يستوى مند اغماضة العينين ، منذ بدء الاحتضار
وتمامه ، إذ يشتد الهول ويبدأ الحال الأعظم ، ويرى البصر ما لا يراه
المحيطون ، القائمون ، فالمت نزع ، والموت جهل ، والموت فراق ، وغيبة .
قال شيخى الأكبر الذى طالت غيبته عنى ، الموت فرع للمؤمن لما قدم من
إساءة ، وفرع للعارف لحماته من الخالق عند القدوم عليه ، وندم للكافر لفقد
المألوفات ، أقول إنه كم كمد لافتراقها القسرى عنن أجبت ورعت ، ومن لم
تطمئن عليهم بعد ، الغائب الذى لم يصل ، والصغيرة التى لم تزل بعد وحيدة ،
رلابن ذو العلة ، الفزع واحد وإن اختلفت المسببات

أقف عند باب الغرفة ، بطنها الذى كان أول موطنى ومحل تكوينى علا ،
أكبر حجما مما كان عليه عندما رأيتها أول مرة صباح هذا النهار ، الزيد الذى
غطى الشفتين انزاح إلى أسفل عند الدفن ، تميم قوامه ، وتلاشت فقاعاته ،
لا يملك الميت لنفسه ضرا ولا نفعا ، تلك كينونتها العدمية ، تنأى بالعزل لا
بالاعتزال ، تخضر بالعلم لا بالانتقال ، تغيب بالاحتجاب لا بالارتجال ،
لاشئ يمكن أن يظلمها ، ولا شئ تحتها فيقلها ، ولا شئ أمامها فيجدها ، ولا
وراءها فيدركها ، ذلك حسى ا .

تقرب هبة ، وأم محمد ، تبسطان الأيدى ، لا بد من حملها ونقلها

وتمددها فوق الخشبة التي اكتمل نصبها ، وتحتها وضعوا آنية فارغة من نحاس ،
تتراجمان ، الحمل ثقيل ، تشير بهية إلى ..
« تعال يا جمال .. ساعدنا »

لكن !!

بدر منى ما حيرني وبجيزني حتى زمن تدويني هذا ، إذا وليت وجهي ،
ونأيت ببصري ، لم أقدم على حملها هي التي حملتني مضغمة فعلمة فجنينا طفلا
فكبيراً مستويا ، هي من كان صدرها مرعاً ، وحجرها فراشي ! ، أعياني
تفسير ذلك فيما بعد ولت نفسى مرارا .. هل مبعث ذلك تقزز منها ، من
الموت ، من هودها ، أم أنه الخوف والخشية ، ألوذ بأخف تفسير يمكن الرضاء
به ، عدم احتالي الموقف الصعب ، لكن عبثا حاولت أن أهدئ نفسى .
« طيب .. تعال يا محمد .. »

يتقدم صاحبي ، ما بين صرير الفراش وصرير الخشبة انتقل الجثمان الهامد
من موضع إلى موضع ، تقول بهية :
« أخرج يا محمد »

قبل اغلاق الباب ، أشبع البصر عبر فراغ الحجرة ، أمى وجهها ناحيتي هل
تبدو ملامحها أكثر هدوءاً ؟ هل خفت تقلصاتنا ، وهذه الأوردة المنتفخة على
صفاء الجبين ؟ ربما .. وربما هلنا ما خيل إلى .

عند ركني عينها لمحت دمتين ، من أنفها سالت نقطتين لا يمكنها مسحها أو
إخفاؤها ، شأن الطفل إذ يقرربكاؤه . فتسيل أنفه ويتصل دمه ، قيل فيما بعد
إنها كانت تبكي أثناء غسلها ، إذ فارقت وأمنيات شتى لم تتحقق وأحباب كثير لم
تتل منهم طلة .

أطلت النظر ، تعلقت بملامحها ، هذه القسمات لن أراها أبداً ، لن تقع

عيناي عليها ، مستصبح مجرد مكونات لأخيلتي وذكرياتى المسترجمة إن طال بي
العمر ، وقد تهت فأعجز عن استعادتها وقد يحىء وقت لا تعاودنى حتى في
رؤى منامى ، هذه الملامح أمامى وغير كائنة ، تلك المعالم لن تكون ، انتهى
زمنها وبدأ رحيلها ، رحيل لن يوقفه أحد أبدا .

يتساءل أحد الأقارب :

« هل تعرفن الغسل الشرعى ؟ »

أجابته إحداهن ، لكنه راح يشرح كيفية صب الماء ، بأى عضو يجب
البدء ، تراجمت عن الباب المغلق ، نواح شقيقى دام ، رحت وجشت ،
وعنما صاحت إحداهن تطلب زجاجة ماء الورد ، خرج شقيقى على ممسكا
بها ، كان صامتا ، والكتان هنا خطر لذا خشيت عليه ، غير أنه ألقى فجأة
بالزجاجة أرضا ، جمر صارخا ، داما ، قال لى فيما بعد إنه اشترى قبل رحيل
أمتنا المهلهلة زجاجتين من ماء الورد عند زيارته لضريح الحبيب الحسين ، كانا
نذير شؤم ، لام نفسه ، قلت له ، تشامون وتشاء الأقدار .

أتوقف بجوار الصوان ، قالت شقيقى إن زجاجه طرشق فجأة قبل طلوع
الصبح ، ألوم نفسى ، لماذا أبلو متعجلا ، لماذا أود مواراتها بسرعة ، أهذا
نصيبها عندى ! وهنا أصغيت خائفا إلى صوت غريب ، لا يمت إلى أى من
الحاضرين :

« يا جبال ، قد ورد أن العجلة من الشيطان إلا فى ثلاث ، منها تجهيز

الميت ، ومن تجهيزه الاسراع به إلى مثواه .. »

على مهل أراه ، يستوى أمامى شيخى الأكبر محبى الدين ، غاب طويلا ،
إنما جاء فى هذا الوقت بالذات لينوب عن كثيرين ، ليخبر عن أشياء وليومئ
ملهما ، لم يره إلا أنا ، ولم يسمعه إلاى ، كنت أناطبه بالنظر ، فيجيبنى

لأصغى أنا وحدى ، استفسرت منه عن دليل ، كيف لا يجيء في لحظة كهذه ..

« منذ الآن إنما أنت دليل ذاتك ، فند أن تمت المصالحة لم يعد لك به حاجة .. » .

قلت :

« ولكنها مصالحة متأخرة .. »

قال :

« هنا تقدير .. »

ثم أمرني أن أبقى هوية دليلي سرا ، لا أطلع عليه أحدا ، ولا أصرح به ، ولا أذكره بسوء ، لم أستفسر ، فلا بد أن في الأمر سرا وسببا ، لماذا يلوح بين خصم أحزاني إحساس مهم أنني لن أرى الشيخ الأكبر ، وأن هذا تجليه الأخير عندي ، كأنه أدرك ما أفكر فيه ، هذا ما بدنا في عينيه ، لكنه لم يجئني ، لم يفسر لي ، إنما تلى في وعيي ، « إن ما توعدون لواقع » ، أمرني أن أفتح نوافذ البيت كلها ، فامتلت دون أن استفسر ، أومات وإن لم يلحظني أحد ، أتطلع إلى باب الغرفة المغلق ، غير أن قلبي ، غير موحد ، والقلوب كما علمني شيخني ثلاثة ، قلب مثل الجبل لا يزيله شيء ، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها ، وقلب كالريشة يميل مع الريح يمينا وشمالا ، وقلبي أنا كالنخلة ، جذعه راسخ لكنه يميل مع كل هبوب ، هينا كان ، أو صرصرا عاتيا .

يتطلع شيخني الأكبر إلى الأرض ، يتبع نظره ، الماء يتسرب من تحت باب الغرفة ، كل قطرة منه لامست الكريمة ، هذا الوجه المولى جهتي ، والنم المزموم ، وآثار الترع ، يحيط الماء شيخني من كل جهة ، لكنه لا يفارق ، ولا يرحح ، تمضي اللحظات ، وهن الوقت ، فلا يسرع ولا يببطيء ، صمت من

ورائه نهار حار ثقيل ، تخرج أم محمد :

« ادخل وسلم على أمك .. »

التفت إلى مولاي محبي الدين ، لا يدرى أحد إلى من أنظر ، ولا من أستشير ، فلم إذن تقدمت ؟ ، مغطاة تماما ، « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » ، ملفوفة في كفن أخضر وأبيض ، والكفن للميت كاللباس للمصلى ما يصلح عليه لا فيه ، ما يحول بينه وبين الأرض ، تقول المرأة :

« قل ساعحتك يا أمى .. »

أنا ، أساعها أنا ؟ ، قال أبي قبل رحيله « ساعوني » ، أنحن من نسامح ! ؟ أم نحن الذين يجب أن نرجو السماح والمغفرة لتقصيرنا ، ولما أتيناها في حقها بقصد وبدون قصد ، لم يطاوعني لساني ، فكررت المرأة :

« قل ساعحتك يا أمى .. »

لفظ لساني ما صح عندي ..

« بساعيني يا أمى »

فكأنى الميت ، هممت بالتراجع ، غير أن المرأة كررت :

« قل ساعحتك يا أمى .. »

رددت :

« بساعيني يا أمى .. أنا مساعحك .. »

دخلت نوال ، جاء على ، ظهر الخانوق الشاب المتعجل ، حملوها ، لم أدر ، لم أدق من ؟ ، وقتت قريبا من أختي المتتعة ، وعندما مروا بأمتنا أمامها . مدت يديها تروم امساکها ، تبغى إيقافهم ، لكن من يحوش ، من يمنع ! ، هذا لاراد له أبدا .

قلت راجيا :

« لا نريد لأمننا البهدلة .. »

فجأة ، تهزول أم محمد ، تلطم وجتها صارخة :

« مع السلامة يا أميرة .. مع السلامة يا مجاهدة .. »

أنزل السلم منحنيا ، وضموها داخل النعش الذى أسندوه أمام المدخل ، دفعوا به وبها إلى جوف العربة ، لم تمش ورائها ، لم تنتظم صفوف ، اكتمل الركب فى هذه السيارة ، ركبت عربة صاحبي .

الظهيرة تدنو ، يقظ يوليو يشتد ، هجير ، والطريق شبه خاوية على غير العادة ، كنا ثمانية من عالم الجس ، وواحد من عالم الغيب ، أما اللمانية فهم أقارب ثلاثة انقطع عهدهما بهم منذ أمد بعيد ، وجاران لم تعرف منهما إلا الاسم ، وصاحبان لى أعرفها بقدر ، وأخى ، أما الذى جاء من حيث لا يمكن لى أن أعرف أو أدرى فهو مولاي الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، هؤلاء من سعوا خلفها ، من ودعوا عند سفرها الأخير ، من الشرفة انبعث صرخات أختى ، الشرفة ذاتها التى وقفت فيها وأطلت منها قبل ساعات ، انطوى الليل ، وطلعت الشمس على دنيا خلت منها ، وأسمى الآن فى وداعها ..

قبل ركوبنا ، قال أحد الأقارب :

« هل أوصت بالصلاة عليها فى مسجد بعينه . »

قلت : لا .

قال الحانوتى الشاب :

« مسجد السيدة عائشة فى طريقنا ، لو دخلنا إلى مسجد السيدة زينب أو

الحسين سنحتاج وقتا .. اليوم سبت والزحام شديد فى البلد . »

لماذا لم أصر على الصلاة عليها عند ضريح الحبيب ومثواه القاهرى ؟ لماذا

لزمت الصمت ؟ أمنا لعجلتي ؟ لماذا فكرت في السفر الذي كان يجب أن أبدأه بعد ساعات ؟ لماذا ؟ هل انتابني طيف ضيق وندم لامتناع سفري ؟ هنا ما أرتقي زينا ، خاصة أنني قارنت بين حزني الأشد على رحيل الوالد ، وبين آلامي التي بدأت فجر هذا السبت ، فهل اعتدت الموت وتأهبت له ، أم أن في الأمر قضية ؟

قطعنا طريق صلاح سالم الممتد خارج المدينة ، عند القلعة لحت بين زحام العربات وتدافعها المركبة التي تحمل جثمانها ، لحت الشيخ الأكبر يلزمها ، يمشي إلى جوارها طاويا المسافة بخطى يشق على تفسيرها . في هذه العربة نعش .. يحتوى خفوت أمي وهودها ..

كأنى أدرك ذلك أول مرة ، بنا الأمر مستحصيا على التصديق ، فبدأت بث حزني ، اندلع نواحى ، ممتدا ، مرا ، وعندما توقفت العربة نزلت سارعت للمشاركة في حملها ، أقبل مجهولون ، أناس لا أعرفهم ، لم ترهم أمي أبدا ، تناوبوا حملها ، داخل المسجد المذر بالظلال العتيقة جاء آخرون ، اصطفوا أمام النعش ، مال على شيخى الأكبر ، ولما كنت أجهل صلاة الجنائز ، لفتنى ما يجب أن أعمله ، قال : لا ركوع ، بل قيام ، وكل وقوف له تكبيرة . علمنى رفع الأيدي عند كل تكبيرة ، إذ أن رفعها يؤذن بالافتقار ، يقول المصلى على الميت ، هذه أيدينا قد رفعناها إليك في كل حال ، ليس فيها شيء ، ولا تملك شيئا ، علمنى التكتيف إذ أنه شافعى والشافعى سائل ، والسؤال حال ذلة وافتقار فيما يسأل فيه ، سواء كان ذلك السؤال في حق نفسه أو حق غيره ، فالسائل في حق الغير ، هو نائب في سؤاله عن ذلك الغير ، فلا بد أن يقف موقف الذلة والحاجة لما هو مقتر إليه فيه ، علمنى التكتيف ، وهو صفة الضعفاء الذين لا يمكنهم تبديل الأمر ، وصفته وضع اليد على الأخرى ،

بالقبض على ظهر الكف والرسغ والساعد ، فيشبه أخذ العهد ، في الجمع بين اليدين ، يد المعاهد والمعاهد ، أى أخذت علينا العهد أن ندهوك ، وأخذنا عليك العهد بكرمك في أن تجيبنا ، « وإذا سألك عبادى عنى فأبى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

علمنى قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى ، والصلاة على الحبيب المصطفى بعد التكبيرة الثانية ، والدعاء بعد الثالثة ، « اللهم أبدل له دارا خيرا من داره » ، قال لى شيخى : المصلى داع أبدا ، والمصلى عليه ميت أو نام أبدا ، فن نام بنفسه فهو ميت ، ومن مات بره فهو نام نومة العروس والحلق ينوب عنه

هكذا لقننى ، ثم قال لى : لا بد من الخير ولو بعد حين ! ، ثم قال لى : إن الميت قد يرى في الطريق أهوالا عظاما ، لهذا ينبغى أن تكون الشفاعة له ، قال لى : فإذا فرغت فانصب .

أسارع إلى حمل النعش مع الحاملين ، أعود إلى مقعدى في العربة ، المثوى قرب ، أقطع الخطى الأخيرة ، يشتد أنبى ، يتعاطم وعبى ، إنها النهاية ، ألفظ باكيا « يا خرابى » ، أطم وجنتى ، يطالغنى الشيخ الأكبر لائها ، يقول بالصمت ، ألهذا جنتك ؟ ، غير أننى لم أكف ، لم أتوقف ، نزلت مترجلا ، كف نواحى ، رأيت مقاعد مصفوفة ، المدخل المؤدى إلى داخل المقبرة مفتوح ، بداية درجات حجرية تغيب بقيتها عن النظر ، لم أدر ماذا يجرى ، لمحت انصراف الحانوتى الشاب ، سمعت محرك العربة عندما أقفلت راجمة ، رجلاان يحملانها ، رائحة ماء الورد الذى ضمخت به قوية ، يتقدمان باتجاه الفوهة ، أراها محمولة ، لم أرها إلا ساعية ، لم أرها إلا ماشية ، في الطريق الجاور لضريح الحبيب ، بمفردها تشتري خبزا لنا ، بمفردها تصحب أخى على

إلى الطبيب ، إلى جوارى صامته ، مستسلمة عندما شك الأطباء أن ورما في صدرها ، بمفردها إلى الحاج فؤاد تفاوضه على تقسيط ثمن أريكة وصوان قديم ، إلى جوار أبي عند اعتقالي ، يذهب إلى أحد المعارف ، تبقى منتظرة نبأ عن ضناها الغائب ، أراها طفلة تعدو عبر الزمن العتيق ، واقفة ، متطلعة ، منتظرة قدوم أجدنا ما زاغ البصر وما طغى .

تروح وتجيء ، فرحة نشطة عند قدومي بصحبة حفيديها ، تلك طلعتها ، وهذه نظرتها ، واللحظة الأولى لظهورها ، وذلك سلامها ، أصغيت إلى صوت غنائها ، والغناء يعني ذروة انفرادها ، وتوحدتها ، وهجرتها الداخلية إلى مالا أعلمه ولن ، أراها في هيئة لم أعهدها ، لم تمر بي أبدا ، قاعدة ، تمد إحدى ساقها وتنتي الأخرى ، تنظر نظرة جانبية ، مجللة بسواد غريب ، محمرة العينين ، باكية ، متحسرة على فراقنا ، فهذه هيئة ما بعد الرحيل ، والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، إنما هو وحى يوحى ، ها هي ذى تبدأ سعيها أجهل كنه ، رحلة لا أعرفها ، ألم يقل عز من قائل « إلى ربك الرجعى » ، فالرجعى تستلزم السعى ، الرجعى تعنى قطع اللامسافات التى لا أدرى من أمرها شيئا ، « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » .

هذا تاريخه بأكمله يغيب ، يتوارى عني ، جذرى يأفل ، وأصل كينونتي وأول موطنى ، أقوم على مهل ، محذقا ، محاولا اختراق الحجب ، مجاهدا لمعرفة السبب ، أقرب الحبيبة ، المجاهدة تغيب شيئا فشيئا ، فمن جاء ، ومن رحل ، من أعطى ومن أخذ ، من أقبل ، ومن رجع ؟!

أشير بسبابتى إلى فراغ عقيم ، لا تصلنى منه إشارة ، غير أنى مدرك ، موقف ، هو وجود كل شيء ، المقصود فى كل شيء ، المترجم عنه فى كل شيء ، الظاهر عند ظهور كل شيء ، الباطن عند فقد كل شيء ، الأول من

كل شيء ، الآخر من كل شيء ، يتدفق جعيرى ، لكن أنى لى يابقاف الدهر ،
الدهر الذى لاراد له ، من تنعدم عنده الأمكنة والبقاع . اللحظات والأزمنة ،
أنى لى بوضع حد لذلك الذى أوجدها ، وغاب بها ، وسيمحو أحزاني عليها .
أنقلب من حيث جئت ، إلى نفس ما مر به أصل قبل تبدده وتوزعه بعد
أن أفشى ا تبدل على المشاعر وتعاقب ، أهوى قابضا على التراب ، نائرا ذراته
فوق رأسى ، يمسك بى الشيخ الأكبر ، يمسك بى الأقارب وصاحبى والقوم ،
أقمى جانبا متطلعا إلى شىخى ، يبدو غاضبا ، غير أننى لا أعبا ، لا يوقننى
إيماء ، أو همس ، ولا يمنعنى ردع ، أو تلويح بتهديد ، أقول بصوت مرتفع غير
عابئ بمن يحيطون بى ، جاهلين من أعطاب ، « لن أكون ذلك الذى وصفته
أبدا ، لماذا تناقض ذاتك بذاتك ، ألت القائل ، ألت المتسائل ، من أقهر
الناس لنفسه ؟ ألت الحبيب على تساؤلك بنفسك ، إنه الراضى بالمقدور ،
فلماذا تريد منى ذلك الآن ، لماذا ؟ لست أنا ، ولن أكون .
يرفع يده ، بينا يمد القوم أيديهم ليمسكوا بى ، يحولون بينى وبين التراب ،
يختلط جعيرى بنواحي ، فما قلته ذلك الذى لم أقله ، وما لم أقله ذلك الذى
قلته ، فأين المفر ، أين المفر ؟ .

عند هذا الحد أضطر إلى التوقف ، فلم يكن بوسعى إلا الامتثال ، بعد أن
بدأت صبرورقى تلقى ما لا قبل لى بوصفه أو التعبير عنه ، لذا أنهى هذا السفر
على غير رغبة منى ، أما إذا سنحت الفرصة ، وسمحت الوسيلة ، فربما جمعت
ما تبدد ، وللمت ما تشظى ، على أصوغ يوماً القول والمحاطبات والسرائر ،
فينكشف من السر قدر جلال ، أما الآن ، فأدنوا منى ، وحنوا على ، فققدانى
قريب ، ولا تبخلوا بدموعكم لتكون تأنيسا فى وحشتى ، ورحمة لى فى غربتى التى
لا تنتهى إلا لتبدأ ، ولا تنقطع إلا لتتصل ، فياحسرنى على القرب بعد بدء البعاد .

كان الفراغ منه ليلة الاثنين الموافق سادس إبريل ، ألف وتسعمائة ستة
وثمانين المتقضى على ميلاد السيد المسيح ، السابع والعشرين من
رجب ، عام ألف وأربعمائة وستة المتقضى على هجرة من لانت له
الأرض ، وظلته الغامة ، وبكى النزال بين يديه .
فبادروا ! .

١٩٨٠ - ١٩٨٦

الفهرس

	التجليات الأولى
٩	وهى تجليات الفراق
٢٥	ومنها تجليات الديوانية
٤١	ومنها تجليات الأسفار
٤٣	السفر الأول
٤٣	سفر الميلاد
٦١	تجليات الأسفار ومنها أسفارُ الغربة
١٤٥	المواقف
٢٥٧	السفر الثاني
٢٨٥	مقام الاغتراب
٣٨٣	مقام الضنا
٤٠٥	مقام القُرْبى
٤٣٣	مقام الحزن
٤٥٩	سريان بين مقامين
٤٧٣	مقام الجوى
٤٩٧	« .. منتهى .. »
٥٠٣	السفر الثالث
٥٣٣	حال الوداد
٥٥٩	حال القوت
٦٥٩	حال الجهات الأربع
٧٨٣	حال الوداع



● أى كتاب هائل هو كتاب التجليات، هو كتاب يحكى لنا من أسرار الحياة قدراً عظيماً، إنه عمل أدبى خطير يستخدم فيه الكاتب أسلوباً له مذاق خمر جاءت قبل أن تخلق أشجار الكرم.

احمد بهجت

● الحق أن بنية التجليات بأسلوبها والعلاقة بين عناصرها، تُشكل ظاهرة جديدة فى أدبنا المعاصر.

محمود امين العالم

● الغيطانى كاتب جاد يعانى فيما يريد أن يقول ويطرق أشد دروب المعاناة فى محاولة للوعى والإدراك ثم يعانى بعد ذلك فى الحرفة الفنية.

د. عبدالمحسن طه بدر

● فى التجليات يسعى الغيطانى إلى تحقيق شكل فنى تجرىدى يقوم على أساس تحطيم بنية الشكل التقليدى فى الكتابة الروائية.

بشير القمى - المغرب

● كتاب التجليات خطوة كبيرة فى الرواية العربية على طريق تحقيق ملامحها الخاصة وخصوصيتها القومية فى أن، فهى من الأصالة فى موقع الرقص الهندى من أديان الهند، وفى موقع التمسك اليابانى بعلم الجمال القومى.

د. نوفل نيوف - دمشق